بولس الرسول

«للكاتب جوزيف هولزنر»

ترجمة
البطريرك الياس الرابع

طبعة ثانية
مزيدة ومرفقة باللوحات والخرائط

منشورات
معهد القديس يوحنا الدمشقي
اللاهوتي - البلمند

بولس الرسول

«للكاتب جوزيف هولزنر»

ترجمة
البطريرك الياس الرابع

طبعة ثانية
مزيدة ومرفقة باللوحات والخرائط

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
١٩٨٦

مقدمة الطبعة الثانية

بعد أن نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أحسست بضرورة اعادة نشره لما يحمل في طياته من ترجمة رائعة لحياة رسول الأمم. ورغم أن هذا الكتاب وضع منذ أكثر من نصف قرن، فإنه ما زال يقدّم للقارئ المعاصر عرضاً حياً ودقيقاً لحياة هذا الرسول. والدليل على جدته هو اصدار الطبعات المتعدّدة بلغته الأصلية وبترجمات مختلفة، فهو ما زال مفخرة من مفاخر التأليف والترجمة لحياة الرسول العظيم. في هذه الطبعة أضيفت ملاحق وخرائط ولوحات تغني كثيراً المحتوى المنشور في الطبعة الأولى.

أخيراً لا بدّ من أن أزجي الشكر خالصاً الى الأب ميشال نجم الذي نقل الى العربية كلّ الإضافات التي وضعت في هذه الطبعة والى السيدة سميرة عطية التي ساهمت في وضع أرقام الحواشي واللوحات داخل النص العربي.

البلمند ١٥/ ١/ ١٩٨٥

المطران **قسطنطين باباستفانو**

مقدمة المؤلف

ابتدأ الشكل الروحي للكنيسة المعاصرة يتخذ مميزات مسيحية القرون الأولى، وفقاً للأزمنة الرؤيوية* الحالية. فهناك اربعة اتجاهات دينية تعطي لكنيسة اليوم تعبيرها الواضح، وهذه الاتجاهات متأثّرة ببولس. فالحركة الليتورجية والأفخاريستية يغذيها الاعلاء من شأن التسبيح وتغذيها كذلك صوفية بولس. لكنّ الحركة التبشيرية التي تهمّهم كتنفس عميق لعنصرة جديدة، وحركة التآلف مع الكتاب المقدس التي تزداد في كلّ البلاد تأخذان نورهما من شخصية بولس. وكلّما ابتعد التبشير عن روح بولس صار أكثر تقيّداً. وكلّما رجع اليه تجدّد واتّخذ قوة جديدة.

بادئ ذي بدء لا يقدر الحماس الذي تظهره أيامنا للكتاب المقدس أن يطرح بولس جانباً. والحق أن عنده بعض بقايا الطريقة الربانية في تفسير الكتاب. لكنّ عظمته أي طريقته الروحية التي تنظر الى الأمور نظرة روحية وتعطي معنى لكلّ شيء والتي منها تأخذ الأمور قيمتها وترتيبها هي في المسيح. فخبرته مع المسيح وتعليمه عن الشركة الصوفية معه، اللتان يعبّر عنهما بهذه العبارة الوجيزة «في المسيح»، تفعل فعل حجر المغنطيس في كلّ أمور الحياة ومشاكلها ومضايقها وتعطي لمعارفها مركزها

* الرؤيوية: أي رؤيا القيامة، أو ما يتعلّق بنهاية العالم وحدوث القيامة.

الصحيح . وهذا التركيز للنظر على المسيح الحي ، حتى يحيا في الكلمة الالهية الموحى بها في الكتاب المقدس ، والتركيز على أسرار العبادة وعلى المثل الروحي الموجود في العنصرة التي في أيامنا وعلى الحركة التبشرية وأخيراً على شهادة الكنيسة أيضاً التي تنتشر في اجزاء كثيرة من عالمنا الملطخ بالدم يقدر وينبغي أن يحفظ حياتنا الدينية من التفتّت والتعقيد وان يعطيها عظمة المسيحية الأولى وبساطتها .

هذه هي وجهات النظر والاتجاهات التي تقدر أن تبرّر المحاولة الجديدة لتدوين سيرة بولس . ورغم الهدف العملي لكتابي ظننت أنه لا يُسْمح لي أن اتجاهل أيّ بحث متقن ظهر في المادة الثقافية والتاريخية ، حتى يُفْهَم بولس وعمله بشكل أفضل عند مراعاة الخلفية التاريخية لعصره . فالعلاقة التاريخية — الثقافية أي التشابه الخارجي في «الحرف» يجب ألا يخدعنا فيما يختص بالتعارض العميق ، الذي استطاع الروح وحده أن ينتصر عليه . وهكذا يفهم المرء بوضوح أهمية ما يظهره باحث الماني بكلماته : «ان الرواقية سادت خمسمائة سنة قديماً ومع ذلك لم تقدر أن توقف في أيّ مكان الإنحطاطَ الخلقي والديني عند الشعوب القديمة . أمّا الرسالة الى أهل رومة فهي محراث فلح بعمق أكثر من أفكار أبيكتيتس ، وهي فوق ذلك حدث تاريخي عالمي ، (Alb Dieterich) تحت ضوء هذا الحدث يلهب أنفسنا نحن المسيحيين المعاصرين الواجب في أن نُحيي فينا قوى العصر المسيحي الأول وفي أن نضيء «كأنوار في العالم» (فيلبي ٢ : ١٥) .

مقدمة
الطبعة الثالثة حتى العاشرة

ان أكبر حدث في تاريخ الروح الانسانية هو في كيفية اكتساب الأزمنة الكلاسيكية للطريقة المسيحية في التفكير والحياة. فليس غريباً أن يكون البحث الديني — التاريخي عاجزاً عن ترك تلك الشخصية العملاقة التي بدأت عملية التمثيل واعطته دفعاً قوياً. فالاهتمام الفريد بشخصية بولس وبعالم أفكاره ساعد في تدوين سيرة حياته وفي جعل الطبعات المتكررة ضرورية. هذا الاهتمام يعبّر عن شعور يقترب من الحياة المسيحية الأولى المليئة «بالجدّة» وهو أننا نعيش في منعطف تاريخي غريب أو في نهاية أحدى الحضارات.

ما المطلب الأساسي في عصرنا هو البحث العلمي الدقيق الذي تخصّصت به الأجيال الماضية بل بالاحرى احياء واضاءة العصور الكبيرة وأشكالها في وحدتها التي لا تنقسم والتي تنعكس في آلاف المميزات المتعدّدة. لذلك حاول المؤلف أن ينظر الى هذا الكتاب من وجهة نظر حضارية وتاريخية ودينية وأن يقدّمه ضمن بحث جديد وتطوير حديث، اذ أكمله بحواش وملاحق طويلة. وحاول أن يفي كلّ الدلائل والاشارات والرغبات في اصلاحه حقها من خلال ما قدّمه النقد الأصيل. مشجع ومفرح جداً هو الاعتراف القلبي الذي قدّمه بحنّاثة اختصاصيون بارزون امثال P.A. Vitti أستاذ في المؤسسة البابوية القداسية في روما و K. Prümm الذي يشكّل كتابه

«المسيحية كعيش للجدّة» Christentum als Neuheitserlebnis نوعاً فريداً من التعليق على بولس ولذلك يُنْصَح به لكلّ ذي اهتمام علمي.

ان الكاتب لم يشأ أن يقدّم طبعته الجديدة الى الملأ دون أن يظهر كم هو مدين لأسلافه من كاثوليك وانجيليين على السواء في اشارات قيّمة وفي جوهر الكتاب وشكله. فهو مدين مثلاً للهولندي Van Tichelen ولـ L. Schneller رائد تدوين السير الكتابية الذي يستحق كلّ احترام، ومدين كذلك للمفسرين الانكليزيين في المدرسة الانكليكانية الكاثوليكية. فللكاتب أصدقاء أوفياء من ممثلي هذه المدرسة. أخيراً يجب أن أشكر بحرارة دار النشر التي بذلت اهتماماً لا يعرف التعب بالكتاب وبترتيبه وبالخطاط الذي رسم الخرائط وهو السيد Peter Stöttner المستحق الشرف.

٢٥ تشرين الأول ١٩٣٩

الكاتب

مقدمة

الطبعتين العشرين والواحد والعشرين

كتبت في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب (١٩٣٩) ما يأتي: «ابتدأ الشكل الروحي للكنيسة المعاصرة يتخذ مميزات مسيحية القرون الأولى، وفقاً للأزمنة الرؤيويّة الحالية». ومنذ ذلك الوقت مرت عشر سنوات أي فترة زمنية استطاع فيها عدد قليل من الكتب أن يحتفظ بقيمته وسط الظروف الحالية. لكن عندما تظهر الأمور مختلفة بالنسبة الى هذا الكتاب وعندما تزداد الدعوات الملحة والعديدة الى اعادة طبعه فهذا دليل على أن الاهتمام بسنوات الشباب عند المسيحية والحاجة الى الراحة النفسية امام الصور البطولية والمقدسة والتاريخية يجيبان عن حاجة عصرنا العميقة التي تكاد أن تُنتزع مفاصلها.

في هذه الظروف الصعبة من التاريخ يجاهد الانسان من أجل تأمين الضرورات المادية والروحية. ما نحتاج اليه اليوم هو الحياة الداخلية، حياة النفس حتى نخرج من الطريق المسدود ومن نقص في التمدّن ومن العراك الدنيوي. فالأصل العميق لمصيبة الانسان هو الردة والكفر وخيانة كيانه الداخلي. لكن هناك أمر واحد يقدر أن يخلّصنا وهو العودة الى الداخل. فلنعد الى أنفسنا والى مبدئنا الحي وها قد فتحت النفس المسيحية عينيها.

في ذلك العصر البطولي من المسيحية يظهر بولس كأحد قادة النفوس الخبراء.

فـي كلّ انحرافات التاريخ يرتفع وجهه التبشيري بدعوته المنبّهة «يسوع المسيح هو هو بالامس واليوم والى الأبد» (عبرانيين ١٣ : ٨) وببشارته الاجتماعية الداعية الى المصالحة الوطنية والكونية : «ولا فرق الآن بين يهودي ويوناني بين عبد وحرّ بين رجل وامرأة ، فأنتم كلّكم واحد في المسيح يسوع» (غلا ٣ : ٣٨).

تبزغ اليوم حركة مسيحية شعبية ، فعسى بولس الذي أحاطت به مجموعة من الأصدقاء والمعاونين ليساعدوه في عمله الرسولي يحث نفوس الشباب ليعملوا من أجل كنيسة قريبة من الشعب ومرتكزة على الثقة به وبمحبته . فهو يكتسب قوى جديدة من التأثير المتبادل بين الاكليروس والشعب ومن محبة أولاده الفقراء واعضائه العاملين . ليت العصر الجديد للمنطلق الاجتماعي يوجد تحت راية قائد حركة الشباب العظيمة في كلّ العصور أي تحت راية الرسول السائح ورفيق درب كلّ المبشرين وصانع الخيام أعني به بولس الطرسوسي.

أيار ١٩٤٧

الكاتب

مقدّمة المترجم

العالم الحاضر، هذا السديم من الأهواء والمنازع يحتاج إلى من يثبّت قلبه في الطمأنينة، ويركّز أقدامه في طريق الخلاص ويفتح بصيرته، بنور الإيمان الواعي، على عالمٍ لا وجود فيه لظلمات، ويغمر أعماقه بفيض النعمة الإلهية، ويعيد إليه الثقة بقدرته على إعادة ترميم ذاته، وتحريره من هوج الأهواء، وصفاقة الكبرياء، وولادته من جديد بالإيمان بالله، وبمحبّته لمن جبله على صورته ومثاله، لتكوين خليقة ملوكيّة، تحقّق خلودها بحريتها وإرادتها. ومَن كبولس، هذه القوة الروحية الخارقة التي اختارها ابن الله المتجسّد، لتكوين صوته الدّافئ، ولسانه المشتعل بالنعمة، وقلبه النّابض بالمحبّة، وإرادته المشحوذة على فولاذة العدل، وفكره الغائص في عالم الألوهة. من كبولس لمثل هذه الرسالة في عالمٍ خسر خلوده بالكبرياء، وضلّ طريقه بالمعصية، وغرق في ديجور عبادة أصنام خطاياه وشروده، فضجّت الأصنام بإثمها، وضجّ الإنسان بما خلقته كبرياؤه، واحترق في سعير الجحيم الذي أوقدته المعصية! من كبولس هذه القوة الروحية لمثل هذه الرسالة المضنية، رسالة مسح الجراح الثخينة، ومحو الندوب التي تركتها الخطايا في هيكل الله المقدّس، وبتر زوائد الأهواء واستئصالها من الخيال المعطى إلهياً للنفس للتحليق، ورؤية ما لا يراه الجسد في مسيره، في عالم الأرض، نحو عالم الكشوفات السماوية، من كبولس يقلب مفاهيم الحياة، ويركّز كيانها في الطريق المعدّة للأبرار القديسين.

سهلٌ أن تقلب وجه العالم الترابي، وأن تغير كلّ معالمه. سهلٌ أن تنقل الجبال وأن تجفّف مياه المحيطات. أمّا أن تقلب عالم الإنسان الدّاخلي، أن تحوِّل ظلمته إلى نور وخطيئته إلى صلاح، وموته إلى حياة، أن تجعله يولد من جديد، فدون ذلك أخطار ومتاعب وعرق وعذاب. الإنسان إله على الأرض خلقه إله يملأ الكون ويخلق الخلود. الإنسان يفكّر كإلهٍ ويعمل كدودة تدبّ على الأرض. المطلوب هو ربط عالميه الفكري — الإلهي والإنساني، المطلوب إعادة الخلود إلى الكون الذي يمثّل الجسد البشري قمّته الفنية، المطلوب زرع

الحرية الحقيقية في اندفاعات الجسد وبذر الأزلية محل مجاري الفناء الحاصلة بالخطيئة، المطلوب تحريره من رطانة الأرض وتجهيزه للتشيد الذي انطلق بعد الغلبة على الموت بالصليب. ولادة الإنسان في الروح تفرض نكران الذّات، تفرض العيش بالمحبّة، تفرض استيعاب مضمونه الالهي فكرياً وإرادياً بالإيمان والمحبّة لاستيعاب كمال الألوهة بالحرية والإرادة، تفرض الإرتداد من الشكل إلى المعنى لتنفتح الصورة بالنعمة لتفاعل خير ثماره الحرية ومردوده نحو النقاوة لينتهي بنور ويتمّ التفاعل في نطاق الحركة الإلهية العاملة في صورتنا من أجل الخلود بخلودها الكامل.

بولس، هذا التراب الذي كان يمور بالفناء العاتي والأهواء المتصلّفة، يحوله الله في لحظة إلى إنسانٍ آخر، إنسان يعي مصيره ويدرك حقيقته. في حوارٍ يحمل كلّ طابع المأساة، في حوار بينه وبين المخلص الذي جاء يضطهده، في حوار لا يتعدّى اللحظات الخاطفة يتصفّى عالمه القديم بأوهامه وخيالاته وينحصر في قشرة سوداء حجبت عينيه عن رؤية العالم لتنفتح بضيرته على عالم كان يفهمه ناموساً متحجراً خالياً من كلّ خفقة سماوية. في هذه اللحظة الخاطفة أدرك مقدار ابتعاده عن الحقيقة التي ظهرت له نوراً يخطف الأبصار. وفي غمرة من الصمت، في غمرة من الإنزواء المنسحق الذي يمثّل الموت الإختياري انزلقت أفكار للموت وولدت أفكار للحياة فكان هذا المرسل، هذه الشخصيّة العجيبة التي اختطفت إلى السماوات ونقلت كلمات سرية، رسالة فيها عمق معنى التجسّد الإلهي وغاياته وأبعاده واتساع أزليّته وقداسة مراميه وأهدافه رسالة الخلاص والإنعتاق، رسالة القدرة على تحويل الإنسان من مخلوق إلى مولود بالنعمة، إلى كلمة مولودة مساوية له في الفعل والأزليّة. وهكذا في حوار مزدوج دائم، حوار الرسول مع مرسله يبعث الرجاء والاطمئنان والثقة ويزيد في طاقات العمل الروحية وحوار مع ابناء الله الضالين، حوار يستهدف عملية خلاصيّة تتحطّم فيها الأصنام الفكرية، وتتركّز في أعماق القلب الإنساني الرحمة والغفران والمحبّة والعدالة الإنسانيّة والإيمان الرّاسخ بدعوة الإنسان الإلهية كقواعد ثابتة لعلاقات البشر المتبادلة وكمنطلق للدخول بالأسرار الإلهية بالآب والإبن والروح القدس إلى مدينة الله للإشتراك بكلّ مضمون الألوهة التي خسرها بالخطيئة والمعصية.

عالم المسيح يلخّصه التواضع. التواضع هو الباب الأوّل إلى المسيحيّة. البطن للولادة الروحية هو المعمودية أمّا الباب فهو التواضع. في المعموديّة تواضع حتّى الموت، وفي

التواضع انسحاق لبقاء عطايا المعمودية في حالة نموّها، في الحياة المسيحيّة تواضع لأنّها تستهدف السمو بالإنسان. الكبرياء هي سبب السقطة والبقاء في التواضع هو البقاء في سماحة الروح وبساطتها وسموّها، وكانت أوّل عملية في ارتداد بولس عمليّة معرفة نفسه، عملية التنكّر لكبريائه، عملية العودة إلى تواضع الروح. من أنت يا من تضطهدني؟ إن تراباً يحرّكه الغرور لا يمكن أن يقاوم الحقيقة وعيناً تطفيها ذرة تراب لا يمكن أن تقاوم مُنافساً. من أنت! أكبرياء أنت؟ أنت شريد تائه. ويدور شاول في أعماق نفسه ليرى أن من جاء ليضطهده قد استولى على كيانه وصار صلباً من حياته. أخذ يكتسح وجوده، لقد تحوّل الإناء الترابي إلى إناء يفيض بالطيب ولاحت شمسٌ لم يكن يألف نورها ودفأها. كلّ شيء قد انهار في داخل المضطهد. لم يبق في تلك الأعماق إلّا هذه الصورة النيّرة، هذا المشهد الذي قاده إلى الباب الملوكي ليدخل إلى العلية المقدّسة آمناً مطمئناً برضا المخلص الذي حفظه وسط الضيقات ونجّاه مراراً من الموت خدمة للرسالة التي وضعها واثقاً على عاتقه. يا لقدرة الإنسان إذا استمرّ متّشحاً ثوب النعمة. إنّه يحول الصورة الإلهية إلى ألوهة حقيقيّة. إنّه يصبح إلهاً متجسّداً يترجم إرادة أبيه السماوي.

يحتاج العالم الحاضر إلى أصوات مقدّسة تنسكب في أذنيه وتحرّك أعماقه بالنشائد فيتحوّل بالقداسة إلى عاملٍ يبني صرح ملكوته بلبنات روحيّة يقطعها من مقالع بهاء الصورة المشرقة بالخير والمحبّة. ومن كصوت بولس. من كأتعابه وجهاداته وعرقه واضطهاداته ومحبّته وإيمانه، هذه الأصوات التي بقيت في التّاريخ وتبقى أصواتاً مقدّسة تخاطب أجمل ما في أعماق الإنسان ليسمو ويصعد درجات الملكوت؟ من كبولس قدوة للإنسان المثخن بالجراح المتروك على قارعة الطريق محطّماً؟ من كرسول الكلمة يحمل الكلمة المعزّية المبدعة الخلّاقة للإنسان الظّامئ للمحبّة لتخلّصه، وللرحمة لتعزيه، ولضمادات الشفقة لتضمّد جراحاته. من كهذا الإنسان الذي حمل صليب المسيح ناكراً ذاته فرأى من وراء الصلب كلّ ملكوت الإله المتجسّد. من كهذا السمير في ليالي الأرق والضنى وهذه اليد المخمليّة تمسح عن جبين الفكر القلق قلقه واضطرابه! من كرجائه ينساب في دياميس اليأس: يأسه ويأس البشر فيحولها إلى خضرة رجاء يغمره الجمال! بولس هذه القدرة الإلهية الهائلة من التفكير الخالد، فكك كلّ الافكار القديمة، وجرّدها من كلّ فنائها، وولدها من جديد بالنعمة، وألقاها بذاراً للعالم الجديد الذي يعيش تحت تأثيره حتّى اليوم. إن بولس يقوم في

أساس الحضارة الأوربية فهو خالقها وصانعها وبانيها وحبّذا لو تحرّرت من زوائدها وعادت إلى مبادئ بولس الروحيّة والفكرية لعاش الحمل مع الذئب والأسد مع النعجة. الإنسان يحتاج دائماً إلى قوّة العجيبة، يحتاج إلى شخصيّة بولس السّاحرة، الى هذا النهر الدفّاق يجري في مجاري الحياة البشرية لينزع الجفاف من نفسها واليباس من قلبها والبرودة من عقلها والشلل من إرادتها. العالم لا يعيش بدون المخلّص وبولس هو المثال الحيّ لما يمكن أن يكونه العالم مع المسيح.

إنّ الكاتب الألماني هولزنر وقد أسرته حياة الرسول وجهاداته وعذاباته من أجل الإنسانيّة، قضى حياته كلّها منقّباً دارساً متنقّلاً في الأماكن التي وطئتها أقدامه ليخرج للعالم الأوروبّي حياته بالصورة التي تليق بهذه الشخصية البانية لحضارة الغرب الفكرية، وقد توقّف الكاتب في إعطاء الصورة اللاّئقة بطريقة أخّاذة، وقد خلع الأنوار على الحقائق التي جعلها الإيجاز في الكتاب المقدّس غامضة. وقد رأيت توخّياً للفائدة أن أنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية لأن الرسول بولس يهمّ أبناء الكرسي الأنطاكي، فهو مؤسس كنيستهم وابن الكرسي الأنطاكي الحبيب ولأن حياته حياة لكلّ من أراد أن يدخل في صراع مع نفسه من أجل المسيح بحمله لصليب المسيح. وإنّي إذ أطرح بين يدي القارئ هذا الكتاب أكتفي بالقول إنه جامع شامل لا يحتاج إلى من يقدّمه لأنّه مقدّمة من الحقيقة بصورة تستهوي وتأخذ بمجامع القلوب وتترك الإنسان في حالة من الإنخطاف والذهول أمام المعجزات التي يجترحها الإنسان المؤمن برسالة الحقّ المحرِّر.

المترجم

١ . حداثة بولس وسنوات الإستعداد

١ . ثقافة بولس الرسول اليونانيّة

(أعمال ٢١ : ٣٩ ، ٢٢ : ٢٨)

وكما يجثم طوروس المخيف في أعماق طرسوس صامتاً هائلاً وينسطح بثقله فوق السهل بعلوّه الشّاهق وقممه الكثيرة ، جذّاباً بأسراره ، يفجر الينابيع من جنباته ويرسلها ماءً تتدحرج فوق الصخور الهائلة في الوديان التي حفرتها ، هكذا يقف عالم الرسول بولس الروحي في أهوائه الحيّة وأفكاره العنيفة ، وعمقه النبويّ وانحداراته الفجائيّة في أعماق تديننا المسيحي المائع . من هو هذا العظيم الذي يظلّه من هو أعظم منه؟ من هو هذا الجريء الباعث لأوروبّا المسيحيّة؟

مدينتان لعبتا دوراً حاسماً في تطوره ، طرسوس وأورشليم ، «أنا رجل يهودي مولود في طرسوس من أعمال كيليكيا» . هذا ما قاله للوالي الروماني عندما ألقي القبض عليه ، وبهذه العناصر عرف عن نفسه . تياران امتزجا في داخله في عاصمة الولاية الجامعيّة طرسوس ، تربية يهودية وثقافة يونانية .

ماذا كانت طرسوس؟ مكاناً قديماً جداً ذا مواصلات عالمية ، وحدوداً بين حضارتين ، اليونانيّة الرومانيّة الغربية والبابليّة الشرقية . تقع تحت أقدام جبال طوروس التي تشقّ سهل كيليكيا كما يشق جبل لبنان سهل الجليل . فالمعبر الشرقي يجعل أبواب سوريا في تماسٍ مع

الحضارة السامية في الشرق والمعبر الشمالي يربط أبواب كيليكيا بحضارة آسيا الصغرى. أما في الجنوب فالميناء يربطها ببلاد حوض البحر المتوسط.

تقوم طرسوس، مسقط رأس بولس، وسط سهل كيليكيا الغني في حرز من متوحّشي الجنوب وقراصنة الشرق كأنّها وسط سلّة ذهبية تجذب روح الصبي الذكي المجنّح إلى العالم الفسيح بمحنه المتعدّدة التي كانت تنتظره ليعانيها ولم تكن حياته كلّها غير محنة ومحنة عظيمة فقط.

كانت طرسوس مدينة تجارية حرّة ومركزاً عالمياً للتبادل التجاري وخصوصاً خشب البناء الذي كان يُنقل من جبال طوروس عبر النهر. كان نهر كيدنوس صالحاً للملاحة وكان يشطر المدينة إلى شطرين وكانت الأرصفة والمستودعات والنّاقلات منتشرة يميناً وشمالاً. في هذا المكان كان الفتى شاول مع أصدقائه الفتيان يزغردون ويهلّلون للقوارب التي كانت تمرّ عبر النهر وكانوا يقفزون فوق الصناديق والحزم المليئة بالبضائع ويصغون إلى ما كان يتداوله التجّار الأجانب الآتين من أفسس والاسكندرية وقورنثية وورومية وأسبانيا ويعجبون بألوان ثيابهم المختلفة ولهجاتهم الغريبة[٥١]. وكانت أناشيد اسرائيل وأنغام مزاميرهم نشيد بولس في صباه إلّا أنّه كان ممزوجاً بنغمة من وشوشة البحر وثورته الجافّة. كان هذا النشيد رفيقه الدّائم وكان البحر الذي صار في كثير من الأحيان خطراً مداهماً لحياته عنصراً هاماً من العناصر التي ساهمت في تحقيق رسالته وكثيراً ما نرى في رسائله صوراً من عالم التجارة ومن عالم رحلاته. وكان الإنسان الذي دعاه مخطّط العناية الإلهية للتبشير في العالم الوثني من الذين تثقّفوا لا في روابي الجليل بل في مدينة وثنية اختلطت فيها كلّ القبائل الرومانية والذي لم يفرّق بين اليهودي والوثني واليوناني والبربري (كولو ٣، ١١. ١ كور ١٢، ١٣) والحر والعبد، كان ابناً لمدينة امتزجت فيها الأفكار وتقاربت الأجناس.

من يزر طرسوس اليوم يشعر بما يشعر به في أراضينا، كان الموج فيما مضى يهدر هناك وكان منبسط النهر الواسع يصل المدينة بالبحر وكانت غابات من الصواري والأشرعة من المناظر التي تبهج العين. أمّا الآن فقد حلّت المستنقعات الكبيرة محلّ القوارب والأشجار الباسقة. فمصبّ النهر وروافده قد سدت بالرمال بسبب كسل الأتراك وأصبحت المدينة على بعد عشرين فرسخاً من الشّاطئ يربطها خطّ حديدي صغير بميناء مرسين. أمّا سهول كيليكيا فلمّا تزل موّاجة بسنابل القمح فكأنّها بحر يضاحكها النسيم موجاً. ولما تزل أزاهير

رياضها الواسعة تنور وتعقد ثمراً يذوب حلاوة ومياهها تجري زراعة اليمن والبركات. كان كيدنوس يمرّ وسط المدينة أما اليوم فعلى ربع ساعة منها وسط أشجار الحور والدلب والصفصاف، وعلى بعد عشرين دقيقة لمّا يزل الشلال «بعرض مئة وعشرين متراً يندفع بوحشية مزبداً فوق درجات هي الصخور الهائلة»(٥٠).

إنّ طرسوس حيث شبَّ بولس وترعرع وعاش السنين الطوال قبل اهتدائه وبعده كانت وسطاً يونانياً برزت فيه الحضارة اليونانيّة بروزاً ظاهراً فأثرت تأثيراً عميقاً حتى في يهود الشتات القاطنين فيها بكثرة. لذلك لا بدّ لنا من إلقاء نظرة ولو خاطفة على هذا العالم اليوناني لنتمكّن من فهم بولس في رسائله فهماً أفضل، فهم تعابيره المختارة وصوره وتموّجات عواطفه.

من المسلّم به اليوم أنّ العقلية اليونانيّة والنهج اليوناني في الحياة أثّرا تأثيراً عظيماً على بولس ممّا يدلّ على طول إقامته في طرسوس. كان يفكّر كما يفكّر اليوناني ويكتب لغته كما يكتب لغته الأم، بينما كان بطرس بحاجة إلى من يترجم له عند خروجه من فلسطين للبشارة وعلى الأخصّ عندما كان يريد أن يكتب رسائله.

إن فكرة القوّة الإلهية — الإله الأعلى — المتمايزة عن إله الجدّ، عن الله العامل كانت الفكرة الدينيّة المسيطرة في طرسوس. كانوا يسمّونه بعل طرسوس — سيّد طرسوس أو جوبيتير أو ذيّا (اللوحة ٢) والتمييز بين الإله الأعلى والإله العامل يرجع إلى نقل العلاقات البشرية الى عالم الآلهة. في عقلية مواطن الشرق ترتبط رتبة الحاكم الفرد ارتباطاً وثيقاً بالصفاء وعدم الحركة واللامنظور(٣٨) ويتّصل بالعالم الخارجي، بمواطنيه عن طريق طريق وزرائه. وهكذا وضعوا مقابل بعل طرسوس إلاهة كان الشعب يحترمها كثيراً وإن كانت لا تخلو من العبوديّة. إنّها إلاهة المكان، البعل سانتان الذي دمج فيما بعد بهرقل اليوناني. كانت سانتان إلاهة الحقول وكانوا يرسمونها في رسومهم وفوق قطع نقودهم متّشحة الوشاح القروي وكانت الحامية للفلّاحين الأول الذين استوطنوا البلاد. وكانت البعل سانتان في طرسوس حسب عادة كلّ الشرقيّين إلاهة الخصب كما يستدل من رموزهم حزمة القمح، عنقود العنب والزهور. وكانت عبادة سانتان — هرقل تصل إلى أوجها في العيد التذكاري للنّار (اللوحة ٣)، أي موت وبعث إله الخصب وهذه الفكرة موجودة في كلّ الديانات السرية الشرقية. كان الشعب يحمل نصب الإله فوق عربة مزدانة ويطوف به

وسط المدينة بين زغردة النّاس وتهليلاتهم وينتهي المطاف بالحريق، والحريق يمثّل موت الخصب حيناً تحت أشعّة الشمس المحرقة. وبعد الاحتفال بالموت يبدأ عيد الحياة. وعيد الحياة تمجيد لقيامة الإله الظّافرة يحتفل به في العربدة والمجون والغرق في الإثم والقذارة. ولا يزال في طرسوس حتّى اليوم بناء قديم حزين هائل يسمّيه الشعب «أثر سارونابولو» المؤسّس الأسطوري للمدينة. هنالك من يعتبر هذا الأثر القسم الأسفل لهيكل جوبيتير وربّما هو القسم الذي كانت تقام فيه دعارات الوثنيين. ربّما كان الفتى شاول قد وقف مفكّراً في مكان منفرد، عندما كانت اللُّهب في كلّ سنة تورِّد الفضاء بلونها الأرجواني والشعب المجنون يصرخ وينتحب ويرمي نصب الإله الهائل فوق اللّهب المندلعة في شموخ. لا شكّ أيضاً أنّ الشفقة كانت تملأ قلبه عندما كان رفاقه من الوثنيّين يقصّون عليه أقاصيص ما فعلوه في ليالي العيد. كان يشفق على هؤلاء الغارقين في عمق الظلام وكان مقابل ذلك يشعر مدركاً سموّ إلهه اسرائيل. ربّما كان بولس قد استعمل هذا الإحساس المظلم عن سرّ الموت والقيامة المسمَّر في الطبيعة البشريّة الذي ولّد في الديانات القديمة تعابير وأشكالاً مختلفة كنقطة انطلق منها ليبرهن للوثنيّين أنّ إحساساتهم المظلمة وجدت تحقيقها الرّائع في موت وقيامة المسيح. كثيراً ما مرَّ الفتى من أمام نصب سارانتابالو وحاول أن يفسِّر عنوانه الأشوري وسعى حتّى وجد من يفسِّره له «أيّها العابر كُلْ واشرب وكلّ ما عدا ذلك لا يساوي شيئاً» (سترانون ١٩، ٥) وكانت ذكرى طفولية عندما خطرت بباله عبارة مرادفة لميناندر وفّقها مع آية لأشعيا (أشعيا ٢٢ — ١٣) في رسالته إلى أهل قورنثية. (١ كو ١٥، ٣٢).

يستدلّ من رسائله أنّ بولس كان يعرف الأسرار الوثنية. لقد أتيحت له الفرصة ليرى في طرسوس يوم كان طفلاً كيف كان المغرقون في عبادة اليسيس يخرجون إلى العالم لابسين وشاحاً سماوياً (اللوحة ٧). كان هؤلاء يستهدفون التألّه وكانوا يلبسون لباس الألوهة لباساً بزي سمكة عندما كان يُرمز إلى الإله بالسمكة. قد يذكرنا هذا اللباس السري بتلك العبارة البولسية الغريبة جداً «تلبسون المسيح» التي لم نتمكّن أن نضعها في سجل لغتنا الدينية الشعبية لأنّ التعبير هو من نتاج حضارة غريبة عنّا. كان على بولس أن يستعمل مثل هذه التعابير ليتمكّن الوثنيّون أن يفهموا، وأخيراً عندما كان يحاول أن يجعل الخلاص بالمسيح مفهوماً من تلاميذه باستعماله لصورة تحرير العبيد كانت تجول في خاطره ذكريات طقسية

وثنية. كان العبد يقتصد الكمية المالية التي يحتاجها لتحرير نفسه فيضعها في الهيكل وكان السيد يأتي مع عبده فيأخذ الكمية ويبيعه للإله، وكان الإله يتركه بعدئذٍ حراً «إنّه عتيق الله» (١ قو، ٧ : ٢٢).

«أنا طرسوسي مواطن لمدينة ليست بنكرة». إنّ كلامه عن مدينته يمثّل كبرياءً يونانياً صرفاً. كانت طرسوس تتنافس مع الإسكندرية وأثينا على أولية الثقافة. منها كانوا يأخذون المربّين إلى أمراء رومية. وفيها كانت تسود الروح اليونانية واللغة والقانون الروماني وصرامة المجمع اليهودي. طريقة الحياة اليونانية، الرياضة والسحر الشرقي والديانات السرية بطريقة الخلاص المبهمة. إن مدينة كهذه لا بدّ وأن تكون قد أثّرت وساهمت في تكوين شخصيّة الرسول الروحيّة.

قبل عشرات السنين كان شيشرون الشهير والياً على المنطقة. وكان في طرسوس أيضاً، عندما كان بولس طفلاً، شيخ جليل معروف بغزارة العلم وكان الجميع يتهامسون ويقول الواحد للآخر: «أنظر هوذا أثينادور معلّم الأمبراطور أوغسطس وصديقه». كان أثينادور من عائلة تعمل في الفلاحة في طرسوس وكان تلميذاً لبوسيدون الشهير وقد تتلمذ الشاب أوغسطس في أبولونيا من أعمال أبيروس على يده وبقي وفياً لمعلّمه حتّى الموت وكان معلّمه يصارحه الحقيقة غير هيّاب ولا وجل وينصحه بالتعقّل ويقال إنّه حماه من فضيحة عائلية كبرى[٣٢]. وقد قضى أثينادور العشرين سنة من أخريات حياته في طرسوس فنظّم إدارة المدينة تنظيماً دقيقاً صارماً وخلق جواً من الحماس من أجل الثقافة «وأقام له مواطنوه نصباً كانوا يحجّون إليه كلّ سنة ويحتفلون بذكراه مصلّين فوق ضريحه»[٥٦]. إن أوامره ونواهيه الخلقيّة لتشرّف كلّ معلّم أخلاق مسيحيّة «اعرف أنّك إذا لم تجسر أن تطلب شيئاً من الله بحضور كلّ النّاس فإنّك بعد لم تتحرّر من أهوائك. إنّ إله الكلّ هو ضمير الإنسان. عش مع البشر كأن الله يراك وتكلّم مع الله كأنّ البشر يسمعونك».

أصدفة تردّدت كلمة الضمير التي يستعملها أثينادور كأساس للأخلاق. أصدفة تردّدت في رسائل بولس؟ إنّنا نعرف تفكير أثينادور ونعرف أن سينكا الذي أخذ عنه احترامه للوجدان كان أكثر المعجبين به. «إنّ روحاً قدوساً يقوم في أعماقنا إنّه مراقب وحارس لأفكارنا الصّالحة والشرّيرة. عندما تعمل عملاً صالحاً فالجميع يعرفونه وعندما تعمل عملاً شريراً فما الفائدة أن يجهله الجميع ما دمت أنت تعرفه؟».

لم يكن بولس بحاجة لأن يدرس الآداب العالية ليتعلّم تعاليم أثينادور الخلقيّة. ففي الطرقات والسّاحات وتحت ظلال الأشجار على طول نهر كيدنوس كان الرواقيّون والكلبيّون والخطباء يتناقشون في الفلسفة والدين والأخلاق وكان بولس يذهب من حين لآخر إلى المدرسة وإلى المجمع وكان يقف أحياناً ليستمع إلى نقاش رجال الفكر العلمي. وممّا لا شكّ فيه أيضاً أنّه خلال إقامته الطويلة في طرسوس تجادل مع هؤلاء المتكلّمين وناقشهم، وهكذا يكون قد أخذ عن الخطباء والرواقيين بعض تعابيرهم واصطلاحاتهم الخطابية. دراسة جدية لنهج الرسول الكتابي وأسلوبه يقودنا إلى الإعتقاد الجازم أن بولس كان يملك ناصية اللغة الفصحى والشعبية دون أن يكون مقيّداً بأيّة مدرسة «بالرغم من قربه لنفس السبعينية وللغة اليونانيّة الدارجة والمثقّفين الذين كانوا يحيطون به فإنّه كان يأخذ ببساطة كلّ ما يعينه على التعبير بوضوح عن أفكاره التي قلبت العالم وأقامته وأقعدته».

كانت طرسوس من ناحية مدينة رصينة محافظة منضبطة خلقياً وصارمة. كانت النسوة في المدن اليونانية «يتجوّلن نصف عاريات يملأ عيونهنّ الإغراء أما في طرسوس فكانت المرأة تظهر في الطريق محجّبة»[٥٦]. وعادة الحجاب عادة فارسيّة تستعمله المرأة المتزوّجة، لأنّه حسب قول الفارسيين، يحميها من العيون الغريبة، ويحيطها بجدار من الأمان، وكان رمزاً لعصمتها، ودليلاً على أنّها «تحت سلطان» رجل يحميها، وعلى شرفها. وغطاء الرأس للمرأة يعطي للمرأة الحقّ بطلب الإحترام الذي يليق بها. كان بولس يألف هذه العادة. لذلك عندما كتب في رسالته إلى أهل قورنثية «نحن لا نملك هذه العادة» (١ كو ١١، ١٦) قصد النساء اللواتي كنَّ بدون غطاء على الرأس.

لم تغب الذكريات الرومنطيقيّة عن بال بولس. إنّها تعود به إلى طرسوس. فتحت الشلّال الكبير عسكر الاسكندر قبل أن يعبر الممرّ الجبلي مطارداً داريوس. لقد قفز فوق مياه نهر كيدنوس المجلّدة، كما فعل فيما بعد بارباروسّا باجتيازه نهراً جبلياً آخر في كيليكيا. لقد أصابت الملك على أثر ذلك حمّى شديدة حيّرت الأطبّاء، فتطوّع شخص اسمه فيليبوس، أحد تلامذة أبوقراط لشفاء الملك فأعطاه دواءً ليشرب. لكن القائد بارمنون أرسل كتاباً للإسكندر يقول له فيه إن داريوس قد رشا فيليبوس ليسقيه السمّ فما كان من الاسكندر إلّا وأن شرب الدواء بيده الواحدة وبيده الأخرى قدّم للطبيب الرسالة التي استلمها من القائد. إنّ هذه العظمة الروحيّة الملوكية وهذه الثقة خلصت حياة الملك.

كانت هذه النقطة من التّاريخ حاسمة فلولاها لما انوجدت الهيلينيّة ولاتّجه التاريخ اتجاهاً مختلفاً ولولاها لما كانت الحضارة اليونانية الشرقية. إنّ نجاة الاسكندر في طرسوس وهنا ولد الإنسان المزنر بجرأة الإيمان الملوكية ، ومن هنا سينطلق إلى العالم الرسول المبشّر بأنّ الإيمان هو الدواء العظيم للخلاص. كم من مرّة قصّ الوالد بقرف مثير على الإبن المصغي بانتباه كلّي قصص الأعياد الفاجرة عندما كانت طرسوس تنتشر خارجاً لترى ملكة مصر كليوباترة متّشحة كعشتروت ومحاطة بآلهة الحب ماخرة بالقارب المزدان كملكة ثانية لسبأ مياه نهر كيدنوس لتأخذ بمجامع قلب أنطونيوس الروماني. (٤١ ق. م)[٥١].

كان محيط بولس مطبوعاً بطابع الثقافة اليونانية ، وبلغة عالمية ، وبطابع المدنية اليونانية هذه الأداة الإستعماريّة الفريدة التي ركّز عليها الإسكندر الكبير كلّ مخطّطه لاحتلال الشرق وإروائه بالرّوح اليونانية. بهذه النفحة من العبقرية وبهذه الموهبة الإدارية التي امتاز بها خلفاء الإسكندر من السلاجقة والبطالسة ازدهرت مدن جديدة ومراكز جامعية كرودوس وطرسوس وأنطاكية وصور وعسقلان وياريسا. كانت هذه المدينة مليئة بالعديد من المعلّمين ومتقني الكلام والفلاسفة الذين كانوا كسكولستيكي العصر المتوسط يتنقّلون من مكان إلى مكان يعلمون في السّاحات العامة. في كلّ مكان كان هذا العالم الفنّي الروحي الخلقي ، والرجل الذي كتب فيما بعد «تحمّلوا كل شيء» (١ سالونيك ٥ : ٢١) كان قد اتّصل باكراً بهذا المحيط الذي لا يمكن لأيّ إنسان إلّا وأن يتأثّر به.

هذا التنظيم الإداري بغنى حياته الروحيّة صار ملازماً لرومية الحاكمة العالمية من عصر السكوبيون. وقد حاولت رومية أن تجعل الشرق اليوناني رومانياً بإعطائها حقوق المواطن الروماني لغير الرومانيين وغايتها خلق صف إجتماعي من الطبقات الرومانية العالية في طول الأمبراطورية وعرضها.

«لقد صرت رومانياً». إنّ عائلة بولس كانت مسجّلة في طرسوس وقد حصلت على المواطنية الرومانيّة ، والمعروف اليوم أنّ من كانت لهم حقوق سياسية في طرسوس كانوا يفصلون إلى طبقات وشيع وكانت لهم في المدن كما في العصر المتوسّط كنائسهم وعاداتهم الدينية الخاصّة بهم وكانوا يشتركون في إدارة المدن. فاليهود الرسميّون الذين كانت إمكانيّاتهم تخوّلهم دفع خمسماية درهم على الأقلّ كانوا يصيّرون مواطنين رومانيّين وكانوا يشتركون في إدارة المدينة. لم يكن بين اليهود والوثنيين فصل صارم. كانت مصالح الدولة

تربط بينهم وكانوا يصلون كلّهم، ولو كل على حدة، من أجل رخاء المدينة وحياة الأمبراطور. يستنتج من كلّ ذلك أنّ بولس لم يكن من حي كيتو اليهودي المنفصل. كما أنّ اتساع روحه ومعاملته الودية مع الوثنيّين وتحريضاته على الصلاة «من أجل الذين في الأسر» برهان أيضاً على ذلك. إنّ المواطن الروماني هو من طبقة الأشراف الدنيا وكان يحمل اسم ولقب محتضنه المدين له بالمواطنية الرومانية مثلاً غايوس يوليوس. إنّ عدم ذكر لوقا لألقاب بولس يشكّل دليلاً على صحّته وصدق روايته التاريخيّة لأن المواطنين الرومانيّين في المدن اليونانيّة لا يكتبون بألقابهم. إنّ بولس كان اسمه بولس بالنسبة لمواطنيه أمّا في عائلته كما في كل العائلات اليهودية فكان اسمه شاول أي المطلوب.

كانت المدن اليونانيّة مميّزة عن المدن الرومانيّة بتركها مجالاً أوسع لتطوير الحرية الشخصيّة لانفتاحها على العالم ولسهولة تأثّرها بالحضارات الغربية. وكان المجال مفتوحاً هنا أمام بولس ليوسّع آفاقه. لم يكن كلّ شيء في نظر بولس مثالاً للإنحطاط في الوثنيّة. في هذا الجو الحر كان يجب أن يتثقّف من يبشر بالحرية المسيحيّة التي تلوّح نسائمها وتلوّح لكل قارئ ينكبّ على دراسة رسائله. «بالحرية التي حررنا بها المسيح» (غلا ٥ — ١). هنا لاح وجود بولس المميّز الذي أهّله ليصبح المبشّر لديانة سمت فوق كل الطبقات والرتب غير أنّ هذه الأمور بقيت مؤقتاً خبيئة نفسه. كان من الضروري أن يأتي إنسان آخر، إنسان أعظم منه، ولادة جديدة أسمى لتنتزعه من أحشاء المجمع الوالدي بقلبه الوطني الضيّق اليهودي، وقد كان بولس بالرغم من ضيق اليهودية مهيّئاً تهيئة عظيمة للعمل طوال حياته ليهدم الجدار القائم بين اليهوديّة والوثنية، «لليهود كنت يهودياً ولليونانيين كنت يونانياً» (١ قو ٩، ٢٠).

أبرزنا بعض الخاصّات في حضارة طرسوس اليونانيّة لنوضح المسحة اليونانية في تطور الرسول الثقافي. إنّ النعمة الإلهية تستطيع أن تنقّي ما أعطاه الله للإنسان كموهبة طبيعية وما أضافته الثقافة والمحيط وتستخدمه كعنصر لعالم روحي رفيع. لسنا بحاجة للقول بأنّ بولس أخذ عن الهلينية. إنّ عقلاً ذكياً موهوباً متشعّب النواحي يمكنه أن يهضم كلّ الأفكار التي تمخّض بها داخله دون أن يتمكّن فيما بعد أن يفرق بينها وخصوصاً وقد صارت قسماً من وجدانه وتفكيره، والرّجل الذي رسم الوثنية بقوة في رسالته إلى أهل رومية بملاحظات متناثرة هنا وهناك يظهر أنّه كان يلاحظ بعمق وأنّه لم يكن يسلك وسط طريق

العالم معصوب العينين. «الشيء الوحيد الذي نستطيع عمله أمام هذه الحياة العظيمة الحقيقية هو أن نقف موقف العجب أمام تشابك الطبيعة مع النعمة الإلهية لتحيكا رسالة من أهمّ الرسالات البشرية حقّقتها عجيبة النعمة التي قابلها بولس بشكر الله على مراحمه»[٥٠]. وباختصار نستطيع أن نقول إن طرسوس ظهرت كأنّها مؤهّلة لميلاد الإنسان الذي سيرث وعد الإسكندر الكبير بوحدة الشرق والغرب ويحقّق نبوّة السيد: «كثيرون من المشارق والمغارب سيدعون مع ابرهيم واسحق ويعقوب إلى الملكوت السماوي» (متى ٨ — ١١).

٢. «ثقافته العبرية في طرسوس»

(فيليبي ٣ : ٥)

أبنّا حتى الآن الجذر الواحد لذاتية الرسول بولس الروحية. أبنّا الأثر اليوناني في تطوّره الثقافي. أما الجذر الأهم فهو الجذر الآخر، أصله اليهودي وثقافته الناموسية لأنّه يعود به إلى ألف سنة من التقليد والإرث والدم.

إن الرعايا اليهودية في أنحاء العالم كانت تفوق من حيث العدد والثروة والثقافة الرعايا اليهودية في فلسطين [١٣]. عبثاً حاول انطيوخوس أبيفانوس (١٧١ ق. م) المعروف من كتب المكابيين أن يجعل من اليهود يوناناً وقد شكّلت العائلات اليهودية في طرسوس مستعمرة عنصرية مغلقة تمتّعت بكامل الحقوق التي كان يتمتّع بها اليونانيون. كانت جسماً سياسياً واحداً وإدارة واحدة. كانت دولة صغيرة ضمن دولة وكان الرباط العنصري مقدّساً ووثيقاً. لم يكن بإمكان المرء أن يكون مواطناً في مدينته إذا كان لا ينتسب إلى عضويّة قبلية، وقد أعطى هذا الرباط التقليدي لعائلة بولس صفة طبيعية للمفاخرة بسلالته. إنّ الإعتزاز العنصري ليهود الشتات يلقي من هذه النّاحية ضوءاً جديداً على الآية المليئة بالإعتزاز المسيحي «نحن المسيحيّون لنا مسلك في السماء» (فيلبي ٣ — ٢٠). إنّ بولس في رسالته إلى أهل رومية (١٦ — ٧ : ١١) يبعث بسلامه إلى أندرونيكوس ويونيا

وهيروديون «أقاربه» (رومية ١٦ — ٧ : ١١) قد يمت هؤلاء في الواقع بصلة العنصرية اليهودية وقد لا يستبعد أن نكون أمام ثلاثة من رفقاء الصبى والتلمذة أو أمام أقاربه الأبعدين. «من سبط بنيامين» لقد سبق وذكر القديس أوغسطين مشيراً إلى انطباق هذا الإسم الرمزي على بولس الذي أعطاه البطريرك يعقوب وهو يحتضر. «بنيامين ذئب مفترس يخرج صباحاً للقنص ويوزّع مساءً صيده» (تك ٤٩ — ٢٧).

كان والد شاول كفريسي شديد الصرامة في الإتجاهات الدينية الوطنية. أدخل ابنه إلى أسرار لغة الكتاب الأصيلة المقدّسة التي تعلّمها في المدرسة ومن الترجمة السبعينية. ما عدا ذلك كانوا يتكلّمون في البيت اللغة اليونانية. كان لليهود طريقة في الثقافة ناجحة وهنا يكمن سرّ قوتهم. يبتدئ الولد عندما يبلغ السن الخامسة الأمور الهامّة التي تتضمنها الشريعة في الفصل الخامس والسّادس من تثنية الاشتراع والمزامير (١١٣ — ١١٨) التي كانوا يرتلونها في الأعياد الكبرى. وكان يتعلّم أيضاً معاني الأعياد السيدية من السنة المقدسة. في السّادسة من عمره ذهب شاول إلى «الأمبلو» أي إلى مدرسة المجمع القائمة مقابله وكان عبد يحمل كيس الصبي ويذهب به وسط الطرقات الخطرة والمطروقة جداً وبولس يتبعه. كان يجلس على الأرض ويضع اللوح الحجري فوق ركبتيه والقلم بيده وكان يتعلّم تاريخ شعبه وسط هذا القطيع من التلامذة القلقين وقد خصّص السنين التّالية لدراسة التاريخ المقدّس. هنا تعلّم أن شعبه كان مختاراً بالنسبة للأمم الأخرى. إنّ خياله الفتي كان يشتغل بانتصارات وآلام أمّته التي كانت تثير مكامن قلبه. كانت خواطره في كلّ يوم يعود فيه إلى البيت تحوم وتجول في عالم من تاريخ جديد، تسابيح صهيون ومراثي بابل كانت تتجاوب أصداءً في أذنيه. المعلّمون كانوا يكلّمونه على مستقبل شعبه. سيأتي يوم يملك فيه مسيّاً مخضعاً العالم بسيفه الظّافر الأقوى من أي سيف برّاق، الأقوى من سهم أبولون الكنز الثمين المحفوظ جيّداً من شعب طرسوس[٣٢]. منذ ذلك التاريخ سيقدّم العالم كلّه صلواته موجهاً أبصاره نحو أورشليم وسيأتي الأمبراطور من رومية ليسجد له.

ليس بمستغرب إذا قلنا إن اليونانيين الذين كانوا في سنّ شاول كانوا يدانون رفقاءهم من اليهود باحتقار. أمّا الصغير شاول فكان يعرف أن اليونانيين كانوا دونه لأنّ شعبه، عندما كانت رومية وأثينا أمكنة للرعاية، كان يعيش تاريخه المجيد. عندما كان أولاد الوثنيين يلعبون لعبة (سكبيون وأنيباس) ويحيكون الأحلام حول الإسكندر الكبير

وقيصر كان خيال شاول يتوه مع البطاركة ابرهيم ويعقوب وقطعان جمالهم وسط عجائب الصحراء. كان يسير مع يوسف إلى الأهرام والنيل وكان يمزّق مع داود وشمشون جوليات الجبّار والفلسطينيين. وعندما كان الآخرون يكتبون عن مغامرات زيفس الغير اللاّئقة وينوحون لأحزان ذيدوس كان شاول يرتجف أمام يهوه إله شعبه الكلّي القدرة احتراماً لاسمه المقدّس الذي لا يجوز التلفّظ به لقداسته (٥١).

عندما بلغ العاشرة من العمر بدأت المرحلة الثّانية من ثقافة بولس التي لم تكن مريحة كالأولى. كان أولاد العبرانيين في هذه السن. يتعلّمون «الشريعة الملفوظة» كما كانوا يسمّونه في كلّ يوم كانوا يطلعون على مجموعة جديدة من الخطايا. لقد أقام الكهنة حول شريعة الرب جداراً متعالياً من الوصايا الحرفية والأوامر النّاهية والفروقات الكلاميّة الدقيقة وأحلوها مركز الإلزام كالوصايا العشر. إنّ هذه الأمور بالنسبة لقلب حسّاس مرهف كقلب شاول الفتي، لا بدّ وأن تثير في أعماقه عواطف مضادة خطرة. إنّه يعيش في عالم حضاري مختلف، لقد كتب بولس إلى أهل رومية (٧، ٩— ١١) مشيراً إلى هذه الحقبة من العمر التي اختطفت فردوسه الطفولي بصورة مؤثّرة تعبر عن حقيقة إنسان لم يخلص بعد «لم أعش قط بدون شريعة (أيّام براءة الطفولة) عندما جاءت الوصية عاشت الخطيئة فمتُّ أنا والوصية التي لي للحياة وُجدت هي نفسها للموت لأنّ الخطيئة قد اتّخذت بالوصية سبيلاً فأغوتني وقتلتني بها(٩)». حتى الآن كان الصبي يقترب من أدوار مخطوطات الشريعة الصّامتة وسط علبها المطرّزة من بعيد. أما الآن! كانت تتراجع أصداء «لا تشته، لا تلمس، لا تذق» عند كل خطوة يخطوها، لقد ضج قلبه الفتي وثار وشعر كأنّ وجدانه قد انخدع وظهر له أنّه ذاق الموت. «أمّا أنا فقدّمت». أيّة حياة ثقيلة غير راضية تختبئ وراء هذه الكلمات. إنّ سيكولوجيّة العصور الماضية لا تعرفنا الى تلك الحوادث كما نعرف عنها اليوم. لا تحتاج إلى أن نتخيّل سقطة خاطئة لبولس وأن نفكّر أنّ بولس لم يعرف «حياة طفولة مشرقة مفرجة» (٩) إنّنا نعرف بولس كما صار. نعرف حزنه الثقيل، حزن «المولود تحت الشريعة» نعرف الفرح للخلاص كما يصفه في رسالته إلى أهل رومية بطريقة جدّ مختلفة. إنّ الشّاب لوثير، الذي آلمته حياة طفولته المشابهة بسبب تربيته الصّارمة، توصل أن يربط بين صرامة والده وصرامة العلاقة بين الله وبينه ويعتبرها مشابهة. كان تخيّله للحل صحيحاً. لقد تصوّر أن الحل موجود في الرسالة إلى أهل رومية وبما أنّه كان يفتقد إلى القيادة الروحيّة المستنيرة طلب الحل في اتجاه خاطئ في إرادة ذاتية قوية استمرّ تأثيرها حتّى اليوم.

كان شاول يتنسّم نسيماً دينياً مطلقاً في بيته وإن كان نوعاً ما غبشاً. وكانت الكبرياء الوطنية ليهود الشتات وتعاليهم الذي ورثوه تاريخياً والذي يربطهم بأرض أجدادهم يهود فلسطين يلاقي تربة خصبة في هذا الجو. يحسن أن نتصور والد بولس إنساناً رصيناً صامتاً حكيماً يعيش مع نفسه المغلقة على الآخرين، إذا سار نحو المجمع سار بخطوات فيها ثقل ورصانة [٥١]. وليس بمستغرب إذا تخيّلنا العصا في يده يهزّها في وجه ابنه فبولس كما نعرفه بروحه المتمرّدة القاسية العنيفة، بولس هذه الروح التي اضطهدت المسيحيّين قبل أن تغيّره النعمة، كان ولداً عنيداً صعب المراس. ولا يستبعد أن يكون الأب الرصين قد استعمل الشدّة لترويضه. من يدري! قد يكون الرسول بولس جعل من أبيه مثالاً له في التربية عندما كتب رسالته إلى أهل أفسس: أيّها الآباء «لا تخنقوا أولادكم بل ربّوهم بالتأديب والموعظة في الرب» (أفسس ٦ : ٤) إنّ مشكلة «الآباء الظّالمين» «الأولاد الغضوبين» «الآباء من الطراز القديم» كانت قائمة في ذلك العصر. لا نعرف شيئاً عن أخوة بولس. بلى نعرف أنّ أخته متزوّجة في أورشليم (أعمال ٢٣ : ١٦)، كنّا نودّ أن نعرف شيئاً عن أمّه ويفرح المرء إذا عرف ما يرثه الرجال العظام من أمّهاتهم. إنّ الرسول لا يذكر شيئاً عنها. من الجائز أن تكون قد ماتت باكراً. وأن يكون الولد قد شبَّ ولم يعرف حنان الأمومة. وهذا ما يفسّر الإمتنان والشكر الذي كان يقابل بهما اهتمام والدة روفو ومعاملتها الرقيقة (رومية ١٦ : ١٣).

«جميل هو النّاموس إذا كان مرتبطاً بشيء من الإنهماك العالمي» هذا هو المبدأ الصحيح بلونه الجديد الذي كان يسود في العائلات الفريسية. كان والد شاول غنياً كما تدلّ المظاهر. كان بائعاً للأقمشة وحائكاً. يحيك الأقمشة للخيام وكانت هذه الصناعة مزدهرة آنذاك كما هي اليوم ومنظّمة تنظيماً صناعياً، وكان كهنة اليهود يعتبرون الحياكة والدباغة من الصناعات التي لا تليق ولكن كلامهم لم يكن ليلقى اهتماماً ولا أذناً صاغية. فبطرس كان يسكن في يوبا في بيت صبّاغ يهودي اسمه سمعان (أعمال ٩ : ٤٣) والشّاب شاول تعلّم في مصنع أبيه من العمّال والعبيد الذين كانوا يشتغلون في مصنع أبيه أن يحيك المعاطف الكيليكية الشهيرة والأقمشة للخيام وكان أحياناً يأخذ قطعاً جاهزة ويخيطها لتكون صالحة لبناء الخيام [٧٤]. إن رعاة كيليكيا يلبسون حتّى اليوم هذا النوع من المعاطف التي لا تخترقها المياه وقد تصلح لتكون خيمة عند الحاجة لإمكانية انتصابها بسبب قساوة حياكتها وصعوبة ليونتها وطيها. من يدري! قد يكون بولس قد لبس مثل هذه المعاطف في سفره

عبر جبال طوروس «آه من هذا الشعر القاسي شعر كيليكيا» (٢ تيمو ٤ : ١٧). ترى ألم يجرح الصبي يده مراراً عديدة؟ لماذا هذا العمل القاسي؟ لم يكن بحاجة إليه وهو المؤهّل ليكون حاخاماً شهيراً. أنّى للولد أن يتصوّر أنّ هذا العمل سيكون في المستقبل دعامة له وأنّه سيقربه من معاونيه فيما بعد في بشارة الإنجيل اكيلاً وبرسكيلا وسيعمل في مصنعهما! لم يكن بإمكانه أن يتصوّر أن تلك الأصابع التي كانت تنساب في تلك الأمسيات، أمسيات أفسس وتترحلق آلياً فوق سطح القماش الوحشي، سيتكلّم مع أبولو والنّار تملأ قلبه عن حياكة الروح في النفس وعن الكلمة الأزليّة الذي «صار لحماً وسكن فينا»! هكذا تعطي الطبيعة والنعمة الإلهية، الإختيار الحرّ والمصير الإلهي ألوفاً وألوفاً من الربط وتحيك الخيط الإلهي في القماش البشري. كتب إلى أهل رومية فيما بعد عندما لامس من عل مصيره ومصير أمّته والعواطف تملأه «يا لعمق وغنى حكمة ومعرفة الله» (رومية ١١ : ٣٣).

كان بولس يجلس مع أخته في الأمسيات فوق سطح بيته ويحدّق بعيداً إلى الثلوج الجاثمة بجلال فوق جبال طوروس وكان والده يقصّ عليه «إن خلف تلك الجبال يقطن شعب ليكونيا الأسطوري والغلاطيون وكان يقول له إنّ هؤلاء محكوم عليهم بالموت لأنّهم لا يؤمنون بإله اسرائيل. لم يكن في مكنة روح بولس الفتي أن يدخل إلى حرم تلك الفكرة الحماسية عن ملكوت محبّة الله الذي سيضم الجميع[٥٠]» بين حين وآخر كانت تمرّ قوافل الجمال والحمير في ذلك المعبر الجبلي من جبال طوروس وكان يتقدّم القوافل حمار صغير كديدبان بخطواته اليقظة وكان التجّار بلهجاتهم المخيفة وببعض كلماتهم السليقيّة يأتون إلى مخزن أبيه يبيعونه شعر الماعز وصوف الغنم وكان الولد يصغي إليهم إعجاب ولم يدُر في خلده قط أنّ هؤلاء الغلاطيين المتوحّشين سيحتلّون قلبه فيما بعد.

يجب ألّا يسهو عن بالنا أنّ الفتى شاول بينما كان يعمل في مصنع أبيه وكان يعود إلى البيت ليغسل يديه التعبتين ويحلم بالشعوب البعيدة كان في الوقت ذاته. هناك بعيداً. في قرية صغيرة. كان فتى صغير، أكبر منه بقليل يترك آلته. لم يكن فتى طرسوس يعرف شيئاً عن فتى النّاصرة. من يدري! قد يكون فتى طرسوس[٣٢] قد مرّ على لسان فتى النّاصرة وصلى من أجله أمام أبيه السماوي عندما كان يستلقي فوق سريره القاسي ليستريح.

٣. «تحت أقدام غمالائيل»

(أعمال ٢٢ : ٣، ٢٦ : ٤، غلاطية ١ : ١٤)

على العبراني، وفقاً لتقليد كهنوتي يهودي قديم، أن يبدأ بقراءة التوراة في الخامسة من عمره. والميشنا «التقليد اللفظي» في العاشرة، والتلمود «التعليم» في الخامسة عشر. وفي الثّامنة عشر يجب أن يقاد إلى المخدع العرسي[٦٥]. من الجائز أن يكون والد شاول كفريسي أصيل قد حمَل ابنه إلى أورشليم في عيد الفصح. وقد جاء يوم. وذلك عندما انتقل الشّاب شاول، وكان في الخامسة عشر من عمره، إلى أورشليم ليُسجّل في جامعة الهيكل الشهيرة.

يصعب علينا أن نتخيّل ماذا عنَت النظرة الأولى التي ألقاها شاب اسرائيلي بثقافة دينية كثقافة بولس على أورشليم مدينة أحلام شعبه الدّافئة. لقد أطلّ على المدينة من النّاحية الشمالية فلّاح أمامه منظر أخّاذ. على يمين سفوح جبل الزيتون كان هيكل هيرودوس يرتفع بكلّ جلاله في أعماق المجاري التي حفرها مسيل قدرون كأنّه سلسلة من جبال مرمرية برّاقة تظلّلها انعكاسات السطوح الذهبية للهيكل المقدّس. وكانت، إلى الغرب، تمتدّ المدينة بقصورها وكان قصر هيرودوس يعلو زاهياً فوق كلّ القصور.

وكان يوم ثانٍ، وكان عظيماً أيضاً. كان ذلك يوم دخل إلى الكلية لأول مرّة. وكان منكمشاً. وجوه غريبة تطالعه. وفوق هذه الوجوه يقوم وجه العميد غمالائيل بشخصيته الجليلة. إنّه «من معلمي الشريعة، يحترمه الشعب كله» (أعمال ٥ــ ٣٤) وعضو في المجمع، ورجل بارز بسبب أفكاره الغزيرة الواسعة، وقائد روحي تجرّأ وأخذ الرسل تحت حمايته. كانت أورشليم آنذاك مليئة بالطلّاب. وكانت كلية الهيكل تعطي لأورشليم الصبغة التي كانت تعطيها السوربون في العصور الوسطى لباريس. لم يكن هؤلاء الكهنة لا مستخدمين، ولا مستأجرين، ولا حكماء قلم. كانوا يعيشون كما يعيش الفقراء وكانوا يقومون ببعض الأشغال اليدوية بالإضافة إلى التعليم. كان هلال العظيم يعمل بأجر يومي، وكان خوسوا فحّاماً[٣]، وقد قال: «إنّك لا تعرف شيئاً عن عذابات التلاميذ والمثقّفين. إنّك لا تعرف كيف يعيشون ولا كيف يتغذون»[٨٠]. من الجائز أن يكون شاول قد عانى ما يشير إليه خوسوا، فوالده كان مقتّراً، ممسك اليد. هذه النّاحية تلقي ضوءاً على عمله الرسولي الصّارم، ولماذا كان بولس يرفض أن يعيش على حساب المسيحيّين.

في ذلك الزمان كان اللّاهوتيّون في أورشليم ينقسمون إلى اتجّاهين. اتجاه متساهل ليّن، يعرف أن يجد مخرجاً لقساوة الشريعة، ويتزعّمه هلال. واتجاه آخر، يقوم على التعصّب، ويفسّر الشريعة حرفياً، ويتزعمه ساماي. كان غمالائيل حفيداً لهلال، وكان جديراً بجدّه العظيم وقد تتلمذ بولس على يده، وكان من المعجبين به. «كان يتقدّم ملّة اليهود، ويفوق الكثيرين من أترابه» (غلا ١ — ١٤) في هذا الجو المقدّس كان بولس يهمل ثقافته الأدبية الكلاسيكيّة ليفسح في المجال لعالم تقوي، مع أنّ غمالائيل كان يشجّعه على دراسة الأدب اليوناني. كان تلامذة جامعة الهيكل، كتلامذة جامعة الأزهر اليوم، يجلسون على الأرض، أو فوق مقاعد واطئة، بشكل نصف دائرة. وكان المعلّم يجلس في مكان عالٍ. وكان بولس يجلس تماماً «تحت أقدام» غمالائيل. والطريقة التعليميّة التي كانت متّبعة في ذلك الزمان لا تزال متّبعة حتّى اليوم. كانوا يختارون آية من العهد القديم ليفسّروها. كان التلامذة يقرأونها في أصلها العبراني، ثم باللغة الآرامية الدّارجة، كان الأستاذ يذكر كلّ التفاسير التي وردت حولها أو يعطي بعض تفاسيره، ثم يطرح الأسئلة، ويتلقّى الأجوبة، وكثيراً ما كان يدور جدل حواري، كما يجري في جامعاتنا، وغالباً ما كان ينتهي الحوار وسط ضجيج الأصوات.

كانت دراسة اللّاهوت تشمل في ذلك الزمان فرقتين، فرقة الهلاخا، أي التقاليد المختلفة بعددها الكبير ونواهي الشريعة. وفرقة الحايادا، أي الحقائق الدينيّة النّابعة من تاريخ العهد القديم، ومن القصص التي حيكت حولها. أو كما نقول اليوم الحق الكنسي، أخلاق، عقائد، تاريخ كنسي. اطّلع بولس على تعاليم الفرقتين، كما يستدلّ من رسائله (في ٣، ٦. غلا ١، ١٤) حيث نرى تفاسير رمزيّة لحوادث تاريخيّة. لم يدُر الكلام في القديم حول دراسة التاريخ. «كان الكهنة يهتمّون، لا بتاريخ الناس، بل بتاريخ الإنسانيّة. يهتمّون بعلاقة الإنسان بالله، كما تظهر عند الأشخاص، وفي وقائع الماضي كقاعدة ورمز[٣٢]» إن استفانوس في موعظته الكبيرة في المجمع يعطينا مثالاً عن استعمال الشواهد المفصّلة التاريخيّة. من الجائز أن يكون استفانوس قد استمع الى الدروس التي سمعها بولس، وربّما كان خصمه. إن إشاراته عن الثقافة، وتلميحاته عن عجائب موسى، وعن توسّط الملائكة في دعوته الى العليقة الملتهبة، هي من التقاليد اليهودية، وكذلك قصة ينيس ويمبريس المذكورة في الرسالة إلى تيموثاوس (تيمو ٢ : ٣— ٨) وقصّة رئيس الملائكة ميخائيل الذي صارع الشيطان من أجل جثّة موسى (يهوذا : ٩). إنّ

دمج العدد الكبير من التفصيلات التاريخيّة ، لإيضاح قضايا أخرى مستقلّة تمام الإستقلال عنها ، هو من طبيعة بولس ، ويوافق مزاجه. لا يركّز بولس انجيله على العهد القديم ، بل يفتّش في العهد القديم ، استناداً إلى التفسير الصوفي للكتاب المقدّس ، تحت كشوفات الروح القدس النيّرة ، ليجد بالنتيجة ، بطريقة جدّ مستقلّة ، صحة انجيله. ألم يأخذ حقيقة الإنجيل بالكشف المباشر؟[٣٢].

رأينا سابقاً عنصرين من عناصر ثقافة الرسول: ثقافته اليونانية في طرسوس ، وثقافته الدينية. ونضيف الآن عنصراً آخر ، ثقافته الكتابية واستعماله الفني لمعنى الكتاب المقدّس الثلاثي ، الذي تعلمه في مدرسة غمالائيل. بدون هذا المعنى الثلاثي للكتاب المقدّس. المجازي الرمزي ، الواقعي ، والرمزي لا يمكننا أن ندرك رسائل بولس الرسول. إنّنا نتبع هنا تحليل بارات الدقيق[٣٦] . «المعنى التقليدي هو الروحي النبوي ، المعنى السري الذي تتضمنه حرفية الكتاب المقدّس. الكتاب المقدّس كعمل للروح القدس هو كتاب نبوي موحّد. وفي نظر بولس أيضاً الإنسان الأول وآدم هو رمز المسيح الرجل النهائي. إنّ البشرية كلّها تدور حول هاتين الشخصيّتين كما تدور حول قطبين. الشريعة الموسوية ، وموسى ، والحمل الفصحي ، والزواج ، والصخرة في الصحراء ، والمجمع ، لها في نظر بولس معنى سرّي. وبما أنّ الكتاب المقدّس ، هو كتاب فوق الزمان ، فيمكنه أن يتجاوب مع حاجات كلّ العصور. وكلّ مؤمن تقي ، وكلّ واعظ ، يمكن أن يستخلص هذا المعنى للكتاب المقدّس وفقاً للمواهب التي أعطيها ، ووفقاً لمتطلّبات العصر في الوقت الحاضر. لقد أعطانا بولس مثالاً لذلك عندما حثّ أهل كورنثوس على التبرّع من أجل الإخوة الفقراء في أورشليم (٢ كور ٨ : ١٥). إنّه يرتكز على التساوي بين الذين كانوا يجمعون المنّ في الصحراء وعلى المصير المشترك الجامع بين كلّ البشر. ويطبّق نص الكتاب المقدّس على حالات مماثلة في الوقت الحاضر تحمل نفس المعنى الإنساني. هناك طريقة خطابية رمزية أخرى لاستعمال نصّ الكتاب المقدّس كوسيلة للإيضاح استعملها بصورة رائعة وعاظ عظماء في الماضي يمكن تسميتها : السلاح السرّي لاستتباب طريقة وعظهم.

إنّ الرسول بولس يعطينا مثالاً عن هذا الطباق الرمزي الكتابي في رسالته إلى أهل رومية (رومية ١٠ : ٦ — ٩) وتذكرنا هذه الآية بخطاب موسى الوداعي (تثنية ٣٠ — ١٠) «إذا أطعت أمر الرب إلهك وحفظت وصاياه... وتبت إلى ربّك من كلّ قلبك

فالوصية لا تفوق طاقتك» لست بحاجة لأن تقول «من يصعد الى السماء؟ وذلك لينزل المسيح. أو من ينزل الى الجحيم؟ وذلك ليصعد المسيح من بين الأموات. ماذا يقول؟ «إنّ الكلمة قريبة منك في فيك وفي قلبك» يقول بولس: الإلتصاق المؤمن بالمسيح مع التبرير هو أسهل وفي متناول كلّ إنسان. لا تقول: من ينزل إلى الجحيم ليصعد المسيح من بين الأموات؟ المسيح قام والنّاهض بيننا. لا تقل: آه من يصعد إلى السماء لينزل المسيح؟ إنّه حاضرٌ بيننا. لقد صار إنساناً. أنظر إلى إيمانك بصورة جديّة وسرّ بعناد وعناء وراء نتائج اعترافك بالمتجسّد الذي قام من بين الأموات.

إنّ هذه الأمور ليست ببراهين كتابية بل أساليب خطابية[٣٦] جدّ ناجعة. كان القديس برنار والقدّيس بونيفاتيوس لا يجاريان في هذا المضمار أن روحهما كانت قد ارتوت حتّى الاشباع من روح ولغة الكتاب المقدّس. يبقى الكتاب المقدّس معيناً لا ينضب للواعظ الذي يغرق في بحور الأفكار التقويّة العميقة. «لا يمكن أن ينزل الدلو إلى اسفل، إلّا ويصعد حاملاً الذهب» (نيتشه).

إنّ الحياة الإجتماعيّة في مدينة كأورشليم لشاب يتلقّى العلوم في الجامعة بعيداً عن أهله لا تخلو من الأخطار. الطبقات العالية التي دخلها شاول لمواهبه الخارقة وخصوصاً العالم النسائي، كانت تعرف أن توفق جيداً بين الشعوذات مهما كانت كبيرة وبين الأبّهة المطلوبة جداً. كانت الأوساط الممتازة تتكلّم لغة آرامية تزينها لهجة عذبة وكانت تحبّ الظرف وتستملح النكات وكانت مفتوحة البيوت.

إنّ الغاويات من العبرانيّات المولهات المعطّرات بالناردين وعلى رأسهن فرنيكي التي سبَت عقل تيطوس وأوقعته في شباكها، بأساورهنّ وخلاخلهن المجلجلة في معاصمهنّ وأرجلهنّ كُنَّ بالنسبة لشاب من شباب المقاطعات مثالاً للظرف والأناقة. كانت هذه الأمور بالنسبة لبولس لا تستحقّ الإهتمام فالأمور الدينية سيطرت على عالمه الفكري والشعوري. ومع أنّ الزواج كان فريضة لازمة يفرضه كهنة اليهود فإن بولس اختار البتولية. إنّ عمله مثير للانتباه. لقد حذا حذو ايليا وإرميا، الرجلين العظيمين. ولعلّه برَّر نفسه كما برّرها أحد الكهنة الذين اختاروا البتولية. ماذا أفعل؟ قال الكاهن اليهودي: «إنّ روحي تعلّقت بالتوراة فليهتمّ الآخرون بإكثار النسل في العالم» ألم يبرّر الرسول نفسه بعد أن صار مسيحياً؟ ألم يقل بأنّ زواجه كان من النوع الروحي؟[٦٥].

يأخذ الكتاب المقدّس بتلابيب نفس شاول. كان يعرفه عن ظهر قلبه بلغتيه العبرية واليونانية. كان يعرف السبعينة عندما كلن في طرسوس وكان لا بدّ أن يحفظه لصعوبة حمله في رحلاته بسبب ضخامة مخطوطاته. كانت رسائله تنبع بآيات من العهد القديم وإنّك للامح في كل خطوة يخطوها استشهاداً. لقد أحصوا ما يقرب من مئتي آية مذكورة في رسائله. من يشكّ أن الكتاب المقدّس جعل من روحه روحاً عظيماً وخلق منه رجلاً نادراً؟ فلا نعجبن إذا عدّ بولس الكتاب المقدّس كنزاً لا بل أعظم كنز في العالم[٥١]. «فما فضل اليهودي إذن؟ وما نفع الختان؟» (رومية ٣— ١) يسأل الرسول ويجيب، «إنّه جزيل على كلّ وجهٍ أولاً لأنّهم ائتمنوا على أقوال الله». إنّ محبة شعبه لهذا الكتاب مثيرة ولا مثيل لها. قبل مئتي سنة من خراب أورشليم عبَّر أحد حكماء اليهود في مجموعةٍ من الأمثال عن عقلية عصره، وهذه العقلية اتّخذت لها وجوداً في روح شاول.

«كل هذه الأمور تنحصر في اتفاقيّة العهد مع الله العلي. من هذا الكتاب فاضت النعمة كمياه بيسان عند ارتفاعها وكمياه دجلة عندما تتدفّق فيّاضة في الربيع. منه فاض الإدراك كما تفيض مياه الفرات عند امتلائه وكنهر الأردن وقت الحصاد. منه انبثقت التربية كالنّور وكنهر النيل في الخريف. مَن نسيه فكأنّه لم يوجد ومن اقتلع جذوره فقد أباد نفسه. معناه أغنى من المحيطات وأعماقه أين منها الهاويات».

عندما خربت أورشليم على يد تيطوس ترك العبرانيون المدركون لمعنى الكنوز تركوا كلّ شيء، تركوا الذهب، وأواني الهيكل الفضية، والألبسة، وأدوات الزينة بحجارتها الكريمة التي كان يضعها رئيس الكهنة على صدره، ليخلصوا الكتاب المقدس ككنز فريد لا ثمن له وهكذا لم تأكل النيران هذا الكنز الخالد في الهيكل.

٤. «استفانوس، وشاول»

(أعمال ٦: ٨، ٨: ٢)

عشر سنوات مرّت على ترك شاول للجامعة، عشر سنوات مرّت على وداعه لاستاذه الحبيب المكرّم غمالائيل.

كان شاباً في الثلاثين من عمره (أعمال ٧ — ٥٨) أين كان في هذه الأثناء؟ لا مجال لملء هذا الفراغ إلّا بالتخمينات. لا شكّ أنّه عاد إلى الشتات ليقطف أوّل الثمار. لقد عاد إلى المجمع في طرسوس. كان يعرف العالم اليوناني عن كثب وقد لعب دوراً كبيراً في رسائله. كان يعرفه معرفة عميقة رصينة، وكان يقوم بزيارات عديدة للرعايا اليهودية في الشتات بناءً على طلبه وبتكليف من المجمع في أورشليم وقد كان مرتبطاً به بربطٍ وثيقة. لم تكن إقامته في أورشليم طويلة بسبب زياراته المتكرّرة للشتات ولم تسنح له الفرص للتعرّف إلى يسوع ولا يأتي على ذكره قط. فلو عرفه لذكر شيئاً عندما أرادوا أن يشكّوا في منزلته الرسولية، لو عرف بولس يسوع لما بقي حيادياً. إنّ طابعه العنيف لا يسمح له أن يبقى حيادياً، فإمّا أن يتجنّد لمحاربة المخلّص وإمّا أن يصبح تلميذاً من تلامذته. إنّ الآية الشهيرة في رسالته إلى أهل قورنثية (قور ٢ : ٥ — ١٦) تثبّت أنّ بولس لم يرَ يسوع بأعين اليهود الترابية ولا بسابق تخيّلاتهم بل بأعين إيمانه الفائق الطبيعة. هذه الآية توضح لنا أنّ بولس سمع من بعيد باسم يسوع وبعمله ويمكننا القول جازمين أنّ بولس لم يعرف السيد شخصياً[٥٨].

في هذه الأثناء حصل حادث لا مثيل له بين الحوادث التي وقعت منذ تاريخ بدء العالم. لقد تمّت ضحية الجلجلة الخلاصية. كان اهتمام بولس المتعجرف قليلاً باضطرابات الجليليين. كان على هذا النجار أن ينتهي كما انتهى غيره من الحالمين كنيفداس ويهوذا الجليلي الذين قتلوا مع تباعهم (أعمال ٥ — ٣٦ الخ). «إنّ أسد يهوذا زأر بقوّة فسمعت كل المسكونة صوته» (عاموص ١ — ٢).

سمع بولس دوي الرعد من بعيد. ثلاثة من رفقائه من كيليكيا اندرونيكوس ويونياس وايروديون كانوا قد ذهبوا إلى أورشليم في اليوم الخمسيني وعادوا كما يستدل مؤمنين (رومية ١٦ — ٧) وتكلّموا كثيراً عن حوادث الجمعة العظيمة المؤثّرة. وقال آخرون أن قضيّة أتباع الناصري لن تهدأ قط. كان ميتاً أخطر منه حياً، وكان أنصاره يتزايدون، وذكروا أنّ الكثيرين من الاسرائيليين الأتقياء وخصوصاً أبناء الحي الفقير أوفيل كانوا يذهبون صبح مساء مع رؤسائهم لى باحة الهيكل الدّاخلية وإلى أروقة سليمان وأن الكهنة من أصحاب الرتب الصغيرة قد تمرّدوا وانضمّوا إلى صفوفهم (أعمال ٦ — ٧) وأضافوا أنّ كلّ المدينة كانت تنظر إليهم نظرة حبّ وعطف (أعمال ٤ — ٣٣)[٥٦]. عندما

سمع أنّ رفيقه قد تمرّد ثار ولم يعد يتمالك نفسه. كان عليه أن يذهب إلى أورشليم. من الجائز أن يكون المجمع قد دعاه أو بعض مواطنيه ليكافح ضد الهرطقة الجديدة. إن اللاّوي القبرصي يوسف الذي لقّبه الرسل بارنابا أي ابن العزاء، كان له حقل، فباعه وأتى بثمنه وألقاه عند أقدام الرسل (أعمال ٤ــ ٣٦).

كان يهود الشتات الذين يتكلّمون اللغة اليونانية يشكّلون في أورشليم فرقاً اقليّة خاصة لها مجامع خاصة بها (لوحة ١١). وكانت المدينة أكثر بياضاً ممّا هي عليه اليوم لكثرة ما فيها من الجامع. كان فيها ٤٨٠ (؟)[٣٢] مكاناً للصلاة والوعظ والتعليم بعضها يحوي غرفاً للمنامة ومستراحات وحمامات ومغاسل للغرباء، وكانت تحوي في أقبيتها سجوناً من أجل إتمام العقوبات التي كانت تفرضها المجامع وخصوصاً عقوبة الجَلد، يذكر لوقا مجمع «المعتقين» كأهمّ المجامع ويؤلّف هذا المجمع أحفاد أولئك الذين نقلهم بومبيوس كأسرى من اليهود إلى رومية، ثم أعتقوا وصاروا أحراراً، وكذلك يهود كيرينا والإسكندرية وآسيا الصغرى وكيليكيا وطن شاول (أعمال ٦ــ ٩) كان بولس يذهب في كلّ سبت إلى مجمع هذه الفرق وكان يجري حوار عنيف بعد كلّ صلاة حول يسوع.

إذا قبلنا وفقاً للتقديرات الأكيدة أنّ يسوع صلب سنة ٣٠ ب. م. وأنّ بين تطوّر الكنيسة ومقتل استفانوس تخلّلت بعض السنوات يجب أن يكون بولس قد عاد على وجه التقدير إلى أورشليم سنة ٣٣ ب.م. لا بدّ أن يكون قد زار أوّل من زار في أورشليم استاذه المحترم غمالائيل. كان غمالائيل قد كبر وشاخ وابيضّ شعره. وكان يبدو مفكّراً وكأنّه قد فقد ثقته المطلقة السّابقة (أعمال ٥ : ٣٥) لم تكن المدينة كما كانت قبل المأساة. إنّ جبلاً هائلاً كان يثقل وجدان الشعب والكهنة. كان تلامذة المصلوب يدعون إلى اجتماعات سرية ليتكلّموا عن إنسان غير منظور لم يتمكّن من رؤيته غير خاصّته، وكان يهود الشتات الذين يتكلّمون اللغة اليونانية يقبلون زرافات زرافات نحو التلاميذ، وكانت لهؤلاء آفاق فكرية متحرّرة وثقافتهم كانت عميقة، وهكذا اكتسب التلاميذ هؤلاء إلى الكنيسة المؤسّسة حديثاً فاكتسبت الكنيسة عنصراً تطوريّاً جديداً صارت له حالاً قوة خلّاقة. إن استفانوس العارف المجلّي للكتاب المقدّس وفيليبوس الرئيس الصّالح لعائلته مع شقيقاته الأربع الموهوبات مثله بموهبة النبوّة (أعمال ٢١ــ ٩) كانا من «الشمامسة السبعة» ثم صاروا وعاظاً وعجائبيين (أعمال ٦ــ ٨) (٨ــ ٦).

نخطئ إذا اعتبرنا أنّ الكنيسة التي تأسّست كانت مؤسّسة مستقلّة ومفصولة عن اليهودية. كانت الكنيسة حتّى الآن مجمعاً من المجامع اليهودية الكثيرة لها بيت خاص للعبادة إلّا أنّها كانت تملك إيماناً قوياً بيسوع ومحبّة كبرى وموائد أخرى مشتركة وعبادة سرية شكرية بيسوع يظلّلها وشاح السر (أعمال ٣ : ٤٢ — ٤٦). كان استفانوس أوّل من فهم بوضوح وشرح يغلبه المعنى العالمي النهائي للكنيسة المسيحيّة وكان خصماً لا يستهان به بالنظر لشخصيّته القوية.

لندخل إلى مجمع من هذه المجامع الكثيرة. لقد كتب فوق المدخل باللغة الآراميّة واليونانية «مجمع الكيليكيين» رجال من جميع الأقاليم يحتشدون في الدّاخل أن صراعاً عنيفاً سيدور. البيت كأنّه انحشر، ويبدو كأنّه يسقط. لقد انتهت قراءة الكتاب المقدّس والوعظ وابتدأ الجدل. كان بطرس ويوحنا واقفين وراء العمود يراقبان المشهد. كان استفانوس واقفاً فوق منصّة عالية في الوسط. كان ابن طرسوس بهيئته النحيلة التي أكلتها النيران المشتعلة في أعماقه يقف مقابله. هنا التقت نبرات أعظم شخصيّتين روحيّتين في الكنيسة الجديدة. كان استفانوس يمقت التدقيقات الناموسيّة السكولستيكية. كان من المبتكرين ومن النفوس الكبيرة وكان ينظر إلى الموضوع نظرة تاريخيّة. لقد عاد إلى الأنبياء ليبرهن أنّ على المسيح أن يتألّم ويموت وأنّ المسيح المصلوب هو عبد الله المتألّم كما يصفه اشعيا. إنسان يتألّم، إنسان يموت كعبد فوق الصليب. أهذا هو مسيحهم؟ لا يمكن أن يكون ذلك حقيقة. إنّ بولس لا يستطيع أن يصدّق ذلك. هنا يقف مهدداً «عثرة الصليب»، إن الجرأة التي أظهرها بولس فيما بعد باستعماله للآية (غلا ٣ — ١٣) «ملعون كلّ من علّق على خشبة» (تثنية ٢١ — ٢٣) ليدعم فكرته المسيحيّة تشهد بأنّه استعملها كأقوى سلاح هجومي ضد استفانوس. إنّنا نقدّر عظم الهجوم الذي قام به شخصان على طرفي نقيض والعنف الذي تمّ به هذا الهجوم. كان شاول قاسياً في جدله لكن استفانوس كان أقوى منه. لم يتمكّن شاول «أن يقف في وجه الحكمة وفي وجه الروح المتكلّم». لقد استعمل بولس آية التثنية: «ملعون كلّ من علّق على خشبة» ليقاومه.

اضطر استفانوس أن يضرب كلّ النظام اليهودي في تفسير الشريعة. الشريعة والهيكل هما درجة موقّتة في مخطّط الله لخلاص الإنسان، المخطّط الذي يفوق من الخلف ومن الأمام حدود الإثنين. إن خطأ اليهوديّة التاريخي هو حجب الرؤية النظرية عن التّاريخ

البشريّ بصخرة الشريعة والهيكل وأوقفت تطوّر المحبّة الإلهيّة. لقد هبَّ الجميع واقفين عندما سمعوا أن الشريعة والهيكل هما أمور عابرة وشعروا بأنّهم جرحوا في أعماق حساسيتهم. إنّ المشهد تحوّل إلى محكمة. لقد ارتفعت ألوف من قبضات الأيدي في الهواء. وفوراً أصبح استفانوس في الأزقّة يجرّه النّاقمون الحانقون ويقودونه إلى مكان اجتماع المجمع، إلى باحة الهيكل حيث كان آباء اسرائيل مجتمعين على شكل نصف دائرة. ويعود استفانوس مرّة أخرى ليطبّق فكرته الخلاصيّة في ترابطها التّاريخي وينتهي بهذه التهمة المخيفة «والآن صرتم خونة وقتلة» إنّ الغضب المتفجّر واصطكاك الأسنان ملأ القاعة. كان استفانوس واقفاً لا يتحرّك وقد غرق في غيبوبة علوية ورفع أبصاره إلى العلاء. وقد أراد قيافاً رئيس الكهنة العنيد (١٦ــ ٣٢ ب. م) أن يطرح على التصويت هذا السؤال: أبريء أم مجرم؟ كان بولس مستعداً أن يرمي صوته في الصندوقة كعضوٍ في المجمع يحقّ له التصويت (اع ٢٦ : ١٠). ما هي الحاجة بعد؟ لقد جرَّ كلّ يهود المجامع الشّاب البطل من الغرفة نحو باب دمشق. كان مكان الرجم كواجهة المسرح على علو قامتين. اندفع شاول مع من اندفع وكمعلّم وحيد للشريعة كان يشكّ في العمل الجرمي. لقد دفع النّاظر الأول استفانوس دفعةً ألقته على الأرض مسطحاً وأخذ النّاظر الثّاني صخرة رماها فوق صدره بكلّ ما يملك من قوّة فلم يمته وقد جاء وفقاً للشريعة (تثنية ١٧ــ ٧) دور الشعب[٨٠]. كان الرجال يتركون ثيابهم البيضاء تحت أقدام شاول خوفاً من أن يمنعوا عن عملهم الجرمي المصبوغ بالدم. لكن استفانوس تمكّن أن يجمع قواه فانتصب ورفع يديه إلى السماء وأخذ يصلّي «أيّها الرب يسوع إقبل روحي» وهنا انهالت الحجارة تصفر في الهواء وتسقط فوق الشّاب فخرَّ على ركبتيه وبعينه المصابة التفت إلى شاول وسط عاصف كأنّه البرد المتساقط وفي جوٍ من الضجيج قال بصوتٍ ترتعش له الأرواح: «اللهم لا تقم على هؤلاء خطيئة» لقد انتهى العمل. كان البطل يغرق في سيلٍ من الدماء وكان شاول يقهقه فرحاً لقد ربح الشوط الأول.

ما حدث كان نوع من اللصوصيّة وكان رؤساء الكهنة يرتجفون داخلياً وكان المجمع يتحاشى الظهور في عملية كهذه العملية المجرمة خوفاً من أن يصطدم بالحاكم الروماني هذا اليوم كان من الأيّام التي لا تنسى بالنسبة لبولس. كانت توبيخات الضمير تنخزه طوال حياته وكان رجم استفانوس يطرق خياله ويعود إلى ذاكرته (أعمال ٢٢ : ٢٢، ٢٦ : ١٠). (غلا ١ ــ ٢٣، ١ قو: ١٥ ــ ٩) (لست أهلاً لأن أدعى عبداً للمسيح لأنّني

اضطهدت كنيسة الله) . كان شاول يعود بخاطره ، كلّما تقدّم في السن ، إلى الوراء فيتذكّر ذلك اليوم ولا يستبعد أن يكون قد اعترف بأنّ ذلك اليوم كان يوماً حاسماً في حياته . لم يعرف جفنه حتى ثانية واحدة من النوم ، في تلك الليلة المعذّبة كانت النسوة يصنفن الخيوط ويبكين وينحن مع الوالدة الحزينة على ابنها الفتى الشجاع [٥١] . كان بولس في تلك الليلة يسترق الأصوات ، ليسمع ما يقوله رجال اتقياء يسترشدون طريقهم في الظلمة تحت نور المشاعل يحملون الميت ويذهبون به بعيداً . أم أنه كان يضغط بكدٍ على توبيخات ضميره معتقداً أنّ ذلك من أحابيل الشيطان؟ حتى الآن لم يتمكّن شاول أن يفرق بين الأرواح .

كان موت القديس استفانوس الضريبة الواجب دفعها على الكنيسة لكي تكسر طوق القومية اليهودية ، وتسير إلى هدفها لتصبح كنيسة مسكونية (٣٥آ) . وتربح بذلك أكبر رسول لها أتمّ التمييز الدنيوي والتاريخي «بغير إراقة دم» (عب : ٩ : ٢٢) لا تكتب الإنتصارات الكبيرة بدون إراقة الدم . هذا هو المبدأ الأساسي في مملكة الآب . وقد قدم استفانوس هذه التضحية فأصبح بذلك فاتحة المستقبل العالمي الجديد .

لمثل هذه الحصون تحتاج الكنيسة لتتم «ما ينقص من مضايق المسيح» (كولوسي ١ — ٢٤) إنّ الله يترك أحياناً معاونيه لأن يختفوا ويزولوا إلّا أنّه يدفع عملهم إلى الأمام . إنّ استفانوس رجاء المسيح العظيم قد مات لكن الحقيقة لا يمكن أن تموت فالله يقف وراءها . من كان يتصوّر ، وهم يرجمون استفانوس أن قاتله في ظرف سنة سيحتلّ مكانه ليحمل إلى نهاية المطاف الشيء الذي من أجله كانوا يقدّمون نفوسهم ضحايا . «كانوا يرجمون استفانوس لكي يرجم بأيدي النّاس أجمعين . وكان بولس يحرس أولئك الذين كانوا يرجمون استفانوس لينصب الناس عليه بكلّ حجارة الأرض . كانت صلاة المرجوم تنطبق على بولس فلولا هذه الصلاة ، صلاة الشهيد استفانوس لما كان في الكنيسة بولس» .

٥ . المضطهد

أعمال ٨ : ١ — ٤ أنظر أعمال ٩ : ٢١
٢٢ : ٤ — ٥ . ٢٦ : ٩ — ٢١ ، ١ كورنثس ١٥ : ٩
غلاطية ١ : ٢٣ ، فيلبي ٣ : ٦ ، ١ تيموثاوس ١ : ١٣

هناك طرق عديدة للحقيقة. منها ما يهبها الله للإنسان بدون عناء ودينونات ، وهناك من يمررها وسط دمارات داخلية مخيفة كأوغسطين ودانتي. كان أوغسطين يرى في ارتداده رمزاً لمسير بشري مثقل بالخطايا. في نشيده الفصحي يمجّد بمغالاة خارقة خطيئة الجدين الأوّلين ، فهي التي قادت المخلّص إلى العالم. وقد ولج القدّيس بولس عالم المسيح مروراً بليل الخطيئة. في كلماته ومواعظه يظهر المعنى الذي يعطيه للحادثتين ، حادثة كرهه للمسيح وحادثة رؤياه. إنّه يردّد هاتين الحادثتين كثيراً ممّا يستدلّ على عمق تأثّره بهما. عندما يقطع الإنسان علاقته بالماضي فالماضي يبقى في قابليته ليراه تحت مجهر قوي من النور ومن الصعب أن ينظر إلى نفسه والى الآخرين نظرة صالحة. حدث هذا مع بولس وأوغسطين ولوثير. عند أوغسطين نرى شعوراً عميقاً بجريرته ، واتّهامات ضدّ الكنيسة عند لوثير ، أمّا عند بولس فاتهامات ضدّ نفسه. عندما تقدّمت السن ببولس كان ينظر إلى ذاته نظرة فيها عطف وكان يقول إنّ ما فعله كان عن جهل. كانت كلّ التفصيلات في خاطره تضغط عليه كثقل مخيف يجابهه كأشباح ليليّة.

كان موت استفانوس منطلقاً لموجة جديدة من الأحزان وإشارة إلى اضطهاد الكنيسة الفتية اضطهاداً دموياً. وهذا من الأمور التي عجّلت في سيرها. الخبرة تقول : إنّ الإضطهاد الغير العادل يثير العطف ويحرّك التأسّي في القلوب ويجعل القضية التي من أجلها يضطهد الإنسان قضية قريبة من قلبه بالألم. ماذا حدث لبولس؟ إنّ ملاحظة واحدة تثير فينا بعض الأفكار وإن كانت تبدو كأن لا معنى خاص لها «أمّا شاول فكان راضياً أن يقضي عليه» أي على استفانوس. خلف هذه العبارة يجب أن نضع استفهاماً لأنّ بولس بالرغم من كلّ هذا كان إنساناً ذا ثقافة عالية وعمق عظيم. رأى الشّاب استفانوس يموت في قلب مجد الشهيد ، رأى وجهه يشرق بانعكاسات عالم أسمى رآه يترك العالم وعلى شفتيه صلاة من أجله. أيمكن التصوّر أنّ كل هذه الأمور لم تترك شيئاً في عالمه العميق الدّاخلي؟

كان هناك شيء ما أحب بولس أن يعترف به حتّى إلى نفسه. إنّه لم يكن «راضياً» رضاءً كلياً. وهنا أخذت أول شوكة تنخزه. إنّه كما نراه فيما بعد وهو المرهف العاطفة، عانى الكثير من التهم التي كان يوجّهها إلى نفسه. إذا كان قد تحمّل فقد تحمّل على قدر ما كان يؤمن بالله (أعمال ٢٢ — ٣). كان في أعماقه يفخر بأحزانه. الرجل الذي كان يشعر بجريرته يحاول أن يبرّر ذاته أمام ضميره وأمام الآخرين مع أنّه كان ينساق بغيرته الخاطئة وراء الكلمات، وهكذا كان يتعثّر بجريرة أكبر. إن بولس عاد فوجد نفسه. عليه أن يكمل عمله، وأن يجتثّ الهرطقة الملعونة بالنّار والحديد. لقد أخذ على عاتقه، أن يقوم بالدور الأساسي في محاكمة المسيحيين، وكانت الطريقة جدّ موفّقة. لقد حرّكوا نار الأقاويل في الجموع بنشائد الحقد، وبإثارة التعصّب الذميم. كلّ ذلك تمّ بناءً على تعليمات المجمع السرية الذي أراد أن يبقى متخفياً في هذه اللعبة الجهنّمية. وكان بولس يظهر على المسرح بعد أن يكون الرأي العام قد أُعدَّ لذلك.

تأسّس نوع من محكمة تفتيش وقد عيّن شاول المفتش الأكبر. وكان كلّ الخونة وحرّاس الهيكل تحت تصرّفه، وكان القبض الليلي والتفتيش المنزلي والضغط واستعمال التعذيبات التي كانت تتمّ في أقبية المجامع (أعمال ٢٦ — ١١) ليعترفوا بجريرتهم ويشتموا المسيح عملاً من الأعمال اليوميّة الدّائمة وكذلك الجلد «أربعين جلدة إلّا واحدة» التي ذاقها كما يقول. كانت السجون محشورة. لقد هرب إلى البر مع أولاده كلّ من تمكّن أن يهرب. إنّ الطريق كانت محروسة وكان بولس يضطهد برجاله كلّ البشر في كلّ مكان. كيف تمكّن الرسل أن يبقوا في أورشليم؟ سؤال يطرح هنا. لقد بقي معهم عدد من اليهود الذين قبلوا المسيحية ولولا هذا لما كان لبقاء الرسل أي معنى. يظهر أنّ التفريق بين المسيحيين واليهود لم يكن قائماً حتّى ذلك الوقت بل كان بين المسيحيين والفلسطينيين الذين استمروا في التصاق مع الشريعة الموسوية وبين أحرار اليهود في الشتات الذين يتكلّمون اليونانية. أي كان هناك تفرقة بين الجبهة المحافظة للرسل الأول وبين جبهة استفانوس الرّاديكاليّة. هنا المشكلة التي لاحقت بولس طوال حياته. فمن ناحية الكنيسة المؤلّفة من مسيحيين من أصل يهودي مخلصين للشريعة الموسوية، ومن ناحية أخرى الكنيسة المسكونية المحرّرة من الشريعة. الفريسيون الذين اعترفوا بيسوع بدون أن يطرحوا جانباً عباءة العقلية اليهودية يمكنهم أن يبقوا في أورشليم بدون أيّ إزعاج وكان يحمي الرسل يعقوب الأمين على الشريعة الموسوية. الذي كان يتمتّع باحترام عظيم.

«وكان شاول يقذف قتلاً وتهديداً» يا للمسلك المحيّر، يا لمسلك من سيصبح رسولاً! كيف يمكننا أن نوفّق هذا المسلك مع طبعه؟ سيبقى ذلك أحجية الأبد. مع ذلك علينا أن نحاول لندخل قليلاً إلى عالم هذه الأحجية. رأينا سابقاً ما يعنيه دخول «الوصية» إلى عالم الإسرائيلي القائم في مرحلة تطوّره. كانت آنذاك تحكم «الخطيئة»، هذه القوّة المخيفة، حياته. أو بالأحرى العذاب أمام الخطيئة. إنّ هذا العاتي كان يعشش في كلّ منطقة من مناطق الإنسان «الجسدي» «والنفسي» ويسبب شعوراً مدمّراً، شعور العبودية. ما أعمق شعور شاول، ما أعمق ما شعر به أمام هذه الحالة. إنّ ما قاله يشهد على هذا العمق. إنّ وصفه لمنزلة الإنسان العائش تحت الشريعة، أو الإنسان الذي لم ينعتق بعد يدلّنا على عمق شعور الرسول بحالته: «من يخلّصني من جسد هذا الموت؟» السيف كان معلّقاً فوق رأسه القلق «من اليوم الآتي» ويسيطر على حياة العبرانيين الدينيّة في ذلك العصر.

شيء آخر يجب أن يضاف إلى ذلك. كانت الشريعة والدينونة المقبلة تسيطران على اليهوديّة في الأزمان الأخيرة. إنّ الشريعة بوصاياها المائتين والثماني والأربعين وبنواهيها الثلاثمائة والست والأربعين وبتقاليدها اللفظيّة التي لا عدّ لها كانت تكتنف وترتّب الحياة اليومية بأدقّ تفصيلاتها كأنّها قطعة حيكت فيها. لقد روعيت كلّ حالة من حالاتها. لم تترك الشريعة شيئاً للمسؤوليّة الشخصية. كلّما صعبت الحياة شعر المرء بالأمان وراء بناء الشريعة المحيط به. هنا يستطيع المرء أن ينظر يوم الدّين الذي كانوا يصوّرونه في الأحلام الكشفية الجريئة. كلّ من زعزع ولو قليلاً أساسات هذا الكيان اليهودي يجب أن يسحق. إنّ مساهمة الشخصية هنا أمر ضروري وكان بولس على استعداد لذلك[٧٩]. في الأيّام الأخيرة حاكت اليهودية بالنّاموس «الذي وجب أن يؤدّي الى الحياة» (رو: ٧، ١٠) ثوب الفروض التعيس الذي أحرق الإنسان من الدّاخل. فأصبحت الوصايا خلقية كانت أم دينيّة وكأنّها إلهية ومن خالف واحدة منها كأنّه يخالفها كلّها. وحدة الشريعة عقيدة. ولكن في الحقيقة كانت الإستجابة للمطالب شاقّة بالإضافة إلى عدم كفاءتها وقد كان هذا واضحاً بالنسبة لبولس بقدر ما كان واضحاً عند بطرس فنجده في مجمع الرسل في أورشليم: «لماذا تجرّبون الله الآن بأن تجعلوا على أعناق التلاميذ نيراً لم يستطع آباؤنا ولا استطعنا نحن حمله» (أع ١٥: ١٠ — ١١).

عندما يقول بولس إنّه كان «رجلاً لم ينله لوم في البر الذي تقتضيه الشريعة» (فيلبي

٣ : ٦) فهو يعني فقط طاعته الظّاهرية للشريعة بالمقارنة مع أترابه الآخرين. هناك فرق يعذّبه بين ما يريده وما يفعله. تضاد لا يحتمل بالنسبة لإنسان مرهف الحسّ وعميق مثله. كم تبدو الحالة تعيسة في قلوب أولئك الأتقياء يظهر لنا ذلك في الكتاب الرّابع من عزرا والذي يعتبر حديثاً بعض الشيء: ١٩..

في كلّ ساعة ينجرح قلبي لأنّي أريد أن أدرك الدرب الأعلى وأسبر غور معرفته» (٣، ٣٤) آه! ماذا فعلت يا آدم؟ أخطئت؟ أن سقطتك لا تثقلك وحدك. لا. إنّها تثقلنا نحن أولادك. ماذا يفيدنا لو كان لنا وعد الأزلية ونحن نعمل الموت؟» (٥ : ١١٨).

في التحليل النفسي المقتضب يعطينا الرسول كممثّل لليهودية لم يتحرّر بعد وصفاً في رسالته إلى أهل رومية مجسّماً ضعفه وعن شعوره بشقوته الناتجة عنه بحق سميت هذه الرسالة «الإعتراف الأخّاذ» درة حقيقية يمكن أن تقذفها إلى اليابسة موجة فقط من أمواج الجهادات الدّاخلية الشخصية والتجارب المحطّمة».

لا يمكن أن يعيش المرء في فراغ داخلي إلى ما لا نهاية، لا يمكن أن يبقى مع شعوره بأنّه يحيا سلبياً. إنّ بعض النّاس يحاولون أن يستخلصوا الفضيلة من الشقاء أو أن يخادعوا أنفسهم بتفسيرات حرفية فارغة، تفسيرات تبريرية مشدّدين على أنّهم ينتسبون إلى شعب يملك المواثيق والعهود. مثل هذا المخرج الريائي مستحيل على رجل مثل بولس. إنّ رسائله تسمح لنا أن نرى حتّى العميق من محور وجوده «أن نرى اندفاعاً لا يصمت نحو الكمال لا يرضيه إلّا تفانٍ لا يكلّ من أجل ما يعتبره إنّه الهدف وبانفاق كلّ القوى من أجل العمل الذي أمر به الله»[٢٨]. لقد كان عدواً لإنصاف الحلول وممثّلاً للنظام المطلق. إنّنا ندرك الآن غيرة بولس اللّاهبة التي اندفع بها بعد أن وضعنا أمامنا شعور القلق الدّاخلي الذي يتأكله وكيف اندفع في اضطهاده ليعوّض عن الفراغ الخلقي في رسالته بمحاولات خارجية لخدمة الشريعة تجسّد بهجوم وحشي نحو الخارج. إنّ هذا وجه من وجوه (فوق التعويض) المعروف عند علماء النفس في حالات الأفعال المخفقة وعواطف الشعور بالنقص أمام قوّة الشريعة الضاغطة.

إنّ بولس الآن يرى في المسيحيّين الذين يموتون شيئاً جديداً، حلاوة سعادة داخلية، يرى حياة بتعابيرها السّامية، يرى رباطاً مع يسوع الغامض لا يزعزعه شيء، يرى شركة

داخلية معه توطّد الثقة في نفوسهم فيؤمنون بأنّهم يجتازون لا إلى الموت بل إلى الحياه وفي هذه الحالة وجَّ أمامه نور عالمٍ تخبو أمام نوره الشريعة وتعجز الشريعة أن تقدّم مثل هذا النور : وكانت شوكة ثانية مزّقت روحه . كان يجاهد للوقوف في وجهها وكانت كلّما ازداد العناد ازدادت تثقبه عميقاً .

أدرك بولس فيما بعد كمسيحي بطلان الخطيئة الملحفة بمكرها الشيطاني . كثيرة هي الأحزان التي تأتي من ثقافة دينية خاطئة ، من سلام داخلي كاذب بسبب فقدان الثقة بالله . إنّ بولس في رسالته إلى أهل رومية يرشدنا إلى طريق الشفاء . علاقة إيجابيّة أساسية جديدة بالله . إنّ صد النفس يذوب والحرب تتعطّل ولا يتحقّق (التعويض) بخيالات فوق القيم . لا يتحقّق بضغط على الوجدان . إنّ اتجاهاً أساسياً يلوح ، علاقة ثقة شبيهة بتلك التي يملكها الطفل الصغير الذي يطفح وجهه بفرح الصلاة ، الذي لا تزعجه قلّة الإيمان أم أي انتفاخ داخلي وفي هذه الحالة تصرخ النفس بعثورها على صوتها الطبيعي : «حي هو الله» هكذا تمكّن بولس المسيحي أن ينتظم مع ماضيه وأن يحكم حياته . لا نرى فيه عاطفة المريض المتمرّد ، ولا أي شيء «من الكره لماضيه يحكم حياته» لم يكفر بالقيم السّابقة ولم يثقلها بالكره بل أقرَّ بقيمتها الحاضرة . يهودي من أصل يهودي ، يهودي من سبط بنيامين» أو أعطاها الصبغة المسيحيّة إن «النّاموس صالح» فلنبطل «الناموس» وبكلّ هدوء يقف أمام كلّ الماضي . حياته ستصبح ملموسة (كوحدة مليئة المعنى)(٤٤) .

٢. سنوات النضج والجهود الأوليّة في البشارة

٦. «الارتداد الكبير»

أعمال ٩ : ١— ٩، ٢٢ : ٦— ١١،
٢٦ : ١٢— ١٨، ١ كورنثس ١٥ : ٨، ٩ : ١
٢ كورنثس ٤ : ٦، غلاطية ١ : ١٢ و١٥ و١٦
أفسس ٣ : ٣، فيلبي ٣ : ١٢، ٢ تيموثاوس ١ : ٩

عندما يعود بولس إلى الماضي من حياته، يراها بقسميها واضحة أمام عينيه. حياته «بدون المسيح» وحياته «مع المسيح». إنّنا نقترب الآن من المنحنى الكبير الذي يقسم هذه الحياة إلى قسمين: إلى ثلاثة شلالات تتبع حياته، الواحد تلو الآخر، مقتل استفانوس، الإضطهاد في اليهودية وسفره إلى دمشق. وتتدحرج هذه الحياة العاصفة بسرعة نحو ذاك الإرتداد العظيم الذي يحمل النهر ويقوده الى المصبّ الجديد ليوزع قواه الخارقة لا للهدم والتدمير بل ليزداد ويتضاعف ويثمر ويحمل الخيرات إلى الإنسانية.

كيف وصل إلى هذا الارتداد وأيّة مراحل اجتازت داخله سيبقى ذلك من الأسرار إلى الأبد. التصق بولس بطابع ارتداده الفائق الطبيعة التصاقاً لا تنفكّ عروته وصار المسيح السماوي بملء قوّته في لحمةٍ مع حياته. «إنّه لخطأ فادح أن تنسب هذه النقطة الجوهرية من النقد الذّاتي الى الضلال»[١٩] فرضية النقد الذّاتي هذه لا تقلّل من طابع السر العجيب القائم في مسلك العناية الالهيّة بل تقرّبنا باحترام كلّي من هذا الحادث العظيم. ولا

يضيرنا إذا نحن حاولنا أن ندخل على قدر الإمكان الى صلب هذا الحادث من ناحية سيكولوجية وتاريخيّة ما دام الحادث لا يقف في التّاريخ كحجم لا يفسَّر يسدُّ علينا الطريق للدخول إلى حياة بولس الدّاخلية وإلى عمله العجيب خلال حياته كلّها.

لقد خلت أورشليم من «المسيحيين اليونانيين». منهم من ذهب إلى يوبي حيث كان بطرس يعلم ومنهم إلى السامرة حيث كان فيليبوس وآخرون تاهوا فوصل البعض إلى دمشق قلب سوريا الشرقية ومنهم من وصل إلى فينيقية وقبرص وانطاكية. إنّ سيل اللّاجئين المصبَّ أكثره في دمشق وكانت أكبر الجاليات اليهوديّة تقطن هذه المدينة وكان لليهود من أيّام الملك آخاب الحق أن يفتحوا المحلّات التجارية على جانبي الطرق الطويلة. هناك خوف كبير على الألوف من اليهود المؤمنين من هؤلاء اللّاجئين. يجب أن تتطهّر المدينة من هذه الخلية الجديدة، وهكذا ينطلق بولس تاركاً باب دمشق في أورشليم القريب من ضريح استفانوس على رأس فرقة مسلّحة وكان يمتطي جواده. تستغرق السفرة أسبوعاً كاملاً وكانت المسافة التي سيقطعها مئتين وخمسين كيلومتراً وكانت هناك ثلاث دروب إلى دمشق اختار بولس لا شكّ أقربها. اجتاز تلال اليهود، من فيثيل التّابعة لسبط بنيامين ومنه بولس. ثم حقول السّامرة بسنابلها الذهبية التي وقف أمامها السيد المسيح المواجة عندما مرّ بها قبل سنين وقال متنبئاً: «ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول فقد ابيضّت وصارت جاهزة للحصاد» (يوحنا ٤ — ٣٥) إنّ شاول باضطهاده يخرج كلمات الرب من مكمنها ليجعلها حقيقة واقعة. «أطلبوا إذن إلى رب الحصاد ليرسل عمّلة إلى حصاده» (متى ٩ — ٣٨). من الجائز أن يكون شاول قد وقف كما وقف يسوع عند حافة بئر يعقوب. يا للنظرات الحانقة نظرات أهل السّامرة! إنّهم ينظرون إلى بولس نظرة الحقد الماقت. يا لويل ذلك المسيحي اللّاجئ إذا تنسّم ريحه في ذلك المكان! تنفّس المسيحيّون الصعداء وأزيح ثقل عن صدورهم عندما أخذ شاول وفرقته ينحدرون من جنين إلى سهل عسقلان المّواج بالخضار المعطّر بندى الريح المالحة المحمولة إليه من البحر. اجتاز شاول، في هذا المكان، الجبال الذي اندحر فيها جدّه شاؤول الملك وخسر مملكته وتاجه ثم اتّجه شرقاً نحو الأردن، وعندما اقترب من سكيتوبولي بيت سيّان القديمة الواقعة خلف جبل حرمون حيث علق الفلسطينيّون جثث شاؤول ويوناثان، عبر نهر الأردن، ثم اجتاز صحراء الفداء باتجاه البحر حيث مرّ في أحد الأيّام ابراهيم واليعازر ويعقوب وراحيل.

يا للسفرة الجميلة لو كانت ظروفها غير هذه الظروف! يا للسفرة الجميلة بلياليها الباردة وبخيامها ونارها الضاحكة في الظلمة تحت النجوم المرتجفة زوالاً. كان شاول ابناً للمدينة ولم يكن يحب الطبيعة «لذلك لا نلمس في رسائله أيّ اهتمام لجمال الطبيعة الخلّاب. إنّ معدن شاول النفسي غريب جداً، لم تكن الطبيعة تجذبه»[١٧] كانت القضايا الدينية الروحية تأخذ بمجامع قلبه وتستحوذ عليه.

كان شاول كالصيّاد. استولى عليه هوس لا يكبح جماحه مع ذلك لم يكن الصيّاد الوحيد في رحلته هذه. كان هناك صياد آخر. صيّاد التلاميذ كان يتبعه خطوة خطوة، وأنّى لبولس أن يعرف وهو يطارد المسيحيين من مكان إلى مكان أنّ هناك من يطارده. إنّ الشاعر الإنكليزي طومسون في قصيدته «سُلاقي السماء» يصف صيد الله الذي لا يعرف الكلل للنفوس الهاربة منه[٥١]. إنّه الصيّاد الإلهي الذي جعل سُلاقيّي السماء يركضون وراء الفريسة. يجهل هؤلاء السُلاقيّن، هذه المحبّة التي تهرّبها أفكارنا و واطرنا؟ من يجهل محبّة المسيح التي تركض الآن وراء صيد ثمين؟ أنّى لبولس أن يتخلّص من هذه المطاردة. فهوالآن بعيد عن المدينة الكبيرة الصّاخبة حيث يفرّ منه الكثيرون. لم يكن يرافقه شخص يوازيه يتمكّن من محادثته. كان عليه أن يخاطب نفسه. ستّة أيّام قضاها فوق متن جواده. ستّة أيّام قضاها في بحران. كان عليه أراد أم لم يرد أن يقف أمام محكمة وجدانه السرية.

إنّ النقد الذي يرفض العامل الفائق الطبيعة يريد أن يفسّر ارتداد بولس بأفكاره الجديدة عن يسوع تفسيراً نفسياً صرفاً. وينسب هذا الإرتداد إلى عوامل أخرى، إلى الصوفية الهلينية والتصورات الأسطورية عن «الإنسان السماوي» والروحانية الرواقية ويهوديّة غمالائيل النيّرة وقابليته النبويّة وكذلك إمكانيّة جعل تأثّراته مخلوقات نموذجية يعرف كيف يوفّق بينها وبين مسلك إلهي يسلكه. يتكلّمون على «مسيحيّة قبل المسيح» لبولس، إذاً من الطبيعي أن نسأل ما هو مثال اليهود الخلاصي ومثال بولس؟ كانت هناك فرقة صغيرة من البشر عميقة التدين. كانوا اسرائيليين لا غشّ فيهم (يوحنا ١ — ٤٨) ينتظرون، وفقاً لروح موسى النبوي الحقيقي، تحوّلاً دينياً، ومصالحة مع الله بعد المرور بآلام التطهير. وهكذا توصّلوا لأن يؤمنوا تحت نور الروح القدس بيسوع المسيح. وكان هؤلاء، حلقة حول مريم، وأليصابات، وزخريا، وسمعان. من أرواحهم قفزت «تعظم نفسي للرب» «مبارك أنت يا رب إله اسرائيل» «الآن أطلق عبدك» إنّ المثال الخلاصي العادي، مثال

كهنة اليهود، كان مشوّهاً كلياً بسبب التخيّلات السياسية التي كانوا يستخلصونها من نسلهم الداودي، ومن التفسير الخاطئ الذي كانوا يعطونه لآية دانيال (٧ : ١٣) «عن ابن الإنسان» الذي سيؤسّس مملكة عالمية أزلية، ومن الأدب المنحول (مزامير سليمان، كتاب أنوخ، الكتاب الرّابع لعزرا، ورؤيا باروخ). إنّ الأمّة التي تعيش عصوراً طويلة تحت نير العبودية تكون أحلامها كأحلام المحكوم في سجنه. ينبثق خلاص سياسي، كما كان يحلم به الشعب البولوني قبل الحرب العالمية الأولى، تحت تأثير الشّاعر ميكي ويكس، الذي نفخ في شرايين أمّته روح المقاومة الملتهبة. هكذا وجدت في الديانة اليهودية فكرة دينيّة خاطئة، تطوّرت، تطوراً خاطئاً، انحطاط عن دين الأنبياء. وهكذا قضت السياسة على الدين وجرّدته من أثمن ما فيه. لم تكن لتجول في خاطر اليهود حتّى الفكرة عن تضحية المخلّص المعتقة. وإذا تكلّم أحل «عن آلام العصر الخلاصي»، فإنّه يعني الضغط السياسي الذي كان يعانيه الشعب اليهودي آنذاك. إن مسيا الدين اليهودي في ذلك العصر، لم يكن «عبد أشعياء المتألّم»، بل صورة رائعة لا يعبر عنها، صورة سماوية أرضية، لها إمكانات حربية، وإدارية، تعلو فوق الضعف البشري، والموت. إن مثل هذا البطل الفوق الإنسان، يقهر كلّ أعدائه، ولا يمكن أن يقبل أن يُغلب أو أن يُصلب. رسالته هي السلطة، الحاكمة إبادة أعدائه، إقامة دولة عالمية أزلية، إقامة سلمٍ عالمي «لا يمكن أن يتصوّر أحدكم كم هو مخيف ظهوره بالنسبة لأعدائه، أينما التفت ارتجف الكون من رؤية وجهه. كلّ شيء يذوب كالشّمع أمام وجه النّار يكفي أن تقع ابصاره حتّى يذوب كلّ شيء، يكفي أن يسمع صوته حتّى ترتجف الكائنات» (أخنوخ ٤٦، عزرا ٤ — ١٣) إنّ القضيّة بأن مسيا سيتألّم، وأنّه سيقدّم ضحيّة تكفيريّة، وجدت كمثل الشعب اليهودي غير مهيّئة، وخصوصاً طبقة «خامبريم» أي طبقة الرسميّين من المحافظين على الدين، الكتبة والفريسيين[٥٨]. كانت الأمور أفضل عند الرجال البسطاء، والفقراء من الشعب «الأفخارتيس» «المتعبين الثقيلي الأحمال» الذين كان يستقبلهم يسوع بتأثر عظيم. حتّى مصف التلاميذ لم ينعتق من الأحلام الأرضية (مرقس ٩— ٣٢) ألم يحلموا برئاسات وزارية من عن يمين ومن عن شمال مسيّا (مرقس ١٠ — ٣٧) لم يمنع بطرس الرب عن آلامه عندما قال له (مرقس ٨— ٣٣) كم تعب الرب ليفتح أعين تلاميذه في عمواص (لوقا ٢٤ — ٢٦) (متّى ٢٠ : ١٦— ٢٢).

«أما كان ينبغي للمسيح أن يكابد هذه الآلام»؟

هذا هو المقال الذي كان يسيطر على عقل شاول. إنّ موت المسيح على الصليب كان يظهره مسياً كاذباً. مع أنّ الصليب كان البرهان الذي لا يقبل الجدل عن حقيقة مسيّا بالنسبة لتلاميذه وتباعه. إنّه لم يكن يتصوّر عالماً تسود فيه الإخوة بين اليهود والشعوب الأخرى. لم يكن يتصوّر أن يجمع ملكوت واحد كل شعوب الأرض. كلّ هذه الأمور كانت أباطيل وترهات. على كلّ إنسان أن يضع نصب عينيه كلّ هذه الأمور ليتمكّن أن يزن ما يعنيه دخول الروح المسيحي إلى وجدان هذا الإنسان، يوم ارتداده في دمشق.

استغرقت رحلته إلى دمشق ثمانية أيّام. كان يحمل في كيسه رسالة توصية من المجمع اليهودي ضد المسيحيين في دمشق وكانت آية النبي «ومثل خروف سيق إلى الذبح» التي كان يردّدها المسيحيون طوال مدّة استشهادهم تطرق مخيّلته باستمرار. إنّه يفكّر في مسيا المتألم، الذي مات، وهو المدعو ليخلصه، ويخلّص شعبه من انحطاطه الديني، والخلق (وكانت الشوكة الثّالثة). إنّ عقله لا يقبل مثل هذه الحقائق. إنّه يقاوم بضراوة. مثالية خلاصية من هذا النوع. كيف؟ أيمكن أن يتحوّل إنسان مثله، يعمره اعتزاز أصيل بنسبه اليهودي، أيمكنه أن يصبح جاحداً؟ إنّه يكره كرهاً شديداً هذه الهرطقة التي إذا انتصرت فإن انتصارها لا يعني إلّا القضاء الكامل على الديانة اليهودية وعلى مخطّطات الدولة العالمية. كان يتملّكه الشعور أن تبّاع الناصري سيحوّلون قضيّته إلى قضيّة فاشلة، إذا كانوا محقّين بمثاليتهم الخلاصية. كلّ شيء يتوقّف على هذه النقطة. المقصود هو وجوده الروحي، موته، أو حياته. أنّى له أن يدرك أنّ هذا التفكير يضعه في قلب الحقيقة. في الواقع أن «شيئاً جديداً» يدفع داخله نحو النور. كان حتّى الآن في عالم «الأموات» وصار فيما بعد «الوجود في المسيح» الأساس في فكرته الدينية.

في هذه الحالة النفسية والتّاريخيّة وُجد بولس. أين له أن يصبح مسيحياً؟ إنّ حالة كهذه لا تفتح المجال لطرق تقود إلى المسيح، إنّها تقود إلى الهاوية. كان يجب أن يحدث شيء في داخله. لا يكفي أن يمرّ بتجربة فقط. لا يكفي أن تغزوه فكرة عابرة. كان يجب أن يتمخّض داخله عن عجنة، عن مزيج من الزوابع الدّاخلية قبل اقترابه من اللحظة الحاسمة للقيام بجريمته الكبرى.

ها هو الآن أمام أبواب دمشق. لقد رأى أمامه واحدة دمشق الخضراء، التي ترويها مياه بردى، والفرفار. إنّ المدينة اللؤلؤية، بطوقها المؤلّف من شجر التفاح، والنخيل،

وشجر الآس ، تنام نصف مطبقة الجفون ، تحت أشعّة الظهيرة المرتجفة الحادّة البيضاء. إن عيني شاول شعرت بالوجع تحت الكوفية المتعدّدة الألوان. لم يحدث مع شاول كما حدث قديماً مع موسى عندما رأى وسط الصحراء الكاوية النسيم فوق العليقة يلمع ، ويشتعل ، والعليقة تحترق. كانت السماء كأنّها تحتضن شعلة تبهر البصر وتعميه. لقد وقفت الخيول منتصبة وأخذت جانب الطريق. ماذا حدث؟ سقط بولس على الأرض. إن رنّة كصوت المعادن سمعت والقوس الناري اتّحد فوقه. لقد رأى بولس في الحلم المشتعل شخصاً كأنّه «إنسان سماوي» (١ قور ١٥ ؛ ٤٨) رآه يتطلّع بعينين كأنّهما تطلّان من عالم الأزل ، فيها الجد والأسى ، والروعة ، والصفاء. لقد انهارت مقاومته أمام هذه النظرات العميقة أنّ صوتاً خاطبه بلغة آبائه المقدّسة (أعمال ٢٦ ؛ ١٤). وكان الصوت «كالندى الشفاف» الذي رأى فيه ايليا صوت الله الذي أمره «وهو الغيور المندفع من أجل يهوه» ليذهب إلى دمشق (٣ ملوك ١٩ : ١٢ — ١٥). كان الصوت كنشيد من أناشيد الجمعة الحزينة ، أو كعتاب مؤثّر. ناداه مرّة ومرّتين وثلاث مرّات باسمه : «شاول شاول لماذا تضطهدني؟» وكالبرق استولت عليه المعرفة الإلهية «لقد ضاعت قضيتي. كان استفانوس على حقٍ حي هو يسوع».

إن المرء ليتساءل ، أين أصيب شاول بالدوار تحت عزم هذه المعرفة؟ كم من الوقت مرّ حتى خرج منه ذلك السؤال الذي لا شكّ فيه بل عجب «من أنت يا سيدي؟» لا نعرف والآن. ها هي الكلمات الخلاصية «أنا هو يسوع» ثم يتابع بعتاب لطيف ويقول «الذي تضطهده» في تلك اللحظة ظهر له وجه يسوع النيّر كشخصٍ تملأ رأسه الجراح ، وتقطر الدماء من هذه الجراحات ، وتطوف فوق وجهه أمواج من الخطوط الأرجوانيّة النحيلة ، وكانت دماء الشهداء ترشح كنقط سميكة وكالبرق مرّت في عقله فكرة جسد المسيح السرّي المتألّم لآلام خاصّته.

إذ ذاك انطلق نور من أعماقه كأنّه نبع من ينابيع سرية ، وغمر كالنهر كل داخله «وأشرق في قلوبنا لكي تسطع فيها معرفة مجد الله المتألّق في وجه المسيح» (٢ قور ٤ ؛ ٦) يا لإشراق الإيمان الذي أشرق في داخله! كان ذلك بزوغ قوة كلّها وابتداء حياة جديدة ، ودخول عالم سام ، وحراثة حقل نفسه اليابسة. كانت معاهدة كاملة بين الروح والإرادة التي ثارت على الله. كانت سراً لكل أفكاره «من أجل سرّ ، طاعة المسيح» (٢ قو ١٠ :

٥). لم يكن في داخله أيّ شك في الحالة التي هو فيها الآن. أيقن ووثق أنّه رأى النّاهض من القبر وسمع صوته.

ها هو شاول. إنّه لم يزل كما كان. لم يكن إنساناً محمولاً على أجنحة الأحلام. كان ولمّا يزل مالكاً لتفكيره الرّاسخ، كان إنساناً يعمل «ماذا أفعل يا رب؟» لقد دافع شاول عن حصنه دفاع الأبطال. لكنّه عندما أيقن أنّ غيرة كانت خاطئة قرّر فوراً وانضمّ إلى خدمة الغالب. لا نحيب على حياته الممزّقة ولا خطوات بائسة بل عمل. الدرس من أوّله، وترميم على طول الخط «خذني يا رب واعط ذاتي اليك». أريد أن أكون من أتباعك. أريد أن أكون عبدك. هكذا سيوقع إمضاءه في المستقبل. لقد قبض عليه الصياد الأزلي وروّضه كما تروّض الجياد، وصار مثلها مطيعاً كما تطيع فارسها. عندما انتصب بولس واقفاً كان قد تمّ كلّ شيء. لقد صار تابعاً مخلصاً ليسوع إلى الأبد.

تعلّم شاول من تنازل المسيح المليء بالنعمة شيئاً آخر. ولم يكن هذا مهماً بالنسبة له فحسب بل بالنسبة للّاهوت المسيحي، أي «ليس الأمر إذن في الإرادة أو في السعي وإنّما هو منوط برحمة الله» (رومية ٩، ١٦). وهكذا فإن ظهور الناهض من بين الأموات لم يجبره بضغط خارجي، ليعترف بخاصة يسوع الخلاصية، بل داخلياً أخرجه من ضلاله وضعفه الخلقي وسديمه الديني وأقنعه بحقيقة مخلص الخطأة، والمعتق من الشقاء والإبتعاد عن الله، والوسيط الذي يقرّ بنا بدمه من الله (أفسس ٢ و١٣). لولا ظهور المسح لما كان بمكنة شاول أن يبدّل رأيه في «عثرة الصليب». إنّ ظهور المخلّص من بين الأموات لا كديّان ومنتقم، بل كرحمة محرّرة، وصلاح معتق (تي ٣ : ٥) هو الذي جعله يؤمن بأعماقه أن الغضب الإلهي تحوّل بالمصلوب إلى محبّة وأنّ المصلوب هو «حمل الله» الذي سبق وتنبأ عنه النبي[٧].

إن خطوة واحدة فقط تخلّلت بين دمشق حتى اعترافه اللّاهب في رسالته إلى أهل غلاطية (٦، ١٤) ونشيده في الصليب، في رسالته إلى أهل فيلبي (٢، ٨). لقد أصبح الصليب رمزاً للخلاص «والشك» تحوّل «إلى قوة الله» والنكران الجدير بالنحيب إلى طاعة عميقة تنبع منها الرفعة. صار كلّ ما تنكّر له العبراني مقبولاً. وكلّ ما كان يعتقده طرحه خارجاً كنفاية (فيلبي ٣، ٨) «لقد أصبح الصليب الرمز الذي يفصل الأرض عن السماء. ونقطة الإنفصال هو المكان الذي يقف فيه المسيحي»[٧٩].

أمام هذا الإرتداد السريع وتطوّره الخاطف يقف علم النفس صامتاً لا يتكلّم. لا يمكن أن ينسكب نور «من الداخل» إنّه «موت سرّي» يموت وسط ليلٍ سري. إنّه ليل مليء بالأسرار كامتلاء الحياة الجديدة النّامية في الأحشاء الوالدية. إنّه بعث حقيقي. هذا ما شعر به بولس. إنّ الآية «وآخر الكل تراءى لي أنا أيضاً كأنّما للسقط» (١ قور ١٥، ٨) جديرة بالإنتباه وتشير إلى هذا البعث المفاجئ. إنّه لا يستطيع أن يقول أكثر من ذلك. «أيستطيع المرء أن يتكلّم على اللحظة التي يولد فيها؟» هذه الكلمات يقولها على لسان بولس كاتب المأساة «بولس بين اليهود»[٧٩]. حاول النقد السلبي أن يفسّر ما حصل مع بولس في دمشق تفسيراً نفسياً. فاعتبر أنّ ما حصل مع بولس كان حلماً لإنسانٍ مريض مصاب بالصرع. لا حاجة لمن يدحض هذا الرأي فبولس في رسائله يدحض المقول بذاته بتفسيره لما حدث معه يذكر هذا الحادث خمس مرّات في رسائله فيعتبره حيناً «كشفاً ليسوع المسيح» «وقد استولى عليه يسوع» وحيناً آخر ظهوراً «لقد ظهر لي أنا بولس» (١ قور ١٥؛ ٨) وإنّه يفرق بوضوح بين هذا الكشف الأخير وبين الرؤى التي كان يراها فيما بعد (٢ قور ١٢، ١) في هذا الكشف رأى النّاهض من بين الأموات. لم يكن بولس مريضاً نفسياً وجهاده طوال ثلاثين سنة يشهد على ذلك. إذا كان هناك إنسان له عقل كبير ويقف من الحقيقة موقف المدرك لها والشّاعر بها، فهذا الإنسان هو بولس، وإذا كان هناك إنسان واثق بقضيته، ومن أجلها يضحي، فهذا الإنسان هو بولس أيضاً. ما دام كلّ شيء يتطوّر، حسب الطبيعة وفقاً لنواميس نفسية وكلّ تطور جديد يفترض حالة نفسية معيّنة بدونها يصبح التطوّر حادثاً عرضياً خلواً من الديمومة يستنتج أنّ التحوّل الثّابت المفاجئ المباشر هو برهان وأفضل برهان على طابع مصدره الفائق الطبيعة. فيما عدا ذلك فأسرار الله تستهدف الله وأولئك الذين أخذوا نعمته الإلهية.

إنّه لخطأ أن نعتبر أنّ كلّ ما حدث نتج عن التقاء بولس بالمسيح في دمشق فكأنّه كان يحتاج فقط لهذا اللقاء ليوقظ حيويّته الروحيّة التي منها خرج كلّ لاهوت بولس. لا شكّ أنّه قد استفاد كثيراً واطلع كثيراً من المناقشات التي جرت بينه وبين استفانوس ومن المسيحيين اليونانيين ومن دفوع المضطهدين أمام المحاكم، ومن اتصاله بالرعية المسيحية في دمشق ومن مصف الرسل في أورشليم[١٩]. إنّ يسوع بذاته أحاله إلى التقليد بواسطة حنانيا. لقد أفاد أيضاً وبصورة خاصة من الرؤى الكثيرة، والكشوفات الفائقة الطبيعة (أعمال ٢٦، ١٧)، في الواقع إنّ بولس رأى رؤى كثيرة من هذا النوع كشفت له

حقائق كثيرة، كقيامة من ماتوا من المسيحيين في الحضور الثّاني للمسيح، وكذلك الحوادث المرتبطة بهذه القيامة (١ سالونيك ٤: ١٥ — ١٧، ١ قور ١٥؛ ٥١ — ٥٢).

أربع حقائق نبعت من رؤيا دمشق: ١) إنّ الذي قام من بين الأموات كان مسيّاً وقد تحقّقت به كلّ النبوات، ٢) لا يمكن أن يستخلص الإنسان ألوهيّة المسيح من المثالية التي كان يدين بها اليهود في ذلك العصر وكذلك لا يمكن الجمع بين يسوع الأرضي اليهودي وبين كلمة الإله الكائن قبل الأزل (أعمال ٩، ٥، ٣) إن المسيح يقطن سرياً في المؤمنين كما يقطن في جسدٍ أرضي منظور (١ قور ١٢، ١٣، أفسس ٥، ٣٠). في هذا الوقت بالذّات ظهرت «يسوع المسيح» فيما بعد. ومن هنا انطلق تصوّف بولس حول المسيح والكنيسة وتعود مباديه حول الكنيسة الى سني الطفولة[٤٠]. وأخيراً دعوته ليصير رسولاً للأمم. إنّها رؤيا هذه الدعوة ويمكن أن تقارن برؤيا الأنبياء العظام. لهذا ليس حراً أن يصمت أو أن يبشّر بالمسيح. «إنّ ذلك ضرورة مفروضة والويل لي إن لم أبشّر» (١٠ قو ٩ : ١٦).

في أعماقه نشيد تسمع نغماته: لقد ارتوى بمحبّة يسوع غير المدركة التي تعرف أن تغفر كل شيء. إنّنا ننتظر أن يفتش المسيح بعد قيامته ليجد تلاميذه إمّا أن يُظهر ذاته «لهذا السقط» لأشدّ أعدائه (١ قور ١٥، ٧) وعلى الأخص لأنّ الله رعاه «في جوف أمّه» وغمره بنظرات حنانه طوال حياته (غلا ١، ١٥) هذه المحبّة النّاعمة اللدنة، محبّة السيد الذي أحبه أول من أحبّه وضحّى من أجله. إن هذه المحبّة تحطم وتسحق لذلك صارت المحبّة اعتباراً من ذلك التاريخ المحور والقطب لبشارته.

هذا هو فصح بولس وهكذا فهم بولس القيامة، وكان صراع رائع بين الخالق والمخلوق. الله صياد ماهر أراد أن يصطاد أقوى الفرائس يظهر أن الطبائع التي تستسلم للأقوى تستسلم لأنّه يجذبها أكثر من أيّ شيء. لا يمكن لأحد أن يتهرّب من هنا فإمّا أن يستسلم وإمّا أن يموت من النزيف. من الممكن أن تكون نفس الحوادث والتطور النفسي ذاته اللذين حصلا لبولس باعثة لنتائج معاكسة مع غيره. إن حادث ارتداده الذي انتهى إليه لا يعود سببه لا إلى حالة نفسية داخلية ولا إلى حالة تاريخية. لقد حوّلت الكبرياء الإنسانية في إحدى الحالات الأخرى هذا الصراع إلى مأساة.

«أيّها الغير المحدود ! أيّها الخفي ! أيّها المخيف ! أنت أيّها الصيّاد الذي يرقبني من الظلمة ويلقي نظرة الهازئة من خلف الغيوم ، هكذا اسقط على الأرض وأتلوّى وأدوّر معذباً تعذبني كلّ عذابات الأجيال وتصفعني أنت أيّها الصيّاد ، ذو القلب الحجري أيّها المجهول أنت أيّها الإله.

إذ ذاك هرب بعيداً رفيقي الوحيد الأخير ، عدوي الكبير ، مجهولي ، جلادي ، الله. (نيتشه).

إنّ أوغسطين الخبير بهذه الأشياء ، يقول عن صراع بولس مع النعمة الإلهية ما يأتي : «كانت تلطمه وتشفيه ، كانت تميته وتحييه» وكالحربة المقدّسة كما تقول رواية مليئة بالمعنى كانت تشفي الجراحات التي تفتحها هي.

٧. «في دمشق»

أعمال ٩ : ١٠ — ٢٢
٢٢ : ١١ — ١٦

كل ارتداد أصيل يتمّ على مرحلتين. قد تكون الواحدة بعيدة عن الأخرى زمنياً كما هو الحال مع أوغسطين.

إنّه ارتداد العقل وارتداد القلب «بدون المعرفة يبقى عناد القلب ، انغلاقه ضدّ ارادة الله ، غير مقهور» قبل شفاء الإرادة يجب أن ينسبق نوع من الاهتزاز ، نوع من التأثر العاطفي. وقبل مسيرة ليلية للتنقية بسبب تصوّف مغموس بالإلهي كثيراً من الضلال»(١٧).

عندما نهض بولس بعد أن أمره الربّ فتح عينيه وكان قد أطبقها ليحميها فلم يبصر. كان أعمى. كان يقف ، وقد استولى عليه الجزع ، لا يعرف ماذا يفعل ، وكان يتلمّس محاولاً أن يكتشف رفقاءه. وقد قاد هؤلاء إنساناً صامتاً محطّماً وسط حرج من الآس لا يزال حتى الآن وعبروا به الباب الذي لا يزال يحمل اسمه وساروا في شارع مستقيم يبلغ

طوله ما يقرب من الفرسخ ترتفع على جانبيه من اليمين ومن الشمال أعمدة قورنثية رائعة يستطيع المرء أن يرى حتّى اليوم بعض آثارها وسط فوضى البيوت الحديثة ثم قادوه إلى فندق يملكه أحد اليهود اسمه يهوذا ويقوم مكان هذا الفندق اليوم جامع صغير.

كان رفقته يجهلون سرَّ رئيسهم وعندما أخذوا يتكلّمون في الحي اليهودي على الغرض الذي من أجله جاؤوا كانوا يرفقون كلماتهم بالتهديد والوعيد، أمّا بولس فقد انحبس في غرفة في الفندق وكان يرفض كلّ ما كان يقدّمه الفندقاني المضطرب لزبونه المختار ليروح عن نفسه. مرّت ثلاثة أيّام ما أكل فيها شاول ولا شرب. كان كالميت بالنسبة للعالم الخارجي. إنّ هذه «الأيّام الثلاثة» التي تخلّلت بين موته السرّي وقيامته الروحية إشارة واضحة إلى الأيّام الثلاثة التي قضاها يسوع في القبر. ثلاثة أيّام غرق فيها الرسول في نوم سرّي. ماذا ينتظر؟ قال له المسيح إنّه سيعرف في المدينة ما يجب أن يعمل. كان على الرسل أيضاً أن ينتظروا القيامة. ماذا لو قيل له فيما مضى أن أنتظر! إنّه الآن ينتظر هادئاً في مقصورة الله. فضيلة أن تتمكّن أن تنتظر، وكثيراً ما يكون الإنتظار صعباً، للنعمة الإلهية مواعيدها وهنا يطبق القول «ان أقبل هو أسمى عملي».

عندما تُقتلع النفس من أساسها من تربة الحياة القائمة حتّى ذلك الوقت ويراد أن يزرع فيها مبادئ جديدة للحياة فولادة جديدة كهذه الولادة لا تتم بدون ألمٍ ودموع. لا يمكن لأيّة سيكولوجيّة دينية أن تفسّر تفسيراً جذرياً كيف تمّ تجلّي بولس الدّاخلي وأعيد بناء عالمه الديني الجديد. كان يجب أن يقع تحت حكم التربية والإنسحاق حتّى يتنقّى المعدن الثمين بتحطيم القدر الإنساني ليصبح «الإناء المختار» كما أنّ الأصنام سقطت عن قواعدها وتحطّمت عندما وصل المسيح إلى مصر كما تقول إحدى الروايات القديمة كذلك تحطّم عالم كامل في نفس شاول حتّى تمكّنت «الخليقة الجديدة» أن تظهر. ينابيع جديدة تتفجّر ومواد النفس الأولية تظهر. لا شيء ثمين بحدّ ذاته يضيع سدى في يد الله، لم تقضِ النعمة على شيء لا على مزاج شاول الأساسي ولا على طابعه الخلقي ولا على جدله الرقيق ولا على ثقافته العالية. كلّ شراع احتفظت به يد الجرّاح المرنة لتضعه في الخلقة الجديدة «الأمور القديمة عبرت وصار كل شيء جديداً» تحت انعكاسات أنظار الناهض من بين الأموات اللّاهبة تلين كلّ الأمور الصلدة.

العواطف المكبوتة والقوى الشعورية الغير المرئية تقريباً تتحرّر. والتعصّب يتحوّل إلى

قوّة لاهبة من المحبّة تظهر وداعة وعذوبة كعذوبة حنان الأم (غلا ٤ ، ١٩) يرافقها تصميم فولاذي. احتاج شاول إلى ثلاثة أيّام ليرفع من الوسط أطلال نظريّته القديمة عن العالم وبعد هذا لم يعد داخله يشبه بيتاً مهجوراً أو مكاناً مرّت به النّار. لقد فتح الطريق شيء جديد. إنّ شيئاً جديداً ينبت ويتفجّر في كلّ مكان وزاوية، ما هو هذا الشيء الجديد؟ «الحياة الجديدة في المسيح». من يقرأ رسائله، هذه المستندات المعبّرة عن أعمق ما في النفس البشرية والتي لا مثيل لها في الآداب العالمية يسمع كلّ صفحة من صفحاته تنادي وتقول «لقد رحمت» (١ تيمو ١ ، ١٣). من الضروري كمبدإٍ أوّلي للمخطّط الإلهي الخلاصي أن يقاد الإنسان إلى الله بمساعدة إنسانٍ آخر. إنّ الله في ملكوت الطبيعة وفي ملكوت النعمة يستعمل في كل مكان، إذا لم يكن المقصود خليقة جديدة، أسباباً مزدوجة. من المحتمل أن يكون الذين كانوا في البيت الذي ينزله شاول قد حدثوه عن قوة المؤمنين العجائبية فتمنّى أن يأتي ولو واحد منهم ليراه. في تلك اللحظة بالذّات أعلم الله المؤمن البسيط حنانيا عن وضعية ومستقبل عدوّهم الذي خافوه لكثرة ما قاسوه بسببه كما أعلم بولس بواسطة الرؤيا عن مهمّة حنانيا ورسالته. وقع الإختيار على إنسانٍ حييّ نوعاً ما، ولقد جزع كما جزع موسى قديماً عندما ألقيت على عاتقه مسؤوليّة الرسالة. وفقاً لتقليد سرياني كان حنانيا من التلامذة السبعين وكان قد التجأ إلى دمشق عندما حصل أول اضطهاد على يد بولس[٧٤]، وهذا ما يفسّر تردّده وخوفه. لكن التأكيد «إنّه يصلي» بدّد كلّ مخاوفه. الرجل الذي يصلّي لا يكون من المخطرين. لكي يدخل إلى عرين الأسد يجب أن يكون ذلك الرجل الشيخ من المؤمنين الواثقين بالله. هوذا الباب يقرع. إنّهم يدعونه ليذهب إلى بيت يهوذا، ويذهب حنانيا ويدخل مطمئناً. الثقة تلتقي بالثقة. إنّ يدي إنسان الشعب السميكة استندتا إلى رأس شاول. كان حنانيا تلميذ الرب يملك موهبة الشفاء (لوقا ١٠ : ٩) وكانت معمودية التواضع. لقد سقطت قشور الكبرياء العمياء. «يا شاول أيّها الأخ أتؤمن بأن يسوع هو مسيا وابن الله؟» أي صدى لاقت كلمة «أيّها الأخ» في نفسه وقد قيلت لأوّل مرة وسط دائرة من الأخوة المقدّسة!

ها هو شاول المخيف يجلس تحت أقدام حنانيا البسيط وكان يحمل أمراً بإلقاء القبض عليه. إنّه يسمع منه أول موعظة. يا لجمال هذا المشهد لمصوّر مسيحي! إنّ التعمّق في الكتاب المقدّس يمكنه أن يغني الغنى الحديث بمادة جديدة. من الجائز أن تكون هذه السّاعات قد طرقت خاطره عندما كتب «أين هو الحكيم أين هو الكاتب أين هو محاور هذا

الدهر؟ لقد اختار الله جهال العالم ليخزي حكمة الحكماء» (١ قور ١ : ٢٠ ، ٢٧) لم يكن بولس حطاماً ولا منحط الأخلاق كما يريد أن يصوّره البعض في الوقت الحاضر، كان متكبّراً لا تلين قناته، لقد أصيب في الطريق فلم يرد أن يخضع إلّا ليسوع.

«يا ربّ ماذا يجب أن أفعل»؟ هذا ما سأله شاول، فكان جواب المسيح أنّك ستعاني الآلام الكثيرة. إنّ هذا لا يتّفق مع العقلية اليهودية. إنّ اليهود يعتبرون العذاب قصاصاً إلهياً، أما المسيحيّة فعمل سامٍ واشتراك سرّي في آلام المسيح المطهّرة الخلاصية وسبيل لكمالٍ خلقي.

إنّ شاول الذي كان قد قبل المعمودية الروحية، كان عليه أن يقبل سرّ المعمودية ليصير في رابطة الأخوية المقدّسة. لتكون مسيحياً يجب أن تكون قد اعتمدت بموت المسيح وأعطيت ذاتك للمسيح كلياً حتّى تتمكّن أيضاً من قبول معمودية دم الشهادة. من الجائز أن يكون قد وقع في قشعريرة عندما عبرت في خاطره هذه الأفكار عبوراً خاطفاً. وهكذا قبل أن يأكل ويشرب ذهب مع حنانيا وبعض الإخوة إلى نهر بردى الذي يروي بألوف من الأقنية كلّ روضة في دمشق ويغذّي ألوف الينابيع كمغردة في داخل الدور المشجّرة حاملاً اليمن للغني والفقير على السواء [٥٠]. وهكذا صار هذا المتروك عضواً في رعية «القدّيسين». إنّ أعظم رجل لا يمكن أن يثمر إذا بقي وحيداً. إنّ حنانيا كان يسمّي تباع المسيح قدّيسين، وكان النبي دانيال (٧ ، ١٨) يسمّي مواطني الملكوت الخلاصي هكذا. كان المسيحيّون كما نرى يدرسون الأنبياء بإمعان (إشعيا، يوئيل، زخريا، دانيال ...) وهكذا كانوا يفهمون يسوع جيداً.

لا نستغربنّ إذا رأينا أنّ شاول قد اعتمد فوراً. لم تكن المعمودية تحتاج آنذاك إلى أكثر من توبة واعتراف بيسوع (أعمال ٢ ، ٤١ ؛ ٨ : ٣٧ ؛ ١٦ : ٣٣ ؛ ١٨ : ٥) وإنه هو مسيا وابن الله، وبقوّة موته الخلاصي على الصليب، وقيامته، وحلول الروح القدس، أي حوادث الخلاص الكبرى. وكان يلي ذلك التعليم التاريخي عن حياة يسوع والثقافة الخلقية السرية. وكانت هذه تشكّل الأقسام الأربعة للإرشاد إلى الإيمان المسيحي من العصر الرسولي. لم يعرف بولس ما حدث معه. كان يدرك بعجب أنّ نفسه أطلقت أشرعة جديدة وأنّ الأفكار السّابقة سقطت «كقشور» سيصف مراحل هذا البعث

الجديد فيما بعد «كموت سرّي» ، «دفن» ، وقيامة مع المسيح» (رومية ٦ : ٣ ، ٧).
القول إنّ شاول أصيب بضعف في عينة مردود لأنّ لوقا يذكر مرّتين حدة نظر الرسول (أعمال ١٣ : ٩ ، ١٤ : ٩).

شعر شاول أنّه مضطر الى أن يفسّر أمام المجمع في السبت التّالي كيف انقلب في تفكيره ويعظ أن في شخص المسيح تتحقّق كلّ أحلام اسرائيل وأنّ المسيح هو الباعث للحياة البشرية والمحقّق لأشواق الشعوب والأجيال. إن زعية دمشق المسيحيّة المشكلة على الغالب من اللّاجئين كانت تعيش على اتصالٍ بالمجمع وكانت تتحاشى أن يصطدم به. ولكن موعظة شاول ذات الطابع الشخصي والتي تدل على تصميم عظيم وضعها في مأزق حرج ، لقد صار شاول «أخاً خطراً» لا يعقل أن يكون خروجه من دمشق بسبب عداوة مواطنيه اليهود لأنّهم أدركوا أنّه سيكون الخصم العنيد لديانتهم الوطنية ، النّاموس الموسوي. لكن إنهماك رفقته في إيمانه الجديد. كانت أول مرّة يخرج فيها وستصبح حياته عودة وخروجاً كحياة معلّمه.

٨. تحت الغمام

أعمال ٩ : ٢٠ — ٣٠
أنظر غلاطية ١ : ١١ — ١٢ و١٦ — ١٧ ،
٢ كورنثس ١١ : ٣٢ — ٣٣

وكان زمان نرجو ألّا يعود. كان زمان عولجت فيه المسيحيّة في الماضي تحت أنوار مصطنعة مضلّلة تبهر النظر كأنّها مشهد خلّاب وكانوا ينظرون إلى القديسين، هذا المجمع الإلهي، نظرتهم إلى دمى شمعية. إنّ الإتّجاه الحديث المحبّ للحقيقة طرح جانباً هذه القصص الصبيانية التي تحاول أن تبني على حساب الحقيقة. هكذا نظروا إلى بولس. إنّ بولس في نظرهم صار فوراً ، في ثوان معدودات ، قدّيساً بعد أن كان مجرماً خاطئاً وفي ثوان معدودات وعى كلّ الحقيقة المسيحيّة وصار فور شفائه مبشّراً ورسولاً دونما سابق

استعداد. إنّ هذا النوع من «عجائب النعمة»، لنوع خيالي يخلق صوراً كاذبة عن مفعول النعمة «القديسون هم وجوه حيّة من وجوه حياتنا وليسوا بدمى شمعية».

هناك خلاف ظاهري بين ما يرويه لوقا وبين ما يقصّه بولس، حول السنين التي تلت ارتداده. إنّ أعمال الرسل تشير إلى هذه السنين «ببعض الأيام». إنّ بعض الأيام، لا تكفي لتهيئ للقيام بعمل تبشيري جوهري عميق. ولا يعقل أن يكون بولس قد ابتدأ بالبشارة فور ارتداده. إنّ هذا لا يتّفق مع النفوس العظيمة، التي أعطت للعالم شكلاً جديداً بعد ارتدادها، كأوغسطين مثلاً. إنها تحتاج إلى خلوة زمنيّة لتنسيق أفكارها، وتجميع خواطرها وتسكين اضطراب عواطفها. ومن الصعب أن يتكلّم إنسان على مكامن نفسه بهذه السرعة وخصوصاً إذا كانت له حياة كالتّي لبولس، حياة داخلية عاصفة. كم كان صعباً دفع اغناطيوس على الكلام! وكم كان كلامه قليلاً فيما بعد! يظهر أنّ لوقا تحاشى ذكر هذه المرحلة الزمنية في حياة الرسول، إمّا لأنّه لا يعرف شيئاً عنها أو لأنّه اطّلع عليها من الرسول بصورة لا يجوز البوح بها. ومن حسن الحظ أن يضطره خصومه بعد هجومهم العنيف الى الكشف عن هذه الحقيقة «ليس اللحم والدم أعلنا لي» (متى ١٦ ؛ ١٧) أي لم أستشر طبيعتي. لم أعد إلى فكري البشري، ولا إلى أصدقائي. «ما صعدت إلى أورشليم». ما الدّاعي؟ إنّ ذكريات اضطهاداته لمّا تزل ندية، وموقفه من الرسل سيكون حرجاً، وحياته بالنسبة للمجمع اليهودي ستكون مهدّدة بالخطر. لقد «ذهبت إلى بلاد العرب» كانت بلاد العرب تعني انذاك كل شبه الجزيرة العربية وكانت دمشق، وما بين النهرين، ومملكة الأقباط، والبتراء العربية بأوساط قوافلها، وجرش بأطلالها اليونانية الرومانية، التي تثير الإعجاب، «فيلادلفيا عمان» وبصرى حوران تشكّل محور البلاد العربية. وكان الحارث ملك الأنباط على عداوة مع هيرودوس انتيبا لأنه أعاد إليه ابنته اكراماً لهيروديا (المؤرخ يوسيبوس ١٨، ١٥، ١). اختار بولس هذا المكان لأنه كان أميناً من اضطهاد اليهود المضطهدين.

اختار الرسول الصحراء الجبلية الجرداء القريبة من دمشق. وكم جذبت الصحراء من النفوس! جذبت الأنبياء جذبت الوعاظ المبرزين كغريغوريوس النزينزي ويوحنّا الذهبي الفم. في هذه الصحراء الجبليّة عاش هذا الإنسان المثقل بالحوادث الجسام يرافقه كتابه المقدّس والخبرة التي اكتسبها من الإخوة المسيحيين في دمشق وقد كان على اتّصال

وثيق بهم. كان يلبس لباساً بدوياً ويتمنطق منطقة من جلد ويعتمر كوفية كثيرة الألوان. لم يكن بولس بحاجة إلى غراب النبي ايلياس. كان من السهل عليه أن يربح خبزه في «هذا المكان». إنّ صناعة الخيام الشعرية كانت مزدهرة، لا مثيل لها في كلّ الشرق. ومن هذا المكان، كانت تبتاع ألوف القبائل المجاورة بيوتها المتنقّلة. وفيه كانت تباع شعور الماعز لحياكة الحبال التي كانت تصنع منها الخيام. وكانت هذه الخيام تتحدّى حرارة الشمس والمطر. كان بولس يجلس إلى نوله البدائي المربوط بحبال إلى أوتاد خشبية مشدودة إلى الأرض. و«كان يحيك الخيام، ويبيعها ليعيش»[٥٠]. لقد أتيح لي الحظ فزرت هذه الصحراء القاحلة، وتحدّثت إلى بعض البدو، وجلست تحت تلك الشجرة الوحيدة، استظلّها كما استظلها بولس، وتحدّثت مع أبناء الصحراء، كما تحدث هو كاشفاً لهم أعماقه، وما في هذه الأعماق من ينابيع يفجّرها قلبه. كانت هذه السنوات الثلاث من أسعد سني حياته وأعمقها. هنا وتحت قيادة الروح القدس، وروح يسوع، أخذ الكمال الذي يشير إليه في رسالته إلى أهل فيليبي «بيد أنّ هذه الأشياء، التي كانت لي ربحاً قد عددتها خسراناً من أجل المسيح بل أعد كلّ شيء خسراناً إزاء هذا الربح الفائق، معرفة المسيح يسوع ربّي الذي لأجله خسرت كلّ شيء» (فيلبي ٣ : ٧ — ١١) أخذ طريقه إلى نفسه.

إنّها لم تفتح أمامه أبواباً جديدة جوهرية. إنّ طبيعته الروحية الخارقة التقت مع الحادث الفريد المزعزع. لقد أسرته رؤيا المسيح الى ما فوق الأشباح. إنّ هذا الكمال الدّاخلي حسب تقسيم الحياة الإنسانيّة الدّاخلية كان على نوعين: نوع شعوري وآخر عقلي.

سمّى بولس التحوّل في الإتّجاه الشعوري لحياته «لباس الرب يسوع المسيح»، «روح يسوع المسيح» (فيلبي ٢ : ٥) إنّ ارتفاعه جنّحه بأجنحة الفرح. علينا أن نضيف إلى الحقيقة التي كان يشعر بها بالطبع حقيقة جديدة، حقيقة الإيمان الفائق الطبيعة والشعور الوجداني بأنّه مدعو ودعوته تمّت بمساهمة حنانياً وقد حلّت الوداعة (فيليبي : ٤، ٥)، وسيطر الإيمان تدريجياً على أعماقه وحلّا محل صلابة التوحّد الفريسي. لم يخسر بولس من ميزاته الطبيعيّة والمكتسبة شيئاً، ولم يضيّعها هدراً؛ لم يخسر لا سعة روحه النّبوي ولا عُمقَه. لم يخسر نقاوة تفكيره الذي شحذه في المران في الشريعة؛ لم يفقد سهولة الإثارة الشعورية ولا طابعه الخاص؛ لم يفقد سيطرته الهائلة على إرادته هذا الميراث لأجيال كثيرة. كلّ ما هو أرضي صار عدماً أمام حياته المثالية الجديدة. كلّ ملك لا يخدم محبّة الله هو ملك

مغاير لإرادة الله. وبكلمة موجزة: لقد انحصر كلّ اهتمامه بشعوره الديني وبطريقة سموّه وارتفاعه.

كان تحوله الروحي يتمّ نقلة نقلة، وكان مخطّطه يتّضح وينجلي تدريجياً. وقد اعتبر بعض العلماء ذلك بولسية أو لاهوتاً بولسياً. بيد أنّ بولس يسمّي ذلك انجيلياً لأنّه «لم يتسلّمه ولا تعلّمه من إنسان بل بوحي يسوع المسيح (غلا ١ : ١٢) أي «إذا قرأتموني فيمكنكم أن تدركوا ما هو فهمي لسر المسيح» (أفسس ٣ : ٤) وتعليمات أخرى يمكنكم أن تدركوا مخطّط الله من أجل خلاص العالم. لو كان له انجيل مختلف عن أناجيل الرسل الآخرين لكانت الكنيسة الأولى قد رفضته. لم يكن لبولس انجيل بل بشر بالإنجيل بقوة وعزم وثبات لا مثيل له، وركّزه في قلب العالم اليوناني الفكري بطابعه الشخصي.

شيئان فريدان نتجا عن كمال تحوّله الوجداني الديني: إدراكه الجديد للمسيح وفكرته الجديدة عن الإيمان.

١ — إنّ المعنى الجديد الذي اكتسبه الرسول عن المسيح يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتعرفه إلى المسيح في دمشق. عندما كان بولس فريسياً كانت له فكرة تاريخية عن المسيح وكان يعرف الطّابع الشخصي الذي يمثّله «أنا هو المسيح الذي تضطهده» أيمكن أن يضطهد إنسان انساناً آخر لا يعرفه؟ «صعب عليك أن تقاوم مناخز» المناخز لا تعني الرؤيا فبولس قد انهار كلياً وتخلّى عن كلّ مقاومة. المنخز كان يرافقه منذ زمن طويل وكان يجرّه جراً معه. كم من الوقت؟

كان الحقد يتكشّف والكره صار في قمّة الاشباع. كان ككل فريسي يجمع الحقد ضد المسيح طوال حياة المسيح على الأرض.

«لا يجوز أن نفترض أنّ بولس كان يجهل المسيح» ويذهب بعض الباحثين[١٩] — لا نعالج هنا صحّة الإدّعاء — إلى أنّ بولس كان واقفاً مع كهنة اليهود تحت الصليب والسرور يطفح على وجهه. وهكذا انحفرت في أعماقه ذكرى لا تمحى عن موت المسيح. لا بدّ أن يكون المنخز الأول قد أصابه هنا كقائد المئة الوثني الذي انتهى بالإعتراف بأنّ موت المسيح كان موتاً حقيقياً لابن الله (مرقس ١٥ : ٣٩) فكرة كانت في ذلك العصر[٦٥]. إنّ الآية «أيّها الغلاطيّون الأغبياء من سحركم أنتم الذين رسم أمام عيونهم يسوع المسيح مصلوباً»

(غلا ٣ : ١) تأخذ معنى جديداً كاملاً. المنخز يرمز إلى النعمة الإلهية. وعلى كلّ حال كانت في رأس بولس حلقة من العناصر التاريخيّة وبراهين أخرى من العهد القديم. بيد أنّها لم تكن على ترابط، وتشكل حلقات متقطّعة تحتاج إلى ربط. وما نفعها إذا بقيت بدون رابط لا توجه إلى أفق سام جديد! إنّ النعمة الإلهية هي التي نظّمت في الواقع هذه العناصر المتضاربة، هذا السديم الروحي حول المحور الإلهي ولقد كانت أيضاً الأساس الجديد لحياته. إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. القديم اضمحلّ وكلّ شيء تجدّد (٢ قو ٥ : ١٧) الروح القدس هو الذي كان يلقي أشعّته في قلبه (٢ قو ٤ : ٦) إنّ بولس لم يكن بحاجة إلى من يعلّمه عن شخصية المسيح التاريخية. إنّ معارفه تكفيه. أما إدراكه العميق للمسيح فالمسيح ذاته يكشف له ذلك وينيره كما أنار في قيصرية رأساً من السماء اعتراف بطرس. «لم يكشف لك لحم ولا دم» (متى ١٦ : ١٨). إنّ الفكرة التي ابتدأت تأخذ حياة في نفس بولس لم تكن وليدة التفكيرات ولا من نسج عقلي شوّه صورة المسيح الحقيقيّة المرسومة في الإنجيل كما يذهب البعض. يقول أكبر دارسي بولس «إنّها المرّة الأولى والأخيرة في التاريخ العالمي يخلق فيها إنسان نفسه لقواه الخاصّة وبخياله شخصيّة تلتفت إليها النفوس الظّامئة للعثور على الله منذ أجيال»[١٩]. إنّنا نستطيع أن نستخرج فرضيّات من رسائله فقط إذا سألنا: ما هي فكرة بولس الإنسان عن المسيح؟ القضيّة التي أدركها في دمشق هي أنّ الله بالمسيح تدخّل بقوّة في التّاريخ وعمل من أجل خلاص البشر وإنّ المسيح كان المرسل والممثّل لله أي مسيا الذي حمل بشارة الفرح بموت يسوع التكفيري ابتدأ عصر جديد وأكّدت القيامة أنّه ابن الله لا بالمعنى التقليدي العادي الذي كان اليهود يعطونه له بل بالمعنى الجوهري الذي ادّعاه المسيح أمام قيافا. هذا المسيح السماوي تدخّل بصورة سريّة في حياة شاول وجعل داخله يتأثّر بكل الأعمال التي فعلها من أجل خلاص البشر وسمح له أن يرى في وجهه مجد الله. كشفت له دراسة الأنبياء أنّ المسيح هو المخلّص للخطأة إنّه مخلّص العالم وأخذ يدرك أن الفواصل التي تفصل اليهوديّة من العالم يجب أن تسقط. لقد أصبح أمر خلاص الخطأة من جنس البشر الذين تابوا وآمنوا أمراً معقولاً بعد أن قدم الله ابنه كذبيحة تكفيرية على الصليب من أجل الخطأة للقضاء على الخطيئة. وعندئذ أصبح مفهوماً أن «الوثنيّون هم أوّل من ذاق بركة مخلص الخطأة»[١٩].

إنّ الميزات البشرية تبقى واضحة في الصورة التي كوّنها عن المسيح بالرغم من أنّ

التقليد وتيّاره لم يغمره بعد. إنّ صليب المسيح يهزّه هزاً. الصليب عربون المحبّة، عربون محبّة الله الذي سيصوّره أمام أعين الغلاطيين ويعلنه أمام القورنثيين «لأني قرّرت أن لا أعرف بينكم إلّا يسوع المسيح وإيّاه مصلوباً» (١ كو ٢ : ٢). يهزّه أيضاً فقره ونكران ذاته وتحقيق رسالته الكاملة الإلهيّة (فيلبي ٢ : ٦ — ١٠). محبّة المسيح «تستحوذ» عليه ولا تقبل أن تتركه (٢ قور ٥ : ١٤)، إنّه يشعر الآن، ما معنى أن تكون مسيحياً : الإنسان الذي يستولي المسيح على قلبه، يتخطّى كالنّاهض من القبر، كلّ قلب ضيق الآفاق. يتخطّى حدود العنصرية الضيقة، يسمو إلى ما فوق الأمور العالمية.

إنّه يملك قوّة العالم السماوي. إنّ بولس يدرك المسيح، كشخصيّة تاريخيّة بعلاقاته الأرضية، بمصدره الجسدي، بولادته، بربط القربى، وبكلمة واحدة، لكلّ ما هو أرضي عابر. يكشف ذلك في رسائله دون أن يعطيها أيّ وزن. يذكرها دون أن تثير في نفسه أيّ تأثير. كلّ هذه الأمور كانت كالإناء الترابي الذي يخفي كنزاً لا ثمن له ولا حد. كان على الإناء أن ينسحق كقارورة مريم المليئة بالطيب في بيت عنيا، ليتضوّع العطر «عطر معرفة المسيح» (٢ قور ٢ : ١٤) لقد طرح يسوع بالموت كلّ ما هو أرضي وعاش حياة سماوية ويمكن للمرء أن يقول باختصار إن يسوع التاريخي هو العمق الموصوف وصفاً خالصاً في الصورة التي كوّنها بولس عنه.

لا يمكننا أن نحدّد الوقت الذي احتاجه بولس ليكوّن الصورة عن المسيح. لم تكتمل صورة يسوع في هذه السنين من الصراع الدّاخلي بمضمون المعرفة الجديدة. ثم كمالها تدريجياً وكانت مع السنين تزداد المعرفة عمقاً حتّى في رسالة الأسر إلى كمالها. إلى حالة الإنسان «البالغ كمال المسيح» (أفسس ٤ : ١٣) كلّ الأمور الجوهرية كانت حتّى الآن موجودة. إنّ النقد يريد أن يصوّر أنّ بولس خلق صورة مثالية جديدة، صوّرها في صحرائه وجعلها فوق مستوى ادراك معاصريه ممّا جعل قامته «ترتفع فريدة وسط عصره»[١٩]، لكن الباحثين من أصحاب النظريات الأخرى يقولون إنّ بولس في نظرته إلى المسيح وفي بحثه عنه لا يختلف عن بقية الرسل في نظرتهم وإنّ كلّ ما بحثه هو ويوحنّا بعمقهما عن المسيح موجود في كلمات المسيح. إنّ السيد المسيح هو الذي وضع هذا الأساس في البحث لا متوحّد الصحراء العربية. كانت شخصيّة المسيح تعيش بكليّتها في نفسه وكان كلّ تلميذ مبشّر بالإنجيل الواحد حسب طريقته الخاصّة ووفقاً لمواهبه وطابعه الخاصّ ويسلك بولس في

بشارته بالإنجيل طريقاً خاصاً به ونهجاً ينفرد به. نظر بولس إلى المسيح من ناحية الخلاص نظر إليه كمخلّص الجنس البشري «بِ وفي المسيح» نظر إليه كآدمٍ ثانٍ كرأس للجنس البشري الروحي الجديد «النّاحية الخلاصيّة في المسيح» أمّا يوحنّا فقد نظر إليه ككلمة قبل الأزل لا بداية له. إنّ نظرة يوحنّا تلتقي مع نظرة بولس ومن غير المعقول أن نرى في يوحنّا معارضاً لبولس. إن بولس كيوحنّا لا ينظر إلى المسيح كفكرة ولدها عقله الفيلسوف في مجال الدين بل كفكرة تفجّرت من «الروح» كهبة وكفعل للروح القدس (١ قو ٢ : ١٠ — ١٦) أمام هذا الكشف لا مجال إلّا «لنعم» و«آمين» بصورة غير مشروطة بالنسبة لحقيقة الخلاص المنطوية في المسيح ويسمّي بولس هذا الكشف (إيماناً) هذه الكلمة التي اكتسبت معنى تاريخياً في الحضارة الأوروبية.

٢ — يا لبعد هيكل أورشليم عن بولس، الآن يا لبعد أروقته برائحة محرقاتها! لقد فهم بولس أنّه كان حتّى الآن بعيداً عن الإيمان وأنّ صلاته لم تكن الصلاة الحقيقية وأنّه كان يحوم حول أروقة الديانة. إنّ ما كانوا يسمّونه «غيرة التقاليد الإبائية» (غلا ١ : ١٤) من أجل يهوه لم يكن إلّا عبادة جافة للحرف وتكريساً متزمّتاً أعمى لناموس سلبي تألّه أو لإرادة غريبة عابرة. أمّا الآن فقد أخذ يشعر أنّ تلك القوّة المحيية تعيش فيه، القوة التي تطرد بعيداً كلّ قلق واضطراب وتنفي كلّ شكّ وتحلّ كلّ أحجية وتقتلع كلّ الأشواك من الوجدان. يسمي الرسول هذه القوة إيماناً. لم يكن هذا الإيمان حواراً مقصوداً لشلّ إرادة الله، ولا تحليلاً جامداً ليفسخ وكان شعبه يملكه بدمه. لم يكن من صنع تفكير جاف يشكّل حقيقة خارج المجموع ولا من نتاج أخلاق مهترئة. كان موافقة فرحة، موافقة كلية الإنسان من الحقيقة الإيجابيّة موافقة وقبولاً للطرق والحوادث التي استعملها الله للخلاص، بواسطة ابنه. إنّ كلمة الإيمان لكي تحوز على الغنى والعمق اللذين أعطاهما لها بولس لا يجب أن تعني كشيء مرادف لكلمة الرؤيا أو ينظر إليها كشيء مماثل للحقيقي. فالنظر إليها من هذه الزاوية يقودنا إلى تفسيرها تفسيراً خاطئاً واعتبارها كحركة عقلية تلامس جانباً واحداً من جوانب الإتّساق مع أنّ المقصود هو الإنسان بكليته. إنّ الإيمان لا يعني أن تتفلسف في مضمون الكشف الإلهي ولا هو شعور أو حدس. إنّه ليس تسلّلاً إلى كنوز الله الخفية التي يسميها الرسول معرفة وادراكاً. الإيمان البولسي يمكن أن يكون ملكاً للصغار من الأطفال كما حدّده المسيح في صلاته الشكرية «أشكرك يا أبت لأنّك أخفيت ذلك عن الحكماء وذوي الرشد وكشفته للأطفال (متى ١١ : ٢٥). هذا الإيمان يرى الأمور غير

المنظورة كحقيقة لها وجود وينقلها من عمق ما وراء الطبيعة الى الحقيقة الإيجابية (عبر ١١ و١). إنّه ليس أحلاماً أو انحطاطاً مواسياً لأعصاب محطّمة بل قوّة النفوس العظيمة ونوراً للقلوب المؤمنة. (ليون الكبير، الموعظة الثانية في الصعود) إنّ عظمة بولس تقوم في بعده عن الخيالات الدينية وأحلامها التي تلدها الوحدة والانفراد وهو الحاكم المنفرد. لم تسكره الرؤيا. إنّ بولس يعرف أنّ يسوع هو الذي حفظه من هذه الخيالات. ألم يكن كأن كلّ مجاري الروح القدس قد انسكبت فيه؟ (روميه ٥ : ٥). ولأوّل مرّة أخذ يدعو الله بهذا الإسم العذب: «آباً هو الأب (رومية ٨ : ١٥) لقد غمر نفسه نور ذاك الحي، نور المسيح. كان يشعر بدفء داخلي وكان هذا الدفء يفسح في المجال أمام البذرة الصالحة في داخله للبزوغ وكان الروح كما يسمّيه (روميه ٨ : ٢٦) يرفعه إلى أسمى حياة في الصلاة، وكان يسمّي العلاقة المثالية مع الآب والابن التي هي من مواهب الروح القدس والتي تبعثها رصانة الإيمان وتحييها المحنّة، التبرير. كيف يولد هذا الإيمان؟ إنّ بولس يعرف شيئاً واحداً وواحداً فقط. يعرف أنّه موهبة من مواهب الله. كيف يندمج الإلهي بالإنسان؟ من يدرك هذا الغور العميق؟ لا أحد. إنّه موهبة من فوق «مصير حدّد يوم كان في بطن أمه» (غلا ١ : ١٥) ثمرة من ثمار يسوع المجيد، ثمرة جاءت بها الروح. لو سئل بعد ثلاث سنوات من وحدته في الصحراء كيف حصل معه كلّ هذا لأجاب ببساطة: من كان في المسيح فهو خليقة جديدة (٢ قور ٥ : ١٧).

في الوقت الذي وصل فيه الى حالة من التعمّق الرؤيوي والإرتفاع لاستكمال صورة المسيح في داخله كان بذار الإيمان في الكنيسة موجوداً كلّه في نفسه وكانت التفاصيل وتطوّراتها مرهونة بالزمن. كان يثقل كاهله حمل اسم يسوع ليبشّر به «أمام الملوك والشعوب وأبناء اسرائيل» وإنّها لسعادة كبرى أن تبشر «وأن يكون المسيح مستحوذاً عليك» (فيلبي ٣ : ١٢) إلى الآن لم يشعر بأنّ الله قد اختطفه؟ إنّه من الضرورات المفروضة عليه «والويل لي إن لم أبشّر» (١ قور ١ و ٩ : ١٦)

وفجأة عاد الإنسان بجبينه الأصفر المثلم وطابعه النسكي، عاد بعينيه الدّالتين على قدوم من عالم بعيد تملأه الخبرة العجيبة إلى دمشق. ربّما كان ذلك كذكرى لأمر الرب لإيليا على جبل حوريب. في هذه الأثناء كانت قد حصلت تغيّرات في دمشق. لقد توقف حكم تيباريوس الصّارم وضعف الحكم الأوتوقراطي الروماني وذلك في أوّل حكم كاليغولا.

كانت سياسة كاليغولا قبل أن يصاب بالجنون قائمة على حق تقرير المصير للشعوب الشرقية وهكذا أقام مملكة هيرودوس اغريبلا وضم إليها قطاعات واسعة ومدناً غنية»[٥٦]. كان فيثاليوس ممثّل الأمبراطور قد سلّم قبل حين دمشق إلى الملك البدوي الحارث ملك الأنباط وكان حاكم دمشق رجلاً بدوياً تحيط به مجموعة من الجنود البدو. وقد أعطى اليهود حرية استغلّوها بالدعاية بين النساء وكان القصد من إعطاء هذه الحرية كسب عطف اليهود. في دمشق حلّ بولس ضيفاً على بيت يهوذا الذي كان قد استضافه سابقاً وأحبّ أن يبدأ برسالته من المكان الذي نال فيه أكبر شرف في حياته لقد ارتفعت قبضات الأيدي ملوحة بالتهديد عندما وقف بولس في المجمع في السبت التّالي من مجيئه مبشّراً أنّ المسيح هو مسيًّا الذي تكلّمت عليه الأنبياء وانّه حيّ وقد استند إلى الآيات الموجودة عند الأنبياء للبرهنة على ما يقول. لقد صرخ البعض: «ألم يكن هذا الإنسان الذي تكلّم الآن قد هاجم في أورشليم اسم من يبشّر به؟ ألم يرسل إلى هنا ليعود بكلّ المؤمنين به مقيّدين بالسلاسل إلى أورشليم؟» وقال آخرون «إنّه إنسان عاص». وهناك من أقسم بأنّه سيقتله فوراً عندما تقع العين عليه. كان اليهود قد رشوا الحارث بالمال فاستمالوه إلى جانبهم وبصعوبة تمكّن بولس أن ينجو من المجمع.

لقد وضعوا حراساً على كلّ أبواب المدينة ليقبضوا عليه ويمنعوه من الهرب. لم يكن بولس مضطرباً. كان هادئاً مؤمناً بقضيّته وإلّا كيف يمكن أن يتمّ وعد الرب؟ إنّ مخطّط الأخوة كان روائياً اثار ابتسامة بولس. يا للأصداء المؤثرة كيف كانت تتراجع كلمات سرّ الشكر الوداعي وخصوصاً تلك الكلمات: «وفي الليل أسلم الروح» لقد ازدادت قواه بعد أن استمع إلى سر الشكر الإلهي فودّع الأخوة إلى بيت تطلّ نوافذه على خارج السور ثم دلّوه في زنبيل خارج السور وعندما وقف على قدميه سلك طريقاً وسط المقابر وتابع سيره في الأرض المقفرة وانتهى أخيراً بالطريق المستقيم الذي سلكه عندما جاء إلى أورشليم فسار جنوباً «في اتجّاه البحر». من يدري إذا كان بولس لم يركع ويقبل التراب عندما وصل إلى المكان الذي ظهر له فيه المسيح؟ من يدري إذا كانت العبرات لم تخنقه وسط ذلك الليل البهيم؟ من يدري كم مجد الله وشكره من أعماقه على رحمته ومحبّته؟

٩. «في أورشليم أمّ الكنائس»

(أعمال ٩ : ٢٦ — ٣٠، ٢٢ : ١٧ — ٢١)
(أنظر غلاطية ١ : ١٨ — ٢٤)

قابل الأخوة في دمشق رحيل بولس بنوع من الزفرات المروّحة عن النفس . لقد تنفّسوا الصعداء. إنّ النفوس الصغيرة وحتّى الكبيرة لا يمكنها أن تتحرّر كلياً من بعض العواطف المقلقة التي تشعر بها أمام عظمة كعظمة بولس ورأس ناري كرأسه.

إلى أين يتّجه؟ هذا ما يفكّر فيه. لم يضطرب الرسول أمام الخطر الذي داهمه في دمشق. لقد بقي هادئاً مطمئناً. لم يستول عليه الخوف ولا أثبط عزيمته بل دفعه الى تصميم على الجهاد. طريقان ينفتحان أمامه، طريق يتّجه إلى فوق نحو وطنه طرسوس إذا سلكه فلن يكون على اتّصال بالرسل الأوّلين وسيجابه خطر بقائه ناسكاً مجدباً الشيء الذي لا يتّفق مع طباعه وميله الفطري للجهاد والكفاح وحبّه للسيطرة على نفسه، وقد يفتح المجال لاتّهامه بالكبرياء لأنّه لم يرد أن يستشر أولئك الذين يستطيعون أن يزوّدوه بعناصر جديدة عن حياة المسيح الأرضيّة وأنّه لا يهتمّ أن يتطلّع على تقليد أمّ الكنائس.

وهكذا استيقظت في داخله رغبة بزيارة بطرس والإتّصال بالكنيسة الأولى. كان بولس يعرف ولا شكّ أهمّ الأمور من عمل يسوع الأرضي. أمّا التفاصيل والذكريات الحيّة عن حياته والنص الأوّلي لكلماته فإنّه لن يعرفها إلّا في أورشليم. والتقليد فيما يتعلّق بالمعموديّة والإرشاد وسرّ الشكر الإلهي. لم يكن بمكنة بولس أن يعرف ما قاله المسيح في أوساطه الخاصّة ولا كشوفاته في العشاء السرّي وظهوراته وتعاليمه بعد القيامة ولا الحوادث الخاصّة في يوم الخمسين. وحباً بالوحدة المسيحيّة لم يكن بمكنته أن يضع أوامر جديدة للخدمة(١٩) . وهكذا كان روح يسوع الذي عرف أن يركن إليه يوجهه ويقوده إلى الجنوب، إلى أورشليم.

ثمانية أيّام قضاها في الطريق. كان مزاجه في هذه المرّة يختلف عن مزاجه الأول الذي كان يرافقه قبل ثلاث سنوات. في ذلك الوقت لم يتركه لا الحقد ولا التعصب أن يتمتّع بما يحيط به من الخارج، أمّا الآن فإنّه يرى الأماكن التي كان قد مرّ بها المسيح بعيون المحبّة المشتعلة. ربّما كان بولس قد مال «عن طريق البحر» إلى اليمين نحو قيصرية فيليبوس حيث تكلّم المسيح على الصخرة وعلى الكنيسة الأبدية ومن الجائز أن يكون قد دخل إلى مجمع كفرناحوم ومرّ مقابل بحيرة جنيسارات وطور ثابور فرأى من عل المدينة التي كان يجلس فيها معلّمه المبجّل غمالائيل مع تلامذته الذي سيمطر بنظرات احتقاره كمارق من دينه، يمكننا أن نتصوّر عواطفه عندما مرّ من المكان الذي رجم فيه استفانوس. يمكننا أن نتصوّره مخاطباً أستفانوس هكذا: «يا أستفانوس!» إنّي هنا. إنّي أريد أن أصلح الظلم الذي ألحقته بك. لقد رحلت من هذا المكان مضطهداً وإنّي أعود إليه مطارداً.

في هذه الأثناء كان كلّ شيء قد تغيّر في أورشليم. كان المجمع ينتظر عودة بولس عبثاً. وكانت حدّة الإضطهاد قد خفّت وكانت المسيحيّة في أرجاء فلسطين تعيش في حشر كأنّها في شبكة. كانت رعايا وافرة تعمل عملها كخليّة النحل.

كان موقف بولس حرجاً جداً لا تجاه اليهود بل وتجاه المسيحيين. المسيحيون سيشكّون فيه وقد يظنون أن ارتداده كان حيلة تمكّنه من القبض عليهم. غير أنّ واحداً منهم قد فهمه. إنّه اليهودي الأصل «برنابا» الذي تثقّف ثقافة يونانيّة وانتهى إلى المسيحيّة. إنّه رفيق بولس في الدراسة وهذا ما ساعده على فهمه. لقد سمّي هذا الإنسان لموهبته الخاصّة بالولوج إلى أعماق نفوس الآخرين وللطفه «بابن الرجاء» «رجل التعزية» وكان من أكثر الوجوه قرباً إلى القلب في الكنيسة القديمة. إنّ عينه النيّرة رأت في أخيه المنبوذ روح الرسولية العظيم ولأوّل مرّة تتدخّل يده الصدوقة في حياة بولس. لقد أخذ المنبوذ وقدّمه إلى بطرس ويعقوب وهكذا دخل في مصف الرسل. من هذه اليد الحبيبة التي لامست حياته تولّدت أجمل صداقات وأكثرها أثماراً في تاريخ الكنيسة. لم يتعرف بولس الى الرسل الآخرين لأنهم كانوا بعيدين عن أورشليم يعلمون في كنائس أخرى.

جاء بولس ليزور كيفا كما يجب أن يسمّي بطرس. جاء ليتعرّف إليه وليدخله إلى صميم

التفكير الحي في الكنيسة. أربعة عشر يوماً مرّت وهم على اتصالٍ دائم. كان بطرس إنساناً محترماً كما تصفه الأناجيل قريباً إلى القلب وقد دعا القادم جديداً ليبقى معه في بيت مريم المضياف أم مرقص الإنجيلي ابن أخت برنابا.

إنّ الكتاب المقدّس كتاب غريب يعذب في كثير من الأحيان ويثير في عقولنا وأرواحنا الحيرة[٥١]. إنّه كثيراً ما يصمت عن ذكر أمور هامّة. يا للمشاهد التي تثيرها الأحاديث بين تلميذين يشتعلان حباً بالمسيح. إنّ المحبّة هي التي ربطت بين هذين الرجلين بالرغم من تفاوت ثقافتهما. صياد سمك من الجليل صيّاد بسيط أمّي يرتبط بإبن العاصمة المثقّف ثقافة جامعية.

يمكننا أن نرسم صورة واضحة مؤثّرة نرى فيها بولس يستمع إلى نيقوديموس وبطرس يروي حتّى أعماق الليل تاريخ السنوات الثلاث المليئة بالعجائب، وكان بولس مصاباً بالظّمأ الذي لا يرتوي. عليه أن يعرف كلّ شيء. إنّه لا يريد أن تفوته لا شاردة ولا واردة. يخيّل إليّ أنّه يقاطع بحيوية ويوجّه سؤالات مفاجئة وأتخيّله وقد فتح قلبه المشتعل بالحبّ لصديقه الجديد: — «يا كيفا إن ما يذهلني هو محبّته لي لقد أحبّني كثيراً وغفر لي كثيراً وفوق هذا كشف لي ذاته، أنا المضطهد الذي قيدت أعضاء جسده السرّي ونحرتها» —. «ماذا تقول يا عزيزي شاول؟. سيجيب بطرس إنّه لمّا يزل كما هو لم يتغيّر. ألا تذكر قصّتي معه؟ لولاه لكنت أكثر منك سوءاً» لم يرد بولس أن يقبل ما يقوله بطرس. —«لا لا يا أخي شاول. أين أنت وأين أنا. إنّك لم تقف موقف الخائف. إنّه ما اختارك كما اختارني ولم يميّزك عن الآخرين كما ميّزني. إنّك لم تأكل معه ولم تشرب ولم ترافقه مدّة ثلاث سنوات. إنّك لم ترَ مجده على الجبل كما رأيت. رأيت مجده بأم عيني (٢ بطرس ١ : ١٧ — ١٨) ومع ذلك وقفت منه موقف العدو ليلة آلامه. لقد حلفت بأنّي لا أعرف الرجل. كنت أفضل ألّا أعرفه قط. وتركته وحيداً بين أعدائه، كان الألم الأسود يتأكلني مدّة ثلاثة أيّامٍ وثلاث ليالٍ بينما كان المعلم الذي أحبّني كثيراً يضطجع ميتاً في قبرٍ بارد. لقد أنكرته وكان نكراني شتيمة. ماذا فعل؟ أتعرف، لقد قام من القبر. إنّي أشعر أنّ الأيّام الثلاثة التي قضاها في العالم السفلي (١ بطرس ٣ : ١٩) لم أبارح فيها تفكيره، كان يفكّر فيّ ولقد أبلغ صباح الفصح النسوة قائلاً: «إذهبن وأخبرن التلاميذ

وقلنَ لبطرس» (مرقص ١٦ : ٧) إلى بطرس ! لي. أنا الذي لا أجسر أن أدعو نفسي تلميذاً. يا أخي شاول ! أتدرك الآن كم أحبّه ! أتعجب أيضاً لماذا أحبّه ولماذا أريد أن أموت من أجله؟» (٥١) .

كانت الأيّام تعبر تطوي في ثناياها هذه الأحاديث. إنّ رباطاً مقدّساً وحّد بين القلبين. لا يوجد ما هو أروع وأقدس من الصداقة «في المسيح». بقيت هذه الصداقة ثابتة حتّى موت الاستشهاد ولم يؤثر فيها سوء التفاهم العرضي.

وتبتدئ مرحلة جديدة من الذكريات والخبرة المؤثرة عندما ابتدأ الصديقان بالحجّ إلى الأماكن المقدّسة. أيمكن أن يتصوّر الإنسان أنّ بولس لم يكن راغباً في أن يرى المكان الذي كرس فيه المسيح سرّ المحبة، أيمكن الانسان أن يتصوّر أنّ بولس لا يريد أن يرى قمّة صهيون؟ أيمكن أن يتصوّر أنّه لا يشتاق أن يتناول في غرفة العشاء السرّي الأسرار المقدّسة؟

إنّ الإتّصال مدّة أربعة عشر يوماً مع بطرس ثبتت فكرة بولس التي كوّنها عن المسيح وزادته اتساعاً في المعرفة من ناحية التقليد وجلت الكثير من الأمور. لا يوجد مثل بطرس من يعرف بصورة مفصّلة دقيقة كلّ ما يتعلّق بحياة المسح على الأرض(٣٦) . إنّ إتصالات بولس لم تقتصر على بطرس بل كان على اتصال مع تلامذة الرب الأوّلين. كان على اتصال مع برنابا معاونه مدّة سنين طويلة وسيلاس رفيق السفر ومع مرقص كاتب سيرة المسيح ومع يوحنا ويعقوب والشماس فيليبوس. من رسائل بولس يمكننا أن نتصوّر أيّ نوع من الأحاديث كانت تدور مع هؤلاء الرفاق. في الفصل الخامس عشر من رسالته الأولى إلى أهل قورنثية يقول بولس بوضوح إنّه كان يعنى بجمع الأخبار الموثوقة عن القيامة وظهورات الرب. يذكر ظهورات مع الرجال، أمّا ظهورات مع النساء فلا يذكره، وقوله ما أخذته (١ قور ١٥ : ١٣) يشير إلى تقليد سليم(١٩) إذا جمعنا العناصر التي يذكرها بولس في رسائله والتي ذكرها في تعليمه الشفهي عرضاً فيمكننا أن نجمع موجزاً رائعاً لحياة يسوع وهذا دليل على معرفته الدقيقة لتفاصيل حياته الارضية مبتدئاً من نسبه حتى صعوده. إنّه يعرف يسوع كمثال للمعلّم وكصديق ورب ومن الممكن أن تشكل حوادث الصلب

وحوادث الجلجلة[٧٢] التي تعيش في نفسه وترافق ذكرياته من الممكن أن تشكّل دستور إيمان الرسل فالمحور موجود في الآية (١٥ : ٤) من رسالته الأولى إلى أهل قورنثية. إن بولس نقل بأمانة الكثير من كلمات يسوع: إنّ الكلمات التأسيسية لسر الشكر هي أكثر صدقاً ممّا هي عند مرقص ومتّى وكلمات ارسال التلاميذ (١ تيمو ٥ : ١٨) وتعليم يسوع عن عدم فسخ الزواج. وكلمات يسوع «طوبى للذي يعطي أكثر ممّا يأخذ» أعمال (٢٠ : ٣٥) هو الذي حفظها من النسيان. لم يصف بولس بألوان حيَّة المشاهد عن حياة المسيح لأنّه كان يعرف أن من يكتب إليهم كانوا يعرفون هذه الحياة بمجرّد الإشارة إليها ظاهرة كانت أم خفية لذلك كان يعمد إلى التلميحات والإشارات وما كان لهذه الإشارات من معنى إذا كان من يكتب إليهم لا يعرفون حياة المسيح بوضوح. وباختصار يمكننا أن نقول إنّ الإشارات الخفية عن حياة المسيح والظاهرة كانت أكثر عدداً في رسائله ممّا هي عليه في كتب العهد الجديد الأخرى (ما عدا الإنجيل) وتدلّ على معرفة دقيقة وعلى وجود «مادة مشتركة من الذكريات التاريخية التي لا تحتاج إلّا من يذكّر بها حتّى تصبح مدركة من الجميع[١٩]» وهكذا حمل بولس نهر التقليد العريض وجعله في شركة مع الرعية الأولى ومع يسوع التّاريخي. يمكنه بولس أن يفاخر قائلاً «وأظن أنا أيضاً أنّ فيّ روح الله» (١ قور ٧ : ٤٠).

عندما يدافع بولس عن رتبته الرسولية فيما بعد يشدّد دائماً على نقاوة واستقلال انجيله (غلا : ١) أي مفهومه العميق للسر الخفي لمخطّط الخلاص العالمي ودخوله إلى هذا العمق الخلاصي بارتكازه على كشوفات شخصيّته. فعنى الموت الخلاصي ودفن الرب وقيامته. هذه العناصر المميّزة في بشارة بولس، لم تكن غريبة عن الرسل وإلّا لما كان باستطاعته أن يفترض أن رمز الموت الذي يعنيه التغطيس في المعمودية كان أمراً معروفاً عند الرومانيين والكولوسيين الذين لم يتتلمذوا له. (رومية ٦ : ٤ كولوسي ٢ : ١٢) لا يمكننا أن ندرك قطُّ رسائله بمعانيها الكثيفة ونهجه العميق المقتضب وثورياته الغامضة اذا لم نحسب أنّ من يخاطبهم كانوا من المسيحيين الذين وُعظوا وأخذوا عنه عناصر الإيمان المسيحي. إنّ رسائله تمكّننا من إحلال الدوائر الأربع التي يتضمنها التعليم الرسولي الأول محلها. ويسميها بولس «قاعدة» وكانت واحدة لدى كل الرعايا وتنبع من انجيل متّى الآرامي أو من مجموعة

أخرى لكلمات المسيح[٣٦] (روميه ٦ : ١٧ . غلا ٦ : ٦ . ١ قو ١٥ : ١ — ١١ . ٤ : ١٧ . ٢ تس ٢ : ١٥).

إنّ أحاديث بولس طوال هذه المدّة لم تنحصر مع بطرس فقط . كان يشعر بضرورة التبشير بمن هو أقدس من كلّ شيء يملكه في ذلك الزمان. كان مجلس المتحرّرين محوراً لجادلات عنيفة كانت تدور بينه وبين الذين ماثلوه في الرأي قديماً . ترى أكان يحن إلى الاستشهاد؟ لم يبق إلّا القليل حتّى يلاقي المصير الذي لاقاه استفانوس. كان التلاميذ يرتجفون خوفاً عليه وعلى نفوسهم ، وكانوا يتجنّبون كل اصطدام مع الفرّيسيين وخصوصاً والكثيرون منهم قد انضمّوا إلى صفوفهم «إنّ اليهودية المسيحية» أخذت تتشكّل تدريجياً وكانت الشريعة الموسوية كما كانت سابقاً معمولاً بها لم يجسر أحد أن يمسّها وقد جاء الآن هذا المشاغب الذي لا يعير انتباهه لأي شيء غير للمسيح هذا الإنسان الذي يرفض أنصاف الحلول ولمس هذا الجرح الذي أثار كلّ عصب. إنّه استفانوس آخر جديد.لقد أخذوا يهدّدون. إنّها قصّة مماثلة لقضية استفانوس ونتائجها . كلّما نقت السكين ونقى المبضع[٥٦] كلّ جدل ديني ازداد الضجيج والاضطراب. لم يكن بولس قد وجد الطريق الصحيح لهذه البشرية الصعبة . لم يكن مزاجه قد تشذّب بعد. المحاولة كانت أشدّ سوءاً من محاولته في دمشق وبدون أن يصيب الهدف. لقد نصحه بطرس ويعقوب وقالا له : «أيّها الأخ شاول لا جدوى من عملك هكذا إنّك تثير الجدل والأحاديث» إنّ هذا يعذّبه . في دفاعه إلى اليهود بعد سجنه (أعمال ٢٢ : ١٧) يتحدّث بعدئذ عن ذهابه إلى الهيكل وعن غرق قلبه في صلاة عميقة «يا رب لا يريد أن يفهمني أحد. إنّهم يعرفونني جيداً» أخرج فوراً من أورشليم «أسرع واخرج من أورشليم سريعاً لأنّي أرسلتك إلى الأمم البعيدة» هذا هو الأمر القاطع الذي سمعه جواباً على صلاته العميقة وقد خلّصه وخلص الأخوة من دمار جديد.

في كلّ مكان كان المجرمون يتحيّنون الفرص. لقد ساعده التلاميذ فهرب سراً إلى قيصرية ولم تكن قيصرية خاضعة للإدارة اليهودية . منها كانت تتفرّع طرق مواصلات بحريّة وبريّة متعدّدة. كان عليه ألّا يزور أيّة رعية وألّا يقف في أيّ مكان «وكنت مجهولاً بالوجه لدى كنائس اليهودية التي في المسيح» (غلا ١ : ٢٢) . توجّه بولس إلى سلفكية الأنطاكية مجتازاً كيليكيا وسوريا ماراً بصور وصيدا وبعد لفّ ودوران وصل إلى وطنه طرسوس.

إنّ بعض الأخوة الضعفاء في أورشليم تنفّسوا الصعداء عندما رأوا، أنّ هذا «الأخ الخطر»[٥٦] قد ابتعد. الكتاب المقدس كتاب يحبّ الحقيقة. وعندما تقع الأخطاء يقرّ بها بطريقة مكشوفة. إنّ مسؤولية عدم التفاهم بين الرعية وبين بولس تشغل الإثنين معاً. الرعية كانت لمّا تزل بعد في حالة شك من بولس، وبولس كان يتبع نوعاً من التعليم النظري يختلف جداً عن المألوف. «كان بولس يمزج في نقاشه كثيراً من التعليم اليهودي بصورة معدلة مسيحياً وكثيراً ما كان يشكل فهمه على الرجال البسطاء»[١٧]. وكان كثيراً ما يشتبك في مشاكل جديدة كانت تقوده الى مصادمات عنيفة. أتحقّق شيء بدون صراع بين القديم والحديث؟ ألم يقل المخلّص: «لم آتِ لألقي سلاماً بل سيفاً» فسيف المسيح أو مسيًّا الذي كان يحلم به فتى طرسوس كان عليه أن يصهره في أتون التواضع ويطرقه على سندان الألم والعذاب.

١٠. «سنوات طرسوس الهادئة»

(أعمال ٩ : ٣٠— ٣١)
(غلاطية ١ : ٢١)
(٢ كورنثس ١٢ : ٢— ٥)

نحن في السنة التّاسعة والثلاثين بعد المسيح. كان بولس في هذه الأثناء، قد وصل إلى وطنه. هناك تساؤل حول وصوله. أتوجّه فوراً إلى وطنه، أم أنّه عرَّج بطريقه على سوريا وكيليكيا، يبشّر بالإنجيل هناك؟ لا يوجد أي دليل تاريخي على جهاده في سوريا[٥٠]. من الجائز أن تكون أنطاكية قد قامت بتأسيس الكنائس السورية. أما تأسيس كنائس كيليكيا التي تشير إليها الآية (أعمال ١٥ : ٤١) فمن المحتمل أن يكون قد حدث في ذلك الوقت. إلّا أنّ الظلمة تكتنف هذا الزعم. احتمال داخلي يقف موقف المدافع عن أنّ بولس انتظر

بهدوءٍ ، واطمئنان ، مدّة تتراوح بين الثلاث والأربع سنين ، دعوة جديدة من الله . وكثيراً ما يترك الله مختاريه في حالة الإنتظار الطويل . كان على بولس أن ينتظر كمعلّمه في النّاصرة ، أزوف السّاعة للبدء بالعمل . إنّ الكلام النبوي : «وتحمَّل واستكان لخلاص الرب» يعبِّر عن مخطط هذه السنوات من الإنتظار . قد يكون هذا الإنتظار من القضايا الصعبة على إرادة لا تعرف القيد ، على شعلة نهمة في النفس وعلى الأخص في عالمٍ اندفع نحو نهايته الجنونية بسبب جنون كاليفولا . إنّ الإنتظار هذا تجربة عظيمة لإرادة تشتعل بالمثل . إنّها تحتاج إلى صبر وإيمان كصبر وإيمان الأب ابرهيم . الله ملك عظيم والملوك يتركون الغير ينتظرونهم . الكتاب المقدّس مشحون بمثل هذه الانتظارات «انتظار الرب» . العصر الذي سبق المسيح كان عصر انتظار في مخادع الله . وحياة البشرية كلّها كانت انتظاراً إذا نُظر إليها من خلال موشور الأزل ، انتظار الخليقة «ليوم الرب» يوم الدينونة انتظار الدعوة الإلهية يحتاج إلى قوة نفسية كبيرة . العاجزون عن الإنتظار هم صغار النفوس ، لا يهمهم أَوَصلوا قبل الأوان بكثير أو بعده بكثير . الرجل القديس الذي سبق وتمرّن على الطّاعة الدّاخلية ينتظر ساعة الرب «الزمان» كما يسمّيه الكتاب المقدّس ، اللحظة المواتية ، التي كان اليونان الأقدمون يمثّلونها بصبي عجول على جبينه شكلّه . حسن أن نتذكّر أن في حياة القديسين الكثير من هذه الفترات من التجارب ، خلوات راكنة ، وتدقيق ، وبحث لإرادة الله . وهكذا كانوا يقبلون من ساحتهم السلبية الينا ليصيروا قريبين منّا وواقعاً في حقيقتنا .

لو كانت لدينا معطيات تثبّت لنا : إن والدي بولس كانا على قيد الحياة ، وأنّهما اعتنقا الدين المسيحي ، لكان الأمر طبيعياً إذا قلنا إنّ هذا الإنسان المتعب المرهق المحطّم ، هذا الإنسان المرتدّ اليائس ، قد عاد إلى بيته ليجدّد نشاطه ، ولينتظر الإشارة الإلهيّة . يظهر أن بولس لم يحظ بهذه السعادة . لا نعرف إذا كان الذين اعتنقوا المسيحية قبله من يهود قبيلته ، كانوا من أقاربه المقرّبين (رومية ١٦ : ٧) . لو كان والد شاول حياً لجاز أن نتصوّر أنّ قلب هذا المتمسك بالشريعة سيتجرّح عندما يسمع أن ابنه المرتدّ حقر كبرياء الناموسي الموسوي باتباعه هرطقة المحتقرين ، وسيتبرأ منه . من يدري فقد يكون هذا من الأسباب التي جعلت بولس يقضي كلّ حياته فقيراً ، مترفعاً فلم يرد أن يقبل مساعدة أحد حتّى مساعدة مواطنيه [٥١] .

قبل خمس وعشرين سنة على وجه التقريب كان بولس قد ترك وطنه والفرح يملأ

قلبه. ترك وطنه طلباً للعلم وكان يعود إلى وطنه في العطل المدرسية. ها هو الآن يعود ليرى أنّ كل شيء تغيّر. نعم إنّ العالم قد تغيّر نوعاً ما، أمّا الذي تغيّر بالفعل فإنّه بولس. لقد حدث معه ما حدث لفرنسوا أسيز. لقد رأى أسيز بعد أن شفي من مرض العالم أن العالم قد تغيّر فابتعد عنه جاهلاً ما الذي يفعله. لا أمرَّ في الحياة من إحساسك بأنّك وأنت في أوج الحياة تعمل بدون نتيجة. ولا أقسى من إحساسك، بأنّك لا تعمل من أجل الله بقدر ما تسمح لك قواك. إنّ ضبط قواك الروحية ومواهبك تجاه عملٍ تؤمن أن الله لا يريده ويجب مقاومته هو عملٌ شاق ومن أصعب فنون السيطرة على النفس. كان على بولس أن يختفي «كانت الأمور تسير سيراً حسناً بدونه». لقد ازدهرت الكنيسة ازدهاراً عجيباً[١٧] عندما اختفى عن المسرح كما تقول أعمال الرسل.

أعمال الرسل تتكلّم بصورة جازمة عن الحسنات التي نجمت عن تواريه. منذ أمدٍ كان قد ترك صفة معلّم الشريعة وتخلّى عن أحلام شبابه في خلق مستقبل عظيم. من الضروري أن يداس كلياً وأن يدمّر كل حصن وبرج في عقليته المتصلّفة قبل أن يستعمله الله. وعندما تمّ كل ذلك، عندما أطاع الله وخضع بكليته لإرادته، عندما جعل نفسه في أدنى مرتبة من مراتبالكنيسة،عندئذ صدر الأمر إليه: «أيّها الصديق انهض»: يقول تقليد قديم إنّ بولس أمضى حياته في كهف قريب من طرسوس. المرجح أن يكون قد قضى السنوات التي عاشها في طرسوس في الحي اليهودي في حي الحياكة. في ذلك الوقت كان لكل مهنة حي خاص بها وسوق للمبيع[٥٠]. ونبع ماء. لا يزال هذا النبع موجوداً في أحد البيوت يحمل اسم «نبع بولس الرسول»[٦٩] ولا يستبعد أن يكون قد جعل من بيته الوالدي مقراً لسكناه بدلاً من الكهف الذي يذكره التقليد القديم. كانت الحياكة بالنسبة له شيئاً مهماً اعتادها منذ نعومة أظفاره فهي التي ساعدته على العيش هنا وفي البلاد العربية وفي كل مكان سافر إليه وجعلته حراً لا يحتاج إلى عون أحد. من يدري كم أمضى من الساعات في وقت الرّاحة على ضفاف كيدنو حيث كان الخطباء المتجوّلون يفسّرون الفلسفات الكبرى. «اليونانيون يطلبون حكمة» (١ قور ١ : ٢٢) إلّا أنّ «الحكمة» لم تكن ابنة جوبيتر التي كانت تساعد بعض اشعاعاتها أرسطو العظيم ليلج بتحليقاته الفكرية سلالم «المحرك الذي لا يتحرّك». في هذا المكان تعلم بولس طرق التعليم. والجدل الشعبي، واستعمال اللغة اليونانية. كان بولس يكره الكتب الغير الدينية. إنّ الكتاب المقدّس كان كتابه المفضل.

ومن المستبعد أن يكون قد قرأ كتاباً غيره. إنّه سقراط المسيحي. البشر كانوا كتبة. من اتصالاته الكلامية مع الونانيين التصقت به بعض العبارات الطيّارة التي تدهشنا ونجدها في مواعظه، ورسائله. ففي موعظته فوق أريوس باغوس في أثينا (أعمال ١٧ : ٢٨) مقطوعة لمواطنه اراتو نجدها أيضاً في صلاة لكليانثيس المشهورة للإله جوبيتير «إنّنا نحن من ذريته» ولأبيمانيدس «إذ به نحيا ونتحرّك ونوجد». في رسالته الأولى لأهل قورنثية (١٥، ٣٢) آيتان لميناندر: «نأكل ونشرب ونموت غداً» «الأحاديث الشريرة تفسد الأخلاق الصالحة» وقد ذهبت الآية الأخيرة مثلاً. في رسالته إلى تيطس نجد أيضاً آية أخرى لأبيمانيدس «الكريتيون دائماً كذابون وحوش خبيثة وبطون كسولة» (تيطس ١ : ١٢). «إن بقاءه مدّة طويلة في مركز من أشهر المراكز الثقافية دون أي ازعاج كان حادثاً عظيماً بالنسبة لجهاده وسط العالم اليوناني»[٥٠].

السنوات التي قضاها في الهدوء لم تذهب عبثاً. أتذهب سدى الشهور التي تكون فيها حبّة القمح مطمورة تحت الثلوج؟ ألا يطور خلاياها الموت السري؟ «إن لم تسقط حبّة الحنطة في الأرض وتمت فإنّها تبقى وحدها» (يوحنا ١٢ : ٢٤)... في ليالي الشتاء يتهيأ خبز كثير. نعاني الكثير من الاندهاش عندما نقرأ رسائل بولس. كيف تمكّن هذا الإنسان بجهاده الذي لا مثيل له أن يعالج مثل هذه الفكر الكثيرة العمق المنطوي وراءها عمل روحي هائل؟ هنا يقوم السر في هذه السنوات الوادعة من الانطواء الذّاتي. إنّنا لا نستطيع أن نقدِّر المدة التي قضاها بولس في البلاد العربية وطرسوس وما هو تأثيرها على نضوجه اللّاهوتي. عندما يتكلّم بولس في رسائله على «إنجيله» بهذا التجرّد علينا أن نعود فوراً إلى تلك السنوات التي كانت المصدر الأول لهذا الانجيل. لقد كانت شخصية يسوع وظهوره وعمله الخلاصي وصليبه وقيامته والحياة التي عاشها مع تلامذته موضوعاً يتأمّله التلاميذ الآخرون ويفكّرون به. كان الاندهاش يربط عيونهم خلال السنوات التي رافقوا فيها المخلّص. يسألون الآن نفوسهم: من كان ذاك الذي كنّا نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا ونفرغ كل صوته في آذاننا؟ كان هذا السؤال يطير كالبرق. كان المخلص لهم رئيس الحياة، الحمل التكفيري، كان السلام والانعتاق والحياة والقيامة والرب الذي يفوق اسمه كل اسم. كانوا يعيشون مستمدّين القوة من «سر الرب» وكان يدركون معناه الخلاصي لكلّ العالم. أما العلاقات العميقة والنتائج فقد كانت في وجدانهم غير مركزة بعكس هذا المعلم

اليهودي السّابق الذي كان يشعر كأن شيئاً يضغط ليدخل إلى وجدانه، إلى أعماق أعماق تلك الأسرار «التي تشتهي الملائكة أن تطلع عليها» (١ بطرس ١: ١٢).

عرفنا الكثير من ينابيع التفكير الذي كونه بولس عن المسيح كما عرفنا عمق إيمانه. عرفنا رؤية دمشق، هذه الشرارة الأولى، هذا النبع الخلّاق الذي استمرّ يسكب نداه بقوّة لا تعرف التوقّف. عرفنا مجرى التقليد الذي ربطه بالكنيسة الأولى وأطلعنا على دراسته للعهد العتيق العميقة. وكان يعالج تحت أنواره الحوادث الجديدة كما كان ينير ما غمض فيه بنور الانجيل. كلّ ما تعلمه من العهد العتيق «كأحد الكتبة» عن خلقة العالم ودعوة ابرهيم وما تلا ذلك ربطه بالكشف الجديد بصورة إيقاعية رائعة ملأها عجباً وتعبّداً[٥٠]. والآن وفي فترات معينة متكرّرة تضاف مراحل جديدة ورؤى يكشفها له النّاهض من القبر يستشهد بها في رسائله (٢ قور ١٢: ١) وتحلّ كإيحاءات أو كشلال فوري من الأفكار فتزرع الخصب في فكرته كلّما اقتربت حالة الجفاف أو الموت أو عندما يكون عقله في اتجاه نحو الخطأ. ليس التدخّل الإلهي في هذه الحالة تدخّلاً قسرياً لتحقيق إرادته أو هجوماً إلهياً لغاية إجبارية. لا يُقبل الرب كالإعصار بل كالندى الطلي فلا تعرف من أين يأتي وإلى أين يذهب. «إنّ أقوى الافكار هي التي تصل كنقلة الحجل». يقول نيتشه: إنّ انجيل بولس لم يسقط جاهزاً من السماء. إنّه ثمرة من ثمار الإستنارة. ثمرة من ثمرات «الصلاة التأملية». ثمرة من ثمار التعمّق في الكتاب المقدّس. إنّ رسائله تحمل هذا الطّابع المزدوج وعندما نقرأ الواحدة تلو الأخرى وفقاً لتسلسلها التاريخي يمكننا أن ندرك تطوّر الرسول الفكري بجلاء ووضوح. إن «رسالتيه إلى أهل سالونيك» تمثّلان البذار وساق السنبلة الأخضر. أما (رسائله الكبرى: إلى أهل غلاطية وقورنثية الأولى والثّانية وإلى أهل رومية) فإنّها تمثّل السنبلة المليئة. (ورسائل الأسر) تمثّل الثمار الناضجة اما (الرسائل الرعائية) الأخيرة فإنّها تمثّل الحصاد.

كيف يمكننا أن نتصوّر هذه الكشوفات؟ هذا السؤال يشبه السؤال: أي طريق يسلك البرق؟ أي طريق يسلك الإلهام؟ على العموم هناك طريقان، طريق الخيال الديني الذي يستعمل في الأسرار وطريق العقل الذي يستعمل في الشعور، في الرؤية الروحية. عند أنبياء العهد القديم كان الكشف يتمّ على الغالب بصورة رموز. كانت الإستنارة الدّاخلية تنير

معناها أو تبقى غامضة. إنّ لغتهم المليئة بالصور تدلّ حتّى اليوم على الآثار التي تركها النور في طريقه، آثار لا يدرك غورها ولا يستقصى أثرها. أما عند بولس فكانت الكشوفات بنت الرؤيا، أي رؤية مجموعة من الحقائق الكاملة والنتائج والتشعّبات لصورة فريدة مصدرها كما يتضح إلهي. لدينا أمثلة كثيرة على ذلك في حياة القديسين.

إنّ هذه المعارف التي تكوّنت بهذه الطريقة نظّمتها قوّة جبّارة جامعة تعالج روحياً بتأمّل دائم كلّ ما سبق ورأته في الرؤيا، وكلّ ما سبق وعاشته، وتضعها في قالب عام محبوك. ترى كيف كوّن بولس أفكاره عن حالة العالم الدينية التي يصوّرها لنا باختصار في رسالته إلى أهل رومية؟ إنّ السنوات التي قضاها في طرسوس تسمح له بأن يكوّن فكرة واضحة عن حالة العالم الدينية وعن المعنى الخلاصي للموت وعن قيامة الرب[٤٨]. بنور المعرفة الجديدة جابَ كل الدروب الخربة منذ بداءتها، وكلّ أطلال البشرية. وكان كمسيحي الآن في مركز، يخوّله أن ينظر إلى العالم الوثني نظرة فيها الكثير من العطف، نظرة كانت تنقصه عندما كان فريسياً. وكان كلّما ازداد عمق عطفه على الوثنيين، كان أعمق وأكثر تجرّداً في حكمه. كانت نتائج أفكاره مؤلمة. «عندما كان العالم بدون مسيح كان العالم تحت غضب الله» إنّ الله (لم يترك ذاته بدون شاهد) يشهد له بين الوثنيين إلّا أنّهم لم يستخلصوا نتائج عملية ممّا خلقه الله بل عبدوا الخليقة وألهوها وهي المخلوقة لتكون مرآة يرى فيها الإنسان مجد الله. وهكذا وقعوا في جرم عظيم. إنّ غضب الله ينتصب فوق عبّاد الأصنام وما عبادة الصنم إلّا عبادة الشيطان. لم تكن حالة اليهود الدينية أفضل من حالة الوثنيين. إنّهم كانوا يملكون علاوة على المعرفة العقلية الكشوفات والشريعة والأنبياء والكتاب المقدّس وما رفعهم «في نظر الشعوب الأخرى هو الذي أنزلهم وكان سبباً في قدرهم الشرير ومصيرهم، فكما كان الوثنيون يعبدون الخليقة كذلك عبدَ اليهود الشريعة وألّهوا الحرف وسجدوا له. لم يكن صراع بولس العنيف إلّا تشنّجات قصد منها التبرير للوصول إلى العلاقة الصحيحة مع الله بتطبيق صارم للشريعة. لقد أثار المران القاسي للإرادة تحت ظل الشريعة الموسوية حالتين نفسيّتين الواحدة تصارع الأخرى. ثقة في النفس لا حدّ لها «أشكرك يا رب لأنّي لست كباقي النّاس» وشعور بالانحطاط، مرحلة قاسية بسبب الخطيئة أجبرته على أن يصرخ بصوت جارح «من يخلّصني من جسد الموت» (رو ٧ : ٢٤).

كيف ينتقل الإنسان من حالةٍ « بدون المسيح » إلى حالة في المسحية؟ يراجع بولس في فكره خبرة ارتداده. ماذا حدث له؟ يشرح بولس جواباً عن هذا السؤال وجهة نظره في عمق المسيحية فلا يجاريه في وجهة نظره هذه أحد من الانجيليين إلّا يوحنّا أو بالأحرى إنّه القريب الوحيد منه عندما يتكلّم يوحنّا على حبّة القمح التي تطمر في التراب أو عندما يتكلّم على الكرمة. وتصل فكرته إلى القمة عندما يتكلّم على « الشركة مع المسيح » بمساهمة إلهية حصل تغيّر عميق في الدّاخل وصل إلى أعماق وجوده. لم يكن هذا الإرتداد تطوّراً بسيطاً لقوى دينية بل انقطاعاً جوهرياً مع الماضي وتحوّلاً في الاتجاهات على طول الخط. إن هذا الإتجاه إذا عنى شيئاً فأقل ما يعنيه تحوّل كياني يمكن أن يعبر عنه بصورة حية التضاد القائم بين: الحياة والموت[٤٤]. لقد مرَّ الموت داخل الإنسان (رومية ٦ : ٢ ، ٤ ، ٧ ، ٨) (غلا ٢ : ٢٠ ، ٦ : ١٤ كولو ٣ ؛ ٣) وجذبه التحوّل الخلّاق لحياة المسيح الأرضية التي مرّت بالموت والدفن والقيامة. لقد بعث إنسان جديد « في المسيح » وارتبط به من الآن فصاعداً، عاش معه أم مات معه، ارتباطاً، لا كما تقول الميول ا. سوفية في الأسرار اليونانية، فيه تشويش واختلاط وقضاء على الفردية بل ارتباطاً فيه وحدة مع روح المسيح، الروح القدس هذه القوة الرّابطة بين المسيح والمؤمن. وما حدث مع بولس يحدث مع كلّ مؤمن يشترك في موت وقيامة المسيح إذا ما أقام جسراً سرياً بين المكان والزمان بالإيمان والمعمودية، وهكذا يحظى بوجود جديد وبحياة جديدة في المسيح وبالعمل الخلاصي الفريد كحادث تاريخي واقع. إنّ وجوده الجوهري وإن كان خفياً، هو صفاء وسط مملكة حياة المسيح، تحرّر من سلطة العالم والخطيئة وصار « قريباً » من المسيح بعد أن كان « بعيداً عنه » (أفسس ٢ : ١٣) وكونه « أجلسنا في السماويات مع المسيح » (أفسس ٢ : ٦) ناجم عن قوّة موت يسوع الخلاصي. المسيحي « لبس المسيح » (غلو ٣ : ٢٧) كوشاح للنفس لا كممثل ينسجم بكليته مع الدور الذي يمثّله بل ككاهن أمام المذبح يتكلّم معه المسيح داخلياً. العبارة التّالية تعبّر تعبيراً صادقاً عن الحالة هذه « المسيحي إنسان جديد بدّل محلّ إقامته »[٤٨]. هذه الأمور ليست لبولس صوراً رمزية بل أكثر من حقيقة وأكثر من حادثة طبيعية تقع في الحياة. هذه الحوادث النفسية ككل سر لا يمكن أن تقع تحت ناموس المنطق المألوف ولا أن تخضع له. التعبير عنها لا يتمّ إلّا بأفكار العجب فتظهر لنا كأنّها « جهالة الصليب ».

أمام هذه الحياة الجوهرية المسيحية تبوخ الحياة العامة بالنسبة لبولس وتصبح عابرة

وقتية ضاحية مجنحة بأجنحة وجود بطال، بيد أنّها لا تخلو من معنى لأنّ فيها سيتّخذ قرارات خلقية هامّة وسيمرّ في تجارب عنيفة وهكذا يتقدّم وسط ضياء هائل تاركاً غلاف الحياة الأرضية الخارجي «إلى الخفي من أعماق قلب الإنسان» (كولوسي ٣، ٤) (١ بطرس ٣ : ٤) كان متوحّد طرسوس يكافح ليجد الكلمات التي تعبر تعبيراً صادقاً عن مضمون هذه الحياة الروحية فيقول إنّه يتألّم مع المسيح ويموت معه ويدفن معه ويحيا ويتمجّد ويملك ويتجسّد ويتكون. إنّ هذه التعابير صعبة جداً على قارئ رسائل بولس إذا كان من المبتدئين لعمق معناها ومغزاها. وإنّنا لنرى أنّ بولس في رسائله يستعمل العبارة الموجزة «مع يسوع المسيح» ليدلّ حيناً على «جوهر المسيح» وحيناً آخر على «الاتّحاد به» أو ليدلّل على «التشبه به أو الوحدة معه». والمقصود هو الحياة المحوريّة في المسيح. هذه الوحدة هي العصب الحسّاس للّاهوت وأخلاق بولس. من لا ينتبه إلى هذه النّاحية لا يمكنه أن يدخل إلى المعنى البوليسي، فهو كمن يحوم حول القصر المسحور يريد دخوله فلا يجد الباب ولا يملك المفتاح. على كلّ دارس بولس أن ينظر إلى بنائه التعليمي من هذه الوجهة التي تعطيه وحدة وترابطاً. لكلّ عمل فنّي خطوط تدخلك إليه وتكون هي البارزة وفي عمل بولس لا نرى غير المسيح، فهو البداءة والنهاية والكل «فيه وبه وإليه كل شيء» إنّه لا يرى المسيح التّاريخي المتروك بل «المسيح الممجّد الكائن أزلياً في الثّالوث» هذا ما يعنيه في رسالته إلى أهل غلاطية (٢ : ٢٠) «لا أنا أحيا بل المسيح يحيا فيَّ» نحن هنا في النقطة الجوهرية من المسيحية، وجوهرية المسيحية لا تقوم على أنّها تعليم جديد أو عبادة جديدة أو أخلاق جديدة. هذه الأمور تأتي في الدّرجة الثّانية. الجديد في المسيحية، الجديد الذي لم يسمع به من قبل هي الحياة الجديدة التي يهبها الروح بالموت السري «مع المسيح» هذه الحياة في المسيح هي المميّزة لديانة يسوع عن كلّ ديانات أخرى. هذا هو الجديد المطلق الذي لا مفرّ منه والذي لم تأتِ به ديانة من الديانات. من الصعب في الوقت الحاضر أن ندرك معنى هذه الحياة بعمقها والأيّام كما نرى تغرق في التفاصيل الشكلية، والأفكار الثانوية والعادات والطقوس والمظاهر البطالة التي تكدّست عبر الأجيال. قبل ثلاثين سنة على وجه التقريب عندما ألقى هارنك محاضراته الشهيرة في برلين ركّز على أنّ «جوهر المسيحية» يقوم على البحث عن الآب وعن قيمة الروح وقد دلّل في محاضراته هذه على أنّه بعيد كلّ البعد عن مفهوم الأمور وعلاقتها الحقيقية. علينا أن نوجّه أفكارنا من جديد إلى هذه النقطة ونعطيها الأهمّيّة الكبرى في حياتنا حتّى نصبح مسيحيين حقيقيين.

نحن الآن في موقف يمكننا من الحكم على قيمة ما يقوله البعض من أنّ بولس ضغط على كلّ حرية وكل حياة في ديانة يسوع ، ووضع محلّها خلقة من عقله كما وضع لغته الرمزية البدائية وهكذا «حوّل المسيحية إلى يهودية» أي أنّ المسيحيّة الحقيقية لا توجد في رسائله بل في الأناجيل. علينا إذا أن نبتعد عن بولس ونقترب من المسيح. إنّ نقد عصر رينان ونيتشه وباول ولا غارد لا يقبل ببولس ويرفضه بهوسٍ على طول الخط. إنّ الشيء الأكيد الموجود في هذه الادّعاءات هو أنّ بولس والكنيسة الجديدة قد تجاوزت نوعاً ما تعليم المسيح في الإنجيل إلّا أنّ المسيحيّة لم تنحصر كلّها في كلمات المسيح. المسيح لم يعلّم فقط بل عمل بالإضافة الى التعليم. هناك أيضاً : موت الصليب والقيامة واليوم الخمسيني والتفسير العقائدي الصوفي الذي أعطاه الرسل. حول كلّ هذه الأمور يدور محور المسيحية لا حول موعظة يسوع على الجبل والأمثال فقط.

مثل هذه الأفكار والخواطر كانت تعيش مع بولس في هذه المرحلة من مراحل الاختلاء ، وبما أنّنا لا نرى في أيّ تعبير من تعابير بولس خطاً تطوّرياً جديداً كلّ الجدّة بل إنّ روحه كانت تتّجه دائماً إلى النتائج الأخيرة ، فإنّنا نستنتج أنّ مضمون بشارته في النقاط الجوهرية كان جاهزاً في داخله قبل أن يبتدئ بعمله الرسولي. لا نكون على بطلٍ إذا قلنا إنّ تكوين مضمونه البشاري تمّ في هذه السنوات من الاختلاء. «الأفكار العظيمة التي وضعها وضمَّنها رسائله كمعلّم للمسكونة صارت مسكونية بدون إرادته وخارج معرفته» ، والقسم الأكبر منها تفجّر في هذا «المعمل القاتم» «من رأى حائك السجّاد وصانع الخيام الطرسوسي»[٥٠] يمكننا أن نتخيّل القيمة التي لهذه الرؤى في طرسوس والصحراء العربية بالنسبة للّاهوت إلّا أنّنا نستطيع أن نقدّرها القدر الذي تستحقه. إنّها ليست مشاعر «خداعة» لعالم مظلم من «الإحساس الديني» بل نتيجة لأثر الرؤيا الإلهية الروحية في روح مَن أخذ النعمة الإلهية. إنّ شعوراً بالحياة حرّك فيه الحياة إلى الرفعة والسمو. إلى أين وصل غرقه في تأمّلاته؟ في رسالته الثّانية إلى أهل قورنثية يتكلّم عن هذا الاختطاف الذي اضطره خصومه للكلام عليه وللكشف عن حوادث دينية داخلية يصعب على الرجل الديني أن يتكلّم عنها. «أَعرَف إنساناً في المسيح قد اختطف منذ أربع عشرة سنة إلى السماء الثّالثة ، أَفي الجسد لست أعلم ، أم بدون جسده؟ لست أعلم الله يعلم ، وأعرف أنّ هذا الإنسان أَفي جسده؟ أم بدون جسده؟ لست أعلم الله يعلم ، قد اختطف إلى الفردوس وسمع كلمات تفوق الوصف لا يحلّ لإنسان أن ينطق بها» (٢ قور ٢ : ٤).

كم كانت تعذّبه وسط اندفاعه للعمل الفكرة أنّ خلف طوروس وخلف سلسلة جبال الأمانوس عالماً كاملاً مقفل الأبواب في وجه المسيح لم يحتلّه أحد بعد. يظهر أنّه كان من حين إلى آخر يقطع وحدته وينطلق في رحلات تفتيشية إلى كيليكيا وسوريا وظلّ على هذه الحال حتّى أزفّت السّاعة.

١١. «أنطاكية»

(أعمال ١١ : ١٩— ٢٤)

تغيّر المشهد لكن بولس لم يكن فوق المسرح: نحن في أنطاكية الجميلة، المدينة الكبيرة التي يربو عدد سكّانها على نصف مليون، الثّالثة حسب الترتيب في الأمبراطورية الرومانية بعد رومية والاسكندرية، ومركز الموفد الأمبراطوري في سوريا. يقودنا تاريخ بولس باستمرار من مدينة إلى مدينة أكبر منها ومن محيط إلى محيط أوسع. كان على أنطاكية أن تصبح الأمّ الثّانية للكنيسة الجديدة بعد أورشليم. إنّ الخط في تطوير الكنيسة الأولى إلى كنيسة مسكونية يبتدئ بأورشليم ماراً بأنطاكية فرومية. من المستحسن أن نعرف مدينة أنطاكية عن قرب ما دامت قد دخلت في أعماق حياة بولس وصارت بعد أن قضى فيها عشرين سنة وطنه المختار ومكان انطلاقه لمشاريعه العظيمة.

تقع أنطاكية في الطرف الشرقي من البحر المتوسّط حيث تشكّل شواطئ سوريا مع شواطئ آسيا الصغرى زاوية قائمة بعمق عشرين فرسخاً نحو الدّاخل من ضفّة العاصي الجنوبية. تقفو شمالاً فوق أقدام جبل الأمانوس وجنوباً فوق أقدام جبل كاسيوس ثم تتّكئ فوق الخضار من سفوح سيلبيوس وتتّصل بكلّ أوساط الدولة الرومانية الهامّة. وكانت مدينة السلوقيين الخلفاء العظام للاسكندر الوسط المثالي لكنيسة تود أن تنتشر بين الوثنيين. فكما كانت طرسوس بالنسبة للدّاخل من آسيا الصغرى كذلك كانت أنطاكية بالنسبة لبلاد ما بين النهرين والبلاد العربي. عندما كان الأنطاكي يتكلّم على مدينته كانت عيناه تشعّان ببريق الإعتزاز والحماس وكان يحدث الغريب عن الجادة العظيمة بأعمدتها الرّائعة التي فتحها بسخاء ملوكي هيرودوس الكبير. كانت الجادّة العظيمة تشقّ المدينة من شرقها إلى

غربها وكان طولها يربو على عدةفراسخ ،وكانت العواميد تزيّنها وتقسمها إلى ثلاثة شوارع متلاصقة. كان الشّارع الوسط مخصّصاً للعربات الثقيلة ، أمّا الشّارعان الآخران فللمارّة والفرسان والعربات الصغيرة. وكانت الجادّة تنتهي عند سفوح جبلٍ نصب فوق قمّته تمثال ضخم لجوبيتر،كان يهيمن على الجادّة ويشرف على كلّ المدينة. ومن الجزيرة الصغيرة التي شكلها النّهر تنطلق من النّاحية الشمالية جادّة أخرى باتّجاه الجنوب تزيّنها الأعمدة لتلتقي بالجادّة الكبرى وتشكّل معها صليباً يلمع مرمره. الجادّتان كانتا عملاً فنياً من الفن اليوناني الروماني عجزت الأجيال اللّاحقة عن الإتيان بمثله. في الجنوب كان العاصي يحتضن بذراعيه القويّتين جزيرة صغيرة كانت تحمل فيما مضى قصر السلوقيين ومن ثمّ قصر الممثّل الأمبراطوري في الشرق،وكانت تحيط بهذا القصر أبنية الإداريين وهيئة الأركان العامة. كانت الضفة الشمالية من العاصي وسفوح سيلبيوس مزروعة بالمستراحات والقصور اللطيفة الفنية، وكانت الأسوار تحيط بالمدينة، وكانت تعلو هذه الأسوار أبراج يصل عددها الى الأربعمائة وكانت من أعاجيب الفن الروماني اليوناني، وكان السور الجنوبي يشكّل تاجاً مسنّناً يأخذ بمجامع القلوب بسبب روعة الفن التحصيني. كان هذا السور معلّقاً فوق صخور قائمة امتدّت حتّى قمّة سيلبيوس.

هناك تحفة أخرى من تحف المدينة. إنّها الإنشاءات المائية والحمّامات العامة والخاصة والأقنية وتفرّعاتها التي كانت تنقل الخيرات من العاصي إلى القصور والأكواخ. لطرسوس ودمشق أن تفاخرا بمثل هذا الغنى المالي. كانت أنطاكية باريس الشرق. كانت مدينة النور بسبب طريقة إنارتها الرّائعة. يقول ليبيانيوس الممجّد لوطنه أنطاكية بحماس: «كانت نور الليل يضايق الأيدي العاملة. كانت الأيدي تعمل كأنّ النهار ما ولّى. كان الناس يرقصون ويطربون ويغنّون وكانوا يتابعون أعمالهم، وهكذا كان ايفستوس وأفروديت يتقاسمان الليل[٥٠]»، ايفستوس كحامي صناعة الأسلحة الثقيلة وأفروديت كإلاهة معبودة، ما عرفت عبادة في مدينة كما عرفتها في أنطاكية الفاجرة. كانت الدراهم التي تحمل صورة الأمبراطور تسك هنا، «لمن هذه الصورة؟» لا بدّ أن يكون المسيح قد نظر إلى صورة الأمبراطور على درهم سك في أنطاكية.

أمّا الصورة الاجتماعية للمدينة فكانت تثلمها ظلال عتمة شأن كلّ المدن الكبيرة. كان مقابل كل إنسان حرّ عبدان. لم يكن ينقص لا التجّار ولا الأغنياء، ولا الصناعيين،

والملّاكين، ولا أولاد الأشراف، الذين يعملون، والذين لا يعملون أيّ شيء. كانوا ينالون كلّ ما ترغب فيه نفوسهم. كان أحبّ الأماكن للأنطاكيين دافني ذات الشهرة العالمية، إلّا أنّ المدن كانت تمتد على عمق بعيد في وادي العاصي حتّى مدينة أفاميا. وكانت المدن المبنية بالقصور الفخمة تنوف على المئة عداً وهذا ما يدلّ على البذخ وحياة الترف. إنّ دافني كانت تفوق كلّ المدن التي شيّدت. إنّها جنّة سكبت فيها الطبيعة سحرها. أحراج غنية وشجر الغار الباسق يسير في خطوط متوازية فتعقد رؤوسها قناطر من الخضار وكان صوت المزمار والشبابة يجذب القلوب إلى كهوف عتمة ينحل فيها كلّ ما يسمّونه خلق. وكانت فرق تلبس ألبسة العيد تسير إلى هيكل أبولون مغنّية أناشيد غرامية يونانية.

ميوعة سورية وفن لفقراء الهند ومصر وكلّ جنون الشرق العابث اختلطت وتمازجت على حدود هذين العالمين فصارت هذه المدينة الشرقية بؤرة لكلّ رذيلة. عندما أراد جوفنيال أن يصف فساد الأخلاق في رومية وصفاً حقيقياً مميّزاً قال إن مياه العاصي صبّت في نهر التيبر فتركت وحولها فيه، واستناداً إلى ليبانيوس وبفسانياس وفيلوستراتوس ولوقيانوس وإلى إشارات القدّيس الذهبي الفم كتب رينان بأسلوبه الشيّق الأخّاذ وصفاً عن حالة أنطاكية الإجتماعية. يقول رينان «تجمّع في هذه المدينة العدد الكبير من السحرة والمبشّرين والهزليين والمشرّدين والمجوس والكهنة الكذّابين والرّاقصات ونجوم المسارح وسباق الخيل. إنّها مدينة المراهنات ومصارعة الثيران والرقص والإحتفالات في الأعياد الديونيسية. بذخ جنوني، ترهات شرقية وشعوذات دينية وانكباب أعمى على الفجور. إنّها حالم ملأ رأسه الأفيون، إنّها سكرى كسكر سارنتابولو».

من سوء الحظّ أنّ الديانات والأسرار الشرقية كانت تتوّج هذه المفاسد الخلقية بهالةٍ نيّرة. كانت الديانات الشرقية تؤله الغرائز الطبيعية وقوى الإخصاب الجنسي كانت آلهتهم آلهة خصب وأثمار وكانوا يزاوجونهم، مثلاً: والدة الآلهة في آسيا الصغرى وأتيس إله فريجيا المتوحّش، إيسيس وأوسيريس المصريان، عبادة سافازنوس وديونيسيوس الفاسقة التي امتدّت إلى اليونان وروميا عن طريق تراقيا وكذلك عبادة سانتان هيرقيليوس في طرسوس. «كانت ديانات السوريين والفينيقيين وديانات مجاوري الشعب الاسرائيلي ذات مفعول سحري في أنطاكية وكانت تحتلّ المكان الأوّل. وما تقصّه الكتب المكرّمة عن الضحايا البشرية لمولوخ هو قسم من الحقيقة. إنّ عبادة الآلهة عند السوريين كانت تعني رفع الزنى

والقتل إلى مرتبة الخدم المقدّسة. لم تكن عبادة أدونيس وعشتروت إلّا تأليهاً للشرّ وكانوا يقدّمون للآلهة في منتصف القرن الثّاني للمسيح حتّى أدريانوس وفيما بعد ضحايا من الأطفال والرجال وبقيت هياكل هذه الآلهة تجمع تحت سقوفها الزنى حتّى سقوطها بسقوط الوثنية[٣٧] ». إنّ الفساد الخلقي وصل حداً لا يتصوّره عقل. كان النّاس يسكرون بشهوة الفسق والدعارة ويصلون إلى قمّة الهوس الماجن في أعياد الخصب إذ كانوا يمثّلون ربيع الزنى واندفاعه. كانت الديانات تشجّع ذلك. كان على المسيحيّة أن تدخل ظافرة إلى هذا الوسط العالمي من الشر. إذا كانت هناك مدينة تحتاج إلى بشارة الإنجيل فهذه المدينة هي أنطاكية.

كان سكّان أنطاكية مزيجاً من الشعوب المختلفة أبرزها أربعة عناصر: العنصر الروماني المفتون بعظمة أمبراطوريته، والعنصر اليوناني، أو النصف يوناني، المرهف الحس، الدقيق الشعور، الذي أضاع منذ زمن إيمانه بآلهته. والعنصر الثّالث، المواطنون المائعون، الذين يتكيّفون بسهولة وفقاً للظروف، والنظاميون، وهم من طبقة المواطنين، الذين جاؤوا من جوار أنطاكية، فشكّلوا الطبقة الدنيا من المواطنين. أما العنصر الرّابع فهم اليهود، الذين كانوا منفصلين، لكبريائهم، عن الآخرين، كشعب حبيب الله، ومختار منه. وكانوا يشكّلون رعية كبيرة، لها رئيسها الخاص (يوسفوس المؤرخ ١٢، ٣)، ويقومون بنشاط دعائي كبير ناشط. أولئك الذين كانوا يحنّون إلى تديّن حقيقي، وعلى الأخص النساء، كانوا يذهبون يوم السبت إلى المجامع، حيث كانت الأواني والأسرجة، تتدلّى من الجدران والسقوف، وكانت هذه الأسرجة قد حُمّلت من أورشليم بعد انتشالها من أنطيوخوس ابيفانوس من هيكل أورشليم[٥٦]. كان عدد المرتدّين من الوثنيين إلى اليهودية كبيراً. المرتدّون الكاملون: أي مرتدو الهيكل هم الذين قبلوا كلّ الشريعة الموسوية، والختان، وصاروا مقبولين في المجمع بعد مرور في شبه نوع من المعمودية، كانت تتم بعد إرشاد، ونوع معيّن من التعليم. نصف المرتدين: أي مرتدو الباب هم الذين تسمّيهم أعمال الرسل «بخائفي الله» أي أولئك الذين يحبّذون الديانة اليهودية ويتابعون خدمات المجمع. هناك إذاً أربعة فرق دينية، اليهود المرتدون الكاملون، نصف مرتدين «نصف وثنيين» والوثنيون.

عندما كان بولس يغرق مفكّراً في سرّ المسيح كان بذار الإنجيل «يطير فوق البحار

والبراري كأنّه على أجنحة ملائكة»[٥٠] تحمّله إلى ميناء يافا وإلى قيصرية ومن هناك إلى قبرص الخضراء وبلاد النيل حتّى الحبشة حيث متاحف كنوز ملكة الكنداك وإلى القيروان من شمالي إفريقيا وإلى اليوتيول بالقرب من ينابوليس وإلى رومية حتّى أبواب القصر الأمبراطوري. من الخطأ أن نتصوّر أنّ انتشار المسيحية الأول صار وفقاً لرحلات تبشيرية خاصة. إنّ المسيحيين الذين فرّقتهم زوبعة الإضطهاد من أورشليم والتجّار المسيحيين من أصل يهودي، المثقّفين بالثقافة اليونانية هم الذين نشروا المسيحية. إنّ معرفتهم اللغة وقدرتهم على العمل وامكاناتهم فتحت لهم الأبواب أما وداعتهم وحياتهم الفرحة فقد فتحت لهم القلوب. كان الكثير من اليهود يعيشون حياة قبلية متنقّلة وكانوا يجوبون المدن السّاحلية متنقّلين من مدينة إلى مدينة. كان هذا العمل التبشيري مطبوعاً بطابع فردي وكان محصوراً بين اليهود ويستهدفهم فقط. لم يكن الحصر مقصوداً. كان نتيجة لتفكير خاطئ. «كان ينقص هؤلاء المسيحيين الذين هم من أصل يهودي القلب المفتوح على الحقيقة والنظرة الواسعة إلى آفاق واسعة[١٧]». استاؤوا من بطرس لأنّه سارع فقبل كورنيليوس قائد المئة وعائلته في الكنيسة ولقد اضطر بطرس تبريراً لعمله أن يستشهد برؤياه وبحلول الروح القدس على الوثنيين قبل المعمودية. أمّا هذا المنطق لم يجسر أحد أن يعارض إلّا أنّهم اعتبروا ذلك حادثة فريدة لا يجوز إعادتها. لم يجسر بطرس أن يستخلص نتائج عملية لأنّه كان يخشى معارضة أولئك الذين استمرّوا على إخلاصهم للشريعة. إنّ التفاسير النظرية لا تدفع القضية إلى الأمام. يجب أن ترافقها الحوادث العملية، وقد جاءت من تلقاء نفسها. جاءت من أنطاكية. إنّ أوّل من فتح طريق التبشير إلى العالم الوثني جماعة من المرسلين القبرصيين من مواطني برنابا وجماعة من القيروانيين وكان بينها ابنا سمعان القيرواني. ويحيي بولس في رسالته إلى أهل رومية (١٦ : ١٣) أحد أبناء سمعان واسمه روفو وأمّهما وكان بين هذه الجماعة لوقا. في هذه الأكربول للمدينة العالمية كان التضاد بين الوثنية واليهودية عظيماً وكان الجدار الذي يفصل بينهما ضعيفاً وهذا ما قاد إلى تأسيس الكنيسة المختلطة من اليهود والوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية والتي صارت بتحرّرها من نطاق الموسوية الضيّقة مهداً ثانياً للمسيحية. من الضروري أن يضاف إلى هذا، الإعلان الإلهي عن الزلزال سنة ٣٧ الذي شغل القلوب وحوّل الأنظار إلى عالم فائق الطبيعة، وأخيراً وآخراً كان هناك في المدينة أناس يتحلّون بعواطف نبيلة. مع هؤلاء كان المسيحيون يتكلّمون في السّاحات والأسواق والحمامات وكانوا يخبرون السريان واليونانيين بفرح عن السعادة التي

وجدوها بالقرب من يسوع فكان هؤلاء يسمعون ذلك مندهشين ومتعجّبين وهؤلاء كانوا ينشرون الخبر فوراً وينقلونه (٥٠).

كلّ هذه الأمور صارت بدون سابق تصميم وبدون أيّة جهود خاصة. كانت كلّ هذه الأمور لا تتعدّى نطاق التعليم. الكنيسة لم تتّخذ أيّ قرار حول هذه الحالات والقضايا الإستقبالية. إنّ نسيم الروح يسير عبر التّاريخ ويعرف أين يستقرّ عند الحاجة. من يستطيع أن يعرف متى تتكوّن الأغنية والملحمة الشعبية؟ أو كيف تبقي الأسطورة دائمة الجدّة؟ تنطلق من أعماق النفس الشعبية ويظهر فجأة شاعر عظيم في وسط الشعب ويطلق عليها الاسم.

وصل الإعلان إلى أورشليم بسبب الإتّصال الدّائم مع القوافل فقرّرت الكنيسة أن ترسل بعثة إلى أنطاكية لبحث الأمر فاختاروا لهذا الغرض برنابا. لم يكن بإمكانهم أن يجدوا من هو أفضل منه وأجدر لحمل هذه الرسالة. من البديهيات أن يتخيّل الإنسان الشخصيات التي مرّت في الماضي ويرسم لها صورة في رأسه، وكذلك من البديهيّات أن نتخيّل برنابا رجلاً جميل القوام طلق المحيّا جذّابه، بريء النظرة وديعها، هادئ الحركات متزنها، ذا دراسات وسط، صديقاً لبولس نافذ البصيرة صادق الحكم ثابته، لا تهمّه القضايا الثّانوية، يعالج الأمور الجوهرية، قريباً إلى القلب، متديّناً تديّناً فيه عمق البساطة. كان برنابا الرجل الجدير بأن يوحي الثقة. وصل برنابا إلى أنطاكية وتطلّع بإعجاب إلى الجادّة العظيمة بعواميدها المرمرية وإلى تمثال جوبيتير العظيم. إلّا أنّ ما لفت نظره هو مدخل الحي المسيحي. من المؤسف أن يكون قد اندثر كلّ أثر من آثار هذا الحي. إنّ الكنيسة الذي يذكرها أثناسيوس والذهبي الفم وتيودوريتوس كانت تقوم في شارع ستيفون بالقرب من معبد الآلهة وكانت من بناء القرن الرّابع كما يقول تقليد قديم. أدرك برنابا فوراً أنّ المجال مؤات لعمل تبشيري يبشّر بمستقبل عظيم. لم يُعط أهمية إلى القضايا التي تحتاج إلى نقاش وجدل. إنّ الجوهر يهمّه، كان إنساناً عملياً. لقد رأى أن «يد الله» امتدّت إلى هنا، فاستعمل التعابير التي يوحيها الروح القدس في مثل هذه السّاعات. «إنّ موهبة الروح القدس» هي التي فتحت أبواب قلبه وأشعلته وحرّكت لسانه ووضعت الكلمات على شفاهه فتكلّم ما ملخّصه: «أبقوا مخلصين للرب وتعلّقوا به إنّه يجب أن لا يربح البشر ليلتصقوا به أو بأي جماعة من الجماعات بل يجبّ أن يربحهم ليلتصقوا بالمسيح

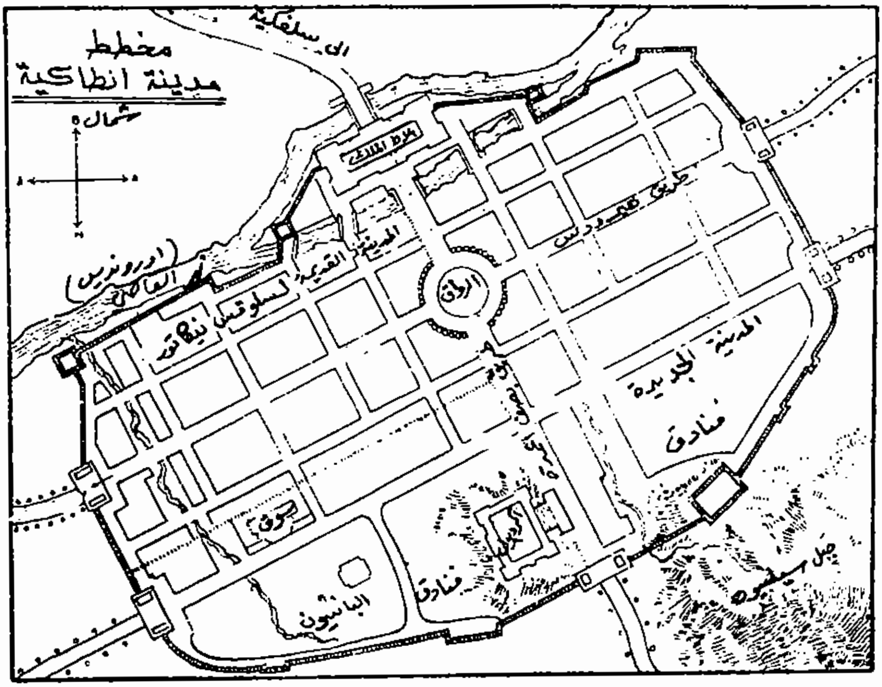

ويحيوا به. فكتب إلى أورشليم مطمئناً ومهدياً روعهم وحاضّاً إيّاهم على تقبّل الحوادث كما هي.

كان برنابا بشعر أنّ القضية الصعبة لم تتّضح بعد. إنّها لا تزال قائمة وتستلزم الحلّ. لم يضع المسيح حلاً لقوّة الشريعة الموسوية الاستقبالية ومفعولها. إن محافظته على الشريعة يمكن أن تؤول تأويلات مختلفة. بيد أنّ القضية يجب أن تحلّ وفقاً لروح المسيح. إنّها مشكلة صعبة تركها المعلّم إرثاً للكنيسة [٩]. لم يكن برنابا الرجل الذي يمكنه أن يرتّب هذه القضية عقائدياً وفي الأساس. إلّا إنّه يعرف رجلا جديراً يمكنه أن يحلّ هذه القضية الصعبة. مباركة هي السّاعة التي وضع فيها المخلّص اسم بولس على شفتي برنابا.
الصعبة. مباركة هي السّاعة التي وضع فيها المخلّص اسم بولس على شفتي برنابا.

١٢ . «بولس وبرنابا»

(أعمال ١١ : ٢٥ — ٣٠ ، ١٢ : ١ — ٢٥)

أ) . في أنطاكية

وكان يوم من أيّام الربيع ، وكانت السنة الثّانية والأربعون. وكان بولس جالساً إلى آلته ، أو غائصاً في بحر أفكاره متجوّلاً في شوارع طرسوس ، عندما وقف أمامه فجأة صديقه القديم برنابا ، وربّت فوق كتفيه بمحبّة وقال له :

«أيّها الأخ شاوول إنّ المسيح يدعوك ! إنّه حاضر يناديك تعال معي إلى أنطاكية ! » .

يا لتلك الأمسيات الجميلة ! يا لروعة اللقاء بين الصديقين ، ولسحر تلك الأحاديث التي تبادلاها فوق سطح البيت بعد فراق طويل ! كانا يتسامران في أخوة ، ويقصّان في حرارة كلّ ما جرى معهما. يا للنضوج العميق نضوج بولس ! الذي رآه برنابا في صديقه الشّاب ! بأيّة عاطفة من الامتنان «لأب المراحم» أصغى بولس للحديث عن ظفر المسيحية بين الوثنيين !

لولا برنابا لبقي بولس وحيداً تأكل نفسه أفكاره وخواطره. الوحدة والانعزال يفيدان على أن يكونا مرحلة انتقالية. قوى الإنسان لا تدرك إلّا بالعمل. إنّها الخدمة الثّانية التي أسداها برنابا لصديقه الشّاب. إنّ أعظم عبقرية تبقى عاقراً إذا لم تجد من يصادقها ويسامرها. لقد قابلت الكنيسة خدمة برنابا بالإمتنان والعرفان فسمّته رسولاً لأنّه كان من مؤسّسي الكنيسة بين الوثنيين.

أزفّت السّاعة فسمع بولس دقّاتها تدعوه. كان بولس بانتظار هذه السّاعة. إنّه يعرف مصيره ، وينتظره منذ سنوات. دقّات السّاعة بمنتهى البساطة ، فلا تطبيل ولا تزمير. غريبة هي طرق الله وكثيراً ما تكون مظلمة في أعيننا إلّا أنّها تبقى دائماً عظيمة ومحبوبة. هكذا يوجّه الله أصدقاءه ويسيرهم. لقد فعل ذلك مع القديس فرنسوا أسيز واغناطيوس ليولا. ذاك كان ينقل الآجر والطين لإعادة بناء كنيسة فقيرة مهدّمة فأعاده إلى الصواب على يد كاهن بسيط كان يعظ وهذا وجد طريقه بعد أن ذهب إلى فلسطين وأعادوه وكان

يجهل حاجات العصر، نحن لا نملك إمكانية دعوة نفوسنا. هذه هرطقة بلاجيوس «إنّكم ما اخترتموني بل أنا الذي اخترتكم» (يوحنا ١٥، ١٦).

من الطبيعي أن يكون الصديقان قد اختارا طريق البحر إلى أنطاكية لقصره. لقد عبرا النهر «كيندو» بالقارب ثم ركبا مركباً تجارياً من ميناء طرسوس إلى سلفكيا ومن هناك توجّها إلى أنطاكية سيراً على الأقدام فصعدا حتّى وصلا إلى قمّة جبل لاحت منها ثلوج جبال طوروس ولبنان تغامزهما ثم انحدرا ضاربين وسط التلال المكسوّة بالأشجار مارَين بين صفوف من شجر الدفلي المنوّرة والكروم. ثم اجتازا أرضاً غنية بعروق السوس ودخلا في بساتين الرمّان واللزّاق والنانرج والليمون الشهيرة وكان أريج أزهارها ينتشر في الفضاء معطراً الجو. وقف بولس عند آخر مرتفع وقد أخذ سحر الطبيعة بمجامع قلبه. تحت كان يمتدّ وادي العاصي بجلاله. وعندما وقعت عيناه على شريط النهر الفضّي المزركش بإطار لؤلؤي من القصور السّاحرة، وقد غطّته أشرعة المراكب، وكانت ترقص تحت أرجوحة النسيم طرقت أسماعه أصوات المدينة بضجيجها المخنوق. صلّى الصديقان صلاتهما ليسوع وطلبا إليه أن يبارك بدء خطواتهما للعمل من أجله. فوق جبل سيلبيوس كان يتعالى تمثال «خارون» إله الموت الضخم، فاتح العالم السفلي، الذي سمَّره البشر فوق الصخر تذكاراً لنجاتهم من الطّاعون. يا للعجب إنّ رمز الموت يحيي رسول الحياة! بعد أن اجتاز القصر الملوكي القائم فوق قمّة الجزيرة التي يحتضنها العاصي دخل المسافران إلى المدينة. هنا كانت تحطّ القوافل الآتية من الصين «بطريق الحرير» رحالها وتفرغ حمولتها الحريرية الفاخرة. وهنا كانت ترى بعض الوجوه الغريبة بلونها النحاسي. إنّهم عبيد للجميع جاء بهم التجّار ليبيعوهم إلى الأغنياء في أنطاكية وما أكثر العبيد في هذه المدينة البازخة. لقد قاد برنابا صديقه فوراً إلى شارع سيفون حيث اعتاد «المتقدّمون» والمشايخ كما كانوا يلقّبون، أن يجتمعوا. فحيّوا بولس والفرح يملأ قلوبهم لأنّه رأى الرب. غير أنّ بولس لم يحظ بالمكان الأول في أنطاكية كان هناك آخرون يتقدّمونه من حيث القيمة والحق. كان لبرنابا ممثّل الرسل المركز الأول الخاص. «إنّ أعمال الرسل تقدّم لنا جدولاً بأسماء الأشخاص المتقدّمين في أنطاكية وكان بولس الأخير بينهم (أعمال ١٣ : ١) إنّ النّاس الذين كانوا يتقدّمونه صاروا في عالم النسيان»[٣٠].

وأخيراً جاءت المرحلة التي يمكن القول عنها بأنّها أجمل مرحلة من مراحل حياته. سنة

كاملة كان الصديقان جنباً إلى جنب يعملان في الكنيسة الجديدة التي لمعت فوقها دراري ندى صبح النعمة الإلهية الطالية. هذه السنة كانت أمتع سني بولس. فتجسّدت فيه نسائم السنة الأولى من تعليم يسوع الجليلي، تجسّدت فيه ألوان من محبّته الأولى. كانت فيه نعمة القداسة التي تنسكب على كاهن طاهر رسم حديثاً لعمل القداسة. لم يكن هناك مجال للفطام، لم يكن مجال لضيق القلب ولا للرتابة. كانت هناك سعة القلب وأرجاء واسعة. كانت نسمات الروح القدس تنفتح عذوبة في الأشرعة وتدفع القارب المحمّل بالرجاء. «يظهر أنّ هذه النفوس التي احتقرها اليهود. يظهر أن نفوس الوثنيين مدعوة لتتنقّى في هذا المكان»(٥٠). إنّهم كالأطفال يمدّون أيديهم ببراءة الواثق ويأخذون من نور النعمة وكنوزها لعكس اليهود الذين لا يقتربون من يهواهم إلّا ليقطفوا ثماراً تعود عليهم بالنفع المادي.

كان بولس في قمّة رجولته المعبئة بالقوى عندما نقرأ في أعمال الرسل أنّ عدداً كبيراً من الوثنيين آمنوا والتحقوا بالرب بسبب جهاد برنابا ليمكننا أن نتصوّر هذه الحقيقة الجديدة التي أضيفت ملكاً للكنيسة. عندما كانت الغواني المزيّنات يأخذن طريقهنّ إلى دافني والشوق العارم ينهش قلوبهنّ ويدفعهن إلى هيكل أدونيس وعشتروت ليقيموا أعياد الفجور والدعارة كان عالم متواضع من العمّال وأصحاب الحوانيت الصغيرة ممّن تاقت نفوسهم إلى المثال في هذه المدينة التي «ما عرفت حنان المحبة ورفقها»(٥٦). يذهبون ليسمعوا الوعظ والتعليم وكان الوعظ يجري إما فوق سطح يصعدون إليه بسلّم حجري ووسط فناء بيت غنت فيه عين ماء أو عند أروقة الشّارع أو في بساتين البرتقال وكان النسيم العليل يحمل عطر البرتقال أمواجاً ويلقيها فوق المدينة ممزوجاً باسم يسوع المسيح. وكان المتعبون الأشقياء، عبيد الحضارة الوثنية يشعرون بحنين عميق لعالم مثالي وكانوا يصغون إلى أقوال بولس وعيونهم اللمّاعة ببرق الشّوق مسمّرة فوق شفتيه وكان بولس يتكلّم على ابن الله العظيم الذي اتّخذ شكل عبد عن حياته المليئة بالتضحية وعن الأرستوقراطية الجديدة وحرية النفس «التي بها يسير أبناء الله في العالم» وكثيراً ما كان يمرّ من هناك السكارى من الوثنيين وكهنة باخوس وايسيس ضاجين معربدين يضربون الصنوج بأيديهم (اللوحة ٧).

في ليلة السبت إلى الأحد كانوا يجتمعون لتقديم الذبيحة وللاشتراك في العشاء السيدي. وفقاً لمثال يسوع وحسب عادة السبت اليهودية كانت تقدّم مائدة المحبة. لاشيء

يربط الشرقيين كظهورهم معاً على مائدة واحدة[٣٤] . عندما كان الرسل يفاخرون بأنّهم عاشوا مع الرب ثلاث سنوات «وأكلوا معه وشربوا» (أعمال ١٠ ، ٤١) كانوا يعبرون عن مدى صداقتهم وارتباطهم بالمخلص. إنّ المحبّة ، الشركة في المائدة تستهدف الشركة بين المسيحيين كما أنّ سر الشكر الإلهي يستهدف الشركة مع الآب السماوي. إنّ مائدة المحبة كانت تكفي الكنيسة مدّة أسبوع بكامله ووسط انهماكات الحياة اليوميّة كانت تصل أصداء «تعالى يا ربنا» «فلتأت النعمة ولينطفئ العالم» (١ قور ١٦ ، ٢٢) (رؤيا ٢٢ ، ٢٠) (تعليم الرسل الفصل العاشر) كم كان بولس رائعاً في حريته. البعض من هؤلاء كانوا يذهبون إلى المجمع وكانوا يعيشون وفقاً للشريعة الموسوية. يا لثقل الشريعة ما أثقلها. كلّ شيء فيها يقوم على «لا تفعل هذا» «لا تمسك بهذا» كان من الصعب على المرء أن يقبل دعوة إلى وليمة لأنّه يجهل إذا كان اللحم على المائدة هو لحم سلحفاة من العاصي أم لحماً حقيقياً. لم يكن بمسموع أن تشتري اللحم من عند اللحّام لأنّك لا تعرف إذا كان اللحم من ذبيحة وثنية ولا أن تشتري دجاجاً إلّا إذا لم يكن قد صفي دمه كلياً. هكذا أمر التّلاميذ في أورشليم. إلّا أنّ بولس وبرنابا لم يتكلّما شيئاً من هذا[٥٦] وغالباً ما كان بولس يقول إنّ موت المسيح حررنا من الشريعة القديمة.

كانت كنيسة أنطاكية الكنيسة الأولى التي انعتقت من رباط الشريعة الموسوية. كيف حدث ذلك؟ لا بولس ولا برنابا يعرفان. إلّا أنّهما كانا يلاحظان أن حبّة الخردل كانت تنمو وتتّسع ، كأنّ التربة قد خصّصت لتكون المكان الصّالح لنموّها واتساعها. هنا تقوم عظمة الحوادث إذ إنّها تخرج إلى النور أفكاراً كانت مطمورة في عالم الظلمة. إنّ الحالة في مدينة العاصي جعلت قيام كنيسة عالمية مقابل الحضارة اليونانية المسكونية أمراً ضرورياً ومنذ ذلك أخذت الكنيسة تتطوّر تدريجياً وسط عالم يوناني. وتسمية تباع الناصري في هذه المدينة باسم «المسيحيين» يعبّر عن حقيقة مسكونية الكنيسة. إنّ الطبقة الشعبية هي التي أطلقت هذا الإسم على تباع الناصري ثم أطلقتها الرئاسات بعدئذ. كان اليهود شأنهم شأن كلّ الشعوب الساميّة يسمّون المسيحيين «بالنّاصريين» ، بينما كان المسيحيون يستعملون فيما بينهم كلمة «الإخوة» ، «التلاميذ» ، «القديسين» ، «المؤمنين» ، إنّ قوّة الملاحظة عند الطبقة الشعبية متقدّمة جداً فهم كالتلاميذ في المدارس يستطيعون أن يعبروا عن شخصيات معلّميهم بتعبير واحد ينمّ عن عمق كلّ الحقيقة. كيف انتشر الإسم مسيحي؟ لقد انتقل من شفة إلى شفة دون أن يدري أحد كيف تمّ ذلك. إنّ الأنطاكيين لا يعرفون من قاله.

كان معبّراً عن أعمق معاني الديانة الجديدة. وكان الأنطاكيون من أهل الفن، وكانت تسميتهم هذه فنية عبّرت عن مسكونية الكنيسة وعن طابعها المسكوني. كانت كلمة مسيحية تعني ما تعنيه اليوم كلمة جامعة وكان الجميع «عبيداً للمسيح» لا فرق بين أبيض أو أسود أو حر أو عبد أو يوناني أو اسكيتي وكان الإسم مسيح يستعمل أكثر بكثير من يسوع وذلك كما يقول بولس في رسائله لأنّ المسيحيين في عبادتهم كانوا ينظّمون أناشيد إلى المسيح كما كانوا يفعلون ذلك في بيوتهم وقد سمّى الأنطاكيون الديانة بهذا الإسم أيضاً. قال أحد المفسّرين الإنكليز إنّ هذا الإسم غيّر طابع المسيحية من طابع محصور إلى طابع عالمي مسكوني[٣٢]. إن كلمة «تلامذة الممسوح» تحمل طابعاً مسكونياً لأنها في تركيبها اليوناني تشمل اللغات الثلاث اليونانية والعبرانية واللّاتينية وهي مرادفة للعنوان الذي كتب على الصليب باللغات الثلاث العبرية واللّاتينية واليونانية كرمز لمسكونية ديانة الناصري. «إنّ اللحظة التي يتّخذ فيها أحد الخلائق اسماً هي لحظة مقدّسة. لأنّه حينئذ يصبح الشخص، أو الجماعة حقيقة واقعة بهذا الإسم الذي يميّزها عن غيرها[٧٨]». ولأوّل مرّة تتميّز كنيسة المسيح عن اليهودية لتنطلق نهائياً إلى محيط الحضارة الرومانية اليونانية وتطبع الحضارة الأوربية بطابعها الخاص.

ب) رحلته إلى أورشليم «لجمع التبرّعات»

كانت الكنيسة الأنطاكية في حالة من الإزدهار. إن إحدى المخطوطات القديمة «مخطوط فيزا» يذكر: «إلا أنّ الفرح كان عظيماً». الأخبار الحماسية التي أرسلها برنابا إلى أمّ الكنائس جذبت العدد الكبير من المبشّرين والمسيحيين المتجوّلين «والأنبياء» إلى أنطاكية كما جذبت فيما بعد أخبار بونيفاتيوس عندما وصلت أنكلترا العدد من المبشّرين إلى ألمانيا. «الموهبون» والقائمون على محرس الكنيسة كانوا يكرمون جداً وكان يسمح لهم بأن يبقوا مدّة طويلة بين المسيحيين أينما كانوا مثيرين فيهم الحماس للحفاظ على شعلة السنوات الأولى للحركة الكنسية. وكان بين هؤلاء بعض الطيور الغريبة الروحية العجيبة. وغالباً ما كان هؤلاء يسبّبون بعض المتاعب في الإدارة الكنسية. كم من المحبّة وكبر النفس يحتاج ربط هذه المتناقضات للحفاظ على النظام! لقد حمل أحد هؤلاء الأنبياء أخباراً محزنة عن كنيسة أورشليم أن التوزيع الأخوي للخيرات المادية الذي تحقّق في الأيام الأولى غدا مستحيلاً ولم

عد بالإمكان المحافظة عليه لأنّه مخالف للطبيعة البشرية. النظرة إلى المستقبل ضرورة حتمية ولقد كان الدرس قاسياً. إنّ أغافوس «قال بالروح» «إنّ جوعاً عظيماً سيقع» وقد وقع بالفعل على عهد الأمبراطور كلافديوس (في ٤٤ حسب أوروسيوس) فهزء الأنطاكيون بخبث من بسطاء الإيمان في أورشليم الذين لم يكن لديهم «ذرة من سبق الإهتمام» إنّ كلمة فلتت من كاتب أعمال الرسل تدلّ على أنّ لوقا كان حاضراً الإجتماع. يقول كاتب الأعمال نحن وكلمة نحن تشير إلى لوقا من أورشليم خرج الإيمان وفي أورشليم يقوم الرسل. طبيعي إذاً أن نعطي الماديات مقابل الروحيات. تبارى الجميع في التقدمة، فصار الإيمان رباط محبة والمحبّة تهب الحياة للإيمان حسب قول بولس. بالرغم من كلّ الحماس كان هؤلاء البشر عمليين عقليين. لقد تعيّن أن يذهب بولس وبرنابا لينقلا التقدمات إلى كنيسة أورشليم وهكذا انطلقا يحملان المال لمنفعة الكنيسة.

كان الشك قد أُمحي في أورشليم حول شخصية بولس. إنّ الشقاء والإضطهاد رققا القلوب. فوجد الصديقان الكنيسة في أورشليم في حالة من الحزن. كان قد قضي على يعقوب المتقدّم قبل أيّام بأمر من الملك هيرودوس أغريبا. وكان يعقوب أخو يوحنّا الإنجيلي «أحد أبناء الرعد» كما سماهم الرب لطابعهم النّاري وخصوصاً بعد انفجار عواطفهم عندما أرادوا أن تسقط النّار من السماء لتحرق مدن السامرة الغير المضيافة. لمرّة أخرى ولآخر مرّة في تاريخ الشعب اليهودي عادت الحياة، لمدّة ثلاث سنين فقط، إلى الوحدة الملكية تحت ملك هيرودوس في أيّام القيصر كلافديوس (٤١ — ٤٤). كان هيرودوس هذا حفيداً لهيرودوس قاتل الأطفال في بيت لحم. قضى أيّام شبابه في رومية. وتثقف في القصر الأمبراطوري مع امراء الأمبراطورية. وكان صديقاً لكاليغولا. إنّ هذا الملك المقباح المنحل عرف كيف يوفق بين الحياة العاصفة وبين صرامة التديّن والتمسّك بالشريعة الموسوية ولكي يصالح اليهود ويجعلهم مساندين لمملكته وسلطته قام أول ما قام به بإضطهاد المسيحيين في العاصمة مبتدئاً بزعماء الكنيسة والمبرزين فيها فقطع رأس يعقوب بدون محاكمة وبناء على نزوة خاصّة. حاله حال هيرودوس انتيبا عندما قطع رأس يوحنا المعمدان. إن الأخوين يعقوب ويوحنّا طلبا بدافع من أمّهما صالومه وببراءتهما الطفولية، طلبا أن يجلسا الواحد «عن اليمين والآخر عن اليسار» في ملكوته الموعود المزمع أن يأتي بمجد كما كانا يعتقدان. أما المعلّم الصالح الذي كان ينظر إلى أعماق الأمور فابتسم وقال «إنكما لا تعرفان ما تطلبان» (متى ٢٠، ٢٢ مرقس ١٠، ٣٥) إلّا أنّه رأى في هذه الرغبة الطفولية قلبهما الكبير

فسألها : «أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها؟» أجابا باعتذار «نعم إنّنا نستطيع». إنّ الحلم الطفولي كان قد تبدّد منذ زمن. وقد كشف موت يسوع ويوم الخمسين في حياة الرسول من جدية يمكنها أن تقود حتّى الى التضحية بهذه الحياة وأظهر في الوقت نفسه طبيعة الملكوت الموعود الروحية. ومنذئذ صارا هادئين متواضعين مقدامين. شرب يعقوب «الكأس» وكان بعد في بدء عمله عندما دعي إلى السماء. إنّها لمأساة من النّاحية البشرية وبهجة في السماء روحياً. الكتاب المقدّس كتاب نثري بسيط. إنّه يذكر خبر موت يعقوب بكلمات قليلة ممّا يدلّ على أنّ الكنيسة كانت مستعدّة للشهادة وكانت فكرة الشهادة من أجل يسوع من الأمور البديهية. إنّ الموت الشهادي أو بالأحرى انتظار الموت الشهادي هو من طبيعة السير القانوني للحياة الرسولية حسب الكتاب المقدّس.

كانت المحاولة الثّانية تستهدف بطرس إلّا إنّها أخفقت. الله لا يترك نسمة هواء بسيطة لتعطّل مخطّطاته الأزلية. إنّه يحقّقها حتّى لو اضطرّ إلى إرسال ملاك من ملائكته لتحقيقها. ولولا ذلك لاستحال تحقيق نبؤاته. كان ذلك حوال الفصح سنة ٤٤ بعد المسيح، وكانت الأخبار تنقل ببطء. ولم يكن في أنطاكية من يعرف كيف تجري الأمور. وصل الآن بولس وبرنابا ومعهما هدايا مسيحيي أنطاكية. لم يصادفا من الرسل غير «يعقوب أخي الرب» الذي لم يجسر أن يمسّه هيرودوس لقداسته المشهورة والمعترف بها من الجميع. وفي بيت مريم أم مرقص قصّ الشّاب مرقص ابن أخت برنابا والخادمة الجديرة ورده قصة تحرير بطرس من السجن والخوف الذي استولى على الجميع في تلك الليلة. كان عليهم أن يُبقوا المكان الذي اختفى فيه بطرس سراً وكان على كلّ منهم أن يقول بأنّه لا يدري أين هو وأنّه «انتقل إلى مكان آخر»(أعمال ١٢، ١٧). في الواقع إن بطرس ترك مملكة هيرودوس وذهب إلى مكان بعيد ربّما إلى كنائس سوريا. إنّ الإدّعاء بأنّه ذهب إلى رومية هو محض أسطورة حيكت حديثاً[٦٣]، «تاريخ الكنيسة لافسافيوس: ١١، ١٤). أمر هيرودوس بإعدام كلّ الحرّاس وعددهم ستة عشر رجلاً. ما أرخص الروح البشرية بالنسبة لظالم مهووس! آه كم كان يرغب أن «يقضي» على بطرس (أعمال ١٢: ٤، ٦، ١٩) ظهر هذا بالنسبة لبطرس وللكنيسة الفتية أمراً ثقيلاً. هناك مشاكل لا يمكن أن نلجمها بأفكارنا ولا أن نبرّرها. يجب أن ننحني أمام الأسرار والمشاكل المظلمة للعالم الإلهي، هذه الحوادث صارت سبباً لانتقال محور الكنيسة من أنطاكية إلى أورشليم. صارت مدينة أورشليم مدينة ثانوية يرعاها أسقف واحد. وهكذا صار ملك مجنون حسب

نفسه إلهاً (أعمال : ١٢ ، ٢٢) فعاقبه الله بموت فجائي ، سبباً لتطور عالمي تاريخي . بما أنّ بولس لم يتمكّن من رؤية بطرس ومن التجدّث معه حول المشاكل التي كانت تشغل رأسه ولما كان المقصود من الزيارة إلى أورشليم الناحية العملية فقط ولما كانت لا تستهدف إلّا الغرض الذي من أجله جاء لذلك لم يذكر بولس في رسالته إلى أهل غلاطية (الإصحاح الأول) وبهذه الطريقة البسيطة يرتفع التضاد بين أعمال الرسل ورسالة بولس إلى أهل غلاطية يعتبر الكثير من النقاد الرحلة الأولى الى أورشليم التي ورد ذكرها في أعمال الرسل ، والثّانية التي وردت في الرسالة إلى أهل غلاطية (الإصحاح الأوّل) وكأنّهما رحلة واحدة وذلك بقصد حل الإشكال النّاتج عن اتفاق الروايتين ولكنّهم على العكس فقد خلقوا بذلك مشاكل جديدة . [٦].

ترك برنابا وبولس أورشليم واصطحبا معهما يوحنا مرقص إلى أنطاكية ليدخل إلى سر التبشير بين الوثنيين. كانت عائلة مريم في أورشليم مثالاً للعائلة المسيحية. كان الأب قد توفّي وكانت الأم من أغنى تلامذة المسيح وقد خصّصت كما يظهر بيتاً كبيراً مفتوح الأبواب أمام الرسل. ويمكن اعتبار تلك العلية التي وهبتها للرسل ليجتمعوا فيها أوّل كنيسة مسيحية. البعض يقولون إنّ بستان الزيتون في الجسمانية كان ملكاً لمريم أم مرقص وهكذا شبَّ مرقص في محيط رسولي قدسه المسيح بذاته. كان يعرف كلّ أعمال وعجائب المسيح وكان يحفظ عن ظهر قلبه كلّ أقوال المسيح تقريباً وكان يكتب ويتكلّم اليونانية بصورة كاملة لولا لهجة آرامية كانت تشوب نبرته. إنّه هو الذي تغطّى بغطاء ليتعذّب مع المسيح والرسل وثقب جدار البستان في الجسمانية وعندما جاء الجند ليقبضوا عليه فرَّ تاركاً الغطاء وكان عارياً. هذا هو الرجل الجدير أن يكتب في المستقبل انجيل يسوع بدقة. كان برنابا يرجو كثيراً من ابن شقيقته. كيف سيسمعه الأنطاكيون عندما سيقص عليهم إنّه بذاته رأى وسمع المسيح والرسل؟

٣ . الرحلة التبشيرية الأولى

١٣ . «في قبرص»

(أعمال ١٣ : ١ — ١٢)

بعد عودة الرسولين من أورشليم أدركا كم تختلف الكنيسة الواحدة عن الأخرى. كانت أنطاكية مدينة الإنطلاق العزوم للعمل، مدينة الرغبة بالمغامرات. وقد اعترفت أورشليم بالمركز الذي نالته أنطاكية بشكر وامتنان بعمل من الروح القدس. أدركت أنطاكية أنّها صارت معقلاً للتبشير المسيحي. وبعد مرور خمس عشرة سنة أو يكاد صارت الكنائس المسيحية الجديدة التي تأسست على ضفاف العاصي وشواطئ سوريا وفينيقيا «كعقد من اللآلئ اللماعة»[٥٥] بينما بقيت أورشليم كنيسة التقاليد القديمة والإمتيازات المقدّسة بهالاتها المشعّة وتذكاراتها الفريدة. بقيت أورشليم بدخول الكثيرين إلى المسيحية من كهنة الفريسيين مدينة المحافظة، مدينة الأرستقراطية الدينية التي ورثتها عن اليهودية وصارت أنطاكية مدينة مفتوحة على المسكونة.

نحن في أنطاكية في ربيع السنة الخامسة والأربعين بعد المسيح. سنة واحدة مرّت. وكانت حركة عجيبة سيطرت آنياً ولمدة خلت. كانت كنيسة أنطاكية قلقة «كنحلة قبل أن تترك خليتها[٥٦]». كان بولس قد وعظ مراراً وتكراراً عن أوامر المسيح بضرورة التبشير: «إنّ ذلك ضرورة ملقاة على عاتقي والويل لي إنّ لم أبشّر» (١ قور ٩ : ١٦). قيل إن غريغوريوس الكبير فكّر في إرسال المبشّرين في الإيمان إلى انكلترا عندما رأى الأموات من العبيد الشباب، هؤلاء الشباب الذين يموتون روحياً في تلك الأبعاد ليعيد إليهم الحياة، كذلك بولس عندما رأى في الميناء قوارب ورجالاً من أربعة أطراف الأرض حتى ايليديا وبلاد الغال واسبانيا، شعر أن شيئاً يضغط على أعماقه ويدعوه الى القيام بمثل هذه الخطوة التي

كانت تجول في خاطره. وقد تردّدت أصوات نبوية تدعو إلى مثل هذا الموضوع. وفي أحد الأيّام اجتمعت الكنيسة في شارع سيفون لتقوم ولأوّل مرّة باحتفال خاص قبل البدء بالعمل التبشيري. إنّ مجلس المؤتمرين بعد اجتماع طويل قرّروا أن يصوم الجميع لمعرفة ارادة الله. كان في الوسط خمسة رجال بارزين من— المعلّمين والأنبياء— ونادراً ما رأت الكنيسة في مكان ضيّق كهذا المكان مزيجاً كهذا المزيج: ثلاثة رجال بيض ورجلان أسودان من إفريقيا. إنّهم صورة مصغّرة عن الشعوب التي سيحملون إليها الرسالة. فلنبدأ حسب الأقدمية. ها هو برنابا القبرصي القريب إلى القلب وسمعان «الملقّب بنيجر». أهو سمعان القيرواني؟ إذا كان هو سمعان القيرواني فمن البديهي أن ندرك معنى اهتمامه بالعمل التبشيري المسيحي. وكان لوكيوس يجلس إلى جانبه وكان قيروانياً. وكان الرّابع مناين الذي تربّى مع هيرودوس انتيبا رئيس الربع الذي أمر أن يقتل يوحنا المعمدان وأن يهزؤوا بيسوع المسيح. لقد رضع الطفلان من ثدي واحد وتربّيا التربية ذاتها فصار الواحد ظالماً فاسقاً شريكاً بجريمة صلب يسوع وصار الثّاني مبشّراً بإنجيل يسوع. كم تختلف سبُل البشر. لنضف شخصاً آخر إلى هؤلاء. لنضف شاول الطرسوسي، وهكذا «صارت لنا أهم فرقة من البشّرين ما عرف مثيل لها»[٥١].

انتهى سر الشكر فجاؤوا بقارورة لجمع الأصوات. الكلّ ينحنون إلى الأرض في صلاة عميقة وفجأة سمع صوت احتفالي رصين كأنّه آتٍ من عالم آخر. كان كصوت إنسان «أعطي موهبة النبوة»: «افرزوا لي شاول وبرنابا للعمل الذي ندبتهما إليه» ثم تكرّر الصوت ثانية وثالثة فردَّد الجميع بحيوية «برنابا وشاول» ما معنى الانتخاب؟ لقد انتهى فلا حاجة بعد. خرج الإثنان من صف المقاعد بعد انتخابهما بهذه الطريقة، وتقدّما نحو الشيوخ فوضع المتقدّمون والأنبياء والمعلّمون أيديهم فوق رأسيهما. هذا لا يعني أنّهما سيما أسقفين. كان ذلك اعترافاً تقليدياً برسولية بولس الذي استمدّها من المسيح رأساً. الله يعطي الدعوة الدّاخلية أمّا الدعوة الخارجية فيجب أن تأتي من الكنيسة. يجب أن يعجب المرء بجرأة الكنيسة الأنطاكية الفتية التي كانت قد تأسّست أو بالكاد وضعت فوراً مخططاً لاحتلال العالم مضحية من أجل هذه الغاية بأحسن قواها، أحسن أقمارها، ووعاظها. لا بدّ أن يكون قد بدر اعتراض على إرسال أحسن من فيهم؟ لا علاقة للروح القدس بهذه الخواطر الذكية. لقد خضعت الكنيسة لقراره «وإذ وضعوا أيديهم عليهما صرفوهما».

لو أتيح لنا أن نحضر ذلك الإجتماع في شارع سيفون لكنّا رأينا شاباً في الخامسة عشر

من عمره على وجه التقريب يتابع الخدمة المقدّسة بعيون تشعّ بالنور. منذ ذلك التاريخ كان يخفي عبادة نارية للرسول بولس نراها ونلمحها ونعجب بها في رسائله. جلس فيما بعد تحت أقدام يوحنا الإنجيلي وبعد ثلاثين سنة من هذا المشهد سيم أسقفاً على أنطاكية وبعد ثلاثين سنة من هذا المشهد سيق إلى رومية على عهد الأمبراطور تراجان، ليُلقى في المدرج الروماني فريسة لأنياب الأسود. إنّه اغناطيوس أسقف أنطاكية الشهير ١٠٧ ب. م.(٥١). هذا الأسقف، ذو الشعر الأبيض، الذّاهب إلى رومية ليلاقي وجه ربّه بالإستشهاد، يمثل صورة من الصور المؤثّرة في التاريخ المسيحي. (كان اغناطيوس كبولس مواطناً رومانياً). مرَّ بطريقه إلى رومية بإزمير. وهناك دعا أسقفها بوليكربوس آخر تلميذ من تلامذة يوحنا الإنجيلي، كما دعا أساقفة أفسس، ومغنيسيا وكهنتهم ليعطيهم بركته الأخيرة. وآنذاك كتب رسائله السبع إلى آسيا الصغرى ورومية. وكانت رسائله مشبعة بروح بولس في كلّ حرف من أحرفها. وكان يسمّي بولس نفسه «أسير يسوع المسيح» كذلك أغناطيوس يسمّي قيوده «باللآلي» تثير الإنتباه في رسائل أغناطيوس رتبة الأسقف المطلقة. صارت أنطاكية محوراً هاماً من محاور النظام الكنسي. تخال وأنت تقرأ رسالة أغناطيوس إلى أهل أزمير أنّك تسمع بولس «القرب من السيف يعني القرب من المسيح».

والآن يبتدئ التاريخ العظيم لرحلات بولس التبشيرية(٣٥): «الحملة المعاكسة لحملات الإسكندر»، «من الشرق إلى الغرب حتّى عواميد هيرقيليوس في أطراف الغرب» كما يقول اقليميس روميه. وهكذا تنفتح صفحة جديدة من صفحات البشارة المسيحية، كانت حتّى الآن محصورة في الكنائس المنتشرة على ضفاف الأنهار، والشواطئ البحرية. لقد انفتح أمام البشارة قلب كل بلد. كان برنابا حتّى الآن رئيس الحملة التبشيرية. وفي صباح ربيعي، — وكان الأقدمون لا يسافرون في البحر إلّا في الربيع —، مرّ برنابا وبولس برفقة الكهنة بالشّارع ذي العواميد الرخامية، ومن ثمّ بالجسر القائم فوق العاصي وسارا إلى ميناء سيلفكيا. وإذا وقف المرء هناك في يوم صاف لا بدّ له أن يلمح بخياله طيوف أولئك الذين مخروا البحر بقوّة سعياً وراء رسالة سماوية. كان برنابا وبولس يقفان في الميناء وقد ركعت الفرقة الصغيرة على شاطئ البحر تصلّي: «ما أجمل أقدام المبشّرين بالخيرات» (أشعيا ٥٢، ٧) (روميه ١٠، ١٥) لم يألف الوثنيون مثل هذه المشاهد، لقد انتهى العناق الأخير وانزلق المركب نحو الموجة العميقة السماوية تدفعها النسائم الندية.

كم دقّ قلب الرسولين بالفرح . كان بولس وبرنابا صديقين حميمين. كان برنابا مبتهجاً بصورة خاصة : لأنّ ابن أخته مرقص كان رفيقها . كثيرة هذه الحملات التي انطلقت من هذا الميناء ملوك : عتاة وقواد وجيوش صليبية . مرّ عليها التّاريخ وتركها نسياً منسياً أما الرسالة التي كان يحملها الرسل الفقراء الثلاثة فبقيت مع الزمن. كان هدفهم أن يربحوا العالم للمسيح. سميت رحلات بولس الرسولية بأوديسيا المسيحية لم ينطلق من عصر هوميروس مركب غير مركب للقيام برحلة تفتيشية صرفية ، إنّ هذا المركب بقي خالداً في التّاريخ دونه مركب هوميروس وكولومبوس بالنسبة للحضارة البشرية.

فضّل برنابا أن يكون وطنه أوّل محطّة من محطّات رحلتهم. لو كان الأمر في يد بولس لاتّجهت الرحلة اتجاهاً آخر. لم تكن قبرص عقدة مواصلات عالمية. إنّ الطرسوسي رأى بوضوح «إن بذار الانجيل يجب أن ينتشر في أوساط تكون مواصلاتها عالمية[٥٦] » لقد أطاع بعد إصرار برنابا الحار.

لاح شاطئ قبرص الشرقي عالياً مرتفعاً وسط البحر ببياضه. المراكب ترسو اليوم في لارنكا أما الرسولان فنزلا في سالميس على بعد خمسين فرسخاً إلى الشمال وكانت أكبر موانئ قبرص في ذلك الزمان. إنّها اليوم أطلال خربة تقوم على مقربة من أماخوستا. كانت سالميس وطن برنابا وقد استقبله مواطنوه وأصدقاؤه بالترحاب والتهليل وخصّوا بولس بالكثير من الترحاب لأنّه باضطهاده للمسيحيين صار السبب في لجوء المسيحيين إلى قبرص وحملهم بذار الإنجيل لزرعه في وطنهم (أعمال ١١ ، ١٩) لم يبق من تلك المدينة إلّا أطلالها وكان اليونانيون يسيطرون بعددهم من عهد المكابيين (١ مكا ١٥ ، ٢٣) وكان هناك بقايا من الفينيقيين، وبعض الرعايا اليهود. (المؤرخ يوسيفوس ١٣ ، ١٠ ، ٤ من فيلون إلى غايوس ٣٦). هذا ما تؤكّده المذابح الكبيرة التي جرت على عهد تراجان[٦٣] . مرّت عدّة أسابيع قبل أن يتمكّن المبشّران أن يعظا في مجامع المدينة العديدة. يظهر أنّ يهود الشتات كانوا منفتحين فلم يبدوا أيّة مقاومة. وبما أن برنابا كان قائد الحملة التبشيرية فتجنّب تشكيك مواطنيه. كلّ موعظة مسيحية يجب أن تتركّز على أساس تاريخي. يجب أن يوصف المسيح كتحقيق لأحلام لكل أحلام اليهود وكأفضل تقليد نبوي. لا تقوم الصعوبة عند اليهود في نظريتهم إلى القيامة. الصعوبة تقوم فيما إذا كانت الشريعة الموسوية ستبقى سارية المفعول عند الذين يؤمنون بالمسيح.

سفرة بولس التبشيرية الأولى
(اعمال ١٣ - ١٤)
٠ اميال ٣٠٠
٠ كيلومترات ٣٠٠
البحر المتوسط
سلاميس
بافوس
اورشليم
٢
٣
٤
٥

ألقي البذار وعلى الرجال أن يفكّروا في السفرة عند العودة يمكن أن تجمع الثمار في الأهراء. لقد سار الرسولان باتجاه الدّاخل حيث يقوم مجرى نهر بادايوس الذي تدين له غلال قبرص. هناك أقام هيرودوس عدداً كبيراً من اليهود للعمل في مناجم النحاس التي كان قد استأجرها هيرودوس. كان طول قبرص من الطرف الشرقي حتّى الغربي مئة وخمسين فرسخاً (بلينيوس) فإذا كان قد ألقى في كلّ مدينة موعظة وإذا كان بولس ورفقته قد زاروا الخمس عشرة مدينة هناك فإنهم احتاجوا إلى أكثر من أربعة أشهر ليقطعوا المسافة بين الشرق والغرب. كانت البساتين تموج «كأنّها أحراج من الخضار ولا تزال حتّى الآن غنية ببرتقالها وتينها ودرّاقها ومشمشها بالرغم من الإهمال الذي لاقته في الإحتلال العثماني الذي حول أكثر من نصفها إلى أرض جرداء قاحلة. لن يتصوّر المرء كم كانت غنيّة هذه الجزيرة. إنّ إسم قبرص مأخوذ من شجرة جميلة هناك هي شجرة السرو»(٥٠).

تأسّست فرق مسيحية هناك وقد قام برنابا فيما بعد بترتيبها بصورة أكمل. سلك الرسولان الطريق الرومانية إلى بافو وفجأة أخذت سلسلة الجبال تنحدر سلّمياً نحو الشّاطئ. أطلّا على مدينة بافو القديمة والحديثة. هناك فوق قمّة ليمسول كان يرتفع تمثال أفروديت التي ظهرت لأوّل مرّة وفقاً للأساطير إلى النّاس، فعبدت كافروديث أماثون الاهة المسكونة «ليمسول»(٥٦). إنّها لم تكن ما كانته افروديت أفلاطون الاهة للجمال والرونق بل عشتروتاً، الاهة اللذّة عند الفينيقيين أولاد حام بأسرارها القذرة وخصبها السحري. وكان أهل الجزيرة من العالم ينجذبون إليها في بعض الفصول فتيات كنّ يقمن بمهنة المومسات وكانت من القوى المخيفة خلقياً، وامتدّت عبادتها القذرة حتّى سيطرت على اليونان وقرطاجة. ولو لم تقم رومية بالرسالة التي ألقتها عليها العناية الإلهية لكانت العدوى المدمّرة قد انتقلت إلى الغرب فدمّرته.

كانت بافوس الجديدة مقراً للحاكم الروماني. وكان سرجيوس بولس الحاكم من طبقات روميه الأرستوقراطية. وكان وفقاً لشهادة بلينيوس إنساناً مثقّفاً بارزاً وحجة كبرى في قضايا العلوم الطبيعية وعضواً في اللجنة الأمبراطورية لتنظيم مصب نهر التيبر. وكان من أصحاب العقول المفتوحة في القضايا الدينية والفلسفية ومن الذين يفشون بصدق عن الحقيقة دون أن يكون فيه شك بيلاطس القائم. يلقبه لوقا «بالرشيد» لأنّه حاول كما يظهر أن يدخل إلى أسرار القضايا الفائقة الطبيعة.

في الشاطئ الشمالي من الجزيرة، في سولوس، عنوان عن مدّة خدمة سيرجيوس بولس. وكان يخصص الكثير من أوقاته للعمل الفكري بالنظر لصغر ولايته التي لا تتطلّب الكثير من أوقاته. وكان ككل وال يعيش وسط بلاط يكثر فيه شباب العائلات الرومانية الأرستوقراطية الذين يتمرّنون استعداداً للخدمة في المستقبل. وقد جمع الوالي أيضاً عشّاق الفن والحكماء والشعراء والمتصوّفين وأشهرهم اليهودي فاريسيو: كان فاريسيو عالماً كعلماء الكلبيين المتجوّلين ملماً بكلّ أسرار الديانات الشرقية المصرية والبابلية والفارسية [٢١]. يجب ألّا نقلّل من قيمة ثقافة سرجيوس. فلنتذكّر أن أوغسطين بقي تسع سنوات مأخوذاً بتعلم المانويين وأن رودولف استيفر في عصرنا الحاضر عصر النور وجد تباعاً كثيرين لمدرسته الحكمة. وكان عصر صار فيه الفلاسفة سفسطائيين والسفسطائيون صاروا مجوساً وكانت المجوسية الشرقية بروحها السرية تحظى في البيوت الكبيرة بالكثير من الاحترام. ضعفت الوثنية في مراحل ثلاث صارت الأساطير محتقرة في الأوساط المثقّفة، وتحوّلت الفلسفة إلى سفسطائية، وانتهت أخيراً بالسحر. أما عند المدركين الواعين، عند الرواقيين فقد اتخذت الأفكار مجرى معاكساً وعادت إلى الفكرة الأولى إلى النهائي، أي يجب أن يكون للعالم بداءة وهدف. ولكي يكون له هذا يجب أن يكون له خالق، ووحدة خلقية. إن رامسي الانكليزي[٣٨] الخبير في تاريخ عصر بولس يقول: «إنّ فاريسيو العالم في بلاط سرجيوس جسَّد كلّ القوى السرية وتأثيرها على الإرادة البشرية ومثل النظرية الكونية للسحر التي جاءت المسيحية تسحق ملكوتها. كان على بولس أن يصارع بضراوة في رسالته إلى أهل كولوسي وفي رسائله الرعائية في أخريات حياته ضدّ هذا السقط من الصوفية الشرقية».

إنّ بشارة الرسولين صارت قضية الساعة. لقد دعاهما الوالي إلى بلاطه ليناقشا معه أموراً دقيقة. إنّها المرّة الأولى التي تدخل فيها المسيحية الى المجتمع الروماني الأرستوقراطي. من الجلي أن يكون برنابا وبولس قد تبادلا الأدوار. لا مجال الآن للمواطن القبرصي بل للمواطن الروماني. معروفة طريقة بولس في التبشير بين الوثنيين. كان يبتدئ بالكلام على معرفة الله الطبيعية وعن التوحيد وعن الله الأرضي (١ سالونيك ١ : ٩) والله الكائن في داخلنا لينطلق إلى الله الكائن فوقنا، إلى الخالق الفوق العالم ليصل إلى النتيجة عن علاقة الله بنا نحن البشر والنتيجة العلمية: أي كيف يجب أن تكون عبادتنا لله. كان الهدوء يستولي عليه عندما كان يتكلّم على هذه النواحي ولكنّه ما أن يصل إلى الكلام على يسوع حتّى يثور

حماساً ويصير كمن يقذف ناراً عندما يتحدّث عن القيامة وعن رؤية دمشق وعن الرب الوحيد الذي يجسّد خلاص الجميع. إنّ شخصية بولس كانت تزداد اشتعالاً كلّما ازدادت نقاوة وقد كانت لأفكاره المشرقة تلك القوّة التي جذبت الوالي الروماني وكرجل ذكي أراد أن يسمع الخصم فأمر العالم اليهودي بالكلام فتكلّم على العالم الذي يعيش فيه، وهنا ابتدأ الصراع بين مملكة النور ومملكة الظلمة انتهى بأن اندحر ممثّل الملكوت المظلم خازياً وترك المكان لا يلوي على شيء وكان يسير كأعمى لا يعرف أين ينقل خطواته. وقد فتح اندحار العالم بمجوسيته أعين الوالي على عجز السحر الذي لم يكن في مضمونه إلّا ضلالاً. كان ارتداد الوالي أول نصر للمسيحية في الطبقات العليا من المجتمع الروماني.

للمرّة الثانية بعد حادثة سمعان المجوسي تضرب المسيحية بسهام المجوسية وتنتصر. إن كسف العالم المجوسي كان له أثره الكبير في نفس سرجيوس بولس. لقد اقتنع بعد الجدل بصحّة المسيحية. كان من الصعب على المسيحية أن تكتسح العالم المتمدّن القديم لو لم تبرهن على أنّها تفوق الديانات السرية والسحر. لذلك كان عليها لتصل إلى قلوب البشر أن تسلك طريقاً مختلفاً عن الطريق الحالي في عالم ذلك العصر كانوا يعتقدون أن الإلهي الوحيد هو المطبوع بطابع العجيبة. لهذا السبب نرى العجائب تترى في العهد الجديد، وتتصل اتصالاً وثيقاً بما يقصّه ويسرده.

أمام هذا الحادث نرى شعلة من تلك الشعل السامية التي ترعبنا نحن الأوربيين إذا ما لامسناها عند أنبياء العهد القديم كإيليا مثلاً، نراها تندلع من أعماق نفس بولس. إنّ بولس في عمق أعماقه كإيليا (٣٨) ذو طبيعة نبوية إلّا أنّه يختلف عنه. فالنعمة ربطت وباركت مكاناته الطبيعية التي كانت قبل ارتداده تتّجه نحو الشيطانية. كان هذا اليوم نصراً شخصياً لبولس ومنذ هذا التاريخ أخذ اسم برنابا ينتقل من ظل إلى ظل حتّى اختفى نهائياً. أنهى برنابا بشارته نهاية سليمة في قبرص كما يقول التقليد.

يسمي لوقا الرسول من الآن فصاعداً بولس الإسم الذي يحمله كمواطن روماني. وبهذا الإسم عرف عن نفسه أمام الوالي الروماني عندما سأله هذا عن اسمه. لقد غيّر اسماً مكرماً كان يعني قرابة دموية مع الشعب الاسرائيلي بالنسبة للعالم اليوناني. للإسم الروماني الآن تموّجات عميقة في أعماقه إنّه يرى امتداد العالم الروماني اليوناني يتردّد في نفسه ويرى أنّه رسول الأمم. بهذا الإسم يتوجّه نحو العالم كبحر منذ مولده. إنّه لا يريد أن يبشّر كغريب

وسط هذا العالم بديانة شرقية غريبة. إنّ العالم له والمسيحية غير محصورة في مكان، إنّه عرف أن يضرب السحر ليبرهن أنّ المسيحية لا تربطها بالديانات الشرقية السرية أيّة رابطة. لم ترق للعالم اليهودي هزيمته. هناك تقليد يقول بأن برنابا قتل بناء على تحريض المجوسي لتباعه وأنّ مرقس دفن جسده في قبر روماني في سالاميس وفي عهد الأمبراطور زينون ٤٨٩ اكتشفت رفاقه واكتشف انجيل متى الذي كان مرقس قد احتفظ به فوق صدره[٧٤] عندما رافق برنابا وبولس في رحلتهما إلى قبرص.

هل اعتمد سرجيوس كما يفترض؟ إنّ أعمال الرسل لا تأتي على ذكر ذلك. من الجائز أن يكون الرسولان قد تركا المكان خوفاً من انتقام العالم لكن المرجح هو أنّهما عادا ليتمكّنا.

١٤. «في بلاد الغلاطيّين»

(أعمال ١٣ : ١٣. أنظر ٢ كورنثس ٦ : ٤— ١٠، ١١ : ٢٣— ٢٨، ٢ تيموثاوس ٣ : ١١)

ازدادت سلطة بولس بعد كسفه للمجوسي ازدياداً عظيماً، ووضع المخطّط الذي رسمه في عقله منذ أمد للذهاب إلى آسيا الصغرى موضع التنفيذ. كان يرغب في أن يسافر إلى أفسس لأنّه كان يحب ويفضل المدن الساحلية، والأوساط ذات المواصلات العالمية الكبرى. لم تكن المواصلات من قبرص دائمة ولا ميسورة إلّا مع الشاطئ الجنوبي من آسيا الصغرى، وعلى الأخص مع ميناء أطاليا. من الجائز أن تكون صعوبة المواصلات قد فرضت على الرسول برنامج رحلاته إذ لم يكن في جيب الرسول مخطّط مسبق لرحلاته وكثيراً ما كانت صعوبات الطريق تتحكّم ببرنامج رحلاته الشيء الذي كان يرى فيه إرادة إلهية. إنّ الطريق الذي يمرّ بيمفيليا كان طريقاً وعراً وخطراً، فضلاً عن الأمراض التي كان يسبّبها بجراثيمه الخبيثة، ولا يسلكه إلّا المضطرّون كالتّجار مثلاً سعياً وراء الكسب والجنود قياماً بواجب حربي، والرسل امتثالاً لدعوة إلهية. لم يكن «للمستحيل» من وجود في معجم الطرسوسي، وخصوصاً، وقد كان له منذ شبابه نوع من العطف، قرابة روحية، مع هؤلاء الشعوب المجهولة العائشة في الطرف الثّاني من جبال طوروس. هناك كان يقطن عدد كبير من اليهود، الذين كانوا يلحقون بالرومانيين المستعمرين، كما يتبع الغراب الفلاح

عندما يزرع. كانت قبرص على اتصال دائم مع آسيا الصغرى وقد رجت كنائس قبرص الفتية من الرسولين أن يحملا الإنجيل إلى الأخوة الذين هناك. كان بولس يميل بطبعه الى المغامرات وكثيراً ما تكون أحلام الطفولة باعثاً على تجسيد الأحلام وجعلها مسيرة لخطوات إنسان طموح إلى عالم المغامرات، في سبيل الفكرة التي يؤمن بحقيقتها. لنذكر سليمان وحفرياته في طروادة، وسط هذا الإنسان العظيم كان طفل يتكلّم وكانت أحلام الطفل تتجسّد واضحة أمام مستقبله.

ترك الأصدقاء الثلاثة بافو الجديدة وسافروا إلى آسيا الصغرى وكان ذلك في الخريف من السنة الخامسة والأربعين ب. م.

لماذا لم يبتدئ بولس بكليكيا؟ الجواب واضح «لا كرامة لنبي في وطنه» كانت سلسلة جبال طوروس تلوح من بعيد أمام أعين المسافرين الثلاثة كجدار مخيف يحمل كل معاني التهديد، وكانت غيمة ثقيلة تجثم فوقه كأنّها الإشمئزاز. كان بولس رفيقاً طروباً، وكانت تعجبه رواية القصص المسلية وكان يسردها بصورة تشعر أنّ كلّ روحه انعجنت فيها وكان من الضروري أن يكون كلام من يوصي المؤمنين أن يكون كلامهم مملحاً بملح نقي مملحاً أيضاً بأنقى ملح الروح. قال بولس أنظر يا مرقس! هناك، في تلك الأماكن المقابلة لتلك الثلوج البيض الرّابضة فوق ذلك الجبل تقوم طرسوس مسقط رأسي، ووراء هذا الجدار السميك الأبيض توجد أنطاكية حيث كان الفلّاحون يحملون إلى والدي شعر الماعز فيبيعونه. إنّهم رجال طيّبون بعيدون عن العناد والقسوة كما يتصوّر البعض هناك توجد سهول بمفيليا، والمناخ سيء، والبشر يموتون كما يموت الذباب. فكأن شيطاناً من شياطين ابليس يتجسّد ويلتهم أعضاءهم، ويجعل من وجوههم وجوهاً صفراء، تميل إلى الخضرة(٥٦)، ويعتقد البشر هناك أن شيطان ابليس أقام له بيتاً في وطننا كيليكيا وأنّه يخرج من المستنقعات كغيمة شفافة تداعب أوشحته النسائم. عندما كنت طفلاً مروا بي تحت تماثله حتّى لامست يده جسدي. إنّ يديه كالنّار فتخال أن دمك يفور وعينيك تلمعان. سنمرّ سريعاً بهذه البلاد وسيحمينا الرب من هذا الملاك الشرير ومن شيطان نصف النهار.

كان هذا اليوم كلّ شيء إلّا يوماً حسناً بالنسبة لمرقس. بقي صامتاً لا يتكلّم. يظهر أنّه

انزعج لأن خاله تخلّى عن القيادة لبولس المخيف المليء بالجرأة الذي لا يعرف أن يتراجع أمام أيّ شيء في سبيل رسالته. يجب أن يجتاز هذا الجدار الجليدي ليدخل إلى هذا الوسط من البرابرة. إنّه يعرف كثيراً عن لصوص اليفريا، ويعرف أنّهم يسلبون المسافرين ويقتلونهم ويرمونهم في شعاب الجبل. لم يكن بإمكان مرقس أن يفهم فكرة المعلّم السامية. سيدرك فيما بعد (كولو ٤ : ٢٠).

إنّ الشاطئ الجنوبي من آسيا الصغرى حيث وقف المركب تمثّل مجموعة موزايكية شكّلتها قبائل سامية، وولايات محلية، وقطاعات وعادات ولهجات وشعوذات. وكان لكلّ مدينة الهها الخاص يرفض أن يتنكّر لأصله ويحافظ على اسمه اللّاتيني أو اليوناني. وكان هناك عدد من الأماكن المكرمة والديانات السرية ومجالس الكهان. كانت بمفيليا منطقة ذات طابع حربي يديرها حاكم برتبة لواء. في كلّ مقاطعة كانت توجد مجالس لكهان أغسطوس لها نوع من الإدارة المدنية، وكانت هياكل الأمبراطور وآلهات رومية غنية جداً وكانت الهدايا التي تقدّم لها أكثر مما يتصوّره عقل.

ميزة خاصّة تميّز سكان آسيا الصغرى. إنها القابلية الدينية بميلها الشديد إلى الشعوذات والعبادات السرية بأكثر أشكالها البدائية. هنا عمل أبولونيوس تيانفس كوثني «صانع العجائب» ثم ظهر فيما بعد باراغرينوس بروتافس والكسندروس أفانوتيخوس كأنبياء كذبة فجذبا الشعب السهل الإيمان.

نزل الرسولان في خليج إيطاليا عند مصب نهر كاسترو فتطلّعوا باعتزاز إلى المدينة الرّابضة تحت الصخور الشّاهقة تكلّلها حصون تحميها من القراصنة وتلمع بساتين نانرجها تحت أشعّة الشمس كالذهب. وبعد أن يجتاز الإنسان النهر من هذا المكان يصل بعد ساعات إلى بارغي الممتدّة شمالاً وهنا يبتدئ اجتياز مضايق جبل طوروس أما في السفوح فكانت أشواك عالية تسدّ الطريق وكانت فوق هذه الأشواك بقليل تموج قباب أشجار الصنوبر والوزّال وفوق هذه كانت ترتفع أشجار الأرز بقاماتها الجليلة. أنجر برنابا وراء غيرة صديقه أما مرقس فأظهر معارضة حارة. ماذا يريد من هذا الجبل؟ لا مجمع هناك ولا حياً يهودياً منفرداً ليحميه. هناك فقط بعض الدروب الجبلية الغير المسلوكة الحارة فوق الهاوية. المعابر والجسور مخرّبة واللصوص يترقّبون. لا يمكنه أن يتصوّر مثل هذه الأمور.

إنّ ابن المدينة الذي لم يصارع قط الطبيعة الوحشية فقد شجاعته، إنّ اندفاعاً عزوماً كاندفاع بولس كان بالنسبة إليه أقوى ممّا يجب. لم يكن يشعر بأنّه أهل لأن يجابه هذه المصاعب والمخاطر التي سمعها من فم صاحب الفندق في بارغي. وهكذا أعلن قراره لخاله بأنّه سيعود مع أول مركب إلى قيصرية. لم يبرّر برنابا هذا التصميم. كان عليه أن يختار: أمّا أن يترك بولس والتبشير أو أن ينفصل عن ابن أخته. لقد اجتاز الطريق الثّاني والألم يحزّ قلبه. هكذا تقضي رسالة التبشير.

جرح هرب مرقس قلبَ بولس جرحاً عميقاً. وقد رافقه الشعور بهذا الجرح سنوات طويلة. اعتبر مرقس صغير النفس وتذكّر بالقول: «من يضع يده على المحراث ونظر إلى الوراء فليس بأهل لملكوت الله» (لوقا ٩، ٦٢) لكن خلف قرار العودة كان مرقس يخفي سبباً أعمق. لم يرد أن يعترف به. حتّى لوقا لم يذكره. إنّه يعالج هذه النقطة بكلّ تحفّظ. ويترك لنا أن نتخيّل الحقيقة بأنفسنا. لو كانت القضية قضية فقدان الجرأة لما ذكر لوقا هذه الحادثة قط. إنّ لوقا كاتب موزون. عندما يكتب ويسكت عن بعض الأمور، فإنّما يسكت لسبب معيّن[٣٢]. كان مرقس قد ربي في أورشليم وسط الرسل الأولين، ووسط تقليد يهودي، مما ربط الكنيسة الجديدة بالمجمع أما بولس المندفع فكان مصمماً على فصل الكنيسة عن المجمع. كان مرقس التلميذ المخلص لبطرس وترجمانه إلى اللغة اليونانية وقد أحبّ أن يبقى تلميذه. كان بطرس يسمّيه «ابنه» (١ بطرس ٥، ١٣) وهكذا ترتسم في نفس بولس كلّ المشكلة العظيمة المدعو لحلها. وقد ألقت هذه المشكلة كلّ ظلالها الأسود في طريقه طوال حياته، وضحّى في سبيل هذه الغاية بكل صداقاته. إنّ الدعوة لعمل عظيم من قبل العناية الإلهية تعني لا شك ارتفاعاً، سعادة، بركة، لأنّها برهان عظيم على ثقة الله. والإنسان الذي يقبل هذه الدعوة، يفي بقبوله للعدوة، قبوله لتحمّل مسؤوليات جسام على عاتقه. هذا هو مصير مختاري الله. إنّ صداقة الله ثقل إلهي أيضاً. أين حدّ السيف من كلمة الله القاطعة. إنّها «تنفذ حتّى مفرق النفس والروح»، (عب ٤، ١٢) عظمة بولس لا تقوم على تضحياته بروحه التي كثيراً ما كانت تجرح قلبه. في حياة القديسين يظهر بعضهم التجهّم إلّا أنّه يتراجع ولا يسيطر كلياً على النفس أمام غيرتهم من أجل الملكوت السماوي. هكذا حدث فيما بعد مع مرقس. تغلّب على الضعف المهيمن على حياته أثناء شبابه وصار المعاون الثمين للرسول بولس أثناء سجنه في رومية[٥٠].

كان على الصديقين أن يتابعا طريقهما وحدهما. إنّ عالماً جديداً يشبه جبال الألب العالية يستقبلها. إنّه عالم مجهول غريب حتّى اليوم أيّة قوى كانت تتطلّب هذه الرحلات في هذه المناطق من الرسولين؟ لحسن الحظ نستطيع اليوم أن نستند الى شهادات باحثين مميّزين تابعوا بحماس طريق بولس الرسول مثل الإنكليزي «رامساي» «دايسمان» «شنيلير» و«مورتون». ندرك ذلك عندما نفكّر في طرق المواصلات والمناخات المختلفة. كانت الحرارة في تلك الارتفاعات تتغيّر تغيّراً فجائياً. «في اليوم الواحد ينتقل الإنسان من البساتين المزهرة إلى الصراع مع العواصف الثلجية بسبب الإرتفاعات المختلفة. تعلو طرسوس وأنطاكية عن سطح البحر ثمانين متراً أما أنطاكية بسيديا فتعلو ألفاً ومئتي متراً وأيقونياً ألفاً وستة وعشرين. وليسترة ألفاً وثلاثين. علينا أن نضيف أيضاً صعوبة التموين. «قليل من الخبز اليابس يبلّ بالماء وحفنة من الزيتون وما تقدّمه الطبيعة»[٤٩] [٢٢].

إنّ المنطقة لم تكن أقلّ وحشية من «أبواب كيليكيا» «في أكثر الأحيان كان الطريق محفوفاً بالأخطار، ويمرّ في سفوح منحدرات قائمة وتحت الصخور الكبيرة المنتهية بقمم شاهقة تعلوها أحياناً شجرة من الصنوبر لولا زرقتها المميّزة لها عن زرقة السماء لقلت إنّ القمة قد لامست الفلك. وتحت في الوادي العميق نهر كاسترو المدوّي بين تجاويف الصخور والمزبد بشلالاته المتعدّدة فوق الهاويات السحيقة والمنحدرات. وكان الرسولان يصادفان في طريقهما بعض قطّاع الطرق الالفيريين: بوجوههم القبيحة وبأعينهم السود ولحاهم القاسية يركبون جيادهم وقد أمسكوا برماحهم الطويلة فكأنّهم دائماً على استعداد لصيد الطريدة، لقد رأى بولس في البلاد العربية بشراً مثل هؤلاء. وكانت أصوات النبال تصفر من حين إلى آخر في أذنيهما وتمرّ فوق رأسيهما أو بالقرب منهما. وكثيراً ما اضطرا أن يغوصا في المياه ليعبرا النهر وكثيراً ما خلعا ثيابهما المبلّلة ونشراها فوق الأشجار لتجفّ حتى يتمكّنا من متابعة سيرهما»[٥٠].

ثلاثة أيّام قضيا في تسلّق الجبل بمحاذاة نهر كاسترو حتّى وصلا إلى المعبر الجبلي وكان عليهما أن ينحدرا إلى تلال بسيديا الكائنة في الجهة الشمالية من الجبل مارّين حيناً وسط الغابات. وحيناً وسط المروج الجبلية حيث ترعى قطعان الماعز والجواميس المخيفة والأغنام. يجب أن يسرعا قبل أن يدركهما الليل ليبيتا في زريبة من زرائب الجمال القذرة. الليل هنا عدو للإنسان. فالكلاب الوحشية والرعيان المتنكّرون لكلّ ضيف يخرجون كالوحوش إلى

الطرقات وأبالسة الحرارة يهدّدون المسافر التعب المحرور لصقيع الريح الليلي الذي أخذ ينفخ في الوديان المجاورة»[٩] . كان سريرهما الأرض أو لسان من الصخور ، كم كانا قريبين هذان الصديقان الواحد من الآخر في هذه الرحلة البعيدة[٥٠] ! لا شيء يجمع بين صديقين كما تجمع سفرة طويلة وسط عالم من جبال هائلة خلقها الله. في السفر يشترك النّاس في الأفراح ويجابهون الأخطار معاً. من مرّة رأيا الصخور المشقوقة ، وسمعا دمدمة الماء ، وأصغيا إلى نحيب الغاب ، فشعرا بقشعريرة تجتاحهما ، وأدركا أنّ الله كان قريباً منهما فمجّدا صخرة يهواه المقدّسة بلسان النبي داود ومزاميره عن الطبيعة والجبال ! «الصخرة» تعني عند الاسرائيلي المؤمن اسم الله ، رمز قوّته الإلهية. إنّ بولس في رسالته الأولى إلى أهل قورنثية (١٠ ، ٤) يرى صخرة الله تقيه مع شعبه في الصحراء ، وتعطي الماء للشعب الاسرائيلي العطشان. في الصخرة يرى رمزاً للمسيح. «شربوا من الصخرة الروحية التي تتبعهم وكانت الصخرة المسيح». هل انطلق بولس من هنا خاصّة فأعطى شكلاً واقعياً لصورة الصخرة الإلهية هذه التي انبعث الماء وندّت حياتنا بنعمتها؟ الناس الأتقياء في العهد القديم كانوا يتمتّعون بالطبيعة لا من أجل الطبيعة بل لأنّهم يرون فيها كشوفات لأسرار الله. وهكذا لا بدّ أن تكون هذه الحوادث التي مرّوا به والجماعات التي عبروا في روعتها قد ساهمت في توضيح وعمق معارفهما بالمسيحية.

عندما خرجا في اليوم الرّابع من المنطقة الجبلية ورأيا تحت ، مياه البحيرة الصافية ووراءها في الأعماق صخور سلطان داغ الشّاهقة تفجّرت أعماقهما بالتهليل والإنشراح. إنّهما أمام بحيرة انكارنتيركيول. تعلو هذه البحيرة ٩٠٠ متراً عن سطح البحر ومساحتها ٧٢٠ فرسخاً مربّعاً تحيطها من الجنوب مشاهد تشبه جبال الألب ، وكانت القوارب تمخرها ذهاباً وإياباً. أمّا اليوم فنادراً ما ترى قارباً أو قاربين ، وكانت المواصلات المائية بين المدن التي ازدهرت على شواطئ البحيرة الطريق الأقرب والأسهل. فضل الرسولان الطريق البرية ، واختارا أن يتسلّقا الجبال العالية التي كانت تشرف على البحيرة وعلى الطريق الرومانية التي تقود من أفسس إلى طرسوس عن طريق أنطاكية. في أنكارنتير تنتهي عقدة المواصلات الآتية من أفسس[٥٠] بينما ينطلق الخط الرئيسي من أزمير فيمرّ شمالاً من أنطاكية ماراً بإيقونيا فطرسوس ويتّصل بطريق بغداد. بعد خمسة أيّام من مسير على الأقدام تركا وراءهما جبل أنكارنتير. وفي اليوم السّادس لاحت أنطاكية بسيديا الجاثمة فوق سفوح سلطان داغ الرّائع أمام أعينهما. إنّ منطقة بسيديا كانت تشكّل القسم الجنوبي من مملكة

ملك الغلاطيين الغابرة. أما الآن فهي ولاية رومانية من ولايات «غلاطية». ولقد أقام الأباطرة أوغسطوس وكلافديوس أماكن في بقاع مختلفة غايتها القضاء على عصابات اللصوص المنتشرة في تلك البقاع، فأسّسا أحياء رومانية يسري فيها العدل الروماني. وكانت أنطاكية مقاطعة من هذه المقاطعات الرومانية. أول المستوطنين كانوا من فرقة ألودا، جندها القيصر في فرنسا. وكانت القبّرة رمز علمها [٧]. وكانت رائحة الدباغة تملأ أجواء المدينة. وكان اليهود الذين جذبتهم تجارة الجلود يتمتّعون بامتيازات، شأنهم في كلّ مكان، منحهم إيّاها القيصر الذي أحسن إليهم وحماهم. وعندما توفي مقتولاً سهر اليهود بالقرب من نفسه وهم ينوحون ويبكون ويذرفون الدموع[٧١]. [١٣].

كانت أنطاكية مدينة مكرّمة، خضعت لعبادة إله القمر المحلّي، وكانوا يسمّونه مان أولنيوس. وقد رأى بولس فوق باب المدينة رسمه، وكانت قبعة فرنجية موضوعة فوق رأسه، وفوق كتفيه نبت قرنان، وكانت يده مرتكزة إلى رمح[١٢].

لم يكن مآن إلّا اله الديانة الفارسية القديمة ميترا الذي نزل من جبال ايران الموحشة فعُبد في بابل كإله للشمس، وكذلك في سوريا، أمّا في فريجيا فكبعل، وفي تراقيا كاتيس أو سافازيو، وفي اليونان كإله للشمس. أمّا في غلاطية فاندمجت عبادته مع عبادة إله القمر القديم[٣٧]. (لوحة ٦). إنّ عبادة مآن وميترا كانت، في فكرتها الأساسية، ديانة مسكونية واحدة ذات مصدر إيراني. وقد ضحّى الشعب الغلاطي الذي انتقل من ضفاف الرّاين إلى هنا عبادته لالهته الدوريين من أجل عبادة آلهة الغلاطيين لم تكن عبادة الفريجيين لكيفالي والدة آلهات السلتيين أمراً غير عادي. ولم يكن للمبشّرين أيّة فكرة عن هذه التشابهات الدينية عندما حياهما من فوق باب المدينة أشدّ أعداء المسيحية الممثّل بالإله مآن. «كما في طرسوس، كذلك هنا في هذه المدينة كان الوثنيون يقدمون صنوف العبادات الفاجرة وينحرون الضحايا للشمس والقمر والنجوم وكانت فتيات الهيكل يقمن بأدوار خليعة على أساس أنّ الدعارة شرط من شروط هذه العبادة الفاجرة»[٥٠]، «وإلى هذا يشير الرسول في رسالته إلى غلاطية»: إنكم إذا كنتم قديماً لا تعرفون الله تعبّدتم لآلهة ليست في الحقيقة آلهة، أمّا الآن وقد عرفتم الله بل بالحري عرفكم الله فكيف ترجعون إلى هذه الأركان السقيمة البائسة التي تريدون من جديد أن تتعبّدوا لها» (غلا ٤ : ٨ — ٩) لا

تزال حتّى اليوم بالقرب من المدينة التركية بالوفاتس قطع كبيرة من المرمر وأعمدة مضلّعة على منتهى من الدقّة كبقايا هيكل من هياكل الأكروبول في أنطاكية(٤٧).

كما يجلس الأتراك اليوم فوق الحصر على ضفاف النهر المنحدر، من أعالي الجبل ويخترق المدينة، يشربون قهوتهم ونراجيلهم، كذلك كان الغلاطيون، واليونان، والرومانيون المتقاعدون يجلسون، ويحدّقون إلى هذين الغريبين القادمين، والدهشة تعلو وجوههم. سأل الرسولان عن مواطنيهم من اليهود فقادوهما إلى الحي اليهودي حيث لقيا استقبالاً حاراً في بيت إنسان يحبك السجّاد والبسط.

من الضروري أن نتكلّم على طريقة التبشير البولسي وشكله. يجب ألّا نتصوّر أنّه ما كان لبولس مخطّط مدروس في جيبه بالرغم من أنّه كان يسير وفقاً لخطّة معيّنة. شيئان يثيران الإنتباه فيحدّدان بطرق عديدة طريقه. يتبع بولس عادة الثلم الذي شقّه منذ زمن الشتات اليهودي. إنّ اليهود اليونانيين في الشتات غطوا كل الأمبراطورية الرومانية بشبكة من المجامع. ثمّ: إنّ بولس كان يختار بسرور الأماكن حيث يمكنه أن يقوم بمهمّته خير قيام. كان هذا يأخذ الكثير من أوقاته وكثيراً ما كان يغتنم الفرص للتعرّف إلى البشر ويعمل ليكون مادياً مستقلاً مع أنّه من الذين يقولون بأنّ الذين يعطون الروحيات يستحقّون اللاماديات. إنّ أنفته كانت تمنعه من تحميل الكنيسة مالاً يمكنها أن تتحمله اقتصادياً وكذلك برنابا. وهذا ما يعطي لرسالته الرونق والشكل. كان بولس، عندما يصل إلى مدينة من المدن، يفتّش أولاً عن عمل وعن عائلة ليعيش بينها وفقاً للتقاليد الشرقية. إنّ مهنته كانت ترافقه دوماً، وكان النول معينه على الحياة المادية. كان يذهب كلّ سبت إلى المجمع، ويعرف عن نفسه بأنّه معلّم للشريعة ويحتلّ المركز الشرفي الذي يقدّمونه له. بعد قراءة الكتاب كان يأتي «الخازن» خادم المجمع ويرجوه بناء على أمر الرئيس أن يقول كلمة.

لم يكن أمام بولس طريق غير هذا الطريق. أيبشّر بديانة لا تتّفق مع ديانة الدولة في الأمبراطوريّة؟ إنّ الشريعة تمنع ذلك. اعترفت الدولة بحقّ المجمع بجمع تباعه. لم يكن بإمكان الوثنيين أن يميّزوا لمدة عشر سنوات بين المسيحية واليهودية، وكان اليهود والمسيحيون يتألّمون من هذا الخلط (أعمال: ١٨ — ٢، ١٩، ٣٣).

كان كلّ شيء مهيئاً ليقطف الإنسان الثمار للمسيح وكانت الحقول مبيضة بالثمار.

(يوحنا ٤ : ٣٥) إنّ الدولة الرومانية بمواصلاتها العالمية ، والعالم اليوناني بمجده وبحضارته العالمية وحنينه للإنعتاق ، واليهودية بإيمانها بالله ، وشريعتها الخلقية ، وعدد المرتدين المقبلين إليها ، صارت بدون إرادتها «مربية في المسيح» ومخدعاً سابقاً للمسيحية.

هكذا ابتدأت حملة بولس وبرنابا إلى آسيا الصغرى ، لم تكن العذابات التي تحمّلها الرسولان والفاقة والحرمان بشيء يمكن أن يوصف وصفاً يعبر التعبير الكافي عن الحقيقة . إنّ لوقا يصمت بتواضع عندما يتكلّم على عذابات بولس . يظهر أن بولس لم يقصّ ما جرى له في حياته ولو لم يضطره أعداؤه لما تكلّم شيئاً ولا عرفنا شيئاً (٢ قور ٦ ؛ ٥، ١١ ، ٢٦).

١٥. في أنطاكية بسيديا :

(أعمال ١٣ : ١٤. أنظر ٢ كورنثس ٦ : ٤— ١٠ ، ١١ : ٢٣— ٢٥)
(٢ تيموتاوس ٣ : ١١)
(غلاطية ٤ : ١٣— ١٤)

في الحي اليهودي من أنطاكية عيد. الأسواق كلّها مقفلة . قوافل من اليهود وكثيرون من الوثنيين الخائفي الله يسيرون في ثياب العيد إلى المجمع . كان المجمع على ضفاف انثيوس ليتمكّن المصلّون من الحصول على الماء للتطهير. حفر فوق الباب غصنان من الزيتون وعنوان « هيكل اليهود » في الطّابق الثاني حمام كلّ من لمس لحماً محرّماً أو جثّة أو قبراً عليه أن يغتسل أوّلاً . وكان هناك درج حجري عريض يقود إلى علية الصلاة وحجاب أخضر يغطّي المكان الذي توجد فيه جداول الكتاب المقدّس. إلى الأمام كانت تقوم المسرحية ذات السبعة أنوار ، وكانت النسوة يجلسن إلى الخلف وراء الشباك الخشبية . انتشر خبر وصول «الكاتبين» وكان بولس وبرنابا يلبسان الوشاح المخطّط بخطوط بيضاء بنية ليتميّزا عن الدخلاء المهتدين. اتجهت كلّ الأنظار إلى حيث كان الرسولان. عرّف بولس عن نفسه بأنّه معلم الشريعة ، وعرّف عن برنابا بأنّه لاوي. لم يقبلا أن يجلسا في أمكنة الشرف بالقرب من الكهنة لأنّهما تذكرا الكلام «أحذروا من الكتبة الذين يحبّون التجوّل بالحلل الفضفاضة والتحيات في السّاحات (مرقس ١٢ : ٣٨ ، لوقا ١١ : ٤٣ ،

٢٠ ، ٤٦). بعد الصلاة أخذ الخادم من خلف الحجاب ملفاً من الكتاب المقدّس ورفع عنه الغطاء الكثير الألوان المزركش ولفّه حتّى وصل إلى المكان الذي توقّفت عنده القراءة في السبت الماضي. وبعد القراءة أرسل رئيس المجمع الخادم ليرجو بولس أن يتكلّم. وقف بولس ومدّ يده، هذه الحركة كانت الحركة المعتادة للخطيب القديم.

إنّ بشارة الرسول كانت ذات طابع واحد، إطار معيّن يملأه وفقاً لضرورة السّاعة. خلق بولس نوعين من الوعظ واحد لليهود وآخر للوثنيين. في أعمال الرسل (١٣ : ١٥). حفظ لنا لوقا إيجازاً لمخطّط الموعظة التبشيرية للمستمعين في المجمع [٣٥]. ويتألّف هذا المخطّط من ثلاثة أقسام ينفصل الواحد عن الآخر بالمناداة: «أيّها الرجال الأخوة». كان اليهود من الجنس الفخور بأجداده يعيشون بالذكريات القديمة لشعب ذي تاريخ مجيد كانوا على ثقة بأنّهم يملكون شيئاً يقولونه للعالم. هناك ثلاثة أشياء يقولونها للعالم. الوحدانية الملهمة، الشريعة الخلقية الرائعة، والرجاء بالإنعتاق. وهكذا وسط عالم متعدّد الآلهة وسط عالم فاجر. كان اليهود الشعب الوحيد الهادي بين بقية الشعوب. كان كلّ تاريخهم عبارة عن تذكار وحيد لأعمال الله العظيمة (مز ١٠٥) ولكي يتكلّم إنسان أمام شعب كهذا الشعب يجب أن ينطلق من تاريخه. وهكذا ابتدأ بولس بإلقاء نظرة على قيادة الشعب الاسرائيلي من الله في العهد القديم الذي مضمونه السرّي كان مسيا. وما أن لفظ بولس عبارته الأولى حتّى مال السّامعون بفرح، الواحد نحو الآخر قائلين: هذه (موعظة وعدية) لقد حلل أمامهم تدريجياً المواعيد كلّها، الحاضنة لكلّ البشرية، والمنتهية بالمسيح. عندما وصل إلى داود، اتجّهت فكرته بهدوء نحو المسيح. دون أن يترك المجال النبوي، كان من الواجب أن يكون ذاك من سبط داود. ترك جانباً تطور اليهودية الخاطي بعد سبي بابل، ثمّ جعل سامعيه يعيشون معه تلك الحركة الشعبية، التي أقامت قبل خمس عشرة سنة كلّ فلسطين وأقعدتها حركة المعمدان في الأردن شخصية يوحنا النبوية. إنّ حركة المعمدان أرسلت أمواجها حتى آسيا الصغرى.

في القسم الثاني تقدّم بولس بعبارات فيّاضة نحو هدفه. لم يكن التّاريخ ليستهدف ابراهيم، ولا من هم من نسله، بل الملكوت السماوي. حقاً إن الله أرسل ذاك الذي تنتهي فيه كلّ المواعيد، إرادة المحبّة الإلهية التي تحوي كلّ الشعوب، كما يحوي المحيط الواسع كلّ الأنهار المنتهية به. إنّ الإسم العظيم الذي يقف وسط الشعوب، والعصور،

كخط فاصل قد ذكر الآن. ويشير بولس الآن بعظمة، كيف تحققت النبوّة بموت مسيا التطهيري بشخص يسوع لعماوة اليهود. من المعروف أن اليهود كانوا يقرأون كلّ سبت في المجمع المزمور الحادي والعشرين وكان الجميع يعرفونه غيباً ويعتبرونه مزموراً وعدياً كلاسيكياً وضعه جد يسوع الملهم قبل ألف سنة ويشير إلى رؤيا عظيمة عن الآلام عبر المسيح عنها وهو على الصليب «إلهي الهي لماذا تركتني. أنا دودة ولست إنساناً، عار على الإنسان ورذالة في الشعب، اقتسموا ثيابي بينهم وعلى ثيابي اقترعوا».

ألا تتفجّر صرخة الجلجلة من هذا المزمور كأنّها من فم إنسان؟ إنّ اليهودية الرسمية في أحلامها الوطنية الحارّة ترى فيه إشارة إلى الآلام السياسية لهذا الشعب المجهول الممزّق المستبدّ وإلى البطل الوطني الذي سيخلّصها من محنها. أمّا بولس فأظهر لسامعيه أنّ الذين يسكنون أورشليم ورؤساءهم تجاهلوا مسيحهم بصورة تؤسي فسلموه إلى بيلاطس الوثني الذي عبّر وهو لا يدري بسخرية تدمي عن هذه العماوة لعنوان الصليب وكيف خرج من محبوكة الضلال والجريمة تحقيق الإرادة الإلهية للخلاص. من الجائز أن يكون قد وصف للمجمع كيف هزأ اليهود بمسيا وهو على الصليب «إن كنت أنت المسيح فانزل نفسك عن الصليب» وكيف كان المزمور الحادي والعشرون جواباً للمجمع عن تنكّره لمسيحه. إلهي إلهي لماذا تركتني! هذه الكلمات يعلنها الممثّل الوعدي، المسيح «ملك اليهود» إنّه يتكلّم باسم شعبه الذين تركوه فتركهم الله ولأنّهم تركوه سيتوهون إلى الأبد حتّى يجلوا مسيحهم. إنّ تيه الشعب اليهودي الذي تركه الله لأكبر برهان لا بل هو البرهان الوحيد عن أنّ الله يحكم ويدبر. والجواب الثّاني للمسيح الذي مات هو أنّه لن يحقّق حلم الدولة اليهودية العالمية بل حلم النبي المعجون بالحنين، أي عودة ووحدة كلّ الشعوب تحت راية الصليب في ملكوت إلهي عالمي وذلك لأن المزمور ينتهي بالحلم الاستقبالي المشتعل. «ستذكر وستعود إلى الرب كل أقاصي الأرض وسيجد أمامه كلّ قبائل الأرض». كان بولس قد فهم هذه النبوات فهماً خاطئاً لكنّه بعد رؤيا دمشق أخذ يدرك أنّ رسالته تقوم على فتح أعين الشعوب على إرادة المحبة الإلهية «ها نحن أمامكم كمبشّرين» أن نشاهد الناهض موجوداً في آسيا الصغرى وسيذهب غداً إلى مقدونيا وبلاد اليونان، ثم إلى رومية، وأخيراً إلى أسبانيا. هناك ما هو عظيم جداً في هذه القناعة الوجدانية. هناك شيء عظيم في هذا الشعور بالدعوة في هذا الإيمان الصادق حتّى النهاية.

في القسم الثّالث يعالج الرسول خبرة مستمعيه الدّاخلية. أنتم تعرفون أن شريعة موسى لم تأتكم بالتبرير أما في يسوع فإنكم تجدون ما تطلبون، مغفرة الخطايا، سلاماً ومصالحة مع الله. لأوّل مرة يظهر التضاد بين الشريعة والنعمة. إنّه سلاح بولس الثّاني. فقضي على النظام اليهودي الذي كان يدعي لنفسه القيادة الدينية وتخطته موعظة، تخطّته مداخلة جديدة من الله في التّاريخ.

كان رؤساء المجمع صامتين يتطلّعون إلى الأمام. شعروا بشيء يضغط على صدورهم. وفجأة سمعت بلبلة اليهود الذين أخذوا يتجادلون و ندّدون بالبراهين التي جاء بها من الكتاب، أما المرشدون «الخائفو الله» فقد تحمّسوا لأنّ بولس جعلهم مساوين لليهود لا يختلفون عنهم بشيء. كانت البداءة بداءة حسنة. في الخارج كان الكثيرون يلحّون برجاء حار أن يبقى الرسولان معهم ليتكلّما في السبت القادم. كانت موعظة بولس حديث السّاعة في ذلك اليوم وكان الرسولان يستقبلان الزائرين طوال الأسبوع. وكان الزائرون يسألون الرسولين أصحيح ما سمعوه أرأى ذلك بولس؟ أين للرسولين أن يقصا كلّ ما حدث في أورشليم. إنّ الأخبار وصلت إلى هنا وقد سمع الرسولان بعض ما حدث في أورشليم.

في السبت القادم كان المجمع كأنّه الحشد وكان الكثيرون يقفون خارجاً وكان رؤساء المجمع ينظرون نظرة ألم وحزن فعدد الوثنيين كان يفوق عدد اليهود بكثير. لقد أحسّوا أن وجودهم الديني مُسّ لأنّهم يعتقدون أن مجيء مسيا هو ميراث لأمّتهم، ميراث أُعطي لهم وبدون إرادتهم أفسحوا في المجال مرّة أخرى للغربيين إلّا أنّهم كانوا مصمّمين هذه المرّة على المقاومة والمقاومة بقوّة.

في البدء تكلّم برنابا بصورة ودية جذّابة. من يستطيع أن يعادي هذا الإنسان. كانت في لهجة برنابا رنّة المصالحة. شدّد كثيراً على النقاط المشتركة بين المسيحية واليهودية لا على الفروقات. ثم تكلّم بولس. يمكننا أن نستنتج من نهاية الموعظة التي شكّلت الخط الفاصل. إنّ بولس اختار موضوعه من الفصل الثّاني والأربعين من نبوّة إشعيا. كان اليهود يعرفون أنّ الفصل الثّاني والأربعين من نبوّة إشعيا يحدّد للشعب الإسرائيلي رسالته في حمل الإعلان للشعب. أمّا الفصل التّاسع والأربعون فإنّه تأكيد لهذا الإعلان وبه يدرك الشعب الاسرائيلي رسالته ويعيها ويملكها «قال قليل أن تكون لي عبداً لتقيم أسباط يعقوب وتردّ

المحفوظين من اسرائيل. إنّي جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقاصي الأرض» (إشعيا ٤٩ : ١). كيف تتحقّق إذاً هذه المواعيد؟ كان الشعب مقهوراً وبيت داود كان مذلولاً والهيكل مليئاً بالنجاسات الوثنية. يفسّر بولس هذا التضادّ بين المواعيد وبين حقيقة الحاضر المحزنة تحت ضوء العناية الإلهية. إنّ عبوديّة الشعب كانت بداءة لانبلاج الصبح. لو لم يتفرّق الشعب اليهودي في العالم لما ولد الحنين في الشعوب المختلفة، وكغرباء كان اليهود عبيداً ليهوه، كانوا المبشّرين العظام بمجيء المسيح. كانوا كنجمة يعقوب، كانوا نوراً للأمم. إنّ مخطّط الله العالمي لا يشمل اليهود فقط. إنّ الآنية الخزفية يجب أن تنسحق ليقتسم الجميع مضمونها.

يتكلّم بولس الآن على المسيح بدون التواء. لقد قضى على امتيازات اسرائيل، وحلّ الإيمان بالمسيح محلّ الشعب المختار. جاء يسوع ليهدم الجدار القائم بين اليهود والأمم «في المسيح لا يهودي ولا يوناني، لا عبد ولا حرّ، لا ذكر ولا أنثى. كلّنا واحد في يسوع المسيح». رأى رؤساء المجمع أنّ الجدار الذي أعدّوه منذ أجيال انهار دفعة واحدة وسط الضجيج. وفجأة قفزوا من مقاعدهم كمن أصيبوا بهوس الجنون وأخذوا يصفرون ويضجّون ويقاطعون كلام الرسول. إنّه مارق. ابتعدوا عنه. إنّنا لا نريد مسيحاً كالمسيح الذي يتكلّم عليه. الحسد والكبرياء يسدان الطريق الى الحقيقة حتى الأتقياء جداً لا يستطيعون أن يستفيدوا إذا كانت تصوّرات مسبقة تسيطر على أعماقهم. فصفّق الوثنيون معجبين بكلمات الرسولين. وانشقّ المجمع على ذاته بسبب تهليل الوثنيين وانتقل هذا الإنشقاق إلى الخارج، أمّا بولس فكان واقفاً فوق المنبر كالتمثال صامتاً لا يتحرّك. لقد ارتدت نظراته إلى أعماقه وكان كأنّه يتكلّم مع شخص غير منظور. إنّها لحظة حاسمة من لحظات حياته، لم يعد أمامه متسع من الوقت. وبينما كانت المشاحنات تجري حوله كان هو يقرّر مصيره وهذا يعني ثورة شاملة بالنسبة لمستقبل الكنيسة. في لحظة واحدة كشف له الرب المستقبل. كيف سيضطهد كمارق وكيف سيطارده حقد الشعب أينما توجّه؟ ما أرهب حكم المارقين وحقدهم! قبل بولس الإختيار. وأخيراً تمكّن أن يفرض ارادته. ها هو الشعب يعود ليسمعه. إنّه يتكلّم على مهل كلمات موزونة مليئة بنور داخلي يشتعل وبدون ترجرج قال «عليّ أن أخاطبكم أوّلاً بكلام الله وبما أنّكم لا تقبلونه فإنّكم تحكمون على نفوسكم بأنّكم لستم أهلاً للحياة لذلك أتوجه إلى الأمم» لقد تقرّر المصير. إن الأحزان

ستنهال عليه كأمواج البحر. وقف برنابا ثابتاً إلى جانب صديقه ورشق في وجهه رؤساء المجلس الكلام النبوي. «إنّي جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقاصي الأرض» فجرّد اليهود من سلاحهم. في ذلك اليوم رفع بولس علمه فوق ساري مركب المسيحية [٣٢] وستحمل الكنيسة من الآن فصاعداً ختم روحه لأنّه هو الذي أدرك أكثر من أي إنسان آخر المعنى العالمي لرسالة معلمه. إن كنيسة المسيح مسكونية تشمل كلّ الشعوب لا يقيّدها أحد. هذه الفكرة بالنسبة لنا فكرة مألوفة وعادية أما بالنسبة لليهود فكانت تعني ثورة روحية صحيحة. «لحم ودم» يفصلان البشر والشعوب والروح جامع. المسيح هو الرباط الجامع الذي يجمع السماء والأرض، يجمع الإنسان والإنسان والشعوب إلى الشعوب.

منعا من الكلام مجدّداً في المجمع إلّا أنّهما أخذا يعلمان إما في البيت الذي حلّا فيه أو في بيوت خاصّة أو فوق السطوح الكبيرة أو في الخلاء. كانت شرايين جديدة تزداد في جسد المسيح وتنمو وتتكوّن. كان المؤمنون يتحلّقون حول بولس وبرنابا وصاروا يتحلّقون فيما بعد حول متقدّميهم ومعلّميهم. إنّ بولس في رسالته إلى أهل غلاطية (٦، ٦) يسمّي هؤلاء المعلّمين كتابة ويعترف لهم بحقّ تأمين حياتهم من أولئك الذين يعلمونهم «ليشرك الذي يتعلّم الكلمة معلمه في جميع خيراته» أي على الموعوظ الذي يأخذ الروحيات أن يعطي لمعلّمه الخيرات المادية. يا للمجال العظيم مجال العمل هنا؟ إنّه شبيه بذلك المجال في أنطاكية سوريا. إنّهما يستطيعان بعد أن تحرّرا من ازعاجات اليهود أن يقدّما المصلوب حيّاً جداً أمام أعين أولئك العطشى للخلاص فيجعلا هؤلاء البشر الجبليين أن ينفجروا بالدموع (غلا ٣، ١). إنّ بولس لا يذكر أمام هؤلاء البشر تلك التوافه والأوامر اليهودية والتطهيرات ومضايقات الأكل. «هذه العناصر المريضة الضعيفة» (غلا ٤، ٩). لم يكن الله الذي يبشّر به الرسولان من التجّار أو ملاكاً يحاسب ويعالج عبيده من أجل فلس بل كان ملكاً عظيماً يجعل كل الخطأة سعداء «بقرار النعمة الملوكية الحرّة [٥٠]». كم صارت مضحكة أساطير جوبتير أب الآلهة في أعين هؤلاء بمغامراته الغرامية الأبدية! كم صارت مضحكة أساطير كيفالي والدة الالهة التي ناحت على عشيقها الذي مزّقه خنزير برّي والذي سيقوم فيما بعد فيغسله الكهنة في مياه النهر ويضعونه فوق عربة يجرّها اثنان ويمكن أن يراه كلّ من دفع فلساً واحداً! كم صار مضحكاً اله القمر مان المحدق من عل كالمخبول! من

يستطيع أن يقول عن هؤلاء متى ولدوا وعاشوا؟ إنّ المسيح المعروف وكان قبل خمس عشرة سنة على قيد الحياة ولا يزال من تلامذتِهِ أناس لا يزالون على قيد الحياة وقد ظهر لبولس بالذّات وأرسله إليهم (غلا ٤ : ٤ — ٧) وأعتقهم من كلّ الخيالات الشيطانية والخوف من الأشباح. من الصعب أن نتصوّر تحت أي ضغط من الشعوذات كانت تعيش نفس الإنسان القديم. كانت النفس تتعذّب بالشيطان كما كانت تتعذّب نفوس البشر في العصور المتوسّطة بالإيمان بالسحرة — هذه عودة إلى الوثنية — أخذت الكنيسة تتكتّل أكثر فأكثر حول رسلها. لم يكن «للحماس المغبوط» حدّ (غلا ٤، ١٥) ما أجمل تلك الإحتفالات وما أبهجها، تلك الإحتفالات التي كانت فيها الكنيسة تستقبل فرقاً جديدة من التلامذة المؤمنين! كان أعضاء الكنيسة يلبسون لباساً أبيض وينزلون إلى نهر أنثو المتدحرجة مياهه من أعالي سلطان داغ لتصبّ في بحيرة انكرنتير»[٥٠].

تعدّت الحركة المسيحية الجديدة حدود المدينة وانتشرت في البرّ بين القرويين الذين كانوا ينزلون إلى المدينة لابتياع ما يحتاجونه. كان هؤلاء يتطلّعون إلى الديانة الجديدة من أقاربهم وأصدقائهم، ومن التجّار الذين اعتنقوا المسيحية، وكانوا ينقلون ما يسمعون إلى القرى، وكان هؤلاء القرويّون يرجون الرسولين ليذهبا إلى قراهم، وهكذا أمر الرسولان في المدن العديدة القائمة فوق سفوح سلطان داغ[٥١].

إن بولس يوجّه رسالته إلى أهل غلاطية المقيمين في الجنوب، وهذه النظرة ترتكز على أسباب جديّة. وسنرى أنّ هذا القول صحيح. وعليه فالمرض الذي يذكره بولس في رسالته إلى أهل غلاطية (٤ : ١٣) هو مرض أصيب به لأوّل مرّة في أنطاكية. من المعقول أن يكون المرض من نوع الملاريا التي تكثر في تلك المنطقة. أصيب بهذه الوافدة ثلاث مرّات أشرف فيها على الموت وكان يطلب من الله أن يريحه مع أنّ العمل كان وافراً إلّا أنّه سمع في داخله صوتاً تكفيك نعمتي لأنّ قوّتي بالضعف تكمل (٢ قور ١٢ : ١٩).

كم من البركات فاضت من سرير المرض هذا. لم يكن بولس يريد أن يخسر حتّى ولا يوماً واحداً من هذه الأيّام الصعبة لأنّ المسيحيين الجدد تعلّقوا به تعلّقاً كلّه عاطفة ومحبّة. كان المريض يشعر بنوع من الخجل وكان يعتقد أنّ الآخرين يتبرّون منه ولو استطاع بولس أن يختبئ عن أنظار الحيارى في غرفة منفردة لكان من السعداء. أنّى لبولس أن يحظى بمثل

هذه السعادة وهو لا يملك غرفة خاصة به. فالحياة الشرقية حياة شعبية. كان الناس ينامون في غرفة واحدة ولم يكن للغرفة باب ولا جدار يسدّ عنهم أنظار المارّة. كانت الغرف مفتوحة. إنّ العالم البريطاني هو غارق، يقول استناداً إلى بعض العناوين المحفورة. «كانت الملاريا من الأمراض التي يرسلها الآلهة وتضرب القذرين الذين يقتربون إلى الهيكل جارين معهم أوساخهم»[٣٨]. إنّ الشرقي المتبرّم كان يبصق على هؤلاء المرضى بالقذارة وعلى المصابين بأمراض الملاريا على اعتبار أنّ الشيطان ركبهم. يذكّر بولس الغلاطيين بهذه العادة عندما كتب لهم. «وهذا الجسد العليل الذي كان لكم تجربة لم تزدروه ولم تتكرهوه لا بل قبلتموني كملاك من الله، كالمسيح يسوع» (غلا ٤، ١٤) كان هؤلاء البسطاء الطيبو القلب يلقون بنظراتهم في البدء بحيرة وخشية، وكان عطفهم واحترامهم لرسولهم الملقى على الأرض كالميت لعينيه المكويّتين بالحرارة، يزدادان مع الأيّام. يا للفرق العظيم؟ إنّ مرضاهم يصرخون كمن بهم مس. كانوا يتلفّظون بتوافه الكلِم وكانوا يرون الأرواح الشريرة. أمّا بولس فكان خلاف ذلك. كان في مرضه يتكلّم على المسيح ويرتّل من أجله المزامير. وأمام هذا المشهد فهم الغلاطيون ما يعني أن تكون مسيحياً. إنّك إنسان مختلف في المرض والصحة. لم يكن بإمكانهم أن يبصقوا في وجهه. كان إنساناً فوق المادة. لو كان بإمكانهم لقدّموا له عيونهم (٤ : ١٥). أمام هذا المنظر يمكننا أن نكوّن فكرة عن مرض الرسول.

إن مرض الرسول صار نبعاً لبركات غزيرة ودافعاً لبولس ليتخلّى عن مخطّطه ويتّجه إلى شواطئ يونيا. يمكننا أن نكوّن فكرة عن مرض الرسول.

إن مرض الرسول صار نبعاً لبركات غزيرة ودافعاً لبولس ليتخلّى عن مخطّطه ويتّجه إلى شواطئ يونيا ويكرّس نفسه لتبشير هذه المنطقة التوّاقة القابلة وذلك لأنّه كان يتمشّى وفقاً للمبدأ القائل «الباب المفتوح» (١ قو ١٦ ؛ ٩) أي أن ذهب إلى حيث ينفتح الباب للإنجيل*. هكذا تأسّست كنائس غلاطية «غلاطية». «غاليا» لها معنى شامل. في البدء كانت نعتاً لقبيلة الغلاطيين أو السلتيين وفي أيّام بولس كانت تعني مقاطعة من مقاطعات الأمبراطورية الرومانية كان يقطنها السلتيون والفريجيون واللقونيون تحت أمرة الملك آسين. مرّت سنة وأكثر على تأسيس الكنيسة الأولى المسيحية التي شكّل الوثنيّون القسم الأكبر

* تعبير «الباب المفتوح» الذي أخذه الإنكليز عن بولس استعمل في اللغة الدبلوماسية فيما بعد.

منها. تأسّست كنيسة الغلاطيين، غير أنّ بوادر الإضطهاد أخذت تلوح في الأفق وتهدّد بالإنفجار. كان لليهود خطّة مرسومة لمحاربة أخصامهم المسيحيين، إنّها خطّة ناجعة. كان اليهود يرتبطون بالأمن الدّاخلي بربط قوية فعالة، كانت نساؤهن يتزوّجن من اليونانيين ومن المواطنين الرومانيين الموظفين وكانت هذه النسوة يرتبطن بربط الصداقة مع النسوة البارزات في المحيط الإجتماعي في المدينة وهكذا كان المجمع بواسطة هؤلاء النسوة يأخذ إلى جانبه كلّ قوى الأمن الدّاخلي. صور اليهود الرسولين في أعين الحكّام أنّهما يبشّران بديانة غريبة ممنوعة وأنّهما يريدان أن يجعلا من شخص يسوع الذي ثار على سلطة الدولة الرومانية في أيّام بيلاطس ملكاً جديداً على الشرق، مما يشكّل خيانة كبرى وبهذه الطريقة وتحت تأثير هذه الإشاعات والأقاويل قامت ثورة شعبية. لا يمكن لقوى أمن المدينة أن تكفل حياة الرسوليين إذا هما بقيا في المدينة. عندما فشل المجمع بإقناع السلطات بما يلفقونه، كان المجمع يحكم بالجلد على الذين يرون فيه الخطر على تعاليمهم وكانوا ينفّذون حكمهم في أقبية المجمع. حُكم على بولس مراراً ونفّذ فيه الحكم. يا للعذاب الذي قاساه هذا الرسول! لو استعرضنا ما يكتبه بولس في نشيده الظفري عن تاريخ عذاباته في رسالته الثّانية إلى أهل قورنثية (٦: ٦ — ١٠، ١١: ٢٣ — ٢٥) لتأكّدنا أن بولس جلد ولو مرّة واحدة من الجلدات الخمس والضرب بالعصى. قليلاً ما كانت تسأل السلطات الشعبية إذا كان المعاقب مواطناً رومانياً. كان يحدث هذا في مدن المقاطعات عندما يكون الوالي رومانياً كإنطاكية وإيقونيا وفيلبي. إنّ عدم ذكر بولس لعذاباته وآلامه إلّا في الحالات الإضطرارية يدلّ على عظمته الروحية وعندما أشرفت حياته على نهايتها كتب إلى تلميذه الحبيب تيموثاوس مذكّراً بها فقط (٢ تيمو: ٣، ١١).

حول أطلال أنطاكية القديمة صحراء ولم يبق إلّا درجات أحد المعابد وبعض أقواس الخزان المائي الكبير تذكّرنا أنّ في هذا المكان لاقى بولس أقسى العذابات من أجل رسالته.

١٦ . إيقونيا :

(أعمال ١٤ : ١ — ٧)
(أنظر ٢ تيموثاوس ٣ : ١٠ — ١١)

كانت آثار السياط فوق مناكب بولس وبرنابا ندية عندما تركا أنطاكية بسيديا . الطريق مفتوح من الشرق والغرب . هذا ينفتح على أفسس ، بعد مروره بالأماكن الجبلية من فريجيا عن طريق أفاميا ، وذاك يقود إلى إيقونيا الواقعة وراء صحراء مالحة ، ووراء بعض المستنقعات العسرة العبور ، على شاطئ بحيرة قليلة الأعماق . ما الذي دفع الرسولين إلى اتّباع طريق إيقونيا ؟ كانا يعتبران أن تلال غلاطية الجنوبية مجال خصب للعمل البشاري . وكان بولس يحمل في أعماقه هذا الشعب الصغير ، وكانا يحلمان أن يؤسّسا أماكن مسيحية قوية .

هما الآن في أرض جبلية قفراء ، وسط جبال بركانية ، بأشكالها العجيبة الغريبة . الثلوج تغطّي رؤوسها . فتخالها وكأنّها عمالقة من عمالقة الأساطير . من الشمال سلطان داغ ، ومن الجنوب جبال طوروس ، ومن الجنوب الشرقي كره داغ ، ومن الشرق ، في الأعماق ، كراذاداغ . إنّهما يجتازان صحراء مملّة رتيبة ، صحراء لا حياة فيها . إنّها كفيافي آسيا الوسطى وقفرها . «في الصيف تصبح هذه التلال الجرداء ، قفراً مخيفاً يغمره الغبار وتكتنفه اللهب الكاوية ، أمّا في الشتاء ، فتغطّيه الثلوج العالية وتستمرّ عدّة شهور أما في الربيع ، عندما تتوقّف أمطار الشتاء يصبح السهل كمستنقع كبير لعدم وجود المجاري للسيول المنحدرة من الجبال . وكثيراً ما يصل عمق الماء في المستنقع إلى علو يصل حتى صدر الحصان»[٥٠] .

إذا قبلنا أنّ بولس وبرنابا مكثا مدّة سنة في أنطاكية ، فمن الطبيعي أن يكونا قد وصلا إلى هذا المكان في خريف ٤٦ ب . م . لا يزال هناك حتّى الآن قصر كبير نصف مهدوم . من هنا هجم برباروسا على إيقونيا ، بعد مسير شاق ، وبعد أن قلّ عدد جنوده ، بسبب المكيدة التي نصبها له ، كليتز أرنكلان ، القائد التركي العظيم في ١٨ أيّار ١١٩٠ . إذ أخذ يصرخ «المسيح الغالب ، المسيح المالك ، المسيح الحاكم» . وفي الإحتفال الدعائي الذي أمر الأمبراطور أن يقام في ايقونيا ، وحضره كلّ جنود الصليبيين أمر أسقف مانز أن يعظ متّخذاً الآية «فنفضا عليهم غبار أقدامهما وأتيا الى إيقونية» (أعمال ١٣ : ٥١) . وأخيراً بعد

أن سارا مئة وعشرين فرسخاً لاحت إيقونيا ، هذه الواحة المنوّرة في الأعماق[٥٠] . كانت المدينة كما هي اليوم تمتدّ وسط خضار رياضها محاطة برمال الصحراء تعلو ١٠٣٠ عن سطح البحر وتقع على طرق تجارية قديمة متقاطعة.

كان سكّان ايقونيا فخورين بتاريخ مدينتهم. كانوا يؤمنون أنّها بنيت قبل الطوفان وخربت وأعيد بناؤها وأن بروميتيوس جبل من الطين بشراً محل البشر الذين خنقهم الطوفان. لذلك كانوا يعلنون مفاخرين أنّ مدينتهم اشتقّت من كلمة «ايكون» لصورة ايقونيا يفضّلون أن سموا مدينتهم بالمدينة الكلودوسية. كان حكّام المدينة من الرومانيين وقد سُكّت فوق عملتهم صورة بوبايا المفضّلة زوجة نيرون. كان سكّان ايقونيا يتألّفون وقد بنى الأمبراطور كلوديوس مستعمرة رومانية للجنود القدماء في إيقونيا. وكان أهل من الغلاطيين المجنّسين بالجنسية اليونانية ومن الموظّفين الرومانيين والمحاربين القدماء واليهود. كانت إيقونيا كما هي الآن وسطاً لنسيج الأقمشة الشعرية لذلك وجد بولس بسهولة عملاً ومسكناً له.

في هذه المدينة حصلت حادثة تقلا الشهيرة. لا نعرف عن تقلا هذه الوثنية التي اعتنقت المسيحية إلّا ما يقصّه كتّاب «أعمال بولس وتقلا» المنحول [٨]. ومن الإضافة إلى إحدى مخطوطات رسالة بولس الثّانية إلى تيموثاوس الآية (٣، ١١) «ما اصابني من أجل تقلا» وفقاً لرواية لترتيليانوس (معمودية ٩) أن أحد كهنة آسيا الصغرى في نهاية القرن الثّاني كتب قصة حول تقلا محبّة ببولس وبتلميذته الشهيرة، تحوي كثيراً من التفاصيل السخيفة وهي عبارة عن مزيج من الكذب والصحيح وقد حرم الكاتب لأنّه استغلّ اسم بولس استغلالاً سيئاً. إنّ الآباء الشرقيين كيوحنا الذهبي الفم يقبلون النقاط الهامّة من حياة تقلا. إنّ تقلا كانت تتمتّع في الشرق باحترام بالغ كالحرمة التي تتمتّع بها أغني ابنة الثلاث عشر عاماً في الغرب. يؤمن هارنك أنّ تقلا ليست من مصنّفات الخيال. لقد وجدت ابنة اسمها تقلا عملت في البشارة. إنّ اسمها تقلا وفي الصلوات الجنازية لا تزال تذكر عذاباتها وآلامها المخيفة* . إنّ تاريخها يشبه قليلاً تاريخ فرانسوا القديس والقديسة كلارا أسيز. إن رامسي يأخذ من القصّة محورها التاريخي الآتي :

بعد أن ترك الرسولان أنطاكية درجا في طريق «فياسباستا» كما كانت تدعى. وكانت توصل إلى ليسترا. من بحيرة كارالي كان يتشعّب طريق نحو إيقونيا. في هذا المكان كان

* هنا يقصد الكاتب الخدمة في الكنيسة الغربية.

بانتظارهما شخص يدعى أونيسيموس (٢ تيمو ١ : ١٦) كان قد رآهما في حلمه وعرف بمجيئهما. كان يراقب بانتباه العابرين فعرِف بولس من مظهره الخارجي. كان بولس قصير القامة كثّ الحاجبين له أنف أعقف، وشعر خفيف، وأقدام محدودبة، ووجه طافح بالحياة الريقة تخاله حيناً إنساناً وحيناً ملاكاً. قاد أونيسيموس الرسولين إلى إيقونيا، وأنزلهما ضيوفاً عليه. وهكذا صار بيته أوّل مكان لاجتماع الكنيسة المسيحية هناك. إنّ أعمال تقلا تذكر بصورة مميّزة أنّهم كانوا يركعون عند كسر الخبز حرمة بقدسات القديسين. في بيت مجاور، لا مجال لمقارنته من حيث الفخامة بالبيت الذي كان ينزل فيه الرسولان، كان بمكنة ابنة العائلة القاطنة في هذا البيت أن تسمع وترى كلّ ما يقال ويعمل في بيت أونيسيموس. سمعت الإبنة بولس يقرظ العفة فاستحوذ كلامه على عقلها. فقرّرت أن تترك مخطّط الزواج من ابن غني لعائلة مترفة. أصاب العائلتين اليأس واعتقدتا أن أحداً سحرها فراحتا تلاحقان خطوات بولس. كان الكثيرون من الشباب يذهبون إلى بيت بولس فأوّل البعض منهم كلامه عن النقاوة الخلقية بأنّه دعوة إلى عدم الزواج وقد أثار بولس الكراهية حوله لأنّه كان يتدخّل في حياة البشر الخاصّة وقد سجن بتهمة السحر. تمكّنت تقلا أن تشتري حارس بيت أهلها باساورها حتّى سمح لها بالخروج. وأعطت حارس السجن مرآة من فضة ليسمح لها أن تقترب من بولس. استمرّ بولس طوال الليل يلقّنها ويعلّمها الدين المسيحي. لم يكن الدرس قد انتهى عندما وجدتها أمّها وخطيبها جالسة عند أقدام بولس. لا تهمّنا الآلام التي تكبّدتها تقلا الموصوفة في الرواية بطريقة خيالية شرقية تستهوي. انقسم السكّان في إيقونيا قسمين قسم مضاد لبولس وقسم مع الرسولين. العوام الذين اشتراهم المال كانوا يصيحون ضد الرسولين. ضرب الجلّادون بولس فاضطرّ الرسولان أن يتركا المدينة حالاً وسريعاً فراراً من ثورة الشعب.

يذكر لوقا النجاح العظيم الذي لقيه عمل الرسولين التبشيري كما يذكر غليان الشعب في المدينة ضدّهما ويذكر أيضاً أنّ الرسولين بعد جهادهما الطويل تركا المدينة خوفاً وبعد عناء شديد هرباً من الرجم. أما صمته عن ذكر تقلا فلا يعني أنّ وجودها لم يكن تاريخياً. إنّ لوقا كاتب رصين ودقيق جداً يتحاشى أن يفسح في المجال لتأويلات. يقول فقط: «لجأوا إلى مدن ليكأونيا وليسترا ودرفي وضواحيها». جدير بالإنتباه ما تذكره أعمال الرسل من عجائب وإشارات قام بها بولس وبرنابا. في هذه المنطقة كان أنبياء كذبة كأبولونيوس

معاصر بولس يتجوّلون ويتسلّطون على عقول البشر بالعجائب الكاذبة التي كانوا يخترعونها مستغلّين بساطة الشعب ونقاوته وسرعة انقياده وراء الأكاذيب والشعوذة. كان على الرسولين أن يبرهنا أن الإنجيل يفوق أباطيل الوثنية وخيالاتها وأنّ موهبة الروح القدس تفوق كلّ موهبة.

يمكننا أن نقبل بكلّ تأكيد أنّ الرسولين عملا في إيقونيا أكثر من سنة. وأنّ عملهما لم يقتصر على المدينة بل تعدّاها إلى الضواحي وسفوح الجبال حيث أسّست كنائس قروية. كانت إيقونيا مدعوّة كمركز من مراكز الكنيسة في المسيحية القديمة في آسيا الصغرى أن ترعاها بعد أن تتوطّد دعائمها. لم تبق إيقونيا على ما كانت عليه وكانت أربع عشرة مدينة مرتبطة بها. لقد صارت مقراً للسلاطين وعاصمة لدراويش آسيا الصغرى التركية. إنّ المآسي التاريخية لا بل إنّ القدر التبشيري مع الجرائم البشرية يلتحمان التحاماً يصعب فكه ويسهمان في مأساة بشرية أين منها المأساة. قبل الحرب العالمية كان سكان ايقونيا قرابة ٦٠٠٠٠ ألف نسمة وقد عادت بعد الحرب العالمية الأولى تحتلّ مكاناً كبيراً في المواصلات العالمية بعد بناء خط بغداد وكان الأرمن والمسيحيون يحافظون على البقايا الأخيرة من التفاني في سبيل البيت الذي يخلّص العالم(٥٠). إلّا أنّ الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى ذبحوهم ذبح النعاج. إنّ اندثار الكنيسة الغلاطية وضياع ميراث الرسول وفقدان ثمرة أتعابه وآلامه التي بذلها من أجل المسيح يشكّل قسماً هاماً من مأساة الرسول العظيمة وحياته في التّاريخ حتّى اليوم. وعلى بعد ساعة خارج إيقونيا يستطيع المرء أن يرى ديراً فوق صخرة تحمل عنوان «مغارة الرسول بولس» وعلى بعد ساعة أخرى في واد جميل يقطنها صانعو البسط من اليونانيين، يرى المرء هياكل معلّقة فوق الصخور مزيّنة برسوم من الموزاييك القديمة. لا يوجد في شمالي غلاطية شيء من هذا.

١٧ . ليسترا ودربا

(أعمال ١٤ : ٨— ٢٦ ، أنظر ٢ كورنتس ١١ : ٢٥)
(٢ تيموثاوس ١ : ٥ ، ٣ : ١٢— ١٥)

ليسترا ودارفي : للمرّة الثّانية اضطرّ الرسولان أن يتركا عملهما ويرحلا سريعاً. إنّ طريقهما ينتهي بلكأونيا منطقة غير مضيافة. عندما يترك المرء إيقونيا و رياضها يبتدئ المكان بطابعه الصحراوي يأخذ وجوده تدريجياً. المنطقة منطقة فقيرة ، منطقة مستنقعات ، هناك فقط أماكن لرعاية المواشي ومواطن لوحوش الغاب. اليهود قلّة إذ لا مجال للربح هناك. إنّ كلوديوس بإقامته مستعمرات رومانية وضع بعض النظام في هذه المنطقة ذات الشهرة السيئة. الجبال المحيطة وخصوصاً سفوح كاراداغ— الجبل الأسود— الذي يرتفع أمامها بقسوته الوحشية وبسواده كأنّه هرم يتوعّد ، كانت عبارة عن أوكار للصوص يصعب تطهيرها. وقد رأى شيشرون كوالٍ لكيليكيا أن يقوم بحملة تطهيرية ضدّ اللصوص. فكتب في الثّالث من آب سنة ٥١ رسالة إلى أتيكو يقول فيها : «وصلت إلى اللاّذقيّة في ٣١ تمّوز. يمكننا أن نبتدئ من اليوم بتاريخ جديد. من هنا قريباً من إيقونيا قمت بحملتي باتجاه لكأونيا. وسأتوجّه من هناك نحو جبال طوروس لندخل في صراع محتوم وجزري مع رئيس العصاة ميراباتي».

خلال الحكم التركي ، ولأجيال طويلة كانت حالة الكنائس الغلاطية التي أسّسها الرسولان بولس وبرنابا تغطيها الظلمات ما عدا كنيسة إيقونيا. وقد عرفنا عن حالة كنيسة أنطاكية بسيديا نتيجة للأبحاث التي قام بها سنة ١٨٣٣ الكاهن الإنكليزي أروندیل وعن ليسترا ودارفي نتيجة لمحاولات ستيلنفتون الأميريكي في ١٨٨٥— ١٨٨٨. المسافة بين إيقونيا وليسترا أربعون فرسخاً. أما راكب السيّارة فبصعوبة كلية يمكنه أن يجتاز هذه الدروب الوعرة. فوق سفوح الجبل الأسود يرتفع هرم هائل مزدوج. إنّه هرم «فيليبس وتقلا» وبعد سير طويل في طريق وعر يضيق كلّما تقدّمت حتّى يصبح صعباً على دابة أن تقطعه وصلنا إلى كليسيون أي «بين بيركلسه» ألف كنيسة وكنيسة. إنّ هذه البقايا من الأحجار الخزفية ، هذه البقايا من المخطوطات الحجرية تشهد على ازدهار تلك الكنائس

الغلاطية التي أسّسها فيما مضى الرسول بولس. وجد الستيريت قرب قرية كاتين سراي هيكلاً حجرياً يحمل عنوان ليسترا وهو يشير بدون شكّ إلى المكان حيث كانت المستعمرة الرومانية (٧٤).

كان شعب ليكأونيا شعباً طيّب القلب محباً للشعوذة، أمّياً، يتكلّم لهجة جبلية اشار إليها أرسطو وفيما بعد شيشرون باحتقار. كانت اللغة اليونانية مجهولة اللهم إلّا عند بعض النّادرين من اليونانيين الذين جاءوا واستوطنوا هنا وحملوا معهم أسطورتهم الفريجية عن زيفس وراميس وحوّلوا الأقاصيص الأسطورية إلى أقاصيص يونانية وكانت هذه الأساطير ترتبط بسهولة بمظاهر طبيعية تبعث على الدهشة. أمام المدينة كانت شجرتان من الزيزفون تشابكت جذوعها وأوراقها وكان اليونانيون الخياليون كلّما رأوا شجرة تبعث على الغرابة أو نبعاً تخيّلوا إلهاً وعندما رأوا هاتين الشجرتين قالوا إنّهما فيليمون وفافكس وأنّ زيفس أب الآلهة نزل يوماً من الأيّام مع رفيقه أرميس. لسانه يتنبت من أفكار البشر وقد وصلا بعد أن طردا في كلّ مكان إلى غاب قريب من ليسترا حيث كان يقطن زوجان تقيّان وكانا راعيين صالحين فاستقبلهما الراعيان استقبالاً حسناً واهتمّا بهما اهتماماً مشكوراً لذلك أظهر لهما زيفس ذاته وأعطاهما كلّ الحقّ ليسألاة ما يريدان. فلم يطلب الزوجان شيئاً سوى صحّة حسنة حتّى الشيخوخة وأن يموتا معاً في يوم واحد. فأجابهما زيفس عن سؤالهما وأضاف قائلاً: إنكما تستطيعان إذا أردتما أن تتجلّيا وتصيرا شجراً وأن يكون مصيركما واحداً إلى الأبد. إنّ هذه الأسطورة الجميلة تعبّر عن جمال الطبيعة البشرية وعن حنين الإنسان الملوّع المغرق في القدم للإتّصال بالله وفقاً للتجسّد والظهور الإلهي وكلمته (أرميس هو لسان ومترجم الألوهة) هذا الحنين إلى الالهي هو ارث الأيّام الخوالي، إنّه حنين إلى الوطن الروحي المشترك يلمس في كلّ مكان في الأساطير الوثنية عند الأمم وعند اليهود (لنذكرن ظهور الله في العهد القديم وزيارته لإبرهيم تحت شجرة البلّوط). إنّ نزول الله إلى البشر كان يتمّ في العقلية اليونانية تدريجياً وببطء إنّه شيء مضحك. كان زيفس يغيّر ملابسه وكان يعشق الصبايا الحسان وكان فاسقاً كما هو في أسطورة امفيتريونوس.

والآن وأمام أبواب ليسترا ظهر مرسلاً حقّق حنين القلوب البشرية بإرسال ابنه «لما تجلّى صلاح مخلّصنا ومحبّته للبشر خلّصنا» (تيطس ٣، ٤). كرّس شعب ليسترا مدينتهم لزيفس وبنوا له هيكلاً أمام باب المدينة وكان يقوم عند الهيكل أحد الكهنة

ليخدمه. إنّهم يحقّقون أسطورتهم بالفعل وهذه الأسطورة صارت سبباً لسوء فهم هزلي مفجع كلّفت بولس لجهله العادات المحليّة ما قربه من الموت.

نزل الرسولان في بيت أحد اليهود وكانت المدينة كلّها وثنية. من الممكن أن يكون الإخوة في إيقونيا قد أوصيا بالرسولين. جدير بالملاحظة أنّ عادات العهد القديم التقيّة كانت مصونة في هذا البيت في الشتات. كان البيت مؤلّفاً من ثلاثة أشخاص. الجدّة اليهودية لاويس وابنتها افنيكي الأرملة من زوجها الوثني والشّاب تيموثاوس، شاب تقي جداً يملك حياء الفتيات المصونات رقيق الحسّ والمشاعر (٢ تيمو ١ : ٤) يحصل ذلك دائماً مع الأولاد الذين يعيشون في كنف أمّ تقية محبّة، وبقي كما يظهر هذا الحياء مرافقاً تيموثاوس طوال حياته (٢ تيمو ١ : ٧) من الجائز أن يكون والده من الموظّفين اليونانيين أو الرومانيين. لم تكن مثل هذه الزيجات المختلطة نادرة في الشتات. والدة وجدّة يعيشان على رجاء دعوة اسرائيل علمتا الشّاب منذ نعومة أظفاره الكتاب المقدّس، وأخبرتا الرسول بولس على أنّه لم يختتن بعد. لم يعط بولس أهمية لما قالتاه. فالمعمودية تصلح كلّ شيء. استلطف الرسول بولس الشّاب تيموثاوس كثيراً. ولم يدر في خلده أنّه سيأتي يوم يمدّ فيه يده ليسيمه كاهناً أولاً وأسقفاً ثانياً. إنّ هذه العائلة الصديقة أثّرت تأثيراً قوياً على الرسولين وشجّعتهما بعد تلك الأيّام السود التي ذاقاها من التعصّب اليهودي ودلّلت على أنّ العهد العتيق، بالرغم من كلّ هذا، كان شيئاً مختلفاً عمّا يسمّونه يهودية، هذا الانحراف العظيم، والتطوّر الخاطئ، والإنحدار عن المستوى الذي رسمه الأنبياء. صارت هذه العائلة المحور الأول لتحلّقات الكنيسة المسيحية في ليسترا. يتركنا لوقا أن نفهم أن جهاد الرسولين تجاوز حدود المدينة إلى الضواحي. لا شكّ أن تيموثاوس الذي كان يعرف الأماكن هناك كان دليلها ورفيقها الدّائم. إنّها مقدّمة جميلة، أن يكون تيموثاوس إلى جانب بولس. كلّ شيء كان يسير على ما يرام. وفي أحد الأيّام حصل حادث مفاجئ وضع حداً لعملها.

كان باب كلّ مدينة مقراً للاجتماعات العامة، كالأسواق الموسمية، واجتماعات المحاكم والإجتماعات الليلية للسمر. صادف عيد زيفس يوم السوق الموسمي، وكانت المدينة مليئة بالفلّاحين من القرى المجاورة، وكان المتسوّلون يطوفون من مكان إلى مكان، وكان هؤلاء يفضّلون الجلوس على سلالم الهياكل وأدرجة البيوت وقد رأى الرسولان، أنّ الوقت حان ليعظا في الجموع الغفيرة. وكان بين المستمعين إنسان مقعد ما عرفت قدماه السير،

ولا مشى في حياته. كانت عيناه الحالمتان تتسمّران بحنين فوق بولس. وكان المقعد يحدّق به بثبات كأنّه يرى رؤيا سماوية. من الجائز أن يكوّن بولس قد اتّخذ موضوع كلامه عن المسيح كطبيب للمرضى وكعون لكلّ محتاج، وعن النبوّة الدعوية التي تقول بأنّ ظهور المخلّص سيترك العميان يبصرون والمخلّعين يمشون. كانت أعين المقعد طافحة بعالم نير من الرجاء، وكان كأنه لا ينتظر إلّا كلمة ليشفى. إنّ أبصار المقعد بتعابيرها الحزينة المسمّرة فوق الرسول أزعجت الرسول. وفجأة امتلأ بولس ناراً إلهية، وتوقّف عن الكلام، وركّز أبصاره، وكلّ قوّة روحه، فوق هذا الإنسان الطّالب الشفاء. وبإشارة جازمة، وبصوت فيه كلّ الأمر، أمر المقعد، وقال له «قم على قدميك جالساً» وكأن قوة من فوق دفعت المقعد. فقفز ماشياً وملأت الجميع بالعجب.

هناك حدث مماثل لهذا الحدث، حدث شفاء بطرس للمقعد، حدث يثير الانتباه، الكتاب المقدس ذاته ينوه على أن القوى المشعّة لمواهب الروح القدس التقت هنا من ناحية والإعطاء الذّاتي لهذه المواهب بكامل الاطمئنان من ناحية أخرى. لا يمكن أن يفسّر الإنسان العجيبة بالايحاء البسيط. انّ الله يستعمل في أيّ عجيبة القوى الطبيعية الشّافية التي خلقها هو ذاته. أين تقدّم حدود هذه القوى. لا نعرف هنا يجب أن تقفز شرارة إلهية فتشكّل الجسر بين القوى الطبيعية وبين النتيجة الأخيرة للفائق الطبيعة.

الأصوات تتعالى لتصبح ضجيجاً كبيراً، والمقعد يرفع عكّازيه بيديه، ويلوح بها في الهواء كأنّه محمول على أجنحة الفرح والسرور. من ميزة الدقّة التاريخية هو أنّ لوقا يذكر لنا أن البشر صاروا يتكلّمون من شدّة إعجابهم لمحبّتهم وينادي واحدهم الآخر معلناً له العجب الذي لا يصدّق «إنّ الآلهة شابهت البشر ونزلت الينا» وفوراً يعرفون من هي الآلهة: زيفس رفيق الطريق الأزلي، ولسانه أرميس، تفقّدا شعبهما. إنّ برنابا بقامته الطويلة، ولحيته بلونها الدّاكن، وشعره الأجعد كان يشبه تمثال زيفس القائم أمام باب المدينة. إنّ الصمت صفة من صفات عظمة الخالق فحريّ ببرنابا أن يصمت. أمّا بولس القصير القامة السريع الحركة الفصيح اللسان لم يكن بإمكانه إلّا وأن يكون أرميس في الروح الشرقي. فصل جذري بين الإله الحقيقي العظيم وبين الإله الثّاني العامل الخالق. وهذا الفصل ناجم عن الفصل الواضح في حياة الملك ووزرائه يراه البشر كصورة حقيقية لتفكيرهم الديني.

الصفاء والأزلية والعظمة هي مزايا الإله الأعلى. أما العمل والجهاد فهي من صفات الخالق الذي هو دون الإله الأعلى.

أخبر فوراً كاهن معبد زيفس بالحادثة وفي لحظة واحدة تقدّم من باب المدينة موكب من حملة الزمور والثيران المزيّنة بالأكاليل لتقديم الذبيحة إلى هيكل زيفس. إن الرسولين لم يفهما شيئاً ممّا قالته الجموع. وتدريجاً أخذ يدركان ما معنى هذا الجمع فيندفعان إلى وسط الجماعة ليبينا الخطأ الذين وقعوا فيه. أيّها الرجال ماذا تفعلون! «ما نحن إلّا بشر نقبل الآلام مثلكم ونبشّركم بأنْ ترجعوا عن هذه الأباطيل إلى الله الحي).لو كان مكان بولس مبشرٌ من مبشّري العهد الحديث، لفعل خلاف ما فعله بولس. إنّه سيفسّر لهؤلاء البشر البسطاء، والإبتسامة تعلو وجهه. إنّه لن يعظ في تلك السّاعة عن جوهر الله الذي هو روح. غير أنّ في دم بولس وبرنابا مقتاً شديداً للوثنية. في ذلك الزمان كان أنبياء كذبة أمثال أبولونيوس تيانفس يجوبون تلك الأماكن ويجترحون العجائب الكاذبة، وكانوا يسمحون أن يعبدهم الناس كآلهة، وأن تقدّم لهم الضحايا. وكانوا يصوّرون للنّاس إنّهم آلهة لبست لباس البشر. لم تكن تيانا بعيدة عن هذا المكان. وقد جاء المسيح ليقضي على كل خداع وضلال. أخفق الرسول في خطابه الفوري ولم يُصب الهدف قد يكون سبب ذلك عدم تمكّن بولس وبرنابا من الدخول إلى نفسية هذا الشعب البسيط سريعاً ليس هذا بمستغرب فنحن حتّى الآن لا يمكننا أن ندرك نفسية قاطني جزر بحر الشمال. من الصعب أن نأخذ من الشعب دميته. صعب أن نسلب شعباً كبر وبقي طفلاً في معتقداته ومعبوده. أو أن ننكر عالم الخرافات التي نسجها حول ما يحب. الشعب البسيط شعب طيّب القلب غير خطر. إنّه يبقى كذلك إلى أن تقابله بتفسيرات تخطئ معتقده أو تأتي بخلقة جديدة تتحدّى ما يجسّده من أفكار. في هذه الحالة توقظ فيه غرائزه الطبيعية النصف نائمة وتدفعه للثورة. خطر أن نسمّي أفكاره خرافات، وخطر أن نبرهن أن عبادته للإنسان، وسط شعوذاته، شيء مضحك[٥١]. وفجأة يتغيّر الإتّجاه. «إذا لم يكونا آلهة فهم سحرة» لا حلّ ثالث غير هذا الحلّ بالنسبة لهذا الشعب. لا حاجة الآن إلّا وأن يأتي اليهود من إيقونيا ويحرّكوا النّار. إنّ الحكم كان جاهزاً في الواقع. جاء هؤلاء كالعاصفة. «نعم إنّهما مخادعان خطران وساحران مجرمان رجمها النّاس وهدّدوهما في كلّ مكان. إذا قبلتموهما فغضب زيفس سيحلّ عليكم. أصغى سكّان ليسترا إلى كلام اليهود الوشاة بكلّ طيبة خاطر.

بعد أن مرّت أيّام، عندما شعر بولس بضرورة الكلام شعر بأن الخواطر تغيّرت. كان الجو مشحوناً بالشعور العدائي، وكانت أصوات تتعالى بالضجيج مصحوبة بالصفير. اندفعت الجموع نحوه، وانهالت الحجارة تصفر فوق رأسه. فأصابه حجر في جبينه وتدفّق الدم غزيراً وجرت خيوط ثلمت وجهه فسقط أرضاً يغمره الدم، وعبرت فوقه الجموع تدوسه بأقدامها، بعد سيل غزير من الحجارة انهال فوق جسده. لقد انطبقت عيونه. لكنّه رأى بروحه مشهداً آخر. رأى مشهداً كان قد اشترك فيه شخصياً، ورأى وجهاً كأنّه وجه ملاك ينحني فوقه. عرفه بولس فتنفّس الصعداء. أمسرور أنت يا استفانوس؟ أوفيت موتك! كان موت استفانوس سرّ ألمه الدفين. كان يعيش دائماً في هذا الألم. إنّه يسمع صوتاً آخر يقول: أريد أن أدلل عليك أن تحتمل الكثير من أجل اسمي. حجر آخر ينهال فوقه ورفسة ثانية، وتضيع الصورة من أمام عينه الروحية. إنّ أيد قوية أمسكت به وجرّته خارج الباب ورمته جثّة لا حراك فيها على جانب الطريق.

أخذ القلق يساور قلب برنابا، وبيت تيموثاوس. تأخّرت عودة بولس، وكان على برنابا أن يبشّر في مكان آخر. وبعد مضي وقت قصير عرف من بعض المسيحيين المضطربين ماذا حصل لبولس. كان عليهم أن ينتظروا في البيت خوفاً من الشعب الغاضب وخوفاً من اليهود الذين ينتظرون في المدينة. وعندما حلّ الليل خرج برنابا والمرأتان وبعض المسيحيين ليبكوه. انحنى برنابا فوقه كما ينحني هيكل عظمي لشدّة ألمه، وحدّق إلى وجهه العاري المدمّى. ماذا يفعل بعد الآن؟ وكيف يعمل بدون هذا الصديق العظيم؟ رفعه الرجال على قدميه، وغسلت النسوة وجهه. إنّه لا يزال على قيد الحياة. لقد فتح عينيه. لم يكن ميتاً. أولئك يريدون أن يقتلوا ذاك الذي أعطاه الربّ ما أعطاه وحمله رسالة تاريخية عالمية لا يزال أمامه الكثير حتّى يحملها إلى نهايتها، يحتاجون إلى أكثر من ذلك.

نحن هنا أمام حادث يقود خيالنا إلى المقارنة. قبل عشر سنوات حضر بولس رجم استفانوس كشاهد. وكانت النتيجة أن ربحت الكنيسة في شخص بولس أشجع مجاهديها ومكافحيها. أمّا الآن فمن هو الشّاهد على رجم بولس؟ من هو الشّاهد لهذا المشهد الليلي؟ إنّه الفتى الخجول تيموثاوس. إنّ رجم بولس أعطى للمسيحية هذا الشخص وكان لبولس المساعد العظيم. رأى فيه بولس الإبن الحبيب. وكان يحبّه محبّة الإبن المختار. فصار فيما بعد تعزية الرسول في شيخوخته. يعقل أن يكون شعاع قد قفز إلى عقله في تلك اللحظة

أفهمه ما معنى أن تكون رسولاً وأن تتألم من أجل المسيح بعد عشرين سنة وكان تيموثاوس قد صار أسقفاً. كتب بولس لتيموثاوس مذكّراً بهذا المشهد «ما حدث في ليسترا وأيّة اضطهادات تحملت» (٢ تيمو ٣ : ١١). إن مراقباً بسيطاً سيقول إن شفاء المخلّع في ذلك الوقت كشفاء المخلع على درج الهيكل الذي حمل بطرس إلى السجن ذهب عبثاً. حكم مثل هذا الحكم مبني على نجاح وقتي حكم قصير المدى. التغييرات التي يريدها الله تستهدف آفاقاً أوسع. «اخفاقات عظيمة ستتوالى وستفسّر تفسيراً خاطئاً حتّى تنكشف جذوة جوهرها الحقيقي»[١٧].

لم يعد بإمكان الرسولين أن يبقيا هناك أكثر مما بقيا. كان من الواجب أن يؤمن على بولس من اليهود الذين كانوا لا يزالون في المدينة كان مضطراً قبل أن يرتاح ويلقى العناية الواجبة أن يغادر المكان هو وبرنابا على الغالب تيموثاوس في عربة كالعربات التي نشاهدها اليوم باتجاه دارفي الواقعة على بعد ثماني ساعات. إنّ آثار جراح الرجم بقيت ترافقه طوال حياته. إنّها آثار الآلام من أجل المسيح. إنّها سمات المخلص. عودة بخاطرنا إلى الماضي، إلى هذه الأمور ندرك في هذا الجو تلك الكلمات التي كتبها فيما بعد إلى أهل غلاطية : «إنّي حامل في جسدي سمات الرب يسوع».

أمام هذا الحادث الدّامي في ليسترا لا بدّ للمرء من أن يشعر بحراجة السؤال : ألم يتصرّف بولس تصرفاً غير لائق أمام هذا الشعب الخشن؟ ألم يكن مندفعاً فوق ما يلزم؟ كان عليه أن يستغلّ الظرف من أجل الإنجيل. من يفكّر هكذا فإنّه يجهل أهمية الحالة. بمثل هذه التأويلات صعب أن يفهم بولس. الوثنية هذا المرض المخيف أنزلت الألوهة إلى محيط بشري خالص وجعلت الضعف البشري في مستوى الألوهة وهكذا أمحت الحدود غير المتناهية بين الخالق والمخلوق. كان تأليه الأباطرة الرومانيين في ذلك الزمان في ذروته ولم يكن الإهتمام به في أيّ مكان كاهتمام آسيا الصغرى به، لم يكن بالإمكان شفاء الشر الأساسي في الوثنية إلّا إذا بشّر بعظمة الله بطريقة لا تعرف المواربة والإلتواء. إنّ بولس كالمسيح لم يكن يشعر بضرورة كبرى غير ضرورة العمل من أجل مجد الله والحفاظ على المسافة الكائنة بينه وبين سيده السماوي. من يعرف دقّة لوقا التاريخي وكم يكتب بدقّة وتأنٍّ يشعر فوراً أنّ لوقا يوازن هنا بين بولس وبين خيرودس انتيبا. ذاك يرفض أن يسجد له كاله، وهذا لسطحيته يقبل مسروراً أو بالأحرى يطلب أن يعبد كاله. إنّ ملاكاً عاقب هيرودوس. وكان بولس

واثقاً أن ملاك الرب سيضربه لو لم يعط الكرامة والتجلّة لله. فأصبح بشدّة انطلاقاً من شعوره بأنّه مخلوق، على القورنثيين الذين أرادوا أن ينصّبوه بطلاً من الأبطال. «مالكم ولاسمي هل تجزّأ المسيح؟ ألعلّ بولس صلب لأجلكم؟ أباسم بولس اعتمدتم؟ (١ قور ١ : ١٣). إنّ الرسول يعمل وفقاً لروح المسيح الذي يدفع كما هو الحال في المشهد المعروف عند (مرقص ١٠ : ١٨) وبصورة أضعف عند (متى ٢٣ : ٣٩) بعيداً عن كلّ احترام مستقل عن الله للطبيعة البشرية عندما ينادونه بالمعلّم الصالح ويجيب: «لماذا تدعوني صالحاً لا صالح غير الله وحده».

لا يمكننا إلّا وأن نغبّط الرسول على صبره وطول أناته وقوّة تحمّله عندما نعلم أنّه اجتاز أربعين فرسخاً بعد خسرانه لكمية كبيرة من الدم، راكباً عربة أكثر ما يقال فيها إنّها مخلّعة، في صحراء مالحة كان يقصد مدينة دارفي الجبلية القائمة عند نهاية حدود غلاطية. كانت قبلاً معقلاً للصوص وقد صارت الآن بفضل كلوديوس مستعمرة رومانية في سنة ١٨٨٨. بالقرب من كوندزيين اكتشفت بقايا من الأعمدة المرمرية والغرانيت وأجران من المرمر المحطّمة. إنّها بقايا دارفي، بقايا حزينة لماضٍ مفرح(٧٤).

لم يطارد اليهود الأخصام بولس لاعتقادهم أنّه مات وهكذا تمكّن الرسولان أن يؤسّسا بهدوء كنيسة من الوثنيين في هذه المدينة.

بما أنّنا نرى فيما بعد رجلاً يدعى غايوس كان تلميذاً ومرافقاً لبولس (أعمال ٢٠ : ٤) فمن الجائز أن يكون الرسولان قد استضافاه. كان على بولس أن يبقى في الفراش، طريحه لمدّة طويلة بالنظر للحالة التي كان عليها. إذا أراد المرء أن يحدّد بكلّ تأكيد المرض الذي أصابه والذي يتكلّم عليه في رسالته إلى أهل غلاطية (٤ : ١٤) فيمكن أن يعود إلى هذا التاريخ إلى دارفي. صار سرير بولس هنا منطلقاً مباركاً للعمل الرسولي المبارك. إن كنيسة دارفي المسيحية شأنها شأن الكنائس الثلاث الأخرى في غلاطية ولدت بالآلام. عندما كتب بولس إلى أهل غلاطية الذين حاولت الألاعيب اليهودية أن تعطّل إيمانهم وتشوّهه عندما كتب إليهم يقول يا أولادي الذين من أجلهم أتألّم حتى يتكوّن فيكم المسيح (غلا ٤ : ١٩) فإنّه يشير إلى الآلام التي كابدها من أجل نقلهم وتثبيتهم في الإيمان. في الحقيقة كان العمل من أجل قيادة بشر بسطاء إلى حرية أبناء الله شاقاً، فبشر كانوا يعيشون في عبادة

القمر والنجوم والكواكب هذه العناصر الضعيفة يصعب نقلهم فوراً وبسهولة. إنّهم يحتاجون إلى ولادة جديدة، يحتاجون إلى ألم الولادة. إنّهم يحتاجون إلى أمّ تخرجهم من الرحم المظلم إلى عالم النور، إذا قرأ المرء رسالة بولس إلى أهل غلاطية فإنّ فكرته عن بولس كمتعصب لا يتأثر تنقلب رأساً على عقب، ويؤخذ بعمق صراعه القوي، وبروح تتآكلها لهب التفاني والمحبّة، وسيدرك آنذاك الألم العميق الذي يتفجّر من رسالته إلى أهل غلاطية. إنّها صرخة أم يريدون أن يحرموها من أحبّ شيء في العالم إنّها صرخة أم ينزعون منها الأحشاء.

يمكننا أن نقول إن عمل الرسولين في مدينة دارفي دام مدّة سنة كاملة وأنّ هذا العمل تجاوز المدينة إلى الضواحي الجبلية حول بحيرة الشاكول حتّى هيرقليا القديمة[٥٠]. يستدلّ من حماس الكنائس ليسترا، إيقونيا وأنطاكية بسيديا، الذي أظهروه للرسول بولس عند عودته لزيارتها إنّ بولس لم يترك الكنائس التي أسّسها روحياً بل استمرّ على اتصال بها بواسطة تيموثاوس الذي كان يحمل إليها كلّ ما يريده الرسول منها روحياً. كان تيموثاوس مدار إعجاب الكنائس كما يظهر من عواطف هذه الكنائس التي أعربوا عنها للرسول. كان تيموثاوس الرسول الحامل إعلان ارادة معلّمه (أعمال ١٦ : ٢). إذا فكّرنا أيضاً في أنّ كبادوكيا وايسغريا المجاورتين أخذتا نور الإنجيل من لكأونيا يمكننا أن نتصوّر ولو قليلاً العذابات التي تكبّدها الرسول من أجل البشارة. إنّ بولس نفسه يعطي لهذه الآلام معناها الرفيع فيسميها استعاضة آلام جسد المسيح أي الكنيسة (كولو ١ : ٢٤)، غير أنّ القدر لهذه الكنائس الغلاطية تحذير جدّي للمسيحية قاطبة في كلّ العصور. أين هي الكنائس العظيمة التي أسّست بهذا القدر من العرق والآلام التي لا يعبّر عنها؟ من هو المسؤول عن هذه المأساة العميقة للكنائس المسيحية في آسيا الصغرى وأرمانيا وشمالي افريقيا السبب الأولي والأساسي هو الإنحراف عن روح المسيح وعن روح أعظم رسله. والثاني تركها للريح أن تذري تحذيرات الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية وتهديدات الإنجيلي يوحنّا في الرؤيا ولأنّهم باعوا أنفسهم لعبادة الحرف والمظاهر الخارجية والمجادلات البطّالة والعادات الإقليمية ولأنّهم انقطعوا عن النبع الوحيد للتجسّد «إذا فسد الملح فماذا يملّح» (لوقا ١٤، ٣٤ متى ٥، ١٣ مرقس ٩، ٥٠) وهكذا مشت جياد الرؤيا الخضر قبباً تحمل راية الموت فوق المسيحية التي تحوّلت إلى صحراء مالحة.

كانت قد مرّت أربع سنوات على ترك بولس وبرنابا الكنيسة الأم السورية. في

الظروف الحرجة . كان الحنين ينفخ في صدرهما ذكريات أخوتهما . وكانا من حين إلى آخر يرسلان بعض أخبارهما مع رئيس قافلة أو تاجر عابر ليعلّماهم أنهما لا يزالان على قيد الحياة . من يدري إذا كان بولس وهو على سرير أوجاعه ما ألقى نظرة حنين نحو الجنوب هناك وراء جبال طوروس على بعد مئتي فرسخ يقوم بلده المحبوب طرسوس كان بإمكان المبشّرين أن يصلا إلى وطنهما بعد عدة أيّام أما عن طريق أبواب كيليكيا أو أبواب سوريا . إلّا أن تبدّل الحكّام الذي حصل في بعض المدن قضى على بعض المخاطر لذلك عادا بنفس الطريق لزيارة الكنائس التي بنيت حديثاً قياماً بواجب الرسالة . ابتدأ الآن العمل التنظيمي . فساما في كلّ مكان شيوخاً ومعلّمين للكنيسة . كان عليهما أن يجدا الطريق الصحيح والتوازن بين نوايا اليونانيين والغلاطيين ومحبّتهم للحرية من ناحية وضيق صدر اليهود المسيحيين من جهة أخرى . كان عليهما أن يفسّرا أكثر المبدأ الإنجيلي «علينا أن ندخل إلى الملكوت الإلهي بأحزان أكثر» بعد الخدمة الوداعية في أنطاكية بسيديا اتجها نحو بارغي بعد أن اجتازا شلالات طوروس الهادرة .

هنا تأسّست آخر كنيسة فعادا يحملان رايات الظفر والغلبة على سبعة معاقل ربطاها إلى جانب المسيح ، سالمينا بافوس أنطاكية ايقونيا دارفي وبارغي . بيد أنّ بولس حمل كسباً آخر من رحلته التبشيرية هذه . تعلّم أن يلجم اندفاعه القلبي وطابعه الناري تحت تأثير الآلام وأن ينحني تحت نير وداعة المسيح ويحوله إلى صبر جلود .

٤ . النضال في سبيل الحرية

١٨ . موسى أو المسيح

(أعمال ١٤ : ٢٧ — ٢٨ ، ١٥ : ١ — ٢)

كانت أصداء وديان طوروس وترحيباتها لما تزل تتراجع في أذني بولس وبرنابا بعد غياب أربع سنوات. لقد عادا كقائدين مظفّرين ومرّا في سلفكيا وسط البساتين النديّة وأحراج البلح واجتازاها وكان منتهى مطافهما مدينة العاصي أنطاكية. كما استقبل كولومبوس ورفقاؤه عندما عادوا إلى وطنهم بعد سفرة غنية بالمغامرات هكذا استقبل المؤمنون والشيوخ هذين الفاتحين لطريق الإنجيل. ظهرا لهم كأنّهما عائدان من صحراء. كل شيء كان هنا قريباً إلى القلب جميلاً إذا قيس بأماكن لكأونيا الموحشة. بدت دلائل الشيخوخة على وجهها، وكانت آثار العذابات بادية عليهما. «يا بولس من أين لك هذا والآثار فوق وجهك» عندما انتهى الإستقبال جلس الرسولان مع شيوخ أنطاكية جلسة طويلة سمعوا خلالها عن سير العمل في أنطاكية. كيف أعمالكم؟ قصّ الشيوخ على مسامعهما كلّ ما جرى معهم وقالوا إنّنا لم نكن بدون عمل. أصبحت سوريا كلّها حتى أعالي جبال أمانوس وحتّى الدّاخل من كيليكيا معقودة الجبين بأكاليل الكنائس الجديدة المنيرة (أعمال ١٥ ، ٢٣). كيف تسير الأمور مع المسيحيين الذين هم من أصل يهودي؟ تطلع الشيوخ في وجوه بعضهم بعضاً والحيرة تعقد لسانهم أيتكلّمون أم لا. الأخوة في أورشليم لا يفهمون أوضاعنا فإذا استمرّت الحالة على هذه الصورة فسيكون الموقف حرجاً جداً. إنّهم لا

يعترفون بشبابنا الجدد الذين هم من أصل وثني كمسيحيين. كان من الضروري أن يقبلوا شريعة موسى قبل أن يعتمدوا. إذا لم نتدارك الأمر فإنّ الكنيسة ستنقسم إلى قسمين[٥١]. كان هذا القول كسمّ مرّ سقط في كاس الأمسية الأولى بدلاً من نشوة الفرح. رأى بولس أنّ عمله مهدّد بأساسه إذا استتبّ هذا الإتّجاه فإمّا أن يكون على حساب عمله أو أن يحدث انقسام.

أصبحت المشكلة التي تخوّف منها منذ زمن طويل مطروحة أمامه بكلّ اتساعها القضية مع المرتدين الكاملين لا تشكّل صعوبة إلّا أنّ مشكلة الأكثرية من مسيحيين من أصل وثني ومسيحيين نصف مرتدين «الخائفو الرب» وكانوا على اتصال سيء مع اليهودية. فتعليق قبول دخولهم إلى الكنيسة عن طريق الختان والحفاظ على شريعة موسى يعني تضييق الكنيسة وجعلها مجمعاً وهذا لا يعني إلّا نكران جامعية الخلاص. إنّ قبولهم في الكنيسة كنصف مسيحيين ستكون نتيجة بالنسبة للمسيحيين من اليهود والمرتدين الكاملين خلق دائرة ضيّقة ودائرة فسيحة وسط الكنيسة، أي تحديد طبقة من المرتدين في الكنيسة وهذا يعني أيضاً أن المسيحية ديانة عنصرية تقوم قيمتها على أساس من الدم اليهودي كما يعني أيضاً بنيان الحائط القديم الفاصل في الكنيسة الجديدة، وبنيان شيع مسيحية بقبولهم في الكنيسة، وفي الوقت نفسه منعهم من الجلوس حول المائدة المشتركة. إنّ هذه القضية دينية واجتماعيّة أيضاً. أدرك بولس حدّة الموضوع كاملة وأدرك أنّ حلّه ملقى على عاتقه. من الجنون أن نعتقد أنّ بولس الذي فتح طريق الإنجيل في العالم داعية للعنصر اليهودي. إنّه الدّاعية لكنيسة مسكونية تظهر بوضوح في دعوتها الأنطاكية. كيف كانت تنظر أورشليم إلى هذه القضية؟ كان لا يزال في الكنيسة الأورشليمية الكثيرون من التلاميذ، الذين يشهدون أنّ المسيح ولد تحت الشريعة، وأنّه كان يحافظ عليه، ولو من الوجهة الروحية، وأنّهم سمعوا من فمه يقول: إنّه لم يأت لينقض الشريعة، أو نقطة واحدة، أو حرفاً منها. التلامذة الذين كانوا يعتبرون الختان رمزاً لأوامر السبت، والأكل والابتعاد عن الأوساخ الوثنية، وإنّه هو الوحيد المعتبر أجمل ميراث ورثوه، التلامذة الذين كانوا يعتبرون المسيحية الشكل الأكثر روحانية لعاداتهم القديمة، وأجمل أيّام اليهودية نمواً وازدهاراً كانوا يقولون: أيجب أن يموت فوراً الجذع الكريم الذي منح العالم أسمى شيء؟ أيجب أن يموت لأنّ ثمرة نضجت أكثر منه؟ كان هؤلاء يفكّرون في ذلك[٢٦].

من شهادة أعمال الرسل الواضحة نتأكّد أنّ الرسل الأوّلين في أورشليم ما كانوا يمثّلون وجهة نظر ضيّقة فاصلة عندما لم تعد ديانة أنبياء العهد القديم ديانة عنصرية بإعلان المسيح لها ديانة جامعية وبإرساله تلامذته للتبشير بها في العالم كلّه. لا يجوز لنا بكلّ تأكيد أن نقول إنّ الكنيسة الأولى في أورشليم نسيت كلّ هذه الأمور وأنّها لا تستطيع أن تخرج خارج حدود اليهودية. أعلنت عيد الخمسين كحادث له أهميته وفقاً لنبوّة يوئيل وله طابعه المسكوني، لم يرد المسيح أن يحمل الخلاص بدون أن يرتبط تاريخياً بشخصه، بل أراد أن يظهر كمتمّم للوعد الخلاصي الذي قيل عنه في العهد العتيق والكنيسة التي أسّسها هو يجب أن تصبح لكلّ البشرية الممثّلة للحقائق الخلاصية(١٩).

إنّ الصعوبة تقوم في أنّ الناهض من بين الأموات الذي أعطى الأمر بالبشارة بين الأمم، لم يعطِ التعليمات المتعلّقة بقبول الوثنيين في الكنيسة. إنّ الأحوال التي كان على الرسل أن يقوموا بدعوتهم التبشيرية فيها، كانت صعبة الإدراك. لم يكن واضحاً إذا كان ما تعلمه بطرس من رؤياه، بدءاً لقاعدة عامة، أم حادثة فريدة فقط. لقد قبلت الثّانية. علينا ألّا نحكم بكثير من القسوة على كنيسة أورشليم لتردّدها في قبول المؤمنين من الوثنية كأعضاء متساوين في الكنيسة. كانوا يريدون أن يبحثوا القضية بحثاً مفصّلاً شاملاً في كلّ نواحيها وأن يتركوا التوجيه لله. هذه كانت وجهة الرسل في أورشليم. كانوا يحافظون على شريعة موسى بدون اهتمام زائد به، بدون خيلاء كما كان يفعل الرب. كانوا يعرفون أنّ الخلاص لا يتمّ إلّا بيسوع المسيح. إنّ أصعب مرحلة لديانة جديدة هي مرحلة البداءة، عندما تخلق سبل انقلابية جديدة لحقائقها وعندما تكرس عبادتها لأوّل مرّة. كانت العادات التقوية في شريعة موسى تحوّرت باعتناء كلّي لذلك كانوا يحتفظون بها موقتاً. حتّى بطرس كان يصمت وكان يؤجّل البتّ في الموضوع على قدر المستطاع.

شذّ عن هذا الخطّ الحكيم أكثر المسيحيين من أصل يهودي وخصوصاً المنتمين إلى صف الفريسيين. بالمعمودية تركوا الوشاح الفريسي أما روحه فلا(٥٠). تحت تأثير هؤلاء الرجال في أورشليم أخذت المسيحية تعود تدريجياً إلى اليهودية القديمة وتدريجياً صاروا سوطاً لكنيسة أورشليم وكانوا يخيفون حتّى الرسل. من ناحية يمكننا أن نعطي بعض الحقّ لليهودية. إنّ اليهودية بالرغم من الفوضى الكثيرة لم تبتعد عن الله لدرجة أنزلت فيها الله الذي انكشف في العهد القديم إلى درجة إله اليهود أو إله عنصري. لو كان الأمر كذلك

لكان على المسيحيين من أصل يهودي أن ينكروا كلّ الأنبياء. إنّ خطأهم الأساسي يقوم على أنّ الوثنيين لا يملكون الحقوق التي لليهود بالرغم من اعترافهم بأنّ الله كان إله الوثنيين، وبأنّ مسيا كان ملكاً لكل البشرية، وأنّ الوثنيين هم أعضاء في هذا الملكوت. فوحدانيتهم وشريعتهم الخلقية يتركونهما بكلّ طيبة خاطر للوثنيين، أمّا الرجاء في مسيّا فميراث عنصري لسبطهم. المواطنون الكاملون هم فقط نسل ابراهيم أو أولئك الذين صاروا بالختان أعضاء مختارين في شعب الله المختار. الشريعة والختان هما كسرّ يهب الخلاص، أمّا الدم والأوامر الطقسية في شريعة موسى فواسطة لخيرات المسيح. إذن فالمسيحية نهاية فقط، قمّة لليهودية، وهكذا يصبح جوهر المسيحية الخلاص بالمسيح مشكلة.

إنّ أكبر دفعة لقيها هذا الإتّجاه كانت على يد يعقوب الحديث بشخصيته المحترمة فهو أقرب مقرّبي الرب وكان الجميع يعتبرونه قائداً، كانوا يعتبرونه أسقفاً لأورشليم وإن لم تكن هذه الكلمة قد وجدت بعد (تاريخ الكنيسة، أفسفيوس ٢، ٢٥). إنّ يعقوب كان أحد الأخوة الأربعة للرب الذين قاوموا الرب في البدء لجهلهم رسالته (متى ١٣ ؛ ٥٥ مرقس ٣ ؛ ٢١، يوحنا ٧ : ٥) وأخيراً انفتحت أعينهم. كان يعقوب يعرف أن يوفّق بين المحبة ليسوع والحفاظ على الشريعة والنّسك الصّارم. كان شعره يتساقط جدائل طويلة لم يمسس شعر رأسه مقصّ ولا مسّت جسده نقطة عطر. كانت حياته أسطورة وهو لما يزل حياً. بقي كلّ حياته ناصرياً يصعب علينا أن نتصوّر ما أحدثه هذا الإنسان من الأثر على معاصريه من اليهود والمسيحيين، بلباسه وطريقة حياته حتى لو كان نصف ما يذكره التقليد حقيقياً. يذكر التقليد أنّه ما كان يلبس نعلاً ولا ملابس صوفية وكان يلبس ملابس كتانية لذلك كان يحقّ له أن يدخل إلى قدس الأقداس وكان هذا ممنوعاً على العلمانيين. كان بتولاً هذا الأمر يتعارض مع (١ قورنثية ٩ : ٥) ولا يأكل الأعشاب ولا يشرب الخمرة وكان يقضي السّاعات الطوال في الصلاة راكعاً في الهيكل، ويقال إنّه كان يقضي كلّ أيّامه كإرميا في الهيكل مصلياً من أجل توبة الشعب ومن أجل إقصاء القصاص عن أورشليم. كانوا يسمّونه الصديق وحامي الشعب يكفي أن يمدّ يده نحو السماء حتّى يجترح العجيبة لأنّ الأتقياء عندما يريدون يمكنهم أن يخلقوا عالماً كاملاً استناداً إلى قول المسيح: «كلّ شيء مستطاع لدى المؤمن» (مرقس ١٠ : ٢٧، ٩ : ٢٣) وكان ذلك آخر تجسيد وأنقاه لتقوى العهد القديم قبل أن تضمحل وأصدق تعبير للعنصر الديني اليهودي. وبكلمة واحدة كان شكلاً من أشكال الإبائية في العهد القديم وفي الوقت نفسه للعهد الجديد. لم يكن لا

الصديقون ولا الفريسيون يجرأون على مسّه حتّى ولا هيرودوس أغريباس. عندما ترك جميع الرسل المدينة بقي وحده هناك واعتنق العدد الكبير من الفريسيين المسيحية بسببه ومنهم كهنة على مختلف رتبهم وكانوا يخدمون في البدء ككهنة مسيحيين ويهود. في الخارج كانت كنيسة أورشليم تظهر كهرطقة يهودية تقوية وكان العالم يجهل كلّ شيء عن صوفيتها الدّاخلية وعن حياتها الشكرية. يظهر أن اتّجاه استفانوس المتحرّر قضي عليه كلياً. كان وريثه الروحي الوحيد بولس.

وسط أمّ الكنائس يعقوب تحلّقت فئة متعصّبة حتّى التزمت. عندما نقل لهذه الفئة أنّ بولس وبرنابا عادا وأنّهما أسّسا كنيسة كبرى مؤلّفة من مسيحيين من الأمم وأنّ تفكيرهم صار مقبولاً في كنيسة أنطاكية أرسل يعقوب بعض ممثّليه خوفاً من استغلال اسمه إلى أنطاكية واستقبلت هذه الفئة استقبالاً رائعاً من قبل الشيوخ أو المتقدّمين وذلك لأنّ وراءهم يقوم ظل لرجل عظيم ولكن أخذوا في أنطاكية يشعرون بشيء من البرودة عندما رأوا أنّ القادمين أخذوا يغسلون أيديهم بعد أن يسلّموا على المسيحيين الذين هم من أصل وثني وأنّهم كانوا يرفضون كلّ دعوة إلى بيوتهم. وكان الجلوس على طاولة واحدة مع مسيحي لم يختتن ممنوعاً. وأكثر من ذلك. حتّى الأكل من قصعة واحدة كما هي عادة الشرقيين كان ممنوعاً. هؤلاء البشر لم يتنسّموا قطّ رائحة الروح الذي نسم في يوم الخمسين. كان هؤلاء يرون الخطر في كلّ مكان. وعندما أكلوا في عشاء السبت على طاولة منفردة وصرّحوا أمام جماعة كنيسة أنطاكية «إذا لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا». هبّت الزوبعة. كانت زوبعة شديدة وهذا ما حدا بلوقا ليتكلّم على ثورة (أعمال ١٥ : ٢). كان بولس وبرنابا يلقبان المسيحيين الذين هم من الأمم بالقديسين المختارين أولاد الله المواطنين ومن أهل البيت بينما كان هؤلاء الأتقياء القادمين من أورشليم يعتبرونهم غرباء وسخين دخلاء وكان يحرمون عليهم المسيحية. عبثاً كان بولس وبرنابا يقولان إنّ هذا النوع من المعاملة ظلامة وخصوصاً في حياة مشتركة وإنّ هذه الطريقة لا تساعد على اجتذاب الذين في الأمم إلى المسيحية وخصوصاً والعالم اليوناني يعتبر الختان شلكّ وسخرية. كيف يمكن بهذه الطريقة أن تخلق حياة اجتماعية؟ إنّ الختان للكبار عملية خطرة ولا تسمح بالدخول إلى الحمامات. توصّل بولس أن يقول (١ قور ٧ : ١٨) إنّ بعض اليهود يريدون بعملية جراحية أن يقضوا على سمات أصلهم. تعتبر شريعة موسى أنّ الزيجات المختلطة زنى وجريمة فإذا كان أحد اليهود الذين آمنوا بالمسيح تزوّج بامرأة أو

أراد أن يتزوّج بمسيحية من أصل وثني عليه أن يقبل بأن يسمّيه النّاس بأنّه يزني. كانت قضية الطعام قضية وجدانية. لكي يكون الإنسان طاهراً عليه أن يشتري من لحّامين خاصين وأن يسأل كلّما دعي إلى الطعام من اين اشترى اللحم (١ قور ٨، ٤، ١٠، ٢٥)[٣٠]. وبكلمة واحدة يجب أن ينفصل الإنسان اجتماعياً ويقيم بينه وبين الآخرين جداراً سميكاً. بهذه الطريقة تصبح المسيحية هرطقة صغيرة لا ديانة عالمية. إنّ ممثّلي أورشليم لا يفتحون باب مشكلة اجتماعية بل يحفرون هوّة عقائدية. فالمقصود في الأخير يخلص الإنسان بالشريعة أم بنعمة المسيح؟ ذهبت كلّ محاولة أدراج الرياح وكان من الصعب التغلّب على التطوّرات اليهودية السّابقة والتربية اليهودية.

مع ذلك نسم نسيم الروح القديس وسقط الإنفصال. إنّ الله أعطى الرسل حكمة وثباتاً وبنعمته صار بولس آلته المختار ليتمّ العمل الذي كان ضرورياً لتشكيل الكنيسة المسكونية الحقيقية. يجب أن يصدر قرار سريع عن سلطة أورشليم العليا. وقد عيّن بكشف من الروح ليكون بولس عضواً في الرحلة (غلا ٢، ٢). السفرة قرّرت بالنسبة لبولس شيئين: غلبة الحرية المسيحية والإعتراف برتبة رسوليته من أمّ الكنائس لقد حاز الإثنين.

١٩. المجمع الرسولي

(أعمال ١٥: ١— ٣٤)
(أنظر غلاطية ٢: ١— ١٠)

في هذه المرّة، نرى إنساناً شاباً مجهولاً حتّى الآن في رفقة بولس. إنّه تيطس الأنطاكي الذي كسبه بولس مؤخراً إلى المسيحية. كان بولس يعقد الآمال الكبار على هذا المرتد. كان يرى في شخصه أصدق وأكبر معاون له، وكان يجنده للأمور الجسام (٢ قور ٧: ١٠). صحب بولس تيطس «كبرهان حي للثمار المكرمة التي نضجت في حقل الكنيسة التي للأمم»[٥٠]. كان تيطس لبولس كراية من رايات الظفر. وكان بولس يعتقد أنّه من الصعب أن تقاوم شخصية جذّابة كتيطس، وقد دعاه مرّة «ابناً مخلصاً للإيمان المشترك»

(تيطس ١ : ٤). هذا المسيحي من الأمم، سيصاب بولس بالخيبة عندما يصطدم بالحقيقة.

كانت السفرة في الخريف من السنة الثّامنة والأربعين على وجه التقريب، كانت مسيرة مظفرة، زاروا في فينيقيا الكنائس التي هناك، كنائس صور وصيدا وبطلمايس وقيسرية، ثم توجّهوا إلى الدّاخل بطريق السّامرة واليهودية. كانوا يستقبلون بحماس في كلّ مكان، وكان المسيحيون يصغون بحماس إلى أخبارهم عن انتشار المسيحية بين الوثنيين وبعض مضي عدّة أسابيع وصلوا إلى أورشليم. لو قورنت هذه البعثة ببعثات الكنائس فيما بعد إلى المجامع المسكونية لكانت المقارنة باهتة. ومع ذلك لم يتّخذ أيّ مجمع مسكوني من القرارات ما اتخذها المجمع الرسولي. إنّ هذا المجمع كان من ناحية أخرى قاعدة لكلّ المجامع التي تلته ولولا هذا المجمع لما انعقد مجمع.

كانت كنيسة أورشليم مؤلّفة من ثلاث طبقات: الرسل، مجلس الشيوخ، والأخوة. ثلاثة من الرسل تميّزوا كأعمدة بطرس ويوحنا ويعقوب. كان الجو مكهرباً. إن احتفالاً دينياً سبق انعقاد المؤتمر، كما سبقته مائدة المحبة وسر الشكر الإلهي. أصغى أعضاء الكنيسة بكلّ انتباه لما رواه المبشّران. وعندما انتهى شريط الأخبار التبشيري وافق كلّ من في القاعة على كلّ ما قالاه عن ارتداد الوثنيين. وهذا كان النقطة الأساسية في الملكوت الموعود، إلّا أنّ أتباع شريعة موسى وفئة الفريسيين، وكان له من الأتباع عدد كبير، وتأثير عظيم، وافقوا على مضض ونزلوا عند إرادة الأكثرية بيد أنّهم طرحوا القضية التي لا يمكن تخطّيها فظهرت الهوّة بعمقها واتساعها دون أن يكون هناك جسر يربط بين طرفيها. ولم يكن للقول بأنّ إرادة الروح القدس تأمر بذلك، أي تأثير على رؤوس متحجّرة. كانت هذه الفئة تصرّ وتقول «على الوثنيين أن يختتنوا وأن يحافظوا على شريعة موسى» واعتبرت أن أصطحاب بولس لتيطس إلى هذا الإجتماع يشكّل تحدياً، وطلبت أن يختتن، طلبوا أن يجري عليه الإحتفال الدموي. هذا المطلب وضع تيطس في موقف حرج ويشعر المرء أن الإجتماع كان محتاجاً إلى كثير من الصلاة وإلى التفكير الهادي الرصين قبل اتخاذ قرار حاسم. ابتدأ الإجتماع مهيباً وانتهى صاخباً فانفرط عقد المجمع دون أن يتّخذ أيّ قرار بهذا الصدد. في الخلوات الضيّقة المحدودة الدوائر نجد الحلّ.

في رسالته إلى أهل غلاطية (٢، ٥) يكتب بولس ويقول بأنّه لم يتراجع قط أمام

المطلب بضرورة ختانة تيطس. من تكوين الآية يشعر الإنسان أنّ بولس ظلّ واقعاً تحت تأثير تلك الحادثة مدة طويلة. يقول البعض إنّ الأخطاء الغراماتيقية[1] التي تظهر في هذه الآية إنّما هي نتيجة للشعور بعاطفة ظفرية تجاه اندحار مفيد لذلك فقد سيطرته على القواعد الغراماتيقية. إنّ لوقا وفقاً للروح المحبّ الذي يهيمن على كتابه يتحاشى من ذكر هذه الرواية عن تيطس خوفاً من أن يمسّ شعور قريبه. يجابه بولس المشكلة كما يأتي: القضية الأساسية هي: هل كان الختان ضرورياً لخلاص الإنسان؟ وهل كانت الطريقة التي اتّبعها في البشارة صحيحة؟ يجب أن يؤخذ قرار في هذا الصدد على أساس عقائدي. هذا قسم من قضيّة كبرى أي إذا كان الخلاص يتأتى فقط من نعمة المسيح. إذا حلّت هذه المشكلة يمكنه أن يقبل بصورة استثنائية ولمرّة واحدة بالختان دون أن يكون قد خان نفسه والإنجيل وخصوصاً إذا ظهر أنّ هذا التفكير أرصن بالنسبة لسلام الكنيسة ووحدتها. هكذا جابه الرسول قضية تيموتاوس. وهكذا فمشكلة ترك الباب الواسع للحرية البشرية أو تضييقه هي من أحلك الأحاجي في القيادة الإلهية للكنيسة. ألا يترك لنا التاريخ الكثير من هذه الأحاجي؟ لا يمكننا أن نفعل هنا أفضل مما فعله المعلّم الإلهي الذي سبق فرأى ما سيجري بوضوح فصلّى إلى أبيه ليكون الكلّ واحداً فإذا لم يتحقّق ذلك فليبعد عنّا التجربة، ليبعد عنّا الشكّ لقيادته الإلهية وستكون النتيجة خيرة حتّى لو بقيت طريقة التحقيق سراً من الأسرار.

اغتنم بولس الفرص الزمنية التي تخلّلت الإجتماعات وتحدّث مع الرسل الثلاثة البارزين. في رسالته إلى أهل رومية يسمّيهم ثلاث مرّات البارزين لا يميّزهم عن بقية الرسل الأوّلين بل ليسخر بطريقة خفية من أولئك الذين كانوا يشكّون في رسوليته. كان على الرسل أن يقتنعوا بأنّه كان يعمل وفقاً للإنجيل. هؤلاء لا يستطيعون أن يضيفوا أو أن يحذفوا شيئاً. فلقب رسول الأمم الذي أراد بولس أن يعترفوا به اعترف به رسمياً. بهذا الإعتراف اعتبرت رؤياه في دمشق معادلة لدعوة الرسل الأولين وللظهورات الأخرى للنّاهض من بين الأموات. في أحاديثه اتفق على فصل مناطق البشارة فبولس يبشّر «في الأمم». كان الجميع متّفقين على أنّ الخلاص يأتي فقط من نعمة المسيح. وقد أعطي الرسل الثلاثة موافقتهم على فصل مناطق التبشير. فكلّ رسول أخذ الأمر من السيد ليبشّر كلّ

---

[1] — علم الصرف والنحو والعروض والتهجئة.

العالم. لو لم يلتق هؤلاء الرسل مع بولس لكانت العواقب مجهولة إلّا أنّ محبّة المسيح التي كانوا يخفونها في قلوبهم كانت أقوى من كلّ الخلافات.

جاء اليوم الحاسم. بعد أن تكلّمت الفئات العديدة ما يكفي، وقف بطرس في الوسط وتكلّم. كان كلامه رائعاً. إنّه لا يستشهد ببولس بل بخبرته الرّائعة الشخصية وبولوجه بشخصيّته إلى الأهداف الإلهية. حدّد المشكلة بصراحة ووضوح في ثلاث نقاط: ١ ــ الله ذاته هو أول من أخذ زمام المبادرة في هذه القضية عندما أصدر أمره وطلب مني تعميد كورنيليوس الوثني. ٢ ــ الشريعة القديمة لا يمكن أن يحافظ عليها ضعف الإنسان الخلقي. ٣ ــ الخلاص هو القضية الوحيدة التي تستهدف حرية عمل النعمة الإلهية.

بهذه الموعظة تمهّد الطريق وصارت القلوب مواتية لتقبل وجهة نظر بولس وبرنابا. ترك بولس برنابا عن حكمة ليتكلّم أولاً. إنّ برنابا هو الرجل الموثوق في كنيسة أورشليم. يكفي أن يفسحوا في المجال لتتكلّم الأشياء. الروح القدس لا يميّز في توزيع مواهبه، أي قواه النبوية والعجائبية. لا يجوز أن يقفل الإنسان الباب الذي فتحه الله بذاته إذا كانت موعظة بطرس للفئة المتهوّرة ضربة قوية فإن ورقة لا تزال في يدهم يعولون عليهم ويركّزون عليها كلّ آمالهم: إنّها «قيصرهم السري. إنّه يعقوب. لم يتمكّن بولس أن يرى يعقوب ليتكلّم معه إلّا قليلاً. ولهذا لم يتمكّن من أن يدخل إلى سر هذا الإنسان. كان رجلاً صامتاً لا ترى في وجهه ما ينمّ عمّا يجول في داخله من الأفكار. كان جالساً بهيئته الرسمية ورصانته الحلوة. من هذه الهيئة النسكية الصفراء ينبعث عالم من الجلال. وكانت الفئتان تنتظران. وقد حبستا أنفاسها، لتسمعا صوته. قال بكل بساطة إنه من رأي بطرس. أي إنّ الله يريد أن يخلّص بكلّ تأكيد كلّ البشر، وأنّه كإنسان من نسل داود يستشهد بالنبي عاموس الذي تنبّأ عن الملكوت الوعدي من أجل كلّ الشعوب. إرادة الله أن يكون للوثنيين الحقّ بالعودة إلى الله. إن الشريعة الموسوية ومحورها الختان خسرت قوّتها وحقوقها، إلّا أنّه أشار بما يلطّف جو المتهوّرين وقال: إنّ لا خطر على الشريعة، إذا كانت هناك فئة بارة من البشر يقرأونه في المجمع، ويحقّقون مثاليته ولكي تصير العلاقة ممكنة بين الفئتين. بهذا يكون قد قدم يعقوب حلاً وسطاً يمكنه أن يكون مقبولاً من الإنطاكيين. ولكي يجعل التقارب سريعاً اقتراح أن تكون المحبّة هي الرّابط بين الفئتين. فلا يحتقرن المسيحيون الذين من الأمم المسيحيين من اليهود وخصوصاً فيما يتعلّق

بالأمور الثلاثة وعليهم أن يبتعدوا عنها : ١) ألّا يشتركوا في ذبائح الأوثان التي تفسح لهم في المجال ليعاشروا أصدقاءهم وأقاربهم . ٢) أن يبقوا بعيدين عن الأدناس الجسدية التي هي عبادة وثنية تفرضها طقوسهم وتتمّ في الهيكل تزانياً كأمر عادي عند الوثنيين. وبهذا لا يقصد فقط التزاوج الممنوع على مستوى درجات القربى بل الإتصال الدّائم عند الوثنيين بالزواني وبالأمر الذي هو ضد الطبيعة. ٣) أن يحافظوا على بعض الأوامر في الأكل أي أن يستعملوا لحماً نظيفاً : آ— أي لا يجوز أن يأكلوا لحماً مخنوقاً أي لحم حيوان لم يذبح قانونياً. ب— «الدم» أي لحم حيوان لم ينزف كلّ دمه. [٩]. إنّ اليهود كانوا يشعرون بالقرف الشديد من اللحم المخنوق وكان هذا ميزة من ميزات شعوب القبائل السّامية على اعتبار أنّ روحاً سرية تكمن في الدم، الروح ذاتها وكان الكثير يؤمن أنّ الشيطان يحب أكل الدم وكانوا يخشون أن يأكلوا الشيطان إذا هم أكلوا لحماً بدمه. (أورجين ضد كلسوس)[٧٨]، وكان القرف من أكل بعض الحيوانات منتشراً بين كثير من الشعوب. من الغريب أن يقع إنسان قوي كيونيناتيوس تحت تأثير عواطف العصر المسيحي اليهودي ولا يستطيع أن يتحرّر من هذا التأثير، كان يشكّ في عادات أهل وطنه الألمان القديمة البريئة، وقد استفسر من رومية إذا كان يستطيع أن يأكل لحماً أو شحم الخيل أو الوز أو الدجاج.

تمكّن الرسل أن يسمّوا بالجدل من المحيط البشري الضيّق الوضيع الى المستوى حيث يمكن أن يعمل الروح القدس. كان شعور المجتمعين أنّهم يقادون من فوق قوياً جداً والرسالة إلى أهل أنطاكية تعبّر أسمى تعبير عن هذه الحقيقة : «تراءى للروح القدس ولنا» ظهرت الميزات الأربع للكنيسة بصورة رائعة. بقبول الكنيسة للوثنيين بدون قيد أو شرط دللت على أنّها جامعة رسولية. وبابتعادها عن الوثنية ولجمها للشهوات الجنسية الولادية زنرت جبينها بإكليل القداسة البهي رباط الوحدة والمحبّة يجب أن يقبل ضرورة إرسال بدل المحبة من قبل الإخوة الأغنياء في الكنائس الجديدة إلى أمّ الكنائس أورشليم. إن بولس الذي ساهم في انهيار أم الكنائس اقتصادياً يشعر الآن أنّه يستطيع أن يصلح خطأه ولهذا نرى أن الضريبة من أجل كنيسة أورشليم تلعب دوراً هاماً. إن سير المجمع كان مثالياً من حيث تمازج العنصر المادي والروحي. يجب أن يكون التطوّر وسط الكنيسة بالحيوية البشرية ووحدة العضوية، وارتباطها بمصدرها الإلهي يجب أن يحفظ بالثبات الإلهي.

أرسل قرار مجمع الرسل إلى أنطاكية بكتاب حمله مبعوثان رافقتهما حاشية. كانت قد رافقت بولس وبرنابا وتيطس. إنّ إختيار المبعوثين يعبر عن وحدة ندية في الكنيسة الواحدة فاراسافاس من أورشليم أحد المسيحيين الأول ومن الجائز أن يكون أخاً ليوسف فاراسافاس وبالتّالي فرد من أفراد عائلة عرفت المسيح شخصياً وسيلاس أوسيليانوس يهودي يوناني من الشتات كبولس يحمل اسماً يهودياً واسماً يونانياً. كان الإثنان يملكان موهبة النبوّة وعليهما كممثّلين لكنيسة أورشليم أن يشرحوا الرسالة شفهياً بدون تحيّز. سيطر الفرح العظيم على الأنطاكيين عندما سمعوا تلاوة الرسالة وشرحها. لم يتمكّن يهوذا وسيلاس أن يشرحاها في المجتمعات العديدة، الأثر الذي تركه الرسولان بولس وبرنابا على الرسل الأوّلين بسردهم نتائج بشارتهما وعن الظفر الذي نالاه. عاد يهوذا الى أورشليم أما سيلاس كبرنابا سابقاً فقد انبهر بهذه المدينة الحرّة التبشيرية بجوها القوي وحماسها الرفيع.

٢٠ــــ اليوم المحتوم في أنطاكية

(أعمال ١٥ : ٣٥)
(غلاطية ٢ : ١١ــــ ٢١)

في الروايات التاريخية العامّة التي لا ترى إلّا النقاط المشعّة من الماضي يظهر أنّ بطرس وبولس كانا على وفاق، ما عكّرت غيمة واحدة صفوّ جوهما. إنّه لمؤلم أن يقال أنّ الأمور لم تكن دائماً كذلك. لقد مرّت في أحد الأيّام صداقتهما في تجربة قاسية.

إنّ قرار مجمع أورشليم الذي وفق بين الإتّجاهين لم يقدّم الإيضاح الكامل وظهر أنّه حلّ موقّت. الوحدة العقائدية كانت أهم بكثير من الوحدة العملية. إنّ الخلاص البشري هو من نتاج النعمة وليس من أعمال الشريعة. والقضية الإجتماعية، الإشتراك على مدة واحدة وطريقة الحياة لم تحل جزرياً. لم يعط الجواب إذا كان الإنعتاق المسيحي من الشريعة يطال المسيحيين الذين هم من أصل وثني ولا يطال اليهود المتنصّرين أو إذا كان المسيحيون الذين هم من أصل يهودي مجبرين في المستقبل كما في الماضي

أن يحملوا ثقل الشريعة كلّها وحدهم. إذا كان الجواب نعم فهناك إذاً طبقتان من المسيحيين، طبقة المحافظين على الشريعة وتطبيقها، طبقة الأنقياء الكاملين، وطبقة ما ارتبطوا بالشريعة قط، طبقة المدنّسين غير الكاملين. وفي حال تطبيق الشريعة، في حال تطبيق ما قرّره المجمع الأورشليمي من حيث المأكل والمشرب من قبل المسيحيين من اصل وثني. فالمسيحيون الذين هم من أصل يهودي ما كانوا في أعماقهم يؤمنون وخصوصاً المتزمّتون منهم، إنّ لهم الحق في هذه الحالة أن يتصلوا بأولئك بحرية وأن يعتقدوا أنّهم مساوون لهم [٣٥]. هناك هوّة عميقة قائمة بين المدنّسين الغير الكاملين، بين المسيحيين الذين هم من أصل وثني وبين ابن ابراهيم الحقيقي. في هذه الكبرياء العنصرية شيء من الروعة إلّا أنّها روعة لا يمكن أن تبنى عليها الكنيسة المسكونية. كلّ هذه الأمور بقيت بدون حلّ في أورشليم لأنّ الجو كان متوتراً.

قبل وقت قصير كان بطرس قد وصل إلى أنطاكية بعد أن طاف بعض الكنائس وكان يرافقه تلميذه الحبيب الشّاب يوحنّا مرقس. وقد سحرت هذا الإنسان، روح المسيحيين الذين هم من أصل وثني، بوداعتها ونفحتها الندية واجتماعاتهم المسيحية فاندمج بدون تردّد في هذا الجو وائتلفا مع عادات المكان. وكان الأنطاكيون فخورين لأنّ أوّل الرسل كان معه. كان بطرس يتّصل بالعائلات المختلفة اتصالاً لا تكلّف فيه. وكان يأخذ مكانه على موائد المحبّة في كلّ ليلة سبت لم يكن ليسأل إذا كان الطعام «نظيفاً» أو «غير نظيف» كما تفرض التقاليد اليهودية. لم يرفض أن يأكل «أرنباً أو لحم خنزير أو لحم سلحفاة من العاصي»[٥٦]. لم تر أنطاكية عدداً كهذا العدد من الرجال الرسوليين. كان المسيحيون الذين هم من أصل يهودي يشعرون بنوع من القلق نحو بطرس. ولم يمض وقت طويل حتّى أرسل بعض أتباع يعقوب لبعض المراقبين ليراقبوا مسراه. هؤلاء لم يجسروا أن يحاربوا مقرّرات المجمع الرسولي. إلّا أنّهم بتصرّفهم المتعالي الإنفصالي أزّموا الحالة وكانوا مصمّمين على تأزيم القضية على قدر استطاعتهم. كان بولس ينظر بألم إلى صديقه بطرس لأنّه لم يكن واثقاً من رأيه. كان بطرس يتأرجح تحت تأثير هذا المثال من المتزمّتين المغالين وأخذ يبتعد تدريجياً عن الجو ويقلل علاقاته الإجتماعية ومشاركته في الطعام وكان يجلس إلى مائدة المحبّة مع الذين وصلوا حديثاً إلى أنطاكية ومع المسيحيين من أصل يهودي. جرح أكثر ما جرح قلب بولس موقف برنابا. أخذ هذا يتبع مثال بطرس المتلوّن معتقداً أن مثل هذا الموقف قد يحلّ الأزمة. شعر

المسيحيون الآخرون أن موقف بطرس قد جرحهم في أعماق عاطفتهم الدينية. ما كان يقلق بولس جداً هو أن الطّاعة الكنسيية ما كانت تتطوّر على أساس القناعة الدّاخلية وأنّ هذا التلوّن يحمل الظلمة إلى الإيمان في أهمّ نقاطه وكانت حتّى غلبة المجمع الأورشليمي الرسولي غلبة هي المشكلة بعينها فلا مجال بعد للحلول الوقتية. لا يمكن أن يفصل الإنسان بين الإيمان وطريقة الحياة. في هذه الحالة يصبح الإيمان في خطر ومعه العمل الخلاصي برمّته [٣٥]. كان لبولس ولبطرس الإعتقاد الواحد واليقين الواحد والنظرة الواحدة في الأساس. أي كان الإثنان يعملان لإبعاد شبح الإنقسام عن الكنيسة. غير أنّ بولس كان يعرف البشر معرفة أفضل. كان يعرف الفريسيين أبناء بجدته وكان واثقاً أنّهم في المجمع الرسولي لم يكونوا مقتنعين بمقرّراتها وأنّهم كانوا يحاولون بطرق جانبية أن يقضوا على مقرّراتها هذه.

انتصب أمامه نفس الشبح الذي حاول في أورشليم أن يخنق عمله في مهده. ماذا عليه أن يفعل؟ إنّ بطرس الجزع ترك طريقه الأولى ولم يعد بإمكانه أن يعود إلى طريقة حياته الأولى. كان يعتذر بابتسامة مؤلمة عن قبول الدعوات الى الطعام. صلّى بولس عميقاً وتجلّد وصبر قبل أن يصل إلى النهاية المحتومة فيجرح أحسن أصدقائه. في كلّ وقت كان يبرهن أنّه لا يعطي وزناً «لا للحم ولا لدم» عندما كانت الأخطار تحيق الإيمان بالمسيح. بالطبع إنّ بولس وحده يستطيع أن يفعل ذلك، وقد فعله بكلّ تأكيد، منقاداً وراء صوت إلهي يتكلّم في داخله. كان يستحوذ عليه الشعور بأنّه يتمّ إرادة مسيحية، إرادة من في السماء الذي كثيراً ما هرع لمساندة بطرس المتأرجح في حياته الأرضية وعونه. اعتقد المعارضون أنّهم ربحوا المعركة من الآن. وبرز الخصام عفوياً في إحدى الإجتماعات العامّة، وكانت الألفاظ النارية تتّفق مع طابع أهل الشرق العنيف. حاول بطرس أن يبرّر موقفه، لكن ساعة بولس أزفّت. قام برسالته بكل رصانة. وأطلق كلمته لا في قفاه بل في وجه بطرس بالذّات. لم تكن كلمته لتحمل طابع العداء أو الإهانة. وما أراد أن قوله إنّ الرصانة في الموقف والوضوح في البراهين جلبت النصر في هذه المرّة أيضاً.

كان الرسولان البارزان يقفان كلّ في وجه الآخر. المشهد أخّاذ مؤثّر. لا يمكن أن يكون هذا المشهد من المشاهد العادية ولا خلافاً بسيطاً في الرأي. ولا يمكن أن ينظر

إليه نظرة سطحية على اعتباره أنّه يعتبر بسيطاً مطبوعاً بالحرارة. خرب بولس رياء بطرس ورشقه في وجهه قائلاً: إنّه لا يسير في الطريق القويم الى حقيقة الإنجيل، وإن تبايناً يقوم بين ما يفكّر فيه في داخله وبين مسراه الخارجي وأنّه بحجة الضرورة يحقر حقوق قسم من الكنيسة ويضع الإيمان في خطر. لا يقصد هنا ضلال بطرس وبرنابا في الإيمان. المقصود هو هذا التأرجح الذي قد يسلّح الآخرين بضلال أكثر خطراً في الإيمان يمسّ جوهر المسيحية.

إنّ بولس في رسالته إلى أهل غلاطية يعطينا مخطّطاً موجزاً لموعظته التي وجهها إلى المتهوّرين، وبهذا العرض الموجز مع أخطاء في التركيب تظهر العبارات كأنّها تندفع اندفاعاً إلى الخارج أكثر من كونها تكتب وتقال ويشم المرء هوساً مقدّساً أو اشتراكاً حياً لكل عالمه الدّاخلي (انظر تحليل برات ٣٦).

١ — قال: نحن جميعاً، أنت وبرنابا وأنا وكلّ الآخرين الذين اعتدنا أن نعتبر الوثنيين خطأة بالطبيعة، يهود أصلاً. إلّا أننا نؤمن بكثير من العمق. أنّ الإنسان لا يمكن أن يقف أمام الله وأن يكسب رضاه لا بالتطبيق الشخصي للأوامر الخلقية ولا بأعمال الشريعة الطقسية ولا بأي عمل إنساني. بهذه الثقة آمنّا بالمسيح ورفضنا أن نحافظ على الشريعة. فالعودة إلى الشريعة وجرّنا للآخرين يشكّل تناقضاً.

٢ — تحرّرنا من الشريعة وتصرّفنا على هذا الأساس ثقة منّا بفيض نعمة الخلاص بالمسيح. إذا كان هذا خطيئة فالخطيئة هذه تثقل المسيح رأس إيماننا. إذا صرنا خطأ برفضنا للشريعة فالإتّهام الموجّه ضدّي أنّي أجعل من المسيح «خادماً للخطيئة» أصبح مبرراً أما أنتم فبالعكس تجعلون المسيح خادماً للخطيئة بتأكيدكم إعادة الشريعة وأنّ أبطاله خطيئة. هنا ينطبق المبدأ أني عندما أبني ما هدمت سابقاً أدلّل بعملي أني كنت على خطأ فإذا كنت بقبولي للإنجيل اعترفت بنقص الشريعة وحللته كبناء مشرف على السقوط ثم أعدت بناء هذا البناء المتزعزع فإنّي أدلّل على أنّ عملي كان متسرعاً وأنّ نعمة المسيح لا تكفي وحدها.

٣ — الشريعة ميتة. قضي عليها وخسرت حقوقها كلّها. موت المسيح نزع منها قيمتها الإجبارية. على أساس الشريعة حوكم المسيح بالموت. وبهذا قضت الشريعة على ذاتها، تبيّن أن لا محلّ له ولا معنى ولا فعل. ما دام المسيحي الآن يشترك مع المسيح في الحياة

والموت فإنّه مبت بالنسبة للشريعة والشريعة بطلت بالنسبة له. من الموت مع المسيح تخرج حياة جديدة، المسيح هو الحياة الجديدة بالتبرير الرسولي الروحي هذا! لم تكن بكل تأكيد صوفية بولس غريبة عن مستمعيه ولا عن أهل غلاطية لا بل كانوا يدركون أنه على صواب. لم تعدّ للشريعة بعد الملكوت للشخصية المسيحية، للحياة المسيحية الشخصية بل المسيح بذاته أي استيطان المسيح روحياً في داخلنا بالروح القدس بنفخه روح عيد الخمسين.

كانت هذه البراهين براهين قويّة لا بل إنّ بولس كان أقوى من كلّ هذه البراهين بإعطائه ذاته كلياً للمسيح، بكشفه عن أعماق سرّ نفسه «مع المسيح صلبت» «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فينا» «وما أحياه في الجسد أحياه في الإيمان بأعين الله الذي أحبني وبذل نفسه عنّي» هنا تنكشف صوفيته، هنا تنكشف صوفية محبّته للمسيح من أعماق أعماقه، شعلة رؤيا دمشق المتّقدة. إنّ أكبر عمق عن أعماقه ينكشف. كذلك نعرف الآن لماذا كان بولس يشعر أكثر من أي رسول بالتضاد القائم بين الشريعة والنعمة: إنّ أحداً لم يمرّ بمرحلة انقلاب داخلي كالتي مرّ بها بولس.

إنّ خدمة بولس الخالدة هي أنّه رأى المشكلة حتّى أعماق مسبباتها ونتائجها. إنّها خطوة إلى الأمام في جهاده التاريخي العالمي بعكس المحاولة اليهودية القائمة على تأليه أمّته كسبيل ضروري للخلاص، كم كان نظر بولس بعيداً! كان بطرس وبرنابا من أصحاب القلوب الكبيرة المتواضعة. اقرّا بخطئهما وهكذا انحسمت القضية. ولا شكّ أن النوايا بقيت مضطربة نوعاً ما وأنّ عاطفة من المرارة بقيت في نفوس هؤلاء الرجال القديسين ولم يكن محو الألم الذي شعروا به سهلاً ولا اطفاء جذوته. ندّد بهما علناً إلّا أنّ هذه النية المجروحة اختفت كلياً. إنّ الموت الاستشهادي محا كلّ الآثار الترابية المحزنة ونشر التاريخ حولها الإكليل النيّر البهي وبحق بقي الرسولان، كما في الحياة، كذلك في الموت، أخوين قريبين الواحد من الآخر.

إنّ ما جرى في أنطاكية حسب كأنّه كسف لسلطة الرسول بطرس كحادث اشرفت فيه سلطة بطرس على الخطر. إنّ هذا الشعور يرتكز على معنى غير كاف، معنى لا أساس له في الإنجيل في العصور اللّاحقة ازدادت حساسية البشر وازداد تخوّف النّاس

في قضايا السلطة. في البدء لم يكن كذلك، ألم يقل المعلّم الإلهي «من كان فيكم أولاً فليكن للجميع خادماً. لا تسموا أنفسكم معلّمين، فالمعلّم هو المسيح» ماذا حدث! رجلان مفتوحا القلب جديران بالمحبّة، قدما خدمات كثيرة للمسيح وأحبّاه وطرحا أمام الكنيسة رأيين جد مختلفين «لو أراد الله لما وقع في الكنيسة أعثار مثل هذا الإعثار»[٣٢]، لا يمكننا أن ننقل طريقة تفكيرنا الحاضر إلى تلك العصور، كما أنّنا لا نستطيع أن نفعل ذلك في حالات معروفة وحوادث مثل التي مرّت في العصور المتوسّطة. لم يدر في خلد أحد من أهل أنطاكية أنّ ما جرى مسّ بطرس. كانت عواطفهم عواطف أطفال طبيعية، كانوا يشعرون بأنّهم عائلة واحدة. الروح القدس، المستوى الروحي العالي لكنيسة الفتية، كانت تساعد على تخطّي كلّ اعوجاج، إنّ تواضع بطرس والطريقة المؤثّرة وبعيون يملأها الدمع جردت كل الذين كانوا يحملون مرارة في قلوبهم ضد مسلكه من أسلحتهم. كان بطرس يشعر أنّ بولس إنّما يتكلّم بلسان المسيح. إنّ دمعة كحّلت عيونه بالجمال، إنّها كتلك التي ذرفها في ليلة الجمعة العظيمة.

مثل هذه المشاهد، كانت تتردد بين الحين والآخر في تاريخ الكنيسة. العناية الإلهية سمحت أن يحدث مثل هذا الحادث في البدء لتتعلّم وتتعزّى الأجيال اللّاحقة. قال أحد عمّال الروح إن أكثر الكتب عن حياة القديسين فائدة هي التي تبحث أكثر ما تبحث لا عن فضائلهم بل عن أخطائهم، والكتاب المقدّس يصف لنا إلى جانب العظمة بصراحة لا تعرف التحيّز ضعف أبطاله. يعزّي جداً أن يعرف المرء أن النعمة السماوية كان عليها أن تقوم بعمل شاق حتّى في نفوس أولئك العظام في الملكوت الإلهي. كان هؤلاء القديسون يجمعهم شيء واحد ويتشابهون في محبّتهم وتفانيهم من أجل يسوع. كان بطرس كبولس «وكابني الرعد» أولاد زبدي، مستعدّين للموت إذا اقتضت الضرورة من أجل المسيح، نرى في مدرسة المسيح أيّ مجال عظيم يبقى لتطوير كلّ الميزات الخاصّة لكلّ شخصية. لو تصوّرنا أنّ إنساناً ذهب إلى بولس مهنّئاً على نصره لكان قد سمع الجواب في المسيح «لا غالب ولا مغلوب».

بعد هذا الحادث يختفي بطرس من رواية الكتاب المقدّس. إنّه الحادث الأخير الذي يرويه الكتاب المقدّس عنه. هناك رسالتان تحملان اسمه، رسالتان قريبتان كلّ القربى

إلى روح بولس وتعليمه. أيعني ابتعاده أفولاً لنجمه؟ بكل تأكيد لا. إنّ ابتعاده يشكّل أنقى صفحة من صفحات حياته، إنّه يقبل الحقيقة التي يقولها له أحد أخوته بدون أيّة إرادة مسبقة وبصدق نابع من محبّته النقية للمسيح ومن تواضع جم ينبع من أعماقه المسيحية.

هناك حالات في التّاريخ الكنسي يشعر فيها المرء أنّ يمسك بيديه ويلمس قيادة الروح الفائقة الجوهر، المسيحية الفتية تخفي في داخلها متناقضات كبيرة، لولا الروح القدس لكانت هذه المتناقضات قد فككت عرى هذه المؤسّسة الجديدة إذا أردنا أن نصوّر الأمور بطريقة مبالغ فيها لقلنا إنّ بطرس ويعقوب كانا يمثّلان الشريعة وبولس الحرية المسيحية التي تعني أكبر مسؤولية أمام الله. بنيت الكنيسة فوق شريعة تقليد الإيمان كفوق صخرة. إلّا أنّ بولس يصرخ: «لا تطفئوا الروح» (١ سالونيك ٥: ١٩) لم يكن بطرس وبولس ندّين بل كانا أخوين. تتحجّر الشريعة بسهولة عندما لا تنديه وتطريه روح بولس. هناك عصور تصبح فيها الحرية البوليسية مهدّدة وتقترب التجارب من بطرس. على بولس إذ ذاك أن ينتصب واقفاً. هناك أزمان يصبح فيها التقليد مهدّداً فعلى بطرس أن يتدخّل. لا كنيسة خاصة ببطرس وببولس. ولا أيّ شيء يتخطّى الإثنين، كنيسة يوحنّا لأنّ بطرس وبولس ويوحنّا هم تلامذة الرب ومتساوون وروح الله يحتوي الكل.

هناك قضية أخرى: كيف يفسّر صمت أعمال الرسل عن هذه الحادثة في أنطاكية؟ من غير المعقول أن يكون لوقا وهو الأنطاكي غير مطّلع عليها. الكتاب المقدّس يقدّم لنا كثيراً من هذه الأحاجي. إنّ حلّ مثل هذه الأمور لا يفيد الخلاص كشيء ضروري علينا أن نأخذ بعين الإعتبار أنّ لوقا لم يكن كاتب تاريخ فقط بل كان إنساناً. إنّه مثل تاسيتوس يعرف أن يحدّد الأشخاص والوقائع بكلمات دقيقة قليلة يعرف أن يلقي النور الحقيقي وأن يعطيه النغم الموافق. للصمت عنده معنى الكتاب القديس يكتب لعصره لا للتأثير على العصور اللّاحقة. عندما تتطلّب مصلحة الكنيسة غرضاً ما نجهله نحن المحدثين فإنّه يضحّي بضمير هاوٍ لا بالحقيقة التاريخية حاشا بل بتحقيق ما يدغدغ حيرتنا وتطلّبه. إن كتاب لوقا انتشر بعد خمس عشر سنة من الحادث. كانت الحالة في هذه الأثناء قد تغيّرت والإتّفاق يقطع شوطاً بعيداً إلى الأمام. المعارضات القديمة ولّت

ولا يجوز فتح الجراح القديمة لذلك صمت لوقا بوقاره المعهود وبشعور الإنسان المسؤول متجاوزاً هذا الحادث.

٢١. انفصام عرى الصداقة

(أعمال ١٥ : ٣٥ــ ٣٩)

بعد أن خمدت حدّة الحماس من أجل حرية الكنيسة الأنطاكية الصعبة المنال تأتي أعمال الرسل لتضع أمام أعيننا أموراً ذات مغزى عظيم «أما بولس وبرنابا فأقاما في أنطاكية يعلمان ويبشّران بكلمة الرب مع بضعة آخرين». يلوح أنّ الشمس لن تأفل أبداً من فوق الفة هذين الرجلين اللذين عملا جنباً إلى جنب طوال سنوات يكدّان ويتعذّبان من أجل المسيح. أنّى لهما أن يتصوّرا أن صداقتهما ستصاب بجراحات قبل أن تتوارى شمس تلك السنة وأنّهما سيفترقان إلى الأبد دونما عودة تجمع في بشارة مشتركة. خدمة الإنجيل تفرض تضحيات كثيرة على حساب القلب يسهم فيها مقدار ضئيل من المسؤولية الشخصية.

أيّام قلائل مرّت من ذلك اليوم. الإندفاع التبشيري كان يجرّ بولس إلى انفتاح ليثبت فتوحات سفرته الأولى ويضاعفها لإحتلال مناطق أخرى. من دعوة بولس لبرنابا ومن تلبية برنابا لهذه الدعوة بفرح وابتهاج، ومن قابليته الكاملة للعمل مع بولس يستدلّ أنّ برنابا لم يكن يحمل أيّ غلٍ تجاه بولس بسبب قضية الشريعة. فهناك رباط قوي يربط الإثنين، رباط العمل المشترك من أجل المسيح، إنّه أقوى رباط ذلك الذي يتوثّق بالافراح والأحزان. ودعوة بولس لبرنابا بالرحيل ليتقاسما الافراح والأحزان التي عانياها بزيارتهما للإخوة الذين تنصّروا كآباء روحيين أثلجت قلب برنابا. وتجري الرياح كما لا تشتهي السفن. إنّ برنابا يحب أن يصطحب معه نسيبه مرقس[٥٠]. أراد أن يصلح نسيبه الخطأ الذي يحزّ قلبه حزاً عندما هرب من بارغي. رفض بولس الطلب كمسؤول عن الحملة التبشيرية. لم يكن الرفض مقروناً بنية مسبقة. مسؤولية الرسل مسؤولية كبرى في نظره وتتطلب تكريساً تاماً للذّات لغاية كبرى. لم يكن يرى في مرقس

النضوج الكافي لرسالة تبشيرية صعبة. كان يؤمن أنّه دون المستوى لتكريس ذاته كلياً من أجل الرسالة ربما كان يخشى أن يؤثّر على برنابا وهكذا يتعطّل مخطّطه وخصوصاً إذا كان اثنان لواحد. الحياة التبشيرية قضية هامة جداً. يجب ألّا نستهين بها وعلينا أن نجنّبها الخطر وأن لا نجعلها خاضعة لضعف تبعثه القربى. كان بولس صلباً قبل أن يتزعزع. أكان على حق؟ أكان حكمه على مرقس حكماً قاسياً؟ كان حكم برنابا أقلّ صرامة مع أنّ الرجلين كانا ذكيين ومن ذوي الخبرة. الطبائع البشرية يعرفها فاحص القلوب والكلى ويعرف إذا كانت في أحكامها الخبرة. الطبائع البشرية يعرفها فاحص القلوب والكلى ويعرف إذا كانت في أحكامها محقّة. نحن البشر ننظر إلى الأمور بمنظار العقل والعاطفة. ألحّ برنابا ورفض بولس وكان جدال بين الإثنين انتهى بالفرقة. اختار برنابا وطنه قبرص كمجال لعمله وسافر مع مرقس إلى هناك. وهكذا انفصمت عرى صداقة مبشّرين بسبب قضية شخصية. بانفصال الرسولين يختفي برنابا من أمام أبصارنا وبسبب دائرة عمل صديقه النيّرة يعود برنابا إلى ظلمة الأسطورة.

إذا أخذنا برنابا من وجهة إنسانية انجذبنا إليه بالعطف. ربّما كان بولس قد شدّد في حكمه على الشاب مرقس الذي برهن فيما بعد على جدارة الرجل وصرنا مدينين له بالإنجيل الثاني. كان بولس كما يظهر قاسياً بالنسبة لبرنابا، هذا الإنسان الذي تدخّل مرتين في مصير حياته فرفعه من عالم الذوبان. المفروض أن يحتفظ له بكثير من العرفان إلّا أنّ روح بولس التي كانت تقفز من معرفة إلى معرفة وينمو تدريجياً في المسيح «لم يتمكّن أن يسيطر على دقات قلبه العاصفة. فوق الأرض شخص لا غير كان يتقدّم نقياً بكليته ولم يكن أيّ رباط يربطه بآدم» [٣٥]، شيء مؤلم ومؤلم جداً أن تنسحق وتتحطّم صداقة قديمة مقدّسة حتّى ولو كانت وقتية، شيء مؤلم أن ينفصل صديقان وينموان كلّ على حدة ولا يلتقيان. إن تعاطفهما المتبادل جعل الفرقة مؤلمة.

الكتاب المقدّس صريح صراحة عجيبة فيما يتعلّق بأخطاء أبطاله لذلك أعطي لنا ليكون كتاب تعليم وإصلاح وتهذيب وتعزية (٢ تيمو ٣، ١٦ رومية ١٥، ٤). ويجعل الله حتّى الأخطاء بركات لملكوته. يظهر برنابا في هذه الحالة أكثر إنسانية وجديراً بالمحبّة. ولا يقل مسلك بولس عظمة. كان بولس رجل عمل ومن أولئك الذين يجبرهم قدرهم الإنساني أن يفعلوا ضد ما يأمر به القلب فيظهرون كأنّهم لا يملكون

قلباً. ما لنا وللكلام الطويل. يجب أن نكون سعداء إذا كانت دوافع شرورنا نبيلة كهذه الدوافع لا يعقل أن يكون بولس خلواً من العواطف صلداً كالماس. كثيراً ما طرقت خاطره ذكريات بعيدة وكثيراً ما جاء برنابا إلى خاطره كإنسان وحيد وثق به خصوصاً في ذلك اليوم الذي جاء يطلبه في طرسوس وفي ذلك اليوم الذي انحنى فوقه يبكي ألماً، في ليسترا عندما رجم وترك على جانب الطريق بين حي وميت. ألم يكن برنابا هناك يبكي صديقه الأمين المخلص؟ إنّه الوحيد الذي وثق به حتّى الموت بينما كان الآخرون يشكّون فيه. مثل هذه الروابط القلبية لا يمكن أن يفصم المرء حلقاتها بدون أن يدمي في الوقت نفسه قلبه.

أصلح مرور الزمن كلّ شيء «جددا فيما بعد علاقتهما وكان أحدهما يخبر الآخر عن أعماله التبشيرية»[٧٨] كما يستدل من (١ قورنثية ٩، ٦). إنّ بولس يتذكّر بفخر صديقه وأنّه أي برنابا كان يعيش مثله في رحلاته من عرق جبينه دون أن يقبل أيّة مساعدة من الكنيسة. الحوادث برّرت موقف برنابا فيما يتعلّق باحترام مرقس. صار مرقس رجلاً شجاعاً كبير القلب منكراً لذاته وظهر معاوناً ثميناً لبطرس وبولس وصار اسمه مشهوراً في العالم المسيحي ككاتب للإنجيل الثّاني. يمكن لأي قديس ولأي عبقري أن يتوه. لم يتردّد بولس من إصلاح ظلامته إنّه يكتب فيما بعد من السجن في رومية، في رسالته إلى أهل كولوسي: «يصافحكم مرقس نسيب برنابا الذي أوصيتم به فإذا جاءكم فاستقبلوه» (كولوسي ٤ : ١٠) حتى في سجنه الأخير ظلّت صورة مرقس أمام عينيه. يكتب لتيموثاوس ويقول «استصحب مرقس وأقدم به فإنّه ينفعني للخدمة» (٢ تيمو ٤، ١١) هذا يدلّ على أن كل غيمة تبدّدت من أجواء نفوسهم. إنهما اتحدا معاً بالإدراك المتبادل والأهم وسط السجن. (فيلمون: ٢٤).

إذا نظرنا إلى هذه الحادثة من ناحيتها السّامية وجدنا أن للقوّة العليا يداً هنا. لم يكن من الممكن أن يبقى برنابا طوال حياته تابعاً لبولس وأن يقف في الظل، ظلّ هذا الرجل العظيم[٣٢]. كان برنابا شيئاً مهماً بالنسبة للعمل الذي يحتاجه. لو لم يحدث هذا التصادم لما تحقّق الإنفصال قط ولما وجدت إمكاناته كرئيس مجالاً للتعبير عنها. كان جديراً أن يكون مستقلاً في عمله. من النّادر أن يجد إنسان صديقاً وفياً مخلصاً يضحي بذاته وناكراً لها كبرنابا. لم يكن روحاً تلتهب، لم يكن من المندفعين، لم تكن له أفكار

مثالية كالتي لبولس إلّا أنّ رصانته الهادئة وعيونه الوديعة ونظرته الدّافئة وصوته الأبوي وموهبته النبوية في الكلام حاثاً ومعزياً كلّ هذه الأمور تجذب وتسحر وتأسر القلوب بسرعة. كان طابعه طابع إنسان صادق. بقي مخلصاً لوطنه وخصوصاً لمسقط رأسه. أراد أن يدفن هناك ولا يزال ضريحه قائماً حتّى الآن على بعد ساعتين من أماخوستا. كان مرتبطاً ببولس بطريقة تبشيره وتلميذاً مخلصاً له. إنّ الفكرة التي يمثّلها ترتليانوس القائلة إنّ الرسالة الى العبرانيين هي لبرنابا هي تخمين محض. يعجب أوريجين بهذه الرصانة لرونق جرسها ولغتها اليونانية الخالية من التعابير العاصفة المضطربة الصحيحة. يمكن أن تعكس هذه الرسالة روح برنابا. اللهجة الاسكندرانية تتراءى فيها أصداء وكانت أليفة بالنسبة لبرنابا كقبرصي المولد. على كلّ إنّ الرسالة الى أهل العبرانيين تعبّر تعبيراً أفضل عن روح هذا الإنسان الشريف أكثر ممّا تعبر عنه تلك الرسالة المنسوبة إليه بالرغم من وجود الكثير من تفكيره فيها. هذه الرسالة كتبها إنسان وسط ولصقها ببرنابا.[1] فعلت الكنيسة حسناً عندما رتّبت هذه الرسالة في جدول قانون الكتاب للعهد الجديد ففيها روح بولس وإن كتبت بيد مجهولة وفيها تتراءى القرابة الروحية بين المعلم وصديقه المجهول.

٥. الرحلة التبشيرية الثّانية

٢٢. يا تيموثاوس (١ تيموثاوس ٦ : ٢٠)

(أعمال ١٥ : ٣٩— ١٦ : ٥)

نحن في السنة التاسعة والأربعين بعد المسيح وفي آذار على وجه التقريب. حان الوقت الذي يذهب فيه الملوك إلى الحرب، والتجّار والمبشّرون إلى الغربة. كان بولس يشعر بذلك الإندفاع الذي يدفعه باستمرار إلى الأماكن البعيدة. الغرب يستهويه ويزداد اندفاعه وحبّه إلى الغرب، أفسس قورنثية رومية وأسبانيا. كانت رومية سرّه منتهى أحلامه. في رومية فقط يمكن لهذا النسر الصليبي أن يبسط جناحيه بحرية فوق العالم الروماني. كان برنابا ومرقس قد انطلقا نحو قبرص وقد دقّت الآن السّاعة لينطلق بولس أيضاً.

ما كان بولس يحبّ أن يسافر بمفرده لا لأن مرض البرداء كان يصيبه من حين إلى آخر، بل لأنّه يريد أن يكون مخلصاً لوصية السيد الذي كان يرسل تلامذته إلى البشارة اثنين اثنين. كان سيلاس بالنسبة له الرفيق الأهل. كان صادقاً شريف العواطف مستعداً لكلّ تضحية بعيداً عن المحدودية اليهودية العقلية. إنّه لشيء مفرح أن يكون قريباً منه عضو من كنيسة أورشليم ومن الأشخاص الذين يرتبطون ببطرس برباط وثيق (١ بطرس ٥، ١٢). من هنا نرى أنّ الخلاف الذي كان بين بولس وبطرس لم يؤثّر فيه، حتّى ولم يبق منه أيّ أثر ليؤثّر به شخصياً. كان سيلاس كحلقة مرتبطة مع أورشليم

يشكل بالنسبة لبولس اعترافاً ثميناً له من أم الكنائس وكونه مواطناً رومانياً يشكّل أيضاً شيئاً ثميناً للسلطات الرومانية، إن روح المغامرة والمخاطرة عند بولس، جذبت بدون شك سيلاس، وجعلته يطارد المغامرات، ودفعته ليقرّر زيارة المراكز الحضارية في يونيا وايجه. كان بولس بالنسبة لسيلاس سعادة حياته. من يقترب من هذا الإنسان، من منطقة جاذبيته تلتقطه قوّته فلا يستطيع الإفلات. كان يروق لبولس أن ينادي سيلاس باسمه الرنّان سيلوانوس الذي يذكره باتساع الأمبراطورية الرومانية [١٠].

وفي هذه المرّة قرّر بولس أن يصل إلى هدفه عن طريق البرّ ليتمكّن بطريقه أن يزور الكنائس الجديدة في شمالي سوريا وكيليكيا ويشددها، سار نحو الشمال واجتاز سد بحيرة أنطاكية وتابع صعوده في سلسلة جبال الأمانوس سالكاً الطريق الروماني المشهور بين أشجار الغار والآس، وعندما وصل إلى الأعالي غرق وسط غابات من السنديان والشربين. إنّ الحصن المبني بصورة رومنسية هو الحصن الروماني باغرا الذي ما زالت بقاياه حتّى اليوم يحمي مداخل مضايق جبال الأمانوس القائمة على ارتفاع يبلغ تسعماية متر. الأصدقاء يمسكون بأنفاسهم ويحدّقون للمرّة الأخيرة ويتطلّعون إلى الوراء ملقين نظراتهم فوق السهل الممراح، سهل أنطاكية. بعد مضي ساعة كان المضيق الموحش قد أحاط بهم وكان الأقدمون يطلقون على هذا المضيق اسم أبواب سوريا «الآن ممر بيلان».

سلك بولس وسيلاس الطريق الروماني القديم المرصوف بالحجر الغرانيتي الأسود، الذي لا تزال آثاره حتّى الآن، وكانت أصوات الينابيع تدمدم في أذنيهما عندما أخذا ينحدران باتجاه الأسكندرون. إنّ هذه المدينة التي تكلّلها الجبال بالجمال، بمينائها الهادئ كان قد بناها الإسكندر الكبير كمنطلق للقوافل الكبيرة إلى ما بين النهرين. استقبل السهل الذي قررت فيه المعركة على شاطئ ايسو مصير آسيا وأوربا بغلبة المكدونيين، استقبل الرسولين. هذه المعركة التي تغلب فيها الإسكندر على داريوس ملك الفرس ٣٣٣ ق. م. شغلت منذئذ عقول البشر. كانت السّاعة التي ولدت فيها الحضارة اليونانية أي اليونان الحاكمة العالمية مع الشرق. كانت اللحظة التي تحطّمت فيها الحواجز والتياران الحضاريان الشرقي والغربي اتّحدا في تيّار واحد وهكذا: هذا الفاتح دون أن يدري سابقاً هيّأ الطريق للإنجيل لأنّه «بدون هذه السيطرة العالمية

للغة اليونانية وللحضارة اليونانية التي سببتها هذه المعركة، والتي شكّلت نوعاً من التأهّب للسيطرة الرومانية في الشرق، لا تفهم رحلات بولس التبشيرية في العالم الروماني[٥٠].

بعد انحناءة الجون الجميلة الرّائعة اقترب المبشّران في رحلتهما من موبسوستياس (ميسيس) إنّها معروفة جداً في التاريخ الكنسي وقلعتها وأطلال قصرها يشهدان على مجدها الغابر. وصلا إلى طرسوس[٥٠] مسقط رأس الرسو بعد أن اجتازا أدنه كان بولس يعرف هذه القرى واحدة واحدة. كان قد تعرّف إليها في سفرته الأولى عندما زار هذه المنطقة (غلا ١، ٢١) كان الرسولان يقيمان بضعة أيّام، بالقرب من الإخوة، ليطلعوهم على قرارات المجمع الرسولي في أورشليم، الذي سمح لليهود المتنصّرين، وللوثنيين المتنصرين أن يأكلوا من الخبزة الواحدة، وأن يشربوا من الكأس الواحدة بمحبّة المسيح.

ابتاع بولس ورفيقه سيلاس بعض الكعك القاسي والزيتون والثمار الجافة ورحلا مودّعين. كانت طرسوس المنطلق الرئيسي لطريق القوافل الكبرى نحو ليكأونيا وكابادوكيا، وكانت تمرّ عبر سلسلة جبال طوروس. يكتب شيشرون في رسالته إلى أيتكو (٥، ٢١): «يصعب اجتياز جبال طوروس قبل بدء حزيران بسبب الثلوج» على هذا الأساس يمكننا أن نحدّد تاريخ مغادرة الرسول في نهاية شهر أيّار لا قبل ذلك. وصلا إلى المسترحات التي بناها هناك أثرياء كيليكيا للإصطياف ويمتعوا أنظارهم بسحر تلك الوديان السحيقة المترامية الأبعاد الشبيهة بوديان جبال الألب. إن طوروس بامفيليا الذي اجتازه قبل سنين لا يقارن من حيث الوحشية مع طوروس كيليكيا. إن قمم هذا الجبل تتعالى كأسنان تخال الأفق قد أصبح مشطاً من الأشباح. لا مجال للمقارنة بين أبواب كيليكيا وبين الطريق التي سلكها الرسول في المرّة الأولى. إنّها طريق ضيّقة جداً يمكن قفلها في أيّام الحرب وقد سمّيت هادية الشيطان. يمرّ الخطّ الحديدي إلى بغداد وسط سبعين نفق مخترقاً سلسلة من الجبال لتلافيك الشلّالات التي يبلغ عددها الألف (لوحة ١٣). «إذا ألقى المرء أبصاره من خلال نافذة العربات أو من خلال زجاج السيّارة لتراءت تحته مشاهد تخلب العين جمالاً ولرأى الطريق القديم الذي شقّه (الآشوريّون والإيرانيّون) «الملوك العظام» «واليونانيون وسط الصخور»[٩]، الطريق الحربية التي كان يصعدها بولس وسيلاس كانت تتّجه نحو الشمال من الوادي

الذي يسمّونه اليوم ساقيط مجتازاً ممرّاً ضيّقاً موحشاً. تحصينات الممرّ تعلو مئات الأمتار وفي أكثر الأحيان يلامس الواحد الآخرَ ولا تبقى إلّا فتحة بعرض اثني عشر قدماً. وفوق أشجار من الصنوبر تنعكس عتمة تعلو الوادي. النهر يتدحرج هادراً تاركاً درباً ضيّقاً(٥٦). في أضيق الممرّات يرى الإنسان بقايا لهيكل حجري ولوحتين تذكاريتين محا الزمن كتابتهما «وسط هذه الأبواب كانت تمرّ سيوف دمشق وعطور أريحا» (ووسط هذه الأبواب مرّ الكلمة الذي صار في الجليل جسداً وصار بعدئذ روحاً للعالم كلّه(٩) ». وكان من أرسلها مجنّدان كانا يصعدان هذا الممرّ الجبلي وقد منطقا حقويهما شادين وشاحهما الى جسمهما وطويا ألبستهما في صناديق حملاها فوق منكبيهما متسلّحين بسلاح الروح. ما كان يخطر ببالها أنّ الأتراك سيذبحون ذبح النعاج بقايا بذار الكلمة وسينقلون جثثهم بطريق النهر المنتقع بمياه الربيع ليلقوها في قاع البحر. أكانا يتصوّران أنّ سهول كيليكيا ستروى بدمائهم، وستمص هذه الدماء نقطة نقطة. ألا ترجف عظام بولس أمام هذه المأساة البشرية؟ إنسان وإنسان فقط يستطيع أن يتحمّل ظافراً مثل هذه المأساة. إنّه الإنسان الإله الذي مرّ بالآلام الجسمانية والجلجلة والذي سكب العرق دماً وقد تراءت له مآسي الإنسانية أمام عينيه وهو على الصليب في عالم مستقبلها.

الطريق القديم يمتدّ فوق القسم الشرقي من الصخر. يخترق الصخر حيناً ويرتكز على قوائم حيناً آخر. فوق القمّة العالية البعيدة تلوح أطلال حصن عربي قديم. ها هما بولس وسيلاس أمام أبواب كيليكيا الشهيرة. هوذا مضيق يتّجه صعداً إلى ارتفاع مئات الأمتار بعرض عشرين متراً يتدحرج فيه نهر عزوم مندفع لا يترك سوى درب بعرض أربعة أمتار(٦٩). هناك كتابات حفرت فوق الصخور محاها الزمن، تشهد أن الفراعنة والأشوريين والفرس، داريوس وحشرويش والاسكندر وهارون الرشيد وجو دفري دي بويون قد مروا من هذا المكان. عندما يصل المرء الى قمّة طوروس العالية ينفتح أمامه مشهد واد عميق متسع يجتازه المرء ليصعد مرّة أخرى في جبل بولكار داغ ٣٥٦٠م الأسود كالليل. الفارس يحتاج إلى أربعة أيّام ليترك هذا الجبل وراءه، عليه أن يجتاز مئة وعشرين فرسخاً. كان الرسولان مضطرين أن يغوصا في المياه تجنّباً لخطر الجسور المتزعزعة المشرفة على السقوط(٥٠)، كانت بعض الخانات التي بناها الرومان تلتقطها من خطر اللصوص وبرودة الليل. يتذكّر بولس هذه الأخطار فيكتب فيما بعد

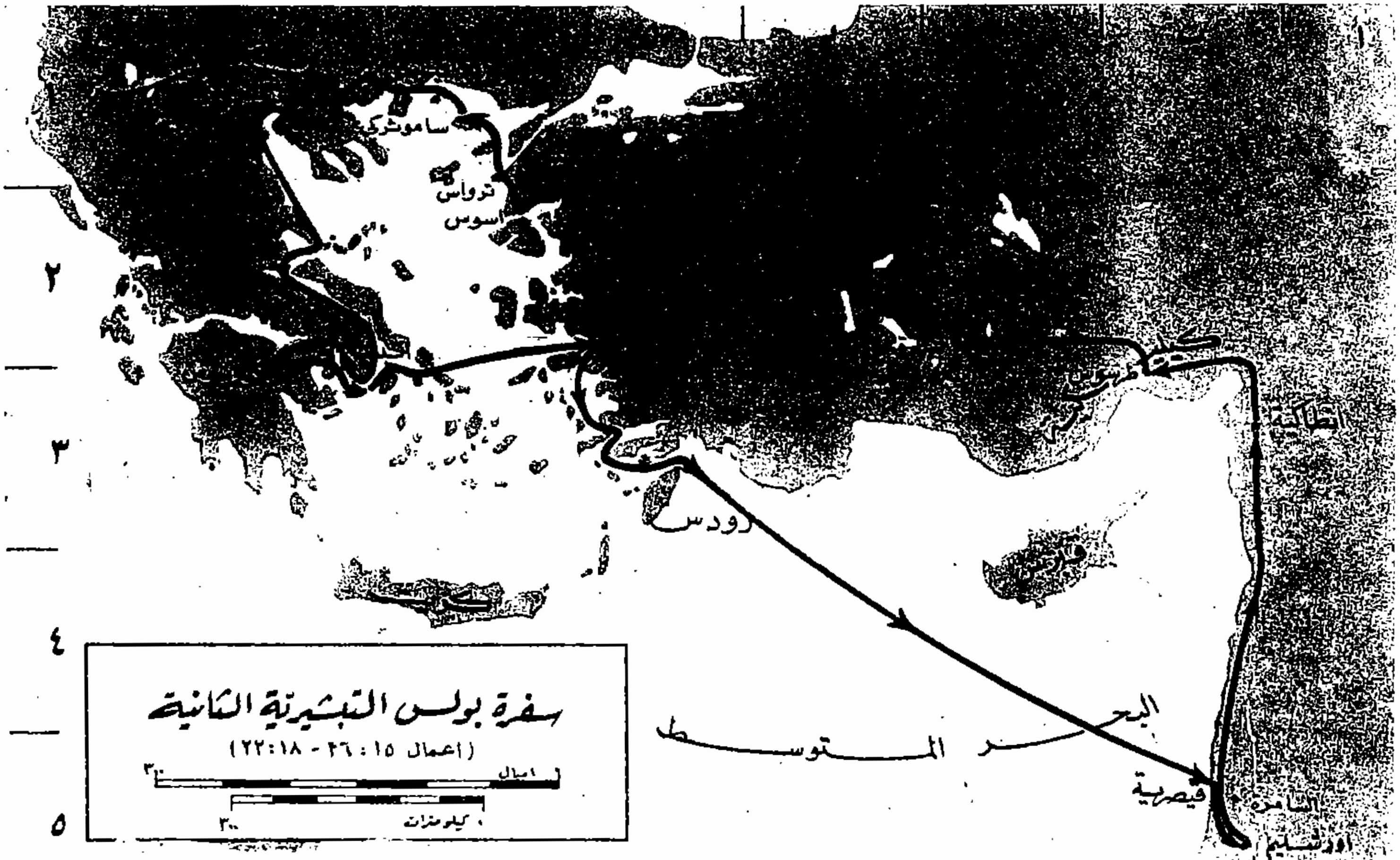
سفرة بولس التبشيرية الثانية
(اعمال ١٥ : ٣٦ - ١٨ : ٢٢)
اميال
كيلومترات
٣٠٠
ساموثركي
ترواس
اسوس
رودس
البحر المتوسط
قيصرية
اورشليم
انطاكية
٢
٣
٤
٥

«أخطار الأنهار، وأخطار اللصوص، وأخطار الوحدة، وأخطار الجوع والعطش» (٢ قور ١١؛ ٢٦) لا شيء يدلّ على أنّ بولس استعمل مركباً في السفر بقصد الرّاحة. إنّ انحداره من أعالي جبل طوروس نحو السهل الجنوبي من كبادوكيا القاحل المزنر بجبال بركانية لم يكن من تلك المتع التي تلذّ بولس وتسرّه. كان السهل عبارة عن مستنقع يحتاج اجتيازه الى دليل ودابة وإلّا فالمرء معرّض فيه للغرق. هنا كانت بلاد الحثيين. كان رسم سانتان وسنبلة القمح وعنقود العنب محفورة فوق الصخور، إن سانتان إله الحثيين كان معروفاً لدى بولس من طرسوس.

بعد رحلة استغرقت سبعة أيّام وصل الرسولان إلى دارفي المضيافة وقد مرّا بكيفسترا وهيرقليا. يجوز أن يكون الرسولان قد وجدا بعض المسيحيين هناك. أين هو برنابا؟ أول سؤال طرح على الرسولين. كان غايوس والشيوخ يقبلون عند المساء لحلّ الكثير من الصعوبات والمشاكل. إنّهم ما تعلّموا إلّا القليل عن المسيحية وليس بين أيديهم ما يطفئ ظمأ حبّهم للمعرفة. لم يكن الإنجيل قد كتب. في ليسترا كانت عائلة تقية تنتظر أباها الروحي. بلغ تيموثاوس أشدّه. صار رجلاً بكلّ معنى الكلمة، رجلاً قريباً الى القلب في قمّة نموّه وكانت تستهوي الرسول بولس تقوى هذا الشّاب وشبابه البريء وذكاؤه الرصين. في الواقع حقّق تيموثاوس أجمل آمال بولس. كان قريباً إلى القلب لطبعه الهادئ وللنعمة الإلهية التي توشّحته. هناك بشر يشعرك بريق عيونهم أنّهم أولاد الله. كان تيموثاوس من هذا النوع. لأوّل مرّة يشعر بفرح بتلك المحبّة البشرية المثالية التي أزهرت وسط الكنيسة بسبب الرباط المشترك مع المسيح لأنّها تنقت بابن الله. لقد شعر بولس كمعلّمه بضرورة تشكيل حلقة تحمل الرسالة إذا ما عجزت يداه. أسر بولس إلى تيموثاوس بسرّه ورجا من أمّه فينيكي وجدّته لويدا أن يهبا هذا الابن للرب. إنّها أمنية العائلة. اتفق الطرفان. كان تيموثاوس قد حفظ أكثر الكتاب المقدّس غيباً. الكاهن هو ثمرة من ثمار العائلة الطيّبة التقيّة ولا يصير كاهناً إلّا من أينعت فيه ثمار العائلة تقوى وفضيلة. هناك أدلّة على أن تيموثاوس كان من طبقة الأشراف. كان يتكلّم اليونانية ويكتبها كيوناني[٥٦]، وكان كناموس للرسول بولس أهلاً لكل الخدمات. كان بولس يستعدّ لسيامته كاهناً لذلك أخذ رأي المتقدّمين والشيوخ في ليسترا وإيقونيا أولاً. لم يجد هؤلاء الكلمات التي تليق بمدح مسلك هذا الشاب النبيل. ومع أنّهم كانوا بحاجة ماسّة إليه في الخدمة والقراءة وفي أمور أخرى نافعة فقد فرحوا

لسيامته مع علمهم بأنّه سيغادرهم مع معلمه. سام بولس وسيلاس ومعه مجلس المتقدّمين تيموثاوس. إنّ ما ورد في رسائل بولس عن السيامة لا يستهدف السيامة التي رقي فيها إلى درجة أسقف بل هذه السيامة بالذّات فبولس والشيوخ تكلّموا «بنبوءات» أما تيموثاوس فاعترف الإعتراف الحسن أمام شهود كثيرين (١ تيموثاوس ١ : ١٨، ٢ تيموثاوس ٢ : ٢). إن فينيكي والدته ولاويس جدّته غرقتا في عالم من التأثّر. إنّ تقدمة هاتين المرأتين الأرملتين هي من أنبل التضحيات التي قدّمت لملكوت المسيح[٣٢].

كان والد تيموثاوس قد توفي باكراً. لم تقبل الوالدة مراعاة لخاطر الوالد أن تختن الصبي. إنّ القضية تشكّل مشكلة بالنسبة لليهود المتنصّرين وللوثنيين المتنصّرين. وفقاً للشريعة يجب أن يختن الولد لأنّه تابع لأمّه. عدم ختانته يشكّل حرباً شديدة ضدّ بشارته واضطهادات وعداوات. إذا اصطحب بولس تيموثاوس إلى المجمع فإنّه سيوجه ضربة مميتة إلى إخوته في الدّين الذين يريد أن يربحهم. ضعفاء الإيمان سيشكّون. لقد قرّر بولس فوراً واحتاط للأمر. لقد رفض ختانة تيطس عندما كانت ختانته مطلباً أساسياً. الأمور تختلف هنا. لم يكن بولس من الذين يجعلون من القضايا الثّانوية شرائع متحجّرة. إنّه لا يرى أمام عينيه غير رفيف الهدف الكبير. إنّ الوسائل تتغيّر باستمرار إنّ خصومه ما كانوا يريدون أن يفهموا المعاني العميقة التي يستهدفها الرسول. فاتّهموه أنّه غير مخلص مع نفسه وأنّه لا مبدأ له. هدفه وهمّه استمالة قلوب النّاس والظهور أمام البشر بمظهر المحبوب (غلا ١ : ١٠).

إن سعادة الشّاب تحوّلت سريعاً إلى ألم فراق. فعليها أن ترافق بولس. قد لا يرى وطنه قط. انّ بطولة الرسول منحت الشاب قوّة الإرتفاع الفكري، وأيقظت فيه الإمكانات ليهب نفسه من أجل تحقيق أهداف تفوق الطبيعة. كان بولس سعيداً بهذا القاطف، وبهذا الإرتماء الشكور، الذي يحتاج إليه حتّى عباقرة الرجال. في الحالات التي كان المرض يداهمه، وفي الليالي القلقة التي كانت تؤرقه أفكاره «بسبب اهتمامه بكلّ الكنائس» كان تيموثاوس يتألّم معه، ويذوب عطفاً رقيقاً. رافقه إلى قورنثية وأفسس وأورشليم ورومية. كان كاتبه الذي لا يكلّ. ألف بكل بساطة أفكار معلمه ولغته. إن رسائل بولس الرعائيّة° تدلّ على أنّ يداً غريبة غير يد تيموثاوس قد تعاونت معه. ذكريات هذه الخدمات التي لا تثمن تطرق باستمرار خاطره دون أن يطمسها النسيان.

° الرسائل الرعائية : أي الرسالتين إلى تيموثاوس والرسالة إلى تيطس.

يكتب إلى أهل فيلبي «ليس لي نظيره للإهتمام بشؤونكم بنية صالحة خالصة فإن الجميع يلتمسون ما هو لأنفسهم لا ما هو للمسيح يسوع. أمّا هو على ما تعلمون فرجل مختبر قد خدم معي في الإنجيل خدمة الولد مع أبيه (فيلبي ٢ : ٢٠— ٢٣) وباعتزاز أبوي يسمّيه «الإبن الحقيقي في الإيمان» (١ تيموثاوس ١ : ٢). إنّه الإبن الحبيب، إنّه الشاب الذي يبقى شاباً في نظر أبيه. من المثير للإنتباه أنّ مشكلة الأجيال في التاريخ الكنسي تأخذ طابعاً مختلفاً. جيل أوجد ذاته بذاته، جيل كلّه خلق، جيل له ارادته التي لا تنثني وطابعه المميّز وجيل يتلوه لا يملك الميزات التي للأوّل بل ينشر الخواطر والتعاليم التي تعلمها بقابلية تكوينية وبصدق عظيم. لا يمكننا أن نوبّخ العصر الثّاني لأنّ أناسه يفتقرون إلى أفكار أولية. حسب المخطّط الذي رسمته العناية الإلهية، لا يحقّ لهم أن يكون لهم ذلك(٣٢).

٢٣. لوقا الطبيب الحبيب (كولوسي ٤ : ١٤)

(أعمال ١٦ : ٥— ١٠)

إن كنائس غلاطية الجنوبية كانت قد تركّزت وتقوّت بعد هذا إلى أين؟ أراد بولس أن يهيّئ أرضاً جديدة. أن شيئاً يدفعه نحو الغرب ودائماً يجول الغرب في خاطره. إنّ مخطّطه القديم الذي أبطله مرضه في رحلته الأولى ينتصب الآن أمام عينيه. هل يجب أن يصل حتّى شواطئ يونيا بعد أن يمرّ بوادي ليكو وميناندورو؟ إنّ طريقاً رومانية كانت تصل العاصمة أفسس عن طريق أباميا. إنّ الشرقي كثيراً ما يعتمد في قراراته على حواسه وشعوره وسابق تصوّراته. يعيش في عالم فوق المادّة ويشعر بأنّه مقود بقوى عليا يحاول أن يكتنه إراداتها مستعيناً من أجل ذلك بالنجوم والأحلام.

هذا الإدراك الروحي الشرقي في الوثنية كما يبدو عند هوميروس وفي التكهّنات السحرية أفسح في المجال لخلق نوع من الشعوذة تقوم في أعماقها خبرة روحية عميقة تولدها حركات النفس تحت الوجدان. من هذا العمق النفسي التي يمكن للهداية الإلهية أن تأخذ منطلقاً لإمكانيتها. كان بولس ومرافقوه يناقشون مخططاتهم التبشيرية مع الله. في أعمال الرسل، يثير الإنتباه جداً استسلام بولس في مخططاته التبشيرية للهداية الإلهية التي تظهر في حالات معيّنة كصعوبات في الطريق، وزلازل وأصوات نبوية في وقت العبادة

أو رؤى. [٣٥ آ]. كان الطريق في أفاميا يتفرّع إلى طريقين. هنا بالتمام صدر «فيتو الروح» يا للعجب! كان بالإمكان أن يشعّ الإنجيل في أفسس اشعاعاً لا حدّ له. إنّ بولس لا يتعب رأسه. إنّه الرجل الذي يقرّر فوراً. عندما يسدّ الروح طريقاً تنفتح طرقات أخرى. من شواطئ مقاطعات آسيا الصغرى كان بمكنته أن يزور أيضاً ميسيا وفيثينيا وشمالي غلاطية هيا إلى الشمال! وهكذا وصل عبر أكمونياس أوسيناروس وأكروينيو وكيوتاخياس إلى دوريليون «اسكي حصار» التي لما تزل عقدة للمواصلات الحديدية الهامّة نحو شمال فريجيا والحدود الغربية من غلاطية. كان البحر يستهوى بولس لا داخل البلاد. لذلك قرّر أن يتابع طريقه إلى فيثينيا بأوساطها التجارية ومدنها السّاحلية: بروسا، نيقيا، نيقوديميا وخالكدون. كان جبل أولمبوس في آسيا يقف بحجمه الهائل سداً يقطع الطريق. إنّه «فيتو» آخر للروح القدس. لا برهان إيجابي، ولا مخرج.

من الجائز أن يكون الرسولان قد وقفا عند حدود المقاطعات الأربع فريجيا وميسياس وفيثينيا وغلاطية وقفة الحيرة في خريف ٤٦. من الطبيعي أن يتّجه الفكر هنا نحو الشرق، ونحو شمال غلاطية ليزور بيسيفون وأنقره في بلاد التكتوساغون والتولستوفويون والتروكمون. كان بولس قد تعرّف في جنوب غلاطية إلى بعض الشتات من هذه القبائل فأحبّها. يقول بعض المفسّرين أنّ بولس سلك هذا الطريق لتحقيق مخطّطه وبقي هنا بسبب مرضه (غلا ٤، ١٣) لا يذكر لوقا وهو الكاتب المخصّص بتاريخ الرحلات التبشيرية شيئاً عن قضية جد هامة كقضية تأسيس كنيسة في شمالي غلاطية [١١]. إنّ قبول ذلك يدعونا إلى الإعتقاد بأنّ بولس بقي مدّة سنة واحدة لإنجاز مثل هذا العمل الأمر الذي لا يتّفق مع الواقع لأنّ بولس كان في شهر آذار سنة ٥١ في أثينا. نحن لا نريد أن نزعج أولئك الذين يقولون أنّ بولس قام بهذه الرحلة. إذا كان بولس قد اتجه شرقاً فإنّه يكون قد تعرّف إلى شعب مثير.

«الغلاطيون» هو الإسم اليوناني للسليتين أو كفاليين الذين تركوا منطقة تولوز حوالي سنة ٢٨٠ ق. م. واتجهوا نحو البلاد الواقعة على ضفاف الدانوب وعبروا عن طريق البلقان وبلاد اليونان إلى آسيا الصغرى. وكانت هذه القبائل تعيش في البدء على السلب والنهب وأخيراً استقرّوا على ضفاف اليوس فبنوا مدن أنقره وتافيون. وقد بسط امينتا

آخر ملوكهم كتابع للرومانيين سيطرته على أرمينيا الصغرى وبسيديا ولكأونيا وايسغريا. هذه القبائل لم تزرع الخوف والرعب في قلوب اليونانيين لهمجيتها بل أثارت اهتمامهم لفنّها تمكّن أتالوس الأوّل ملك بيرغاموس سنة ٢٤٠ أن يطرد الغلاطيين بعد نصر مبين وقد وهب أكسربول أثينا كتذكار لهذا الإنتصار تصاوير غنية. في رومية تحفتان فنيتان من فن بيرغوس «الغلاطي الميت» و«جماعة الغلاطيين» تشهدان على تقدّم النفس هناك.

كان هؤلاء القساة الطيبو القلب في جوهرهم يتكلّمون عدا اليونانية اللسان السلتي القديم وكانوا كما وصفهم قيصر يتعطّشون للمعرفة غريبي الأطوار، ثائري الروح، يحبّون التباهي، مدعين، قريبين إلى القلوب، حاميي العواطف، فعالين. من الصعب أن يتوقّف أحد ضد هجومهم الأول في الحرب لكن سرعان ما يفقدون حميتهم وجلدهم وليس بمستغرب أن يقبل هؤلاء القوم المسيحية ثم يشردون، فهم قبيلة دفعها حنينها القبلي إلى التنقّل والاستيطان في جنوبي غلاطية يتميّزون بالتقلّب السريع وبالمواهب الغنية والطيش والخفّة. من العنوان المحفور فوق هيكل قيصر في أنقره ويسمّى هذا العنوان وصية قيصر يستدلّ أن اليهود كانوا يعيشون في تلك الأماكن. كان أهل غلاطية في الجنوب مقسومين إلى أسباط وعشائر وقد حافظوا على انقساماتهم القديمة. لم يكونوا مخلصين في عبادتهم كانوا يربصون حيناً وحيناً آخر ينشدون الأناشيد في هيكل كيفالي وأحياناً كانوا يصغون بكلّ انتباه إلى الأساطير القديمة وإلى المنشدين الشعبيين تمجيداً للآلهة وأحياناً كانوا يذهبون إلى مجالس اليهود يدفعهم حبّ الإستطلاع لسماع مواعظ اليهود(٥٦).

كان هيكل كيفالي الرئيسي في بسينون (لوحة ٥). وكان كهنته من الفريجيين والغلاطيين وكانوا يغرقون في الأعياد الفاجرة بعد الرقص في غيبوبة من السكر وكانوا أثناء هوس جنونهم يقطعون أوصالهم. لا يستغرب إذا كانت شيعة المانوبيين قد جاءت من هنا. يشير بولس بسخرية إلى عادات كهنة كيفالي ولا شكّ أنّه في رسالته إلى أهل غلاطية (٥، ١٢) يستهدفهم بسخريته «يجب أن تقطعوا الذين يحرضونكم». في كلّ مكان كنت ترى هياكل كيفالي، فوق الصخور وفي الوديان وسط الغابات وكانت قطعان من الكهنة المتسوّلين يطوفون البلاد حاملين تمثال كيفالي المغطّى يقرعون الطبول

والصنوج وينفخون بالمزامير. في عبادة أم الآلهة والتعييد لها أو لزوجها أو لابنها إله الخصب الذي يموت ويبعث حياً تجد التعبّد المشوه والتعبير عن اندفاع النفس البشرية الديني العريق في القدم نجد هذا في كلّ مكان ترتفع فيه البشرية من دائرة إعادة الخلق الجديد لأشكال السحر السميكة إلى درجة الحضارة. إنّ شقّ الأرض بالسكّة وتغذية الحيوانات المقدّسة كالبقرة والجاموس ليس بالنسبة للإنسان انهماكاً من أجل تدبير المنزل بل عملاً مقدّساً للسرّ العالمي العظيم لإعادة الخلق والنمو في الطبيعة. إنّ المأساة السرية لأمّ الآلهة واله النمو الذي يموت ويبعث حياً ويعيَّد له في كلّ ربيع كرمز ديني تمثّل دوران الحراثة والزرع والحصاد في أعماق ما يجري في التاريخ وما جرى كحراثة الأرض والكتابة التي اكتشفت وخلق الدول والمستعمرات اليونانية، في أعماق هذا العالم الوثني الذي تكتنفه ظلمات الشيطان وتغطّيه أقنعته يرى العارف لأعماق هذه الأسرار ما يراه بولس، جذوة تشتعل بنار البشارة. إذا ما البشارة انصبّت بنورها فوق هذه الأعماق يرى مساعداً لا مانعاً للبشارة تهيئه للبشارة للناهض من بين الأموات الذي قال عن نفسه إن لم تمت حبّة الحنطة في الأرض لا تعطي ثمراً. عندما ندرك هذا المحيط الديني ونصل إلى أعماقه يمكننا أن نكوّن فكرة عن عمل الرسول بولس الشاّق إذ كان عليه أن يقود هذه القبائل في آسيا الصغرى من البداوة إلى كمال الحقيقة(٣٧).

هناك شك حول اتجاه بولس نحو غلاطية الشمالية. الأرجح أنّ بولس اتّجه من دوريليو نحو الغرب. إنّ شيئاً يجذبه نحو البحر. الطريق الذي سلكه يمرّ أولاً عبر ميسياس الجنوبية ووصل الى تياتيرا مدينة ليديا بائعة الأرجوان. وأزنوس مغارة كيفالي لا تزال حتّى اليوم تثير الإنتباه. من الجائز أن يكون قد وقف مبهوراً أمام هيكل جوبيتر الهائل. الغلاطيون الذين غلبتهم الحضارة اليونانية يندحرون أمام قوّة بولس. كم كانت عظيمة هذه الغلبة! إنّها أجمل بكثير من غلبة ملوك بيرغامو وأروع. تركا أدرامينيون واجتازا ميسيا القليلة السكّان إلى سفوح ادا جبل الإلهة حيث كانت الالهة تراقب من القمّة كما يقول هوميروس معارك طروادة. وأخيراً وقف بولس ورفاقه أمام سهل طروادة الشهير الذي تنديه سكامندروس وسميوس. ربّما كما سيقف فيما بعد يوحنا أمام الهيكل الضخم «عرش الشيطان» (رؤ ٢ : ١٣).

شقّ بولس كلّ آسيا الصغرى من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. هنا ندرك

لأوّل مرّة ما معنى «فيتو الروح». كان عليهم أن يبشّروا ويعملوا في أوربا، وكان لوقا هوميروس هذه الأوديسيا الجديدة، كاتب سيرة الرسول حاضراً في حينه، لأوّل مرّة يرى بولس القارّة الأوربية. كانت الجزيرة ساموثراكي تلوح من بعيد موشحة بالضباب وسط المحيط، وكانت مدينة برياموا بأطلالها تضطجع شمالاً. من هنا انطلق أنياس التقيّ حاملاً والده الشيخ على كتفيه ينتهي بعد تيه طويل عند شواطئ ايطاليا. إنّه هو الذي تصوّره فرجيل شاعر القصور واعتبره جداً للملوك الأوغسطيين فكلّلهم بإكليل الشرف. لذلك كانت هذه الأطلال بالنسبة للرومانيين ذات معنى مقدّس وكانت الهياكل الرومانية تزيّنها. مقابل ذلك كان تمثال باترومكوس يتعالى مرتفعاً شامخاً. هناك قفز الإسكندر بعدته من المركب إلى البر وقد ملأته الحرمة والحمية لبطله أشيل وقدّم العبادة اللّائقة لأبطال طروادة. يقال إن قيصر حلم بنقل عاصمة ملكه إلى هذا المكان حيث تكثر الذكريات العائلية التي تسلسل منها. رفع أغسطوس المدينة إلى مستعمرة رومانية للمحاربين. لا يزال حتّى اليوم بقايا هائلة لسدود مائية وأعمدة من الغرانيت ومثلّثات من المسرح والملعب تشهد لعظمة رومية المتسلطة عالمياً.

إذا كان بولس لم يقرأ شعراً في مدرسة طرسوس ولم يستهوه شاعر مع أنّه كان يروي الأبيات الشعرية عندما يتطلّب الوقت، فإنّه كان كإنسان مثقّف مطلع على ملاحم هوميروس التي كان ينشدها المنشدون والمتجولون في الطرقات. كان يعرف ما تعنيه العظمة البشرية ولم يكن باستطاعته أن يبقى بعيداً عن مؤثّرات هذه الأعماق البشرية العظيمة. إلّا أنّ أسطورة اليونانيين التي تأثّرت مدّة عشر سنين بامرأة وامرأة واحدة لم تكن لتوحي إلى هذا الإنسان الشرقي بأيّة عاطفة تقدير وإعجاب. إنّه لم يأت ليبشّر بالأساطير بل بحقيقة هي ملك يديه وبإعلان مقدّس هو ملء جوارحه. إنّ فكرة واحدة كانت تستولي على بولس وليس إلّاها. إنّه يكافح ليجلب كلّ الإنسانية إلى جانب المسيح. إنّ إعلان النصر في مارثون هو الذي كان يلحّ ويلحّ على حامله أن أسرع. ما كان يمكنه حامل النبأ أن يتوقّف قبل أن يحمل النبأ إلى الذين ينتظرون فوق أسوار أثينا. فوصل منهوك القوى محطّماً وعندما أعلن النبأ مات. إنّ بولس يشعر أنّه يحمل الإعلان الإلهي إنّه إعلان يهزّ. إنّ ابن الله جاء ليغلب آلهة الأولمب وإنّ أمام البشرية ينفتح المستقبل النير. أتقاس طروادة، أيقاس إيليون بهذا الحدث العظيم؟

فرح بولس كثيراً عندما طالعه الفجر بزرقته واتساعه العظيم وأمواجه. بحور عالمية وكنيسة عالمية كانت تمتزج في فكرة واحدة وتلوح أمامه في صورة واحدة. يلوح أمام عينيه حلم عظيم، حلم قلب الدولة الرومانية إلى دولة الله. إنّه حلم عظيم يجب أن يحقّقه هذا المكافح الإلهي شديد المراس. كان يعجب بعبقرية الدولة الرومانية وبروحها المغامرة ومحبّتها للحرية وروح نظامها واندفاعها إلى الأمام وجلدها الذي يعرف أن ينتظر كان يشعر بقرابة مع الروح الروماني. إنّ طموحه السري كان في حمل الإنجيل إلى روميه كتب فيما بعد إلى أهل رومية كان الشوق يتملكني منذ أمد لآتي اليكم (١٥ ؛ ٢٣) كان الروح يضيق مطلبه «كان على رومية أن تصبح ملك بطرس»[٢٠].

بعد أن استراح المسافرون الثلاثة قليلاً نزلوا إلى طروادة. كان عدد اليهود في هذا المكان قليلاً. لم يكن هناك مجلس قط. ممّا لا شكّ فيه أنّ بولس هيّأ التربة للبشارة بالأحاديث التي كان يوزّعها هنا وهناك. الميناء كان المجال المفضّل. هناك كان يجتمع اليونانيون والمكدونيّون.

كانت القوارب تدخل إلى هذا الميناء من أوربا وتخرج إليها. كان بولس حائراً فيما يفعله، قوارب كثيرة كانت ترسو في الميناء. ماذا يفضل؟ تدخّل الرب بذاته فحمل إليه لوقا الطبيب الأنطاكي الذي كان بولس قد تعرّف إليه في أنطاكية، ومن الجائز أن يكون قد عمّده. إنّ هذا اللقاء أعطى لمخطّط بولس السفري اتجاهاً حاسماً. يقول أفسافيوس إنّ لوقا كان أنطاكياً وكان مرتداً. إنّ اطلاعه الغزير في الملاحة يدلّ على أنّه ولد في مدينة على البحر وأنّه كثيراً ما أبحر متنقّلاً من مكان إلى مكان. المعروف أن الأطبّاء اليونانيين كانوا يطوفون في أنحاء كثيرة من العالم. يمكننا أن نقول إنّ لوقا كان يطبّب في المدن الساحلية كطروادة وأنّه تبع بولس كطبيب خاص وأنه لم يتركه قط، وأنّ اللقاء الذي تمّ بينهما صار سبباً لصداقة مثمرة في تاريخ المسيحية. إذا استثنينا مكوث بولس عند أهل فيلبي في الرحلة الأولى والثّانية فإنّ لوقا كان دائماً في رفقة الرسول. شاركه في سجنه الأول والثّاني في رومية ويذكره بولس في «رسائل الأسر» ثلاث مرّات. مرة في رسالته إلى أهل كولوسي (٤، ١٤) «يصافحكم لوقا الطبيب الحبيب» يدلّ هذا على عرفان الرسول المريض بجميل صديقه الأمين. يستدلّ أيضاً من تحيّات لوقا إلى أهل كولوسي، أنّ لوقا كان معروفاً هناك وأنّ له أصدقاء. في رسالة

بولس إلى فيليمون يظهر لوقا كمعاون ثمين. في سجنه الثّاني في رومية يكتب بولس إلى تيموثاوس بقلب مفعم بالألم «إنّ لوقا معي وحده» (٢ تيموثاوس ٤، ١١). إنّ لوقا عمل كما تذكر مقدّمة قديمة من العصر الثّاني في أخايا بعد موت الرسول بولس ومات في فيوتيا عن عمر يناهز الرّابعة والثمانين وأنّه دفن في ثيفا. فتّش أحد المختصّين في إنجيل لوقا والأعمال ليجد القوانين الطبية التي تتضمنها فوجد أن لوقا درس كثيراً الكتب الطبية اليونانية. «كانت دراسة الطب في الجامعات اليونانية معادلة لدراسة الفلسفة. كانت منزلة لوقا في ذلك الزمان كمنزلة كلّ طبيب في عصرنا الحاضر»[٣٢].

ثلاث نقاط بارزة في طابعه تؤثّر فينا تأثيراً بارزاً والنقاط كلّها يونانية. أولاً وقبل كلّ شيء محبّته للسفر وعلى الأخص محبّته للبحر التي قرّبته أكثر فأكثر من الرسول بولس. معلوماته الصحيحة عن الأسفار ومواعيدها وتوقيت البواخر تدلّ على أنّ لوقا كان يمتهن الطب في المدن الساحلية، ولا يستبعد أن يكون قد اشتغل في البحرية كطبيب، لأنّ السفر في البحر لم يكن في القديم متعة تطارد بل مهنة. ممّا لا شكّ فيه أنّ لوقا كان يعرف التوقيت الذي جاء به الفكر الروماني العملي، الذي كان يستعمله المسافرون، والذي يدين له الجدول الشهير بوتنجر، الذي يعطينا فكرة واضحة عن هذه الناحية [١٢]. النقطة الثّانية في طابعه هي إمكانيته الكتابية. كان مثقّفاً ثقافة يونانية بدرجة ممتازة، وكان يعبر عن أفكاره بصورة سهلة وبطريقة محبّبة. فاستقى من معاصري يسوع وممّن رأوه أخبار ثقة صحيحة عن مولده حتى صعوده فدونها باعتناء فوق الرقوق استعملها فيما بعد في كتابة انجيله. لغته اليونانية تفضّل كثيراً لغة الآخرين من كتبة العهد الجديد. يظهر أنّ ثقافته كانت في جامعة طرسوس ويظهر أنّ معرفته لبولس كانت تعود إلى ذلك التاريخ. إنه لا يتكلّم على نفسه بصورة المتكلّم إلّا إذا استثنينا (لوقا ١، ٣) إنّه يترك نفسه المتواضعة على الهامش. النقطة الثّالثة هي روحه الوديع، وطراوة نفسه، وإخلاصه حتّى الموت. كان من المعجبين بالرسول بولس غير أنّه بقي مستقلاً عنه ومعتدلاً في كلماته وأفكاره. «كلّ الشرق بأهدافه المتعدّدة وبانفجاراته المفاجئة تنحفر في قصصه المليئة بالجوهر» يصور الكلام تصويراً. كان على هذا الإنسان المتزن الهادىء أن يصير «كاتباً لسيرة أشد الناس حيوية»[٢٠]. ما أثمن هذه الروابط الشخصية للبشر أنفسهم وللملكوت السماوي! بالنور الذي قفز مشعاً من بولس صار لوقا شخصية عالمية وصار لعمله معنى في سير التاريخ البشري وهكذا

وهبتنا النعمة الإلهية صورتين تموران بالحياة من صور الكنيسة منذ تاريخ تأسيسها. الواحدة صوّرتها يد بولس في رسائله غيورة خفاقة من أجل الكفاح والثّانية يد جراح هادىء رصين. الشرق واليونان أعطيا معاً أجمل هداياهما: العمق والضياء والرؤى النبوية عند بولس والوضوح والطراوة الفكرية عند لوقا.

لا مجال للشك في أنّ لوقا وجّه تفكير بولس نحو مقدونيا بسبب ما كان يربطه بهذا الشعب من الروابط الوثيقة. لا بدّ أن يكون بولس قد وقف مع صديقه على الشاطئ حيث تتلاقى أيدي أوربا وآسيا في مصافحة أخوية، يتكلّمان مع ملاحي مقدونيا وبحّارتها ويحدّقان إلى جبال ساموثراكي الغارقة تحت ذهب الأصيل. كانت أمواج الحنين تملأ قلبه الرسولي وصور النهار كانت تستحيل إلى رؤى في أحلام الليالي. رؤيا واحدة من رؤى أحلامه جعلته يدرك بوضوح معنى حنينه. انّ مقدونيا تتراءى له من وراء البحر، فوق جبال ساموثراكي، ماداً يده وطالباً معونته وقائلاً «أعبر إلينا» إنّه صوت أوربا المسيحية. فيما مضى جاء شاب من مقدونيا في الحادية والعشرين من عمره حاملاً هدايا الغرب للشرق، اللغة اليونانية والفلسفة والآن وقد أفلست أوروبا روحياً تطلب راضية أجمل هدايا الشرق. نعرف اليوم أنّ أعمق الأشواق تنعكس غالباً في حياة الرؤى الرؤيا تسمح لنا أن نلقي نظرة على أعماق نفس بولس التي لا تعرف إلّا شيئاً واحداً، أن تحمل المسيح والإنجيل إلى أقاصي الأرض(٥٠).

بعد الرؤيا وبعد لقاء بولس ولوقا أخذت الحضارة الأوربية اتجاهاً جديداً. في اليوم الثّاني اطّلع بولس رفيقه على رؤياه. كان الإثنان متفقين في الرأي. إنّ الله في قلب الحادث. كان لوقا كطبيب يوناني مثقّف يعرف حلم اغاممنوس الشهير الذي طرق حلمه زيفس تحت صورة نسطور ليخدعه (الألياذة ٢: ١٠ — ٧٥). لكنّه كمسيحي كان واثقاً أنّ الله لا يوحي بصور خادعة. عندما رأى الرؤيا أسرعنا حالاً بالذهاب إلى مقدونيا ووصلنا كمدعوّين من الله لنبشّرهم.

«أعبر إلينا» لم تكن المسافة طويلة إنّها مسيرة يومين الدعوة لا تحمل طابعاً محلياً فقط فهي لها معناها الروحي والحضاري. إنّ العقلية السورية الفرعية كانت بالنسبة لليهودي قريبة أما الحضارة اليونانية المقدونية فكانت بعيدة جداً عن عقلية الرسول.

كان على بولس أن يقع تحت المشقّات فيصير لليونانيين يونانياً وللرومانيين رومانياً. «أعبر إلينا» تتردّد هذه الدعوة باستمرار من أجل الكنيسة. عليه أن يدرك وأن يتكيّف مع عقلية الأمم والشعوب الغربية وطريقة حياتها وعواطفها. ولا حقّ له أن يضغط على ما أعطي من الله وهو بالطبع ثمين. هذا لا يعني تقارباً. إنّه عبور. على الكنيسة أن تتكلّم بلغة الشعوب إذا أرادت أن يقبلوا المسيح.

٢٤. ليديا بائعة الأرجوان في مدينة فيلبي

(أعمال ١٦ : ١١— ١٥)

كان اليوم الذي وطئت فيه أقدام بولس ورفاقه الثلاثة يوماً عظيماً بالنسبة لتاريخ البشرية. وكان شعب شجاع باسل شريف يعيش في أرض مقدونيا، في هذه الأرض من أوروبا. لم يشتهر هذا الشعب بمجادلة ملكه الشاب الجريئة عالمياً فحسب، بل هيأ قبل أجيال كاملة طريق الإنجيل في الأرض. الكتاب المقدّس يعبر بصورة مدهشة بسيطة في بدء كتاب المكابيين الأول، ويصف هذا الملك وحروبه هكذا: إنّ الإسكندر بن فيليبس المكدوني بعد خروجه من أرض كيتم وإيقاعه بداريوس ملك فارس، وماوي ملك مكانه وهو أول ملك على اليونان، ثم أثار حروباً كثيرة وفتح حصوناً متعدّدة وقتل ملوك الأرض واجتاز إلى أقاصي الأرض، وبعد ذلك انطرح على فراشه وأحسّ من نفسه بالموت (ملك ١ : ٥) إنّ أعاظم رجال الأرض قياصرة كانوا أم اسكندر هم سابقون يفتحون الطريق ليمرّ الزارع الإلهي. «إنّهم عبيد الله» كان المكدونيون أكثر الشعوب شبهاً بالرومانيين وعندما احتلّ الرومانيون مكدونيا قسّموها إلى أربعة أقسام إدارية أهمّها سالونيك وفيلبي.

كان هيكل أرتميس في ميناء نيابوليس يحيي المسافر من بعيد وكان فوق صخر يعلو بشكل مدرّجات ولا تزال حتّى اليوم فوق أرض كنيسة القديس نيقولاوس دائرة تشير إلى المكان الذي نزل أول ما نزل فيه الرسول بولس. صعد المسافرون تواً إلى أعلى تاركين القرية الصغيرة وسالكين الجادة الشهيرة اغتاتيا التي بناها الرومانيون وأحياناً كانوا

يسلكون الطريق المحفور في الصخور من سلسلة جبال بنفيوت. أخيراً وصلوا إلى القمّة المرتفعة حيث تنطوي أمام أبصارهم مشاهد الجمال الرّائعة. امتدّت أبصارهم نحو السهل الغنيّ بمياهه وكانت فيلبي تقوم مقابل السهل في الطرف الأخير من أعالي سلسلة الجبال باكروبولها. مكان رائع مليء بالشعر. من هذا السهل الموّاج بالأزاهير حسب الأسطورة القديمة اختطفوا برسفوني وأنزلوها إلى العالم السفلي لتصير ملكة ظلال الأموات. وكانت ريح المآسي والآلام والأحزان تعصف في مروج اليونان وأحشائها إلى أن جاءها الإنجيل، هذا الإعلان المفرح للخلود والقيامة. لقد مرّ مبشّروه الأول بهذا المكان. وفي الأسفل عند نهر غانكيتس الصغير سقط بروثوس وكاسيوس في ساحة الحرب من أجل حرية رومية. هنا انتصر ماركوس أنطونيوس وأوكتافيانوس (٤٢ ق. م) على بروثوس وكاسيوس. في هذا المكان بالذّات ينتصب رسل الحرية الجديدة المبشّرون بفاتح جديد للمسكونة بدون حرب وبدون إراقة دماء[٥١]. في هذه السّاحة من المعركة قدم رسل الحرية الجديدة أكثر بكثير ممّا قدمه كلّ المكافحين مجتمعين من أجل الحرية تحت تاج العائلة المالكة الأوغسطية الرومانية. لذلك أعطى أوغسطوس لفيلبي امتياز المستعمرة الرومانية وأعتقها من كلّ الضرائب ومنحها كلّ الحقوق التي تتمتّع بها المدن الرومانية. كان للجنود المتقاعدين الوجدان الروماني النقي وكانوا يحملون مع آلهتهم الدينية أثينا وأرتميس وهرمس وهيرقل دقة الشعور الوجداني وطريقة الحياة الرومانية. إنّ الطريق الروماني الحربي الذي يقطع مكدونيا بشكل صليب من الشرق إلى الغرب ومن الأدرياتيك عبر برانديزي، هذا الطريق كان يصل إلى رومية وكان أهل مكدونيا يشعرون أنّهم مرتبطين بعاصمة المسكونة رومية وبجوبيترها وكابيتولها. وهكذا كانت فيلبي صورة مصغّرة عن رومية بسوقها والتياترو والأكربول وسورها. كان النّاس يفاخرون بحياتهم السياسية الحرّة وكانوا ينتخبون حاكمين أو واليين أو قائدين انتخاباً حراً يعودون إليهما في كلّ أعمالها وعندما كان هذان يذهبان إلى السّاحة للمحاكمة العلنية كان يتقدّمهما رجال يحمل كلّ عصاه وسوطه وفأسه.

كان سكّان مقدونيا يعيشون مع هؤلاء الرومانيين وقد استعمرهم في وقت من الأوقات فيليبوس وجعلهم عبيداً استغلّهم في استخراج الذهب من بنفيون. وكانوا من الذين يصعب حكمهم لغرابة أطوارهم وعجرفتهم وثقل ظلهم. وكانت النساء أصعب

من الرجال لا يتقيّدن بقيد، يعملن في السياسة ويلعبن دوراً هاماً في الإنتخابات، ينتخبن ويشاركن في الإضطرابات ويصرخن ويجادلن[٥٦]. لذلك عندما أعتنقن الدين المسيحي أثرن في محيطهن تأثيراً عظيماً فدخلت من تراقيا المجاورة بطريق الأناشيد أفكار وعادات من التعاليم الأورفية السرية كانت النفس في هذه التعاليم تتعالى في نشوة عظيمة إلى فكرة الخلود وكانت الروح القابلة للسماويات[٢٠]، الروح النسائية تشعر بهذا الإرتفاع الديني فوجد بولس خاصة في هذا المكان كثيراً من النسوة اللواتي تبعنه بحماس. تستطيع فيلبي أن تكون تربة مثمرة بالعمل التبشيري.

في اليوم التّالي من وصولهم فكّروا فيما يفعلون وكيف يبدأون ببشارة الإنجيل. كان اليهود قلّة في ذلك المكان. لم يكن هناك من مجمع إذ لا وجود للشرط اللّازم للمجمع، لا وجود لمعلمي الشريعة وكان وجود هؤلاء وفقاً للشريعة الكهنوتية شرطاً ضرورياً إذ منهم تتشكّل محكمة القضاء الناموسي. غير أنّ وجود مصلى بدلاً من المجمع، كان أمراً ضرورياً إذ بدون هذا المصلى [١٣] يسهل سقوط اليهود في الإهمال أو في عبادة الأوثان. كان لوقا يعرف المكان فقاد رفيقه إلى خارج المدينة حيث كان المصلّى المسوّر بجدران واطئة كجدران البستان. استولى عليهم العجب عندما رأوا أن الذين كانوا يصلّون هم عبارة عن قليل من النسوة اليهود والوثنيات. كنّ يقمن بفروض الصلاة الصباحية. في الأعماق البعيدة كان يجثم جبل بالفيون بجلال تكلل الثلوج قمته العالية. ما كان هؤلاء النسوة يعرفن الشيء الكثير إلّا أنّهن كن يملكن اهتماماً دينياً حاراً. الله يقود مثل هؤلاء إلى ما هو أبعد من الإهتمام. أمام هؤلاء النسوة الطيبات يستطيع بولس أن يفسح لقلبه في المجال ليتكلّم بحرية. فلما شعر بشيء كالذي شعره أمام هؤلاء المستمعات. أحسّ بأنّ عاطفة عميقة مليئة بالحنان غمرته. بين هؤلاء النسوة كانت سيدة أنيقة الهندام تصغي باهتمام ديني عميق. لم تكن من مواطني فيلبي، بل من ثياتيرا لذلك كانوا يسمّونها ليديا. كانت امرأة غنية تتاجر بالبرفير. كان زوجها قد توفي ولا نعرف عنه شيئاً وكانت تجارة البرفير تتطلّب رأس مال كبير وكان وطنها من أيّام هوميروس (الألياذة ٤، ١٤١) معروفاً بهذه التجارة. كانت ليديا من تلك الأرواح النسائية المرهفة فما أن سمعت باسم يسوع حتّى اعترفت به أنّه الطريق والحياة والحق. كان مستحسناً أن تكون في هذا الصباح أفوديا وسنتيخي اللتان كانتا تتنافسان ممّا

اضطر بولس أن يكتب لهما في رسالته إلى أهل فيلبي (٤ : ٢) لتسالما وهكذا يكون لدينا عدد من المعارف.

علينا أن نعترف بجميل لوقا لعبارته التي يقدم بها طريقة ارتداد ليديا. إنّ عبارته هذه تدلّ على معرفته العميقة للروح النسائية وكيف تعمل النعمة الإلهية: «التي فتح قلبها الرب فأصغت لما يقوله بولس» كانت ليديا امرأة ذكية حالمة. يجب على المرأة الموهوبة ألّا تتأخّر. لقد قرّرت ليديا فوراً أن تعتمد. من الجائز أن تكون قد قبلت سرّ المعمودية مساء ذلك اليوم عندما نزل بولس ومن معه من النسوة المؤمنات جديداً إلى مياه النهر المزبدة. إنّ التاجرة الواثقة ذات الحركات الحيّة العصبية «وبصوتها القوي كربة بيت[١٧]»، حملت كلّ أعضاء بيتها إلى المعمودية. يمكننا أن نتصوّرها أنها عملت مبشّرة بالمسيح في فيلبي وفي ثياتير وأن المديح الذي كتبه يوحنا بأمر من المسيح يستهدفها (رؤيا ٢، ١٩).

كان أول عمل قامت به ليديا بعد ارتدادها أن دعت فوراً المبشّرين إلى بيتها وقالت إن كنتم قد حكمتم عليّ بأنّي مؤمنة بالرب فادخلوا إلى بيتي وأقيموا فيه. قالت ذلك عن حكمة ولسبب تقصده. كان بيتها المقرّ الموافق للإلتقاءات الكنسية العبادية. إن شعورها بالكرامة المسيحية وحنانها الأمومي وطموحها النسائي وحدث تحقيقها في استضافة الكنيسة المسيحية الأولى والإهتمام بمبشّريها. من يلومها؟ فاضطرتنا يقول لوقا باسماً. قبول بولس لدعوة ليديا يعتبر امتيازاً مشرفاً. من الجائز أن تكون هذه المرأة قد لعبت دوراً ما في حياة الرسول. صارت عموداً من أعمدة الكنيسة المؤسّسة حديثاً ومنحت الرسول وكلّ مبشري الإيمان في الكنيسة محبّتها الأمومية. كتب بولس فيما بعد: تعرفون جيداً أنتم يا أهل فيلبي أنّه في ابتداء البشارة لما خرجت من مقدونيا لم تشترك معي كنيسة في عطاء وأخذ إلّا أنتم وحدكم فإنّكم قد بعثتم إليّ في سالونيك مرّة بل مرّتين بما احتاج إليه (فيلبي ٤ : ١٥ — ١٦) لا شكّ أن أكثر هذه الهدايا كانت من ليديا.

من كان يتصور أنّ الإنجيل سيدخل إلى أوربا بمثل هذه الطريقة السرية الخالية من الضجيج. لقد دخل كأنّه السحر أو نقطة ندى صباحية أو غياب شمس الأصيل. لم يكن دخولها احتفالياً كما حصل في أريوس باغوس أمام الفلاسفة ولا كما حصل في قبرص أمام والي قبرص. هذه الأنغام الحلوة القوية حملتها المرأة إلى الإنجيل إلى أوربا

اقترب من النساء أولاً لأن الرجال كانوا غائبين وحصل كما حصل مع السامرية التي أظهر المسيح لها سرّ ملكوت الله. بقيت النسوة حتى النهاية تحت الصليب يتابعن مراسيم الدفن وكنّ أول من وجد القبر فارغاً. لا يدور الكلام حول النسوة عندما يتحدّث الإنجيل عن الشتائم والسقطات والرياء والخوف والهرب. لا شكّ أنّ الرجال يصغي إليهم كمبشّرين وكوعّاظ وكممثّلي ديانات أكثر ممّا يصغى إلى النساء. لكن هل من الممكن أن تكون هناك أوروبا مسيحية بدون النساء، بدون امرأة مسيحية، بدون أم مسيحية وزوجة وأخت وبتول تخفّف الأوجاع والعذابات عن قلوب معذبي الإنسانية؟ أدرك بولس بعمق هذا الأثر النسائي وكان أول من استخدم المرأة في عالم البشارة عملياً. إنّه يقدر النسوة الموهوبات بمواهب روحية كبرسكيلا التي ثقفت أبولو المثقف وفي كلّ رسائله نجد اطراء للنساء. يقر بخدمات خلواي في قورنثية وفيفوس في كخربون التي يؤمنها على رسالته إلى أهل رومية يقرّ بطابع والدة روفو الأمومي ويعتبرها كوالدته وعندما يكتب للتاجر الثري فيليمون لا ينسى أن يرسل سلامه إلى زوجته أبافيا. يحترم احتراماً شديداً الأعمال البيتية وتربية الأولاد التي تقود المرأة الى السماء. يحترم في قيصرية أخوات فيليبوس بمواهبهن النبوية يهتمّ بالأرامل الشريفات اللواتي كرّسن نفوسهنّ لخدمة الرب فقامت الكنيسة بإعالتهنّ (١ تيمو ٥ : ٣، ١٦) يعرف الرسول كلّ ناحية من نواحي المرأة لأنّه كان يعرف بعمق النفس البشرية. إنّ نسوة فيلبي يقفن على أبواب أوروبا كصور مقدّسة كأنّهنّ يرمن أن يذكرن اخواتهن في القارة الأوروبية بالرسالة التي للمرأة في قلب الكنيسة وبضرورة قداستها وحفاظها على الشعلة المقدّسة التي جعلت من قارتنا عظيمة وسعيدة[٥٠].

لا يغربن عن بالنا ذكر أولئك الرجال المحترمين أمثال ابفراس الذي يسميه بولس «معاوني والمجند معي» وأقليمس وسيزيفوس وغيرهم من الرجال الموازين لأولئك النسوة بثباتهم والذين قال بولس عنهم إن أسماءهم كتبت «في سفر الحياة» (فيلبي ٤ : ٣) لم يحب بولس كنيسة كما أحبّ كنيسة فيلبي. كانت أول حبّة في الأرض الأوربية «فرح وإكليل فيلبي» (فيلبي ٤ : ١). «شاهدي هو الله إني أشتاق إليكم في أحشاء المسيح يسوع» (فيلبي ١، ٨).

٢٥. جارية بها روح عرّافة

(أعمال ١٦ : ١٦ — ٢٣ ، أنظر سالونيكي ٢ : ٢)

إنّ تأسيس كنيسة فيلبي ، هو من أهم الحوادث التعليمية في حياة الكنيسة القديمة. يمكننا أن نتابع هنا ولادة كنيسة جل مسيحييها من أصل وثني ، وأن نلقي نظرة عميقة على الوثنية بتركيبها الروحي ويأسها. ربح بولس وسيلاس فوراً عدداً كبيراً من المسيحيين اللّامعين ، والأصدقاء المتحمسين في المدينة. وكان هؤلاء يجتمعون على ضفاف الأنهار تحت أشجار الدلب ، وأحياناً في بيت ليديا. قامت النسوة بأعمال جليلة لاجتذاب العدد الكبير إلى الإيمان المسيحي ، إنّه لراحة ، ومتعة روحية ، أن تكون وسط هذا المحيط البهج الروحي ، بعد عمل شاق ، قمت به طوال النهار يا للغرابة ! إن أعمال الرسل تكتب باختصار عن هذه النواحي المشرقة الجميلة في العمل الرسولي ، وعن العلاقات النفسية البشرية. من خلال السطور ، يمكننا أن نكشف هذه الحقائق في رسالة بولس إلى أهل فيلبي. هذه الصفات البشرية مرمية في الوديان القائمة بين سلسلة من الجبال الوحشية كالندى كاتب التاريخ الرسولي لا يهتمّ بالندى بل بالوديان ، ووحشتها. أعمال الرسل كتاب بطولي ملحمة بطولية فيها توصف الصراعات العظيمة باختيار خاص ولا يتعرض إلى مثل هذه المشاهد الرّائعة التي تتخلّل ذلك إلّا لماماً[١٧]. يريد الكاتب أن يبرهن أنّ الآلام وحدها هي التي حقّقت التوفيق في العمل ، وإن البلاد الأخرى يجب أن تروى بالعرق وبالدم الرسولي. على المبشّرين أن يستضيفوا إله الرحمة بدلاً من البيوت الفخمة وعوضاً عن التأهيلات عليهم أن يستقبلوا إله الكل. عليهم أن يسكنوا بيوتاً فقيرة من خشب بدلاً من البيوت التي تبنيها الرعايا لكهنتها حباً بجاه أو مكانة عالمية.

إنّ اتجاهاً جديداً لتاريخ الإنجيل أعطته امرأة من أهل فيلبي. لم تكن هذه المرأة خارقة الذكاء كليديا. كانت فتاة هستيرية تتوسّط الأرواح وكانت تقطن في الطريق الذي اعتاد الرسل أن يمرّوا به إلى محل صلاتهم. كانت تخاطب الأرواح وكان أبولون اله الكهانة يحميها وكانت تتكلّم في حالة نومها لغات مختلفة كأنّها تتكلّم من بطنها وكانت كساحرة تقرأ أفكار البشر وتكشف عن أفكارهم الخفية وتتنبّأ عن المستقبل.

كان لمثل هذا النوع من الوسطاء الروحيين زبائن كثيرون وبما أنّها عبدة فكانت مورداً مادياً لأسيادها. كان ثمن عبدة كهذه باهظاً جداً وكانت خادمة في منتدى الكهان الوثنيين الذين كانوا يستخدمون الفتيات المريضات لابتزاز الأموال. إنّ مرور بولس بالطريق حرك روح الفتاة الفقيرة الخارقة. كانت تمسك بأقدام مبشّري الإيمان وتصرخ «هؤلاء هم رجال الله العلي وعبيده الذين يعلنون لنا طريق الخلاص» هذا لا يعني أن الإبنة كانت تملك فكرة واضحة وجدانية عن الحقيقة المسيحية. كانت تتحكّم بها أرواح شيطانية وتستعبدها إلّا أنّها كانت بالرغم منها تعترف أو بالأحرى تريد أن تعترف بتفوّق القوّة التي كانت في بولس وسيلاس. يهوه العلي كان إله الوثنيين في آسيا الصغرى وخصوصاً في ابنطوس. إنّه المرادف لاسم جوبيتر وأنيس وسفازيو (الرب الصباؤوت) [٢١].من هنا يمكننا أن نستنتج دين الإبنة وأصلها. وكانت من ميزات الأسرار الأورفية والديونسية أن يكون بعض الناس مكرسين لألوهة خاصة تحميهم ويبشّرون بها يحنون إلى الاتصال بها بطريقة سحرية اتصالاً خلاصياً معتقاً. كان لهذه الأسرار الأثر العظيم والتأثير في مقدونيا منذ القديم. لكن المسيحية وهي ديانة كشفية بوضوحها الفائق العقل تشكّل عكساً مطلقاً لعالم الأبالسة وملكوتهم المظلم. انّها ليست بحاجة الى شهادة الشياطين ولا إلى تطبيل العالم التحتاني والملكوت اللّاوجداني. إنّ المسيح لم يقبل شهادة الشياطين ولا الأرواح الشريرة التي تصيب الأجساد بمس. أدرك بولس فوراً أنّ هذه الشهادة تنبع من معين معاد لله ولم يكن بالإمكان ترك المجال مفتوحاً للقول بأن الإنجيل يقبل الحلول الوسيطة. عليه أن يقضي على كلّ تأويل يتيح الفرصة للقول بأن للمسيحية علاقة ما بالسحر. كان وجدان بولس يفرض عليه أن ظهر تفوّق المسيحية على مملكة الشياطين حتّى لو ثار آخارون والعالم التحتاني. وكانت الإبنة في الوقت نفسه تستحقّ العطف والإهتمام. إنّها ليست في حرب مع الحقيقة كالعالم القبرصي غايوس. أمر بولس الشيطان المستقرّ في الفتاة أن يخرج باسم المسيح فانحلت تقاسيم وجهها المضطرب وتلاشى العذاب الذي يتمسّك بمحياها. دخلت حلاوة المسيح إلى أعماقها وحلّت فيها وملأتها قوّة روحية طافت في عينيها دموعاً وماجت بالشكر. وشعرت كأنّها تحرّرت من مخالب قوة جهنمية ، أحسّت بأنّها عادت إلى ذاتها. يمكننا أن نتصوّر أنّ فتاة كهذه حرّرت ممّا كانت فيه. فكرّست نفسها لخدمة الإنجيل. إنّها كالممسوك بالشياطين في الإنجيل الذي قعد تحت أقدام المعلّم الإلهي بعد

شفائه أو كمريم المجدلية التي شفاها الرب من شياطينها السبعة وأهلها لكي تكون أول من أعلن القيامة (مرقس ١٦ : ٩— ١٠).

صادف بولس هنا، كما صادف سابقاً في قبرص وليسترا، تلك القوّة الجهنمية التي كانت تعذّب العالم القديم المقيّد، والتي كانت تميّز الوثنية : اجتياح القوى الشيطانية للمحيط البشري. لا نحتاج إلى كثير من الإدراك بأن أسيادها كان يمكنهم أن يثيروا الحكم المحلّي ضد الرسولين، إذا علمنا أنّها كانت تخدم الوثنيين، والكهنة المنجّمين، في هيكل أبولون. كان أعداء بولس من اليهود وكانوا يطاردونه عندما كان يسيء إلى ديانتهم أما الوثنيون فكانوا يضطهدونه عندما كان يمسّ مصالحهم المادية. حدث هذا فيا بعد في أفسس. لم تكن الشريعة تحمي الكهّان إذا ما طالبوا بتعويض. ولم يكن التعويض مؤكّداً إذا ما ادعوا به. لذلك كان عليهم في مثل هذه الحالة أن ينقلوا الإتّهام من ساحة التعويض إلى ساحة السياسة الوطنية. «هذان الرجلان يثيران مدينتنا وهما يهوديّان يناديان بعادات لا يجوز لنا قبولها والعمل بها إذ نحن رومانيون» لا تخلو هذه التهمة من الحقيقة. في الواقع إنّ بولس وسيلاس كانا يبشّران بديانة تدخّلت كثيراً بأخلاق وعادات الرعية الرومانية. المسيحية الحقيقية ترعب الرجال الذين تحاول أن ترفعهم من خمولهم وتحوّلهم عن طريق حياتهم إلى حياة أخرى. ليست المسيحية فكرة، إنّها طريقة حياة، إنّها الحياة كلّها لا أحد ينكر أنّ المسيحية ولدت خلافات بين العائلات في فيلبي، بين الزوج والزوجة والوالدين والأولاد.

لم يكن بإمكان القضاة أن يحافظوا وسط ضجيج الشعب على رباطة جأشهم ولا بإمكان بولس وسيلاس أن يتكلّما فمن يسمع أو من يعي! وما هم الحكام بمعرفة شخصية المدعى عليهم ما داموا من اليهود الذين نبتوا في هذا المكان فجأة لذلك حكم عليهما بالجلد بالإجماع. جلجل صوت الحاكم الروماني القاسي وتراجعت الأصداء موحشة «حلّ أيها الجلاد السياط واضرب» يلاحظ المرء أنّ العدالة الرومانية لم تكن في تلك المنطقة في المستوى الرفيع لذلك لا نستغربن إذا ما ندّد شيشرون بعدالة الوال فاريس. إنّه لم يندّد به بدون سبب.

يتبادر إلى ذهننا : لماذا لم يقل بولس وسيلاس أنّهما مواطنان رومانيّان؟ ألم يكن

بإمكانهما أن يتخلّصا من عقوبة الجلد بكشف حقيقتهما أمام المحكمة؟ كان الموظّفون الصغار في المدن الرومانية لا يعطون كبير أهمية للمواطنية الرومانية وكثيراً ما كانوا يحتقرونها. أما كان بإمكان الرسولين أن يقوما بمثل هذه المحاولة؟ من الصعب أن نجيب عن ذلك إجابة مقنعة. يمكن القول أنّ كلّ محاولة من هذا النوع وسط الضجيج كانت عقيمة. ومن الآية (أعمال ١٦ ، ٣٧) يستنتج إنّ كلّ محاولة وسط هذا الضجيج كانت باطلة وما الفائدة من الدفاع عن النفس وسط هذه الغوغائية؟ هل كان بإمكان الرسولين التغلّب على هذه الغوغائية؟ من الصعب. هل كان بولس وسيلاس في حالة من عدم الشعور بالكرامة البشرية؟ من يستطيع أن يدعي مثل هذا عن إنسان ما قبل في حياته حتى في أصعب الحالات عوناً حفاظاً على كرامته وأنفته! إنّ أقيستنا البشرية لا تطبّق هنا إذا تركنا العنصر الإلهي جانباً. يستعمل بولس مواطنيته الرومانية عندما يرى أنّ هذه المواطنية تخدم الإنجيل. وفائدة الإنجيل هنا هي هذه الذبيحة الدموية التي يقدّمها مع سيلاس كمبشّرين. إنّ عملاً كهذا العمل يتمّ دونما سابق تحقيق يشكّل عملاً جرمياً منافياً للشريعة حسب القانون الروماني. كان الحق في جانب بولس وفقاً لقانون فلاريوس وكان على السلطة أن تنتبه مسبقاً إلى هذه الناحية القانونية. وقد قلق القائمون على السلطة في اليوم الثاني بسبب هذا التسرع. كان العالم حيث كان بولس قاسياً. في رسالته إلى رومية يشير إلى قساوة قلب ذلك العالم ويقول بوضوح إنّه خلو من القلب والمحبة. لكن بولس يستطيع أن يغلب هذا العالم بالمحبة، بالإستشهاد الذي هو نهاية التعبير عن عمق المحبة. لم يكن بولس من الذين يفكّرون نظرياً. لم تمرّ الشهادة فكرة في رأسه. إنّه ليس كبقية الناس الذين يفكّرون في الاستشهاد ثم يعودون عنه. كان بولس إنساناً نظرياً وواقعياً. كان يملك كلّ القوى التي تخوّله الإستشهاد: الجرأة والثبات والجلد. إنّه يتحمّل الجلد صابراً والآلام باسماً «فأنا في أكثر السجون أكثر من الجلد فوق القياس ومن أخطار الموت غالباً. لقد جلدني اليهود خمس مرّات أربعين جلدة إلّا واحدة وضربت بالعصى ثلاث مرّات» (٢ قورنثية ١١ : ٢٣ — ٢٥) كان يعتبر حياته اشتراكاً في الألعاب الأولمبية وسط الملعب «لذلك لسنا نفشل ولئن كان إنساننا الظّاهر ينهدم فإنساننا الباطن يتجدّد يوماً فيوماً» (٢ قور ٤ ؛ ١٦) إنّ إنساناً كهذا الإنسان يملك أفكاراً كهذه الأفكار لا يمكن أن يغلبه العالم مجتمعاً.

٢٦. في سجن فيلبي

(أعمال ١٦ : ٢٣ — ٤٠)

في مدينة فيلبي التحتانية يرى المرء حتّى اليوم حلقات من أربعة أعمدة مشتّتة كانت فيما مضى أدلّة صامتة على عذاب الرسل. لم يزعج تيموثاوس ولوقا أي مزعج لأنهما كمساعدين للمبشرين لم يكونا مسؤولين. ربّما كانا متغيّبين وقت حدوث ما حدث للرسل فعرفا فيما بعد. لم تكن العذابات قد انتهت عندما عرف لوقا وتيموثاوس ما حصل للرسولين. أُلقي بولس وسيلاس في غرفة مظلمة قذرة في السجن الكائن في المدينة الفوقانية وسط الأكربول حيث كانت بعض الغرف محفورة في الصخر والبعض الآخر كان من الجهة الخارجية لها أبواب خشبية يقفل بامحال كبيرة من الخشب. كانت أرجل المساجين مركّزة فوق قطع سميكة من الخشب. أما الأيدي والعنق فكانت مطوّقة بزرد من حديد مربوطة بسلاسل مشدودة بأوتاد إلى الحائط. كان من الصعب أن يجلسا فبدا قعودهما كأنّه وقوف. كان اللهب يقفز من ظهريهما وجراحهما المفتوحة والرضوض كأنّها النيران المشتعلة أو كأنّ إبراً حادة كانت تنخزهما(٥٦). ومن الغرف المجاورة كانت تتصاعد الأنّات المخنوقة والصراخ المكبوت من شدّة الألم. وعند الهجيع الثّالث، ماذا كنت تسمع؟ تغيّرت تواقيع الألحان. ابتدأت الأناشيد الظفرية. أنّى لجدران ذلك السجن أن يكون قد سمع مثل هذه الأناشيد؟ في البدء ابتدأ النشيد همساً كأنّه حزن يتنفّس ثمّ تحوّل إلى نشيد قوي مفرح ارتجفت معه جدران السجن وأولئك الذين كانوا يبكون شاتمين أخذوا يصغون الواحد تلو الآخر. أنساهم النشيد عذاب السجن. استولى عليهم العجب وراحوا مطرقين يسمعون هذين الغريبين يرتلان وسط أوجاعهما «إذا ردّ الرب سبي صهيون كنا كالحالمين. حينئذ امتلأت أفواهنا ابتساماً وألسنتنا ترنيماً. حينئذ قيل في الأمم إنّ الرب عظم الصنيع مع هؤلاء» (مز ١٢٥ : ١ — ٢).

اعتبر النقد هذا المشهد كشيء غير ممكن. لكن النشيد، هذا الذي أنشده الرسل عند منتصف الليل. يأخذ مداه وجماله عندما نبحثه فقط تحت أنوار العبادة التي كانت تتمّ قبل المسيحية وفقاً للأوامر الرسولية في العصر الثّاني والتي تعود كما يقول بعض المختصين إلى العصر الرسولي بالذّات. كان النهوض في الليل عادة مسيحية «قم عند

منتصف الليل وأغسل يديك وصلّ. إذا كانت امرأتك وثنية اذهب إلى غرفة أخرى وصلّ». المبرّر أعمق ممّا نتصوّر. لقد تبيلمناه من آبائنا على هذه الصورة. «في مثل هذه الساعة يقف الكون كلّه لحظة واحدة يمجّد الرب: النجوم والأشجار والأنهار والملائكة وأرواح الصديقين»[٤١]، لا شكّ أنّ الدّافع لمثل هذا التفسير الجميل هو مضمون آية الحكيم سليمان (١٩ : ١٤). «حين شمل كلّ شيء هدوء السكوت وانتصف مسير الليل هجمت كلمتك القديرة من السماء». كانوا ينتظرون المجيء الثّاني عند منتصف الليل. هذه الفكرة كانت مألوفة عند سجينينا. وهكذا ولدت المسيحية عاطفة دينية جديدة عن الكون وأعطت للزمان معنى خلقياً كان الأقدمون يمثّلونه بالحظ[٢٢]، رأس أسد تلتف حوله أفعى. [٢٣].

إنّه لشيء جديد جداً أن تسمع مساجين ينشدون أناشيد مقدّسة بدلاً من قذف الشتائم والسباب. من يكون هذا الإله الذي يعطيهما مثل هذه القوّة؟ لا شكّ أنّهما خادمان ومبشّران باله جديد. إنّها ترنيمة جديدة لم يسمع مثلها العالم، إنّها ترنيمة المسيحية الجديدة. كان بولس وسيلاس يدركان ما يفعلان. السيد الذي حرّر بطرس من السجن لن ينساهما وكما كان المؤمنون يصلون في تلك الليلة في بيت مريم أم مرقس فكذلك الآن. اجتمع المسيحيون الشجعان حول تيموثاوس ولوقا من أجل الغرض نفسه. والله الذي جعل حاملي اعلاناته، الملائكة والعاصفة والنار، جعل من الزلزلة حاملة لإرادته. شكّ النقد في هذه العجيبة. الزلازل في بحر إيجه ومقدونيا ليست بنادرة. يمكننا أن نقول: إنّ حدوث الزلزال في الساعة التي كان يصلّي فيها الرسولان كان جواباً عن صلاتهما، وعملاً من أعمال العناية الالهية. كلّ ما تبقّى تطور تطوراً طبيعياً. كتب أحد العارفين بالسجون التركية «من رأى سجناً تركياً لن يعجب إذا انفتحت أبوابه وسقطت الأغلال وانتزعت السلاسل من الجدران[٣٨]». البلقان لما يزل كما كان قبل ألفي سنة بدون أن يتطوّر تطوراً يذكر.

الإرتعاش الذي يصيب النفس بعد الزلزلة أمر طبيعي، في البدء يقف الإنسان موقف الإندهاش منتظراً هزة جديدة. إن بولس وسيلاس اللذين رأيا الزلزلة كجواب من الرب عن صلاتهما انتصبا وتقدما من القسم الخلفي من السجن، حيث كانا يقيمان، إلى القسم الأمامي وأخذا يفكّان قيود من لم تفك قيودهم ويهدئان من روع اضطرابهم

ويمنعانهم من الهرب. في هذه اللحظة خرج مدير السجن من بيته راكضاً وقد رأى على ضوء النجوم الضعيفة أن أبواب السجن انفتحت واعتقد أن السجناء فروا. وفقاً للعقلية الرومانية تفرض الشريعة الحكم بالشنق في حالة إهمال السجناء إهمالاً يتيح لهم الهرب، وفضل مدير السجن الإنتحار على هذا القصاص الذي يفرضه القانون وحاول أن يحقّق رغبته لولا سماعه الصوت يخرج من أعماق الظلمة ويقول: «لا. لا تفعل شراً، كلنا هنا».

من الضروري أن نتصوّر حالة مدير السجن النفسية. كان يقيس الطريق يميناً وشمالاً من شدّة اضطرابه ويأسه ممّا حلّ به ومن فرحه العظيم وامتنانه من الذين خلّصوا حياته. وفقاً لمخطوط فيزا* بقي بولس وسيلاس في باحة السجن أما الباقون فأعيدوا إلى غرف سجنهم. أدرك مدير السجن أنّ هذين الإنسانين مرسلان من ألوهة معينة كما نادى في وسط المدينة وسيط الأرواح قبل أسبوعين. رآهما مدير السجن كيف تحملا أمس السياط والجلد بدون أن يتذمّرا وبجرأة لا نظير لها وكيف أنّ الدم كان يخرج من تحت السياط وسمعها وسط الليل بالرغم من كلّ ذلك ينشدان أناشيد لإلهها وها هو إلهها ينجدهما في الواقع. كان يشعر أنّه يقف أمام قوّة عليا فيرتعش، أمام ألوهة قيد عبيدها بيديه بالسلاسل. هنا يظهر وهن وعدم استقرار وانعدامية الحياة الوثنية. لا وجود لأسس ثابتة وقواعد عقلية. في كلّ مكان مشاعر فقط وهوس نفسي وانتقال من الأمل إلى اليأس وعلى العكس. لم يكن هناك مرتكز للنفس تستند إليه في رسالتها. الحياة قطعة بالية يطرحها المرء ساعة يشاء ويلقيها كأنّها نفاية عندما يفقد رباطة جأشه. لم يكن بين هؤلاء البشر وبين آلهتهم أي رباط. كانت لآلهتهم أعين وآذان إلّا أنّها ما كانت تبصر أو تسمع ولا تهتمّ بأيّة حاجة من حاجات البشر. أمّا هؤلاء فإلههم مختلف كلياً. إنّه يجعل خاصته أحراراً أقوياء سعداء. حبذا لو كانت حماية اله كهذا الإله تشملني! هكذا كانت تتتابع حلقة تفكير هذا الإنسان الوثني [١]. ومن أعماق نفسه الوثنية تصعد هذه الصرخة. أيّها الأسياد ماذا عليّ أن أفعل لكي أخلص؟ ماذا عليّ أن أفعل؟ هكذا كان يفكّر هذا الوثني. وينفتح مشهد رائع من مشاهد الإرتداد والمعمودية. لقد نُظر إلى بولس وسيلاس كمخلوقات سامية وأنّهما كانا سبباً للزلزلة التي حدثت. أحاطت بهما عائلة مدير السجن كلّها بخوف واحترام وسط السّاحة بالقرب من

* واحد من مخطوطات الكتاب المقدّس القديمة ويوجد حالياً في كمبردج.

النبع تحت بصيص النجوم. وكان درس من أكثر الدروس التعليمية غرابة. كان ذلك في ساحة السجن، وكان درس موجز من دروس أعمال الرسل بل أكثر الدروس إيجازاً لكثرة ما يروي من الأمور الغريبة والكثيرة. وما قولك في الرسولين وحالتهما. الأمس برهبته والليل بيقظته. بالأمس سياط وجلد وفي الليل أناشيد والجسد شحن بالجراح والثياب مغمّسة بالدم تلتصق فوق الجسد والرأس ينتابه الصرع الشديد والأحشاء يتأكلها الجوع ومع ذلك كان الرسولان يقومان بعملهما فرحين. استحوذ عليهما العطف تجاه منظر هذا الإنسان المعذّب الجاهل فنسيا كلّ الآلام وكل الجراح، نسيا نفوسهما وراحتهما الشخصية. لا نعتقدن أن الوثنيين يتحوّلون فجأة إلى مسيحيين. لم يكن لا بولس ولا سيلاس ليعمدا بسهولة وخصوصاً أولئك غير المستحقين. إنّهما لا يحبّان أن يعمدا ليقول النّاس إنّهما عمدا ولم يكن الرسولان من المتزمتين. كانا يتركان التعليم العقائدي إلى وقت آخر عندما كانت تضطرهم الظروف لضيق الوقت. التعليم يمكن أن يتمّ فيما بعد. المقصود أولاً هذه الخفقة النفسية، هذا التأثير الصميمي، أي أن تكون النفس لطبيعتها مستعدّة لقبول النعمة الإلهية. إنّ الحوادث الليلية ساهمت أكثر من أي درس آخر. كان الوثنيّون يعطون أهمية كبرى للأمور الخارجية في دينهم: العادات والإحتفالات والآن بينما كان بولس يتكلّم على المعمودية سأل مدير السجن بفارغ الصبر: ماذا يمنعني أن أعتمد؟ عندما رأى بولس عطش هؤلاء الرجال البكر أنهى وعظه وتعليمه بهذه الكلمات «آمن بالرب يسوع المسح تخلص أنت وأهل بيتك». وهكذا عند بزوغ الفجر، بدون أي شيء، أمكن تعميد كلّ العائلة بمياه العين الكائنة في ساحة السجن.

كانت زوجة مدير السجن أول من فكّر في أنّ السجينين لم يأكلا شيئاً منذ البارحة فقادتهما إلى البيت وأعدّت لهما المائدة وعكف رب البيت يغسل جراحهما باحترام وحنان إذ من الضروري أن تكون المائدة، مائدة محبّة، مائدة فرح، مائدة شكر. إنّها المائدة الأولى بعد المعمودية الأولى التي تمّت في أرض أوربية كما يستفاد. إنّ هذا الصباح الذي لا ينسى حاك حول الرسولين والمؤمنين الجدد رباطاً من المحبّة والتفاني: لا شك أنّ بولس كان يطلب مدير السجن الذي أحبّه كلّما جاء إلى فيلبي أو كتب رسالة ولا يمكن تصوّر فرح هذه العائلة عندما كانت تسمع رسائل بولس تقرأ وقت العبادة.

وعندما رأى بولس النجاح الذي أصابه تعزّى عن آلامه وشعر أن الإنجيل يستحقّ هذا الألم على الأقل.

لم تمرّ هذه الليلة المليئة بالحوادث دون أن تترك أثرها في حكّام فيلبي. كان للزلزلة مفعولها*. أيقظت فعلتهم بتجاوزهم القانون الروماني ضمائرهم بالتوبيخ. عندما طلع النهار أوعز لمدير السجن «أن أطلق أولئك الرجال» الآن جاء دور بولس كان الحكّام في متناول يده الآن. وكان يعرف كيف يعلّمهم بضيف لوقا بسرور بالغ لعبه الرسول. إنّه يلقي بمواطنيته الرومانية في وجه الحكّام ويقف منهم موقفاً متشدّداً. إنّه لا يحبّ أن يترك المدينة بدون ضجّة فتستريح منه المدينة بل يطلب من متقدّمي المدينة أن يرافقوه بكلّ مظاهر الإحترام الى خارج المدينة. إنّه كتلميذ للمصلوب كان يقبل أن يهان من أجل المسيح وكإنسان ذكي شريف لا يقبل أن يعامل كمتشرّد من أجل الإنجيل. جاء الأسياد والمتقدّمون كلّيو الإحترام ترافقهم ثلة من الجند ومعهم الحكّام وأصدقاؤهم* يطلبون السماح ويرجون الرسل حباً بالسلام وخوفاً من الاضطرابات أن يبرحوا المكان مودعين بكلّ ما يليق بمكانتهما. لا شكّ أن بولس قاوم كثيراً حتّى تمكّن أن يحافظ على رزانته أمام هذا المشهد المخزي. كان سيد الموقف ويمكنه الآن أن يغادر المكان بعد أن جعل الجميع مدينين له ملبياً رغبتهم كما دلّت صحته على ذلك. من وصف لوقا الجانبي يلاحظ المرء أن لوقا كيوناني خالص يعرف أن يصف بدقّة الحالات الهزلية. لم يكن بولس وسيلاس مستعجلين على ترك المدينة. ذهبا بحاشية إلى بيت ليديا حيث كان الإخوة مجتمعين. سام بولس هناك كهنة ومتقدّمين وأعطاهم الإرشادات الضرورية لإدارة الكنيسة. نستنتج ذلك ممّا يأتي: يستعمل لوقا من هذا التاريخ حتّى الفصل العشرين من أعمال الرسل الصيغة الثّالثة بدلاً من صيغة المتكلّم. إنّه لا يقول نحن بل أولئك (١٦، ٤٠) يمكننا القول إن فيلبي كانت بلد لوقا الثّاني. كان يطبب هناك. عن طريق لوقا كان بولس على اتصال دائم بالإخوة في فيلبي. كانت كنيسة فيلبي الكنيسة الوحيدة التي لم تضطره إلى التوبيخ والوحيدة التي كان يقبل منها عوناً مادياً خاصاً.

كلّما عاد بولس إلى ماضيه وتذكّر لقاءه في فيلبي تراءت أمام عينيه كلّ الإذلالات

* بحسب مخطوط فيزا.

التي تحملها. يكتب بولس إلى أهل سالونيك فيقول: «فأنا، بعد أن تألمنا وأهنا في فيلبي كما تعلمون تجرّأنا في إلهنا على أن نكلّمكم بإنجيل الله» (١ تس ٢ ؛ ٢) إنّ هذا كان أوّل كلمة شكر لأوروبا من أجل إنجيله. لكن أنّى للمرارة، أنّى لليأس أن يجدا لها مكاناً في هذه النفس الكبيرة! بالعكس فالأمّ تحبّ الإبن الذي يجعلها تتألّم أكثر وكان بولس يشعر نحو الكنيسة بعاطفة الأمومة. كانت الآلام أمّ سبيل في رعايته يمكن للكنيسة ككلّ مؤسسة أن تقوم بالوسائل التي تأسّست بها. وفقاً لصوفية الرسول «آلام العصر الوعدي كان يحملها أشخاص وفرق. المسيح يريد رفقاء في آلامه»[٦٥]، لكلّ عضو في جسد المسيح السرّي أعد قسم من هذه الآلام. يتعلّق كبرها وصغرها بالمسافة التي بينه وبين المسيح. لذلك على الرسل المؤسّسين للكنيسة أن يتحمّلوا أكثر. إنّهم معلّنون للموت. لأنّنا صرنا مشهداً للملائكة والناس وكأقذار يستخبثها الجميع (١ قور ٤ : ٩). على بولس أن يتألّم ما دامت هناك آلام كثيرة وما دام الله قد حدّد أن آلام الرسل لها معنى كشفي. وحضور المسيح الثّاني سيصير عندما تتمّ آلام المسيح حتّى آخر قطرة. كما أنّ حياته حياة المسيح كذلك آلامه هي آلام المسيح (كولوسي ١، ٢٤) لذلك يكتب إلى أهل فيلبي: نيتي أن أعرفه هو وأعرف قدرة قيامته والشركة في آلامه فأصير على صورته في الموت (فيلبي ٣ : ١٠).

لم يكن بولس إنساناً عصرياً كإنسان أوروبا المعاصر يشرب الغليون ويلعب بالورق. ما كانت المسيحية في جيلها الأول تعرف مثل هذه الأمور. هذه الأمور ظهرت فيما بعد عنما استتب الأمر للمسيحية وعندما تحقّقت أجواء المسيحية وصار البشر يتنشّقون هواءها. لكن الويل ثم الويل إذا ما انفقد العنصر البطولي من المسيحية وسيطرت الرخاوة عندئذ تهب عاصفة هوجاء فتحوّل كلّ ملذّاتنا وتصوّراتنا إلى حطامات. يسمح الله أحياناً أن تتزلزل قطاعات كبيرة من جرمنا الكوني لنتحرّر من ملذّاتنا ومن عقالات أهوائنا.

٢٧. ﴿في سالونيك﴾

(أعمال ١٧ : ١ — ٩. أنظر ١ سالونيكي ٢ : ١ — ١٢)
(فيلبي ٤ : ١٦)

كانت مدينة فيلبي المدينة الوحيدة التي تركها بولس لا بناءً على موافقة السلطات المحلية فحسب بل ودعته حاشية شرف. إنّ رحلاته التبشيرية إن كشفت عن شيء فإنّها تكشف عن المزيد من الأتعاب وعدم الاستقرار، إنّه لم يعرف الرّاحة. حياته كانت عبارة عن ذهاب واياب، عن انطلاق مستمر. إنّ همّته لم تكن شيئاً عابراً. كان دائماً يسعى إلى غير المعتاد «وإلى الجديد باندفاعه وارتفاعه للقيام بأعمال جديدة» ما كانت الأمور العابرة تساور عقله. إنّها ليست بذي بال ولم يكن من أولئك الذين تفتر حميتهم أو من الذين يقلبون للأعمال ظهر الإهمال أو يحبون عملهم مظهراً. «كانت ضرورات خارجية وظروف صعبة واضطهادات»[١٧]، تضطره للتنقّل من مكان إلى مكان. لم يوجد إنسان قط سيطر على ذاته كما سيطر عليها بولس لهذا من الصعب أن يدرك المرء كيف تمكّن هذا المتنقّل الدّائم بهذه الحركة الدّائمة أن يحصر فكره ويعطينا هذه الطريقة الفكرية الكاملة الكبيرة كما ترى في رسائله* في هذه النقطة يشبه يسوع النير كتلميذ للمسيح بالرغم من كلّ حيويته الحياتية.

في ربيع السنة الخمسين كان بولس وسيلاس وتيموثاوس يسيرون فوق طريق أغناتيا الحربية المعبّدة بالغرانيت باتجاه أمفوبوليس وقد استقامت الطريق مدّة يومين بمعدّل خمس ساعات مشياً في النهار الواحد. كانت مناكبهم في اليوم السّابق لرحيلهم منحنية من شدّة الألم فقد جرحتها سياط الجلّادين، وكانت أيادي ليديا الحنونة قد لفتها بأقمشة حنانها وكانت هذه الجراح تكوي، أما الأقدام فكانت تؤلمهم من فرط ما ضربوا عليها وكانت ملفوفة. كيف لا يستولي الإعجاب على المرء أمام بشر كهؤلاء يقومون برحلة كهذه الرحلة وفي حالة كهذه الحالة. إنّهم يحملون الآلام والأوجاع والجراحات ويجرّونها فرحين وهم يتوجّعون. كان الطريق ينساب وسط واد أليف وكان رائعاً. أشجار عن اليمين وأشجار عن اليسار وسط حقول فسيحة وكثيراً ما كانت أشجار الدلب المتعانقة تشكّل قناطر من الخضار يمرّ تحتها هذا الطريق العريض. كانت النسائم الطرية تهبّ

* إلى رومية، الرسالتين إلى أهل كورنثوس والرسالة إلى أهل غلاطية.

نازلة من أعالي جبل بانفيو المكلّلة قممه بالثلوج وكانت الجداول تتدحرج راكضة من سفوح الجبال باتجاه الخليج حيث يصبّ نهر ستريمونيس. من الطبيعي أن يجدوا راحتهم على حفة جلول أو تحت ظلال شجرة وارفة الظل. في مساء اليوم الثّاني خرجوا من الوادي فوصلوا إلى سهل ستريمونيس حيث بحيرة طاخنيو التي يصبّ فيها النهر ويتجاوزها. هنا يقوم النهر بانحناءة ليشكل شريطاً كبيراً حول شبه جزيرة كانت فوقها مدينة أمفوبولي تلوح على ضفاف البحيرة من الجهة الجنوبية. كانت هذه المدينة على مسافة ساعة من البحر تحيط بها الجبال وتكون منظراً خلاباً من ناحية بحر إيجه.

هنا توقّفوا وباتوا. وفي الصباح ألقوا نظرة على المدينة فوجدوا أنّها لا تصلح لتكون مقرّ انطلاق لعمل تبشيري في المنطقة. كانت سالونيك هدف المبشّرين. كان بولس يفضّل المدن الكبيرة لأنّها تساعد على سهولة الإنطلاق إلى التبشير في المناطق المجاورة.

عادوا إلى السير والعود أحمد، إن عليهم أن يقطعوا مسافة طويلة تستغرق يومين آخرين. هنا خليج ستريمونيس وهنا شواطئ جبلية. كانوا يسيرون وسط الجبال أحياناً ووسط السهول أحياناً أخرى وكان البحر بمنظره الأخّاذ يلوح من بعيد وقد اجتازوا بحيرتين جميلتين فوق متسعات خالكيذيكي وكانت تلوح من بعيد بحيرة صغيرة. أماكن الراحة خلّابة تلك التي كان يختارها المبشّرون ليستريحوا من عناء السفر، وكان وادي أرثيوسيس أجملها وكان كسد لمياه البحيرات البرية المندفعة نحو البحر. هناك وسط حرج من أشجار البلوط والدلب والصنوبر يقوم قبر أوربيد. البلابل تمطره بأغاريدها. في هذا المكان وجد قلبه المواج بالشكوك راحته. فكان الإله العظيم بآن قد مات ليستيقظ على نفخه ريح ويطارد بقوسه الرعاة والخراف. بعد أن ساروا تحت ظلال حرج من أشجار الكستنا، وصلوا في اليوم الرّابع إلى أبولونيا الممتدّة فوق جبل عال يفصلها عن آثوس الذي اشتهر فيما بعد بجمهوريته النسكية وكانت تمتدّ أمامهم المسافة الأخيرة التي بقيت من رحلتهم.

بعد رحلة شاقة وسط منطقة بحيرات منيغونياس وصلوا مساء إلى سلسلة التلال الأخيرة، إلى الشاطئ الشرقي من خليج سالونيك. في الأسفل كان البحر الأزرق دائم الحركة لطول امتداده، وفي الجهة المقابلة في البعيد كانت تلمع وسط الضباب ثلوج الأولمب (ارتفاع ٢٩٨٥ م) مقر الآلهة تحت أشعّة الشمس الغاربة. هناك عرش زيفس

في قصره الذهبي (الألياذة ١ : ٤٢٦). كان اليوناني التي يحجّ بأبصاره نحو ذلك المكان كما يحجّ اليهودي بأبصاره نحو جبل سينا «قطب فجأة حواجبه السود. قطب كرونوس حواجبه وبينما كان شعره الذهبي الإلهي ينسكب حول رأسه الخالد تشقّق جبل أولمب العالي» (ألياذة) : ٥٢٨ — ٥٣٠.

لا نزال حتّى الآن نشعر بسحر قوّة هذه الأبيات. لا نزال حتّى الآن نحسّ بقوة أبيات هذا الشّاعر الأعمى الذي كان يشعر شعوراً عميقاً بجوهر الألوهة ولا نزال نتابع وقوفنا أيضاً أمام تماثيل زيفس الأولمبي التي نحتها فيداس مستوحياً شعر هذا الأعمى المحلق. كان شعره شرارة من «بذار الكلمة» الأزلية للخليقة، الكلمة الذي جبل الكون وجاء مبشّرو المسيح ليعلنوا تجسّده. وكموطن للآلهة تخال أن الأولمب يتراءى وسط الكون العالمي الأثيري[٧٨]. هناك قال بولس إلى رفقائه «يطلب الشعب اليوناني آلهته هيّا بنا لنبشّر بالآب الذي في السموات ولنقل له إنّ هذه الجبال هي موطئ لقدميه». يتابع البشر التطلّع باحترام إلى ذلك المكان إلّا أنّ المثقّفين عرفوا من زمان أن هناك لا يقطن اله.

كانت سالونيك تمتدّ تحت أقدام المسافرين وكانت تشعّ كدرّة في أعماق الخليج المواج. سالونيك هي المدينة القديمة «ثارمي» وقد سمّيت سالونيك تيمناً باسم أخت الاسكندر الكبير. إنها عاصمة مقدونيا بدون منازع بمينائها الكبير المصون في بحر إيجه. وكانت طريق اغناتيا تصلها بروميه وبيزنطيا وآسيا ومن دير أخيو كانت تبتدئ طريق آبيا وكانت الطريق القديمة أعمق من الطريق الحديثة بأربعة أمتار ولا تزال بعض آثاره مكشوفة هنا وهناك. دخل المسافرون إلى المدينة الأوربية الأولى الكبيرة ولا تزال حتّى اليوم تغذّي بتجارتها القسم الأكبر من البلقان وكانت السطوح كدرجات مسرح روماني قديم تعلو بشكل نصف دائرة من البحر إلى فوق، وكانت طرقات وأزقّة عديدة تقسمها إلى أقسام فيها الكثير من البساتين تتعالى في وسطها أشجار السرو شديدة الخضرة. إنّ أطلال المدينة القديمة تخاطبنا عن تاريخها الفني، أسوارها وهياكلها الرومانية وأقواس النصر فيها. إن حماماتها السّاخنة ومسارحها وملاعبها الرياضية وعقدة مواصلاتها البحرية جذبت العديد من التجّار وفرق من الجنود والموظّفين. مراكب من مختلف الجهات. مسافرون من كلّ أنحاء العالم يحملون أفكاراً وأخباراً عن كلّ العالم. من هذا المكان كان

النّاس يسافرون إلى كل مكان وإليه وكانوا يقبلون من جميع أنحاء العالم. كان بولس يحلم أن يطأ بقدميه هذه الأرض وأن يضع قدم الإنجيل هنا. فمن هنا يسهل نشره في أنحاء حوض البحر المتوسط كلّه. وهذا ما حدث. لم تنقض سنة أو تكاد حتّى كتب بولس إلى قورنثية «فإنّها من عندكم قد ذاعت كلمة الرب لا في مقدونيا وفي أخائية فحسب بل في كلّ مكان قد انتشر إيمانكم بالله» (١ سالونيك ١ : ٨).

كانت سالونيك من النّاحية السياسية مدينة تجارة حرّة ذات استقلال محلّي. كانت فيلبي كمدينة للجنود القدماء ذات طابع روماني أما سالونيك فكانت تحمل طابع الشعب اليوناني التجاري الفرح.

كانت سالونيك ككلّ المدن اليونانية ذات أفكار ديموقراطية وكانت تنتخب كلّ سنة مجلسها المؤلّف من ستّة «رؤساء سياسة» يشهد على ذلك تاريخياً عنوان موجود في المتحف البريطاني. وجد مقر الحاكم الروماني في هذه المدينة ليحد نوعاً ما من محبّتهم للحرية. كانت شهرة سالونيك الخلقية سيئة وكان تجارها غير شرفاء يعمدون دوماً إلى الإساءة للآخرين. كانوا كسالى يحبّون الإستطلاع ويقضون أوقاتهم في الشوارع والأروقة وسباق الخيل وكانت أعمال الآخرين تهمهم أكثر من أعمالهم. كانوا غير أمناء في زيجاتهم تملؤهم الأهواء الجسدية وكانوا يقضون لياليهم في السهر والخلاعة. أول ما يكون المرء فكرة عن هذه المدينة كانت هذه الفكرة لهذا يحاول الرسول أن يحمي مؤمنيه من هذه الأخطار الخلقية (١ سالونيك ٤ : ١ — ١٢).

كانت سالونيك في الأمور الأخرى تشبه مدينة عاملة هادئة. ازدهر فيها صنع السجّاد والخيام. وكان التجّار يعرضون في الأسواق أجمل المصنوعات الشرقية بألوانها المختلفة وأجمل أنواع الجلود. كان السكّان مزيجاً من كلّ الأجناس، فهناك تجد المقدونيين والسوريين والمصريين واليهود والرومانيين وسكّان آسيا الصغرى. بعد التقصّي وصل المسافرون إلى الحي اليهودي. كان بولس يحمل كتاب توصية من أهل فيلبي إلى مواطن فيلبي اسمه ياسون يقطن في سالونيك. كان ياسون طيّب القلب ورعاً يملك مصنعاً صغيراً للحياكة ومتاجر كبيرة. وجد بولس ورفاقه استقبالاً حاراً كما وجد مسكناً وطعاماً وعملاً. في اليوم الثّاني لبس بولس حذاءه الجلدي وجلس إلى الآلة أما رفيقاه الآخران فوجدا ما يعملان به. لم يقبلوا أن يبقوا ثقلاً على مضيفهم وخصوصاً وأنهم

عزموا على البقاء هنا مدّة طويلة. «إنكم لتذكرون أيّها الأخوة تعبنا وكدّنا إذ كنّا نبشّركم بإنجيل الله ونحن نعمل ليل نهار لئلا نثقل على أحد منكم» (١ سالونيك ٢ : ٩) إنّه بولس بحقيقته. أكان بإمكاننا بعد سير طويل تثخننا الجراح وتتمسّك بمناكبنا الرضوض وتنتفخ أقدامنا بالإضافة إلى الاهتمامات التبشيرية والرعائية أن نجلس مسمرين وراء نول الحياكة لنربح خبزنا اليومي وأن نجلد مرّة في السنة؟ إنّ بولس وحده يستطيع أن يفعل ذلك.

كان عدد اليهود في سالونيك كثيراً في أيّام بولس وكان المجمع فخماً فقد زيّنه التجّار وأصحاب المصارف وكان مقراً لكلّ يهود مقدونيا[٥٠]. زار بولس في السبوت الثلاثة الأولى المجمع فوجد اهتماماً كبيراً بالأمور الدينية إلّا أنّه اهتمام متنوّع. كان هناك ما عدا اليهود الذين من الخارج عدد كبير من المرتدين «خائفي الرب» وخصوصاً من النساء. استقبلوا كالعادة كأناس يعرفون الكتاب المقدّس إذ درسوه في أورشليم فرجوا من بولس وسيلاس أن يقولا بعض الكلمات التثبيتية البنّاءة ويمكننا أن نقول بناء على استنتاجنا ممّا ورد موجزاً في أعمال الرسل، إنّ بولس تحدّث عن المقطوعة (إشعيا ٥٣، ٣ — ٨). إنّها أعظم وأدقّ مقطوعة في العهد القديم تتكلّم عن آلام المسيح وتتنبّأ عن الآلام التي سيصاب بها المسيح كممثّل للبشرية الخاطئة لخلاصها.

هذه المقطوعة «مزدرى مخذول من النّاس رجل أوجاع..» التي هزّت في يوم من الأيّام الحبشي المرتد خازن ملكة كندا كالتي فسّرها له فيلبس على أنّها بمعناها تستهدف آلام المسيح المخلصة، هي النبوّة الوعدية الهامّة التي وجدت تمامها في المسيح وفقاً لبشارة الكنيسة القديمة.

كان على بولس أن يلامس الجرح، أن يحلّ العصابة عن العيون حتّى يلتقي كلّ عصب من أبصارهم بكامل الحقيقة. كان عليه أن يقول لهم إن ملكهم مسيا الغالب المكلّل بالمجد ما هو إلّا هذيان فارغ. إن إكليل الممسوح هو إكليل الشوك، هذا هو القنوط، هذا هو الشك العظيم، حجر الشك الذي تصادم فوقه هذا الشعب. عبر بيلاطس عفوياً وبدون أن يدري عن هذا القنوط بقوله هوذا الإنسان! ها هو بولس الآن إنّه خلال ثلاثة سبوت يصور بلمسات كبيرة أمام أعين سامعيه الذين كانوا يصغون إليه مخطوفي الأنفاس. صلب المسيح كواجب إلهي عظيم (١٧ : ٣)، لا بمعنى القضاء القدري الذي يجري حتّى على

الآلهة بل القرار الإلهي المليء بنور المحبّة التي كانت مختبئة عن الأجيال السّابقة إنكشفت في المسيح. صوّر لهم الصليب كنقطة تتصالب عندها كلّ المضادات كمصالحة لكلّ خلافات، وكحلّ لكلّ المصاعب. تعلّق المسيح فوق الصليب كرأس للإنسانية ليطهر من جديد الدين القديم.

«في كلّ عصر تفرض المسيحية تاريخاً سابقاً للقلب والروح[١٧]»، لكي يتقدّم المرء إلى المسيح تاركاً تزمّت اليهود وحلولية الوثنية يجب أن تقع عجيبة خاصة من قبل النعمة الإلهية. إعتبر بولس أمر التهيئة للتعمّق في الكتاب المقدّس هو السبيل لمفعول هذه العجيبة. كان بولس يقود مستمعيه إلى دراسة الكتاب المقدّس دراسة أعمق. التفسير الصريح البسيط للكتاب المقدّس هو أفضل وأبسط وآمن طريق وخصوصاً تفسير الأنبياء. إنّ دراسة عميقة كانت النبع المجدّد للمسيحية والمخلصة لها من خطر الإنحصار في الأمور الخارجية والتحجّر الناموسي والمادية بسبب تكديس الكثير من العادات والأشكال ودمجه عالمياً بالسياسة. العنصر الثّاني الذي كان يفرضه بولس هو الحنين للحقيقة. وجد في سالونيك من قبل كلمة الله (١ سالونيك ١ : ٦، ٢ : ١٣). العنصر الثّالث هو الخوف المقدّس، خوف الله. إنّ بولس تمكّن بهذه العناصر الثلاثة أن يسحق كما حدث مع سجّان فيلبي بدون صعوبة الحواجز الوثنية والخيالات اليهودية ويحرّر القلوب للمخلص المصلوب[١٧].

٢٨. ﴿من سالونيك إلى فيريا﴾

(أعمال ١٧ : ١٠— ١٥)
(أنظر ١ سالونيكي ٢ : ١— ١٢)
(فيلبي ٤ : ١٦)

لم يكن بولس مبشّراً وفاتحاً فحسب بل راعياً. إنّه أهل ليثبت ويحافظ على ما احتله من أجل الرب. إنّه لا ينشد انتصارات صاعقة سريعة. إنّه يشبه نفسه كمبشّر «بالمهندس الحكيم» (١ قور ٣ : ١٠) «كراع» للنفوس، يشبه «الآب» الذي يحافظ على أولاده

بصراحته ووداعته في طريق الخير و«كأم» أولاد آلامها أغلى الأولاد وكمرضع تغذّي أولادها بالحليب (١ سالونيك ٢ : ٨— ١٢).

حسب الرسالة الأولى لأهل سالونيك كانت المواعظ في المجمع هجوماً فقط، تجنيد أول لجهاد رعائي طويل تبشيري منظّم يمرّ به لوقا مرور المتجاهل، لأنّ الغرض من كتابته إظهار قوّة الإنجيل للإنتشار. لذلك يسرع للكشف وإظهار المجالات الجديدة للعمل البشاري ومع أنّ بولس ربح أحسن العناصر وأشرفها في المجمع، اضطر أن ينفصل عنه حسب عادته. وابتدأ العمل الآن بعمق في بيت ياسون وفي المصانع والبيوت الخاصّة وغرف العبيد في بيوت الأسياد وفيالأحياء الارستوقراطية وكذلك في صالونات السيدات الأرستوقراطيّات (أعمال ١٧ : ٤). كان العمل فردياً بكليته : اتصال شخص بشخص، فرد بفرد، من بيت إلى بيت. نرى بولس وسيلاس بدفتر مذكراتهما وعناوينهما حاتهما يجتازان من طريق إلى زقاق في الأحياء المختلفة والضواحي ويصعدان وينزلان سلالم البيوت.

كان بولس يحاول أن يفيد كلّ شخص بمفرده. كان يصغي إلى شكوكه وحاجاته ومصاعبه. وكان بإمكاناته الخارقة يدخل إلى أعماق نفسه فيأسرها بطيبه وتفانيه ويزرع القناعة محلّ الشكوك. الجميع كانوا يشغلون حيز فكره ويعيشون في قلبه؛ الشاكون، والثّابتون والمتصلّبون في أفكارهم والمندفعون والنّاقدون والمتقلقلون والجبناء[٥٠]. كان هؤلاء جميعهم في أفكاره وأمام أبصاره وكان هذا بالنسبة لتيموثاوس مدرسة تدخله إلى روح وطريقة معلّمه العظيم. في رسالته الأولى إلى أهل سالونيك يصف بولس طريقته. كيف كان يجلس وحوله تلامذته والمؤمنون الجدد وكيف كان ينصحهم كأب كل بمفرده ويشجعهم وكان يستحلف كلّ واحد ليسير وفقاً لإرادة الله. كان هذا الإنسان العجيب يملك أرقّ العواطف القلبية وأغنى المشاعر وبها كان يحيك أجمل الربط القلبية فتربطه بالمسيحيين الجدد. وكانت هذه الصداقة الشخصية من أبرز الميزات التي تميّزت به طريقته التبشيرية. لم يكن يتوخّى من صداقته هدفاً ذاتياً أو تحقيقاً كبريائياً كضرورة للصداقة. كان الهدف من هذا كلّه ربط المؤمنين برباط المحبّة مع المسيح. وكخادم العريس يقود العروس إلى العريس السماوي. ليست المسيحية في نظر بولس تعليماً مجازياً ولا علاقة عقلية مع الله. إنّها قبل

كلّ شيء اتصال مرهق داخلي بالرب. وهذا شيء نمسكه بيدنا والذي من أجله يستعد الإنسان ليتألّم ويموت من أجله. هذا ما أفعله من أجل الإنجيل (١ قورنثية ٩ ؛ ٢٣).

لا يستبعد أن يكون وصوله إلى جذوة الشخصية أمراً صعباً بمزاجه وتكوينه الثقافي متخطياً الأمتار المختلفة التي تنسجها الثقافة والوراثة والأمّة في كلّ إنسان غير أنّ بولس كان يستهدف أول ما يستهدف كلّ ما هو إنساني خالص في الإنسان ليجعله رفيقه. «كنت لليهودي يهودياً لأربح اليهودي وللذين تحت النّاموس كإنسان تحت النّاموس لكي أربح الذين هم تحت النّاموس وللذين بلا ناموس كأنّي بلا ناموس مع أنّي لست بلا ناموس الله إذ أنا تحت ناموس المسيح لأربح الذين هم بلا ناموس وصرت للضعفاء ضعيفاً لأربح الضعفاء وصرت كلاً للكل لأخلّص» (١ قور ٩ : ٢٠). هذا المران الصالح لم يكن بالنسبة له تفكيراً بارداً لا يشترك فيه القلب «ومع أنّه كان بوسعنا أن نثقل عليكم بوصفنا رسل المسح كنّا مترفّقين فيما بينكم بل كما تحتضن المرضع أولادها هكذا كنّا من فرط الحنين اليكم نرتضي أن نبذل لكم لا الإنجيل فقط بل أنفسنا أيضاً لكونكم قد صرتم أحبّاء إلينا» (١ سالونيك ٢ : ٦ — ٨) لا يكتب هكذا أولئك الذين يفكّرون تفكيراً بارداً. لم يقترب العالم من تفانٍ مسرف كهذا التفاني ولا من كفاح رصين كهذا الكفاح، من نفس إلى نفس، كما حدث عندما زار ابن البشر بهيئة الرّاعي الصّالح والرّاعي الصالح بشخص أعظم تلامذته، العالم.

إنّ المسيحيّة الفتيّة في سالونيك كانت تملك موهبة الروح القدس بصورة واضحة. إنسكب الروح الحي بغزارة فوق المؤمنين الجدد وأعطاهم أن ينذهلوا سرياً. كانت في بعض الأوقات تظهر مواهب الروح القدس عند بولس شديدة جداً. عندما يكتب إلى أهل سالونيك ويقول: «إذ إن تبشيرنا بالإنجيل لم يصر لكم بالكلام فقط بل بالقوّة أيضاً بالروح القدس وبكمال القين» (٧ سالونيك ١ ، ٥) لا بدّ أن تكون قد عادت إلى الحياة تلك الرفعة المقدّسة في تلك اللحظات التي هزهم فيها بلسانه النبوي النّاري فبكى بعضهم بقوّة، إمّا لأنهم شعروا بألم مقدّس من حياتهم التي مرّت، وإمّا لأنّهم كانوا يشتركون مع المصلوب وبينما كان بعضهم يصرخون فرحين متعزّين كان يقفز أحد العرج ويمشي طائراً ويشفى مصاب بالشيطان بعد انتهار الشيطان الذي فيه. كان بولس بقوّة سبره لأغوار النّاس ينير هاويات نفوسهم ويبدو ما في أفكارهم المتصارعة وعواطفهم المحمومة من ظلمة

الفناء التي فيهم ويكشف الجراح التي خلقها الجرم مع المقدر والروح مع الجسد. هذه اللحظات كانت تترك في مستمعيه عواطف ومشاعر مرّة وحلوة كالتي يشعر بها المريض والمشوّه تحت مبضع الجراح لأنّ «كلمة الله حيّة فعّالة وأمضى من كلّ سيف ذي حدّين، تنفذ حتّى مفرق النفس والروح والأوصال والمخاخ وفي وسعها أن تميّز خواطر القلب ونيّاته» (عب ٤، ١٢). كانت هذه الساعة الحماسية والتأثر بداءة لشفاء جذري وانقلاب نهائي. عندما جاءت ساعة المعمودية الكبرى، عندما غطتهم وغمرتهم مياه نهرهم كوشاح سماوي، عندما مرّت أيّام الإرتداد الأول إذ ذاك ابتدأت خدمة الرسول العملية في الحياة اليومية. كان عليهم أن يألفوا شيئاً فشيئاً حليب الأمومة والغذاء المثبت الرّاسخ. إن الرسول لم يكن يتصوّر أن العواطف الغنية للموعوظين الجدد، الذين كان يعرفهم جيداً كانت محض خيالات. مع ذلك كان عليه أن يقول لهم إن تقديسكم لا الحماس الجنوني للمستنيرين حديثاً هو إرادة إلهية (١ سالونيك ٤ : ٣).

ابتدأت كنيسة سالونيك بسرعة تنافس كنيسة فيلبي بالإيمان الحي الفعّال وبالمحبّة المستعدّة للتضحية. إن كنيسة سالونيك وجّهت انتباهها إلى التبشير عن العالم الآخر. كان لسرّ انتهاء العالم الذي سيحدث بعد قليل أثره العظيم في نفوس السالونيكيين سريعي التأثّر. إنّ الشعور بأنّ العالم قادم على الدمار كان موجوداً آنذاك في الأمبراطورية. ليس مستبعداً أن يكون بولس من أولئك الذين غزتهم مثل هذه المشاعر (أي أنّ المسيح سيعود سريعاً) بدون أن يحدّد الزمان لمثل هذا الدمار. تحت تأثير كلمات بولس النبوية عن نهاية العالم والدينونة الأخيرة والإشارات التي تسبق ذلك. كان السالونيكيون الصالحون يرون أنّ الليل قد اقترب والدمار على الأبواب. لقد قضى كاليغولا على زهوة أمبراطورية أغسطوس وتيباريوس بهوس عظمته في أيّام كلوديوس. كانت نساء كميشالين واغربينا يلعبن بمصير العرش لعبة لا يقرها وجدان أولا وجدان لهن. وكنّ سكرى برحيق القوة الهوجاء وبعصير محبّتهنّ للدم. النيازك والأمطار المحمّلة بالدم وولادة المسوخ والآفات والطوفانات وتماثيل الأمبراطور المحطّمة بالصواعق كلّ هذه كانت كأنّها نذير شؤم. بالإضافة إلى كلّ هذا يقفز السؤال على الشفاه: لمن الأمبراطورية؟ من سيكون الأمبراطور؟ أفرتينكوس إبن ميشالين أم ابن اغربينا؟ أنيرون؟ من الجائز أن يكون بعض المسيحيين قد حرفوا بعض كلمات بولس ونشروها «أما نحن فموطننا في السماوات التي منها ننتظر مخلصنا الرب يسوع» (فيلبي ٣ :

٢٠) الذي أعطاه سلطان الملك. كان هذا سلاحاً خطراً في يد اليهود وعلى الأخص لأنّهم يعفون كيف يستعملونه. لم يكن فوق رؤوسهم سيف ديموكليس. قبل هذا التاريخ كان كلوديوس قد نفاهم من رومية. قد يطبق هذا القانون بحقّهم بين يوم وآخر حتّى في المقاطعات. عليهم أن يحوّلوا حقد الرومانيين ضدّ بولس والمسيحيين. تمكّن اليهود كما يكتب لوقا حرفياً أن يحشدوا رجالاً أشراراً من السوق ليبلبلوا المدينة وأخذوا ينادون مؤامرة. بولس. خيانة وهاجموا بيت ياسون. وعندما شعر المسيحيون أن الخطر اقترب أخفوا بولس في محلّ ما مع رفيقيه وعندما يئس اليهود جروا ياسون وبعض الإخوة كرهائن وقادوهم إلى حكّام المدينة وقدموا شكواهم متهمينهم الخيانة العظمى وأخذوا يصيحون أنّ هؤلاء فتنوا المسكونة وحضروا إلى هنا وحلّوا ضيوفاً في بيت ياسون وهم يعملون ما يخالف أحكام قيصر إذ ينادون بملك يدعى يسوع. كان الحكّام هنا أكثر يقظة من حكّام فيلبي. كانوا يعرفون قيمة هذه الوطنية والدوافع التي تحتها، ولما كانوا يعرفون جيداً أن ياسون كان مواطناً صالحاً اكتفوا أن يأخذوا منه مبلغاً كتعهد بأن الغرباء سيتركون المدينة بدون ضجّة وعلى وجه السرعة.

في المساء ذاته دعا بولس إلى بيت ياسون متقدّمي الكنيسة «الإخوة» وزودهم بتعليماته. ودعهم وشكر لياسون النبيل محبّته وتفانيه. كانت تضحية لا تحتمل بالنسبة لبولس أن يترك كنيسته التي كانت تنمو بصورة عجيبة في منتصف الطريق. لم تكن إحساساته بأنّ أيّاماً صعبة ستصادف المسيحيين الجدد وخصوصاً ياسون، لم تكن إحساساته كاذبة. في كلّ مرّة كنا نسمع فيها عن سالونيك كانت تطرق أسماعنا اضطهادات وأحزان (١ سالونيك ٢، ١٤، ٢ سالونيك ١ : ٤). كان بولس يعتقد أنّ ابتعاده لن يطول لكنّ الأمور جرت عكس ما تمنّى فلم يتمكّن أن يرى أصدقاءه طوال ثماني سنوات وعندما ذهب ثانية إلى سالونيك لم يجد راحة. كان عليه أن ينتقل من بيت إلى بيت هرباً. في الخارج معارك وفي الدّاخل خوف (٢ قور ٧ : ٥)، هذه الإضطهادات المستمرّة وطّدت ربط الوحدة في الكنيسة وحافظت على الغيرة المتأجّجة وعلى الثبات في الإيمان وعظم المحبة وكذلك فقد أعطته كنيسة سالونيك (٢ سالونيك ١ : ٤) معاونين كسكدُوندس رفيقه في الطريق في رحلته الأخيرة وارستارخوس الذي سجن معه في رومية (أعمال ٢٠ : ٤، ٢٧، ٢، كولو ٤، ١٠، فيلمون : ٢٤).

ترك بولس ورفاقه سنة ٥١ المدينة تحت جنح الظلام مارين بطول الخليج وكانت أنوار صواري المراكب ونيران الصيّادين التي لا تعد تنير طريقهم فتحاشوا السير في طريق أغنانيتا فاجتازوها إلى طريق أخرى ثانوية وبعد مسيرة اثني عشر ساعة وصلوا في اليوم الثّاني إلى مدينة بيريا الهادئة في المنطقة الثّالثة من مقدونيا. كانت الحياة في هذه البلدة الجبلية النّائية وادعة وكانت تزيّنها ينابيع كالبلّور في هذه الوحدة النسكية وسط كرومها وزيتونها، لم يكن شعبها السّاذج من العمّال والفلّاحين والمشتغلين في مقالع الحجارة ليعطي أقلّ أهمية لما يجري في العالم خارجاً وما يتردّد من الثرثارات في المدينة القائمة على الشاطئ الثاني. هدف بولس من بقائه في فيلبي انتظار هذه العاصفة في سالونيك. حاول مرتين أن يعود لكن الأحابيل اليهودية الشيطانية منعته وجعلت الأمر مستحيلاً (١ سالونيك ٢ : ١٨) وهكذا صرف كلّ وقته يعمل في تأسيس كنيسة جديدة. وكانت في بيريا رعية يهودية صغيرة ومجمع. وكان يهود هذه البلدة أنبل من يهود سالونيك. فقبلوا كلام الله بكلّ رغبة. وكان بولس يشرح الكتاب المقدّس، واليهود يفتّشون في الكتاب المقدّس اليوناني عن الآيات التي كان يذكرها الرسول ليدلّل على أنّ المسيح لم تكن رسالته سياسية فاعتنقت الطبقة الارستوقراطية هناك المسحية. وهذا برهان على أن المسيحية لم تكن بداءتها ملك للطبقة العاملة فقط. إنّ عدد النساء واهتمامهنّ بعمل التبشير يدلّنا على أنّنا هنا في أوروبا. منحت بيريا لبولس معاوناً اسمه سوبارتو بن بيرو الذي رافق الرسول في رحلاته (اع ٢٠ : ٤).

لم يطل الفرح كثيراً فكما أن نباح الكلاب في قرية ما تثير كلّ الكلاب المجاورة لمطاردة الدخلاء سراة الليل هكذا حصل في بيريا. شبّه بولس أخصامه في مقدونيا بالكلاب (فيلبي ٣ ، ٢) لم يلاق مثيرو الاضطراب والفوضويون المرسلون إلى بيريا أصداء. إلّا أنهم سببوا بعض الازعاجات. إنّه أمر متوقّع. ولقد قدّر الإخوة ذلك. هناك دائماً من يباع ويشرى، وهناك من تتأكله الشكوك. رؤي أن ينقل بولس إلى مكان آمن ما دام الأخصام يطلبونه ويستهدفونه بالذّات وينتهي هنا أيضاً جهاد الرسول بالهرب. قرّر بولس أن يترك مقدونيا نهائياً ويذهب إلى منطقة بعيدة عن الأعداء. فضل بولس أن يسافر بحراً. يكتب سجلّ فيزا أن بولس مرّ في تساليا «ومنع أن يبشرهم بكلام الله» هناك تقليد في بيريا يقول إنّ بولس نزل في ميناء ميثو ونيس وانفثار وخوريون ماراً بيونيون. يفترض البعض أنّ المرض عاود بولس في بيريا أو في سفرته الطويلة أو أنّه أصيب بانهيار عصبي. ليس الأمر

بمستبعد بعد حياة كلّها مؤثّرات عنيفة وعلى كلّ يصعب أن يفسّر لماذا رافقه مودعوه إلى أثينا وكانوا مصمّمين أن يعودوا بعد توديعه في الميناء. لقد ترك بولس في بيريا قطعة من قلبه. ترك سيلاس وتيموثاوس. اراد أن يقوم بهذه التضحية لأنّ الكنيسة الجديدة كانت بحاجة لها. وعندما ودعه إخوة بيريا رجاهم بحرارة أن يستعجلوا بإرسال سيلاس وتيموثاوس بسرعة. كان يشعر بأنّه مريض وكان بحاجة ماسّة لها.

٢٩. ﴿وحدنا في أثينا﴾

(١ سالونيكي ٣ : ١)
(أعمال ١٧ : ١٦، أنظر ١ سالونيكي ٣ : ١)

لا شيء بريح إنساناً مرهقاً محملاً بالآلام والإهتمامات كسفرة في البحر. فبولس شعر بهذه الرّاحة خلال الثلاثة أو الأربعة الأيّام التي قضاها في البحر الأزرق الغامق على مقربة من شواطئ تساليا. كان جبل الأولمب يمتدّ بحجمه الهائل أمام عينيه وأوساس وبيليوس ومرّ بمضيق أفريبوس بجزيرة الهائل ثم اقترب من سهل مارثون وسوينون ومن ثم وصل إلى عاصمة الهلينيين. «يا لليالي الجميلة لقلب معذّب! إنّها ليالي من العنبر. يا ليقظة الصباح! عندما ارتفعت فوق الأولمب آلهة الصبح ذات الأنامل الوردية لتقول لزيفس وللآلهة الأخرى أن استيقظوا فالنهار قد طلع» (ألياذة ٢ : ٤٨ — ٤٩). يا للصبح العجيب المقدّس الهادي الصّافي الذي لم يدنس! إنّه بزوغ إلهي. كيف شعر به هوميروس؟ بدا له الصبح صافياً كان الهة قد نقلته إلى ما فوق قمّة الأولمب. إنّ داود النبي يقول بقلب كلّه اهتزاز وتأثير «من الليل ابتكر إليك يا الله» الكتاب المقدّس والخدمة الإلهية مليئان بسحر الصباح. الذي يسافر دوماً بين الجزر اليونانية يتأثّر جداً اراد أم لم يرد بشاعرها العظيم. وبولس الطرسوسي «الإنسان ذو الألف روح» كما يمكن أن نسمّيه ملك في داخله مع اللغة اليونانية روحاً يونانياً عند الصباح في اليوم الرّابع اجتاز بولس سوينون آخر رأس من الأتيكي. كان ملاحو المركب يحاولون أن يوفّقوا بين سيره ومجرى الأمواج. كان هيكل بوسيدون إله البحر الغريب وأثينا الهة الحكمة يحييان الغريب. المرمر الأبيض حافظ حتّى اليوم على لمعانه بالرغم من مرور الزمن. هذه كانت التحية الأولى التي لقيها بولس من بلاد

اليونان. كان الريح يدفعهم نافخاً في الأشرعة عزيمة إلى سارونيكو مقابل آينا وسلاميس الشهيرة ليدخلوا ميناء بيرايفس ذات الصواري الكثيرة.

ها هي مدينة ثيسافس وأثينا الهة الحكمة تلوح أمامه . ظهرت بدرعها اللماح وخوذتها البرّاقة وقوسها الذهبي كأنّها تقول له: إنّ القوّة والجمال صبوة القلب البشري فوق الأرض، هما هبتان من الله غير منفصلتين وإذا انفصلتا عنه قادتا الشعب إلى الإنحطاط والدمار. في التقليد يروي أن أشيل عندما حارب الفرس في سلاميس من أجل حرية بلاده ورقص سوفكل في أعياد النصر ولد أوربيد. إن تضحية الحياة من أجل الوطن وآلهته هي حقيقة أعطت برمزيتها إلى الفن اليوناني الدفعة الكبرى إلى الأمام وإنّ هذا التوافق الثلاثي بين الدين والقوّة والجمال وضع أساس مجد اليونان. مرّة واحدة في تاريخ البشرية حدثت العجيبة غير المدركة . وصل شعب صغير جداً إلى قمة العلم والفن والفلسفة والسياسة والرياضة في ظرف لا يتجاوز المئة من السنين. ونسمّي هذه العجيبة أثينا حتّى اليوم نقف أمام أطلالها وريعان فتوتها التي لا تذبل مشدوهين «صار الجسد رماداً أما اسمهم فباق» لا الإسم فقط بل الفكرة والشريعة والقياس والجمال. ترى ألم يخفق قلب الرسول عندما رأى قوس أثينا ورأس الحربة الذهبية يلمعان من بعيد. عندما صرخ الشّاب الواقف فوق في أعلى الصاري: أثينا؟ بعد مرور ألف سنة تقريباً يصاب كلّ واحد كما أصبت به أنا. لا شكّ أن أولئك الذين غرقوا السنين الطوال في الثقافة الكلاسيكية حول الأساطير والتّاريخ حول المحبّة للقديم والفن والإعجاب بعظمة الإنسان والمأساة، لا شكّ أنّ هذه الأمور كلّها تستيقظ فجأة في أعماقهم وتتجسّد كأنّها خرجت من كهف سرّي أو كأنّها أنشودة من الحنين تطير نحو أثينا، فوق الأكروبول هذه التحفة المميّزة. ألم يكن بولس إنساناً بربرياً؟ في الحقيقة لا لم يكن. إنّ الإنسان الذي كتب إلى أهل فيلبي «وبعد أيّها الإخوة كلّ ما هو كرامة وحقّ وعدل ونقاوة ولطف وشرف وكلّ ما هو فضيلة وكلّ ما يمتدح كلّ هذا فليكن محطّ أفكاركم» (٤، ٨) يعرف أن يحترم ويقدر كلّ ما هو شريف وجميل يمتلكه الإنسان، وكلّ عادة لطيفة محترمة تسمّى قيمة بشرية تخدم الملكوت السماوي.

لم تكن اليونان التي يطأها بولس الآن تلك اليونان الفخورة، يونان بركليس، يونان حروب فارس، يونان الحرية ومحبتها. لم تكن اليونان التي عاشت تحت ظلّ المقدونيين وازدهت بزهو الإسكندر. بعد سقوط قورنثية ١٤٦ ق. م هوت اثينا إلى رتبة مقاطعة

رومانية ـــ اخائيا ـــ قليلة السكّان يديرها موظّفون رومانيّون جشعون ينهبون ثرواتها فصارت تحت ظلّ التّاج الروماني ظلاً لتلك اللؤلؤة اليونانية البرّاقة. فالبر والمدن صارت قاحلة. وكانت قطعان من الثيران والخرفان ترعى في تلك الأماكن حيث كانت تكثر المدن الصغيرة العاجّة بالسكّان. لم تبق غير اسبارتا والأرغو من البولولبونيز محافظين على نوع من المكانة. هوت أولمبيا من علوّها السّابق. وفي الثيني مدينة بندار لم يبق غير الأكربول مأهولاً. كانت كلّ فيوثيا مقفرة. لم يبق من تلك العائلات الأرستقراطية أحد ولم ينج من الدمار إلّا أثينا وقورنثية. إنّ أثينا مدينة لمجد أجدادها بخلاصها. وبهبات رومية، عادت قورنثية وانتصبت على قدميها من رماد أطلالها. لم تعد هيلاس إلّا متحفاً كبيراً للفن في ذلك الزمان يقصده السّائحون. وكان اليونانيون هم القيّمين عليه والمرشدين للغرباء. ألف من اليونانيين كانوا يعيشون بدون وطن في المقاطعات الغربية. صار العالم وطناً لهم. كان حظّهم كحظّ اليهود. أسقطت فعلاً هذه البلاد من هذا العلو إلى هذا الحضيض؟ لم يكن لأثينا نبي كإسرائيل ليرثيها.

إنّ أثينا بالرغم من كلّ ذلك، بالرغم من انحطاطها استمرّت تفرض نوعاً من السحر. فالروماني المستعمر كان يعتبر ثقافته ناقصة إذا لم يتثقّف فيها. وكانت الطبقة الرّاقية الرومانية تعتبر أنّ البقاء في أثينا شرط أساسي لبلوغ الرقي الكافي. فشيشرون وأوفيد وهوراتيوس وفرجيل هناك حلموا وهناك سطروا خواطرهم. والسياسيون كقيصر وأنطونيوس وبومباي وأوغسطوس كانوا يحترمون أثينا وكانت بالنسبة لهم كما هي أورشليم وروميّة بالنسبة للعالم الحاضر. كانت كلّ أمّة في العصر القديم يشرّفها أن تقدم إلى أثينا تماثيل أو هياكل أو أبواب كتقاديم احترامها.

بينما كان بولس يسير بمحاذاة الخندق الشهير وعند بقايا الأسوار الطويلة وأمامه مشهد الأكروبول العجيب عبر ديبيلو إلى مدينة تيسافس. من هنا عبر الطريق الكبير ذا الأروقة وذهب إلى كيراميكو حيث يقطن في بعض الضواحي عمّال ويهود فوجد له مأوى عند أحد أبناء ملّته. كان بولس قد رأى كثيراً من المدن الجميلة. إلّا أنّ الغنى الطّافح من هذه المدينة وأنوارها بهره، فشعر بالوحدة والغربة وسط هذا المظهر الوثني الذي سقط من عليائه. لم يكن أمامه أحد ليخاطبه، ليقول ما يجول في خاطره وقلبه من المشاعر والأحاسيس. كانت روحه تحوم دائماً في سالونيك فوق رؤوس أحبّائه. لذلك نراه يكتب

ويقول «وحدنا في أثينا» وعندما ودع مرافقيه من أهل بيريا رجاهم بإلحاح أن يقولوا لسيلاس وتيموثاوس أن يقدما إليه سريعاً (أعمال ١٧ : ١٥).

كان بولس يقضي في المدينة كالشريد تطويه الأيّام ويطويها محاولاً استجلاء روح هؤلاء البشر العجيبين (أعمال : ٢٧ — ٢٣). حتى الآن لم يكن بولس قد رأى مدينة ذات حضارة يونانية خالصة. لم تكن أثينا في أوج تاريخها. لم تكن كما كانت في عهد باركليس وأفلاطون وأدريانوس. لو استثنينا المعلّم بلوتارخوس وآمون الاسكندري لما عثرنا على شخصية بارزة.

في أحد الأيّام صعد بولس إلى الصخرة الوعرة في الأكروبول وكانت فيما مضى كرسياً للملوك وبقيت بعدئذ مقراً فقط للآلهة ولا تزال حتّى الآن «أكمل صورة لإشعاع الفن الكلاسيكي تنيرنا أشعّتها وتدفئنا حتّى اليوم[٧٠]» ترتفع الأكروبول كتاج ملوكي فوق المدينة وفوق هذا التاج يبرق البارثينون وهيكل أثينا هذه العذراء التي نحت تمثالها العاجي المذهب أزميل فيدياس كأجمل درة. إنّ فكرة الهة هذه ابنة «أبي الآلهة» التي قفزت من رأس الاله العلي بكلّ عدّتها كانت لليونانيين ككشف وتمثالها كأنقى تجسد للحكمة الإلهية وكانت بنقاوتها البرّاقة ترفرف فوق حقارات العبادات الحسيّة لعشتروت وديونيسيوس. من الجائز أن يكون بولس قد اقترب من أثينا التي كانت تغرق في تفكير عميق من أجل مستقبل هلاس (لوحة ١٧)، كانت بدون شك لقياً رمزية. تمكّن الفنّان أن يمثل ما رآه الفكر اليوناني قبل أجيال كاملة. في شخص أثينا تجسّد العناية الالهية التي تحمي الفتى تلماخ الذي يحافظ على الأوديسيا وسط المخاطر الكبيرة حباً بوطنه وامرأته وابنه فأخمد نيران غضب أشيل الوحشي وكان سيفه يلوح في الهواء ليطعن به أغامنون «كانت الروح المسيحية تتخلّل الحياة المسيحية بالطبيعة» وكان بولس يشعر ويحسّ بهذا النغم المعروف. إنّ كلامه فوق صخرة أريوس باغوس يدلّ على أنّه كان يشعر بذلك.

كانت أثينا التمثال الوحيد الذي يمكن أن يقابل بذاك التمثال الذي نحتته يد الفنّان في أولمبيا لزيفس الذي تخترق نظراته اعماق قلب المتفرّج وقد وقف أمامه القائد الروماني أميليوس بولس «كمن أصيب بسحر لا يجسر أن يتنفّس[٥٠]» ميزاته : الطيبة والعظمة، أما نظراته الهادئة فإنّها تتركك تسبح وراء الخيال إلى اللّانهائي. إنّ العناية الإلهية أعطت الشعب اليوناني الغني ميزة الشعور بالاله تحت شكل الجمال. بيد الفن الرقيقة الحسّاسة

دغدغ المرمر المصقول ليعرف إذا كان بإمكانه أن يحسّ بالجمال الإلهي الأوّل الذي غنّاه أفلاطون ، وأن يقارنه بمثالية المصريين والشعوب الأخرى التي اكتشفت آلهتها تحت أشكال الثور المقدّس والأسماك والأشخاص التي كان نصفها بشراً والنصف الآخر حيواناً. كان اليونانيّون ينظرون إلى الإنسان كأمل كشف للإله في شكله المتناسق الشيء الذي يشبه الشعور المسبق البعيد بسرّ التجسّد. من هذه المحاولة المؤثّرة لطلب الإله تحت أشكال الفنّ ومن اتصال الشعراء اليونانيين بالإلهي أخذ بولس موضوع حديثه ، وبطريقة عجيبة اندمج بالروح اليوناني.

بعد خطوات قليلة من تجواله وصل إلى أرختيون. كانت هنا الزيتونة التي تفتّقت من الأرض لا تزال موجودة. كان ذلك بأمر الآلهة التي حوّلت الصخور العارية أيضاً إلى نبات غنيّة نديّة. كان سراج من الزيت موقد أمام تمثال الآلهة التي وهبت هذه الهدية للبشر. كان السراج موقداً ليل نهار. كانت فكرة حسنة تعود بجذورها إلى أعماق أعماق كلّ إنسان وتستطيع المسيحية أن تتبنّاها فوراً . تأثّر بولس كثيراً عندما رأى أنّ الأثينائيين يملكون « هيكلاً للشفقة والرحمة » ، «ألم يكن هذا صراخاً عميقاً من أعماق الوثنية إلى اله الرحمة » الذي تجسّد؟ وقد أعلن اله دالفي يوماً من الأيّام :

« العمل يصير بالإنسان أما الإنسان فلا يزن شيئاً بالنسبة للرأفة الإلهية ».

يعود تاريخ تمثال الرأفة إلى اليوم الذي كان فيه الشعب اليوناني حراً . أمّا الآن فإنّ قابلية الشعب للعبودية تملأ الفاتحين الرومانيين حباً بإغداق ألقاب شرقية وقحة. كان على بولس أن يخطو خطوات ليجد هيكل جانيوس رومية وأوغسطوس. عبادة الأمبراطورة صارت عادة محلية من أيّام قيصر وأنطونيو وكما فعلوا سابقاً وبنوا هيكلاً للرأفة ، يمكنهم الآن أن يبنوا هيكلاً للرياء ومحبّة العبودية. لم يمرّ ما يقرب من الثمانين سنة على وجود أدريان في أثينا لتدشين الهيكل الذي بناه هو لزيفس الأولمي حتّى أعلنوه زيفساً أولمبياً ومخلصاً هلينياً عاماً وبكلمة الهاً . وقد قدمت له الإحترامات كإله للأولمب وقدمت لامرأته سافينا الإحترامات التي تقدّم لديمترا وأقاموا لصديقه العزيز أنطونيو هياكل بعد موته. التأليه هو الطريقة الوحيدة التي تعبر عن شكر المستعبد إلى سيّده وكمثال كلاسيكي على أنّ محبّة العبودية وتأليه الإنسان يسيران جنباً إلى جنب ويداً بيد هو أن عبادة الإنسان تجعله حراً وعبادته للإنسان تجعله عبداً. لم تكن أثينا في عصر بولس قد انحطّت كما انحطّت قورنثية والمدن

الأخرى التي كرّست كمستعمرات رومانيّة البارز في حياتها العامّة. عندما أرادت أثينا أن تسلك مسلك قورنثية وقف الفيلسوف ديموناكوس وقال: «عليكم أن تدمّروا هيكل الشفقة أولاً».

ترك بولس الأكروبول والخواطر المؤثّرة تملأ نفسه ماراً بالأبواب التي تدخل إلى الأكروبول «هذه الهالة اللمّاعة للتّاج الحجري العالي للصخرة المقدّسة»(٧٠). كل ما رآه بولس من عظمة وجمال تستهدف خدمة الوطن. هنا كانوا يعيدون كلّ أربع سنوات تذكاراً لتأسيس أثينا فكانت تقام المباراة الموسيقية والشعرية والتمثيلية والرياضية. إلّا أنّ أقدس لحظة في هذه الاحتفالات كانت تلك التي يقدمون فيها بعد أن يصعدوا الى الهيكل ستاراً حاكته العذارى اعترافاً بما في الهيكل من مواهب، وعندما كان الظّافرون يستلمون من الآلهة إكليل الغلبة. عيّد أهل أثينا هذا العيد مدّة ستة أجيال لهيكل مختص للآلهة، وقد تحوّل هذا المعبد إلى هيكل لوالدة الإله. أمام هذه الذكريات البشرية لا يمكن أن يبقى المرء جامداً، لا بدّ أن تغلبه الرهبة ويستولي عليه الخشوع وخصوصاً أمام تلك الجموع الحاشدة التي كانت تسير مقتربة من أبواب الأكروبول الذهبية ليدخلوها على أنغام صوت أريسطوفانوس وهو يقول: «يا لأثينا! هذه المدينة المكلّلة بالبنفسج، هذه المدينة المدارة بالجسد».

وقف بولس مفكّراً أمام هيكل النصر غير المجنح. أمام عينيه كان ينفح الأفق الأثيك كلها بجماله الرّائع وخطوط ألوانه المّواجة براً وبحراً. إنّه منظر يملأ النفس. هناك بعيداً وراء ساروليكو، عند زرقة السماء الطرف الأخير من رأس قورنثية حيث توجد تحت أقدامه تلك المدينة التي ستوفّر له أعظم الأفراح وتسبّب له أكثر الأحزان.

مرّ بولس عند نزوله من الأكروبول بسجن سقراط حيث قام ذلك اليوناني النبيل بتلك المجادلات بانتظار عودة المركب المقدّس من ذيلوس. لا يجوز تنفيذ الحكم قبل عودة المركب. فيما مضى قال اله دلفوس إن سقراط حيث قام ذلك اليوناني النبيل بتلك المجادلات بانتظار عودة المركب المقدّس من ذيلوس. لا يجوز تنفيذ الحكم قبل عودة المركب. فيما مضى قال اله دلفوس إن سقراط هو أحكم أهل زمانه لأنّه عرف حدود معرفته «أعرف شيئاً واحداً وهو أنّي لا أعرف شيئاً». إنّ «الدوكتا أغنورنتي» لنقولاكوزاس وهي كذلك نوع من التواضع تعترف بأنّ الإنسان عقلاً يساوي قليلاً أو لا

يساوي شيئاً. عندما اجتاز سقراط السبعين من عمره حاول أن يستشرق أكثر فأكثر ذلك الوجود كلّي الروح وكلّي الصلاح فكأنه تابع للكنيسة اللامنظورة التي هي ملك لأولئك الذين يحبّون الله ويفتّشون عن الحقيقة التي تحوي وفقاً لإرادة الله في خلاص الجميع كلّ أصحاب النوايا الحسنة الذين لم يسعدوا ليكونوا في كنيسة المسيح التي جاء بولس ليؤسسها. بما أنّ سقراط كان أميناً لذلك الوجود الكامل اللامنظور ويفاخر بأنّه عبد له وجد سقراط في تلك اللحظة القاسية عندما مان يشرب السم وكان السم ينساب رويداً رويداً إلى أحشائه القوية العظيمة. إن قبول سقراط الموت من أجل قناعاته هو موقف جديد لم تعرفه هيلاس سابقاً. كان كقرعة أولى للمسيحية. لا نعرف إذا كانت هذه الخواطر قد جالت في رأس بولس عندما مرّ بالقرب من سجن سقراط، إلّا أنّ العلاقات الروحية الإيجابيّة كانت موجودة منذ ذلك التاريخ وفقاً لقول الشاعر «هناك علاقات روحية سامية» لأنّه من فيثاغوروس يبتدئ خطّ روحي كبير ومن سقراط وأفلاطون وأرسطو وكليانتس يطلبون كما قال أفلاطون يوماً تلك المعرفة الوطيدة التي تتميّز دائماً بوحدتها في كلّ مكان «وهي واحدة وواحدة في ذاتها غير ناقصة وكلية واحدة فيما يتعلّق في الكل» وهكذا قال أرسطو فكأنّنا أمام تحديد القديس فيكنتيوس لورنيو.

هناك ما عدا هذه الخواطر التي ترفع في الماضي بإيمانها الديني القوي أموراً أخرى تظهر كأنّها مخالفة للأمور الأولى. كانت عاصمة اليونان عبارة عن غابة من الهياكل والمعابد والتماثيل والأروقة ومنحوتات بسيطة وملوّنة خشبية ورخامية ونحاسية وفضية وذهبية. الخروج من البيت بالنسبة للإنسان لم يكن يعني خروجاً إلى الطريق بل الدخول إلى منطقة أحد المعابد وكما قال بطرونيوس: أسهل أن تصادف في أثينا هيكلاً من أن تصادف إنساناً. اعتدنا أن ننظر بفكرنا إلى أورشليم قبل المسيح كعاصمة دينية للعالم. لو بقيت أورشليم محافظة على تلك الأفكار الدينية التي تشكّل بذار الديانة المستقلّة لكان ذلك صحيحاً في ذلك العصر. كانت أورشليم ممثّلة دينية لشعب، وكانت أثينا معتبرة كعاصمة دينية عالمية وكوسط فنّي روحي عالمي. إن منظراً كهذا، منظراً بالنسبة لإنسان كبولس تثقف في جوّ من التوحيد لا تنتقل عينك من تمثال حتّى تقع على هيكل ولا تترك هيكلاً حتّى تقع على معبد، إنّ منظراً لإنسان تثقّف في الكتاب المقدّس كان استشهاداً نفسياً لا يحتمل تقريباً، إنّ أعمال الرسل تستعمل كلمة اغتاظت للدلالة على ثورته الروحية. إنّ ما كان يهزّ أعماق نفسه النبوية المليئة بالغيرة من أجل عمل الله تلك الصورة عن النفس التي تركت كلّ

حاجاتها المقدّسة وسارت وراء متعة حسية. إنّه يتألّم للشعب. يمكن أن يجهل البعض سبب غضب الرسول إذ ذاك يعني إذاً أنّ في هذا العالم شقاء لا يمكن لفن أن يشفيه»[٥٠]. يتهم رينان[٧١] بولس بأنّه كان متمسكاً بأفكار عن التماثيل تمسكاً أعماه. أترتجفين يقول بصوته الغلاطي «أترتجفين أيتها التماثيل الجميلة البريئة للآلهة الحقيقيين» إنّ رجل الله الحقيقي يقف قريباً منك حاملاً مطرقته واسفينه لينهال فوقك تحطيماً وتدميراً. صدر قرار القضاء أن ضلال هذا العالم الصغير، هذا اليهودي القبيح الصورة هو حكمه عليك بالموت.. في الواقع لا يمكننا أن نتصوّر أنّ بولس كان ينتقل من تمثال إلى تمثال حاملاً مطرقته وازميله أو مأخوذاً بمتعة حسية. هناك أوقات يجب أن تترك فيها العقيدة الجمال للجمال والفن للفن. البرهان على ذلك، تلك النظرة التي نظرها المسيح لهيكل أورشليم بعظمته وروعته المرمرية فهو لم ينظر إليه كتحفة فنية. لم ينظر إليه معجباً بل قال: «لن يبقى فيك حجر على حجر» هذا الموقف وقفه بولس عندما رأى أنّ غضب الله يلمع فوق العالم القديم. هذه المواقف ضرورية من وقت إلى آخر، عندما يراد ألّا يقضى على الخير مع الجمال، لا ليثري الإنسان كما يقول شيار بل من أجل الحقيقة الأسمى، ليقاد إلى درجة إنسانية أسمى لذلك يجب أن يقضى على هذا العالم من الآلهة. كان اليوناني إنسانَ البطل والحظ البرّاق للشكل البشري كان معبوده، كان بولس يطلب الروح ولا روح هناك، إذا وضع باقي المتحف القديم للفن بقرب الفن المسيحي لاح الفرق العظيم، هناك فن لا روح فيه، وهنا فنّ يتوشّحه الروح الغزير. في الفن البدائي للنواويس تفتح النفس التي تحبّ الله لأوّل مرّة أعينها وتعرف سرّ خلاصها. كانت اليونان تسير في طريقها الصالح إلّا أنّها خسرت نفسها ولم تصب هدفها لذلك لم يفدها الفن وهكذا سلخت عنها قوّة الجمال.

الآن نشعر لماذا شعر بولس في هذه المدينة بالوحدة، إذ أرهقه التعب وحطّمه من كثرة الخواطر المتضاربة فارتمى فوق وسادته الحقيرة لينام وكان يتكلّم مع المسيح في متابعته لصلاته.

٣٠. ﴿الإله المجهول﴾

(أعمال ١٧ : ١٦— ٢١)

بقي بولس مدّة طويلة في المدينة. وقد اتجه حسب عادته الى العدد الكبير من مواطنيه. هناك بعض العناوين تشهد على وجود اليهود في أثينا. في السبت الأول ذهب إلى المجمع وخاطب اليهود «وخائفي الله» إلّا أنّ نجاحه على ما يظهر كان محدوداً. ربّما لأنّ اليهود كانوا قد وقعوا تحت تأثير الحضارة الوثنية التي كانت قد بلغت أوجّها فتعلمنوا. كان العدد الذي كان يؤمّ المجمع قليلاً. عليه أن يجرّب ما الذي يمكن أن يفعله مع الوثنيين والفلاسفة ليتعرف إلى أفكارهم الدينية فأخذ يتجوّل وسط المدينة باستمرار محاولاً أن يجد الموافق ليقوله وليعبّر عن الشيء الذي يكوي روحه.

كلّما فتّش هنا وهناك ضاعت منه فكرته الأولى التي كونها عن الأكروبول، واتّضح الإنحطاط الديني العميق الذي كان يسيطر آنذاك، اتضح جداً فشعر مرّة من مرّات شروده وتيهه بتأثر عميق قوي، وفجأة تسمّرت أقدامه في التراب. هناك في زاوية من زوايا الطريق كان يقوم معبد صغير كتب عليه «إلى الاله المجهول» هناك منابع كثيرة تعرفنا أن في أثينا وفي مدن أخرى كبيرغامو كانت توجد معابد وهياكل للآلهة المجهولة تحمل عناوين غير محدودة: «للآلهة المجهولة» [١٤]. في أثينا، في الطريق القائد إلى فاليزون توجد مثل هذه العناوين. حسب جيروم كانت بعض العناوين مكتوبة هكذا «لآلهة آسيا وأوربّا وأفريقيا المجهولة والغرباء» المقصود هنا تكريم آلهة مجهولة غير محلية. ومثل هذا التكريم يبعد عنهم غضبهم ويحميهم من سخطهم. يجب أن نستعطف كلّ إله باسمه، أما أولئك الذين لا نعرفهم فمن الضروري أن نحترمهم بتقديم الكفارات. وقف بولس مشدوهاً أمام هذا العنوان وفسّره بطريقة مجازية. ظنّ أنّه يعني كما يقول غوته على وجه التقريب «من يستطيع أن يسمّيه من يستطيع أن يتفوّه باسمه؟». كان بولس على حقّ من ناحية إيجابية. بعد سقراط والأورفيكوس كان اليونانيون وخاصة الرواقيون يرون بجلاء أن آلهة الشعب المعروفة ما هي إلّا تعبيرات وأقنعة لمجهول عظيم لا اسم له. ولقد برهن أفلاطون عن هذا المجهول العظيم مستنداً إلى داخلنا الروحي أمّا أرسطو فاستند الى العالم الخارجي واعتبر الطبيعة هذا المجهول العظيم ثم جاءت الأكاديمية بهوسها الشكّي فرجع هذا المجهول إلى

الوراء ، إلى الغيوم . وبما أنّ إله الرؤيا في العهد القديم كان مجهولاً عند الأمم ولم يكن لليهود حقّ في أن يتلفّظوا باسمه لذلك رأى بولس في هذا العنوان اندفاعاً إلى شيء أحسن وأسمى ممّا تعلّمه الأثينيون ، رأى نوعاً من التفتيش للعثور على الإله الحقيقي «لو فتّشوا عنه لوجدوه» هذا المشهد أثر تأثيراً عميقاً في بولس وضاعف عطفه على هؤلاء البشر الأشقياء الذين لم يتمكّنوا من أن يجدوا في مجمع آلهتهم الطريقة التي تطفئ ظمأهم الكاوي لمعرفة الله. عبدوا آلهة لا اسم لها وهكذا وبدون أن يدروا سجدوا لسر فوق الطبيعة . مثل هذه الانفتاحات من الحنين الديني نحو من سيحرّر الإنسان من شقوته ومن الحرب ومن كلّ أنواع سوء الطّالع ونادراً من الخطيئة والجرم نجدها في التقاليد القديمة للجنس البشري وعند كلّ الشعوب وفي تآليف اليهودية اللّاحقة الكشفية . هنالك صلاة عربية قبل محمد تقول : «يا إلهي لو عرفت كيف يجب أن أخدمك لخدمتك بشكر كما تريد لكن ويا للأسف لا أعرف»[٥١] . لم يتعلّم بولس اللّاهوت المقارن ولم يتعلّم أنّ هنالك عدداً من الصفات المتعدّدة . كان يسمع فقط صراخ النفس اليونانية المتصلّفة في طلبها للإله الخفي كما سمع في طروادة صراخ مكدونيوس . كان هذا دافعاً لإنطلاقة جديدة بالنسبة له حتّى لا يضيع رجاؤه (لوحة ٢٣) .

كانت أثينا سريراً للأساطير اليونانية التي تشكّلت بفن وخيال حتى أصبح تمثيل الآلهة في كلّ العالم المتحضّر يتمّ وفقاً لروح هذه المدينة . كانت أثينا المدرسة الكلاسيكية التّاريخية عن الآلهة . ترى ما تعنيه سرياً؟ العالم كلّه يشكّل وحدة كبرى ، كوناً روحياً مرتّباً سلمياً لأشخاص القوى الإلهية صادرة كلّها عن رأي الإله الأعلى أبي كلّ البشر ، والبشر كلّهم أبناء زيفس والإنسان أيضاً خلق حسب طريقة ما ، من بذار الآلهة وله مصدر إلهي ، فالرجال العظام في الماضي ، المحسنون العظام للبشرية وعلى الأخص هيرقليس اعتبروا بعد الموت آلهة ومثالاً يحتذى ومدرسة للذين هم في قيد الحياة . كان البشر كلّهم يؤمنون حرفياً أنّ هنالك آلهة عديدة أما الفلاسفة فكانوا يعتبرون هذه الآلهة تعبيراً لارتفاعات شعرية كانوا يرون فيها رموزاً وصفات ووجهات مختلفة للألوهة الواحدة . إذاً ، كان هؤلاء اليونانيّون أقرب النّاس جميعاً إلى الحقيقة المسيحية ، أقرب من تلك الألوف التي كانت تعتقد أنّها تسمع صوت الله وسط فيض الدم المخنوق ، كان اليونانيّون في عصرهم البطولي يؤمنون بغاية الألوهة فائقة الطبيعة وبقوّة هذا الإيمان قاموا بأعمال لن ينساهم العالم بسهولة [١٠].

في أيّام بولس كان اليونانيّون قد خسروا إيمان عصر نضوجهم ولم يسعد أرسطو أعظم عبقرية يونانية بتلميذ يحمل رسالته بعيده كتلميذه فيما بعد، في العصور اللّاحقة توما الأكويني وهكذا تشتّت ميراثه في أيدي عقول عادية فقضى السفسطائيّون على الدين وعلى الله كسبب لكلّ الأمور واعتاضوا عنه بتبادل فردي عابر أو بقوّة الشرائع الطبيعيّة التي لا تتأثّر وهكذا صارت الرموز القديمة تماثيل باردة ومعاني الفضيلة معاني وهمية أو فسقاً سميكاً. كانت الروح اليونانية قد طوت جناحيها ولم تكن جديرة بأي تحليق جديد. يمكن للمسيحية الفتيّة أن تتجاوز هذه الفكرة السطحيّة بدون أيّ لقب. لم يكن عليه أن يجابه أفلاطون أو أرسطو، بلى لقد كان على بولس أن يجابه فقط تجديداتهم التي لا ترضي العقل. «كانت هناك بروليتاريا فلسفية عصاها عصا متسوّل»، مع بعض الاستثناءات القليلة كما يعرضها علينا لوكيانوس إجمالياً.

إنّ الرواقيين والأبيقوريين الذين تذكرهم أعمال الرسل كانوا هم، ما قالوه بسخرية عن الرسول اي «مهذار» يركضون في جوعهم الروحي إلى البيادر الغربية ليجمعوا بعض البذار من المعرفة. فاستمروا يلوّحون بعباءة الفلسفة التي كانوا يرمونها فوق مناكبهم بطريقة فنيّة إلّا أنّ القوّة النبويّة في كلامهم هجرتهم. كانوا يدلّون الغرباء بفخر على أكاديميّة أفلاطون أو أرسطو، بل كان على بولس أن يجابه فقط تجديداتهم التي لا ترضي العقل. زينون وبساتين أبيقور وكان أعزّ شيء عندهم الذهاب إلى السوق حيث الأروقة والمعابد والمحلّات التجارية والأبنية الحكومية تشكّل إطاراً رائعاً للسوق. كانوا يتنزّهون هناك وفي أيديهم عصي نحيفة، وكانت العطور تفوح من أيديهم وشعورهم، وكانت لكلّ ساعة من ساعات النهار تحيّة تناسبها وكانوا يحبّون الشعوذة كالعجائز ويسمعون الفلاسفة القادمين جديداً لبيع حكمتهم وعرضها ويصطادون بهوس كلّ ما هو جديد في السياسة أو الأفكار الدينية الجديدة بعباءاتهم الممزّقة وعصيهم القاسية، حفاة لا مال عندهم مرّ بها المبشّرون الوثنيّون بشعوذاتهم حاملين للبشرية بعض الإعلانات الجديدة «وندلاند[٨٢]».

كما مجّت نفس بولس الإنحطاط الفنّي اليوناني الذي جعل الله مادّة وحساً، ولمّا أنّه لم يستطع أن يخفي هذا القرف وهو يتكلّم في أريوس باغوس كذلك حصل معه بالنسبة للفلسفة وعبادة اليونانيين. كان يلاحظ أنّ الدين كان يتّجه خطوات إلى الوراء ويسير بطريق العلمنة الكليّة. كان الدين يستخدم بتجميل الحياة الأرضية وتقديس الوطنية. ولقد

عرف اليونانيون كيف يجعلون من الدين دين متعة جذّابة حتّى لأولئك الذين ينعمون في قصورهم. أمّا إنسان كبولس رأى أن مثاليته القديمة السّابقة تحطمت وأنّ المسيح هو الّذي فتح عينيه على عمق الحياة وهاويتها فإن الجوهر يجذبه وللجوهر يصغي فملاح غرق في عرقه يكسبه إلى جانب المسيح يساوي في نظره الحقيقة كلّها ويفوق زيفس أولمبيا. كان يعتبر أن اجتماعاً يضمّ أصحاب المهن الصغيرة ملّاحين ومستخدمين هو أهمّ بكثير من جامعة كاملة بأساتذتها. يمكن أن نسمّي ذلك تعصباً. على هذا القياس يكون المسيح متعصّباً أيضاً لكن: هل يوجد إنسان عظيم ثائر في فكره أو في عمله، لم يجابه الحياة وسط الألوف من مظاهرها، من ناحية واحدة فقط تحت موشور فكرة جوهرية واحدة ولم يرفع العالم كمنجل أرخميد؟ هكذا بالنسبة ليسوع. إنّ الشيء الذي يشمل وحده الكلّ، الواحد الذي نحتاجه هو ملكوت الله. وكذلك بولس. كان إنساناً يستهدف فكرة واحدة يسعى إلى تحقيقها. كان يسعى وراء الإنسان الجديد، الحياة الجديدة في المسيح. إذاً ليس بمستغرب أن يظهر هذا المحيط الوثني غريباً جداً عنه.

عاش بولس مدّة طويلة في وحدته النفسية وأخيراً جاء سيلاس وتيموتاوس من بيريا وحملا معها أخباراً طيّبة عن المسيحيين فتنشط وأخذ يزور باستمرار السوق ويقوم بمجادلات دينية [آ ٣٥] كان السوق بالنسبة لأثينا الوسط الإجتماعي العلمي. وكان مظهر بولس الخارجي بلباسه الممزّق يشبه فيلسوفاً من فلاسفة الكلبيين. وكانت لهجته اليونانية الطرسوسية الأنفية سبباً في تجمّع الكثير لسماعه. كانت اللهجة الطرسوسية مثاراً للهزء والسخرية. كان تلامذة الفلاسفة يقصّون على أساتذتهم ما يقوله هذا الغريب من فلسفة شاذّة لا يمكن تصنيفها بين أيّة مدرسة من المدارس الفلسفية المعروفة كانوا يرون في حديثه مزيجاً من الخرافات الشرقية. إنّ الروح الأتيكي السّاخر وجد فوراً لقباً لبولس، المهذار، هكذا أرادوا أن يصوّروا الرجل. يقدّم كلّ أنواع الأطعمة دون اختيار. ماذا يريد أن يقول لنا هذا المهذار؟ كانوا كما يظهر مهتمّين ليعرفوا ما الذي سيقوله. إنّهم يعتقدون بأنّهم أكفاء للفهم وأنّهم عرفوا أنّه «داعية لشياطين غريبة» لكي يفهم المرء إطار هذا التعبير التّاريخي والحضاري عليه أن يعرف أنّ في التقليد القديم تعليماً عن «الرجل الإلهي»[٦٥] في نظر أفلاطون والرواقين والكلبيين وسينكا وأبكتيت، هناك مثال، الإنسان الأسمى «الرجل الإلهي» له معرفة أعمق في أمور الألوهة. أجل، إنّه نوع من الملائكة مرسل من زيفس يحمل للبشر رسالة. وفقاً لهذا التعليم كانوا يؤمنون بوجود أشخاص إلهيين مثل فيثاغوروس

وأمبيذوكل وسقراط وخريسيبوس. ما عدا هؤلاء الرجال الإلهيين الخلص. هناك بعض المضلّلين والسحرة والمشعوذين. كان الشعب لجهله يركض وراءهم. صادف بولس في دار الوالي سرجيوس إنساناً كهؤلاء، وبطرس صادق سمعان المجوسي واعتبر بولس وبرنابا في ليستراكارميس وزيفس. وفي فيلبي كانت الامرأة التي بها روح عرافة تصرخ وتقول إنّ بولس وسيلاس هما من عبيد الله العلي، ورئيس السجن رأى فيهما شيئاً إلهياً غريباً، في العالم القديم كلّه، في الشرق، وفي اليونان تغلغلت فكرة الإله الإنسان بعمق؛ بمعنى أنّ بعض الرجال صاروا آلهة. كان اليونانيّون يقبلون هذه الفكرة التي يحملها إليهم المبشّرون الإلهيّون بصورة جدّ واقعية كما يستدلّ من تاريخ منديمو الذي حضر بلباسه الغريب وبعباءته وبسيره الأحمر القاني وبقبّعته المصنوعة من جلد الدب وبلحيته السميكة الهائلة وبعصاه المصنوعة من خشب من نوع الزيزفون. بعد حضوره أعلن أنّه آتٍ من الجحيم وأنّه مأمور ليزور البشر «كمراقب» وأن يعود حاملاً للآلهة خطايا الأموات. كان مثل هؤلاء الرجال يظهرون من حين إلى آخر في بلاد اليونان وآسيا الصغرى، وكان الرواقيّون والكلبيّون يعتبرون أنّ الميزة الأساسية التي تقرّبهم من الله هي الفقر الإختياري وفقدان الضرورات الماسّة والاستقلال والحرية بالنسبة للبشر والأشياء(٨٣).

لا شكّ أنّ بولس أثّر فيهم تأثيراً غير عادي حتّى اعتبروه رجلاً إلهياً «داعية لشياطين غريبة». لم يخفِ بولس أنّه عازم على تبشيرهم بديانة جديدة. ما اصطادوه من فمه كان كلمات لها وقعها. المسيح والقيامة. لقد تصوّروا لصغر عقولهم أنهم بهذه الكلمات أدركوا الديانة الجديدة. اعتقدوا أن بولس جاء ليبشّرهم بزوج إلهي جديد، بألوهة رجل وألوهة امرأة. اسم الرجل يسوع واسم المرأة قيامة (يوحنا الذهبي الفم حول الأعمال عظة ٣٨، ١٨، أعمال)، لم يكن بإمكانهم أن يتصوّروا أنّ هذا المهذار سيضع فلسفتهم جانباً ويقلب دراستهم. احتاج ذلك إلى أربعماية وخمسين سنة حتّى جاء يوستنيانوس الأوّل وأغلق مدرسة أثينا بجرّة واحدة من قلمه. بهذا العناد قاومت الوثنية. إنّ هذا التفسير العجيب كان سبباً دفعهم ليطلبوا من بولس شيئاً أكثر إيجابية. أن يمثّل أمام آريوس باغوس أعلى وأجلّ مجلس في أثينا. كان آريوس باغوس وحدة أرستوقراطية ومحكمة كلاسيكية لكلّ القضايا الدينية والأخلاق والعبادة والثقافة التي يعترف الجميع بسلطانها. يشكّل هذه المحكمة حسب التقليد شيوخ أجلّاء وكانت في يوم من الأيّام محكمة القسم المقدّس تجتمع في الليل فوق قمّة اريوس باغوس التي يربطها بالأكروبول رأس ضيق لتحاكم المجرمين. مَن يرَ

آريوس باغوس اليوم يصعب عليه أن يصدق أن بولس تكلّم فوق هذه الصخرة المفتوحة على الرياح كأنّه فوق منبر عال تنعكس عليه إنعكاسات الأنوار على العواميد المرمرية. الأغلب أنّ آريوس باغوس كان يجتمع في الرواق الملوكي في السوق حيث لفظ ديموستاتيس خطبه. هنا قام بولس بدرسه التجريبي وكان عدد المستمعين كثيراً، منهم المفكّرون المختارون في بلاد اليونان والأساتذة والطلّاب. لا يجب أن نتصوّر أنّ بولس كان يتكلّم ليدافع عن نفسه، لم يكن مدعى عليه، كان يتكلّم بملء حريته. كان يتكلّم كإنسان حرّ أمام أعلى سلطة لها الحقّ في أن تعطي رأيها فيما يقال وأن تقرّر إذا كان يجوز له أن يعلم. ويظهر، من رجاء شيشرون لآريوس باغوس بالسماح لكراتيبو بالكلام أمامهم أنّ هناك رقابة على المتكلّمين.

لم يكن بولس من ناحية ثقافية بربرياً ولا عابداً للصور. كانت له فكرة سامية عن الجمال، جمال الفن. كان يريد أن يجعل من الرجال الأحياء مسيحيين ومن المتكبّرين الجافين أناساً دافئي المشاعر وأن يجعل المسيح داخل نفوسهم ومحلّ الأسطورة عن مولد أثينا من رأس زيفس، كان يريد أن يزرع حقيقة الكلمة الأزلية حكمة الله الذي صار إنساناً. كلّ هذه الأمور كانت في نظر بولس فناً أعظم من أن تأخذ الحجارة الميتة وتصنع منها تمثالاً. كانت البومة، طير الليل الذي لا يقوى أن يقاوم بعينيه نور النهار، رمز أثينا المقدّس. هكذا كانت الحكمة في اليونان. كانت صورة مرمرية مظلمة عن الحياة. وكان بولس يدعو إلى معرفة الإنسان لله كنور ومحبّة وحياة. هذه المعرفة هي التي تجعل وجه الحياة مشرقاً.

٣١. ﴿ آريوس باغوس ﴾

(أعمال ١٧ : ٢٢ — ٣٤)

كانت دراري بلاد اليونان ترتجف منطفئة. بدت كما كانت قبل ثلاثمائة سنة، عندما حوكم أمام المحكمة نفسها أحكم مَنْ في اليونان. كان على سقراط أكثر الفلاسفة ديناً في بلاد اليونان أن يدحض تهمة كونه ملحداً، وأنّه يدعو «إلى شياطين جديدة». كان سقراط

يسمع صوتاً في داخله وكان يعلم تلامذته ما يوحي اليه هذا الصوت الدّاخلي. مهما كان الحكم جائراً فلا يسعنا إلّا احترام تلك المحاولة التي بذلها القضاة للمحافظة على التقاليد القديمة. كان بولس يقف أمام ورثةٍ تافهين لجيل من الحكماء، كان أمام جيل سخيف سطحي النظرة ينظر إلى القضايا الدينية نظرته إلى مادة مسلية للنقاش.

كان بولس يعمل حتّى الآن في مناطق هيأتها اليهودية، أو من ارتدّ إليها، أمّا في أثينا فالجوّ قد تغيّر كلياً. وجد بولس نفسه في آريوس باغوس أمام عالم غريب كلياً عن عالم اليهودية. كان عليه أن يبدأ كلامه انطلاقاً من عالم آخر. كان عليه أن يجد منطلقاً جديداً يقوده إلى المسيح. عندما يتكلّم مع اليهود كان يستند إلى كلمة الله وعندما يخاطب الأمم كان يستند إلى عمل الله في الطبيعة. عندما يخاطب اليهود كان يستعين بالكشف في تاريخ الخلاص، وعندما يخاطب الوثنيين كان يستند إلى شهادة الوجدان عن الله وعن الخبرة القلبية الدّاخلية واحتياج الإنسان الحب والحنين الذي يشعر به للالتصاق به، كانت النقاط التي اختارها بولس من الفلاسفة القدماء، كمنطلق لحديثه، لا تشير إلى قرابة فكرية أو إلى شبه في النضوج الديني والقابلية النفسية بل إلى شبه بعيد في التعابير والصور وفي مدى إمكانات النفس البشرية العامّة العميقة وفي الشعور بضرورة الخلاص حيث تتشابك الدوافع الأرضية والدينية.

لم يكن لأفلاطون وأرسطو في عصر بولس مدارس. إلّا أنّ أفكارهما كانت حيّة في المدارس الأخرى. كان مستمعو بولس قسمين من النّاحية الفلسفية: قسم يدين بالرواقية وقسم بالأبيقورية. من الصعب أن يقدر المرء مدى تأثير الفلسفة الرواقية في ذلك العصر. لم تكن الرواقية في ذلك العصر وحدة ملموسة. كانت مقسّمة إلى شيع. هناك الرواقية القديمة والرواقية المتوسّطة والرواقية الحديثة والرواقية اليونانية الرومانية. يتهمون الرواقية بالحلولية وبعبادة القدر حتّى اليأس. لا يجوز أن نظلم الرواقية إلى هذا الحد. كانت الأخلاق في الرواقية فوق فلسفتها، وقد وجد الآباء الكنسيون في الرواقية كثيراً من الشبه مع المسيحية (جيروم). كثير من الأفكار التي اعتبرت أفلاطونية كانت رواقية استعملها الأفلاطونيّون المحدثون. يمكننا أن ندرك المنزلة التي بلغتها الرواقية من حيث الإرتفاعات الروحية بقراءتنا لنشيد كلايانتيس لزيفس. كان كلايانتيس رياضياً ثم بائعاً للبطيخ ثم كاهناً في هرطقة رواقية (حوالي ٣٠٠ ق.م). وقد تردّدت كلمات نشيده في بلاد اليونان وكانت

كأنّها صدى ترجيع لجواب اسرائيل المليء بالإيمان على شريعة سينا «أصغ ِ اسرائيل ، أنا هو الرب الهك ولن يكون لك آلهة غيري».

«السلام عليك يا زيفس أيّها الممجّد أكثر من كلّ الآلهة. السلام عليك أيّها الكثير الأسماء والاشكال. أيّها الأزلي الكليّ القدرة يا من ابتدأت بك المسكونة ، أيّها المدبر الكل بنواميسك. السلام عليك لأنّك أهّلتنا نحن المائتين لأن نخاطبك. لذلك سأكثر من تمجيدك ومن تعظيم قدرتك بأناشيدي. المسكونة كلّها التي خلقتها تخضع لك وتطيعك وتنقا د حيث توجهها بإرادتك. في يديك المفتوحتين تمسك الصاعقة الخالدة الملتهبة ذات الحدّين كخادمة. بها تقود الكلمة القابلة التي تسلك في النجوم الصغيرة والكبيرة. أنت يا من صرت أعظم الجميع. أنت يا من صرت أعظم من أعظم ملك ، لا يمكن أن يتمّ عمل بدونك لا في الجلد الأثيري ولا فوق البحر إلّا الأعمال التي يقوم بها الأشرار بسخفهم العقلي. أنت تعرف أن تكمل النواقص وتحوّل القباحة إلى جمال وأن تحب أولئك الذين لا يحبّونك. كلّ الكائنات الخيّرة والشريرة أنت وحّدتها بكلمتك ، فأنت يا زيفس أيّها الإله الكلّي الصلاح غير المنظور ، يا من تسود الصواعق خلص البشر من جهالتهم المدمّرة وأقصّها أيها الأب بعيداً عن نفوسهم وأهّلنا لأن نحوز الرأي في أنّك تحكم كلّ شيء بعدالة وجرأة حتّى نقدّم لك الكراهية التي تليق بالأموات. لم يعط قط للبشر امتياز كإمتياز تمجيد النّاموس العادل بعدالة» [١٥].

يلاحظ أن كشف الله الطبيعي لا يقلّ كثيراً عن كشف الأنبياء جمالاً وعظمة وعمقاً في التعبير ووجدانية في المشاعر. إنّ هذه الفكرة الرواقية بعيدة جداً عن فلسفة اسبينوز الباردة القائلة إنّ كلّ من يحبّ الله الحقيقي يجب ألا ينتظر أن يُحبّ منه. لو أتيح لبولس أن يتكلّم مع أفلاطون وكلايانتيس لتمكّن الواحد من فهم الآخر. لقد وصلت اليونان في أيّام إشراقها إلى ما وصلت إليه اسرائيل آنذاك حول فكرة الله وجاوزتها في بعض الأحيان. تمكّنت اليونان بفنّها أن تصوّر الله ، أما إسرائيل فبقيت دون هذا المستوى وفي حالة بدائية ، وكان من الضروري بقاؤها ، تنفيذاً لمخطّط العناية الإلهية. في المسيحية فقط يمكن الحفاظ على نقاوة الفكرة من الخطر ، إلّا أنّ اسرائيل سبقت اليونان ووقفت في مكان أرفع. كانت تملك شريعة وبها أدركت قداسة الحياة. كان الشعبان يشعران بأنّهما مرسلان وبأنّ عليهما رسالة يؤدّيانها للشعب. لقد انتهت رسالة اليونان وقالت كلمتها الأخيرة في القرابة

القائمة بين الله والنفس البشرية . بقي على اسرائيل أن تقول للبشرية بعد شريعة سيناء كلمتها الأخيرة وهي أنّ ابن الله صار إنساناً إلّا أنّ الذي كان يمكنه أن يقول ذلك أسقطته اسرائيل من حسابها وجحدته.

إنّ الفلسفة الرواقية اللّاحقة المألوفة في عصر بولس كما يوجزها (برايت)[٣٦] هي الآتية : يتكلّم الرواقي على الله مشيراً إلى الروح العالمي ، النّاموس العالمي الذي يحكم الكلّ ، إلى القوّة الخفيّة السرية التي تعطي لكلّ وجود شكله ووحدته وإمكانية العمل. يتكلّم الرواقي على النفس فيقصد مادّة روحية سائلة لا شخص لها تنحلّ مع الجسد وتضيع وسط الكون وتؤلّف قسماً منه. كان الرواقيّون يقولون بحياة طويلة أو قصيرة للنفس لا بخلودها. يتكلّم الرواقي على العناية الإلهية فيقصد القدر الذي لا يلين وعن الصلاة. ماذا يطلب من الآلهة؟ أتدخل في النواميس الطبيعية؟ لا يعقل ذلك من ناحية رواقية. فالكون لا يُعقل مفصولاً عن الله. أفضيلة وسعادة نفسية؟ إنّ هذا يتعلّق بالرواقي شخصياً «أصغ إلى صوت وجدانك فقد يكون وراءه وجود أسمى. من يدري؟». الرواقي كان أوّل من استعمل كلمة الوجدان في الأخلاق. يقول منياندر «إنّ الله وضع في كلّ إنسان ضميراً» يا للصلاة البارزة صلاة الرواقي التي وضعها أبكتيت : «أرشدني يا زفس. أرشدني أيّها القدر الحكيم إلى المكان الذي يجب أن أكون فيه بإرادتي. إنّي لن أتردّد وسأسير. وإذا لم أرد فإنّي سأكون مدنِساً للمقدسات. ومع ذلك سأسير. من يتكيّف مع القدر القاسي فهو حكيم وقد عرف الله» [٢٣].

يا للهوّة القائمة بين هذه الصلاة وصلاة الكردينال نيونان ! «أيّها النور الأنيس قدني إلى الأمام» إنّه عالم العناية الإلهية الذي يقود برفق. «لا يستطيع أحد أن يأتي إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني» (يوحنّا ٦ :٤٤). مقابل تقلّبات الحياة كان الرواقي يملك كبرياء عدم الآلام. وكان الانتحار الدواء الوحيد للخلاص لا لعدم وجود شيء مؤثّر في هذا الإرتماء في أحضان القدر أو لأنّ المحاولة للحفاظ على الكرامة البشرية غير رائعة ولا لأنّنا لا نستطيع أن نكتشف شيئاً بارزاً في محبّتهم للإنسان مهما كانت عقلية أو بعيدة عن أي ارتباط بالرأفة المسيحية التي يعتبرونها ضعفاً ، بل لأنّ وراء كلّ هذا عين بلّورية عالمية ثابتة باردة تجمد أوصالنا. لا شكّ أنّنا نظلم الرواقية وعلى الأخص إذا اتهمناها بالحلولية المطلقة. هناك روح واحد مسيطر : «معرفة الله» هي أحبّ تعبير وأهم حاجة من حاجاتها النفسية.

إلّا أن تلك الشعلة التي تخرج من قلب المسيح كانت تنقصها. لذلك وجد الإحتقار الذي كان يكنّه الرواقيّون للعاطفة تبريره وكان من الصعب بدون محبّة أن تخلص الرواقية العالم ولذلك أيضاً لم يتمكّن رجال ابكتيت ولا مرقس أوريليوس أن يدركوا العذاب المسيحي، كلّ ما في الرواقية من جميل موجودٌ في المسيحية. الشيء الهام الذي يشترك فيه بولس مع الرواقيّة هو تقديره لضمير الفرد كمشروع داخلي ومرشد وديّان. برهنوا أنّ هناك بعض الشبه بين طريقة الوعظ عند بولس وبين كتب الرواقيين الشعبيين. هذه الكتب ليست للرواقيّين بل للكلبيّين أبناء الرواقيين الضّالين. إنّ بولس في موعظته لا يتوجّه إلى الفلاسفة المتهنين بل إلى من هم فوق هؤلاء، إلى مجموعة الشعب المثقفة من المستمعين.

كانت الفئة الثّانية من المستمعين من تلامذة أبيقور، الذي استغلّ البشر اسمه، واعتبروه رمزاً لكل متعة دنيئة. لم يكن الأبقوريون من الذين يؤمنون بالآلهة، التي تؤمن بها غالبية الشعب. إنّهم ما كانوا ينكرون وجود آلهة حقيقيين. لكنّهم كانوا يشكّون، إذا كانت تستطيع، إذا أرادت أن تساعدنا، أو أن تهتمّ بنا، وكانوا يعتقدون أنّ هذا يقضّ مضاجع الآلهة في غبطتهم الأولمبية. العالم في نظرهم محض صدقة، وهدف الإنسان السعادة، واللذّة القصوى. كانت نظريتهم تدعو بكلّ تأكيد «إلى العمل من أجل سعادة البشر الذين يعيشون معك» إلّا أن مبدأهم في الحياة العملية، يتلخّص في «أطلب سعادتك الخاصّة فالحياة ضيّقة والوقت الذي ستقضيه ميتاً طويل جداً». كانت هذه القلوب مقفلة على العالم الفائق الطبيعة [٢٤]. لم تكن عيون المستمعين الى الخطيب مشجّعة، لقد رآها بولس هازئة ساخرة شاكّة منتفخة بالغضب، حاقدة. كان اليونانيّون بطبيعتهم ساخرين وكانوا يخفونها تحت قناع من اللباقة الكاذبة حتّى في معاملاتهم. بلطف أتيكي سمح الرئيس لبولس بالكلام قائلاً: أتستطيع أن تسمعنا تعليمك الجديد الذي تنادي به؟ كانت الموعظة قطعة رائعة من قطع الخطابة القديمة توافق الزمان والمكان ذات الوان أتيكية (هنا نتبع مثال برات الرائع في زوج التحليل)[٣٦].

ابتدأ بولس بالتلاعب الكلامي، فاستعمل كلمة كانت تعني عند أرسطو وكسنينون الخائف من الله. أمّا في زمن بولس فكانت تعني «من يخاف الشياطين» إنّ محبّة اليونانيين للعجائب وهوسهم الالهي جعلاهم يعبرون عن هاتين الحالتين بالكلمة ديسيديمون «خوف الشياطين». لا شكّ أن مستمعيه قد اعتقدوا أنّه يمدحهم باستعماله لهذه الكلمة: أيّها

الرجال الأثينيون أرى أنّكم في كلّ شيء أكثر النّاس عبادة «ديسيديمون» بهذه الطريقة جذب بولس مستمعيه وأثار انتباههم وخصوصاً عندما تكلّم على «الإله المجهول» هذه الأحجية التي يحبّ اليونانيون أن تحلّ. «إنّكم تتهمونني بأنّي أدعو إلى شياطين غريبة وأنّي أحمل إليكم آلهة غريبة. بالعكس. إنّي في تجوالي ومروري في مدينتكم ومعاينتي لشقاء عبادتكم صادفت هيكلاً كتب عليه «للإله المجهول» [١٤]، يظهر أنّكم تحترمون شيئاً وتعبدونه وأنتم لا تعرفونه. قد تكونون على حق لأنّ هذا الإله المجهول الحقيقي، هذا الإله الخفي هو الذي أبشّركم به. إنّ الله السرّي لا يحبّ بالطبع أن يكون مجهولاً بالكلية عندكم. لقد برهن على وجوده بما خلقه: الطبيعة، والسماء، والأرض، التي هي من أعمال يديه، وكمواطنين لمدينة أعطت رجالاً كأفلاطون، لا تحتاجون إلى أن أبرهن لكم عن وجود إله عليّ، أرفع وأسمى من آلهة الأولمب. إنكم تسجنون آلهتكم في غرف من هياكلكم. أمّا الإله الحقيقي الذي صنع العالم، وجميع ما فيه لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيدي، لأنه هو رب السماء والأرض لا صور وتماثيل للامحدود، ويجب ألّا يعبد تحت هذه الأشكال. إنّكم تحيطونها بأجواق من الخدم في الهيكل وتضعون أمامها طعاماً وترجونها في ذبائحكم وتقدّمون لها المآكل لتشمّ عطورها وتفرحون قلوبها بالخمور المعتّقة كأنّها بحاجة إلى هداياكم وخدماتكم. لا يحتاج الله إلى مثل هذه الأمور. نحن بحاجة إلى مواهبه. فهو الذي يعطينا الغذاء والشراب والحياة والنفس وكلّ شيء. إنّكم تقولون إنّ الآلهة تسكن هناك عالياً في سكينة مغبطة لا تهتمّ بالبشر ولا بمالهم كأفراد في الكون قذفت إلى الأرض صدفة وبصورة عمياء كما يقذف الزهر. لا. إنّ الله يفرح بأعمال يديه ولا يحتقر شيئاً ممّا صنعه وله مخطّطه للجنس البشري. من إنسان واحد ولد الجنس البشري «ليسكنوا الأرض». إنّه ليس اله شعب واحد كإلهكم زيفس السّاكن في الأولمب وأثينا اللذين لا يحبّان إلّا اليونان ويكرهان كلّ شعوب الأرض. الجنس البشري منحدر من سلالة واحدة ودم واحد وكلّ الشعوب تؤلّف عائلة بشرية واحدة. حدّد الله «مدى الأزمنة وتخوم مساكنهم» وإذا كانت تفصلهم فروقات في المناخ واللغة والمدى الجغرافي فإنّ لهم هدفاً ارفع وأسمى يوحّد بينهم ويشدّهم شداً أي أن الله ترك شرارة من روحه تسقط فوق كل إنسان ووضع على عاتق البشر واجب البحث لكي يطلبوا الله لعلّهم يجدونه. يحاول البشر أن يجدوا الله بغريزتهم أما أنتم فطلبتم ذلك أكثر من الجميع. شعراؤكم الأتقياء وأنبياؤكم كهوميروس وفيثاغوروس وبندار طلبوه وسط ظلمات الأساطير أما مغنّوكم فطلبوه في شريعة الجمال

الأزلي وفلاسفتكم كارسطو في العلّة الفكرية والمعلول وأفلاطون في الحنين العشقي الإلهي وآخرون في تأليه الأباطرة. جيدّ هو هدف حنينكم للوحدة مع الله. إلّا أنكم تحاولون أن تصلوا إليه عن طريق الإلتواءات والتعرّجات راكضين في الدروب الخدّاعة. سهل جداً أن تجدوا الله، عودوا إلى ذواتكم، الله في داخلنا ونحن فيه، به نحيا ونتحرّك ونوجد، هذا ما قاله أحد شعرائكم، إنّ الكلمة قريب جداً من أرواحنا، السبب الإلهي الذي يهبنا الوجود هو الذي يهبنا المعرفة لذلك أعطينا القدرة على التفتيش». هنا يلمس بولس الجرح «الله قريب لكن الإمساك به صعب» هذا البيت لهولدرلين يصوّر فيه حالة النفس تصويراً رائعاً. هذه النقطة جدّ مريضة في الوثنية. كان اليونانيون يسجدون فقط لمخلوقات عقلية ولمنسوجات خيالية وكانوا يعتبرونها إلهية ولم يعبدوا الإله الحقيقي خالق الحياة الذين تكشف بقوة في المسيح وبالمسيح الذي شعر به بولس في أعماق وجوده.

والآن يكشف بولس أمام سامعيه المعنى العميق لحنينهم الإلهي ببيت عميق التفكير مظلم لشاعر نشيد زيفس «لأننا منه ننحدر» [١٠]، إنّ الله هو أكثر من سبب وجود. خلقنا على مثال روحه. الفنّان لا يكون في مستوى أقلّ من فنّه فإذا كنّا شرارة من روح الله فالله إذاً هو الروح المطلق. كان اسم من ينتظر منه القوة ينور على شفاه بولس قبل أن يتلفّظ به.

كان الحشد يصغون إلى بولس وهو يتكلّم في الفلسفة صامتين. إنّ كلامه يذكّرهم بأفلاطون. لم تزعج كلمات بولس الرواقيين الحاضرين الذين كانوا يسبحون على أجنحة الحلولية (٣٦) ولا الأبيقوريين الذين تركت فيهم الأفلاطونية أثرها، كانت هذه الأمور بالنسبة لبولس نوعاً من المقبّلات مقدّمة للموضوع الرئيسي. وفجأة تبدّد السحر. تمكّن بولس أن يقول بعض العبارات بعد أن وضع فيها أجمل ما في الموعظة. أربعة أفكار أزعجت المستمعين المتعجرفين(١٧) : اتّهمهم بأنّهم رجعيّون جاهلون. إنّ خواطرهم المألوفة عن الله ترجع إلى البداءة الطفولية للبشرية، لقد جزنا في الوقت الحاضر ذلك العصر. الله يتعالى فوق هذه المجترحات الصبيانية. لقد مرّ وقت البحث والأغلاط. اضطرب السّامعون، لم يسمع مثل هذا قط، أيجسر بربري أن يتّهم أكثر شعوب الأرض ثقافة بالجهل؟ تابع بولس موضوعه، فبرز من مخبئه ووضع العالم أمام أحجية، فإمّا أن يستمرّ في بحثه البسيط في الاستقصاء والخواطر وسط الإندفاع للخلاص الذي يتحتمه وإمّا أن

يثوب ويعترف بحقيقة الخلاص الإلهي ، بالإله الإنسان. عرفوا التنقية والتجلّي والتألّه بمعونة المراسم التي تثير الأعصاب في ديانتهم السرية. أمّا عن التوبة ، ما هي التوبة؟ ما تعنيه؟ فلا. يقول أوراتيوس أعطني سعادةً وسأتدبّر أمر سكينة نفسي بنفسي. أدرك بولس أنّ الإضطراب أخذ يسود المستمعين، ومع ذلك فتابع وقال : إنّ الله يملك القدرة للتدخّل فيما هو حتمي للبشر بواسطة مَن عيّنه مسبقاً ليدين العالم. ديّان للعالم ومحكمة عالمية. إنّ هذا لأكثر من تمادٍ وتحدٍ. لقد أشرف بولس على نهاية حديثه وتظاهر كأنّه لا يسمع وقال بحماسة : أيّها الرجال الأثينيّون ! ما أقوله لكم هو الحقيقة الخالصة ، رأيت أنا الإنسان الواقف أمامكم الإنسان الذين سبق وعيّنه الرب ، طارده شعبه وحكم عليه بالموت كما حكم أجدادكم على سقراط الشريف وبالطريقة التي يصف بها أفلاطون نهاية الرجل الصالح ، إلّا أنّ الله أقامه من بين الأموات فدلّل على أنّه يحبّه وأنّه من خاصّته. هذا هو بولس. وبقسوة عظيمة تفوّه بالكلمة الخطرة «قيامة». ضجّ المكان بالضحك ، يا للترهات ! يا للسخرية ! لم يتمكّن بولس أن يتابع كلامه وسط الضجيج والضحك ، يجب أن يقطع كلامه بدون أن يذكر اسم «يسوع» ، لا يريد أن يعرّض هذا الإسم للضحك. لم يكن الأمر مستحباً لدى المجمع ، وبعبارة تنطوي على الحشمة ، إلّا أنّها لا تخلو من السخرية ، أخفى المجمع يأسه وقال : «سنسمع منك هذا مرّة أخرى» أدرك بولس مغزى القول «فخرج من بينهم» حزيناً كئيباً يائساً وكان يخاطب نفسه لاتيموثاوس ويقول : كانت النهاية سيّئة. ألم يكن من الأفضل ترك كلمة القيامة إلى الأخير؟ كان الأولى سرد سيرة المسيح أولاً ، الأفضل أن أعود إلى الشعب البسيط العامل بعد أن أخفقت مع هؤلاء المثقفين. المعرفة السطحية تنفخ الإنسان ، لن أتكلّم على الفلسفة بل على المسيح فقط وعلى جهالة الصليب ، هؤلاء يا تيموثاوس الرجال الذي يقول عنهم الكتاب إنّهم يقضون حياتهم بالكلام البطّال.

عندما همّ بولس بالعودة إلى بيته لاحظ أنّ بعض الأشخاص يتبعون خطواته فالتفت إلى الوراء فتقدّم إليه إنسان رصين جليل ماجت الإبتسامة في عينيه وعرفه بنفسه وقال : أنا ديونيسيوس عضو اريوس باغوس ثم تقدّمت امرأة ملتحفة بالسواد وكانت عيناها تشعّان بالخواطر العميقة تخترق النقاب الذي كان يغطّي وجهها ، إنّها داماريس. وكان آخرون معها. لم تكن الكنيسة التي تأسست هنا كثيرة العدد بل كانت مختارة. إنّ لقب آريوس باغوس كان لقباً يحترمه النّاس وقد خلقت حول ديونيسيوس أسطورة كاملة ويكفي أن يكون

أكبر لاهوتيّي القرن السّادس قد اختبأ وراء اسمه لنعرف مقدار عظمته. إنّه أول أسقف لأثينا وروحها وبينما كان السفسطائيّون ينزلون سلالم آريوس باغوس هازئين ساخرين من اليهودي الطرسوسي، كان بولس يجلس إلى تباعه الجدد، ويكلّمهم عن يسوع(٥٠).

إنّ هذه المدينة اليونانية الخالصة وسط اندفاعها الأبولوني نحو الجمال كذبت كلّ رصانة الحياة الخلاقّة، لم تكن هذه المدينة صالحة للبشارة لأنّها بالرغم من سمائها البلّورية وعقلانيتها كانت تحبّ الصارم المقرّر المحدود وكانت لا تهتمّ بثقل الأزلية اللّامتناهية وبالموت وبمصير الحياة فوق الطبيعة. لم يكن هذا الشعب ليهتمّ بالحقيقة بل كان يعجبه أن يخلق الفكر من أجل الفكر وكانوا يركضون وراء الديناميس الفكرية للتلذّذ. كانوا يسخّرون لغتهم لمثل هذه الأمور فنموا على حساب القلب كلّ مواهب العقل. كانت تنقصهم قوّة المحبّة والتفاني كما يقول الشّاعر. «كانت تنقصهم قوّة المحبّة والتفاني كما يقول الشّاعر. «في الناحية النقية من قبلنا نسمع صوت شوقنا للعلي القديس المجهول فنعطي ذواتنا بارادتنا له بفرح وشكر». أمّا القطب الثّاني من النفس اليونانية فوق العقلي الذي يسمّى القطب الديونيسي حسب تعبير نيتشه! السكرة الباخيه في عبادة ديونيسيوس كما في أسرار الفسينا حيث الإندفاع الجنوني للتأليه الذّاتي والقضاء على الحدود بين البشر والإلهي لم يفسح في المجال لبولس ليبتدئ. كان اليونانيّون في المراكز. الديونيسية الكبيرة والصغيرة في أسبوع أسرار الفسينا المصادف لأسبوع الفصح عندنا يعيدون لموت وقيامة أحد الآلهة، لقد رأى بولس في أثينا بعض هذه الإحتفالات وكان على علم بحقيقتها وكان يعرفها يوم كان في وطنه طرسوس عندما كانت تقدّم العبادة لسافازيوس ديونيسيوس ولم يكن للطلبة التي كانوا يتمتمونها ليعلنوا قيامة أبطالهم «تشجّعوا إنّ إلهكم في خير وسيعينكم في عذابكم». أيّة علاقة بمرثية موت الإله التي كانوا يتلونها وهم يرافقون تمثاله حتّى البحر ولا تعبّر عن أي ألم؟ إنّها أمور صادرة عن أسطورة قديمة ترمز إلى إحياء النمو وموته وتحبّ أن ترفع الحيوانية الموجودة وتزيدها عنفاً في الدّافع التناسلي. ما أبعد هذه الأمور عن حقيقة تضحية ابن الله التفكيرية التي يشهد عليها التّاريخ وعن السمو الخلقي لفكرة القيامة المسيحية(٣٧) [١٧].

وهكذا كان ينتصب جبل هائل من المصاعب النفسية أمام بشارة الإنجيل. لا يمكن أن يوصل جسر بين هذه المتناقضات بدون عجيبة النعمة الإلهية. دعا بولس أثينا أكربول

الآلهة لتلقي أسلحتها وتستسلم ولكنّه رأى أنّه لا يمكن أن يسيطر عليها. فأضاف إلى خبرته خبرة وقد عبر عن هذه الخبرة بطريقة رائعة في رسالته الثّانية إلى سالونيك (٣ : ٢)، إذ إنّ الإيمان ليس للجميع. الإيمان يفرض قابلية نفسية، نوعاً من الصراحة. اكتسب احتقاراً عظيماً لحكمة العالم وقرّر أن يقاوم هذه الحكمة ويحاربها بموعظة الصليب. وُجد من شكّ في صحة الموعظة في آريوس باغوس. وعلّلوا ذلك أنّ بعض الكتّاب كانوا يؤلّفون مواعظ ينسبونها إلى أبطالهم [١٦]، إلّا أنّ إخفاق بولس في موعظته في أريوس باغوس يكذب هذا الإدعاء ولو كانت الموعظة كما يدعي البعض، فمن الأولى أن يصور مختلقها بولس بصورة الظّافر النّاجح. يقول أرنست كورتيوس أعظم العارفين بالعالم القديم: «إنّ من يرفض صحة الأخبار التاريخية وصدقها يمزّق أجمل صفحة من صفحات تاريخ البشرية» ويستنتج غريغوروفيوس ما يأتي: لا أعتقد أنّ هناك من جسّد فكرة اشتهرت وذاع صيتها وأثارت الإنتابه كالإنتباه الذي أثاره بولس عندما كان في أثينا. في يوميّات التبشير المسيحي لا توجد محاولة أجرأ من موعظة بولس في أثينا أكروبول الوثنية التي استمرّت تحيط بها هالة من الفن والعلم. من موجز ما سردته أعمال الرسل يمكننا أن نتصوّر فقط ماذا قال المتكلّم الموهوب لفلاسفة أثينا. قال لهم إنّ هذا العالم اليوناني الجميل لا يمكن أن يعتق من الموت الذي هو فيه ما دام لا يملك المحبّة وما دام يقوم على تقديس العنصرية ويعتبر نفسه مميّزاً عن بقية الشعوب تحدّده فكرة كبريائية متصلّفة تنشر الكراهية والبغض لكلّ من ليس بيوناني. لم يكن أحد يتصوّر أن الديانة الجديدة التي بشّر بها بولس بين الأثينيين ستصبح السبيل الوحيد الذي خلّص أمّتهم وأدبهم ولغتهم، ترى أيّة صورة طرقت خاطره عندما استلقى في تلك الليلة فوق فراشه ليستريح؟ لا شكّ أنّ حالته شابهت حالة ايليا عندما قال: «يا رب خذ نفسي» من الجائز أن يكون بولس قد رأي وهو فوق الأكروبول إنساناً أطلّ برأسه من وراء سارونيكو عند رأس كورنثوس المقابل للأكروبول وسمعه يقول: «يا بولس إنّ طريقاً طويلاً ينتظرك». لم يتمكّن بولس أن يجمع حوله في أثينا كنيسة كبيرة. في كلّ رسائله لا يأتي على ذكر هذه الكنيسة ولم يكتب أيّة رسالة للأثينيين، ولم يقترب في رحلته الثالثة منها، حتّى القرن الثّاني كانت كنيسة أثينا ضعيفة جداً وكانت آخر مدينة قبلت المسيحية. كانت آخر حصن للفلسفة الوثنيّة ضد المسيحية (رينان ٧٨).
في سنة ٥٢٩ بالذّات عندما بنى القديس بنيديكتوس فوق جبل كاسينو ديراً من البقايا الأخيرة لأحد هياكل أبولون كان الفلاسفة السبعة المنفيّون بأمر من يوستينيانوس يرحلون إلى

إيران مغادرين أثينا ليجدوا ملجأ عند شاه إيران خوسروي. هكذا يمكن أن يسقط مجد العالم بكليّته.

٣٢. ﴿تأسيس كنيسة قورنثية﴾

(أعمال ١٨ : ١ — ١٧)

كان الشعور بالرّاحة بعيداً عن بولس أثناء إقامته في أثينا. كان آسيوياً بالنسبة لهذا المحيط. كان يشعر أنّ هذه المدينة اليونانية الخالصة المتكبّرة بثقافتها المغرورة بسلالتها لا يمكن أن تصبح منطلقاً للروح العالمي المسيحي، كان يحلّق دائماً ويحوّم بأفكاره فوق كنائس مقدونيا الحبيبة. كان على استعداد دائم للعودة إلى هناك، الصورة الأخيرة التي كانت تتراءى في مخيّلته عن سالونيك كانت صورة الجموع الهائجة من اليهود. منذ ذلك الحين لم تصل إلى أذنيه إلّا بعض الإشاعات عن عذابات المسيحيين هناك. كان الإتّصال ضرورياً بهذه الكنائس لتقويتها وتشجيعها. كان يفضّل أن يحرم من صداقة تيموثاوس المعزية على أن يبقى في حالة من القلق على أبنائه الأعزّاء، لذلك أرسل تيموثاوس إلى سالونيك في أوّل مركب أبحر إلى هناك ومن ثمّ غادر هو أثينا الى قورنثية. كان بولس يحبّ المدن الكبيرة. كان يعرف أن معاركه الفاصلة ستقرّر فيها. من ملك قورنثية فقد ملك اليونان. إذا عرف النّاس في الميناء اسم يسوع فامتداد اسمه إلى الجزر يصبح أمراً سهلاً. تستحق قورنثية أن يعطي بولس كلّ ذاته من أجلها. كان بولس يعرف جيداً أنّ قورنثية كإنطاكية مدينة عالمية ذات أفق منفتح لا يعرف التزمّت، تستطيع كلّ الأفكار أن تجد تربة لها تنمو فيها. يستطيع الإنجيل أن يلقي بذاره في مكان كهذا المكان.

لا نعرف إذا كان بولس قد اختار الطريق الذي يمرّ بالغسينا وميغارون ٦٥ك م أم الطريق المختصرة البحرية. إذا كان قد اختار الطريق الثّانية وأغلب الظن أنّه فعل ذلك فقد أبحر من بيرياس ماراً بين ايجينا وسالامنيوس واتّجه رأساً إلى البرزخ. يشبه البحر في هذه المنطقة بحيرة جبلية مزروعة بالجزر الصغيرة تحيطها جبال شاهقة موحشة. إلى الشمال جبال ايجينا وعلى رأسها هيكل أفاياس الذي نازع فيما مضى الأكروبول على الأولية ومنه تلوح

الأكروبول ويلوح طرف قورنثية إذا كان الجوّ صافياً. وإلى اليمين مرتفعات سالامنيوس وراءها شواطىء ماغرا الصخرية وأمامها في خط مستقيم جبال أرغوليدوس بصنوبرها النامي الغزير. في سفرته فوق هذا البحر الهادي تمكّن بولس أن يجمع شتات أفكاره وخواطره وينسّقها. لم يدُر في خلد بولس أن الحكمة الكاذبة يمكنها أن تقيم في وجه تجديد الإنسان مثل هذه العراقيل والمصاعب. لقد كوّن أوغسطين فيما بعد مثل هذه الفكرة «بعد الإختبار»، في رسالته إلى أهل رومية التي كتبها بولس بعد سنوات يحذّر قرّاءه من موقف الفلسفة اليونانية التي تجعل الإنسان غريباً عن الحقيقة «سفهوا في أفكارهم وأظلمت قلوبهم الغبية» (١ : ٢١).

كانت الأكروبول تختفي رويداً رويداً وتتوارى أمام صورة أخذت تلوح وتقترب وتتّضح في أعماق البحر كلّما جدّ القارب المسير نحو تلك الصورة. فكأنّها رؤيا غرقت في أعماق البحر وراحت تعلو وتعلو حتّى صارت جبلاً هائلاً يحمل تحت أقدامه مدينة قورنثية. المسافر اليوم لا يشعر عندما يجتاز بالباخرة مضيق قورنثية الذي يشبه بجدرانه القائمة عليه ما شعر به بولس أمام مشهد قورنثية. كان بولس يدلف إليها فوق قارب يرقص بتؤدّة موسيقية ويراقص المدينة القورنثية الطّابع فوق الجبل العالي. أن تمرّ رويداً غير أن تمرّ سريعاً في قطار يعلو جدران المضيق. في طرف قورنثية غمازات تجذب المسافرين اليه من كاناخريا الميناء الشرقي لقورنثية عبر وادي أكساميلون وبعد مسير ثلاث ساعات وسط هذا الوادي المفرح سلك طريق المروج ثم مرّ بغابة بوسيدون المكرّمة التي تشرف على البحرين وصعد في التلّة ومنها توجّه نحو قورنثية. كانت سهول العنب كما هي اليوم تمتدّ من قورنثية حتى باتراس وأشهر هذا العنب ما يصنع منه الزبيب. وقف بولس فوق القمّة ليستريح. يا للمنظر الجميل ! بحران بمياهها الوردية يلوّحان له محيّين. إنّ شهرة قورنثية وجاذبيتها مدينتان لموقعها الفريد. تقع قورنثية وسط برزخين في مسرح من الجبال العالية ترتفع سلمياً كأنّها طبقات بيوت وضعت، مخطّطها الطبيعة المهندسة. تشرف من الجنوب على المدينة سلسلة جبال كيليتس العالية الغنية، وتلوح من الشمال قمم البارنسو والكيونوس لمّاعة وإلى الأمام يرتفع الصخر المنفرد الضخم المنفصل عن حجم الجبل الكبير. إنّه أكبر من الأكروبول ويقوم فوقه قصر بيزنطي تركي بدلاً من هيكل عشتروت. من هنا ينحدر إلى ميناء لاخيون جداران متوازيان بينما يشقّ جدار المضيق الشهير البرزخ الأرضي عرضاً. وهكذا يتمكّن حرّاس برزخ قورنثية الأربعماية من مقاومة أيّ هجوم على البولوبونيز من أيّ جهة جاء من

الشمال. عبر بولس جسر نهر لافكا ودخل ضاحية أكرابتون، تاركاً وراءه المسرح الكبير. هناك يوجد قبر ديوجين. لا شكّ أنّه أطفأ سراجه المشهور مسروراً بعد أن التقى بالرجل الذي أصبحت موعظته أمام نور موعظته فقيرة باهتة.

من الصعب أن يتصوّر المرء تناقضاً كالذي بين أثينا وقورنثية في عصر بولس. كانت أثينا تشبه مدينة جامعية متوسطة، تتراجع فيها أصوات وصراخ الطلبة. أما قورنثية فكانت هادئة بحركتها الدّائمة. كانت كأنّها وكر نمل دائم الحركة أو قفير نحل يدندن مكافحاً. كانت قفيراً من التجّار اجتمعوا فيها من كلّ أقطار الأرض. منذ زمن فقدت قيادتها السياسية على إخائيا، لقد حوّلها القائد الروماني موميوس إلى أطلال (لوحة ١٨) ١٤٦ ق. م. غير أنّ موقعها بين بحرين وكجسر بين الشرق والغرب ومفتاحاً للبولوبونيز أعاد إليها بعض المكانة. قبل مئة سنة أسكن قيصر فوق أنقاض المدينة القديمة المعتقين والجنود المحاربين القدماء. وهكذا تحت حماية النسر الروماني خلق مدينة، خلق بور سعيد قديمة كانت نقطة عسكرية وفي الوقت نفسه ميناء للنقل يختصر الطريق البحري المشعّب أي إنّهم أقاموا في البرّ بين الميناءين خطاً حديدياً ينقل من الطرف الواحد إلى الآخر المراكب الصغيرة المحمّلة. إنّ مخطط نيرون ومحاولة هيرودوس أتيكو لشقّ البرزخ لم يتكلّلا بالنجاح إلّا في القرن التاسع عشر (١٨٨١ — ١٨٩٣).

إنّ المستعمرين الرومانيين وسط هذا السيل من اليونانيين والأفريقيين والسوريين واليهود كانوا أقلية فأخذوا يذوبون مع الوقت ويندثرون. لم تكن العقلية اليونانية القديمة هي المسيطرة ولا حضارتها على المدينة بل عقلية عالم جديد يفتّش عن رزقه. حملت سورية إلى قورنثية أهواءها وخطاياها كنتيجة لعبادة عشتروت وميلكارت وحملت رومية إليها خشونتها ومبارياتها الدموية، والفريجيّون عبادة أتيس وكيفالي والمصريّون عبادة أيزيس الغريبة وسيرابيس والتراكيون أسرار ديونيسيوس. كانت قورنثية مدينة لبوسيدون وكان رمزها الدلفين والخطاف أما الآن فخصّصت لعشتروت الفينيقية، مينوس الفاجرة. كان هيكلها يرتفع فوق طرف قورنثية وحول هذا الهيكل بنيت وسط البساتين بيوت لخادمات الهيكل. وكانت الخادمات يسلبن الأغنياء والسوّاح والجنود والبحّارة والتجّار والملّاحين مالهم وصحّتهم وينشرون المرض القورنثي في أقطار الأرض[٥٦].

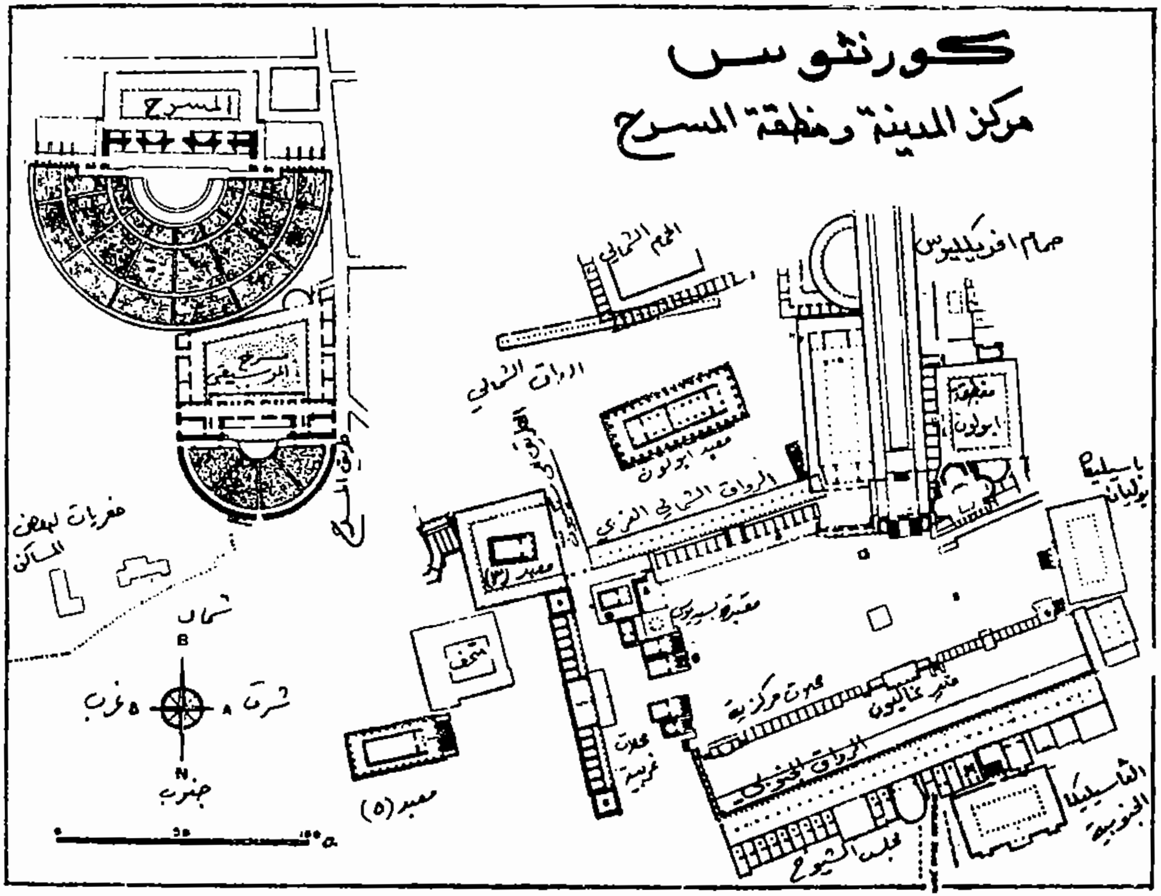
كورنثوس
مركز المدينة ومنطقة المسرح
المسرح
المسرح الموسيقي
طريق المسرح
مغريات لبعض المساكن
شمال
B
شرق A
غرب
N
جنوب
معبد (٥)
متحف
معبد (٣)
الطريق إلى سيكيون
الرواق الشمالي
الحمام الشمالي
معبد أبولون
الرواق الشمالي الغربي
حمام أفريكليوس
منطقة أبولون
باسيليكا يوليانا
معبد بيرين
محلات غربية
محلات مركزية
منبر غاليون
الرواق الجنوبي
مجلس الشيوخ
الباسيليكا الجنوبية

وكانت لايس الخادمة المكرّمة لمقبرة قورنثية رمزاً لهذه الحياة الفاسقة وقد تمثّلت بصورة لبوة تحمل بين براثنها الحادّة فريستها[٢٠] في كلّ العالم كنت تسمع عن قورنثية. عندما نتكلّم على فتاة قورنثية فكأنّنا نتكلّم على امرأة عاهرة. إنّ بولس عندما كتب إلى أهل رومية مصوّراً العالم الوثني بصوره الدّاكنة وضع نصب عينيه قورنثية[٢٠]. كان بولس يحب قورنثية أكثر من أثينا. إنّ الضعف البشري في نظر بولس لا يشكّل أسوأ عقبة في وجه الإنجيل، بل الكبرياء الروحي «حيث تكثر الخطيئة تطفح النعمة» (رومية ٥ : ٢٠).

إذا قبلنا ما ذكره رود ونيتشه وهما ممّن يعرف جيداً العالم اليوناني القديم، إنّ الإندفاع الأبولوني نحو الجمال والسكر الديونيسي حتّى الغيبوبة هما القطبان اللّذان تماوج بينهما الحياة اليونانية من مراحل فعلينا أن نقبل أن الإبرة المغناطيسيّة في قورنثية كانت متّجهة نحو القطب الديونيسي. إن محور الثقل في هذه العبادة الديونيسية يقوم على الإنحلال الخلقي وعلى فوران العملية الجنسية التي غمرت أمواجها العائلة وحلّت ربطها. «إنّ أشدّ الحيوانات شراسة عندما وصلت إلى هذا المزيج الغريب من الدعارة والفسق المخجل هربت» (نيتشه ١٥، ٥٥). إنّ رسالة بولس إلى أهل قورنثية تكشف عن عمق الحياة الوثنية آنذاك ويتأكّد المرء أنّ قوى شيطانيّة اجتاحت العبادات الشرقية في هذا الجو الفاسق الديونيسي فهدّدت أساسات المجتمع البشري. إنّ شيطان العاطفة مولوخ كان يقود إلى ذبح الأولاد وتقدمتهم ضحية، أمّا عبادة أفروديت فكانت تقود إلى مقت الزواج وبغضه وعدم الولادة. ليست صدفة دعوة المانوية والميخائية إلى نوع من النسك المعادي للحياة. لم يقاسِ بولس في حياته ما قاساه في قورنثية لمحاربة هذه الميول الخطرة.

كان بولس كما يستنتج من رسالته الأولى إلى أهل قورنثية (٢ : ٣) خائر العزيمة ضعيفها. إنّ إخفاقه في أثينا كان شوكة تزعجه وتنخز جسده. كلّنا من لحم ودم، وكلّنا نتأثّر بنوايانا. وما يمنع أن يكون بولس هكذا؟ ألم يتأثّر ابن البشر ذاته من ناحيته الجسدية؟ كان بولس هو «في المسيح» أسعد إنسان في العالم. كان في السجن وكان ينشد الأناشيد ويرتّل المزامير[٥١]. قد توجد ساعات يسيطر فيها القنوط على نفوس القديسين. لم يكن أحد يتصوّر من أولئك الذين رأوا هذا الغريب الذي يتجوّل في الحي اليهودي، هذا الحائك الذي دخل إلى قورنثية سيقرّر بدخوله مكانة قورنثية التاريخية حتى أكيلاً وبريسكيلا هذان الزوجان الحائكان اللذان كلّمها بولس أو طرق بابهما ليجد عملاً

عندهما ، ما خطر ببالهما قط أن اسمهما في تلك اللحظة دخل في صفحات تاريخ الكنيسة الخالدة أو بالأحرى في سجل الحياة. كانت صناعة الخيام والسجّاد والأرجوان قد انتقلت إلى هنا من الشرق. إنّ أكيلا بروحه الشرقية المضيافة فتح باب بيته على مصراعيه أمام مواطنه الغريب عندما رآه بدون مأوى وقدمه إلى امرأته. اعتبر أنّ قبول إنسان يمتهن مهنته ، قبول معلم للشريعة هو شرف كبير لهما. وهكذا ابتدأت صداقة من أجل الصداقات وأكثرها أثماراً في حياة بولس والكنيسة الجديدة. ما أدهش بولس اكتشافه أن أكيلا وبريسكا كانا مسيحيين والدليل أن بولس لم يذكرهما مع الأشخاص الذين عمدهم في قورنثية (١ : ١٤) هل توجد عائلة مسيحية في قورنثية؟ إنّ فرحه برحمة النعمة الإلهية ورضوانها المليء بالعرفان تتجاوب أصداؤه في كلّ رسائله.

كانت هذه الصداقة الجديدة بالنسبة لبولس مباركة من عدّة نواح. فجعلته يوجّه أنظاره نحو الغرب وتراءت رومية أمام عينيه بصورة واضحة ، هذه المقابلة فتحت آفاقاً بعيدة أمام عينيه وهذه المدينة العالمية كانت ضرورة لروحه التوّاقة إلى الأزل. كانت حياة هذين الزوجين مليئة بالمغامرات. كان أكيلا من مواليد البونطوس وكان حائكاً فاستوطن في رومية وتعرّف إلى امرأته في رومية. كان بولس يفضّل أن يسمّيها بريسكا أما لوقا فبريسكيلا. نعثر على اسمها في مغارة جانس أكيليا لعائلة أكيليون في دياميس براسكيلا. يعتقد أنها كانت عبدة عند عائلة كبيرة فحرّرتها العائلة (لوحة ٣٠). يعتقد رامسي أن نسب بريسكا يعود إلى أشراف العائلات وأنّ عائلتها أعرف من عائلة زوجها وكانت تدعى رومية وكانت أوّل مرتدة تزوّجت من تاجر يهودي. يظهر أن ثقافة الزوجين كانت غنية كما يستدلّ من علاقتهما الوثقى مع بولس وبابولو المثقّف، كانت بريسكا ربّة بيت ممتازة ويذكر اسمها أربع مرّات من أصل ست وصارت من الشخصيّات الرئيسة في المسيحية. لم تحظ امرأة من كلّ النساء اللواتي خدمن بولس بالمديح الذي حظيت به بريسكا (رومية ١٦ : ٣) ، كانت تجلس إلى بولس بعد انتهائه من الحياكة وتكلّمه على رومية. أخبرته عن الإضطهادات التي أجبرتها هي وزوجها على ترك رومية في عهد الأمبراطور كلاديوس (٤٩ ب. م.). إنّ تاريخ هذين الزوجين مطبوع بطابع التنقّل الدّائم ككلّ اليهود الذين عاشوا في الشتات في الأمبراطورية الرومانية. نراهما في أفسس ثمّ في رومية ثم في أفسس. إنّ حياة متنقّلة كحياة هذين الزوجين لا تساعد على الإثراء. يظهر أن الحظّ بَسَمَ لها عندما عادا إلى

رومية والدليل أنّهما جعلا من بيتهما مكاناً لاجتماعات الأخوة الدينية (رومية ١٦ : ٣ــ ٥).

لم تكن الصداقة المسيحية وحدها هي التي وثقت الرباط بين بولس وأكيلا بل المحاولة المشتركة في العمل من أجل ملكوت الله، ووراء هذا النول الذي أثمر الكثير من الخيرات. إنّ مصنع أكيلا كان مفتوحاً على الطريق الذي يباع فيه السجاد. «في هذا المكان يجلس بولس وأكيلا يومياً ويحيكان أفكاراً إلهية بخيوط نوليهما»[٥٠]. كان يقصّ بولس على أسماع العمّال والزوّار الذين يقفون أمام الباب كلّ ما يلهب روحه. لو عاش شيشرون مثل هذه اللحظات الإلهية لغيَّر رأيه ولقال هوذا إنسان جدير بالإحترام يعيش في مصنع. يعتقد البعض أن تفاني بولس في العمل ونظرته إلى العمّال ساعدا على انتشار الإنجيل. أنا لا أعتقد ذلك وخصوصاً والنظرة في اليونان الأرستوقراطية الى العمّال، كانت نظرة فيها امتهان ولم يكن للعمّال حقّ في ابداء الرأي بالأمور السياسية لأنّ العمّال يضغطون على النفس حسب الرأي القديم فلا يتركون مجالاً لإدراك الأمور المثاليّة السّامية. يذكر بلوتارخ فنّانين كفيداس وأرخيلوخوس بطريقة خالية من الإحترام[٥٤]. احتاجت المسيحية وقتاً طويلاً حتّى تمكّنت من تغيير عقلية كانت تعتبر العمل شيئاً مشيناً. إنّ بولس هو المثال الجديد. إنّ أفكار بولس عن العمل هي من بنات حياته السّابقة في يهودية العهد القديم خلق جواً للعالم تضوّعت منه الحرية. لهذه الحرية الإجتماعية سبب ديني عند بولس وهو أنّ الإنسان هيكل للروح القدس وأنّ الجميع في المسيح إخوة وأقرباء ومن احتقر أخاه لا يحتقر إنساناً بل الله ذاته.

كانت الرعية اليهودية في قورنثية كبيرة وقد ازدادت بعد وصول عدد من اليهود من رومية. في الحفريات التي جرت في قورنثية عثر على لوحة رخامية تبيّن من عنوانها أنّها كانت على مدخل المجمع اليهودي الذي بني بعد المجمع الذي كان بولس يعظ فيه كلّ سبت. لم يجد بولس في قورنثية يهوداً متزوّجين بل مسيحيين من أصل يهودي نُفيوا من رومية ووثنيين يونانيين «هربوا من فجور الوثنية والتحقوا بديانة اسرائيل المقدّسة»[٥٥]. كان بولس حذراً في البدء وكان لا يزال تحت تأثير عاطفة الإخفاق التي أحسّ بها في أثينا. أراد أن يهيّء الجوّ بأحاديثه محاولاً بالكتب النبوية أن يعطي فكرة عن المسيح المتألّم. أراد كمهندس بارع صالح أن يفحص قوّة التربة ليضع الأساس (١ قورنثية ٣ : ١٠).

في أحد الأيّام بقي النول صامتاً ، لقد جاء سيلاس وتيموثاوس من مقدونيا يحملان مالاً وأخباراً جيدة ، الأموال جاءت من ياسون في سالونيك ومن ليديا في فيلبي. كان بولس رجلاً عاطفياً ، فتمكّن أن يشترك ويقاسم كلّ الكنائس مصيرها ، كان يتألّم ويحيا كأنّه يحيا معها وفي وسطها وكان متّحداً بها روحياً لذلك نراه قد انتعش بعد أن اطمأنّ على كنائسه. فأصبحت جرأته الآن لا حدّ لها ولاحظ المجمع ذلك في اليوم التّالي ، وقفز فوراً من المواعظ التحضيرية الى الهجوم العلني إلى الكلام المفتوح عن المصلوب ، وقيامة المسيح ، وعن المسيح الآتي ليدين العالم. بعد الموعظة بقي الكثيرون من اليهود المرهفي الشعور والمرتدين يتحدّثون معه وذهبوا إلى البيت ليسمعوا تعليمه ، كان استفاناس أحد المرتدين الأغنياء وعائلته ثمرة من ثمار نجاح بولس ، بلذّة يسمي بولس استفاناس «باكورة أخائيا» (١ قور ١٦ : ١٥) ، فأراد بذلك أن تكون كنيسة العاصمة مدعوّة لحمل بشارة يسوع إلى بر اخائيا كلّه. يرى بولس أن حصاداً عظيماً قد نضج من أجل المسيح»[٤٢] ، وقد تبع رجلان مثال استفاناس فورتوناتوس وأجائيكوس وبصورة خاصّة عمدهم بولس بنفسه وتخطّى القانون الذي حافظ عليه حتّى الآن. كان الإحتفال مؤثّراً وكان يضمّ بولس وسيلاس وتيموثاوس وأكيلا وبريسكا وقد توجّه الجميع إلى نهر لافكا مع المؤهّلين للإستنارة ، هناك تحت ظلال الصنوبر بعد الموعظة القصيرة والإعتراف بالإيمان وقطع العهد بأنّهما سيبقيان على الإيمان ، وبعد التراتيل تمّت الخدمة السرية ثم جاء بعدهما تيطيوس يوستوس صاحب البيت الكبير بالقرب من المجمع وعضو الرعية الرومانية ، وقد تعرّف بولس بواسطته الى الأوساط الرومانيّة المثقّفة ، من الجائز أن يكون تيطيوس من عائلة تيطوس المعروفة ٧٤.

استيقظت مخاوف المجمع ، أنّ التجّار اليهود الكبار والرجال المتحولين لم يتمكّنوا أن يتحمّلوا هذا الغريب الذي عكّر صفوهم وامتهن كرامتهم بتعليمه ووضع حداً لآمال أمّتهم الكبريائية وامتيازاتهم منذ ألف سنة بمسيح واحد مات على صليب العار. ثارت الزوبعة في السبت الثّاني ، كان مشهداً شبيهاً بالمشاهد التي جرت في أنطاكية بسيديا وسالونيك. سحب بولس خيط الفصل وبقي ثابتاً فوق المنبر لا يتحرّك ، وبعد أن أتعب خصومه من الضجيج قام بحركة رمزية عظيمة كان تأثيرها قوياً على الروح الشرقي ولا يزال الشرقيّون يقومون بمثل هذه الحركات حتّى اليوم[٥٠]. «خلع رداءه وقال لهم دمكم

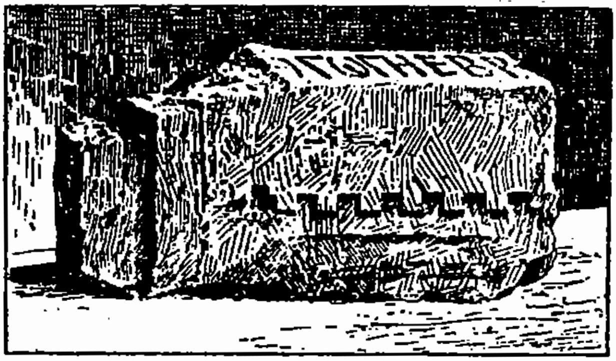

فوق رؤوسكم ، إنّي نقي ، إنّي من الآن أتوجّه إلى الأمم» ، كان نوع من الحرم أطلقه بولس لأوّل مرّة تداركاً من حرم المجمع .

مشى بولس محاطاً بأصدقائه بين الجموع الهائجة هادئاً كمعلّمه . بزر تيطيوس يوستوس أمامه وقدم له بيته كمكان لاجتماع الكنيسة فقبل بولس ذلك بفرح . فنجح في تفكيك الرعية اليهودية وفصل بينها . قسم عاد إلى المجمع وقسم لحق ببولس إلى بيت تيطيوس حيث تابع في ساحة الدّار الداخلية عمله . تأخّر البعض خوفاً وجبناً ثم جاؤوا أخيراً . تمّ الفصل ، وهكذا تأسّست الكنيسة الأولى في قورنثية وكان أعضاؤها من الوثنيين سابقاً .

٣٣. ﴿ تعال يا رب ﴾ (مارن أثا)

كانت أيّام الآحاد أكثر الأيّام خصباً وإنتاجاً بالنسبة لبولس . هنا نصادف لأوّل مرّة ذكر الأحد المسيحي في العهد الجديد (١ قور ١٦ ؛ ٢) . إن مبادئ العبادة الأولى في المسيحية مغمورة بالظلمة ، إلّا أنّ ما يقوله الرسول في قورنثية عن مواهب الروح والجرأة التي كان يظهرها عندما كان يندّد بالإنحرافات التي كانت تقع هنالك ، يكشف النقاب عن السر الدقيق في الكنيسة القديمة . وتزداد الصورة وضوحاً إذا أضفنا إلى ما يذكره بولس ما جاء بشأن العبادة الأحدية في طروادة ، وما يذكره التعليم* في الجيل الأوّل بعد بولس ، وما ورد في رسالة بلينيوس من فيثينيا إلى الأمبراطور ترجان في بدء العصر الثّاني . لم يكن التطوّر سريعاً وهكذا يمكننا أن نعود ببعض الأخبار اللّاحقة الى العصر الرسولي . حسب

* مؤلّف بعنوان «تعليم الرسل الاثني عشر» .

بلينيوس كانت هناك خدمتان : خدمة محدودة تتمّ قبل طلوع الشمس في يوم الأحد وخدمة تتلى عند المساء من اليوم ذاته ، كانوا في الخدمة الأولى يرتّلون نشيداً للمسيح على طريقة الجوقتين ، وفي الثّانية كانوا يشتركوّن في «عشاء مشترك» ونقي ، يشير هذا التعبير إلى عشائين : إلى المحبّة المسيحية ، وإلى سر الشكر. يجب أن يضاف إلى هذا خبر ثالث : في العبادة الصباحية كان المسيحيون يقطعون على أنفسهم عهداً يحافظون بموجبه على الأخلاق المسيحية ، لا يعني العهد هنا ، العهد الذي كان يقطعه المسيحيون على أنفسهم يوم المعمودية من الجائز أن يكون المقصود هنا الإعتراف العلني بالخطايا الذي يشير إليها الفصل الرّابع عشر من التعليم «أكسروا الخبز في اجتماعاتكم في أحد الرب واشكروا معترفين بخطاياكم» ، لم تعرف قورنثية خدمتان منفصلتان واحدة عند الصباح وأخرى عند المساء.

لم تكن الخدمات الوثنية بمواعظها وطلباتها نماذج للعبادة والوعظ بعباداتها ومواعظها وطلباتها ، إذ دلّت الأبحاث في عبادة ايزيس واتيس وكيفالي وميترا والهرطقات الفيثاغورية أن ألبون شاسع بين العبادة والوعظ المسيحيين وبين ما كان يجري في تلك العبادات الوثنية. القاعدة الثّابتة للخدمة المسيحية كانت العبادة في المجمع. كانت هذه العبادة بصلواتها المقرّرة وقراءات كتب الأنبياء الوعدية والمواعظ أنموذجاً للخدمة في الكنيسة المسيحية. لا شكّ أن الرسول حصر القراءات في كتب الأنبياء الوعدية والقسم الجوهري امتلأ تدريجاً بسيرة حياة المسيح ومواعظه البارزة وأقواله التي اتخذت مع الوقت شكلاً ثابتاً. إنّ هذا العصر الذي نعالجه عصر جعل مجمع أورشليم مثاله في العمل. كان المجمع يراسل كلّ المجامع اليهودية في العالم وقد أتبع بولس هذه الطريقة فأخذ يكتب للكنائس ويقربها من بعضها ويربط فيما بينها ، وكانت هذه الرسائل تنتقل من كنيسة إلى كنيسة فتتلى في الخدم ثم تحفظ بين الكتب القديمة وتدريجاً صارت من الكتب المقدّسة واكتسبت سلطانها.

بعد القراءات كان بولس يعظ ، وكانت خبرته المسيحية معيناً لمواعظه وكان يشدّد على الشيء الذي يريد أن يعطيه القوّة التي يستحقّها. كان في البدء يعالج الأمور الأولية عن الحياة المسيحية (١ قور ٣ : ٢) ، وكان يتحاشى كلّ تزويق وتنميق خطابي تاركاً الحقائق أن تتكلّم. أيقن أنّ حقيقة الصليب الرهيبة يجب أن تكون محور كلامه ، وأنّ عليه أن يجعل نصب عيني الشعب المتخوم بالفلسفات المفصّلة تفصيلاً جيداً هذه الحقيقة كما هي وبساطة ورصانة الحياة المسيحية (١ قور ٢ : ٢). إنّ موت المسيح في بولس لا يمكن أن

ينفصل عن قيامته، فموته بدون قيامته عمل لا نهاية له. يُظهر بولس القيامة أول ما يظهرها حقيقة مخلصة، قمّة للموت التكفيري. لم تكن الكنيسة في نظر بولس حارسة لحقيقة تاريخية ما، فالمسيحية في مثل هذه الحالة تصبح درساً تاريخياً فقط. الحقيقة التاريخية الجوهرية لكل ما حدث من أجل خلاصنا هي الباب الناري الذي ندخل منه مع المسيح إلى الغبطة، كانت لكلماته الخالية من كلّ تزويق وشخصيته التي كانت ترى في كلّ كلمة قوّة السحر الجاذب. كان بولس يملك قوّة إقناعية عظيمة وعندما كان يرتفع في عالم من النشوة الروحية وتستحوذ عليه تلك الحماسة من أجل المسيح كنت تشعر أن أعمق الألحان وأعذبها وأقواها كانت تتفجّر أصداء لتحتضنها القلوب والأرواح. لنأخذ مثلاً على ذلك الفصل الثّالث عشر من رسالته الأولى إلى أهل قورنثية، في هذا الفصل وصل إلى درجة من نقاوة القلب البشري وترصيعاته لا يمكن أن تجدها قط في الأدب القديم. هنا تقوم عظمة الرسول الفريدة وقوّة المسيحية المجدّدة للحضارة.

إنّ عبادة نظمها بولس لا بدّ وأن تكون شيئاً رائعاً لأنّ الروح القدس هو الذي وهبه هذه الجاذبية كلّها «برهان الروح والقوّة» ما نجده اليوم لماماً ومتقطعاً من حياة القديسين كان في ذلك العصر محضراً من المحاضر اليومية كالإيحاءات المفاجئة والاستنارة والنشوة وموهبة النبوّة ومعرفة ما في قلوب الآخرين وتمييز الأرواح والتكلّم باللغات المتعدّدة وشفاء المرضى. ينهي الإنجيلي مرقس انجيله بقوله إنّ يسوع وعد خاصّته بالعجائب والإشارات وهذه المواهب هل رفعت الموهبة الطبيعية أم أكملتها، هي جنّدتها لخدمة الكنيسة، أم حطّمت النظام الطبيعي المألوف إنّها تقود إلى ثلاثة مجالات مختلفة: إلى قوّة الكشف، (نبوّة، كلمة، تعزية، تمييز الأرواح، سبر أغوار القلب) وإلى قوّة اللسان (تعلم الألسن، تعليم، ونظم المزامير والأناشيد) وإلى قوّة الإرادة (عجائب شفاء مرضى، قوّة بطولية في الإيمان) هذه الأمور تشكّل غنى روحياً تميّزت به الكنائس التي أسّسها بولس وكان ذلك تعزية له كما كان قوّة جاذبة لأولئك الذين كانوا خارجها. يذكرهم بولس خطياً «بما كانوا عليه وبما صاروا، يذكرهم يوم كانوا في الوثنية الخرساء بأصنامها البكم» (١ قور ١٢: ٢) ويوم صاروا يملؤهم مدّ العواطف والمشاعر في اجتماعاتهم الروحية[١٦].

لم تكن الإجتماعات العبادية في قورنثية اجتماعات جافّة لا حياة فيها بعيدة عن الشركة الأخوية. كان الشعب اليوناني شعباً محباً للموسيقى ذا عاطفة مرهفة إيقاعيّة ولذلك قدّم بولس

مخططاً موجزاً للعصر الرسولي الذي كان يحبّ الأناشيد وكانوا يخاطبون بعضهم بالمزامير والنشائد وكانوا يحبّون الترانيم والتراتيل ويرتّلون في قلوبهم للرب (أفسس ٥ ، ١٩) (١ قو ١٤ ، ١٦) يذكر بولس أن ترتيل المزامير موهبة خاصة يعطيها الله للإنسان (قو ١٤ ، ٢٦) وكذلك النشائد والتراتيل (أفسس ٥ ، ١٩). يقصد بالأناشيد تلك التي تصدر عن قلب خاشع ونيّة صالحة تعبديّة كما هي الحال في المزامير التي تعبّر عن حالة تنطق بحقيقة الشاعر. ما عدا الأناشيد للعذراء وزخريا وسمعان الواردة في الإنجيل وما عدا مجدلية كنيسة أورشليم أثناء اعتقال بطرس وزجّه في السجن لدينا بعض القطع من الأناشيد القديمة في رسائل بولس (أفسس ٥ ، ١٤ ، ١ تيمو ٣ ، ١٦— ٢ تيمو ٢ : ١١).

إنّ هذه الأناشيد التي خصّصت فيما بعد لإجتماعات الخدمة كانت تنظّم وترتّل في اجتماعات بيتيّة. عندما نصادف في الأناجيل والرسائل قطعاً شعرية وأناشيد فمن البديهي أن يكون الخطيب أو الشّاعر في القديم هو الواضع للنص. كان يكتب النص ويوقّعه على الموسيقى ثم يلقيه ترافقه الشبابة والقيثارة والكمان والرباب وآلات وترية أخرى. كانت الموسيقى في القديم مستعبدة للنص حتى الكلام المنثور كانوا يلقونه على أنغام الموسيقى (كالنشيد الغريغورياني)[٥٤]. لم تكن لشعوب الشمال أيّة فكرة عن التوقيع الموسيقي وقد دخل فيما بعد في الخطابة الرومانية. من المعروف أن غراخوس في خطبه كان يصطحب عازفاً على الشبابة أما ليرافقه مثيراً فيه العاطفة أو ليوقّع له نبراته الخطابية فيزداد شعوراً وعاطفة والكتبة الاقدمون كانوا يفعلون ذلك. إنّ الرسوم المحفورة فوق الأواني الخزفية تعطينا فكرة واضحة عن الدور الذي كانت تلعبه الموسيقى والأناشيد في عبادة الآلهة القديمة. كان هدف الموسيقى تقريب الآلهة وإبعاد الشياطين أما في المسيحية فكانت تستهدف إثارة العواطف العميقة وتحريك الأعماق بالشعور الديني العميق. في الديماميس كثيراً ما نرى أورففس يرمز إلى المسيح ، هناك أسباب جوهرية تدعونا أن نقول إن هذه القطع العاطفية للرب في الأناجيل والرسائل مثل مجدلية الرب «اعترف بك أيها الآب» كانت لا تقرأ قراءة عادية بل كانت ترتل. عندما يذكر أوغسطين أن نشيد المسيحيين جذبه جذباً قوياً واستدرّ الدموع من مآقيه يؤكّد أن النشيد لم يكن نشيداً عادياً بعيداً عن روح الموسيقى وخالياً من كلّ إيقاع يحرّك أعماق الحياة. كانت الموسيقى في المأساة القديمة

٥ قطع مماثلة لقراءة الرسائل والأناجيل في كنائسنا.

محوراً يدور حوله الهدف الأساسي. إنّها تمثّل بالصوت، تمثّل بالنغم الرّاقص صوت الطبيعة الصّافي الحرّ من كلّ تشابكات الأهواء الدنيئة[٥٤].

كانت الجوقة في العبادة المسيحية الأولى منظّمة تنظيماً رائعاً لم تكن مجموعة من الموسيقيين بالصدفة كما هو الحال في هياكلنا الآن بل كانت لهم شخصية ذاتية مترابطة يمثّلون حيناً صوت الروح المسيحية المحبّة لله وحيناً الكنيسة بكاملها، عروس المسيح وحيناً آخر صوت المسيح الذي يرتفع فوق كلّ الأصوات. رجال ونساء وشيوخ كانوا يرتّلون معاً وكان النغم يتصاعد كأنّه فيض قلبي فيرتسم على الوجوه ليعبر تعبيراً صادقاً عن عميق الإرتباط بين الجوقة والشعب الذي كانوا يمثلونه وعن عمق التجاوب بين قلوب وقلوب، قلوب عامرة بالإيمان والمحبّة والثقة.

علينا أيضاً أن نتصوّر أنّ قراءة الكتب المقدّسة كانت تختلف من حيث طريقة القراءة عن قراءتها في الوقت الحاضر. يقول نيتشه «إنّ الإنسان في العهد القديم كان يقرأ على حسابه ولم يقرأ قطّ من داخله» كان يقرأ بصوت عالٍ ويطبّق كلّ القوانين المفروضة في القوانين: تمديد الصوت، تنغيمه، رفعه، وخفضه. هذه الأمور كانت تسرّ الإنسان القديم وكان هذا الإنسان يقرأ بهذه الطريقة حتّى ولو كان وحيداً منفرداً. كان الكلام اللفظي يشكّل في العالم القديم قوّة لا يمكننا أن ندركها الآن ولا أن نحيطها بعالم تصوّراتنا. «كانت هنالك جوائز للإلقاء الحسن»[٥٤]، وقد أوجدت الكنيسة بين خدّامها رتبة القارئ.

كانت المرأة في اليهودية تجلس في أماكن ثانوية منزوية أما في المسيحية فاحتلّت مكاناً مرموقاً في الخدمة في قورنثية أثار الإنتباه. كان اليهود يمنعون الفتيات من تعليم الشريعة وهكذا نستطيع أن ندرك لماذا استولى على النساء هذا الشعور المليء بالإحترام والعرفان في انجذابهنّ للمسيح. كنّ يشعرن أن المسيح أعتقهنّ وهو المعتق وخلّصهنّ وهو المخلّص. كنّ يشعرن أنّ المسيح يهتمّ بنفوسهنّ. إنّ مريم تحت أقدام المسيح في بيت عنيا، والخاطئة التي مسحت أقدام المسيح بالطيب والسّامرية عند بئر يعقوب لوحات حيّة بارزة عن منزلة المرأة في المسيحيّة وازدهارها النفسي الجديد. لم تكن في الشرق مشكلة نسائية. كانت المرأة راضية بمصيرها الوضيع أما في اليونان فكان الوضع مختلفاً جداً. إنّ أفيجانيا تقول في مأساة غوته «لا أريد أن أدين الآلهة، إلّا أنّ حالة المرأة جديرة بالتأسّي»، عندما

أصبحت اليونان مقاطعة رومانية إثر مركز المرأة الحرّ على موقف العالم النسائي[٥٤]. فتجاوبت الديانات الأخرى مع موقف هذه اليونانية، مع الحرية. هناك نص قديم يتعلّق بعبادة ايزيس تخاطب فيه الآلهة هكذا «أعطيت للنساء السلطة التي أعطيتها للرجال»[٢٩] وهكذا كانت تتمتّع ايزيس كأرفع الآلهة «بعبادة جنونية جعلتها حامية للحركة النسائية. كان روح العصر آنذاك مواتياً بصورة خاصّة لسيطرة نسائية. وصلت حرية المرأة في عصر الأمبراطورية إلى أوجها. حتّى في الحياة الدينية كان أثرها واضحاً وصارت أهواؤها الدينية زياً يتبعونه. لا يمكن أن تفهم الديانات السرية وطريقة انتشارها بألوانها العاطفية بدون المرأة. كانت للنساء في الخدمات السرية رتب عالمية وكان بولس يعرف ذلك وقد وضع هذا نصب عينيه [١٧].

بعد رحلة بولس الثّانية أخذت المرأة تظهر على المسرح بصورة ظاهرة. إننا رأينا هذا في فيلبي وكانت النسوة في سالونيك عماد الكنيسة الثمين أما في أثينا فكانت هناك دماراس. قامت هذه المرأة بأعمال مجيدة أما في قورنثية فكان لجهاد المرأة أثره الفعّال، وقد تميّزت نسوة قورنثية بالجرأة والإخلاص وكنّ يحملن على عاتقهنّ مسؤوليات جساماً في الخدمة وكان لبعضهن موهبة النبوّة فتركهنّ بولس دون أن يخرسهن تمشياً مع قوله «لا تطفئوا الروح» «لا تضعفوا النبوّات» إلّا أنّ بولس رفض رفضاً باتاً نزع الغطاء عن الرأس على اعتبار أنّه يرمز إلى الطاعة[٢٩].

بعد الخدمة والوعظ كان الجميع يجلسون إلى العشاء. كانوا يسمونه مائدة المحبّة أو عشاء المحبّة. هذه الموائد كانت من أهمّ ما استنبطه الإنسان المسيحي الأول تعبيراً عن الوحدة وأفعل شيء في النفوس وأبعده أثراً. صعب على المرء معرفة مصدر هذه العادة، أجاءت من اليهودية؟ أهو العشاء الذي كان يقيمه اليهود يوم السبت الذي يتكلّم عليه الإنجيل ويعرّفنا به؟ أم من اليونان وكانوا يجمعون من البشر أطعمة وخيرات ويوزعونها على الفقراء في ملاجيء مشتركة؟ من الجائز أن يكون بين المشتركين في هذه الموائد بعض المشتركين في هذه المؤسسات الخيرية. أمام المسيحيين مجال تتوفّر فيه كلّ الشروط القانونية ليوحّدوا أنفسهم اجتماعياً دونما خوف أو وجل من قانون. ماذا نتج من هذه العادة بالنسبة للكنيسة؟ لقد تمكّنت الكنيسة أن تجد شكلاً إدارياً للكنيسة ذا محاور وفرق صارت فيما بعد أساساً لتشكيل الرعايا المسيحية الحاضرة لا نعجبن إذا رمز إلى سرّ الشكر فوق جدران

الديماميس بهذه الموائد. بعض الأحيان تختلط الدوافع الوثنية والمسيحية. إنّ روس وديلبرت الباحثين في الديماميس نشرا صوراً لمثل هذه الموائد كانت محفورة فوق الجدران تصوّر عشاء خمسة أو ستّة أشخاص وأحياناً بينهم بعض الأولاد. بينما كانت بعض الفتيات يقمن بخدمة المائدة. أغابي أعطني الخمرة يقول الواحد ايريني أعطني ماءً ساخناً يقول الآخر. هذا ما كان يحصل في قورنثية كان شكل الطّاولة التي تنقل فوراً يشبه نضوة الحصان أو نصف دائرة. كان العبد الفقير الذي يؤنبه معلمه أو يضربه في البيت يجلس في هذا المكان مقابل مدير المدينة وأرشيدس رئيس المجلس وكريسيوس وتيطيوس الغني وكانت النساء يخدمن الجميع بفرح وسرور وقد اعتاد أن يجلس عند منتصف الطّاولة أحد الشيوخ بالتناوب. أما صاحب البيت فكان يقدّم الهدايا الصغيرة كالزيتون والسردين والصحون والأكواب. وكان رب البيت أو أحد الخدم أو أحد المتقدّمين يتلو صلاة المائدة «أيّها الرب الكلّي القدرة يا من خلقت العالم وما فيه ومن أجله وأهلت الإنسان إلى التوبة..» ما هو الإطار الديني لهذه الموائد وسط مجمل العبادة؟ لا ندري.

بعد مائدة المحبّة كان البعض يتركون المكان لأنّهم كانوا غير معمّدين أما الباقون فكانوا يصعدون إلى الطّابق الأعلى، والطّابق الأعلى في البيوت الشرقية كان يستعمل للإحتفالات الرسمية وللاشتراك بسرّ الشكر وكان من القرميد فسيحاً حسن التهوية مفتوحاً على النور. كانوا يشعلون أنواراً كثيرة (اع ٢٠ — ٨). وكان الرجال والنساء يعترفون بخطاياهم أمام الرسول ثم يتقدّمون إلى المائدة بترتيب مطلق فيتركون سلالهم المليئة بطحين القمح والزيت والخبز المصنوع من القمح النقي الصافي والخمر الخالص بينما كانت تتجاوب أصداء يا رب ارحم. كان بولس يأخذ قسماً من الخبز والخمر بين يديه ويقدسها وكان الخبز والخمر على مرّ الأجيال أشرف وأقدس وأبسط طعام للبشرية. المسيح ذاته أخذهما بيديه. وكانت الإيقونات تأخذ طابع الحوار بين بولس والحاضرين لنرفع قلوبنا إلى فوق! هي لنا عند الرب! لنشكرنّ الرب! بحق واجب. وبصوت جهوري كان بولس يعلن كيف تمّ تعرّفه بهذا السر وكيف أخذه من الرب نفسه بواسطة أمّ الكنائس أورشليم «في الليلة التي أسلم فيها الرب» (١ قور ١١، ٢٣)، وكانت الكنيسة تجيب «نشكرك يا أبانا من أجل الحياة والمعرفة التي عرفتنا بها بواسطة ابنك يسوع فلك المجد إلى الأجيال. وكما أن هذه الكسر من الخبز هي نتاج القمح الذي ذري فوق الجبال، هكذا فلتجتمع كنيستك من أقاصي الأرض في ملكوتك لأنّ لك المجد والقدرة بيسوع المحح إلى الأجيال (تعليم ٩).

لتأت النعمة وليعبر هذا العالم. أوصنا لإله داود. لأنّه قدوس، ليأت، ولتتب» (تعليم إصحاح ١٠) «ماران آثا» تحمل معنيين أو «ليأت الرب» أو كما تترجمه الرؤية: «تعال يا رب».

كان المؤمنون يقتربون من الرسول الواحد تلو الآخر ليأخذوا من يده الخبز المقدّس ويشربوا الخمرة المقدّسة ثم ينسحبون إلى أماكنهم بعد أن يتصافحوا المصافحة الأخوية. أمّا بقايا القدسات فكانت ترسل إلى المرضى إذا كان هناك مرضى. كان السرور يصل إلى ذروته عند ترتيل النشيد الشكري ومن هنا أطلق على الذبيحة اسم سرّ الشكر وكان ينتهي باستدعاء يدلّ على الحنين الكامل للحضور الثّاني كما يقول التعليم.

كانت تجتمع الكنيسة كأنّها «جسم» واحد حول رأسها «المسيح» وهكذا كان بولس يرى الكنيسة المجتمعة للعبادة عندما كان يصلّي من أجلها ويكتب لها. وعندما يتكلّم على بناء هيكل الله في العبادة العامّة ينمي بين المؤمنين فكرة وحدتهم وارتباطهم الواحد. في النهار كان المؤمنون يذهبون إلى أعمالهم: هذا إلى صنعته وذاك إلى غرفة عبوديته وهذا الى السوق وكانوا كالمنبوذين مدعاة للسخرية من عالم يكره الغرباء وكانوا يعودون عند المساء ليجلسوا معاً على مائدة مقدّسة مشتركة. هنا كانوا يعيشون عجيبة الرباط المقدّس عجيبة الحماسة بشعلة إيمان مشترك واحد ورجاءٍ واحد. وإذ ذاك كان الروح القد ينفخ ويلفّ الجميع بعالم مليء بالعجائب وفوق هذا الموج من الحماسة كان الرب يجلس كأنّه فوق عرش كرأس للكنيسة. إنّه موجود بقدرته الملموسة الأكيدة. إنّه المسيح الذي يقدّم العشاء فتجتمع حوله الكنيسة. هذا العشاء يوحّد أعضاء الكنية فيما بينهم ومع المسيح أكثر بكثير ممّا توحّد مائدة سيرانيس تباعها المصريين (لوحة ٨).

٣٤. بدء العهد الجديد

(الرسالة الأولى إلى أهل سالونيكي)

كان اليوم الذي وصل فيه سيلاس وتيموثاوس إلى قورنثية يوم فرح في حياة الرسول. لم يكن بولس كأولئك النسّاك الذين يعيشون في هياكلهم العظيمة. كان يحبّ أن يعيش مع إخوة يعزّونه ويشاركونه الأفراح والأحزان ويخفّفون عنه الآلام يشعرون بشعوره. عندما أطلّ القادمان الجديدان على عتبة مصنّعة أشرق شعاع من نور على وجهه وكان هناك عناق أخوي صادر عن أعماق مخلصة صادقة. في ذلك اليوم خرس مكوك الحياكة وبقي جامداً لا يتحرّك ليفسح في المجال للسان القادمين بالأخبار عن كنيسة تعيش في وجدان الرسول. جلس بولس مع صديقيه. بولس يصغي وتيموثاوس يتكلّم. طال الحديث حتّى وقت متأخّر من الليل. كيف تسير الأمور في سالونيك؟ ما وراك يا تيموثاوس؟ قصّ تيموثاوس على بولس كلّ ما رآه وتحقّقه. تكلّم كلّ ما هو حسن عن السّالونيكيين «إنّ إيمانهم متين لا يتزعزع. حدث هناك ما سبق وقلت عنه. تحمّلوا الإضطهادات بصبر وطول أناة وكانت وحدتهم ومحبّتهم الأخوية مثاراً لإعجاب وثنيّي مقدونيا. إنّهم يذكرونك كثيراً. إنّهم مخلصون ويشتاقون إليك ويحبّون أن يروك بينهم (١ : ٨، ٣ : ٤ — ٦). إنّهم لا يصدّقون ما يلفّقونه حولك من أنّك مخادع محبّ للمجد موارب طمّاع وبخيل. إنّ عملك الشّاق وما تتحمّله يبدّد يوماً عن يوم كلّ هذه الشّائعات. (٢ : ٣— ١٠). كان بولس سعيداً مع أن بعض الظلال كانت تتخلّل بعض الأخبار، كلّ الأخبار المفرحة. لقد حصد

الموت بعض الصيّادين المهرة من أبناء كنيستنا. وخنقتهم الزوبعة الأخيرة. فأثار هذا الموت في النفوس عواطف جمّة فوجدت بعض العائلات نفسها في حالة من التساؤل والحيرة وكانت تسأل باستمرار. ماذا سيحلّ بموتانا؟ مع ذلك كانوا يأملون أنّهم سيعيشون ليروا اليوم العظيم، يوم حضور الرب الثّاني وظفره على القوى المضادّة. إنّ قضيّة المجيء الثّاني تسبب أكثر مشاكلهم. كثيرون يحاولون أن يتحقّقوا اليوم والسّاعة ويفتّشوا ليجدوا أدلّة فيذهبون من بيت إلى بيت ويعلنون أنّ لا قيمة للحياة الأرضية وأنّ لا فائدة من أن يعمل الإنسان أو يقوم بعمل جديد أو أن يصلح ويرمّم بيته وهكذا كانوا يقفون في قفر ويصبحون عالة على الآخرين. لقد شوهوا تعليمك عن نهاية العالم».

لا نعتقدنّ أنّ السّالونيكيين كانوا يشكّون في القيامة. لو كان الأمر كذلك لاستعمل معهم لغة جدّ مختلفة[٦١]. ما كانوا يشكّون في القيامة بل كانوا يريدون أن يعرفوا متى سيقوم الرّاقدون بالمسيح (١ قور ٦: ٢، ١٦: ٢٤).

استولى على بولس تفكير عميق وغاص في عالم بعيد ثم رفع رأسه وقال: حبذا لو تمكّنت يا تيموثاوس أن أرحل غداً باكراً إلى سالونيك. إنّي لا أستطيع أن أترك هؤلاء البشر في منتصف الطريق. اذهب غداً باكراً إلى المحل القائم في الزّاوية عند المعمل واشترِ كلّ ما نحتاجه للكتابة.

مباركة هي السّاعة التي قرّر فيها بولس هذا القرار. إنّها لساعة مباركة على كلّ العالم. بهذا العمل ابتدأ بولس بأهمّ ناحية من نواحي عمله، أو بالأحرى، بأهمّ ناحية من نواحي المسيحية عامة. لم يكن بولس ليتصور أنّ الملايين من البشر سيمجّدون المصنع الصغير القورنثي حيث بدأ بكتابة العهد الجديد فكانت رسالته إلى أهل سالونيك التي ولدتها الضرورات الزمانية أولى صفحات هذا العهد المبارك. كان ذلك على وجه التقريب سنة ٥١ أي بعد عشرين سنة كاملة من قيامة المسيح.

هناك أحجية جديدة يضعها الكتاب المقدّس أمام أعيننا. لو كانت الأمور ملك أيدينا نحن البشر لكان تصرّفنا يختلف تماماً عن تصرّف الله. لو أردنا نحن أن نبتدئ بالعهد الجديد لكنّا ابتدأناها باحتفال صاخب قرعت فيه الأجراس والطبول «في البدء كان الكلمة» غالباً ما يتصرّف الله بطريقة تختلف عن منطوق مفهوم عقولنا. فالله

شخص يختلف كلياً عنّا. حيناً يظهر أعماله بطريقة مليئة بالعظمة مثال ذلك عندما يقول «اسمعي أيّتها السموات وأنصتي أيتها الأرض إلى ما يقوله الرب» (إشعيا ١ ، ٢) وحيناً آخر يرسل رئيس الملائكة ليعلن تجسّد ابنه وأحياناً يحقّق أعماله فتنمو كحبّة قمح نامية في السرّ في طرف حقل ناءٍ. إنّه الآن يعمل في السرّ وبطريقة بعيدة عن الإحتفالات يبتدىء في معمل أكيلا الحقير بالعهد الجديد. إنّه الله ذاته، الذي ألبس ابنه الكائن قبل الأزل جداً وأعطاه صورة عبدٍ في مزرب من مزارب الناصرة، إنّه هو الذي يحرّك أفكار الرسول للخطوة العالمية الكبرى.

بقي بولس يبحث مع أصدقائه قضايا سالونيك الهامّة حتّى آخر الليل وكان يدوّن فوق لوح شمعي كلّ النقاط الهامّة. فقضى ما تبقّى من الليل في الصلاة والتفكير. إنّنا لنرى في الرسالة الحالة الروحية التي كانت تستولي على الرسول. فعطرها عطر صلاة. وشذاها هذا الإنعكاف على ذات منحها الله قوّة العطاء والإغداق لمجده. كلّ رسائله من الصلاة الروحية العميقة وانطواء على الذّات العائشة في المسيح. كلّ تفكيره صلوات وكلّ تعبيره انطواء ورجوع إلى الله المتكلّم فيه(٤٩).

في اليوم الثّاني ذهب تيموثاوس إلى السوق ليشتري ما يحتاجه إلى الكتابة [١٨]. اشترى عدداً من الرقوق وريشة وحجراً خفيفاً لتلميع الورق وحكّ رأس الريشة وممحاة لمحي الأغلاط وسمغاً للصق الأوراق وختماً وخيطاً لربطها. لو كانت لتيموثاوس الإمكانيّة الماديّة الكافية لاشترى ورقاً من نوع وحجم «ورق الكهان» (٠,٢٤ م). كان هذا النوع من الأنواع الثمينة جداً. يأتي من مصر وكان يوزّع بالتقنين إذا ما تأخّرت القوارب التي تحمله من مصر إلى قورنثية. من المستبعد أن يكون بولس قد استعمل ورق البردي لأنّ اليهود كانوا يستعملونه لأمورهم الخاصّة كنسخ الكتاب المقدّس. في سجنه الثّاني في روميه رجا بولس تيموثاوس أن يحمل له الكتب ورقوقه أي كتابه.

وينكبّ الثلاثة على العمل. أن تكتب في العهد القديم شيء وأن تفكّر شيء آخر. الكتابة كانت عملاً مرهقاً وخصوصاً للأصابع. قد تتوصّل الأنامل ألّا تكون طيّعة من الإرهاق. كان الكاتب في العهد القديم يسند الرقوق إلى كفّه ويكتب وكانت الكتابة مهنة خاصّة لذلك كان بولس يملي وفقاً للعادة القديمة وكان سيلاس وتيموثاوس

يتناوبان الكتابة. فيما بعد ساعد سيلاس بطرس في الكتابة (١ بطرس ٥ : ١٢). وهكذا يفسّر وجود أفكار بوليسية كثيرة في رسائل بطرس. كان الكاتب يتربّع في جلوسه وكان يكتب ما يُملى عليه. إنّ أمهر الكتبة يتعب بعد ساعتين متواصلتين من العمل. لذلك كان من الضروري التوقّف للإستراحة. نلاحظ ذلك عندما تتغيّر المواضيع وكانت الرسالة تحتاج إلى يومين أو ثلاثة وكان الرسول في أثنائها يغوص في عالم تفكيره ويسند رأسه إلى كفّيه بينما يكون تيموثاوس يصلح ريشته ويسنّ رأسها أو كان يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً مستجمعاً أفكاره حتّى إذا ما أشرقت أفكاره أملاها بحرارة على تيموثاوس [١٨].

من بولس وسلوانوس وتيموثاوس إلى كنيسة السالونيكيين التي في الله الآب وفي الرب يسوع المسيح نعمة لكم وسلام،

قاطعه سيلاس قائلاً: ما هذا؟ الرسالة رسالتك فما شأننا نحن؟

قال بولس يا سيلوانوس الرسالة رسالتنا. ألا نشعر جميعنا نحو إخوتنا السّالونيكيين شعوراً واحداً؟

هذا هو وجه بولس الحقيقي. إنّ موقفه يدلّ على تواضع وكرامة الإنسان الذي يجعل ذاته في مصفّ معاونيه الجدد. خمساً وستين مرّة يردّد ضمير المتكلّم بالجمع ليدلّ على أنّ أعوانه الجدد هم مثله مؤسّسو كنيسة سالونيك[٤٩] [٢٥].

لأوّل مرّة تسمع أذننا هذا التثليث المسيحي في العهد الجديد «إيمان، رجاء، محبّة». بمثل هذا النشيد الرّائع يبتدئ العهد الجديد. هذا ما تميّز به عمل بولس الذي أخذه على عاتقه لإعادة جبلة الحضارة القديمة. الحبّ الأفلاطوني وعطش النفس للجمال المطلق وعشق الغرمانيين الذين أغرقوه في الأهواء الجسدية سينتشل من جوه المزعج وسيتحوّل إلى محبّة مسيحية كنتيجة لمحبّة الله، وكميراث أبدي انسكب في قلوبنا. إنّ نغم الرسالة كلّه نغم مقدّس ناعم مؤثّر مليء بالتفاني. يصدر عن موهبة معرفة الإنسان للآخرين الذي يضع نفسه موضع الآخرين فيتنسّم ما في أعماقهم من أفراح وآلام. هذه الرسالة ليست برسالة جدلية، ولا رسالة تفسير لمبادىء عقلية. إنّها إنعكاس لحالات شعورية وقابلية روحية لأولئك الذين سمعوا بشارة العالم الآخر. فأثرت فيهم تأثيراً

عظيماً. لذلك يجب أن تدرس هاتان الرسالتان تحت نور البشارة عن نهاية العالم. من الخطأ أن نعتقد أن التعليم عن نهاية العالم، كما يعتقد بعض النقّاد كان محور البشارة المسيحية أو أن العقيدة المسيحية هي من نتاجّ فكرة الدينونة الأخيرة.

يعرف بولس أنّ إرادة الله السرمدية، هي أنّ السّالونيكيين كانوا قبل الأزل في فكرة الله واختارهم ليؤلّفوا قسماً من كنيسة المسيح(٤٩). إذاً كانت جذور الكنيسة في الأزلية، في فعل الله قبل التاريخ الذي يسمّيه بولس مصيراً. ليس الإنجيل إلّا انقضاضاً جذرياً من العالم السّامي على محيط الحياة اليومية. عالم جديد وسط عالم عتيق يندثر. عندما كان يكرّر اعترافه بالمسيح كان يثير حوله الشكوك، فيعتبرونه مضلاً مشاغباً مشكوكاً فيه سياسياً. عانى بولس ذلك في فيلبي. والآلام في نظر بولس هي نتيجة الإشتراك والوحدة مع المسيح وهكذا تصبح آلامه آلام المسيح. بشارة الإنجيل قضيّة مقدّسة «فقط بالقلب النقي والكفّ النقية يمكن للمرء أن يمسك هذه الرسالة المقدّسة»(٤٩). يجب أيضاً ألّا يصنّف بولس مع المبشّرين القدماء المتدينين المضلّلين الذين كانوا يذهبون من مكان إلى مكان سعياً وراء المال. كان بولس يعمل بيديه علاوة على البشارة ليكسب لقمة العيش. وبقي بعيداً عن أي التزام بشري. أعظم الآلام كانت تأتيه من مواطنيه اليهود. لذلك كانت مشكلة اليهود تشغل عقله. لم تتركه مرتاحاً كلّ حياته. كان يكافح من أجل أمّته ومع أنّه كان يرى بكلّ وضوح جريمة شعبه الخاصّ المدمّرة كان يعتقد جازماً أنّ الله لم يطرحه نهائياً وأنّه «لما يزل لهذا الشعب مكان في مخطّط الله الخلاصي».

كان بولس يتكلّم والتأثّر الشديد يستولي عليه. كان يحتاج إلى الرّاحة قليلاً. دخل كذلك سيلاس محلّ تيموثاوس للغرض نفسه كما يظهر وكما تدلّ الدعوة الجديدة يا إخوتي، والتغيير في اللهجة. يسكب بولس الآن أمام أهل سالونيك كلّ ما في قلبه الشّاعر. يسكب كلّ عواطفه التي توجّهها علاقته بالله. إنّه يعرف وحدة القلوب في الوحدة مع المسيح. ليست الكنيسة رباط إيمان أو عبادة فقط. إنّها رباط محبّة المسيح. كم مرّة أراد أن يزور أهل سالونيك فمنعه الشيطان. لو كنّا نحن لقلنا إنّ الظروف الطارئة والحالة السياسية منعتنا. لا يوجد عند بولس ظروف معاكسة أو صدفة أو سياسة أو جو أو صحّة لا وجود عنده لأشياء حيادية لا وجود لها. كلّ ما

يجري في العالم يحدث إمّا على يد قوّات حيّة تعمل أما مع الله أو ضدّ الله— الشيطان. لا وجود لأيّ تضاد آخر في نظر بولس. إنّها نظرية عالمية في منتهى البساطة. حسب بولس، القوى الأرضية عامّة ليس قوّى نجمية لا شخص لها ولا أعصاب ولا وراثة بل قوى تفوق الأرض، قوى شخصية تسيّر مقدّرات البشر[٤٩]. ووراء مسرح الكون يقوم أولئك الذين يمسكون الخيوط. وبصلاة احتفالية يترك أفكاره تتفجّر تفجراً عن حضور المسيح الثّاني. في بعض المخطوطات توجد كلمة آمين، وهذا يعني أنّ بولس يختم مجموعة أفكاره ويتوقّف عن الإملاء.

في القسم الثّاني من رسالته يصل بولس إلى الموضوع الرئيسي. إلى حضور المسيح الثّاني الذي كان خاتمة تفكيره في كلّ قسم من أقسام رسالته. تيّاران قويّان من الأفكار كانا يعصفان متصارعين باستمرار من أجل السيطرة. الرجاء الحار لاستقرار الملكوت السماوي النهائي وتحقيق رسالة الحاضر بمعونة القوّة المخلصة التي أعطاها المسيح والروح القدس. الإتّجاه الأوّل هو اتجاه العهد القديم— نبوي. والثّاني اتجاه مسيحي خالص وكلا الإتجاهين ينطلقان من المسيح الذي كان يدرك رسالته المزدوجة. كان يدرك أنّه حامل ملكوت الله في العالم الحاضر. وأنّه المتمم لهذا الملكوت في الدينونة الآتية وأنّ وقتية هذا العالم تذوب تحت نور وهج العالم الجديد واشعاعه. إنّ الروح الذي يلبسه في المعمودية هو عربوننا بالقوى المخلصة في العالم الحاضر. وفي الوقت نفسه خاتمنا قبل أن يكون العالم ومهرنا لقيامتنا وتجلينا في حضور المسيح الثّاني. كان الاتجاهان يتصارعان الواحد مع الآخر دون تعادل. كانت أعين السالونيكيّين متّجهة نحو ناحية واحدة، نحو المستقبل، نحو ظهور يوم الدينونة الجديد. إنّهم من الآن يرون السماء تتورّد. هذا الرجاء يهدّد في القضاء على الإهتمامات المهنيّة في الحياة الأرضية ويجرّدها من كلّ قيمة. كان هذا هو الخطر العظيم.

لا يمكن للمرء أن يفسّر الآيات المتعلّقة بالعالم الآخر في رسالتيه إلى أهل سالونيك إلّا إذا قبل أنّ نبوّات المسيح عن الحضور الثّاني كانت أمام عيني الرسول وأنّه يعطيها تفاسيرها. كذلك يجب علينا أن ننطلق من الفرضية. إنّ كلّ نبوّة عظيمة عن نهاية العالم تسمح أو بالأحرى تفرض تفسيراً مزدوجاً، تفسيراً مؤقتاً وتفسيراً جذرياً، تفسيراً فورياً تاريخياً وسط حوادث المستقبل الفوري وتفسيراً نهائياً في نهاية العالم[١٦]. لا حاجة

للقول إنّ بولس كان يدرك المعني النهائي والأخير لما يقوله. يكفي أن يعرف أنّ موعد المجيء الثّاني وفقاً لإرادة المسيح كان مجهولاً عندَ الرسل وعند المؤمنين. ولم يكن بإمكان أحد أن يعرف إذا كان الحضور الثّاني سيكون غداً أو بعد غد أو بعد ألوف السنين. المهمّ في نظر بولس كما تدور الأمور هو تحقيق نبوّة المسيح. وما يقوله اليوم يستهدف الشيء الذي يمكن أن يموت فوراً. كلّ المؤلّفات الرسولية تعتبر أن أمراً سريعاً سيقع إذا كان الدمار النهائي سيلي فوراً أو سيتخلّل للوصول إلى هذا الدمار ألوف السنين (٢ بطرس ٣ : ٨) فهذا شيء خفي يثير التخمينات والآمال والمخاوف.

في عصر الرسول تدلّ الكتابات اليهودية (كتب عذرا الأربعة «٥ ، ١» وكتب يوسفوس) على اضطراب عظيم مصدره الوجدان العام. إنّ نهاية العالم تقترب. كانت نهاية العالم منتظرة من حين إلى آخر وفقاً للأفكار والمشاعر اليهودية. وإن كلّ جيل يعيش في النهاية الأخيرة من نهاية العالم[٣٣]. لن يكون الرسل بشراً إذا تحرّرت عواطفهم وانعتقت من تأثيرات دمار العالم وما يوحيه هذا الدمار. إنّ وحي الله وكلام السيد عن يوم الدينونة غير الصريح، جعلاهم حذرين لذلك لم يعلموا شيئاً قاطعاً نهائياً عن تاريخ حضور المسيح الثّاني. مع أنّهم كانوا بالعكس يستطيعون أن يقبلوا بكلّ طمأنينة استناداً إلى بعض الدلائل. إمكانية الحضور الثّاني كشيء ممكن وجائز وقريب. إنّ بولس يميل إلى الفكرة القائلة إنّ أكثر المسيحيين وهو أيضاً سيعيشون حتّى الحضور الثّاني (١ سالونيك ٤ : ١٧. ١ قور ١٥ : ٥٢)، فيما بعد أخذ يقدر أن الزمن يطول ويفكّر بموته الاستشهادي (٢ قور وفيلبي). كان يرى العالم وكأنّه يسير بسرعة نحو الدمار. وكان يشعر بخطر النظرة الموجّهة نحو المستقبل فقط. لهذا الإنسان المليء بالحيوية طريقته ليحول دون دمار العالم.

لذلك تأخذ الحياة الحاضرة قيمة أسمى لأنّها حياة في المسيح ولأنّها امتلأت وارتوت من الآن بقوى عالم السماء. إنّ معرفته بالمسيح أعطته شعوراً مطلقاً بالحرية وبثقة وسمو هذا العالم. كانت هذه الفكرة موجودة في الواقع في الإيمان المسيحي قبل بولس. إلّا أنّ بولس كان الرجل الذي عرف أن يستغلّ أكثر من غيره كلّ ما لم يقل بعد وموجود وراء كلام المسيح. فأن تكون مسيحياً «في المسيح» فإنّك وأنت في الأرض تتمتّع بسعادة الخلاص وهكذا حوّل بولس أنظاره نحو العالم الحاضر وسلخ فراديته الخطرة عن

أنظار المستقبل. وزوّد المسيحية بإمكانية مجابهة الحاضر فشعر بالفرح أمام الحقيقة. إنّه لتشويه فاضح الإعتقاد الذي يدين فيه فيلموفتيس أن علم الأخلاق عند بولس يستمدّ قوّته وينبع من قناعته الجنونية بنهاية العالم الفورية. لا شكّ أنّ انتظار مجيء الرب الثّاني أعطى للبشارة الرسولية دفعة عظيمة إلى الأمام. كان يعتقد أنّه سيعيش حتّى يُبشّر في الإنجيل في كلّ المسكونة. أراد أن تصبح كومة الحصاد جبلاً قبل مجيء اليوم العظيم. أراد أن يستعجل مجيئها بكلّ طاقاته. ربّما لأنّه كان يتذكّر كلام الرب. ملكوت الرب يغتصب اغتصاباً (متى ١١، ١٢)، إلّا أنّ محور تعلّمه لم يكن العالم الأخير والبشارة المسيحية لم تفقد من قوّتها شيئاً عندما أخذت المحنة تزول وأخذ مجيء الربّ يبطئ، لقد بقي البشر ينتظرون المجيء الثّاني ويصلون «وأيضاً يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات» (سيأتي المسيح وفقاً للأفكار السّائدة في ذلك العصر في الليل). طلع الصبح وصفت السماء ولاح نهار جديد تسوده شمس مشرقة جديدة.

إنّ بولس قبل أن يدخل إلى موضوع الحضور الثّاني يُظهر أولاً مثالية الحياة الخلقية وكيف يجب أن نعيش. هذه المثاليّة تتألّف من قداسة الإنسان الدّاخليّة، بحياته في المسيح وقداسة وجود الإنسان الأرضي، أي تقديس منطقتي الحياة الولادية والمهنيّة. المسيحي إنسان تخلّص من العالم الخاطىء، من الجيل القديم وانضمّ إلى جيل المستقبل، وهكذا لن يوجد اهتمام بالنسبة له إلّا ويعود إلى المسيح. الأخلاق البولسية تتلخّص بهذه الكلمات «صر ما أنت» على المسيحي أن يصير ما هو الآن في المسيح بمعونة الروح القدس، عليه أن يعبّر عن قداسته في المسيح بقداسة الأخلاق، بسيرة روحية. لا يمكن أن يفهم المرء كلمات الرسول (٤، ٤) فهماً كاملاً لا من ناحية الحياة الزوجية ولا من ناحية القوى الحياتية. كلمة الإناء تعني المرأة والجسد. هنا تشرق فجأة الأخلاق المسيحية الجديدة المولدة بل الأخلاق المهنية المسيحية الجديدة. من أخطاء اليونانيين الأساسية أنّهم يتجوّلون كثيراً في الأسواق والحمّامات. إنّ بولس يغيّر هدف الحياة. فهدف الحياة يبقى دائماً العالم المقبل إنّما يعيد إليها توازنها وهدوءها وينقلها إلى مركز الثقل[٤٩].

إنّ نقل مركز الثقل لم يجعل إعلان مصير أولئك الذين ماتوا قبل الحضور باطلاً. كان المسيحيون الأوّلون يفهمون كلمة حضور بمعنى عودة الرب وكانت تعني هذه

الكلمة أيّام الأباطرة زيارة الأمبراطور الرسمية لمدينة من المدن. كان الوعّاظ يعلنون عنها وكانت تقام الأعياد والإحتفالات ويقدّمون الضحايا ويسكّون نقوداً تذكارية ويشعلون خيال الشعب، ويخلدون الحادث في تاريخ المدينة. لا يوجد تعبير ينطبق على عودة المسيح الظّافرة كهذا التعبير. ربّما كان السّالونيكيّون يعتقدون تحت تأثير الوثنية، أنّ الحالة بعد الموت تعني القضاء على الوجدان أو نوعاً من رقاد النفس لا يستفيق منه الإنسان، رقاد ظلّي في العالم السفلي لا هدف له. إنّ أمواتهم خدعوا إذاً في أجمل أحلامهم، خدعوا فلم يروا حضور المسيح الثّاني الظّافر. إنّ الوثنيّة مطبوعة بطابع فقدان الرجاء والثّقة من أجل أمواتهم الرقّاد في الوثنية. وفي اليهوديّة صورة معروفة للموت، أمّا الموت في نظر بولس فرقاد لأولئك الذين يرون من الخارج فقط. الموت من ناحية إلهيّة هو حياة وكذلك الحياة الأرضية في المسيح. الكتابات في الدياميس تؤكّد ذلك. «الحياة في الله حياة في السلام الأبدي» الحياة بعد الموت حسب بولس ليست إطلالة نور حياة بل هي ارتفاع إلى مجد المسيح النيّر. في الحالة التي يوجد فيها الإنسان من موته حتّى الحضور الثّاني يدفع رصيد الغبطة التي يأمل أن يتمتّع بها بعد الدينونة الآتية لأنّه «لبس الرب» (٢ قور ٥، ٨)، «الموت لا يمكن أن يفصم الوحدة والشركة مع المسيح الذي قام ولا مع خاصّته من اشتراه المسيح بالصليب لا يقبل أن يؤخذ منه»[٤٩]. خطّ الموت لا يجتاز وسط الحياة الأرضية ووسط الحالة التي تلي إذا كان الإنسان يعيش في المسيح. ميت فقط هو الإنسان الذي لم يأت إلى الشركة مع المسيح أو قطع هذه الشركة. نسي السّالونيكيّون شيئاً آخر «في الحضور الثّاني، سيحتلّ مكانهم أولئك الذين رقدوا بالرب وسيلبسون بعد قيامتهم الفورية الجسد السماوي الغير الفاني . هكذا ارتجوا بعضكم لبعض بهذه الكلمات»، هذا يشبه نصاً قديماً لرسالة تعزية باسم ايريني من مصر. «تجاه شيء كهذا لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً هكذا إذاً عزّوا بعضكم بعضاً» [٢٦].

الصور والألوان التي يستعملها بولس لوصف الحضور الثّاني مأخوذة من الإنجيل والأنبياء ومن الأدب اليهودي الكشفي المعاصر. الصنوج كإشارة تتبع الحضور الثّاني للرب والغيوم كعربة ظفرية وصوت رئيس الملائكة وظهور المسيح النيّر، والجسد غير الفاني الذي يلبسه أولئك الذين سيقومون والذين ما زالوا على قيد الحياة. ونخطف في السحب لنلاقي الرب في الهواء والمكان القائم بين الأرض والسماء حيث يتمّ اللقاء مع

المسيح. في الكلمات نحن الأحياء يشمل بولس نفسه مع السالونيكيين كأعضاء في الإيمان ذاته الشّامل لكلّ العصور، بما فيها الأجيال المستقبلة التي لم تولد بعد في وحدة واحدة، أعاش كما يأمل ليرى الحضور الثّاني أم مات كما يخشى في رسالته الثّانية إلى أهل قورنثية.

في النهاية يصف بولس جراح العصر العميقة وفقدان الضمان. يصف عدم ثبات الوجود البشري والقدر الأساسي الذي فرضه الله والموقف المختلف بالنسبة لذلك من قبل المؤمنين والغير المؤمنين. «أولاد الظلمة» يختفون ويختبئون وراء الكلمات الفارغة. سلام واطمئنان. يسكرون بمخدّات عصرهم وحضارتهم إلى أن يتدخّل الله ويشقّ أشرعة العنكبوت التي يحيكها الإنسان لحصانته. وهكذا يظهر كلّ عري الوجود البشري. إنّ السلام الروماني أي النظام الذي فرضه الرومان يحقّق بعض الحصانة للحياة. أبناء النهار يسهرون ولا يسكرون ويكونون دائماً مستعدّين للإتّحاد بالمسيح. هذا الموقف المسيحي كاستعداد لحرب خارقة يرمز بولس إليه بالحارس الروماني بدرعه وخوذته. نحن البشر نعيش اليوم عصراً كشفياً وكلمات الرسول تشبه صوت صنج يرنّ بالدعوة. بالرغم من التقدّم الفنّي المتطوّر، نشعر أكثر من أيّ جيل بفقدان الإطمئنان في الوجود البشري، الرجل الحديث لا يؤمن أنّ الله يتدخّل في التاريخ، هناك بعض المسيحيّين يؤمنون بهذا التفكير. إنّنا لا نشعر باطمئنان كاف بين يدي الله. لذلك فضّلنا أن نصنع بوسائل آلية وتقنيّة أدوات اطمئنان تمنح الثقة لحياتنا مئة بالمئة. إهراء ومستودعات للمستقبل كإهراء الجاهل الغني في الإنجيل.

تنتهي الرسالة بهذا التثليث الصوتي، كونوا فرحين دائماً وصلّوا بلا انقطاع واشكروا على كلّ شيء. هنا تتراجع أصداء الأغنية عن الفرح المسيحي الذي رافق الرسول حتّى في سجن روميه. من الفرح ينبع الشكر. امتحنوا كلّ شيء وتمسّكوا بما هو حسن. يعرف السّالونيكيّون معنى هذا التحريض ويدركونه كتجّار مدرّبين محنّكين يدقّقون حتى الدرهم تكراراً. المصافحة عادة يتبعها اليونان واليهود وقد كرّسها بولس في المسيحية (لو ٧ : ٤٥، مر ١٤ : ٤٥). وكان يروق لبولس أن ينهي رسالته هكذا: صافحوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدّسة (أنظر ١ كو ١٦ : ٢٠، ٢ كو ١٣— ١٢). وكانت الرسالة تقرأ والتحية تنقل بشكل قبلة مقدّسة تعطى للجميع.

كان سيلاس يعيد قراءة الرسالة بصوت عالٍ. لا شيء يحتاج للتغيير. فيلصقون الأوراق بالصمغ ويلفّونها بشكل مخروطي. كان سيلاس يحبّ أن يربطها ويختمها فوراً لا يا سيلاس! أضف ما أقوله لك «أحلّفكم بالرب أن تقرأوا هذه الرسالة لجميع الإخوة القدّيسين» يجوز أن يكون بعض الإخوة متغيّبين لذلك يجب أن تقرأ الرسالة مراراً وأن ترسل إلى الكنائس المجاورة لتقرأ أيضاً هناك. كانت هذه الرسالة الرسالة الأولى التي يرسلها بولس إلى كنيسة، لذلك كان لها معناها. أخيراً يأخذ الريشة من يد الكاتب وبخط عريض يشهد على حيوية الرسول يضيف بيده: «نعمة ربنا يسوع المسيح لتكن مع جميعكم آمين».

كان الملفّ يوضع في مخروط جلدي يحزّمونه بخيط ويختمونه بالشمع. من سيحمل الرسالة؟ البريد الحكومي لا يستلم رسائل خاصّة. على المرسل أن يتدبّر أمر الإرسال بنفسه. كان الأغنياء يعتمدون على عبيد يستخدمونهم في هذا السبيل. لقد فعلت الكنيسة كما فعل المجمع اليهودي. فكوّنت لها بريداً خاصاً بها، وهكذا يفسّر اطلاع بولس الكامل على كلّ ما كان يحدث حتّى في الكنائس النّائية جداً عندما كتب بولس إلى أهل سالونيك كانت الأمور في بدئها فأرسلت الرسالة مع التجّار الذين جاؤوا من سالونيك إلى قورنثية. أمّا سيلاس وتيموثاوس فركبا السفينة إلى مقدونيا.

إنّ الكتاب المقدّس احتوى على نوع جديد من الأدب برسالة بولس إلى أهل سالونيك. إنّه الأدب من النوع الذي يخاطب نفوس البشر بشكل خالص النقاوة. أدخل بولس هذا النوع من الكتابة مع أنّه لم يكن كاتباً ولم يكن لديه الوقت الكافي للكتابة ولا الإطمئنان المفروض. فالرسالة بطريقة كتابتها البعيدة عن الفن التعبيري بسبب طابعه العنيف المندفع وطريقة عمله النّاري وأفكاره المليئة بالمتناقضات النفسية، كانت الصورة الفضلى للتعبير عن الأفكار التي كانت تطفح في داخله. كان يحترم الخط كثيراً وكان الخطّ حسب رأي كهنة اليهود الشيء الذي صنعه الرب مساء اليوم الأخير من حلقة العالم.

يقول ترتيليانوس «إنّ سالونيك كانت من المدن التي تقرأ فيها الرسائل التي كان يرسلها بولس بالأصل. وكان الإخوة يسمعون الرسالة فيسمعون فيها صوت الرسل بالذّات ويرون حركات وجهه» لم ترد العناية الإلهية أن يبقى من رسائله قطعة مكتوبة

بخطّ يده مع أنّه وصلت إلينا ألوف المخطوطات. وهنا يصح القول «الحرف يقتل والروح يحيي».

٣٥. عدو المسيح
(الرسالة الثّانية إلى أهل تسالونيكي)

عندما لاحت في جوّ كنيسة سالونيك مصاعب وتأويلات خاطئة كان قد مرّ ما يقرب من ثلاثة أشهر على كتابة الرسالة الأولى. لقد راجت الإشاعات وكان مروّجوها أولئك العاطلين عن العمل الذين تزيّوا بزي الجدّ والتقوى وذرفوا الدموع وراحوا يمدّون أيديهم مستجدين خبزهم اليومي بدلاً من أن يكسبوه بالتعب والعرق ويقوموا بما يفرضه عليهم واجب الحياة. كانوا يظهرون أمام النّاس بمظهر الكآبة والحزن ويعمدون إلى تفسير الحوادث مدّعين أنّهم رأوها بأنفسهم ويتنقّلون من بيت إلى بيت معلنين «أنّ يوم الرب قريب» إنّه على الأبواب، وبكلمة واحدة كانوا يتصرّفون تصرّف إنسان لاحت نهايته وأصبحت أيّامه معدودة. قالواإنّهم يستندون الى رؤيا أخذها إنسان عن الأنبياء أو على رسالة منحولة أو على خطاب ادعوا أن بولس ألقاه، من الجائز أن يكونوا قد فسّروا استدعاء بولس «تعال يارب» تفسيراً خاطئاً فاعتقدوا أنّ بولس لا يعبّر عن رغبة فيه أو عن شوق يعانيه بل أراد تحذيرهم. حمل هذا الخبر إلى قورنثية بعض الإخوة القادمين من سالونيك فصار من الضروري تسطير رسالة جديدة إلى السّالونيكيّين.

لكي ندرك جواب وأفكار الرسول كإنسانٍ ذي رؤى، علينا أن ننظر إلى كلّ هذه الأمور من خلال ترابطه الديني. كلّ عصر يملك، وفقاً لمستواه الروحي، صورة خاصّة به عن العالم. هذا الضمّ العالمي يمثّل إطارات الزمان والمكان حيث ننشر فيه نحن البشر بوجودنا المزدوج، الروحي والحواسي نظريتنا الدينية العالمية. يمكن لهذه الصورة عن العالم أن تتغيّر دون أن يصاب جوهر الإيمان بشيء. فالعالم لباس عابر للفكر، فيه يختبىء الفكر كما تختبىء قصّة خلقة العالم الموسويّة في إطار الستّة أيّام أو منزلة الإنسان والأرض في صورة العالم القديمة عند البطالة في سر التدبير الإلهي مع ذلك فارتجاج قليل للفكرة المألوفة عن العالم تحمل معها غالباً انزعاجات جديّة. هذا ما حدث عند ظهور نظام كوبرنيك في عصر

غاليله والأفكار المتطوّرة في العلوم الطبيعية في القرن التّاسع عشر. يجب أن نلاحظ أنّ في تعليم المسيحية عن العالم الآخر شيئان: الإيمان بحضور الرب الثّاني، الإيمان بتحقيق ملكوت الله والإطارات الرؤيوية حيث يمتدّ هذا الرجاء.

إنّ ابتداء العهد الجديد برؤيا بولس (في رسالتيه إلى أهل سالونيك) وانتهاءه برؤيا يوحنّا يدل كم اتجهت مسيحية القرون الأولى نحو عالم الاستقبال. بين هاتين النقطتين نجد في الأناجيل الرؤيا الصغيرة (متى ٢٤، مرقس ١٣، لوقا ٢١) في الإرشاد قبل المعمودية تعليم عن نهاية العالم. لذلك يصعب ادراك كلّ إشارة موجزة في رسالتي بولس إلى أهل سالونيك لأنّها تفترض التعليم الشفهي. يذكّر بولس باستمرار بتعليمه الشفهي. يذكر بالنقاط الجوهرية من مواعظه. أنتم «شهود» «تمسّكوا بالتقاليد التي تعلّمتموها» فالآمال من أجل المستقبل ترتبط بنبوات قديمة تدور حول فكرتين: فكرة انتظار ملكوت الله ومسيا وفكرة العصرين المتعاقبين العالم الحاضر وعالم المستقبل وفيهما يقوم المسيح. كانت اليهودية تملك فكرة هذين العصرين المختلفين أساسياً واليوم الذي يفصل هذين العصرين هو أهمّ يوم في تاريخ البشرية «إنّه يوم الرب». الرؤى اليهودية أخذت فكرتها من إشعيا ودانيال. وكتاب عذرا الرّابع يحتلّ مكان الصدارة في هذه الكشوفات. فجرّد بولس كلّ قواه من أجل هذا العالم الذي يحكمه الشيطان ومن أجل العالم الآخر السعيد. الفرق الوحيد هو أنّ بولس كان يعتبر أن الجيل الجديد يبتدىء من الآن ويحرزه المؤمنون بواسطة الروح القدس مع بقاء العالم القديم مستمراً، الجيلان مختلطان الواحد بالآخر. هذا الوجود المشترك للجيلين يؤلّف جيلاً انتقالياً لا نعرف مدى استمراره. هدف البشارة الرسوليّة هو إرواء هذا العالم أكثر فأكثر بالرّوح المجدّد، بعجنة تعني صراعاً لا ينفكّ مستمراً بين النور والظلمة وهكذا يتألّف نوع من الملكوت الوسطي، مراحله التاريخية تتعلّق ببدء دخول المسيحية في هذه المراحل وفقاً لمزاياها حتّى نهاية دمار العالم الذي يقع في نفس اليوم الذي يقع فيه الحضور الثّاني وسيطرة المسيح النهائيّة.

أراد بولس أن يحارب الفكرة الجنونية القائلة إن نهاية العالم اقتربت وصارت واقعاً. لا يمكن أن يكون قد حدث ذلك لأنّ الأمور الثلاثة الآتية لم تحدث بعد. عصيان المؤمنين العظيم وظهور إنسان الإثم ومحاولته ضدّ هيكل أورشليم. ينتظر بولس وقوع هذه الحوادث الثلاث قبل الحضور الثّاني لأنّه عرف العائق «الذي يشكّل وجوده مانعاً ضدّ ظهور رجل

الإثم. وعرف أيضاً أنّ سر الإثم قد أخذ في العمل» هناك سرّان في حالة عمل وصراع متبادل «سرّ المسيح» الذي يشرحه بولسَ في رسالته إلى أهل أفسس (٣، ٤) «وسر الإثم» «سرّ عدو المسيح». إنّ هذين السرّين ينموان ويتحاربان الواحد ضدّ الآخر مع فارق فقط وهو أن المسيح ظهر منذ بدء سرّه، أمّا عدو المسيح فسيظهر فقط في آخر سرّه. عمل المسيح يمتدّ وسط الشعوب ويصغي إليه الجميع، أمّا مقاومة الشيطان عدوّ المسيح فقد ابتدأت.

لا توجد كلمة عدوّ المسيح في رسائل بولس. لقد ظهرت لأوّل مرّة في رسائل يوحنّا (١ يوحنا: ١٨، ٢٢، ٤، ٣، ٢ يوحنا ٧) فكرة عدو المسيح جدّ قديمة جاءت من العهد العتيق ودخلت عن طريق التقليد اليهودي إلى التقليد المسيحي. إنّ «إبن داود» عند إشعيا سيبيد الكافر (إشعيا ١١، ٤). في كتاب دانيال (١١، ٣٦) وصف لأنطيوخوس أبيفانوس ينطبق على خصائص عدو المسيح، تذكّرنا بأشخاص كبلعام ونبوخذ نصّر وجوج وما جوج (شعوب الشمال في كتاب حزقيال) لم يذكر المسيح «عدو المسيح» كتابة، إلّا أنّ التلميح بظهور مسحاء كذبة أعطى للتقليد قوّة جديدة أن بولس يعرف تقليداً سرياً، يعرف «سراً» (٢: ٧)[٣٣]، فهو شاهد حيّ عن هذا الوسط الفكري في مجرى التقليد المسيحي القديم. يتكلّم كأنّه يتكلّم على شيء يعرفه لا يحتاج إلى أي شرح أو تفسير. عندما يقول «إنّ سر الإثم قد أخذ في العمل» فإنّه يعني أنّ العصيان الخلقي الديني وانحلال النظام من كلّ الربط يسيران في مقدّمة كلّ الشعوب والطبقات الإجتماعية. وسط هذا السديم الخلقي سينتصب رجل الإثم عدو المسيح «ابن السديم العجيب» كممثّل لكلّ ملكوت لتتحالف كلّ الميول العدائية ضدّ الله. سيقوم هذا الإنسان بأعمال تقترب من العجائب ويطالب بكرامات لنفسه لا تعطى إلّا للآله. به تبتدىء المعركة الأخيرة والعالم يدخل في مرحلته الأخيرة. سقوط عدو المسيح دليل على حضور المسيح. قبل هذا يجب أن يسبق «العصيان العظيم» حين تبتعد الشعوب أكثر فأكثر عن المبادئ المسيحية، وتنكشف حقيقة عدو المسيح الذي اكتفى حتّى الآن بإرسال ممهّدي طرقه. الكافر شيء والشيطان شيء آخر. وهو مطيّة للكافر وتجسّد له. يتكلّم بولس في إحدى آياته الصعبة الإدراك على قوّة تمنع ظهور عدو المسيح. هذه القوّة كانت في حالة عمل وظهرت بعد رحيله عن سالونيك.

هذه هي أبعاد بولس الفكرية. بهذه النظرة للتّاريخ يظهر التفوّق للفكرة المسيحية عن الله بالنسبة للوثنية: أي أنّ الله يسود التّاريخ ويتدخّل إيجابياً في مجرى العالم التّاريخي من البدء حتّى النهاية. في حين كان الرواقيّون والأبيقوريّون يقولون إن الآلهة يتابعون البشريات في غفلة عن كلّ ما هو بشري ويهتمّون فقط بغبطتهم الخاصة. أمّا الله الذي أرسل ابنه مخلصاً وملكاً لملكوته فإنّه يتدخّل في مجرى العالم. عندما نضع أمام أعيننا ما يعرضه الرسول في رسالته إلى أهل قورنثية يمكننا أن نقول إنَ الكلام على الآخرة في المسيحية الأولى كان يشمل ثلاث نقاط: ١) المسيح سيأتي من جديد بعد دمار العالم ليدين العالم. ٢) بعد القيامة من الأموات سيكون هناك جسد جديد غير فانٍ. ٣) الطبيعة كلّها والبشر سيأخذون شكلاً جديداً.

إنّ كلمات الرسول عن عدو المسيح حذرة وسرية، كان السّالونيكيّون يفهمون ما الذي كان يعنيه بولس. أمّا نحن فلا يمكننا إلّا أن نخمّن تخميناً. يقول البعض إنّ بولس يشير في رسالته إلى شيء خفي ذي عمق سياسي إذا ذكره عرّض نفسه للمخاطر وسبّب اضطهاداً للمسيحيين. إنّنا نلمس هذا الحذر بالذّات في الرؤيا. لم تلقَ آية من الآيات في الكتاب المقدّس ما لقيته هذه الآية من الإختلاف في التفسير. لقد حار حتّى الآباء في تفسيرها. هناك ثلاثة احتمالات في التفسير، تفسير تاريخي، وتفسير أخروي وتفسير يجمع التفسيرين وفقاً للطّابع المزدوج والمعنى المزدوج وتحقيق النبوّة المزدوجة. يحمل كلام الرسول طابع النبوّة إذا كان يستهدف نهاية العالم أمّا إذا كان يستهدف حادثاً متوقّعاً فإنّه لا يعدو كونه تفسيراً للحوادث المعاصرة تحت ضوء نبوّة المسيح.

كان الكثيرون مع توالي العصور يعمدون إلى التفسير التاريخي، واعتقد كلّ عصر أنّه يستطيع أن يفسّر إشارات الأزمان تحت ضوء تعليم بولس عن الآخرة وعلى هذا الأساس أخذوا يطبّقون كلامه على شخصٍ تاريخي أو مؤسّسة روحية أو منظّمة حتّى وصلوا أخيراً إلى ترهات الكاثرون والبانيون؟ في العصر المتوسّط وعصر الإنبعاث فقالوا إنّ «عدو المسيح» هو البابا «والعائق» هو الأمبراطورية الرومانية المقدّسة «وسرّ الإثم» فرقة اليسوعيين. من الضروري أن نقول إنّ بولس كان يقصد شيئاً قريب الوقوع. أراد أن يفسّر لأهل سالونيك إشارات الأزمان المزعجة ويذكّرهم أنّ أحزاناً كثيرة تنتظرهم عند أوّل تحقيق لنبوّة المسيح، أمّا النبوّة الأخيرة فتبقى في الظلمة كلياً. في وصف بولس لرجل الإثم

يظهر كأنّه يرى أمام عينيه حادثاً معيناً رآه هو بنفسه منذ أربع عشر سنة. يتذكّر أمر كاليغولا بتنصيب تمثاله الهائل في هيكل أورشليم وتسميته للهيكل بهيكل غايوس زيفس الجديد انتقاماً لأنّ اليهود كانوا الوحيدين الّذين رفضوا أن يعترفوا به إلهاً. كان بولس يعرف أنّ عبادة الله ــ الأمبراطور كانت تمتدّ وتمتدّ. شعوب شرقية اسيوية ومدن يونانية كانوا يعتبرون أن تسميتهم حرّاساً لهيكل الله ــ الأمبراطور شرفاً عظيماً. «اقتلني أو أقتلك» يقول كاليغولا لزيفس مستعملاً كلمات هوميروس»[١٦]، هذا هو الإثم بكلّ معانيه. لا شكّ أنّ كاليغولا كان في فكر بولس. إنّ كل سلطات الدولة يجب أن تكون في ايدي كاليغولا ليجبرهم على الركوع، لكن يقول بولس مقاطعاً نفسه، ألا تذكرون أنّي قلت لكم ذلك عندما كنت بينكم؟ قلت لكم لماذا تحاربون ظهوره؟

عندما كتب بولس هذه الكلمات كان كلافاديوس يجلس على عرش الأمبراطورية وكان نيرون ابنه بالتبنّي قد نصب ولياً للعرش وكان سينكا قد عاد من منفاه في كورسيكا فعيّنته أغربينا مربياً لنيرون والأمر الذي صدر إليه كان محصوراً في تعليم نيرون الخطابة، وكانت رسالة معلّمي الخطابة لأبناء العائلات الحكومية تثقيف تلامذتهم خلقياً. سلك سينكا هذه الطريق فقادته إلى وظيفة المستشار السياسي في البلاط الروماني. هذه الأمور عرفت في قورنثية وسالونيك. لذلك لا يمكن أن يكون «العائق» غير النظام التشريعي الروماني الذي يجده الأمبراطور كلافديوس. كان سينكا في السنين الخمسة الأولى من ملك نيرون بإدارته الحكيمة وبتأثيره على نيرون لجاماً لطابع نيرون البركاني. إلّا أنّه بعد أن لقي سينكا وصديقه فورو مصرعهما المؤسي لم يبقَ لجنون نيرون الذي كان يوجهه تيجيلينوس حدود. فوصّى نيرون إلى فسبيسيان القيام بالحرب وتدنيس الهيكل[١٦]. إنّ ظهور الجيش في جوار الهيكل، وتعليق النسور الرومانية، وصور القياصرة فوق الأرض المكرمة وتكريس عبادة الأمبراطور محل الهيكل القديم هي تحقيق لنبوّات دانيال كما قال المسيح وقال بولس. (متى ١٤ : ١٥).

عندما يتنبأ بولس، يقول: إنّ ظهور «المقصود» سترافقه أفعال شيطانية وعجائب كاذبة اصطناعية برّاقة، فمن الضروري أن ترد إلى خاطر الإنسان أن نيرون وفقاً لما يورده بلينيوس، كان أكثر النّاس رغبة في السحر وأشد اهتماماً وقد حاول اخضاع الالهة بالسحر الأسود. أدخل نيرون الرعب الى قلوب الناس واستمرّ هذا الرعب حتّى بعد موته.

وكان هناك من يعتقد أنّ نيرون سيعود فجأة من العالم السفلي. قال باحث انكلزي. «لو طالت حياة بولس وقرأ الرؤيا ليوحنّا لتمزّق قلبه»[٣٩] هذا يعني أنّ يوحنّا تجاهل طابع بولس النبوي. كان بولس ويوحنّا متّفقين في الأساس إلّا أنّ موقفهما كان مختلفاً. أي أنّ بولس كتب قبل أن يُلقى المقدر في وجه المسيحية أما يوحنا فبعد. كان بولس ينظر إلى تأليه الأمبراطور كتنصيب للكذب ورآى منذئذ أن فكرة الرومانيين عن الدولة ومتطلباتها الشّاملة هي أكبر عدو للمسيحية. كانت العدالة الرومانية «العائق» وبقيت كذلك وكان الرومانيّون يعتبرون الكنيسة هرطقة تعيش تحت ظلّ المجمع ولم تنمو المسحية نمواً يجعلها في نظر الشرعية الرومانية هيكلاً منفرداً عن اليهودية. كانت المسيحية في بدء مخاضها إلّا أنّها كانت تتهيأ لتخطو خطواتها الواسعة نحو ذاك النظام الذي اصطدم حتمياً بالدولة الرومانية. تنبأ بولس في فيلبي وسالونيك وقال: إنّ اليهود لن يرتاحوا قبل أن يوجّهوا أنظار الدولة الرومانية ويقنعوها أنّ اليهود شيء والمسيحيين شيء آخر، أي أنّ المسيحيين الذين لا يعترفون بديانة الدولة يحفرون أساسات الأمبراطورية الرومانية ليقوّضوها. ربح اليهود في أيّام نيرون ٦٤ ب.م. بعض الشيء أمّا أعين المسؤولين في الدولة فانفتحت على المسيحيين بواسطة بابيا زوجة الأمبراطور وكانت هذه يهودية ارتدّت الى الوثنية. كلّ ما كان في نبوّة بولس من الحقائق الجوهرية تحقّق بحوادث تاريخية.

لكلّ عصر الحق في تفسير كلمات بولس إلى لغته ولكّ عصر كلّ الحق في استعمالها وهكذا اعتبروا أنّ تنظيم الدولة الرومانية كان كقوّة اجتماعية منعت الفوضى وانتشار الشر. وهذه القوّة الإجتماعية مستمدّة من «السلم الروماني» كان المسيحيّون في أيّام السلم يفهمون ذلك فهماً واضحاً، لذلك كان يطلبون كما يقول ترتيليانوس من أجل خصب الدولة الرومانية. تزعزعت أسس الدولة الرومانية من جرّاء هجوم الشعوب الشمالية العنيف. إنّ روح أوغسطين يلتقط في هذا الوقت فكرة «مدينة الله» التي كوّنها بتعديله لفكرة بولس عن جسد المسيح السرّي، نوعان من المحبّة عانقا نوعين من المدن: محبّة الله التي تصل إلى حدود احتقار العالم، وذواتنا، بنت أورشليم، ومحبّة الذّات التي تصل إلى حدود احتقار الله بنت بابل، إنّ الكنيسة التي ورثت العالم القديم والتي سيطرت على قوّة روميه الإجتماعية وعلى فلسفة اليونان أعطت فكرة مدينة الله، وفكرة الدولة والنظام الإجتماعي إلى الدول الوثنية وتعهّدت تثقيفها. وهكذا تجدون الأمبراطورية الرومانية بالكنيسة وتكوّنت الثقافة

الأوروبيةوالنظام الإجتماعي المسيحي الحكومي «السلم الروماني» السلم الذي فرضته رومية أوغسطوس على العالم صار سلاماً مسيحياً، صار ملكوت المسيح إلى أين تتجه الأمور؟ عندما تخور القوى الدينية التهذيبية ويتزعزع أساس الدولة الديني وعندما تنطلق عناصر الكفر في العالم بمختلف أشكالها. لا يمكن لأيّة قوّة أن تمنع الدمار. فالمسيحية كقوّة نظاميّة وسلام ووحدة لا تملك فقط الرسالة في تأمين الخلاص لأعضائها بل هي الأساس الأول في النظام الحكومي والاجتماعي. إذا اختفت هذه القوّة فمن يلجم الشيطان؟ هذه هي البربرية وستكون في متناول يد الشيطان عندما يقطع الكفر سلسله وتنتشر قوّته مسلّحة بكلّ ما في العلم من إمكانات وتقنية. هذه هي سخرية الأجيال المؤسية. الإنسان الذي لا يؤمن بحقيقة الله سيؤمن بالكذب كما يقول بولس (٢ سالونيك ٢ : ١١) حينئذ تدقّ السّاعة لظهور عدو المسيح إلّا أنّ حكمه لن يدوم طويلاً «إنّ العصا التي من أصل يسي» ستقضي على الكفرة بنفخة شفة (أشعيا ١١، ٤).

لا يسهون عن بالنا أنّ كلّ تسفير معاصر وكل شرح تاريخي فيه صعوبات كثيرة وعلينا أن نقول مع أوغسطين «اعترف أنّي لا أعرف في الواقع ما الذي يريد أن يقوله». يجب أن نأخذ بعين الإعتبار أنّ بولس يكتب كنبي وأنّه كيوحنّا وضع أمام عينيه مجمل التطور الاستقبالي، التحقيق النهائي والأخير للأنبياء في نهاية الأجيال. لكي يتحاشى المفسّرون المعاصرون الصعوبات يفسّرون التفسير الأخروي الذي ينقل الحوادث إلى المنطقة العليا إلى ما فوق التاريخ يتحرّك بولس فوق الخط الكتابي المقدّس من العالم الآخر للمسيحية ويصف كدانيال ويوحنا صراع الشر الفائق العالم المليء بالشر ضد الخير الذي يأخذ في العصور المختلفة أشكالاً مختلفة تتجاوب أصداؤه في الأرض كصراع بين الإيمان والإلحاد مع أنّ منطقة الصراع تقوم في مكانٍ آخر. يقوم الشيطان بصراعه هناك وهنا مستخدماً هذا الإنسان أو ذاك. يجب أن يكون خصمه «العائق» من الذين ينتمون إلى العالم الروحي. حسب دانيال ويوحنّا لا يمكن أن يكون هذا العائق إلّا رئيس الملائكة مخائيل الذي سيكون في الأيّام العصيبة والأخطار العظيمة وفي نهاية العالم إلى جانب الكنيسة(٣٦). لا يعني بولس حسب هذا التفسير «في العائق» قوّة فائقة الطبيعة روحية بل مخائيل رئيس الملائكة الذي سيعلن حسب اعتقادات المسيحيين في العصور الأولى قيامة الأموات والدينونة الآتية وسيصارع الشيطان من العصر الرسولي حتى منتهى الدهر.

لم تكن نفسية بولس ولا المسيح يهودية بالرغم من إطارهما اليهودي النّابع من التقليد اليهودي. ولا وجود لفكرة الدولة اليهودية التي تلعب دوراً مهماً في مزامير سليمان المنحولة ولا في «تصعيد إشعيا» «ورؤيا أخنوخ» وكتاب «عذرا الرّابع»[٣٣]، لا يوصف المسيح كرئيس سياسي وكقائد كما هو في التعليم اليهودي عن الآخرة. لا وجود لأيّة فكرة عن مملكة متوسطة للمسيح بين العالم الحاضر والعالم الآتي (٤ عزرا ٧ : ٢٦). فيسوع كبولس يستهدفان الخيرات الروحية وهذه يملكها المؤمنون من الآن. يعلم المسيح أنّ هناك مكاناً لتطور بعيد الأجيال لبشارة وسط الأمم. الكنيسة تأخذ مكانها وسط العالم وتحاول أن تحوّله وأخيراً ضاق الإطار اليهودي بصوره الفنية وكان على الكنيسة أن تتوسّع عبر الأجيال وعبر ألفيتها حيث تعيش المسيحية حتّى الحضور الثّاني. كانت رسالة بولس العظيمة تستهدف فتح الطريق لهذا التجلّي الروحي. كان ذلك صعباً وقد أدرك بولس هذه الصعوبة. إنّ الفكرة بأنّه لن يحيا ليرى الحضور الثّاني وأنّه لن يلبس الجسد غير الفاني في هذه الأرض جعلته يتنهّد تنهّداً فيه المرارة (٢ قور ٥ ، ١) إلّا أنّه يتعزّى لأنّه سيكون له في هذه الحياة العربون وإشعاع الروح المسبق وسنكون بعد الموت مع الرب. «يهودي شبّ وكبر مع الفكرة الصهيونية» وعندما يأتي اليوم وتتردّد فيه أصوات الأبواق سيجتمع أبناؤه المشتّتين في مضارب الأرض لينالوا ميراثهم. كانت هذه الفكرة كوعد مقدّس وكانت مغروسة في صدور كلّ الأرواح العظيمة[٥]». بولس كمسيحي وحالم في نهاية العالم أن يحوّل هذه الفكرة هذا الرجاء إلى نغمٍ مسيحي سامٍ ؟ وأيّة قوّة أرضية لا تستمد قوتها من هذه القوّة ! أين هو ما يشبه الشيعة، السكون السلبي، والأحلام الألفية ! إنّ بولس يحارب الإثنين. إن مسيحية عملية مفرحة تستمدّ منه كلّ نداها وحيويتها. تستمدّ حرية خلقية للعمل وسط العالم الذي يدور»[٩]. كلّ هذا هو من ثمار الرجاء بالحضور «وعبارة تعال يا رب» بما فيها من حنين تصبح قوّة عالمية للحاضر وبحركة جريئة يخطف من الأباطرة الرومانيين ومن الآلهة الأخرى اللقب الإلهي «سيد»[٥] فإنّه إن وجد في السماء أم في الأرض ما يقال له آلهة ويوجد من هذا النوع آلهة كثيرون وأرباب كثيرون فنحن إنّما لنا إله واحد الآب الذي منه كلّ شيء ونحن إليه (١ قور ٨ ، ٥).

هكذا يحارب بولس احتقار قيمة الحياة الأرضية عند السّالونيكيين الحالمين. كلّ الحياة الأرضية حسب بولس مزدوجة، الحياة العالمية المهنية التي يحياها المسحي ككلّ البشر

والحياة الخاصّة ، الحياة الحقيقية الخفية الحياة السرية في المسيح المدركة فقط بقوّة الجيل السماوي العامل فينا منذ الآن بطريقة سريةٍ حياتنا تختبىء في المسيح ، لا تفقد الحياة اليومية ولا تصير حياة واحدة في الظّاهر ، بل هي ساحة المعركة مكان للتجربة . على المسيحي أن يشترك في كلّ الأعمال اليومية يجب أن يساهم في تجلّي هذا العالم وجعله مسيحياً ، أراد بولس بقوله «أمّا نحن فموطننا في السماء» (فيلبي ٣ ، ٢٠) أن يرفض اشتراك المسيحيين في الحياة اليومية تاركاً ذلك للأمم؟ لم يخطر ببال بولس مثل هذا قط . إنّ فكرة المسيحية عن الدولة أو قضية السياسة العاملة المسيحية لم تكونا ضمن نطاق أهداف الكنيسة الجديدة الفتية ولا ضمن امكاناتها ولا محطّ أنظارها . ولا يمكن أن نقع في تناقض مع مبدئها لأنّه عندما يعيش المسيحي وسط جيلين وينتسب إلى دائرتي حياة فمن الواجب إذاً أن يقدّم للجيل الأرضي خدماته القانونية ، إذا أراد أن يكون له مكان في هذا الجيل الحاضر . الدولة كما يشدّد بولس في رسالته إلى أهل روميه (١٣ ، ١) نظام بشري تسمح به إرادة الله ٣٥ب . لذلك عندما وقف أمام المسيح ممثّل عن القيادة العسكرية الرومانية لم يطلب منه أن يستقيل وعندما رفض فلانيوس اقليميس زوج دومتيلا التدخّل في أمور الدولة وخدمتها وحكم عليه نسيبه الأمبراطور دومتيانوس بالموت فإنّ مسلكه هذا بالنظر لما كان يعانيه الموظّف المسحي في ذلك العصر من المصاعب لا يعتبر قاعدة لكلّ العصور . إنّ مشكلة الحاكم المسيحي والسياسة المسيحية برزت لأوّل مرّة بعد قسطنطين الكبير.

باختصار يمكن أن يلاحظ المرء أن مجمل نظرة بولس إلى العالم هي : نظرة بولس إلى العالم كنظرة المسيح دينية . فالعالم وما فيه ، ونظام الدولة أيضاً هو لله . إنّ رسالة حياة كلّ مسيحي هي أن يعطي لله ما لله ، أن يطلب الملكوت وأن يتم واجبه مقابل السلطة الأرضية . لكن بما أنّ العالم صار حلبة للأرواح الشريرة بتدخّل ابليس لذلك يجد المسيحي نفسه حائراً بين جيلين الجيل القديم بتأليه الحكّام الرومانيين الشيطاني الأقوياء ذوي السلطة الإلهية التي كانت كناموسٍ أعلى للحياة والحق ، والجيل الجديد ملكوت الله الذي يفرض حرية الضمير. المسيح خلّص الفرد فقط . لم يخلّص أمة ولا دولة بمجموعها المجموعات البشرية بأشكالها وأنظمتها وما تصنعه يجب أن تروى بالقوى البشرية المسيحية الخلاصية . هكذا يمكن للمسيحية أن تكون مقبولة وممكنة سياسياً ، في الأساس إنّ تحقيقها يتعلّق بمقدار جعل الأنظمة الأرضية مسيحية . الحلم الذي راود الإنسانية في يوم من الأيّام في أن تروّى أوجه الدولة بالروح المسيحية وأنّ الدين والسياسة سيصبحان شيئاً واحداً أشرف على

التحقيق في العصر المتوسّط لمدّة قصيرة. منذئذ والمثالية السياسية لملكوت الله تحيا حنيناً في أحلام دانتي وتستمرّ في قلوب المتفوّقين كمشكلةِ خلاص من الآلام، مشكلة يُدعى المرء في كلّ مرّة وفي كلّ عصر إلى حلّها.

٣٦. بولس وغاليون

(أعمال ١٨ : ١٢— ١٧)

كان لقطع العلاقة بالمجمع أثره. وكان العداء ضدّ السّامية قوياً جداً في قورنثية. ولم يحمل هذا الانفصال إلى المسيحيين إلّا الخير. كان الإقبال على المسيحية من الطبقات الوثنية يزداد يوماً بعد يوم. حتّى اليهود كانوا يتركون المجمع بأعداد كبيرة ويلتحقون بالكنيسة. لم يمضِ وقت طويل حتّى أراد ترسبس رئيس المجمع أن يعتمد. يذكر بولس أنّ إنساناً اسمه غايوس من طبقة استفاناس الاجتماعيّة طلب أن يعتمد. وقد حلّ بولس ضيفاً عليه مدّة إقامته في قورنثية (رو ١٦ : ٢٣). وقد شذّ بولس عن عادته فعمّد هذين الشخصين بيده (١ قور ١، ١٤، ١٦). في أحد الأيّام طلب أريستوس أمين صندوق البلدية واحد الأشخاص الرسميين أن يعتمد (روميه ١٦، ٢٣)، من المشكوك فيه أن يكون لأريستوس الذي يذكره أحد العناوين القريبة من المسرح أيّة علاقة بأريستوس العهد الجديد(٥٩). لقد أخذت الكنيسة تضمّ طبقات مختلفة. وفقاً لرسالة بولس الأولى إلى أهل قورنثية كانت الكنيسة تضمّ ثلاث طبقات: الطبقة العليا وكانت تضمّ الأوساط الفنية وكبار الموظّفين الذين كانت بيوتهم متّسعة لاستضافة الكنيسة ويمكنهم ثراؤهم من تقديم عشاء المحبّة المشترك. كلّ الأشخاص الذين ذُكروا سابقاً ينتمون إلى هذه الطبقة وكذلك الأشخاص الذين سيذكرون مثل سوسثانيس وزنياس اليهودي معلّم الشريعة الذي ورد ذكره مع أبولو (تيطس ٣، ١٣). من الضروري أن نضيف إلى هؤلاء الأرملة خلاوي ومعاونيها في الخدمة. أمّا الطبقة المتوسّطة فكانت تتألّف من اللّاتين ومنها تارثيوس كاتب بولس الرسول فيما بعد الذي أملى عليه الرسول رسالته إلى أهل رومية وكوارثوس. أما القسم الأكبر من المؤمنين فكان ينتمي إلى الطبقات الدنيا. كانوا كلّهم من الفقراء العبيد ومن العمّال المتحرّرين. كان عدد العبيد في قورنثية كبيراً، حتّى لو قبلنا أنّ العدد ٤٦٠٠٠٠ الذي

يذكره أثيناوس مبالغ فيه جداً «فانظروا أيّها الإخوة إلى المدعوّين فيكم فليس كثيرون حكماء بحسب الجسد ولا كثيرون أقوياء ولا كثيرون شرفاء وإنّما اختار الله ما هو جاهل في العالم ليخزي الحكماء واختار الله ما هو للهعيف ليخزي ما هو قوي واختار الله ما هو خسيس في العالم وحقير وغير الموجود ليُعدم الموجود» (١ قور ٢٦ — ٢٨). لم ينزل بولس إلى وسط وضيع كالذي نزل إليه في قورنثية. وعندما رفض بعض القورنثيين المتفخين أن يقوموا بعمل فيه تواضع ذكّرهم بما كانوا عليه قبل أن يؤمنوا، ولم يكن في تذكيره شيء من التملّق أو المواربة: «فإنّه لا العاهرون ولا عبدة الأوثان ولا الزناة ولا المتخنثون ولا مضاجعو الذكور ولا السّارقون ولا الطمّاعون ولا السكيرون والشتامون ولا الخطفة يرثون ملكوت الله» (١ قور ٦، ١٠). «كيف تغلب وتبرر الفريسي المتكبّر على اشمئزازه الطبيعي الذي كان يشعر به سابقاً ويجعله يصرخ عند احتكاكه بالجموع المنحطّة: أيّها القذرون. ابتعدوا عنّي». يتهمون بولس أنّه كان يجمع حوله كلّ نفايات البشر ومشوّهي الشعوب المتوسطية. إذا كان البشر يحتاجون إلى مخلّص فالخطأة هم الذين يحتاجونه لا الصدّيقون وإذا كان الإنجيل خلّص مثل هؤلاء المشوّهين القذرين من شعوب البحر الأبيض المتوسط فهل يمكن أن يوجد بعد إنسان لا يستطيع الإنجيل أن يخلّصه؟ كان تحقيق عجيب أن يتمكّن الرسول أن يربط بين التضادّات الوثنية والخلفية وأن يجمع حول مائدة واحدة الأحرار والعبيد وأن ينمّيهم ليصيروا كنيسة واحدة، يهوداً وعبيداً، ويونانيين ورومانيين، إنّنا نعرف أنّ دون ذلك أهوالاً، لأنك تهين الذين ليس عندهم خطيئة (١ قور ١١: ٢٢): بعد رحيل بولس تغيّرت الأمور.

كان القورنثيّون يشعرون بأنّهم لا يؤلّفون كنيسة نائية متروكة، بل كنيسة عالمية صارت محوراً عالمياً للكنائس المسيحية. جاء ممثّلون عن كنيسة سالونيك مرّتين إلى قورنثية والمباحثات مع المقدونيين تمت وسط دائرة كبيرة من الإخوة[٤٢]. كان القورنثيّون يرون أنّ رسولهم شخصية عالمية معروفة. كانوا يرون فيه محور الكنيسة جمعاء. في يديه تنتهي كل الخيوط وكان المسؤول الأول والأخير عن كلّ الكنائس. كانت الدهشة تعقد لسانهم إعجاباً بهذا الرباط الذي كان يربطه بحياة الكنيسة ربطاً لا ينفصم ويكبرون عجباً قلبه الفيّاض فكأنّه الإناء الذي لا ينضب من الطيب يوزّعه في كلّ مكان ويجمع فيه كلّ الإهتمامات الكنسية وحاجاتها. إنّه حركة دائمة تحوّل كلّ شيء إلى حركة. أوجز الذهبي الفم كلّ هذه الأمور بعبارة واحدة «إنّ قلب بولس هو قلب العالم» لأوّل مرّة تظهر فكرة

الكنيسة الجامعة هنا. ما يخصّ الكنيسة الواحدة يخصّ الأخرى وما يؤثّر في هذه يؤثّر في تلك. صار كلّ شيء مدركاً عند الوثنيين. بينما كانوا يطوفون في المدينة ولا من يتحرّش بهم. حائزين رضى الجميع. وصلت الأخبار من سالونيك وفيها ما يوحي أشياء مختلفة جدا «أن تمشي مع المسيح فهذا يعني أن تصارع صراعاً يجب أن تقهر به مقاومة اليهود السّامة وبالتالي أن تتغلّب على ضغط السلطة المحلية»[٤٢]، وسيعاني القورنثيّون ذلك سريعاً».

أطار نجاح بولس النوم من عيون رؤساء إسرائيل. رأى بولس الصّاعقة تتهيأ لتنقضّ فوق رأسه، كتب إلى أهل سالونيك: «صلّوا أيّها الإخوة من أجلنا حتّى تواصل كلمة الربّ جريها مثلما تتمجّد عندكم» (٢ تسالونيكي ٣ : ١). كان قلبه ينعصر أمام المادّة السهلة الانسحاق التي منها سيبني الكنيسة ويتفطر عندما كانت تحصل بعض الإرتدادات إلى الخطايا الوثنية القديمة، لكن الحاق الإهتمامات من أجل الكنائس الأخرى وضغطها كانا يهزّان شعوره وعقله وتدفعه التجربة ليغادر قورنثية. كانت هذه الأفكار تطارده في نومه وتلاحقه في أحلامه. في مثل هذه السّاعة من الليل وبعد صلاة حارة ظهر له الرب في الحلم وعزّاه قائلاً: «لا تخف، تكلّم ولا تصمت لأنّي معك ولا يمكن لأحد أن يسبّب لك الشر فشعبي كثير في هذه المدينة» هذه الرؤيا منحته القوّة وزوّدته بالشجاعة والجرأة في هذه المحنة الصعبة. «إذا كان الله معنا فمن علينا» (رومية ٨، ٣١) يمكنه الآن أن يجابه الحوادث التي تعترضه بهدوء.

في ربيع ٥٢ كان مركز والي قورنثية شاغراً. اعتادت رومية أن تملأ مثل هذه المراكز برجال أذكياء أكفّاء. لذلك عهد المجلس الروماني إلى مرقس أناوس نوفانوس المدعو عن طريق أبيه بالتبنّي جونيوس غاليو بمركز الوالي الروماني. كان هذا الإنسان أكثر معاصريه ذكاء وعلماً وثقافة وقرباً إلى القلب. إنّ إحدى الرسالات التي كتبها الأمبراطور كلافديوس بين شهر نيسان وآب من سنة ٥٢ ب. م. إلى مدينة دلفي وعثر عليها في دلغوس نصف ممحيّة في أحد العناوين تؤكّد اسمه والأعمال التي قام بها. إنّ هذا العنوان هو من أهم العناصر لتحديد التّاريخ الزمني للعهد الجديد[٩]. «غاليون صديقي ووالي آخيا» هكذا يقول عنه الأمبراطور كلافديوس. (لوحة ١٩). إذا كان غاليون قد وجد والياً سنة ٥٢ / ٥٣ فمن الضروري أن تكون سكنى الرسول في قورنثية التي استمرّت سنة ونصف السنة قد ابتدأت

من ربيع ٥١ حتّى خريف سنة ٥٢ . لقي تعيين غاليون تحبيذاً في بلاد اليونان وعمّ الفرح عندما انتشر خبر تعيينه . كان غاليون من العائلات العريقة المشهورة بالعلم والثقافة . وهو أخو سينيكا معلّم ولي العهد الأمير نيرون الذي كان يحبّه كثيراً وعمّ الكاتب الروماني لوقانوس . كان غنياً بروحه شريفاً بطبعه ويصفونه بأنّه شخصية جذّابة في العالم القديم لا مثيل لها . كان سينيكا وكلّ عالم المثقّفين يحلفون كأنّهم في حلم إعجاباً بهذا الإنسان يسمّيه سناتيوس «غاليون العذب» وكانوا يعتبرونه الزهرة المختارة لعالم الإنسانية القديم التي أنبتتها الرواقية ومثال «الجنتلمان» الروماني . إنّ إعجاب سينيكا بأخيه جعله يكتب «لا يمكن لأي إنسان أن يكون مخلصاً لصديقه كما كان غاليون للآخرين ولا يمكن لأحد أن يقول إنّه يحبّ أخي غاليون المقدار الذي يستحقّه من المحبّة» .

اعتقد اليهود بأنّهم يستطيعون طبع الوالي الشريف فيجعلوه مطية لتحقيق أغراضهم الإنتقامية . أنّى لهم أن يدركوا أنّ عائلة سينكا تمقت اليهود بطبعها ! أنّى لهم أن يدركوا أن تعصّبهم لن يلاقي نجاحاً لدى إنسانٍ هادىء . في أحد الأيّام قاموا بهجوم منظّم على مصنع بولس فجرّوه وحملوه إلى السوق وبين ضجيج الجماهير المأجورة قادوه إلى منبر الوالي : «إنّ هذا الإنسان يستميل الناس إلى عبادة لله تخالف الشريعة» هذه هي التهمة التي وجّهت إلى بولس . إنّهم لم ينتبهوا إلى رباطة جأش بولس وهدوئه اللذين أثارا إعجاب الوالي : «إنّ هذا الإنسان يستميل الناس إلى عبادة لله تخالف الشريعة» هذه هي التهمة رباطة جأشه واتزانه وهدوءه جعلته يجد الكلمات الموافقة . «لوكان الأمر جنحة أو جناية فاحشة أيّها اليهود إذن لكان الحقّ أن أسمع لكم ، ولكن بما أنها مباحثات في ألفاظ وأسماء وفي شريعتكم فانظروا فيها أنتم فإنّي لا أريد أن أكون قاضياً في هذه الأمور» كم تمنّى وكم حنّ أن يتكلّم بولس أمام هذا الوالي وبأيّة طريقة كان يحدّق بهذا الإنسان العظيم الهادئ الذي يروق للمسيح كالشاب الغني نفسه . كانت لحظة من لحظات النعمة لامست برفيف أجنحتها نفس هذا الرواقي . إنّ الروماني غاليون لم يعر هذا اليهودي الفقير أيّ انتباه . وبابتسامة وحركة قاطعة من يده أشار إلى المدّعين أن رحلوا من الرواق وإلى الجلّادين أن يخلوا المحكمة . تحوّل المشهد إلى مهزلة . لم يتمكّن سوستانيس رئيس المجمع بوشاحه العريض أن ينزل درجات السلّم بسرعة . لقد ضربه اليونانيّون وصبّوا نقمتهم على اليهود . إنّه مشهد من المشاهد الهزلية النادرة يصفه لوقا بروحه اليونانية ، إنّ هذا القصاص خلص سوستانيس

وساعده على التفكير. وكان منطلقاً لخلاصه. تستطيع النعمة الإلهية أن تستخدم مثل هذه الحالات التافهة والمضحكات البشرية.

خلا الهيكل من اليهود فوقف اليهودي الصغير القامة للحظةٍ وجهاً لوجه مع الوالي الرومانيّ المتكبّر. الرواقية والمسيحية تحدّقان الواحدة بالأخرى. أفهم الرواقي نفحة النعمة؟ كانت الفرصة الثّانية والأخيرة ليسمع شيئاً عن المسيح. لقد ولّت الفرصة وضاعت ولن تعود. إنّ سينكا الذي قدّس في أخيه صورة الحاكم الحقيقي، صورة الرجل القدّيس الصالح قدم له كتاباً بعنوان «الحياة المغبوطة» في هذا الكتاب يقول: «إنّ الرجال الفاضلين يجب أن يكرَّموا كمرسلين من الله لا كما يكرمه الشعب الجاهل الذي يركع على ركبتيه ويعوّي ويحمل بيده شمعة ويستدعي أحد الآلهة فيجرح يديه وكتفيه ويقرع صدره» (أنظر لوحة ٧). كان أمام غاليون شيء إلهي نعمة خاصة من الله، لم يعرفها. أعمال الرسل تصف هذه المشاهد الكثيرة بصورة نفسية دقيقة حيث النعمة الإلهية تدغدغ بنعومة البشر فيمرّون أمامها عمياناً لا يبصرون. هذه هي نعمة الله. إنّها تزور الواحد كالزوبعة والثّاني كنسيم ندي والثّالث بالجلد والسياط. من المحزن أن يفكّر المرء أن غاليون هذا الإنسان الرّائع أهمل هذه الفرصة النّادرة لخلاصه. إنّ تاريخ هذا الإنسان، إنسان العالم تشبه مأساة كبيرة. مات كما مات أخوه، مات كرواقي بناء على أوامر نيرون مقتولاً بيده، كانت هذه حكمة الرواقية ونهايتها يصفها سينكا بفيض من الألم برسائله. لم يضع الناموس الأزلي أفضل من الحقيقة الآتية. هناك باب واحد. منه يأتي الإنسان إلى الحياة. هناك أبواب عدّة إذا ما أراد الخروج. أكان عليّ أن أنتظر ليصيبني مرض قاسٍ ويداهمني مجرم بينما أنا حرّ حتّى أهرب من كلّ مضاد؟ هذا هو السبب الذي يجعلنا غير قنوعين من الحياة. لا أحد مضطر ليكون شقياً إلا إذا أراد. أأنت مسرور؟ عش. أشقي أنت؟ تستطيع أن تعود من حيث أتيت. [١٩].

كانت كنيسة قورنثية هادئة وكانت السلطات المحلية تعامل بولس معاملة سيئة في بعض الأحيان. أمّا السلطات الرومانية فبالعكس. هذا ما نمّى فيه العطف نحو السلطة الرومانية ونمّى كرامة الكنيسة عند الوثنيين. كان عمله يزداد انتشاراً خارج المدينة. في رسالته الثّانية إلى أهل قورنثية يحيّي كنيسة أخائيا (١، ١) وكان حوله علاوة على سيلاس وتيموثاوس معاونون كثيرون يمكنه أن يرسلهم إلى أماكن مختلفة إلى البلوبونيز وسيكيون

وأرغوس وأولمبيا وسبارتا. كانت قورنثية بكلمات مختصرة مدينة يونانية طول جدرانها ٢١ فرسخاً ومساحتها ٦٠٠٠ فداناً. كان فيها ثلاثة وعشرون هيكلاً وخمسة أروقة كبيرة مليئة بالمحلّات الفنية الفاخرة والحمامات والمحاكم والمسارح الكبيرة وكان أحدها يتسع لـ ٢٢٠٠٠ ألف كرسي. كانت هذه المدينة بمينائيها كأنّها وجدت خصيصاً ليعمل فيها بولس وأنّه لخسارة كبرى لو بقي بولس بعيداً عن هذا الوسط العالمي لنشر الإنجيل وبثّه في قلوب الناس روحاً مقوياً، في قورنثية كان هيكل أسكلبيوس الشهير وكانت جموع المرضى والفقراء يقصدون درجاته طالبين الزاد وسائلين الشفاء ولا تزال بعض التقدّمات من أولئك الذين شفيوا موجودة في متحف قورنثية. ما أبعد روح المسيحيين في القرن الرّابع من روح بولس. عندما أصبحت المسيحية لا تشكّل خطراً على معتنقيها وجهوا غيرتهم غير النيّرة ضدّ اسكليبوس إله الوثنيين وقد دمّروه فعيدوا بدمارهم للهيكل الوثني لنصر رخيص. إنّ بولس لم يعلّمهم هذا.

٤ . الرحلة التبشيرية الثّالثة

٣٧. سفرة أفسس

(أعمال ١٨ : ١٨ — ٢٣ ، ١٩ : ١)

لم يبق بولس في مدينة من المدن كما بقي في قورنثية . بقي مدّة ثمانية عشر شهراً قبل أن يمثل في حضرة غاليون ، وعدّة أسابيع بعدئذ . يمتلىء القلب فرحاً ، عندما يرى الإنسان ، قدرة نعمة المسيح ، تتجلّى في هذا الشعب المهان . وإنّه لمن الخطر الكبير على وجود الكنيسة أن يتركها ويبتعد عنها وألّا يبقى فيها مدّة أطول لتوطيد دعائمها وسط جوّ مفكّك خلقياً واجتماعياً . كان على بولس في رأي بعض المعاصرين أن يمضي وقتاً أطول في الأمكنة التي أسّس فيها كنائس[17] . إنّ بولس كمعلمه ، كان يزرع البذار كزارع كبير لبذور الله ، ويترك حصادها للآخرين . عندما تمكّنت قورنثية أن تقف على قدميها لم يعد في بلاد اليونان شيء يجذبه . فبلاد اليونان ، إذا جرّدت من أثينا وقورنثية ، صارت قفراء ، لا مدينة فيها ذات بال . كان شعور من القلق يدفعه لزيارة الأماكن التي سبق وعمل فيها ويحرّضه على البحث عن أماكن أخرى جديدة . مرتان منعه الروح القدس من الذهاب إلى أفسس . أيحاول محاولته الثّالثة ؟ كان قلبه يمتلىء بعاطفة كبيرة من عرفان الجميل لخلاصه من أيدي أعدائه وحماية كنيسته بسبب نبل الوالي غاليون . لذلك نذر أن يزور هيكل أورشليم . ما زال بولس مرتبطاً بعادات آبائه الدينية شعورياً كانت أنطاكية سوريا ، وطنه الثاني هدف سفرته الذي لم يكشف عنه . من هنا من انطاكية ، أراد أن ينطلق من جديد ، لعمل جديد في حقل الرب .

سيكون الفراق صعباً جداً على بولس وسيعاني ألماً عميقاً. كان عليه أن يعلن تصميمه ليتمكّن من ترك القورنثيين بسهولة(٤٢)، قرّر أكيلا وبرسكيلا أن يرافقاً بولس حتى أفسس ليعدّا له في المستقبل سكناه. كان معملها مشلولاً تقريباً وصناعة الخيام كانت كاسدة وكانا يعيشان مع بولس عيشة فقر. كانت أفسس بعكس قورنثية مشهورة بهذه الصناعة. وكان المجال هناك أوسع لخدمة الرب بعملها سيرافق بولس أيضاً سيلاس وتيموثاوس المسافر في بحر إيجه في فصل الربيع أو الخريف يمكنه أن يتخيّل السحر الذي مسح عيون المسافرين وهم يمخرون عباب اليم بين مئتي جزيرة تغفو على شواطئها الأمواج. ويعزف أبولون موسيقاه في جزيرة ديلوس مسقط رأسه الأسطوري فتتحرك جزر الكيكلاذ الصغيرة راقصة فوق الزبد. استغرقت السفرة عشرة أيّام تقريباً لأنّ الأقدمين كانوا لا يسافرون ليلاً. كان يوماً من خريف ٥٢ ب. م. عندما لاحت جبال يونيا رابضة وراء جزيرة ساموس وعلى الأخص جبل تومولوس المرتفع بجلال ما بين زرقة البحر الساجي وزرقة السماء الصافية.

يونيا! أية أصداء تتراجع من هذه الكلمة؟ من أعماقها نسمع أصداء معزف هوميروس، وقيثارة سابغو، وأغاني أناكراوس الوجدانية(٥٠). هنا رأت اليونان القديمة عظمة وجهها الروحي وانعكست صورتها في الحضارة الأوربية. هنا ولدت الأعمدة وطراز البناء اليوني. في أزقّة أفسس الضيّقة كان المنشد الأعمى هوميروس يتجوّل، والفيلسوف الغامض هيرقليت يتفلسف في أصل الكائنات ويبحث في العقل الأزلي. هنا سُمعت كلمة «لوغوس» «الكلمة». هنا أسّس فيثاغوروس مدرسته النسكية عن حكمة العالم. هنا وضع هيرودوت أساس كتابة التاريخ. هنا أعلن طاليس الميليسي، أبو الفلسفة الغربية، أنّ الماء هو أصل الحياة. هنا في هذا الوسط العالمي من المواصلات قامت أسس الفلسفة قبل سقراط. هنا وللمرّة الأولى حوربت أحلام الأورفيين الهوائية، ونظرياتهم الكونية. لم يكن بولس من المحتقرين للعقل ولا من الذين يهاجمون الروح. كان عدواً للألاعيب العقلية المنحطّة.. ما قدمه بولس كان شيئاً يفوق كلّ شيء. لقد حمل الروح القدس الذي ينبثق لا من الإنسان بل يأتي من فوق «أيّها الروح! أيها الروح! ما قيمة العقل بدونك» يقول غوته الشاب في إحدى صرخاته الوجدانية: في كلّ يوم كانت مئات المراكب والسفن ترسو في ميناء أفسس إلّا أنّها لم تحمل يوماً من الأيّام حملاً أثمن من الحمل الذي حمله مركب بولس. [٢٠].

لم يكن ميناء بانيرم الذي وصل إليه مسافرونا إلّا اتساعاً لمصب كايسترو. ترك المسافرون السفينة وركبوا قارباً صغيراً حملهم إلى ميناء داخلي صغير بعد أن اجتازوا معبراً ضيقاً طوله فرسخان[٥٠]، نزلوا من المركب أمام قصر أفسس الشّامخ حيث السوق والمسرح اليوناني العظيم الذي يشبه كأساً كبيرة شقت إحدى جنباتها. كانت أفسس كبالارم. فبالجبال التي تحيط بها كانت تشبه صحن فاكهة ذهبياً. في الجنوب كان كوريسوس السحيق وفي الشرق بيون وفي الشمال غاليسيون. كانت السفوح كسفوح أنطاكية مزروعة بمستراحات الأغنياء وكان سور ليسماخوس الذي لا تزال آثاره حتّى الآن يخترق بصعودات جريئة الجبال ويعلو من قمة إلى قمة.

كانت في أفسس جالية يهودية كبيرة وكان لهذه الجالية إدارتها المحلية وعبادتها. كانت تقدّمات اليهود في آسيا لهيكل أورشليم تمرّ بالمصرف اليهودي في أفسس. في سنة ٦١ ق. م. جرت محاكمة شهيرة كان فيها شيشرون وكيلاً عن فلاكوس والي آسيا الذي منع إخراج المال العائد لهيكل أورشليم[٣٣]، والموضوع في المصرف اليهودي في أفسس. في أفسس وجد المسافرون من يستضيفهم بسهولة. لقد فتح مواطنوهم الأغنياء بيوتهم لاستقبالهم. كان اليهود هناك قد سمعوا شيئاً سطحياً عن المسيحية. وكانوا توّاقين ليعرفوا المزيد عنها. كان بإمكان بولس أن يقضي سبتاً واحداً في افسس لأنّ السفينة التي كانت تحملهم ستغادر الميناء بعد اسبوع. إن موعظته الوعدية لاقت تربة صالحة وكان لها أصداؤها وكان على بولس أن يعدهم بعودة سريعة.

إن استقباله في أورشليم لم يكن ودياً ومثبطاً للعزائم. في هذا الظرف بالذّات لم يذكر لوقا اسم المدينة المقدسّة حتّى ولا مرّة واحدة. يقول فقط بنوع فيه سخرية مبطّنة «صعد وقبّل الكنيسة» لم تكن حالة الكنيسة الأم مفرحة. كلّما مرَّ الوقت كانت تتقلّص وتنغلق ضمن قوقعتها. من المؤلم أن تصبح ديانة المسيح سطحية في وطنها فلسطين. «لا بدّ أن يكون في هذه الديانة شيء يشبه الروح اليوناني الحر» ما أقسى التجربة التي مرّت بها هذه الديانة في طفولتها الغضّة! «أخرج من أرضك ومن أهلك وهلمّ إلى الأرض التي أُريك فاجعل منك أمّة عظيمة». إن المسيحية بعد ظهورها تقريباً اضطهدها فوراً أبناء أمتها وهكذا تعلّمت أن تميّز بين الغثّ والسمين[٢٦].

نحن الآن أمام قمّة حياة الرسول. إنّنا نقترب من الدمار الكبير، نقترب من المقاومة الضارية ضدّه شخصياً وضدّ العمل الذي يقوم به من أجل الكنيسة. كلّ شيء في الكنيسة، كلّ شيء عظيم يجب أن يولد من ألم كبير، هكذا تحرّرت المسيحية من المشكلة اليهودية. بعد ذلك اليوم في أنطاكية ازدادت مقاومة اليهود المسيحيين المتطرّفين واشتدّت وقويت الدعاية المعادية لروح بولس. ابتدأت ضدّ بولس حملة منظّمة، حملة تبشيرية معاكسة ناشطة. حاول أعداء بولس أن يقضوا على كلّ جهاده. كانوا يقيمون كنيسة مقابل كلّ كنيسة كان يؤسّسها الرسول. لم تتوقّف هذه المقاومة إلّا بعد موت الرسول وبعد دمار هيكل أورشليم، إلّا أنّ أصداء هذه المقاومة وحقد المسيحيين المتهوّدين ظلّ مسموعاً حتّى بعد مئة سنة وأكثر وكانت كتب أقليمس المنحولة مزماراً لهذه الأصداء. بعد موت الرسول هيكل أورشليم صار المتهوّدون هرطقة دينية خاصة.

كان استقبال بولس في أنطاكية حاراً وودياً جداً في جادة سينفون. إنّ رسولهم وقائدهم الحبيب وبطلهم بدون منازع يعود إليهم. من الجائز أنه التقى هنا ببطرس ويوحنّا ومرقس وربّما ببرنابا. كان خريف، والشتاء كان على الأبواب. يظهر من العبارة: «صرفنا وقتاً طويلاً» أنّ بولس أمضى الشتاء كلّه في أنطاكية. إنّ عبارته هذه (قور ١٦ : ٧) تثبت على أنّه أمضى كلّ الشتاء. كان بولس يحبّ أن يبدأ رحلاته في مطلع الربيع [٣٨] في مطلع الربيع ودّع إخوانه وداعه الأخير. إنّه يبتدىء بأكبر مرحلة من مراحل حياته وأخصبها وتنتهي أمام الجلّاد في روميه. كان رفيقه في رحلته تيطوس (٢ قور ٨، ٢٣). من الغريب ألّا تذكره الأعمال مع أنّه سيمثّل دوراً مهماً في حياة بولس. لن يكون سيلاس إلى جانبه بعد الآن لقد تراجع بولس أمام رجاء بطرس. سأله أن يبقيه معه فنزل عند إرادة بطرس فصار سيلاس كاتب بطرس الأمين (١ بطرس ٥ ؛ ١٢). ترامى إلى أسماع بولس أنّ أعداءه يعدّون العدّة ليقاوموا مفعول بشارته لذلك لم يسلك الطريق المختصرة إلى أفسس بل اختار طريقاً وعراً يمرّ وسط جبال طوروس. اختار هذا الطريق المرعب ليصل في الوقت المناسب إلى غلاطية (ليثبّت كل تلاميذه) ويشدّدهم ليقاوموا حملة أخصامه. ما دام لوقا لا يشير ولا يأتي على ذكر الكنائس في شمالي غلاطية فإنه بكلمة «كل» يعني كنائس غلاطية الجنوبية دارفي وليسترا وإيقونيا وأنطاكية والكنائس الشقيقة المجاورة. لم يكن يستهدف بمروره في أواسط آسيا الصغرى تأسيس كنائس جديدة بل تثبيت الكنائس التي في طريقه

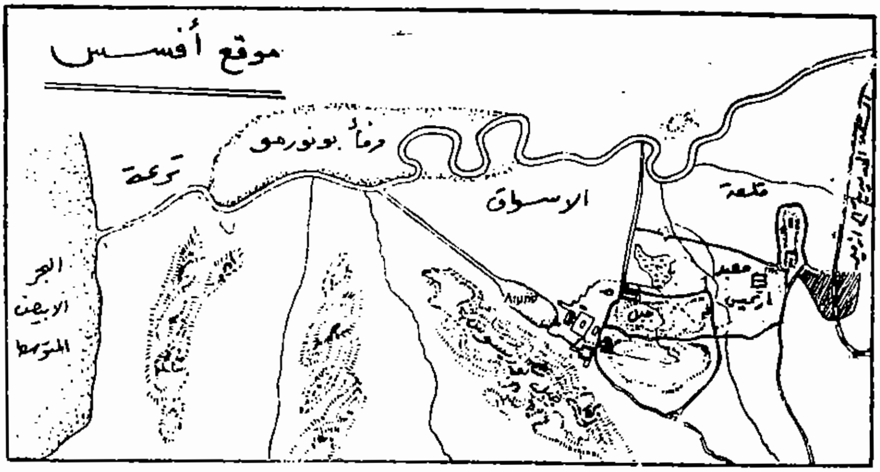

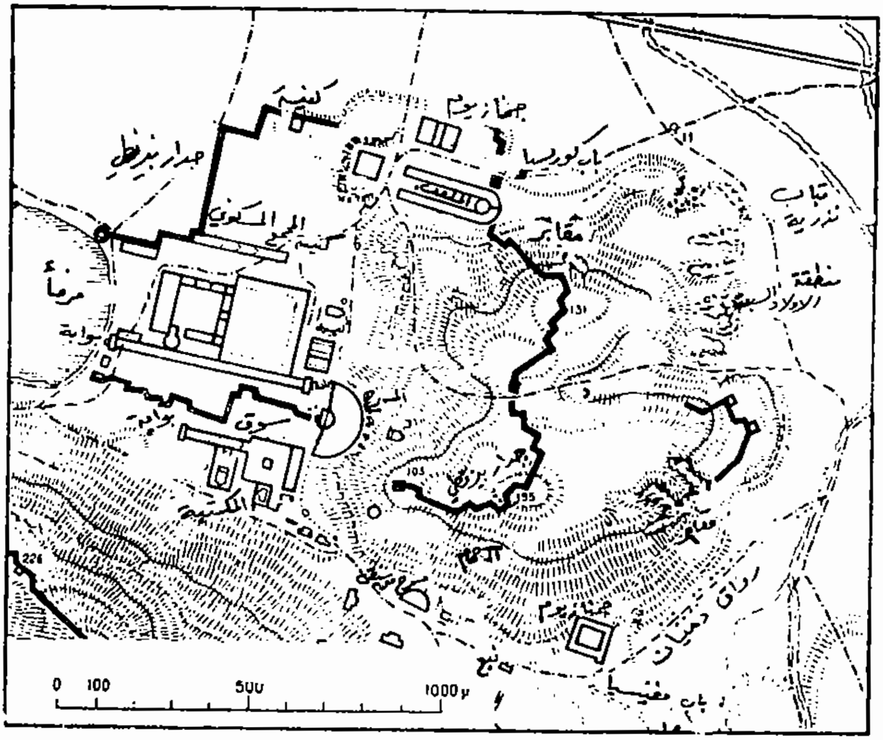

أفسس في عهد الرسول بولس

إلى شواطىء آسيا الصغرى. ومن غير المعقول أيضاً أن يتخلّف بولس عن زيارة كنائس غلاطية الشمالية التي كانت في حالة خطرة والتي كان يحبّها كثيراً. لا يمكن أن يكون قد وصل إلى دارفي قبل حزيران من سنة ٥٣ ق. م. هنا يتبعه تلميذ جديد اسمه غايوس درفيوس، كلّما طال مكوث بولس في غلاطية تضاعفت مخاوف خصومه. كان خصومه يترقّبون رحيله وينتظرونه ليخلو لهم الجو في هدم ما بناه. إنّ حضوره قضى على آمالهم والذين كانوا فاترين في الإيمان ازدادوا نشاطاً وتشددوا (غلا ٤، ١٨). خشي بولس فيما بعد أن تكون كلماته القاسية الحادّة سبباً لعدم إدراك من يحبّهم المحبّة الكامنة وراء هذه القسوة الصادرة من أعماق قلبه العامر بالمحبّة. خصّص بولس وقتاً طويلاً من أجل فقراء أورشليم (١ قور ١٦ : ١)، كان يجمع التبرعات ليرسلها إلى فقراء أورشليم ومن الغريب أن يخصّص بولس هذه التبرعات لكنائس غلاطية الشمالية (أنقره ياسنينون)لماذا أرسلت؟ هناك غموض حول هذا الموضوع. يذكر فقط أنّ التبرعات أرسلت إلى كنائس غلاطية الشمالية. يظهر أنّ بولس ولوقا عندما يذكران غلاطية أو البلاد الغلاطية يقصدان الولاية الرومانية لجنوب غلاطية. لا يمكن أن يكون بولس قد غادر غلاطية قبل الربيع الذي تلا مجيئه. إذا كان بولس قد ترك أباميا وفريجيا الجبليةوراءه بعد اجتيازه لوادي مانيدروس فإنّه وصل في نيسان ٥٤ ب. م إلى أفسس وهكذا يكون قطع مسافة ٣٥٠ فرسخاً وتكون المسافة التي قطعها من طرسوس إلى أفسس ١١٥٠ فرسخاً.

أولئك الذين يعتقدون أنّ الرسول سافر من غلاطية الشمالية عليهم أن يقبلوا أن بولس ترك إلى يساره كنائس غلاطية الجنوبية ووصل إلى أفسس بعد رحلة مرّ بها بكيفسترا وتيافا وقيسرية وأنقرة وياسنينون وذوريليوس (وبفريجيا المحرقة) المغطّاة بالحمم سالكاً طريق فارس الملوكية. الإتصال بين أنقره وكيفسترا مزعج حتّى الآن. على كلّ حال كان السفر وسط هذه الشعاب والوديان والطرقات الوعرة والمنحدرات خطراً جداً[١٩]. إنّ يوحنّا الذهبي الفم سلك هذا الطريق الذي سلكه بولس بعد ٣٥٠ سنة عندما قادوه إلى المنفى. فكتب بعد أول شتاء (أعود في الواقع من أبواب الجحيم). إنّ هذا الطريق يكلّف الرسول ٦٠٠ فرسخاً وقد استغرقت السفرة من طرسوس إلى أفسس بعد تعريجه على أنقره ثمانية وعشرين يوماً تقريباً بمعدّل ٢٥ فرسخاً في اليوم.

كان بولس في قلب ولاية آسيا، وبحق يمكن أن تسمّى أفسس عاصمة آسيا الصغرى

الأولى. كان القائد العبقري وخليفة الاسكندر الكبير، الملك ليسماخوس قد عاد واحتلّ أفسس المدينة التي دخلها الرسول بولس. كانت طيوب الحضارة اليونانية اللّاحقة تنتشر في أجواء أفسس. عندما وصف يوحنا الإنجيلي في رؤياه الغنى المتكدّس في اهراء الدولة الرومانية والحياة الباذخة كانت أفسس لا رومية تلوح أمام عينيه وبحق يستطيع المرء أن يسمّي أفسس بابل الرؤيا. لم تكن مدينة رومية الحاكمة بل آلهتها. وكلمات يوحنا في رؤياه تنطبق على مدينة ساحلية «كل قائد سفينة وكلّ الجماعة التي في السفن والملّاحون وكلّ من يتجر في البحر وقفوا من بعيد وصرخوا وهم ينظرون دخان حريقها قائلين أي مدينة تشبه المدينة العظيمة وحثّوا التراب على رؤوسهم وصرخوا وهم يعولون ويقولون الويل! الويل! أيتها المدينة العظيمة التي استغنى فيها جميع الذين لهم سفن في البحر من نفائسها... إنّ تجّارك كانوا حكّام الأرض وباسم سحرك ضلّ كلّ من في الأرض» (رؤيا ١٨، ١٧ — ٢٣).

إذا كانت هناك مدينة ثالثة غير أثينا وأورشليم فهذه المدينة هي أفسس. كانت هذه المدن الثلاث أكرم المدن قاطبة. كانت أفسس بإلهتها أرتيمس وبهيكل هذه الإلهة مركزاً للسحر في كلّ آسيا وجحيماً للملذّات والمجون وروضة لكلّ أسرار الشرق وخيالاته وأوهامه. رأى بولس عندما دخل من باب مغنيسيا واجتاز طريق القبور الساحة العظيمة حيث ينتصب هيكل أرتيمس الشهير (إحدى عجائب الدنيا السبع) فاستيقظت فيه تلك المشاعر التي سيطرت عليه عندما وقف أمام التماثيل في أثينا. لم تكن أرتيمس الآلهة اليونانية للصيد بل كانت صورة محوّرة لعشتروت الفينيقية. إنّ تمثالها الأسود المحفور فوق خشب الكرمة، سقط حسب الأسطورة من السماء، كما سقط حجر أم الآلهة الأسود في باسنيونتا. كانت ارتيمس بقسمها السفلي العريض المكتنز المليء بصرخات السحر وبأثدائها التي لا عدّ لها وبرأسها المكلّل بتاج يشبه البرج وبذراعيها السميكتين المسندتين إلى ركيزتين تلوح من خلال تلال التقدمات الثمينة كإلهة الطبيعة القديمة. (لوحة ٢٠). وبالنظر للثقة العمياء التي كانت للشعب بهذه الآلهة كان هيكلها يقوم مقام مصرف أو مستودع لنفائس المدينة وقد وضعت ثروة ولاية آسيا كلّها وراء تمثالها وتحت حمايتها. إنّ الهيكل الذي احترق ليلة مولد الإسكندر وأعيد بناؤه، كان أكبر من كنيسة كولونيا مرّة ونصف المرّة. كان سقفه مرتكزاً على مئة وسبعة وعشرين عموداً يونياً مرتكزة على قواعد منقوشة نقشاً فنياً رائعاً. كان الهيكل مزيناً بروائع فنية لفيداس وبولوكليت وسكوبا وبركستيال. إنّ ليسيبوس

صنع تمثال الإسكندر وصوّر الجدران المصوّرون العظام براسيوس وزافكسيس وأبيليس. كانت جموع الحجّاج بأشكالها وألوانها المتعدّدة تزحف على أصوات الأناشيد من المدينة إلى الهيكل سالكة طريقاً طويلاً يصعب اجتيازه في نصف ساعة مشياً على الأقدام (٥٦) . المدينة القديمة كانت كلّها مدينة كهّان. جيش من الكهّان كان مكلّفاً بحماية التمثال، وكانوا كلّهم من الخصيان الذين يأتمرون بأمر الكاهن الأكبر. حول هؤلاء الخدّام كان جيش الخدمة والمنشدون والموسيقيّون وحاملوا الصولجانات والسحرة والفقراء، وكان هؤلاء كالدراويش يعرفون أن يحافظوا على عواطف الشعب الدينية وأن يثيروها بالزيّاحات الباخية وبالهتاف المتواصل والآلات النّافخة وقرع الصنوج. كم مرّة قطعت زمجرة الكهّان مواعظ بولس. كان الهيكل مقدّساً. من دخله فهو في أمان حتّى قطّاع الطرق، لذلك، كان الهيكل ملجأ لمثل هؤلاء المجرمين.

بالرغم من هذه الإنحرافات المجونية المرعبة التي تتّصف بها الديانات الآسيوية.، فإنّها تخفي في أعماقها شرارة من الطبيعة، غريزة دينية لولاها لما فهمت قط هذه الديانات. إنّه شوق النفس الإنسانية إلى بهجة الأمومة الدينية. إنّه صرخة حنين الألم الإنساني إلى الأم. ألا يوجد في أسطورة أم الالهة ارتيمس أو كيفالي التي تبكي حبيبها ايتس نوع من الشعور المسبق لأمّ المسيحية العظيمة، للعذراء التي بكت تحت أقدام الصليب ابنها؟ اشارة إلى حوّاء المخدوعة بسحر حيّة الخصب تدور نائحة وسط البشرية مفتّشة عن المخلص وعن مثالها العذراء؟ إنّ هذا برهان على إجماعية الطّابع المسيحي الذي لا يهمل كلّ ما هو تقي وطبيعي ممّا زرعه الخالق في أعماق صدر الإنسان، بل ينمّيه ليصبح عضواً سامياً وفائق الطبيعة. وهكذا تأخذ المسيحية أشرف ما في الإنسان وفوق كلّ حنين بشري لتخلّصه من الفساد والقذارة وتعلن العقيدة عن مريم العذراء والدة الإله في أفسس ٤٣١ ب. م. يسيء المرء إلى عمق الإحترام لوالدة الإله إذا اعتبرها إطاراً عاطفياً دينياً. الهدف هو سرّ الأمومة العظيم الذي هو ملك الإنسانية كلّها والّذي سبق أفلاطون وعبّر عنه بقوّة وسماها «المغذية» هذا السر وصل إلى أعمق معناه وإلى مقدّساته في عقيدة التجسّد الإلهي.

«لم يشعر أحد أنّ هذا الإنسان المغمور الذي دخل إلى أفسس كان مستعداً لينزل أرتيمس عن عرشها بعد سيادة تجاوزت الألف سنة وليبزغ محلّها نور يوم جديد يبدّد بضيائه ظلمات خداع الكهّان وضلالاتهم كما تبدّد أشعة الشمس الضباب» (٥٠) . في الواقع غرقت

هذه العظمة الوثنية بعد وقت قصير في هاويات البحر ممّا اضطر العالم البريطاني في علم الآثار أن يستعمل آلات خاصّة لاستخراج بعض القطع المطمورة تحت رمال البحر. لا تزال فوق بعض الآثارات لعنة كريسوس موجودّة وقد أضاف إليها أحد السكوكستيكيين في العصر المتوسط هذا العنوان الذي يمجّد الهيكل كأعظم عجائب العالم ما يأتي: «الآن بنعمة المسيح ويوحنا اللاهوتي أصبح قفراً وحقيراً». إنّ هذا الإنسان نسي الإنسان الذي دمّر الوثنية بموعظة واحدة، نسي الإنسان الذي دخل إلى أفسس كإنسان مغمور لم يشعر به أحد يحمل في صدره قوّة ابن الله الذي هو قبل الأزل ليحطّم معقل الوثنية ويدمّره. إنّ عنواناً من القرن الخامس وجد إلى جانب مكتبة كلسوس يعطي صورة حيّة عن الصراع الروحي الذي بدأه بولس. الصراع كان بين نظريتين عالميتين، بين أرتيميس والمسيحية فكان النصر للمسيحية على أرتيميس.

رمى ديمايس الالهة ارتيمس، رمى تمثالها العظيم المضلّ ووضع محلّه العلامة التي تطرد الشياطين لمجد الله ومجد الصليب راية ظفر المسيح على الموت.

كان فلاسفة اليونان يتفلسفون عند هذه الشواطىء، في أصل الكون، في البدء كانت الماء حسب طاليس والنار حسب هيرقليت واللانهاية التي لا شكل لها حسب انكسيمندروس والحرب كما قال رابع وعندما انطفأ الروح الفلسفي في يونيا جاء إنسان عظيم وكتب هذه الكلمات التي لا تحدّ «في البدء كان الكلمة» هذه هي أفسس.

٣٨. أبولوس

(أعمال ١٨ : ٢٤ — ٢٨، ١٩ : ٢ — ٧)

لم تكن عبادة أرتيمس العنصر الوحيد الذي أعطى لأفسس لونها الديني. كانت عبادة الأمبراطور مزدهرة أيضاً في هذه المدينة وجوارها أكثر ممّا هي عليه في أيّ مدينة أخرى. إنّ آسيا كانت المولّدة لديانات الحكّام التي مرّغت الكرامة البشرية بالمهانة. تثير الإهتمام مقطوعة اكتشفها علماء من ألمانيا ونشروها قبل عشرات السنين. إنّها بقايا مرسوم لمجلس المدن اليونانية في آسيا، في أيّام أوغسطوس في السنة التاسعة قبل الميلاد. يتكلّم مجلس

مقاطعة آسيا التي عاصمتها أفسس، على ميلاد الأمبراطور ما يذكر القارئ بعيد الميلاد عند المسيحيين[١٩]. وفقاً لهذا المرسوم يحدّد اليوم الثّالث والعشرون من أيلول يوم ميلاد أوغسطوس ويبتدىء الحساب اليوليانيّ. وكان ميلاد أوغسطوس كما يتبين بدءاً لمرحلة جديدة في تاريخ العالم. المرسوم يوجز بطريقة كلاسيكية مضمون العبادة الرومانية للأمبراطور الذي بنيت من أجله الهياكل في آسيا وخصّصت لها العطاءات الغنية وعينت الكهّان (لوحة ٩). ([٨٢] ص ٤١).

على المرء أن يأخذ بعين الإعتبار هذه العبادة المزدوجة، عبادة أرتيمس وعبادة الأمبراطور ليقدّر جرأة الرسول قدرها. ليتمكّن الإنسان أن يدخل إلى هذا الحصن المظلم من السحر الأسود الاسيوي يُفترض أن يكون صاحب جرأة لا تعرف الخوف وإيمان بالمسيح لا يفتر مليء الثقة. إنّ بولس يواجه عبادة الدولة الرومانية بشيء بسيط جدّاً بتاريخ متواضع عن ابن أحد النجّارين في النّاصرة الذي صلب وعبادة ارتيمس الشهوانية المجونية بسرّ نقي طاهر، بقطعة من الخبز لفظ فوقها كلمات سرية. هذا ما كان لدى بولس في وسط تلك المدينة المعربدة بجنون العظمة والخيلاء التاريخي. لا شكّ في أنّ الذي يقتحم مثل هذا العباب الصّاخب يملك إيماناً قوياً وشعوراً عميقاً بقدرة المسيح التي لا تقهر وثقة بأن من يستولي على داخله قادر على قلب الأوضاع وفقاً لإرادته. ما هو السرّ في ذلك؟ كتب من أفسس إلى أهل قورنثية «نؤمن لذلك نتكلّم» هذا هو السرّ وهذا هو الواقع. نعم. آمن لذلك تكلم. لم ترَ عيناه حقارة عبادة إرتميس وقرفها ولا الجنون والشعوذات التي كانت تسيطر على العالم. كان يرى شيئاً أعمق، كان يرى شعباً لا يكلّ عن تقديم الذبائح لآلهته ويسعى ككلاب الصيد وراء الطريدة ليعثر على رباط يربطه بالقوي اللامنظور. كان يرى هذا الشعب فيتألّم لأنّ سماعه الحادّ كان يلتقط همسات الحنين الموجعة التي كانت تصعّدها أعماق النفس التوّاقة إلى الله. كان بولس يؤمن بالبشرية لأنّه كان يؤمن بيسوع. لو لم تكن البشرية جديرة بالتضحية لما ضحّى المسيح نفسه من أجلها[٥٠].

في سنة ٥٤ ميلادية كان بولس ورفقته يتمشّون في شارع أفسس القديم نصف مستدير، وسط خضم من البيوت، وفي بيون وكوريسون، أمام الملعب البلدي، وفي الأوديون الذي تحيطه الأروقة، وفي السوق بمحلّاته التجارية ودكاكينه بالقرب من الملعب المحفور بالصخر يرى المرء حتى الآن الحجارة الضخمة التي عبدت بها الطريق التي كان

يقطعها بولس ماراً بالباب الروماني الذي لا يزال حتّى اليوم سالماً. لقد سُرَّ كثيراً لأنّ عائلة أكيلا أعدّت له غرفة كبيت له.

كان المسيحيّون الذين يعيشون في أفسس فئة خاصّة تماماً. وكان لهم فكرة ناقصة غير كاملة، مستقلّة تماماً عن الكنيسة. كانت فكرتهم نصف مسيحية لا رابط يربطها بالكنيسة ولا بالرسل، مسيحية مستقلّة عن مواهب الروح القدس والأسرار. يجب أن نتذكّر أنّ عدداً ليس بالقليل من يهود الشتات والمرتدين في أيّام المسيحية الأولى انضمّ إلى حركة يوحنّا المعمدان فاعتمدوا منه ثم تفرّقوا في العالم وبشّروا وفقاً لمشيئتهم، وكما يفهمون. المسيحية التي كان يبشّر بها هؤلاء مسيحية بدائية شعبية، مسيحية ظلّت ملتصقة بالحركة التي خلقتها معمودية الاردن والتي انفجرت حقداً ضدّ يسوع. (ربما وجدت مبادئها في مر ٩ : ٣٨ — ٤٠، لو ٩ : ٤٩). بعيدة كل البعد عن المسيحية الأولى النقية القالب والشكل. انّ مسيحيي أفسس هم مسيحيّون في القلب والشوق أكثر ممّا هم مسيحيّون بالمعرفة.

لأوّل مرّة يخبرون بولس عن ممثّل عظيم متحرّر لمسيحية يوحنّا. كان قد عمل أفسس قبل أن يأتي بولس ثم ذهب إلى قورنثية. كان إنساناً من يهود الاسكندرية يعرف الكتاب معرفة جيدة وكان يتكلّم بحرارة وكان جذّاباً. كانوا يسمّونه أبولونيوس أو تصغيراً أبولوس. كان قد انتمى إلى حركة المعمدان التي امتدّت إلى مصر وصار هو الممهّد لها. برز أبولوس وصار شكلاً جديداً حول بولس ولعب دوراً هاماً في عمله التبشيري وقد أدخل معه إلى الكنيسة الأولى عنصراً ثقافياً جديداً العنصر الاسكندري الذي تطوّر فيما بعد إلى مدرسة اسكندرانية قدّمت خدمة عظيمة للحقيقة المسيحية بتفسيرها الاستعاري وبتحليقاتها الفلسفية. كانت الاسكندرية محوراً للّاهوت اليهودي الذي حاول أن يعجن: **أولاً** حكمة كل الأمم وتعليم اليونانيين عن الكلمة مع ذوي القوى الإلهية والعقل الكوني الخلّاق، **ثانياً** أخلاق الرواقيين، **ثالثاً** موسوية نقية في عجينة واحدة. كان فيلون رئيساً لهذه المدرسة وقد أراد أن يؤاخي «أفلاطون الكلّي الداسة» مع كلمة العهد القديم حتّى قيل عنه «فيلون الأفلاطوني أو أفلاطون الفيلوني» وكانت محاولة هؤلاء اللّاهوتيين اليهود تستهدف وتبغي أن تجعل من اللغة اليونانية والفلسفة آلة جديرة بالأفكار اليهودية وبهذه الطريقة تماماً يتمّون عمل العناية الإلهية بجعلهم اللغة اليونانية شكلاً كلاسيكياً وقاعدة لصياغة العقيدة

المسيحية. هم أرادوا أن يجعلوا من الموسوية ديانة فكرية جديرة أن تظهر أمام العالم الوثني فوصلوا بهذه الطريقة إلى طريقة من التفكير الحرّ الذي أثار الرعب في إخوتهم المحافظين في فلسطين. فبنوا هيكلاً يهودياً في ليونتوبولس بالقرب من الاسكندرية شبيهاً ومماثلاً لهيكل أهل أورشليم[٣٢]. كان أبولوس تلميذاً لفيلون الشريف، وهكذا بان مركزه بوضوح كمسيحي، كانت ديانته ديانة مسيحي له تحليقاته الافلاطونية إلّا أن العمق كان ينقصه. كان من أتباع تعليم المسيح الخلقي المتحمسين ومن أتباع فكرته الجديدة عن الدين كعبادة روحية «بالروح والحق»، وكان يفسّرها تفسيراً دقيقاً إلّا أنّه كان يفتقد إلى الفكرة الأساسية المسيحية بأساسها، ويجهل فكرتها الداخلية عن الموت المخلص وقيامة الرب، وعن رسالة الروح القدس، إلّا أنّ محبّته الحارة كانت تكمل كلّ ما كان يجهله عن يسوع. يصفه لوقا بأنّه «حار الروح» عندما يقول لوقا أن أبولوس كان موعوظ طريق الرب... وأنّه كان يتكلّم ويعلم بغيرة ما يخص يسوع ولا يعرف غير معمودية يوحنا.. كان يعني أن أبولوس لم يكن يعرف إلّا القليل عن المسيحية ومعرفته محصورة في النّاحية التاريخية وفي النّاحية الوعدية الإلهية من صفات المسيح. كان أبولوس الرئيس الروحي لفرقة في الاسكندرية كانت تفسّر الكتب ولم تكن هذه الفرقة مرتبطة بالكنيسة وكان تباعه يشكّلون مع المجمع رعية واحدة متماسكة. في أحد الأيّام ذهب أكيلا وبرسكيلا إلى الهيكل ليسمعاه كانت موعظته موعظة وعدية جذّابة. كان ينقصها فقط نغم بولس الدّاخلي وروعته وحرارته. كان النّاقوس يقرع إلّا أنّ رنينه كان مختلفاً. كان يتكلّم على كلمة الله إلا أن الروح القدس الذي كان يعطي لمواعظ بولس تلك الترصيعات الرّائعة كان غير موجود. بعد إتمام الفرض ارتبطا معه بصداقة فدعياه إلى البيت وكشفا له عن حياة الروح الجديدة في الكنيسة كما تعلّماها من بولس. صار هذا الإنسان الحكيم، الصديق العائلي وموعوظها. يا للمشهد البهيج المؤثّر زوجان بسيطان في مشغلها الصغير وحكيم اسكندراني يجلس عند قدميهما. لم يخطئ من سمّى لوقا الإنجيلي بالإنجيلي المصوّر. تكلّم الزوجان على كنيسة قورنثية التي بناها بولس وعلى غنى حياة مواهب الروح. قرّر أبولوس أن يذهب إلى أخيّا ليتعرّف عن كثب إلى الحياة الكنسية في أصلها. فأخذ معه رسائل توصية إلى المتقدّمين في الكنيسة هناك. يظهر أنّه اعتمد على يد أحد تلامذة بولس، وقبل المسحة المقدّسة وصار مقبولاً في الكنيسة. فاكتسب فوراً مكانة كبرى واحتراماً وصار من المتقدّمين في الكنيسة. كان ظهوره شيئاً جديداً للقورنثيين العطاش للأمور المثيرة للاهتمام. إنّ لغته

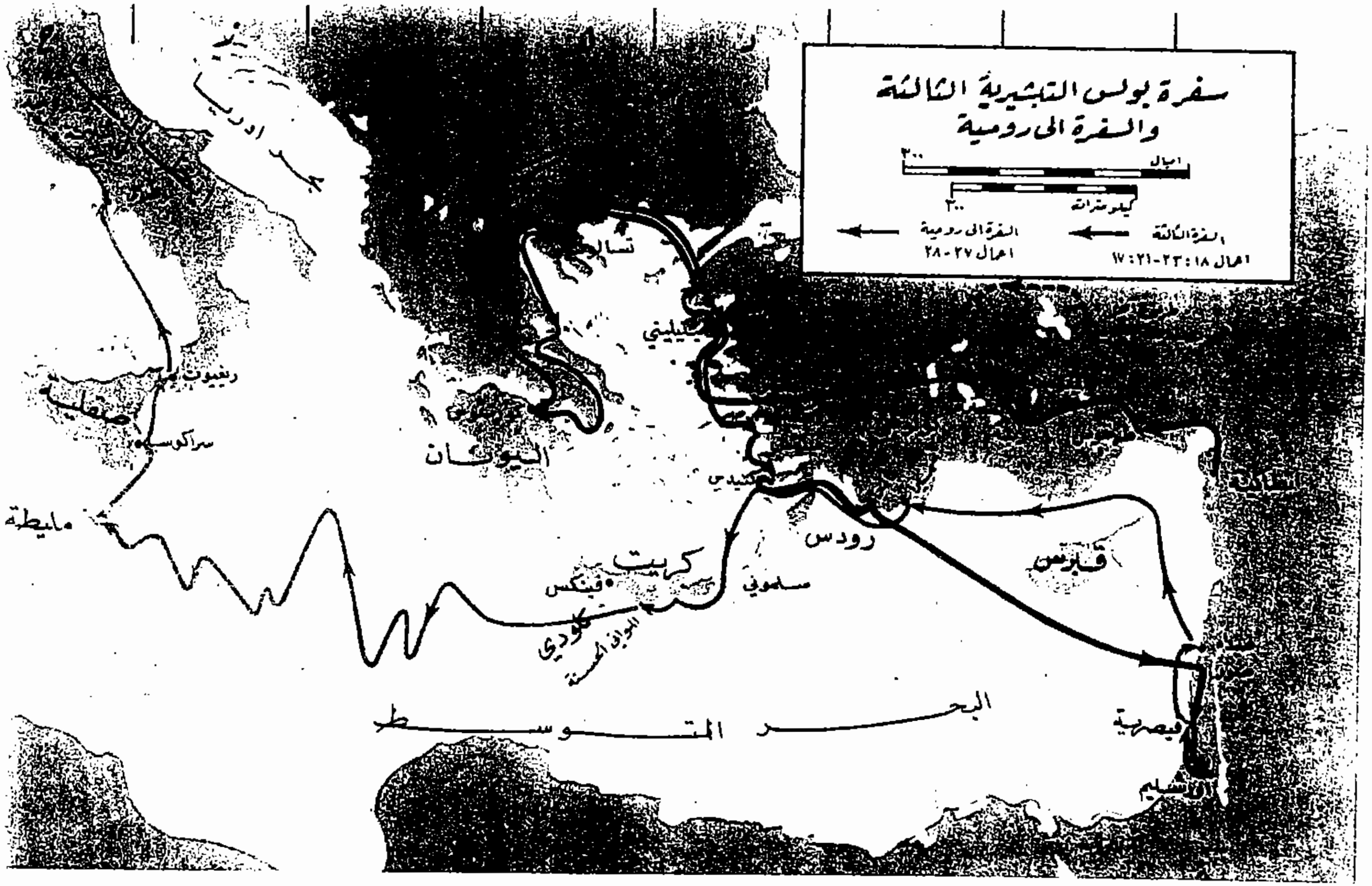
سفرة بولس التبشيرية الثالثة
والسفرة الى رومية
اميال
كيلومترات
السفرة الثالثة
اعمال ١٨ : ٢٣ - ٢١ : ١٧
السفرة الى رومية
اعمال ٢٧ - ٢٨
بحر ادريا
اليونان
روودس
كريت
فينكس
سلموني
قبرص
قيصرية
البحر المتوسط
مليطة
سراكوسا
ريغيون
صقلية
ميليتي
كنيدس

الأتيكية الرقيقة وتحليقاته الأفلاطونية الروحية التي كانت تستهدف المعرفة أكثر ممّا تستهدف الإيمان البسيط دغدغت ثقة القورنثيين الشخصية. قال أصدقاؤه القورنثيّون: هذا هو رجل قورنثية، وبالرغم من إرادته ولم يكن بإمكانه أن يقضي عليها، تكوّنت فئة استغلت فصاحته ومقدرته وتفوّقه الخطابي إذا قيس ببولس. عندما أخذ القورنثيّون يضجّون اضطر أبولوس أن يترك قورنثية فعاد إلى أفسس خوفاً من خطر قد يهدّد الكنيسة. إنّه لمثال رائع في التفاني ونكران الذّات.

كانت في أفسس حلقة أخرى من تلامذة يوحنّا وكان أول عمل يقوم به بولس هو، حمل هذه الفئة إلى الإيمان، والحياة المسيحية الكاملة. لقد صادف شيئاً مهماً لعمله. وجد فئة تتألّف من عشرة رجال يعيشون عيشة انعزال فأثارت انتباهه صرامة حياتهم. لاحظ أن شيئاً يُفقد من مسيحيتهم. إنّه لم يلاحظ ذلك الشعاع الفرح الذي يغمر وجوه المسيحيين ولا مواهب الروح القدس التي تنير وجوههم. سألهم فوراً هل نلتم الروح القدس عندما آمنتم؟ لا بدّ من أن تكون الدهشة قد عقدت لسانهم لأنهم لم يفهموا شيئاً. إنّهم ما سمعوا قط بمجيء الروح القدس وبحلوله في يوم الخمسن. بمن اعتمدتم؟ تأكّد آنذاك أنّهم فئة من تلامذة يوحنّا كانت تقوم بالصلاة والصيام في وقت واحد. حينئذ أخبرهم بولس أنّه من مدّة طويلة يوجد شيء أسمى من معمودية يوحنّا وهذا الشيء هو التعبير عن الإيمان بمسيا الذي سيأتي فطلبوا عندئذ أن يوعظوا وعظاً كاملاً وأن يقبلوا بالمعمودية والمسحة المقدّسة في الكنيسة. شعروا الآن وكأنّهم ينتقلون من رواق نصف مضاء إلى كنيسة تشعّ بالأنوار المفرحة، إنّ أرواحهم امتلأت بنور جديد وخفق قلبهم بالشعور العميق وشعروا بإيمان يملأ صدورهم بالحق ممّا جعلهم يغرقون في نشوة ويرتفعون محاولين أن يعبّروا عمّا في داخلهم بنبوءات.

إن سؤال بولس «أأخذتم الروح القدس؟» كان في العصر المسيحي الأول جزمياً. لم تكن المعمودية برهاناً على أنّك مسيحي بل البرهان هو الحيازة على الروح القدس. المعمودية هي بدء للمسيحية تكتمل بإعطاء النعمة بالمسحة. المسحة هي كمال المعمودية وسقفها كما أن يوم الخمسين هو نهاية أعياد الفصح. السرّان معاً هو الاحتفال الذي يدخل الإنسان سرّياً إلى المسيحية الحقّة لذلك لا يعادان. القبول في المسيحية يجب أن يتطوّر ليصبح صيرورة في المسيح. الإشتراك السرّي في موت وقيامة الرب بالمعمودية والمسحة يجب أن

يتجدّد دائماً وأن يتكمّل بالشركة السرية في حياة ، في ذبيحة في مائدة سرّ الشكر . بهذه الطريقة تتحقّق دائرة الخلاص السرية . هذه الأسرار الثلاثة تسمّى أسرار الخلاص وحتى الآن تذكر في التعليم وفقاً لترتيبها المسيحي القديم.

لم يكن في أفسس فقط رعية من يهود الشتات تضمّ أنصاراً ليوحنّا المعمدان . إنّ النبي حمل رهطاً من تلامذته إلى يسوع فوُلد نوع من المنافسة والحسد بين تلامذة يوحنا وتلامذة يسوع (يوحنا ٣ : ٢٦) وكان يوحنّا على قيد الحياة . وبعد موته جعلوا من شخصيته المثالية قاعدة لرعية مستقلّة خاصة . تعدَّت حركة المعمدان إلى ما هو أبعد من حدود الأردن ، وصلت إلى آسيا ، ومصر . وعندما يقول الإنجيلي يوحنا « لم يكن ذاك النور » — لأنّ تلامذة يوحنا كانوا ينظرون إلى النبي كنور — « بل جاء ليشهد للنور » يشير إلى هذه الحركة . ولولا ذلك لكان ما يقوله يوحنا لا معنى له . شيئاً فشيئاً أخذ العصر الثّاني ينطفئ.

إنّ خبرة الرسول فيما يتعلّق بتلامذة يوحنّا الإثني عشر تشير إلى أهمية الرباط العضوي مع الكنيسة الرسولية . مسيحية خارج الكنيسة ، مسيحية مستقلّة ، مسيحية كتابية شخصية ، تقود حتماً إلى توحيد ، إلى نسك يخلو من الفرح ، إلى خلق هرطقات تقود إلى فكرة خاطئة عن المسيح . المسيحية التي صادفها بولس في أفسس كانت غرفة انتظار . لذلك سمّي بحق مؤسس كنيسة أفسس . إنّه لم ين فوق أساسات غريبة .

٣٩ . الإهتمام بكلّ الكنائس

(٢ كورنثس ١١ : ٢٨)
(أعمال ١٩ : ٨— ١٠ ، ٢٠ : ١٩— ٢١) .
(١ كورنثس ١٦ : ١٩)

بقي بولس مخلصاً في البدء إلى طريقته القديمة ، كان يعيش من المال الذي كانت تدره عليه مهنته . كان يبكّر إلى عمله ، وكان يبقى حتّى الظهر تقريباً . أراد بولس أن يبرهن في مدينة صناعية أن المسيحية والعمل لا يتنافيان وأن ديانة يسوع ليست ديانة حالمين وهادئين فقط .

لكن لا يمكننا أن نتجاهل ما قدّمه أولئك الذين استضافهم في أفسس. لا يمكن أن نتكلّم على نظام في البيت، فالبيت كان مفتوحاً على مصراعيه يدخله الجميع أولئك الذين أقبلوا من بعيد يحملون الأخبار للرسول عن كنائس غلاطية ومقدونيا وفريجيا واليونان والذين يزورونه مستفسرين عن أمور تتعلّق بالوجدان ويسألون حلاً لأمور تعترض حياتهم ومنهم من كان يأتي ليتثقّف في الدين الجديد. من الصعب أن يبقى المرء بعيداً عن جاذبية الرسول. لا بدّ أن تغمره حياته الدّاخلية بأعماقها المعذّبة من أجل الإنسان. من الصعب أن يلجم عواطفه أمام هذه الحياة التي تتحرّك دائماً في محيطها الإلهي بصورة لا يتصورها عقل. كان بولس يلقي دروسه مساءً على الموعوظين المبتدئين ويعظ المتقدّمين ويقوم بسر الشكر يومياً تقريباً علاوة على يوم الأحد حيث سرّ الشكر إلزامي. كان من الضرورة أن يزداد عدد صفوف الموعوظين في البيوت الخاصة، وكان الرسول يكل أمر هذه الصفوف إلى معاونيه، أما الادارة العليا للتعليم والأسرار ووضع اليد، «المسحة والسيامة» والمواعظ العامة فنوطة به. كانت الثمار الأولى ثمينة لأنّها وفقاً للدّافع الديني عند اليهود كانت تقدّم إلى الرب لذلك يرسل بولس في رسالته إلى أهل رومية (١٦، ١٥) سلامه إلى من استنار أول من استنار في أفسس بفخر واعتزاز كأب يخاطب ابنه البكر: «سلّموا على انيتس حبيبي الذي هو باكورة آسيا للمسيح».

إن المجمع اليهودي في أفسس بتعليمه العالي عن الله وبناموسه الخلقي صار دون أن يريد مدخلاً ومسابقاً للإنجيل. إلّا أن المسيحيين هناك وعوا عن طريق بولس أن المسيحية في جوهرها هي شيء مختلف عن اليهودية، وقد وطّد بولس بمواعظه في المجمع علاقات طيّبة مع الفئات الرصينة الواعية المفضلة، أي مع المرتدين. كان هؤلاء الجسم الرئيسي لكنيسة أفسس الجديدة. الأشهر الثلاثة الأولى كانت جدّ قيّمة ولم يطل الوقت حتّى أدرك اليهود أن المسيحية الجامعة الكاملة لا تعني إلّا نهاية دياناتهم الوطنية المحدودة. لم يترك بولس جدلاً دينياً مفيداً إلّا وخاضه وكثيراً ما تحول الجدل في المجمع الى شتائم بذيئة وسباب قذر ينتهي أحياناً بصدام وضرب ممّا جعل بولس ينقطع كلياً عن الذهاب إليه[٥٦]. إن اهتمام بولس في هذه الأثناء أخذ طابعاً جديداً ولأول مرّة يحاول أن يعلّم بطريقة جديدة. البيوت الخاصّة كانت صغيرة ولم تكن لتتسع لكل من يريد أن يسمع التعليم والمواعظ. فعل كما يفعل الخطباء الوثنيّون. كانت الدروس تلقى في الهواء الطلق وعلى مسمع الجميع.

اقترب الشتاء. لم يعد ممكناً إلقاء الدرس في الهواء الطلق. إنّه يحتاج إلى مقرّ ملائم. كان أحد النحويين واسمه تيرانوس قد أظهر استعداده لتأجير قاعته الكبرى القائمة في أحد الملاعب الخمسة التي كانت تضمّ علاوة على التجهيزات الرياضية والحمّامات قاعات للدروس والمحاضرات التي كان يلقيها الفلاسفة والشعراء والخطباء. بالقرب من مكتبة كلسوس عثرت البعثة النمساوية للآثار على أساسات إحدى القاعات الكبرى وعثرت على عنوان يقول «قاعة محاضرات» من الجائز أن تكون هذه القاعة المكان الذي درس فيه بولس مكان أول مدرسة مسيحية. لم يكن الإسم يدلّ على مضمون الملاعب. الملاعب كانت مقراً للمناقشات والتعليم بالإضافة إلى التمارين الرياضية وكانت دروس الشعراء والفلاسفة من ضمن برامج الملاعب الرياضية. كانت قاعات الدروس ذات أقواس نصف دائرية والممرّات حول السّاحة كانت ذات أعمدة وكانت تسمّى سخولي— ساعة فراغ، استراحة، ثم تطوّرت هذه الكلمة حتّى صارت تعني ما تعنيه اليوم عملاً روحياً ثقافياً فكرياً منظماً. سخولي تعني مدرسة الآن وكانت تعني سابقاً استراحة. أما اليوم فقد فقدت كلمة «سخولي» معناها الأول[٨٢]. من قانون فيزا نعرف تماماً ساعات بولس التعليمية ولكن لا نعرف برنامج الدروس. كان تيرانوس ينهي درسه في الساعة الحادية عشرة وكان بولس يبدأ عمله في الحادية عشرة والنصف، وكانت نصف الساعة مخصصة لأنهماكات شخصية يقوم بها المرء حسب هواه. كان بولس يجهل معنى الاستراحة، لا استراحة في قاموس حياته. كان يشتغل في الصباح على آلته كسباً لزاده اليومي، وكان عقله يشتغل في الوقت الذي كانت يداه تحرك الآلة. كان ينهض بعد إتمام عمله فيغسل وجهه ويديه ويذهب مسرعاً إلى حيث كان ينتظره طلّابه والذين يُقبلون لسماعه من أصحاب المحلّات التجارية وأصحاب المهن الحرّة والمصانع والفلاسفة والرجال والنساء وأصحاب الصناعات الحرّة والعمّال والعبيد والأحرار والمثقفين. استمرّ بولس مدّة سنتين وهو يقوم بهذا العمل المرهق. كانت أعياد ارتميس الكبرى وخصوصاً في أيّار حيث كان الحجّاج يقبلون من مختلف الأماكن، كانت تحمل إليه كثيراً من محبّي الإطلاع من آسيا وفريجيا ومن وادي مانيدروس وليكو، من ليديين وملاطيين وازميريين وبرغاميين وطروادين ومن جزر اليونان. كان البعض يرفعون أصواتهم محتجّين طالبين المزيد من الشرح[٥٦]. اليونانيّون دقيقون يحبّون الفلسفة، إن رسالة بولس إلى أهل أفسس تشير إلى أنّ بولس لم يتهرّب من طعن الالهة ارتيميس كلّما سنحت الظروف «أوصيكم وأناشدكم بالرب أن لا تسلكوا فيما بعد كما

يسلك الأمم ببطل بصائرهم الذين أظلم فهمهم وتغرّبوا عن حياة الله لأجل الجهل الذي فيهم وعمى قلوبهم الذين لفقدهم كلّ حسّ أسلموا أنفسهم إلى العهر لارتكاب كل نجاسة بفرط الطمع» (أفسس ٤ : ١٧— ١٩).

علاوة على هذه المحاضرات العامّة كان يجري عمل دقيق منظّم في الزيارات البيتية. وكان الإرشاد يجري على انفراد ويصف بولس هذه الأمور بطريقة مؤثّرة. ماكانوا يطوفون من مقهى إلى مقهى يتكلّمون ويستريحون. كان عملهم جهاداً يستهدف كل نفس على حدة، للمؤمنين الجدد وللضعفاء والمتأرجحين، لأولئك الذين يشكّكون والذين يجبنون. كم مرّة ضلّ بولس السبيل في السوق والأزقّة وفي الميناء وفي الجادات التجارية[٥٠]، كم مرّةٍ قضى لياليه ساهراً مع المؤمنين الجدد وحاول وهو على مائدة الطعام أن يفسّر لهم كلّ ما يحتاجونه ويقصّ عليهم ما قاساه في أسفاره من أجل نمو الإيمان. قد تعطينا رسالة بولس إلى أهل أفسس مخططاً عن الدروس التي كان يلقيها. كانت الكنيسة قد نمت نمواً عظيماً اضطرّت بولس ليفكّر تفكيراً جدياً في تنظيمها فعيّن مجلساً من المتقدّمين وأعطاهم لقب أساقفة (أعمال ٢٠، ٢٨). كان هؤلاء المسؤولون عن الرعية مكلّفين برعاية وقيادة الكنائس المحلية وكان بولس يمسك بين يديه الاشراف العالي على كلّ الكنائس.

لم ينشط بولس في مكان كما نشط في مقاطعة آسيا الصغرى بمدنها الكبيرة. كانت أفسس عاصمة لمقاطعة غاصة بالسكان وكان فيها خمسماية مدينة وبلدة «انفتح لي باب عظيم فيه عمل كثير» (١ قور ١٦، ٩) وكانت باباً على العالم الوثني. بقي بولس في أفسس وكان يمسك بيديه خيوط العمل التبشيري المتفرّع بينما كان يستقبل ممثّلين عن كلّ الكنائس الذين كانوا يأتون إلى زيارته ويمضون وقتاً طويلاً يحملون له الأخبار وينقلون التوجيهات والتعليمات ويقيمون إلى جانبه كفايوس واريستارخوس المقدونيين وسيكوندوس السّالونيكي وسوباتروس من بيريا وكان الغلاطيّون من فريجيا وبسيديا وأنطاكية وايقونيا يقبلون بخيولهم أو فوق عرباتهم يلبسون جلود حمير الوحش أو الغنم يتهادون ويقصون على الرسول أخبار أبنائه. فأرسل لوقا بعض الرقوق من فيلبي يصف فيها كطبيب دقيق حالة الكنائس هناك ومقدار نموّها بالرب[٥٦]. من قورنثية جاء أيضاً التجار والبحّارة ورجال شهيرون مثل أبولوس واريستوس أمين البلدية وسوستنانس. إذا أضفنا إلى هؤلاء أصدقاء الرسول القدماء نرى بولس محاطاً بأركان من المساعدين الذين كانوا يباحثونه في آلام الكنيسة عامة

وأفراحها وكان يرسلهم إلى المدن المجاورة ليبشّروا ويؤسّسوا الكنائس. «تصافحكم كنائس آسيا» يكتب إلى أهل قورنثية (١ قور ١٦، ١٩). كانت الحياة عبارة عن ذهاب وإياب وتنقلّ في المدن والقرى شرقاً وغرباً وشمالاً. كانوا كلّهم شباباً في الإيمان يرسلون للبشارة بالإيمان(٥٠). كانت أفسس المدخل والمفتاح للوديان الأربعة التي يؤلّفها كايستروس وماندروس وأرموس وكايكوس وللمدن المنتشرة فوق الضفاف وعند المصبّات. لسوء الحظّ علينا أن نملأ بعض الفراغ الذي نجده في أعمال الرسل. أعمال الرسل تصمت عن أعمال معاوني الرسول وتصمت أن أنواع كثيرة. إنّ لوقا لا يشير إلى ذلك في الأعمال مع أنّه هو الذي رأى بأم عينه ولمس نتيجة العمل بيده. في رسائل بولس ما يسدّ هذا الفراغ إذ يشير إلى أعوانه بفرح ومحبّة وأخوة عميقة. في الرؤيا تذكر كنائس جديدة لم تذكر في أعمال الرسل. ذهب أعوان بولس إلى المدينة التي كانت وطن تاليس وانكسيمندروس وانكسيمانس والتي لا تزال تحلم بمجدها الروحي الغابر وترى عظمتها الحاضرة في تمثال أبولوس وبديموس وثروتها الكهانية. وجاؤوا إلى أزمير ملكة البحار عند سفوح سبيلوس القاتم ومقرّ الاتلنتيديين الأسطوريين حيث تمثال تيوفيس يرتفع فوق الصخر ويكتئب. ذهبوا إلى فينسيا وتراليون حيث يقال إن فيليبوس بشّر هناك. البعض طافوا في كايسترو حتّى وصلوا إلى فيلادلفيا ومرّوا بمضيق تيمولو وفي سارديس المدينة ذات الموقع الخلّاب مقر كريسوس المشهور وهيكل كيفالي وقبور ملوك ليديا وإلى ثياتيرا وبيرغاموا حيث نصب عرش الشيطان كما تقول الرؤيا وهيكل ديوس الهائل الذي تُكلمنا بقاياه في متحف برغامو في برلين بطريقة تؤثر* لا نعرف إذا كانوا قد ذهبوا إلى طروادة وأتوا أم أنّ لوقا بشّر هناك. على كلّ فإن بولس وجد رعية مسيحية وهو في طريقه إلى قورنثية، هكذا تطورت كنائس آسيا السبعة. في كل هذه المدن كانت الرعايا اليهودية قوية ومزدهرة. إنّ هدنة مستمرّة بعد شرور الحرب الأهلية جعلت القلوب أكثر قابلية لحياة سعيدة هادئة حسب إرادة الله. إنّ هؤلاء البنات السبع دراري يشكّلن إكليلاً يتوّجن أفسس الكنيسة الأم. يستطيع بولس أن يكتب وهو في رومية ويقول لأهل أفسس «كنتم حيناً ظلمة أما الآن فأنتم نور الرب» (أفسس ٥ : ٨). إنّ التبشير في كلّ هذه المقاطعة يثير الدهشة. تمّ كلّ ذلك في زمن جد محدود وقصير. أعمال الرسل تؤكّد أن جميع القاطنين في آسيا سمعوا كلمة الإنجيل يهوداً

* ذكرت مصادر صحفية أن «متحف برغاموس» نقل الآن إلى موسكو.

ويونانيين «وقد أثار ديمتريوس الشعب مذكّراً أن بولس لم يقنع عدداً قليلاً من شعب أفسس بل وعدداً كبيراً من المقاطعة».

إن المنطقة الواقعة جنوب غربي فريجيا في الوادي ليكو هي المنطقة التي عرفت نمواً في الإيمان المسيحي لا يضاهيه نمو. هنالك تقوم مدن ثلاثة الواحدة قريبة من الأخرى تمور بالحياة المحبّة والعمل المستمر كولوسي واللاّذقية وايرابوليس. كانت كولوسي مدينة من الطراز القديم، مدينة للرّاحة والاستجمام تقوم عند أقدام جبل قادموس، الجبل الكبير الحجم المغطّى بالثلوج والذي يشكّل عمق لوحة المدينة. كان ابفراس رسول هذه المنطقة وكان من أصل يوناني من كولوسي. ارتدّ إلى الإيمان على يد بولس وكان يحبّه محبّة شديدة كأخ وصديق ومعاون. يصفه بولس وصفاً رائعاً عندما يكتب «تعلمتم من أبفراس الحبيب مساهمنا في الخدمة» (كولوسي ١، ٧). شارك أبفراس فيليمون في سجنه وكان فيليمون من أغنياء كولوسي وكان فيليمون وامرأته مدينَيْن له بسعادة حياتهما. لذلك قدما بيتهما ليكون مقراً لاجتماعات المسيحيين الدينية. من الجائز أن يكون أونيسيموس عبد فيليمون قد حمل كتاباً من معلّمه إلى الرسول بولس وحمل فيليمون إلى بولس في أحد الأيّام قريبه أو صديقه أرخيبوس الذي أحبّه بولس كثيراً وألقى على عاتقه فيما بعد خدمة أهل كولوسي الكهنوتية وسمّاه مساهمي في الجندية (كولوسي ٤، ١٧. فيليمون ٢، ٢ تيمو ٢، ٣).

ذهب أبفراس من كولوسي إلى اللاّذقية المجاورة وكانت اللاّذقية مشهورة بمدرستها لطبّ العيون وببرفيرها الشهير. إنّ يوحنّا في رؤياه يرمز إلى ذلك عندما يقول: «فأنا أشير عليك أن تشتري مني ذهباً مصفًّى بالنار حتى تستغني وثياباً بيضاً حتّى تلبس ولا يظهر خزي عريتك وكحلاً تكحل به عينيك حتّى تبصر» (رؤيا ٣، ١٨) هنا أسس أبفراس كنيسة أيضاً وكانت تجتمع في بيت نيمفا (كولوسي ٤، ١٥) بعد خمس عشرة سنة أو يكاد سمعت الكنائس السبع من يوحنا أشد تهديد «إنّك لست بارداً ولا حاراً وليتك كنت بارداً أو حاراً ولكن بما أنّك فاتر لا حار ولا بارد فإنّي أوشكت أن أتقيأك من فمي» (رؤيا ٣، ١٥، ١٦). (اليوم تشهد أطلال هذه المدينة على تحقيق هذا التهديد)[٥٠].

في النّاحية الأخرى حيث يمتدّ ليكوس ومياندروس والوادي على اتساع عشرة فراسخ تقوم فوق مرتفع صخري المدينة المقدّسة القديمة ايرابوليس الشهيرة بالمنظر الطبيعي الذي يأخذ بمجامع القلوب. مجرى النهر المندفع والينابيع السّاخنة المتعدّدة النّابعة هنا تتساقط

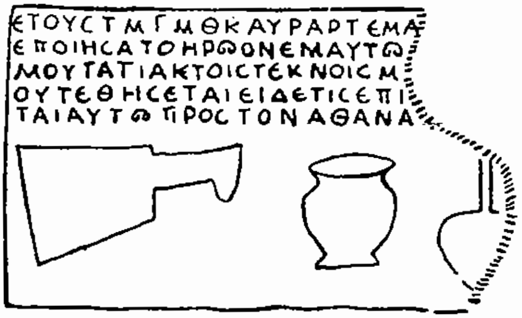

نقش حجري في العصور المسيحية الأولى
وجد في أحد وديان فريجيا.

بقفزات طروبة من فجّ إلى فجّ وتشكّل شلالات رائعة تخالها إن صحّ التعبير الخيالي جسماً شفافاً، أشكالاً غريبة لشلال تحجّر فخلق قبو مملكة من الكهوف الصغيرة وقصوراً للحواري بقبابها وقد ترسّب فيها الكلس وتحجّر. هنا عمل أبفراس. عندما يكتب بولس إلى أهل كولوسي يسلّم عليكم أبفراس الذي هو منكم وهو عبد للمسيح يسوع مجاهد كل حين لأجلكم في الصلوات (كولوسي ٤، ١٢) يعني أن أبفراس كان ذا مركز عظيم في هذه المنطقة ألقيت على عاتقه واجبات الأسقف. بعد ثلاثين سنة عمل هنا المتقدّم بابياس كأسقف وعرف الإنجيلي يوحنّا. كانت ايرابوليس مدينة ثقافية روحية. فيها شبَّ العبد أبيكتيوس الذي أعطى كسينكا العالم الوثني بعض الأفكار السّامية لأفكاره وأخلاقه الرواقية، أفكارٍ تشرِّف حتّى أي فيلسوف مسيحي.

كان الشعب الفريجي ميّالاً بطبيعته الى الصوفية الحالمة بتأثير الديانة الفارسية ويهودية الانحطاط. وكان يفلح في تربة من شعوذة عبادة الملائكة والشياطين التي ازدهرت في القرن الرّابع بعد المسيح كما تدلّ الكتابات في اللاذقية وقرارات المجمع هناك. فكأن الأرض البركانية هناك زعزعت أرواح هذه المنطقة. الإنسان في تكوينه الروحي هو ابن محيطه. المحيط يعطي للإنسان لونه وطريقة عرض أفكاره. من هنا إنطلق ماني كاهن كيفالي الذي أسّس الحركة التوحدية التأملية. هنا ولدت أغرب الشخصيات من أصحاب المعرفة الآسيوية وهذيانات الأفينون الجنونية الذين عبدوا المسيح تحت شكل الأفعى، بيد أن فريجيا صارت حصناً للمسيحية بعد أعمال تلامذة بولس. في عناوين فريجية نجد كثيراً من الأسماء الرسولية كتروفيموس وتيخيكوس وتالسفوروس[٧٨]. تاريخ فريجيا المسيحي مدين لبولس وبقي احترامه حياً. من كتابة لأفريكيوس الشهير أسقف فريجيا يستدلّ على هذا

الاحترام العظيم الذي كان يتمتّع به الرسول : «رأيت هناك هيكلاً مختوماً بختم منير وكانوا يقبلون إليه من كلّ مكان فحملت بولس على عربتي فقادها إيمانه وكان إيمانه عزائي وغذائي من إيمانه. كان سمكاً من الأعماق العظيمة الذي اصطادته عذراء نقية أعطاه إلى الأصدقاء ليكون معهم دائماً ما يأكلونه فيشربون الخمرة الصّافية ويأكلون معه الخبز» (لوحة ٢٧).

كيف تمكن الإنجيل أن يركز اقدامه تحت هذه الشمس الهوميرية ، في يونيا النضرة ، الإنجيل الذي ولد في الفاقة وأفضل مناخ له هو الفاقة؟ تجيبنا عن هذا السؤال طبقات الكنيسة الإجتماعية التي يرسمها بولس في رسالته إلى أهل قورنثية. كما في قورنثية كذلك في أفسس ، تبنّت الإنجيل الطبقات الدنيا التي وجدت في الإنجيل خلاصها وانعتاقها من الفروقات الإجتماعية القائمة.

إن مصير الكنائس المسيحية في آسيا كان شيئاً حتمياً لأنّها لم تستقم في الطريق التي خُطت لها. فهي سقطت في نوع من الفتور ولم تبق في المستوى الأول الذي كانت فيه. الكفن الأبيض الذي نشرته الينابيع الحارة فوق المدينة القديمة ايرابوليس[٥٠]. هذا الرمز للموت الروحي امتدّ سريعاً فوق كل آسيا وكفّنها. كانت ذكرى بولس في تلك المنطقة كلمات جوفاء نسيت مع الزمن وتوارت ولم يبق إلّا تهديد النبي (رؤيا ٢ ، ٥).

٤٠. علو الله وضعة الشيطان

(أعمال ١٩ : ١١— ٢٢)

وصل جهاد بولس إلى ذروته. لا شكّ في أنّ دروسه العامّة التي كان يلقيها في قاعة تيرانوس ، وازدياد نفوذه وامتداده في المنطقة ، وصفاء طبعه تركت في نفوس حكّام أفسس السياسيين أبلغ الأثر. والدليل هو أن الكثيرين من متنفذي آسيا النواب والمدراء كانوا على صداقة معه. حتّى أن أمين سرّ البلدية كان يستلطفه. لاتصال الرسول الودّي بالرسميين والحكّام وببعض الوثنيين الذين يتّصفون بتفكير سامٍ مغزاه العميق التعليمي فالمسيحية ليست ديانة عمّال. إنّها ديانة جامعة شاملة تستهدف كلّ طبقات المجتمع وتخاطب كلّ العقول ولا تخشى الفكر. فالفكر كلّما سما اقترب من نبعها ، وكلّما تحرّر أدرك

روعتها وعرف أنّها الوحيدة التي يمكنها أن تخاطب البشر بثقة المطمئن الواثق برسالته. إنّها تستهدف التأثير على هذه الطبقات المفكّرة لتصحيح اتجاهاتها، لكن الأساس هو محبّة وثقة الشعب البسيط غير المفسود وستبقى محبّة وثقة الشعب البسيط الأساس الأكيد للديانة الحقيقية التي ستحتضن العالم كلّه. إنّ صداقة متينة مع أقوياء الأرض واغنيائها يمكنها أن تقود الكنيسة إلى ناحية روحية، قد تجعلها غريبة عن قلب الشعب. الشعب يملك قابلية عظمى لسماع صوت الرّاعي الصالح الحقيقي إلّا أنّه يملك سماعاً عظيماً يمكنه أن يميّز به كلّ شواذ مهما دق. كان بولس يرتجف خوفاً ويحترق فرقاً من أن يكون سبباً موحياً بمثل هذه التأثيرات.

في ذلك الزمان كان المشعوذون والخدّاعون من الوثنيين يمتصّون الشعب مستغلّين بساطة إيمانه بالعجائب. لا يستبعد أن يكون أبولونيوس تيانفس، الذي شاهدناه في أثينا (إنسان خليط من الحماسة والشعوذات) في أفسس(٣٣)، وكذلك المنجّم الشهير فطفيليوس الذي تمكّن أن يؤثّر على نيرون تأثيراً مدمّراً(٥٠)، وقد منحت أشفية «المخلّص اسكوليبيوس» لقطيع كامل من الكهّان المضلّلين والمجوس زاداً غنياً. كانت أفسس مدينة كثر فيها السحر الأسود والتصوّف والديانات السرية التي قادت الكثيرين من الروحانيين «إلى أعماق الشيطان» (رؤيا ٢، ٢٤). هنا نما فرع خاص من السريّة البابيروس السحري، والأدب الرخيص المشهور والمعروف في كلّ العالم باسم «رسائل أفسسية» كان على بولس في عالمٍ له ميل عظيم للسحر والشيطانية كهذا العالم، أن يترك مواهب الروح القدس القوية تسطع كثقل مضاد والظروف كانت تدعوه لتقاوم قواه الروحية العميقة هذه السطوح الخطرة. إنّ رؤساء السحر الأسود صدموا بالقوة الروحية التي كانت تصدر عن الرسول والتي دلّت على إمكانيّات كبرى بالنظر لما قامت به من أعمال في أفسس. ما عجز أن يفعله الوعظ حقّقته براهين الروح والقدرة كشفاء المرضى وطرد الشياطين. في الوثنية القديمة كما في بلاد البشارة اليوم يحتاج البشر إلى المحبّة والرحمة وحالتهم الروحية تثير الحزن والأسى. مقدّسات اسكوليبيوس كانت تعجّ بالمتألّمين من أبناء البشر والبشر يركعون أمام الشعوذات التي تخاطب السرّ الخفي في أعماق الإنسان. يحبّ الإنسان أن يتمسّك بوهمه وأن ينقاد وراء الخرافات وكثيراً ما تتراجع بعض الحالات العصبية أمام يقظة نفسية عامة تضع حداً للوهم، إنّ متحف سالونيك يشير إلى عظم تأثير السحر على قلوب البشر آنذاك.

المسيحية وحدها أمسكت الشرّ من أصوله وتغلّبت على السبب الأساسي. تغلّبت على الضرر النفسي والخلقي وقضت على تحجّر النفس.

عندما كان بولس يجتاز الطريق، كان المرضى والعرج والبرص وقد تآكل منهم اللحم وجرى القيح من جراحاتهم، يفترشون جنباتها مادّين أيديهم أو البقايا من هذه الأيدي طالبين الشفاء وكان بولس يشفيهم باستدعاء الروح القدس دونما أجر إلّا ذكر اسم الرب يسوع وتمجيده. «مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا» كانت شهرته كمجترح للعجائب عظيمة وكان النّاس يذهبون إلى بريسكيلا دون معرفة بولس ويطلبون منها ثيابه الدّاخلية أو بقايا من ثيابه ومناديله وأي أثر منه، وكان شديدو الإيمان من مستمعيه يسرقون منديله ليضعوه فوق مريض[٥٦]، وكانوا يخرجون الشياطين باسمه، وكان اليهود منذ القديم يتّخذون صبغة المعزّمين وكان المعزّمون من اليهود يطوفون كلّ المقاطعة وقد تحدّث عنهم المسيح (متّى ١٢، ٢٧، لو ١١، ١٩). وفي العصر الثّاني كان هؤلاء يطوفون من مكان إلى مكان. (متى ١٢ : ٢٧، لو ١١، ١٧)، (يوستينوس، حوار ٨٥)[٦٣]. إنّ أفضلية هذه المشاهد غير المسيحية وجاذبيتها المدغدغة سببت حادثاً مشيناً يسرده لوقا بطريقة نكتة ساخرة. إنّ أولاد سيكاوي أحد رؤساء كهنة اليهود شكّلوا فرقة من المعزّمين فأرادوا أن يخرجوا الشياطين علانية أمام الشعب، وكان المسوك بالشيطان يسخر من محاولتهم فوقف الشعب منهم بسبب ذلك موقفاً عدائياً فأرفت شهرتهم لجهلهم على الخطر والضياع، جرّبوا وهم في هذه الحالة من اليأس أن يلجأوا إلى ما كان يلجأ إليه الرسول ستراً لخزيهم وعارهم فنادوا قائلين (مر ٩ : ٣٨. لو ٩ : ٤٩)، «عزمت عليكم بيسوع الذي يكرز به بولس» فأجابت الأرواح الشريرة «إني أعرف يسوع وبولس أعلم من هو أمّا أنتم فمن تكونون، ثمّ وثب عليهم الرجل الذي كان به الروح الشريرة وتمكّن من معزّمين منهم وقوي عليهما حتّى أنّهما هربا من ذلك البيت عريانين مجرحين». كان هذا نصراً لبولس وكان اسم يسوع على ألسنة الجميع وكان يذكر باحترام وتكريم، وظهر أن عجائب بولس لم تكن من نوع السحر بل بقوّة المسيح الذي في السموات، إنّ مصارعتنا ليست ضدّ اللحم والدم بل ضدّ الرئاسات والسلاطين وولاة هذا العالم، عالم الظلمة والأرواح الشريرة حتى إذا أتممتم كلّ شيء تثبتون (أفسس ٦، ١٢).

كان اسم يسوع ينتصر في كل الطرقات. إنّ ما نبع من الأشياء ذاتها يوازي بأثره مئة

عظة ، يا لقدرة الحقيقة ! لاحظ بولس ذلك من ازدياد عدد مستمعيه. كان البشر يعتقدون بأن هذا الإنسان العجائبي العظيم كان يتشح قوة عليا وأنّه كان إنساناً إلهياً وكان وفقاً لتفكير الأقدمين مرسلاً من السماء ومزوّداً برسالة إلهية وقوى ربانية. يا لرنة اسم يسوع عندما كان يلفظ هذا الاسم ! كانت رنّته تختلف عن تلك الرنّة التي كانت تطلقها ألسنة المعزّمين أصحاب المصالح. كانت تخرج من فمه كأن آلافاً من الأصوات تطلقها وترددها. وعندما نادى فيما بعد قائلاً باسم يسوع تنحني كلّ ركبة ممّا في السماء وممّا على الأرض وتحت الأرض وكلّ لسان يعترف بأنّ الرب يسوع المسيح هو في مجد الله الآب » (فيلبي ٢ ، ١٠ — ١١) انتابت الحاضرين رعدة من خشية هزت عظامهم فآمن الكثيرون من الحاضرين وارتمى الواحد في أثر الآخر راكعين ينادون « استدع يا بولس المسيح لعوننا ». إنّ هذا التأثّر النفسي ، هذا النوع من الشعور بالتوبة سبّب توبة علانية إجماعية. كان بولس ، وهو الخبير بأعماق النفس والدّارس العميق لها ، يعرف هذه الاشياء كلّها ، حاول كثيراً تهدئة البشر وتوجيه ارتعاشهم غير النيّر إلى الطريق القويم. كان الجمع يدفعونه حتى قادوه إلى السوق حيث جمعوا كلّ الرقوق التي تحمل أقوالاً سحرية وأضرموا فيها النار فنجا بعض الرقوق صدفة (لوحة ٢٢) [٢١] ، لقد شعروا بعد عملهم هذا أنّ خطاياهم قد غفرت. يستدلّ من تقديرات لوقا ان الحريق كان هائلاً وأنّ الخسارة كانت جسيمة يقدّرها لوقا بخمسين ألفاً من الفضة أي ما يعادل ألف وسمّاية ليرة ذهبية. إنّ هذا الحادث يدل على أن الوثنية أخذت تتراجع أمام نور الإنجيل. مرّة واحدة تكرّر هذا الحادث ، حدث ذلك بعد ١٤٥٠ سنة في ساحة فلورنسا تحت تأثير موعظة سافونارولا الأخّاذة.

الفرق الأساسي بين الديانة الطبيعية والديانة الكشفية يصبح هنا واضحاً ملموساً. الشعوذة والسحر هما من الميزات التي تتميّز بها الديانة الطبيعية النّابعة من أعماق حدس النفس البشرية. هذا الميل كائن في دم الشعوب القديمة وخصوصاً الساميين والفينيقيين في العصر الكلاسيكي الإنساني ، في القرن الثّامن عشر حلموا بصورة مثالية للديانة اليونانية ، وقد عبّر عنها شيلر أصدق تعبير في قصيدته « إلهة اليونان ». إنّ الروح اليونانية كما نعرف اليوم جمعت المتناقضات الهائلة أي أنّها جمعت مع العنصر الأبولوني المشرق العنصر الديونيسي القاتم. كان اليونانيّون يعبدون آلهة السماء وفي الوقت نفسه يعبدون آلهة الظلمة والآلهة التي تحت الأرض. كانوا يعبدون علاوة على الآلهة الخيّرة القوى المخيفة التي تحت الأرض ، الهة الخصب والدم والموت والدر ، قوى لها أحياناً شكل نيّر مفرح وأحياناً شكل مظلم شيطاني.

إنّ ديانة ديوس البدائية الوحدوية كانت تقاوم بصعوبة تسلل عبادة وتأثير عشتروت الآسيوية الفينيقية. إنّ أرتيمس أفسس هي الدليل على أنّ بعض الآلهة اليونانيين المعروفة المعينة اكتسبت ميزات غير يونانية، ميزات آسيوية. ديونيسيوس يكشف لنا إمكانات روح اليوناني السديمي المظلم ويكشف لنا عن الاندفاعات المخيفة القائمة في زوايا النفس البشرية بصورة أخّاذة. في زوايا النفس صور مشرقة للفرح وصور سوداء مخيفة.

ما هو سرّ تأثير بولس على البشر؟ إنّها قوّة شخصيته المتلاحمة، حياته الخالية من كلّ أنانية، التفاف هذه الشخصية حول المسيح، انطلاقه من المحور الإلهي، انطلاقه من النور لإشعاله في النفوس المظلمة جعل منه قوة جاذبة للنفوس. هناك نوع آخر من السيطرة على البشر. إنّها سيطرة الشيطان الخفي، سيطرة القوى التحتانية، سيطرة القوى الشيطانية التي تقود إلى أعماق ابليس. إنّها سيطرة أبناء السديم تظهر في عصور سديمية تجر وراءها من هم كأبولونيوس تيانفس، تجر وراءها كلّ الإرادات الضعيفة، تجرّ وراءها البعيدين عن الله الذين يحبّون أن تستقلّ نفوسهم عن كل ما هو إلهي. تاريخ الديانات يعطينا أمثلة مدهشة حول هذه المواضيع.

كان بولس عارفاً النفس البشرية بأعماقها وكان يعرف أن هذا الحماس لا يمكن أن يدوم طويلاً. إنّ كلمة أصلبه أصلبه جاءت بعد كلمة أوصانا. انبعثت من حول بولس صيحات من الحماس دلّت على عبادة حقيقية، إلّا أنّ بولس كان ذكياً إلى حدٍ لم تخدعه صيحات الجماهير الحماسية هذه ولم يترك رائحة البخور تدخل إلى نفسه لتسكرها. عرف أنّ القوى التحتانية تجنّدت ضدّه. الشيطان ليس نتيجة لخيال كخيال دانتي. إنّه حقيقة قاسية. رسالة قورنثية الأولى التي كتبها في هذا الوقت تقريباً ورسالته الثّانية التي كتبها على أثر الفورة الشعبية تظهر لنا الصورة بشكل مختلف في العصر الذي يلي عابداً للرب بكل تواضع وبدموع وبلايا (أعمال ٢٠، ١٩). إنّ موجاً من الآلام والأحزان ينهال فوقه فيخال أنّ حياته قد ضاعت وأنّ حياة الآخرين قد فرغت من جدواها. في رسالته إلى أهل أفسس وفي أعمال الرسل نجد المفتاح الذي يفتح لنا باب الدخول إلى مفهوم أي آلام هي آلامه. كان يشعر بأن القوى التحتانية تعمل ضدّه في الخفاء، أرواح شريرة على درجات مختلفة احتجت في وحدة انقضّت بقواها عليه. هذه مظاهر معروفة في حياة القديسين إذ لا يوجد

قديس من القديسين إلّا ولعب الشيطان دوراً في حياته ، والذي لا يقبل بوجود الفعل لا يؤمن حقيقة بإله شخصي ، لا يملك إيماناً من خبرته الخاصة .

إنّ قمة حياة بولس في المسيح هي قمة آلامه من أجل المسيح . ما دام يستطيع أن يكتب إلى أهل قورنثية « حتّى هذه الساعة نجوع ونعطش ونعرى » (١ قور ٤ ، ١١) ، فإنّ حياته تعني حياة فاقة كبرى ، إنّ فقراً كهذا الفقر كان شيئاً غير عادي بالنسبة لمواطنيه النجلاء . كان بولس يعمل على قدر ما كان يسمح له عمله البشاري . كانت حراثة النفوس وعمله الرعائي والمراسلة مع الكنائس شغله الشاغل .

يفاخر بولس بفاقته لكن هذه المفاخرة تبوخ أمام اعتزازه بخدمته للمصلوب [٥٦] . كتب آنذاك إلى أهل غلاطية « حاشا لي أن أفاخر إلّا بصليب المسيح ربنا يسوع » (غلا ٦ ، ١٤) . في رسالتيه إلى أهل قورنثية ترك لنا أربعة جداول كاملة من العذابات . إنّي أظنّ أنّ الله أبرزنا نحن الرسل كآخر النّاس كأنا مجعولون للموت .. بمشهد من العالم والملائكة والبشر .. صرنا كأقذار العالم وكأوساخ يستخبثها الجميع » (١ قور ٤ ، ٩) . تعلم بولس ان يتم رسالته بالعذاب من معلّمه . كان كلّما أراد أن يذكر آلام المسيح في مواعظه كان يكشف على منكبيه حتى تظهر الآثار الحمر من جرّاء الجلد والضرب فيراها المستمعون ، وكان يقول بكلّ هدوء إني أحمل في جسدي سمات المسيح (غلا ٦ : ١٧ ، ٢ كو ٤ : ١٠) ، كما أنّ العبيد كانوا يحملون في أعناقهم اسم سيّدهم كذلك كان بولس يحمل باعتزاز آثار سيده السماوي [٥٦] [٢٧] .

يعتبر بولس أن أرهب شيء صادفه في أفسس هو مصارعته للوحوش (١ قور ، ١٥ ، ٣٢) . بعض الشراح أعطوا لهذه العبارة تفسيراً رمزياً وبعضهم تفسيراً حرفياً لشيء وقع حقيقة كما تصفه « أعمال بولس » بصورة رومنطيقية [٨] ، يقول وايزاكر أن هذا ليس بصورة ، إنّه حدث . لو لم يكن الأمر كذلك . لو لم يكن الأمر صراعاً بين الحياة والموت لما عنى هذا التشبيه شيئاً . الملعب الذي أعدّ للمباراة الرياضية ولمصارعة الثيران ، والمصارعات الفردية كان حديثاً . حتّى اليوم يرى المرء عناوين فوق حجرين مربّعين تشيران إلى أن المكان الذي كان يجلس فيه المتفرّجون قدم إلى أرتيمس ونيرون ولا تزال الحظائر التي كانت تقيد فيها الوحوش « وحوش ليبيا » كما تسمّيها العناوين . يصور الرسول صراعه الروحي في أفسس كأنّه صراع مع وحوش ضارية . من المستبعد أن يكون بولس قد قدم للمصارعة مع

الوحوش وهو الروماني، كان لا بدّ أن يجرّد من مواطنيته الرومانية قبل أن يلقى به في معمعة الصراع وأن يجرّد من حقوقه السياسية[٥٠]. إنّ صراعه كان مع بشر لهم ميول الوحوش الضّاربة وطباع النمرة الشرسة. في رسائل اغناطيوس أسقف أنطاكية وتلميذ بولس المخلص في كلّ حياته يصف حالته في السفينة التي أقلته من سوريا إلى رومية فيقول: «كنت أصارع الوحوش في طريقي من سوريا إلى رومية في البر والبحر والليل والنهار مربوطاً بين عشرة فهود». هذه الصراعات مع البشر كانت أشدّ وأقسى من الصراعات مع الوحوش. الصراع مع البشر فيه مهانة وعذاب وعري وشتم واضطهاد. لا أريد أن تجهلوا ما أصابنا في آسيا (١ قور ٤، ٩). بعض الشراح يقولون بسجن بولس في أفسس (٢ قور ٦: ٥، ١١: ٢٣)[٧٤]. في رسالته إلى أهل رومية(١٦، ٤) يقول إنّه مدين بحياته إلى أكيلا وبرسكيلا «اللذين وضعا عنقيهما دون حياتي» ويذكر أيضاً «اندرونيكوس ويونيا أقاربي ومشاركي في الأسر». هناك تقليد يشير إلى سجن بولس في كوريسو ويسمون هذا السجن سجن بولس. في الواقع إنّه سجن روماني.

يمكن أن نتصوّر عذابات بولس ونقدرها من صراخات نفسه العميقة ورغبته في التخلّص من الحياة. أن يحبّ هذا المكافح المجاهد الذي لا يكلّ، أن يحبّ التخلّص من الحياة فذلك يعني أنّ العذابات حطّمته وأرهقته. عندما يجلس ويصف أربع مرّات عذاباته للقورنثيين المتكبّرين المحبّين للشقاقات، عندما تفيض آلامه معتزاً بها، يجب أن يكون المرء أكثر من ثقيل السمع حتى لا يستطيع أن يسمع وسط هذا الاعتزاز السخرية السقراطية هذا الميراث اليوناني الذي صاحبه. (٢ كو ١: ٨— ٩).

الآلام النفسية التي قدمها له أبناؤه الغلاطيون والقورنثيون الأحبّاء زاد في شدّة آلامه وقبضانها. فاض عقله وروحه بالألم عندما رأى «كمهندس حكيم للرب» أن ما عمله طوال حياته في العذاب والألم أشرف على خطر الضياع بسبب الأعمال الشريرة الماكرة التي كان يقوم بها أخصامه اليهود. الهجران والوحدة يضاعفان الشعور بالألم والعذاب. في هذه الفترة بالذّات كان بولس وحيداً بعيداً عن أصدقائه المخلصين. كان تيموثاوس وتيطوس وأرسطوس في بلاد اليونان ومقدونيا لذلك لا نستغربنّ إذا رأينا يأساً وقنوطاً في حياة بولس. في قورنثية شعر بولس هذا الشعور واستولى عليه نوع من اليأس وكان يأرق في سريره متقلّباً وسط عالم من العذابات تملأ نفسه السويداء، إلّا أنّ صوت مخلّصه كان يناديه ويقول «لا تخف في هذه المدينة لي شيء كبير» كان يؤمن بقدرة المخلّص ويعتقد أنّه يستطيع

أن يحول الميت إلى الحياة. لم يفقد بولس رجاءه لا في قورنثية ولا في أفسس، ومن أعماق الألم والعذاب خرج رجل أفسس ظافراً ومنادياً «نؤمن لذلك نتكلم لذلك لسنا نفشل وإن كان إنسانا الظاهر ينهدم فإنساننا الباطن يتجدّد يوماً فيوماً» (٢ قور ٤ : ١٣، ١٦). أولئك الذين يملكون إيماناً كإيمان بولس يمكنهم أن يتكلّموا كما تكلّم على عذاباتهم. كانت العذابات في أفسس تقوّيه وتعضده وتجعله الأصوات السماوية واقفاً على قدميه وتدعوه إلى عمل جديد (اع ١٩ : ٢١) باتجاه مقدونيا وآخيا ورومية «بعد أن أكون هناك على أن أرى رومية» كان الروح يدعوه إلى عاصمة العالم وهذا ما جعله يقف وسط الأحزان صامداً.

٤١. إنّكم دعيتم إلى الحرية

(الرسالة إلى أهل غلاطية)

وقع ما كان بولس يخشاه وينتظره. لقد أدخل أخصامه المسيحيون من أصل يهودي في روعة الانسجام نوطة شاذة. كانت الأخبار تترى عن نشاط هؤلاء وسط الكنائس التي أسسها شمال جبل طوروس وكانت المعلومات عن نشاطهم التبشيري المضاد تتوالى.

كان بولس يرسل تلامذته في سفرات بعيدة لتقصي الأخبار عن حالة الكنائس التي أسسها. لعلّ تيموثاوس نقل إليه الكثير من الأخبار عن وطنه بعد عودته أو أن التجّار الذين كانوا يأتون من غلاطية إلى معمل أكيلا قصوا عليه الحوادث الأخيرة بصورة حيّة وقالوا: إنّ وعّاظاً غرباء محترمين، جاءوا من أورشليم، يحملون رسائل توصية من البطانة، التي كانت تحيط بيعقوب، وبشّروا في بيوت البارزين من الإخوة في وقت الخدمة الإلهية، وقالوا إنّ بولس بشّرهم بإنجيل غامض[٩٦]، وإنّه ليس رسولاً حقيقياً، وإنّه لم ير المسيح، وإنّه بحاجة إلى أن يتعلّم الإنجيل من الرسل الأولين الذين يحقّ لهم وحدهم أن يتّخذوا القرارات وإنّه لم يلاق في أورشليم الحظوة التي كان يرجوها وإنّه أخفى عنهم الشيء المهم أي: إنّ على المسيحيين الذين هم من أصل وثني أن يطبّقوا شريعة موسى وقد سكت عن هذه الحقيقة ليعطي للإنجيل مضموناً يتلاءم مع عقلية الوثنيين، وهكذا يتمكّن من جمع

الأنصار حوله. وإنّه غير ثابت ولا مستقر فيعمل حيناً هذا وحيناً ذاك. في ليسترا سمح بختانة تيموثاوس ليمالئ اليهود مع أنّه لا يتكلّم قطّ على الختان مع الوثنيين قالوا أيضاً إنّهم أرسلوا من أورشليم ليبشّروا بالإنجيل الحقيقي بدلاً من الإنجيل المشوّه.

اضطرب بولس جداً. إنّ كنيسته الأولى التي أسسها بالآلام والعذاب تلوح كأنّها تسير نحو الضياع. الأفضل أن يرحل سريعاً مع سعاة البريد ليلتقي بأحبّائه الغلاطيين، هؤلاء الفتيان بعيونهم الواثقة وقلوبهم السريعة الاضطراب. إلّا أنّ اهتمامه بكل الكنائس وإقبال البشر المتزايد منعاه من تحقيق ما يصبو اليه. ترى من يكون هؤلاء الذين يثيرون هذه الاضطرابات؟ لا شكّ في أنّهم رسل أولئك الإخوة «الكذبة الدخيلين» و«الغيورين» الذين انطلقوا للدفاع عن الشريعة الموسوية بعد أن أخفق كاليغولا في خرب الديانة اليهودية وهيكل يهوه (فلافيوس يوسيفوس التاريخ اليهودي ١٨، ٨)، عاملين على إبعاد كلّ مسيحي دخل الكنيسة دون أن يحقّق الشريعة الموسوية. وقد استعملوا الكنيسة الفتية شعاراً لأهدافهم، وحاولوا فرض نوع من الضغط حتّى على الرسل. كانوا يثيرون الإضطرابات في الكنائس والبيوت التي كانت هادئة مطمئنة وكانوا يسممون النفوس بحجّة الجهاد من أجل الشريعة حتّى صار المسيحيّون «ينهشون ويأكلون بعضهم» (غلا ٥، ١٥) وكانوا قبلاً يقومون بأعمال الروح القدس. لو كانت الحرب ضدّ بولس لهان الأمر، ولاستطاع أن يتحمل آلامه. لكن الحرب استهدفت نفوس المؤمنين، استهدفت الأرواح النقية بالإيمان لسلبها هذه الكنوز، لسلبها الإيمان ذاته والحرية في المسيح. عندما تطلّع بولس إلى الماضي ونظر إلى ما قدّمه إلى هذه الكنائس، رأى «المواهب الروحية» تلمع كشريط روحي برّاق رأى مؤمنيه الجدد يقومون بالصلاة ويشكرون بحماسة المسيح وكانوا يتكلّمون بالألسنة ويجترحون العجائب ويشفون المرضى. والآن! أيجوز أن يتخلّى هذا الوهج العظيم، وهج الحياة الجديدة عن حقيقته ويفسح في المجال لشريعة جافة باردة؟ أما أن نعتبر بولس ثرثاراً يضخّم الأمور وإمّا أن نكون دون المستوى لإدراك الخطر المحدّق الذي يراه ويتصوّره [٣٥ آ]. لا شكّ في أنّ جوهر المسيحية كان في خطر وكان الميزان يتأرجح. أكانت المسيحية ديانة طقسية كديانة يهودية الانحطاط وديانات الوثنية السرية أم لا؟ هل ستبقى هذه الديانة التي ابتدأت كربيع أخّاذ في جبال الجليل أم أنّها ستدوم دوام هرطقة الأفيونيين، هل سيبقى ميراث المسيح محلّقاً فوق جناح الروح فوق العالم؟ هل سيبقى هذا الميراث نوراً ينير الظلمات الجاثمة فوق صدر الإنسان؟ إنّ الله يحبّ أن نعبده بالروح والحقّ

وإنّه لا يحتاج إلى ذبائح البشر بل إلى قلوبهم وإيمانهم ، وإن ملكوت الله ليست قضية ماذا نأكل أو ماذا نشرب بل «الفرح بالروح القدس» باتحادٍ مقدّس وجداني يجعلنا ننادي «أبا أيها الآب» لهذا جاهد بولس كالأسد في أورشليم وأنطاكية واجتاز الطريق وحيداً يقدّم قرابين دموية وقلبية ما قدّمها أي إنسان آخر. ما عدا المسيح لم يقم إنسان بصراع من أجل الحرية كما قام بولس ومع أنّه تربّى تربية شريعية صارمة وضع الشريعة في مصف العبادات الطبيعية الوثنية ، مع عبادات إله القمر وإلهة الأرض كيفالي ، هذه العناصر المريضة الضعيفة العالمية «هنا فوق هذه الأرض الفريجية تمت أعظم معركة مصيرية . ما حصل في رومية وقورنثية كان خاتمة المعركة» [٩].

كما يدعو القائد أركان حربه قبل أن يبدأ المعركة كذلك دعا بولس كلّ معاونيه إلى أفسس . دعا تيموثاوس وتيطوس وتيخيكوس وتروفيموس من أفسس وغابوس وأريسترخوس من مقدونيا وسوستانيس وأرسطو من قورنثية وغابوس من دارفي وابفراس من كولوسي إلى مؤتمر . كان هؤلاء كلّهم من المكافحين المناضلين . إنّه لشيء عظيم أن يدعو القائد العظيم أصدقاءه لمشاركته في القرارات العظيمة . إنّه لعظيم أن تكون الحرية قاعدة لأركان عظيمة يستوحي كلّ مخططاته من قوة النعمة الإلهية .

هناك دليل خارجي على أنّ الرسالة كتبت في أواخر سنة ٥٤ وبدء ٥٥ . إنّ الرسول يوبّخ أهل غلاطية لأنّهم ضلّوا وعيّدوا «سنة الغفران» وفقاً لجدول الأعياد عند اليهود . يخبرنا يوسف (يوسيفوس ، التاريخ اليهودي ١٥ ، ١ — ٢) أنّ سنة الغفران وقعت سنة ٥٤ ب . م . على هذا الأساس يكون بولس قد كتب رسالته في هذه السنة تقريباً لأنّ الغلاطيين المخدوعين عيدوا وفقاً للطريقة اليهودية .

إنّ الرسالة تظهر شخصية الرسول العنيفة وقد كتبت بأحرف نارية وفي فورة إيمانية أفرغت كلّ ما في صدر الرسول دون توقّف . إنّها من حيث أفكارها الأساسية واستناداتها إلى الكتاب المقدّس وطريقة التعبير مخطّط موجز لرسالة بولس إلى أهل رومية . أمّا من حيث الإندفاعات العاطفية فهي مقدّمة لرسالته إلى أهل قورنثية الثّانية . في الرسالة تعابير وكلمات يفسّرها هوسه المقدس ، وثورته ضدّ أولئك المبشّرين المضلّلين تصل إلى حدّ الهيجان الإيماني . هناك من يطرح رسوليته مطارح الشك ويجعل الخلاص خارج الإيمان .

إنّ رسوليته وفكرته الأساسية عن الخلاص شيئان يتصالبان ويلتقيان ، فالشك في رسوليته يعني الشكّ في كلّ الإنجيل الذي يبشر به .

يدافع الرسول في القسم الأول من الرسالة عن رتبته الرسولية . يقاوم بولس بيديه ورجليه حتى لا يصنّف في الجيل المسيحي الثّاني . المهم ليست معرفة يسوع الأرضي . المهم هو أن الرتبة الرسولية والتسلّح للعمل الرسولي أعطيا للرسل بالكشف وبالأمر الذي أعطاه المسيح السماوي الناهض وبقوة الروح القدس في يوم الخمسين . إنّ بولس لم يأخذ سلطته من أورشليم . إنّه يؤكّد على ذلك خوفاً من أن يقال إنّه أخذها بواسطة الرسل القدماء . إنّ الروح أظهر له أن حقوقه متساوية مع الرسل الإثني عشر . وهكذا بعد أن نزل إلى أعماق وجدانه دحض الرسول كلّ شك في رتبته الرسولية مثبتاً ذلك ببرهان لاهوتي وأعطى لنا بموجبه سرّ المسيح الذي أخرجه من أعماقه بطريقة الكشف والرؤى . هناك شيء عظيم في هذه الثقة الرّاسخة بدعوته . نحن أمام سرّ لا يمكن لأي علم نفس أن يطاله . في الرسالة تتبارى بعض المقاطع بالجاذبية والفوران :

« من بولس الذي هو رسول لا من قبل الناس ولا بإنسان بل بيسوع المسيح والله الآب الذي أقامه من بين الأموات ، ومن جميع الإخوة الذين معي إلى كنائس غلاطية » اسمحوا لي أن أدخل في الموضوع فوراً . لقد حيّرني انحداركم السريع وأدهشني تحوّلكم عن إنجيلي إلى إنجيل مختلف تماماً . إنّي أنا الذي قدتكم إلى المسيح ، ومع ذلك ، تركتم نفوسكم للمضللين فجرفكم الضلال . الإنجيل الذي يبشرونكم به إنجيل لا وجود له . هناك بشر يتلاعبون بالعقول ويشوّهون الحقيقة . كلّ بشارة غير بشارة الإنجيل الذي بشّرتكم به ، حتّى لو كنت أنا قائلها أو الملائكة ، بشارة يدينها الله . اغتابوني وقالوا إنّي مداهن مهووس أحبّ الشهرة البشرية واني لا أعمل من أجل الله ، وإني على مكرٍ لم أذكر الختان الذي تفضلونه فأخفيت عنكم المهم . أتعتقدون بأنّي مهتمّ بما يقوله الناس عني؟ لو كنت أهتمّ بذلك لتركت خدمة المسيح ، هذان الأمران لا يتّفقان معاً . إنّي عبد المسيح أرتبط به بمحبّة وبهوس .

يا إخوتي ، أريد أن أعرض للمرّة الثانية جوهر إنجيلي ومصدره ، إنّه ليس عملاً فكرّ فيه إنسان . لم أذهب إلى مدرسة ولم أتعلّم على يد أي إنسان ولست تلميذاً للرسل السّابقين . أخذت الإنجيل بالكشف المباشر . يتهمونني لمسلكي السابق ، ويشكّون فيما إذا كان المسيح

قد ظهر لي خارج دمشق ، وجعلني رسولاً لأبشر في الأمم . إنّهم يثيرون القضايا المختلفة لأغيّر رأيي . ترى من غير إرادة الرب؟ إني أدرك بالنتيجة أنّ الله اختارني وفرزني من بطن أمّي ، دون أن يتقيّد بإرادتي واعتبرني أهلاً ليكشف لي ابنه . من تلك السّاعة قررت . لم أذهب إلى أي إنسان لأستشيره . حيث يتكلّم الله يصمت الدم والجسد . لم أحاول مرة واحدة أن أتّصل بالرسل الذّائعي الصيت في أورشليم .

بعد هذا يسرد بولس بحرارة كليّة الحوادث المعروفة لدينا . يتكلّم على بقائه في الصحراء العربية وعلى الظهور الأولى في دمشق وسفره إلى الأراضي التي ولد فيها ومفاوضاته في مجمع الرسل حول ختانة تيطوس والإعتراف ببشارته من قبل الرسل . والموافقة بوضع الأيدي ، على توزيع مناطق التبشير . كلّ هذا برهان كاف على أن تعليمه ودعوته مساويان ومعادلان لتعاليم ودعوة الرسل الكبار . وكبرهان قاطع ، على أنّ تفكيره عن الخلاص ، مستقل كلّ الإستقلال ، يذكر جدله الكلامي مع بطرس فيصل ببرهانه الآتي إلى ذروته «لو استطاع الإنسان بتطبيقه بعض الطقوس الشريعية أن يحصل على الخلاص كجائزة لكان موت المسيح باطلاً ولكان الله الذي ضحّى بابنه مخطئاً .

يأتي بولس الآن الى القسم الجوهري فيعالج موضوع التبرير العظيم ، الخلاص بالإيمان . نلاحظ هنا مسبقاً دفعاً لتأويلات أوجدتها البروتستنتية أنّ بولس لا يلتجىء إلى أفعال الإنسان الخلقية بعد خلاصه ولا يعني الحياة في حالة النعمة . إنّ بولس كما يتبيّن من مجمل تعليمه الخلقي يحترم مساهمة الإنسان ويعتقد أن المسيحي يتمتّع وهو في حالة النعمة بالنعمة وعلى هذا الأساس يجزى الفعل الخلقي[٣٦] . لا يعلّم بولس في أي مكان شيئاً سلبياً ولا يتشيّع . إنَّ اهتمامه أول اهتمامه بالتبرير الأول بولادة الإنسان من جديد لتتمكّن كلّ نفس من تحقيق خلاصها وليكون الخلاص في كلّ نفس كاملاً للصعود من حالة الخطيئة والعبور إلى حالة النعمة وهذا خاصة من خاصة الله وحده ويرتكز على ذبيحة المسيح التكفيرية بدون حاجة إلى أية مساهمة بشرية مستقلّة ، وبدون أي فعل خلقي مستقل يمكنه أن يشكّل سبباً أو مقدّمة للخلاص إلّا فعل الإيمان ذاك الموحي ، الإيمان النابع من المحبّة والتوبة .

ببرهانين قويين يجتثّ بولس أصول نظرية خصومه . برهان يخصّصه للمسيحيين من أصل ثني ، وبرهان للمسيحيين من أصل يهودي الذين أخذوا الكتاب كأساس . ذكّر

المسيحيين من أصل وثني بخبرتهم الداخلية، بماذا شعروا عندما آمنوا. هل سمعتم شيئاً عن الشريعة الموسوية؟

عندما صرتم مسيحيين وأخذتم (بالمعمودية والمسحة) الروح القدس الذي انسكب فوقكم، ألم يعطكم إمكانات نبوية وقوّة لتشفّوا المرضى وإمكانية معرفة الأفكار؟ أمدينون بحماسكم للمسيح وبأعمالكم الخلقية الحالية لتطبيق أحكام الشريعة الحرفية؟ ألم أصف لكم هيئة المسيح المخلص وصفاً حياً حتّى خلتم أنّكم تنظرون صلبه بعيونكم؟ أردت أن أعرف شيئاً واحداً. مَن سحركم؟ ألا تُعتبرون من الذين فقدوا عقولهم بانتقالكم من طريق المسيح وتخلّيكم عن حماسكم الإيماني إلى طريق اليهودية بأوامرها المريضة ؟ تربّيتم في المدرسة العليا التي يعرف فيها المرء الله والمسيح. عرفتم الله وعرفكم الله، وتريدون الآن أن تعودوا إلى «العناصر» وكالأولاد الصغار تبتدئون التعلّم من جديد الحروف الأولى. أتريدون أن تصابوا بما تصاب به مياه الجبال البلورية التي تنحدر نازلة بصورة أخّاذة ثم تضيع فجأة في المستنقعات فقيرة بدون ثمن؟ أين ضاعت تلك الأوقات المغبوطة من محبّتكم الأولى للمسيح؟ أين ضاعت تلك الثقة المتبادلة بيننا؟ كيف تحملتم ثقل عاصفة الاضطهاد الأولى وكنتم فخورين لأنّكم تتحمّلون ذلك من أجل المسيح؟ من أعطاكم قوّة التحمل؟ أضاعت كلّها وصارت بُطلاً؟ كلا، من عاش كما عشتم لا شيء باطل بالنسبة له. كلّا يا أحبّائي الغلاطيين. إنّ الإيمان الذي يستطيع أن ينقل الجبال والذي أوقد ناره في داخلكم هو الذي جعلكم تتحمّلون ما تحملتم وتكونون ما كنتم عليه.

البرهان الثّاني استقاه من التوراة من التفسير الرمزي لشخصية ابراهيم العظيمة المحبوبة عند الشعب اليهودي في العهد العتيق فهو المثال والجد الروحي لكل المؤمنين. الوعود التي أعطيت له لا تتعلّق بنسبه العرقي ولا بالإرث وقرابة الدم. الخلاص الذي وعده به الرب لم يكن امتيازاً لعرق بل هبة غنية لكلّ البشرية، هبة عالمية على قدر عالمية الكنيسة. بابراهيم وضع الرسم الأول لطريق الخلاص الوحيد في كلّ العصور وكان هذا الرسم الإيمان. جاء موسى بكتبه الشريعية بعد ٤٣٠ سنة كاملة. كان على موسى أن يعمل مع شعب متوحش بسبب طول إقامته بين الشعوب الوثنية وكان عليه أن يثقّفهم من جديد تحت ظل الشريعة. كانت الشريعة ذات طابع انتقالي خططه الله وذات قيمة تربوية للسنين التي خلت من طابعها الروحي. أما الآن فقد حان كمال الزمان. تربت البشرية في المدرسة الابتدائية فصارت

مقبولة في مدرسة يسوع العليا حيث لا فرق بين يهودي ووثني ويوناني وبربري وسيد وعبد ورجل وامرأة.

بعد أن رأى بولس أنّه طرح بسلاحه خصومه وألقاهم أرضاً تحوّل فجأة إلى إنسان يذوب عطفاً وحناناً تاركاً كأم عواطفه تنساب بحرية. عليَّ أن ألدكم من جديد كأمٍ وأن أتحمل ألم الولادة وأن أغيّر صوتي كالأم عندما تخاطب طفلها. جديرة بالملاحظة رؤية هذا التوفيق بين المتناقضات. عقل فولاذي وإرادة حديدية ورقة مشاعر أمٍ جمعها الرسول فيه كما جمعها معلّمه الإلهي. المسيح يستعمل صورة الدجاجة. لا شك في أن أصدقاء الرسول بقيوا محتفظين بمثل هذه المحبة للمسيح. يتوقّف الرسول عن التلقين حتّى يبدأ هجومه الجديد الأخير.

أتعتقدون أني أجهل الشريعة الموسوية؟ إسمعوا هذه القصة التي سأفسّرها لكم وفقاً لقانون التفسير اليهودي. كان لابراهيم كما تعلمون ابنان، اسماعيل كان ابن هاجر العبدة واسحق بن سارة الذي ولد حسب الوعد الإلهي. هذا المثال صورة للعهدين. العهد العتيق، جبل سينا الذي يلد العبيد في العالم وصهيون الجديد الذي يلد أولاداً لله. هاجر تمثل جبل سينا أورشليم العتيقة، الأم العتيقة التي لا تريد أن تسمع شيئاً عن الحرية وسارة صورة أورشليم الجديدة المحرّرة من ضغط الشريعة وهي أمّنا الروحية، أولئك الذين يخدعونكم هم أولاد العبدة أما أنتم فأولاد الحرة، أولاد مواعيد الله. التاريخ يعيد نفسه، اليوم كالأمس. ابن الحرية، الإنجيل الصحيح يضطهده ابن العبدة، ديانة الشريعة. قولوا لمضليكم إنّهم أولاد العبدة وإنّكم أنتم أحرار المسيح هو الذي وهب لنا هذه الحرية.

أهناك ما هو أجمل من الإنجيل. لا يمكن أن تكون هذه الحرية بدون لجام كما يتهمنا خصومنا. بحرية المسيح ابتعدنا عن عبادة العناصر والشياطين والقدر والشرائع البشرية إلّا أنّنا خضعنا لشريعة المسيح حيث تخيّم المحبّة. إنّ مضلّليكم يدوسون وصية المحبة ولم يزرعوا بينكم إلا الشقاق. يملك غير ألوف الوصايا، أما وصية المسيحيين فواحدة وهي أن يسلكوا حسب الروح. بقي أن تلتفتوا إلى المسيح حتّى تخرس أعمال الجسد والأهواء عامة وتنوِّر ثمار الروح في شجرة حياتكم. من يزرع في تربة الجسد يحصد الفساد ومن يزرع في تربة الروح يحصد ثمار الروح. في هذه التربة يليق حصاد الغبطة. الختان والقلف شيئان ثانويان. الحياة الجديدة، الخليقة الجديدة هما كل شيء. من يتمسك بهذا القانون يحلّ فيه

السلام ويمتلىء بالشفقة. على البشر أن يتركوا إنساناً رجم من أجل المسيح ولا تزال آثار الرجم بادية في جسده. على هؤلاء أن يتركوه إلى سكينته وهدوئه.

في النهاية ينشد بولس نشيد الصليب ومنذ ذلك الحين أخذت الكنيسة تنشده. الصليب هو السرّ الكبير الذي يجسّد ذروة كلّ شيء يضاد العالم.

إنّ الجراح التي أصيب بها في ليسترا من أجل خدمة المسيح هي شهادة وختم لرتبته الرسولية. لو كانت الرسالة موجّهة إلى أناس يجهلون الحقائق لكانت كلمات بولس كلماتٍ مليئة بالصدأ. لو كانت هذه الرسالة موجّهة إلى كنائس مجهولة لكانت فارغة من كلّ معنى. لكن الرسالة موجّهة إلى كنائس غلاطية الجنوبية التي تعرف مصدر الجراحات. وكيف جُرح وفي سبيل مَن. بدون شك ستلاقي الرسالة أصداءها في قلوب من ولدهم بالإيمان «وهكذا وقف الرسول أمام جيشه الذي ثار عليه كاشفاً على صدره حتّى يروا الجراح من جديد وحتّى يفخروا بقائدهم المجرح. يجب أن يتذكروا تلك الساعات التي جرح بها وأنّه من أجلهم أراق دمه»[(٢٧)] . كما أنّ العبد كان يلتجىء إلى هيكل هيرقليوس متذرعاً بحماية الله ولا يجوز لأحد أن يلمسه كذلك بولس كان يعتقد أن جراحات المسيح التي كان يحملها في جسده كانت درعاً يقيه ويحميه من كلّ خصومه.

للمرّة الثانية يلد بالأوجاع أحبّاءه الغلاطيين في المسيح (٤، ١٩) كانت هذه الرسالة كخطاب ديموستين «عن الإكليل». فكما ذرف الأثينيون دموعهم هكذا حدث عندما وقعت في آذان الغلاطيين كلمات بولس ورأوا الرسالة التي خطتها يد رسولهم المرتجفة. لم تعد هناك اضطرابات ولا تشويشات، لقد اختفى اخصامه وكسحابات من الجراد تفرقوا في الكنائس الأخرى، وسنراهم بعد حين ينشطون في قورنثية.

إنّ الغلاطيين الذين حملوا إلى أنطاكية عاصمة غلاطية الفريجية رسالة الرسول المحبوب كانوا يجهلون أي كنز كانوا يحملون. كانوا يحملون دليل حرية ذات معنى تاريخي عالمي. تراجعت أصداء الحرية المسيحية لأول مرة في فريجيا. في هذا الوقت بالذّات ولد في فريجيا ابن عبدة ولد ابيكتيتوس. هذا الإنسان الذي ولد أعرج، هذا الإنسان الضعيف البنية، هذا الإنسان الذي أُعتق كان يملك روحاً لا تحد اندفاعاتها نحو الحرية. بعد نفي الفلاسفة من رومية في عهد دوميتيانوس جمع في نيكوبوليس حيث أمضى بولس شتاءه الأخير زهرة الشبيبة الرومانية وأرشدهم كيف يمكنهم أن يحافظوا على حرية نفوسهم، في بلاط

الأمبراطور، وبين حاشيته. إذا قارنا تعليم بولس بتعليم الفلسفة الرواقية عن الحرية، فالفرق يبدو واضحاً بين التعليمين°، فكرة أبيكتيتوس عن الحرية هي نوع من النشيد لسيطرة الإنسان الذاتية، الإنسان الذي يعود إلى عالمه الدّاخلي بحرية ظاهرية يناقش ويحاول ويطرح كلّ قيد ويثور على كلّ حصر إلّا أنّه يبقى بعيداً عن التحرر، عاجزاً أن يتحرر من الفجوة القائمة بين فكره وإرادته فيبقى أسير ذاته. أما بشارة بولس عن الحرية فهي نشيد لسيطرة الله على الذات، الذي خلق لنا ملكوتاً أزلياً موضوعياً عن الحرية في المسيح. باتحاد بولس بالمسيح يشترك في عالمٍ أسمى يعطيه القوة بدون تحفّظ، فيعرف ضغط الظروف الخارجية التي تحدّه ويتمكّن من أن يتغلّب عليها كلياً. الحرية التي يعلمها بولس توجه الإنسان إلى جهادٍ لا يمكن تصوره وتضعه في تعارض صحيح مع قوة القدر العمياء لهذا الجيل وللجيل المستقبل. إن بشارة أبيكتيتوس عن الحرية تنتهي بسبب الإرهاق الى خضوع الإنسان الذي يعتمد على نفسه، فيصير أسير نفسه. الفرق الأساسي هو أن الإنسان ليصير حراً عليه أن يحتضن الحرية التي رسمها المسيح. حسب أبيكتيتوس الحرية تحرير ذاتي معذّب، تحرير بالمعرفة وتصحيح الافكار الخاطئة باطباق اصطناعي للعيون أمام الحقيقة القاسية. أما الحرية المسيحية فهي التحرّر من الأنا والإرتباط بالله. حرية الرواقيين المستقلة وحرية الإنسان المعاصر هي ارتباط بسيطرته الذاتية بأناه الضالة الشقية. وحرية المسيحية ذوبان الشخصية الإنسانية في محبة الله. أدرك غوته بعمق، الحرية المسيحية، فوضع على لسان أوجيني الكلمات الآتية (، ٣): «أشعر في أعماقي بالحرية وبجمالها الكلي». تفكك الفكرة الرواقية يظهر في موقف أبيكتيتوس من الموت. أراد أبيكتيتوس بالإنتحار أن يتخلّص من الموت.

لا أحد يستطيع أن ينكر أن في صراع أبيكتيتوس من أجل الحرية الخلقية شيئاً أنيساً، شيئاً مؤثراً، ويصبح أكثر جاذبية عندما نفكّر في أنّ صراعه ينبع من معين إنسانٍ كان فيما مضى عبداً فقيراً يعيش في المنفى عندما تقرأ الأبيات التي حفرها أحد تلامذته بعد مئة سنة من موته فوق صخرة أنافوراي بالقرب من غلاطية والذي شاركه في مصيره نشعر أنّه ترجيع صادق لتعليمه عن الحرية:

«اسمع أيّها العابر. إليك هذه النصيحة فلترافقك في طريقك: أعرف أن الحرّ الحقيقي هو الذي حررته الفضيلة، الحرية البشرية تقاس بإرتباطها بالطبائع الإلهية، الإنسان حرّ في

فكره ، حرّ في داخله ، حرّ في قلبه ، إذا رأيت حريتك في هذه الأعماق فأنت حر ، العبد هو الذي يفاخر بأجداده ويكون قلبه فارغاً. اسمع أيها الغريب. كانت أم أبيكتيتوس عبدة. كان أبيكتيتوس يحلق كالنسر في رابعة النهار ، كان يحلق فوق البشر. حبذا لو جاءنا إنسان كهذا الإنسان ولو ولد من عبدة فقيرة.

الإنسان الذي تحلم به الإنسانية كان قد مرَّ في غلاطية بالقرب من الصخرة التي حُفرت فوقها هذه الأبيات : «بالحرية التي حرّرنا بها المسيح» هذه حرية بولس ، الذي قال : «أعيش لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ». إنّ هذا الإنسان هو أكثر الناس حرية بين الأحرار.

كل حرية أخرى ، للرواقيين كانت أو لأي شخص ، هي هرب من الحقيقة ، هرب إلى عالم خيالي ، لحياة داخلية كاذبة. أدرك أبيكتيتوس عقم بشارته عن الحرية ، لذلك انتهى أخيراً إلى ما انتهى إليه كليانتس في نشيده عن القدر. أراد أن يمر في الحياة ممسكاً بيد جوبيتر. إلّا أن جوبيتر كان صامتاً ، ويده استمرّت ممسكة بالغيوم ولم يستطع إله من آلهة دلفوس أن يقول : «إذا حرركم الإبن فإنكم أحرار في الواقع» (يوحنا ٨ ، ٣٦). [٢٣].

٤٢ . حكمة العالم وجهالة الصليب
(الرسالة الأولى إلى أهل قورنثية ، من الفصل الأول إلى الرابع)

قورنثية ! إنّنا نعرف كيف ومن أيّة عناصر تشكّلت هذه المستعمرة الرومانية ، هذه المدينة التجارية ، مدينة التجار ، والملاّحين ، وكيف بنيت بكلمة واحدة من قيصر بعد مئة سنة من خرابها. قورنثية ! رأينا من أيّة طبقات من البشر تشكّلت الكنيسة المسيحية هناك وكيف نمت وسط الصعوبات الجمّة. قورنثية ! هذا الإسم ، يحمل فوق سطوحه ، عالماً خليطاً ، مليئاً بالمغالطات والمتناقضات ، مليئاً بخبرة الحرية اليونانية ، وتحرّرها ، وبمحدودية شارع جاتو اليهودي ، مليئاً بالحماس الشريف من أجل المسيح ، وبالانقسامات الصبيانية ،

ملیئاً بالمواهب الروحية المقدّسة وبعربدات الأسرار الديونيسية ، مليئاً بالإندفاع نحو المعرفة ، وبالاستعداد نحو التضحية. في وسط هذه العجنة ، في وسط هذا الغليان ، المزبد ، حيث سيولد عالم جديد ، يقف بولس بعظمة وحيداً ، يقف بروحه السامية ، وينظر إلى البشر وإلى أعمالهم المليئة بالأهواء ، لا بعين الاحتقار بل بمحبّة المسيح ، يشاركهم ألمهم وعذابهم وأنينهم ، وكابن الله نزل إلى الأزقّة الفقيرة من المدينة العالمية ، نزل إلى هذه الكتل البشرية المتناقضة مسلّحاً بقلب المبشر الملتهب.

لم يكن في قورنثية قرويّون كما في غلاطية ، ولا سكّان مدنيون شرفاء ، كما في فيلبي. كان هناك عدد من المؤمنين يأتون ويذهبون ولا يستقرّون. إنّ نسيم سينا لم يكن لينسم في هذا المكان. كانت رياح أفروديت الخانقة تنبسط ثقيلة فوقه. اللوحة التي يرسمها بولس ، في رسالته إلى أهل قورنثية ، ليست باللوحة المفرحة. إنّ نقداً موتوراً اتّهم المسيحية بأنّ الأمور ذاتها برهنت منذ البدء على أن انجيل السلام هو كذب. الادعاء هذا ادعاء سطحي ، إنّه مظاهر قوّة تلفظ أنفاسها لأن التقليد المسيحي لم يكن بعد قد تكوَّن. ومع ذلك فقد كانت هناك عائلات مثالية متفانية في مسيحيتها كعائلة خلويس واستفانوس وغايوس. بيد أنّه لا يمكن أن يدرك المرء الحالات الأخرى بدون أن يضع نصب عينيه العمق التاريخي القاتم لحضارة العصر والعمق النفسي المفسود الذي كان قابلاً بصورة غير اعتيادية لكل متعة وغرابة ونشوة ، لقد عرفنا ذلك في أفسس ورأيناه. ما هي اليونانية؟ اليونانية «عقل وقياس» كما يقول شيلر. كانت الكلاسيكية القديمة تعمل وفقاً لهذا المنطوق وكانت تطبق النصف. كلّما تداعت الشخصيات الكلاسيكية تطور ميل مريض لصوفيّة خاصة حافظت على الحيوانية في داخل الإنسان. العنصران الموجودان في الروح اليونانية انعكسا بوضوح على الأسطورة اليونانية وعلى أصل الإنسان من رماد عمالقة التيتان من أولاد الأرض الذين ابتلعوا الإله ديونيسيوس عندما كان طفلاً فصار دم الآلهة يجري في عروق اليونانيين.

إنّ بولس تمكّن أثناء إقامته في قورنثية أن يُبقي الكنيسة في سموها الخلقي وأن يوطّد النظام. مرّت على ذلك أربع سنوات وقد تغيّرت صورة الكنيسة وما كانت عليه ، بسبب العقول الفارغة والتحرر المائع الذي ورثته عن الشرق فخلق حالات كانت مجهولة في الكنيسة. لم تكن هناك مدينة يونانية خالية من الشقاقات والمخاصمات والمحاكمات وعندما

كانوا لا يجلون شيئاً يختلفون عليه كانوا يتحزّبون للمغنين، وللمصارعين، وللرّاقصين، كما كان الحال في الدولة البيزنطية المستعبدة. كانت القضايا الشخصية تتحول إلى قضايا هامة. وهج كاذب من أجل الحرية الخلقية كان يأتي ليحلّ محل الحرية السياسية. قرّر بولس مبدأ الحرية المسيحية بالنسبة لضغط الشريعة الموسوية. كان هذا العمل عملاً جزئياً، لم يكن العالم القديم قد سمع شيئاً عن الحرية الوجدانية دون استثناء الوثنيين أو اليهود. أدرك بولس عمق فكرة أساسية في المسيحية «الحقيقة تحرركم» وقد جعلها محوزاً لمواعظه المسيحية وبهذا صار المعلم العظيم معلماً لأوربا المسيحية.

يا للصراع الجبّار صراع تحصين هذه الحرية ضدّ كل التفسيرات الخاطئة! كان على بولس أن يدافع عن الحرية الجديدة ضدّ خصمين، كان عليه أن يدافع في غلاطية ضدّ ضيق قلب المتهودين وفي قورنثية ضدّ رسل التحرر الذين لا يقبلون بوجود لجام للحرية والذين جاؤوا إما من اليهودية المتحررة أو من الوسط الديونيسي الحضاري. أسهم في لهيب هذا التحرر عنصر آخر يميل إلى خلق الأحزاب، وهذا العنصر هو العقلانيّة التي تتبع وتماشي كل التطور اليوناني الروحي. كان سقراط قد وضع المسلك الخلقي على أساس عرفاني. كان الرأي السائد في قورنثية آنذاك «أنّ المعرفة هي المهمّة في الحياة المسيحية» المعرفة المسيحية تحدّد درجة الكمال المسيحي وتعطي المسيحي سلطان تكوين حياته الخاصة(٤٢). فنتج من جرّاء ذلك ذاتية خاطئة، لأنّ الإنسان الذي يطلب وحدته مع الله لا عن طريق الإيمان بل عن طريق معرفة محضة، تتجه أبصاره إلى الدّاخل فيفقد العالم الخارجي والجهاد فيه أهميته. ويطلب الإنسان الكشف الإلهي في ذاته وهكذا يفقد هذا التقي فلسفياً اهتمامه بحياة المسيحيين الآخرين، ويصبح معزولاً، وتصبح الحوادث التاريخية رمزية. ويسعى عن طريق الفكر، عن طريق صوفية فلسفية إلى أن يحقّق الوحدة مع الله. هنا إغراء الفكر اليوناني هو الفردية لذلك لم يتمكّن اليونانيّون من أن يدركوا لماذا يدافع بولس عن الوحدة والوئام في الكنيسة. هناك تجربة أخرى في الفكر اليوناني. الأخلاق في الفكر اليوناني لا تحدّدها المعرفة فقط بل الشوق إلى السعادة. إن هذه الطوباوية لم تتمكّن من إدراك بشارة بولس عن الصليب. كيف يمكن لمثل هذا اليوناني أن يقف أمام صليب المسيح وأن يرى فيه عظمة المحبة؟ كيف يمكن أن يجذبه مرسل من الله، ناموس حياته الدائم العذاب والاضطهاد؟ كان اليونانيون يرون في الرسول —

رسولهم ــ إنساناً يبتعد عن المخاطر والعذابات وأن يحجم عن الإرتماء في أخطار الموت وأن يعيش لا بعمل يديه(٤٢) [١].

كان أبولوس قد عاد من قورنثية وذكر أمام الرسول الخطر الذي كان يهدّده. كما وصلت أخبار جديدة أخرى. إن المعاثر تتضاعف بين المؤمنين الجدد. كانوا يشتركون اليوم في سرّ الشكر وكانوا غداً يتربّعون في هيكل عشتروت أو يأكلون في هيكل سيراتيوس. كان على بولس أن يتدخّل هنا. أرسل رسالته الأولى إلى الكنيسة (٥، ٩) ينصحهم فيها بأن يكونوا بعيدين عن الزواني والخطفة والسكارى. الرسالتان إلى أهل قورنثية هما قسم من مراسلة أكبر مع الكنيسة. من الغريب أن تكون الرسالة الأولى قد ضاعت. ألعلّها سرقت؟ في القديم كان للبشر أفكار غريبة عن الملكية الروحية خصوصاً في اليونان. قبل قليل أبرز أهل سالونيك رسالة كاذبة لبولس، وهنا ضاعت رسالة لم يبق من أثرها شيء. كان اليهود ينتحلون الكتب الأدبية. لم يتركوا أديباً إلّا وانتحلوا كتبه، وكانوا ينشرون كتباً منحولة حتّى يبرهنوا لليونانيين أن أورفانيس وهوميروس، هيرقليت، وأفلاطون، وفوكوليدوس، وسيفاليس، أخذوا أفكارهم من اليهودية(٨٣). لم يتركوا أديباً إلّا وانتحلوه حتّى بات المفكّر يشكّ في أنّه سيّد تفكيره(٥٤). ألا يجوز أن يكون المسيحيّون قد أصيبوا بجرثومة هذا المرض؟ إنّ الأدب المنحول يروي الكثير. كان من الصعب على المسيحية أن تميّز الكتب المنحولة من الصحيحة. وكانت هذه الصعوبة حسنة أيضاً. إنّ غربلة الكتب القانونية للكتاب المقدّس استمرّت حتّى منتصف القرن الثاني.

كان الرسول يرسل علاوة على الرسالات إعلانات شخصية، لذلك قبل أن يرسل رسالته إلى أهل قورنثية، أرسل إلى هناك الشاب الغلاطي تيموثاوس، كمساهم في تأسيس الكنيسة هناك، ليذكّر القورنثيين بتعاليم الإيمان، والأخلاق الأساسية «الطرق في المسيح» كم أعلّمها بالطريقة ذاتها في كلّ الكنائس منسجماً كلياً مع تعاليم بقية الرسل (٤، ١٧). من الجائز أيضاً أن يكون تيموثاوس قد أرسل أيضاً لجمع التبرعات لكنيسة أورشليم. لهذا أرسل بولس برفقته أرستوس أمين الصندوق البلدي وبعض الإخوة. كان على تيموثاوس أن يمرّ بطروادة ومقدونيا قبل أن يصل إلى قورنثية لأن أخباراً غير مرضية وصلت إلى الرسول عن حالة الكنيسة هناك. كان تيموثاوس قد وصل قبل أن يكتب بولس رسالته. إن إحدى بنات قورنثية المحترمات واسمها خلديس أرسلت مع بعض

المحيطات بها أخباراً إلى الرسول تطلعه فيها على الخلافات والشقاقات القائمة في الكنيسة القورنثية وعلى التفسّخ الخلقي الذي أخذ يمتدّ في وسطها. على بولس في مثل هذه الحالة أن يتدخّل، فالحالة خطرة وخصوصاً عندما تتبخّر الأخلاق وتنعدم القداسة في الحياة. عليه أن يعيد الوحدة إلى الكنيسة ويوطّد الوئام. إذا تحطّمت هذه الآمال فكل أملٍ يضيع. وهكذا يمكننا أن نفهم صراع بولس المليء بالهوس من أجل وحدة الكنيسة وترابطها.

علاوة على الجذوة القديمة المتفانية في بولس فقد تشكّلت ثلاث كتل أيضاً. إن تشكيل هذه الفرق مدين إلى المبالغة في تقدير الدّافع الشخصي أو إلى ذهنية الوثنية بأن المستنير صوتياً هو في ارتباط صوفي وثيق بمن وعظه وأعطاه المعمودية[٣٠]. الفرقة الأولى جعلت أبولوس رئيساً لها في وجه بولس، كان الإثنان متحمّسين حماساً لاهباً للمسيح إلّا أنّ نوع الحماس كان مختلفاً عند الإثنين. كان أبولوس من الطبائع ذات الميول النظرية وكان يملك لهجة كلاسيكية وموهبة خطابية، وكان بولس بعكسه رجلاً واقعياً تحمّل قسوة العيش بجذبك بقوة الحقيقة وبلهيب هوسه. بينما كان أبولوس يفسّر الكتاب المقدّس تفسيراً رمزياً وكان يسكت عن أمور كثيرة وكان يتركك حائراً لا تستطيع أن تقرّر. كانت مواعظ بولس تخرج كأنّها تمشي فوق أجنحة العاصفة تخاطب المشاعر وتهزّها وتجبر المستمعين على اتخاذ قرارات صعبة تجعلهم غير مسرورين مع نفوسهم. بعد موعظة من مواعظ أبولوس كانت أعين القورنثيين تلتهب شراراً، وكانوا يصرخون: يا للجمال! يا للروعة! وبعد موعظة بولس كانوا يعودون إلى بيوتهم في رصانة صامتين. أمّا الذين كانوا يعجبون بالقشور والتوافه فكانوا ينظرون إلى بولس كمن ينظر إلى شيء تافه. إنّ اسم أبولوس لمشايعيه من معلّمي الفلسفة الجدد كان مفضّلاً وكان سبباً لشقاقات «أنا لأبولوس» وهكذا كان القورنثيّون يرون في بولس وأبولوس رئيسين لفرقتين متخاصمتين في حين كان الإثنان يحترمان واحدهما الآخر[٧٨].

أخذ عدد المسيحيين من اليهود يزداد في قورنثية، وكان هؤلاء يأتون من الشرق ومن فلسطين وأورشليم وقد أثاروا إعجاب المسيحيين هناك، لأنّهم كانوا يحملون رسائل توصية من الرسل، ربما عمّدهم بطرس لذلك كانوا يؤكّدون صداقتهم لبطرس وينظرون إلى بولس نظرة احتقار كرجل من مصف الرسل الثاني لأنّه لم يعاشر المسيح الموجود في السماء. «إن خطر الموت الدّائم والاضطهاد يجردانه من كل عظمة رسولية»[٤٢]. ومع أنّه

دون موسى فهو يحاول أن يقضي عليه. من رأى وجهه يشعّ كوجه موسى؟ إذا كان يرفض أن تقوم الكنيسة بمعيشته، وهذا امتياز خاص بالرسل، فلأنّه لا يثق بسلطته ورتبته. جمع هؤلاء أنصاراً عديدين ضدّ بولس، وكان بولس يعتقد جازماً بأن هؤلاء يستغلّون اسم بطرس دون علمه وكان يتكلّم على بطرس باحترام. كان استعمالهم لاسم المتقدّم بين الرسل بقصد طعن الرتبة الرسولية التي منحها المسيح لبولس طعنة لا لبولس بل للمسيح الذي من أجله يتعب هو وبطرس.

لكي تصل الحماقة إلى ذروتها برزت إلى الوجود فئة ثالثة. فئة المبشّرين بالتحرّر المطلق المستنيرين كلياً، الذين يعتبرون أن أي انتساب لشخص معيّن هو عيب فاضح. كان ادعاؤهم كما يظهر، أن المسيح هو ملكهم فقط وكانوا يستعملون اسم السيد ليضربوا عبيده وكانوا يقولون «أنا للمسيح» كانت هذه قمة الوقاحة. إنّ دافعهم ومحرّكيهم كانوا من الذين وصلوا جديداً إلى قورنثية وكان جلّهم من اليهود المسيحيين الذين يعتقدون بأنّهم مرتبطون بالمسيح لأنّهم عرفوا الرب عندما كان على الأرض. كان هؤلاء أخطر جميع الخصوم. لا يقبلون «انّ المسيح يتكلّم بواسطة بولس» وإن بولس «يملك روح الله» (٧، ٤) المقصود هنا شيء أكثر من الأمور الصبيانيّة البسيطة. من يستعمل المعلّم لضرب تلامذته يقلب موازين الترتيب الكنسي. هذه الأوساط المذهولة التي تقول إنّها للمسيح، كان أفرادها بدون شك من الذين رفضوا الزواج بدافع نسكي صارم دون أن تجبرهم شريعة خلقية، ومن الذين أنكروا قيامة أجساد الأموات بدافع روحي صرف واعتبروا الصليب حماقة. كان هدف الكنيسة «نوع من التجليات الأرضية، نوع من الغوص من جديد في الحالات الراهنة»[٤٢]، لذلك يستطيع كلّ إنسان وفقاً لما يقولونه أن يطلب تأمين مركزه وسط العالم وأن يشترك في الذبائح الوثنية وأن يعتبر المحاكم الوثنية صالحة للنظر في دعاوي المسيحيين. يجب ــ كما يقولون ــ أن يكون الإنسان عصرياً وأن ينعم بالحياة.

هكذا كانت الحالة في قورنثية. كان لا بدّ أن يحدث شيء سريع. كان يجب أن يسمع القورنثيّون صوت الرسول قبل وصول تيموثاوس تسهيلاً لعمله. عندما يعالج بولس موضوعاً من المواضيع ينير كلّ نواحي المواضيع. إنّه يملك إمكانية السمو بالعقول الصغيرة وتوافهها إلى مرتبة الأفكار العظيمة. كان سوستانيس الذي بشّره ابولوس في أفسس، وقد جعله بولس همزة وصل بينه وبين القورنثيين، كان من الضروري أن يمثّل في الرسالة

ويوقعها كدليل على أن بولس وأبولوس متفقان. على القورنثيين أن يعرفوا ذلك. أراد بولس أن يرسله كوسيط إلى قورنثية لكن قلب أبولوس لم يكن ليحمله على الذهاب في مثل هذه الظروف. كان بولس يضرع طوال الليل باكياً من أجل نفوس أولاده. أليس هو بوالدهم؟ ألم يظهر فعل المسيح بواسطته فيهم؟

يعود معمل أكيلا ويصبح المكان المقدّس الذي فيه يلامس الروح القدس، برفرفات مقدّسة، روح بولس. بولس يملي وسوستانيس يكتب.

في الفصول الأربعة الأولى بحث قضية الشقاقات وأسبابها وسط الكنيسة: تضخيم تقدير العنصر البشري الشخصي الصرف، فقدان المعيار الفائق الطبيعة، التعامي الروحي والميل إلى كلمات الحكمة الفارغة. كان على بولس أن يجلو حقيقة أولية لأولئك الذين أخذوا المعمودية من أبولوس واعتبروا معموديتهم فوق كلّ معمودية. المعمودية المسيحية واحدة وقيمتها مستمدّة من موت المسيح. يفرح لأنّه لم يعمد. أشكر الله لأنّي لم أعمّد أحداً منكم إلّا كريسبوس وغايوس حتّى لا يقال «أني عمّدت باسمي» تمهّل يا بولس! إنّ هذا ليس بصحيح. الروح القدس يصحّح له وبولس يفكّر «عمدت بيت استفاناس» وهكذا يبقى الكتاب المقدس تحت موشور الروح القدس المصحح هل بولس صلب من أجلكم أم باسم بولس اعتمدتم. أيمكنكم أن تخلّصكم الفلسفة اليونانية؟ ألا يكون موت المسيح فخفخة؟ إذا كان هذا صحيحاً، كان على المسيح أن يدعو فلاسفة وأقوياء هذا العالم. ألستم جميعاً بشراً لا ثقافة فلسفية لكم؟ ألستم من العبيد؟ وهل الفلسفة اليونانية غير أشياء جدلية لا تفيد الحياة العملية؟ بهذه الأقيسة الخاطئة تريدون أن تقيسوا الذين يحملون لكم إعلانات الإيمان المسيحي؟ إن بولس يشير بطريق خفي إلى خبرته الشخصية مع فلاسفة أثينا. ألا ترون أن حكمتهم العالمية تلفظ أنفاسها وأن البشر لا يعرفون ما تتضمنه وأن العالم وصل إلى النقطة حيث يظهر بوضوح أن الله يرى حكمة هذا العالم حماقة وأنه اختار جهلة العالم ليحقر حكمة الحكماء. لا تفكّروا في أن المسيحية لا تملك حكمة خاصة بها وأنّها تحتاج إلى حكمة اليونانيين. كلا. نحن بشّرنا بحكمة الله الخفية. وحكمة الله أعمق بكثير من الحكمة اليونانية. وروح الله هو الذي يستطيع أن يدرك الأعماق التي لم تتمكّن حكمة العالم أن تدركها أو تفهم سرّها. إن حكمة العالم ترتكز على «المعرفة الذاتية المستقلة للفكر غير المدرك»[٣٣]. ست عشرة مرّة يتكلّم بولس بتعابير جديدة دائماً على عدم إمكانية وعجز

حكمة العالم وذلك بقصد دعم وتوسيع الإيمان الفائق الطبيعة ليظهر مثالية الحكمة المسيحية التي ترتكز في جوهرها وعمقها على معرفة سرّ الخلاص ، على تركيز البشرية كلّها ووضعها في وحدة مع جسد يسوع السرّي . من الصعب أن يدرك هذه الأمور والأفكار وأن يدخل الى سرّها الذين يملكون عقولاً سطحية . عليكم أن تتعلّموا في البدء الخطوط الأولى . حتّى هذه الأمور تجهلونها والدليل تفكيركم السطحي [١٥].

لذلك لا يحقّ لكم أن تصنّفوا المبشّرين بالإنجيل . هذه المقارنات لا قيمة لها . الرسل كلّهم يملكون الرتبة الواحدة وكلّهم يخدمون الرب خدمة واحدة حتّى أولئك الذين منحوا مواهب كثيرة لا يتميّزون عن غيرهم . إنّ بولس يصف وصفاً رائعاً دور فعلة الإنجيل في بناء الإيمان المسيحي عبر العصور . « المهندس الحكيم المسؤول » وضع المخطط ووضع الأساس . إنّ بولس يفخر باكتشاف الرب له في دمشق ويجعل أساس بشارته هذا الكشف . على المسيحيين اللّاهوتيين أن يبنوا على هذا الأساس من الآن فصاعداً . على البناء أن يكون متناسقاً موحّداً . يميّز بولس بين نوعين من المهندسين اللّاهوتيين . مهندسون أكفّاء يتابعون البناء الواحد فوق أساسات وجدوها مستعملين أفضل المواد ليقدموا بناءً جديراً بالله ، ومهندسون أغبياء يتابعون البناء واضعين فوق الحجر الكبير أو فوق المرمر طيناً وتبناً ويغطّون عملهم الكاذب بواجهة كاذبة . يوم الرب ونهاية العالم والدينونة الأخيرة ستكشف كل ذلك . عمل المهندس الحاذق سيقاوم النار كالهياكل المرمرية القديمة في قورنثية والمهندس المغفّل يمكنه أن يفرح إذا خلص ولكن « كما يخلص من يمرّ في النار » .

يستدين بولس هذه الصورة من كشوفات الله في العهد القديم حيث تلحس النار عربة الرب الآتي للدينونة . إنّها نار الله التي تمتحن وتكشف أفكار وعواطف البشر .

إن حكم القورنثيين المنتفخين على قيمة عمل الرسول لا قيمة لها وليس لأي محكمة صلاحية الدينونة . الله هو الديان . يا لسخرية تشكيل هذه الفرق حول اسم مشهور . يا لتفاهة هذه الخلافات الحقيرة . هذه العبادة للشخصيات عندما يستهدف الإنسان العظمة فعلاً . يرى بولس كلّ شيء أمامه . وكلّ شيء ينتصب كهرم شامخ يقوم الله فوق ذراه . إن كلّ شيء هو لكم بولس كلّ شيء أمامه . وكلّ شيء ينتصب كهرم شامخ يقوم الله فوق ذراه . إنّ كلّ شيء هو لكم بولس كان أم أبولوس ، أم كيفا أم العالم أم الحياة أم الموت أم الأشياء الحاضرة أم المستقبلة . « كلّ شيء هو لكم وأنتم للمسيح » (٢٢ — ٢٣) . ليس

الفرد بشيء ، ليس الكون بشيء ، لا شيء إذا كان الهرم لا ينتهي بالله الذي هو « الكلّ في الكلّ » .

يملك بولس سلاحاً آخر أقوى . يضرب اليونانيين بأسلحتهم ، بالسخرية السقراطية ويظهر فيها طويل الباع . ويظهر وفقاً للتفكير اليوناني بأنّه حكيم على الطريقة اليونانية « عرفت شيئاً وهو أني لا أعرف شيئاً » يلبس بولس هذا التعبير وشاحاً مسيحياً . « إنّ حسب أحدكم أنّه حكيم في هذا العصر فليصر جاهلاً ليكون حكيماً » إنّه يصوّر بطريقة بارعة بعض التباع الجدد الذين لم يكسروا بعد قشرة بيضة المعرفة ، وينظرون إلى إيمان البشر البسطاء نظرة فيها احتقار ويخالون نفوسهم أنّهم يملكون مع المسيح . يعامل بولس هؤلاء كما يعامل الآب ابنه الصغير الذي يركب حصاناً خشبياً ويحمل سيفاً خشبياً ويتصور نفسه بأنّه أصبح ملكاً . يقول لهم إنكم لم تعتمدوا بعد ومع ذلك تعتقدون أنكم قبضتم على الحكمة والنعمة الوعدية وتخالون نفوسكم ملوكاً تجلسون عالياً فوق صهوة الجواد الأبيض وتسهمون في ملكوت المسيح دون عوننا على ركوب هذا الجواد . حبذا لو كنت متطوراً منكم لألعب كما تلعبون لعبة الملك [٢٨] . إنّنا نحن الرسل جهال في المسيح وأنتم حكماء . نحن ضعفاء وأنتم أقوياء ... وفجأة تتحول السخرية إلى رصانة عميقة ، صرخة قلب يطفح بالألم . « حتّى هذه السّاعة نجوع ونعطش ولا قرار لنا . صرنا كأقذار العالم وكأوساخ يستخبثها الجميع » ، وخوفاً من أن يكون قد جرحهم ينعطف بمحبته ، ويذكرهم بالأيّام التي كانوا يتحلّقون فيها حول أبيهم الروحي يحصون بشفاههم كلّ حكمة « لو كان لكم ربوة من المعلمين في المسيح ليس لكم آباء كثيرون لأنّي أنا ولدتكم في المسيح » .

يجب ألّا نعتبر كلمات الرسول عن حكمة هذا العالم وجهال هذا العالم انّها تحوي التعبير النهائي القاطع عن حقيقة المسيحي الروحي مسلكياً . إنّ بولس كالرواقيين يتكلّم بطريقة عجيبة . فهم اليونانيون ذلك . لم يكن بولس ضدّ الفلسفة وميراثها الروحي بل ضدّ ممثلي تلك الفلسفة الذين سخروا منه في أريوس باغوس . إنّ سخريته تتناول أولئك الفلاسفة الذين أنزلوا الفلسفة من مستواها الحقيقي . كان بولس يحترم الفكر ويحترم ميراثه وفي رسالته إلى أهل فيلبي يشرح مثالية حياة الفلسفة المسيحية « يا إخوتي مهما يكن من حق أو عفاف أو عدل أو طهارة أو صفة محببة أو حسن صيت أن تكن فضيلة أو مديح فلتكن أفكاركم في هذه » إن بولس لا يرفض طريقة أبولوس . وإن كانت لا تعجبه . إنّه يترك الحكم عليها لله .

وقد أسّس بنفسه دعائم الإيمان المسيحي «بالمعرفة» المرتكز على حجر الزاوية الوحيد الذي هو المسيح. لذلك نجد عنده التأكيد الواثق والذي لا وجود له في قياس الفلاسفة ولا في طقوس السريين. إنّها ثقة تمنحها واقعية الخلاص «بالمسيح»، والشخوص نحو المصلوب، والاتحاد السري به. حالة حقيقية تتبلور في تضاد أفكار بولس: حكمة — جهالة، ضعيف — قوي، روح — جسد، المسيح الأرضي — والمسيح السماوي[٤٤]. كلّ شيء في نظر بولس أساسه الإيمان. إنّه خبر حياة الإيمان والتفكير في الايمان. إذا لم نؤمن لا يمكن أن نفكّر. الفكر هو تجدّد دائم بالإيمان ووراء الإيمان يقوم كلّ شيء ثمين. [٢٥].

٤٣. تقسيم المواهب
(الرسالة الأولى إلى أهل قورنثية، متابعة)

بينما كان بولس يكتب هذه الأشياء كان باب أكيلا يُقرع بشدة. في الخارج ثلاثة رجال من قورنثية. إنّهم استفاناس، وفورتوناتوس، وأخايكوس. كانوا يحملون رسالة من الفئة الموالية لبولس وكان الثلاثة من أعضاء الكنيسة القدامى. تنفّس بولس الصعداء. يظهر أن قورنثية تريد أن تصطلح. اقرأ الرسالة أيّها الأخ استفاناس. اكفهر وجه الرسول فالأخبار لم تكن مسرَّة. يظهر أن الرسالة الأولى التي بعثها إلى قورنثية أثارت القورنثيين. المبشّرون المتحررون أعطوا لمضمون الرسالة مضموناً غير مضمونها الحقيقي. ما جاء في الرسالة لا يمكن تطبيقه. لا يمكن في قورنثية أن تنفرد إلى الغيوم، لا يمكن أن تعيش في بلدٍ تعيش «عيشاً قورنثياً»، أن تكون نوطة شاذة. رأى بولس أن في قورنثية ميلاً لنقد توجيهاته وتأويلها. في الرسالة يرجو القورنثيون أن يعطي الرسول حلولاً لكلّ المشاكل المهمّة التي تثيرهم وتسبّب انقسامهم. بشّر المعلّمون الكذبة الذين لا يعلم أحد من أين جاؤوا، ربّما كانوا بعض المجدّدين اليهود أو من «المهووسين بالجنس»[٤٢]، بحرية مطلقة في العلاقات الجنسية مستندين إلى مفهوم الحرية المسيحية التي لا تقبل الحصر. «كل شيء يوافقني» كل شيء تحت تسلطي. كانت العلاقات الجنسية كأنّها ضرورة طبيعية كالأكل والشرب. كان

أحد الأعضاء البارزين في الكنيسة يعيش مع امرأة أبيه بطريقة غير شرعية. كانت الشريعة الرومانية تمنع مثل هذه الارتباطات فسبّب منع الزواج بين الأقرباء بالدم نوعاً من الارتباك لعدم وجود قانون للزواج يمنع ذلك. انخفضت قيمة معنى الزواج بسبب الجو الفسقي الخانق الذي كان يسود الوثنية. كلّما ازداد الزنى توغلاً في الحياة القورنثية ضعفت الربط الزوجية وقلّت. في الطبقات الدنيا كان الزواج محتقراً. وفي الطبقات المثقفة ازدادت البغايا. عرفت أثينا هذه الميوعة وكانت يونيا تصدر إلى أثينا بغايا هنّ على جانب عظيم من الثقافة وكنّ يؤثرن على السياسيين والفنّانين والشعراء تأثيراً عظيماً. نذكر منهن أسباسيا زوجة باركليس السياسي العظيم قد أدخل العشق المتحرّر إلى رومية في عصر بولس وكان القانون يحميه. فالأباطرة الذين كانوا يقفون في مستوى عالٍ خلقياً كانوا يحتفظون ببغي إلى جوار زوجتهم وقد عاش أوغسطين مع بغي في بيت أمّه مدّة طويلة استمرّت حتى ارتداده. تحتاج هذه الحياة المعقّدة إلى حلول، لذلك سأل القورنثيون إذا كانت العلاقات الجنسية كما هي في قورنثية ممنوعة. سألوه إذا كان الزواج جائزاً أم لا ما دام المجيء الثاني قد اقترب، وهل يجوز الإلتجاء إلى المحاكم المدنية في حالة الطلاق، وأن يأكلوا من ذبائح الأوثان، ويقبلوا الدعوات لحضور الذبائح الوثنية؟ سألوه أيضاً عن أمور تتعلّق بالعبادة. إنّ نساء قورنثية يطلبن في العبادة المساواة بالرجال وكنّ يتكلّمن في الإجتماعات وقد رفعن الحجاب وصارت مواسد المحبة مكاناً للولائم تظهر فيها الفروقات بين الأغنياء والفقراء بصورة محزنة. كانوا يسألون أمن الأفضل أن نتكلّم اللغات أم نتنبأ؟ أحل الذين كانوا يتكلّمون اللغات لعن المسيح. أما قيامة الأموات فخلقت مصاعب جمة عند اليونانيين.

لا شكّ في أن قراءة الرسالة لم تُسر أسماع بولس. أما بالنسبة لنا فإنّها رسالة لامست أعماق سعادتنا لأنّها أتاحت لبولس أن يتّخذ موقفاً تجاه كلّ هذه القضايا ليعطي لها الحلول المسيحية، وأن يدخل إلى أعماق المشكلات التي كانت تعانيها المسيحية آنذاك ولولا هذا الإطلاع لما تمكّنا من أن نعرف أو نتعرّف إلى أحوال الكنيسة ولولا معالجة هذه القضايا لكانت الرسالة، أغنى الرسائل من حيث المضمون بدون معنى. من الموقف الذي يتّخذه بولس تجاه كلّ قضية يتّضح جيداً كيان المسيحي المزدوج. إنّه يعيش في عصرين. ليس بولس من القائلين بأن المسيحي انعتق حقاً من الخطيئة وأنّ الخطيئة لا تلامسه. المسيحي موجود دائماً في صراع خلقي عظيم، في شكل من الوجود المزدوج. إنّه بوجوده الأرضي ينتمي إلى العصر العتيق، العصر الخاطيء، وبوجوده الروحي ينتمي إلى العصر الجديد،

العصر الروحي ، العصر الذي تحركه وتدفعه الروح ، يعيش في المسيح حتّى في هذا العالم. الإنسان جوهرياً سائح بين عالمين. إنّ بولس يصف حالة المسيحي الذي مات ودفن مع المسيح بالموت وقام معه بالقيامة لحياة جديدة ليس فيها المسيح. مات من أجل الخطيئة ولا حقّ بعد للخطيئة عليه. بيد أن الرسول بالرغم من موقفه الروحي الدّاخلي فإنّه لا يطبق عينيه أبداً أمام الواقع القاسي. لا يرتعب من حادث استمرار وجود الخطيئة ، لا يقول قط إن الخطيئة ماتت. إنّها قائمة تتحيّن الفرص لكسب التربة التي خسرتها[٣٠]. هكذا يحيا المسيحي ، إنّه يعيش وسط متناقضات. إنّه يعيش بين قطبين وهذا دليل على أن بولس بصوفيته كان بعيداً جداً عن أفكار ديانة إيران السرية الأساسية التي تنظر إلى النفس كوجود إلهي نتي من عالم النور إلى عالم المادة مدعوٍ إلى العودة إلى النور كما تعتقد الصوفية اليونانية للوحدة مع الله.

هذه الوحدة للحياة المسيحية وسط هذه المتناقضات تؤثّر على جواب الرسول حول القضايا المختلفة يبحث الرسول أولاً: أساس الحياة الروحية الخلقية ، ثانياً: الحقّ الخاص في الخلافات ، ثالثاً: القضية الإجتماعية التي كانت في القديم أي قضية مركز المرأة وقضية العبيد ، رابعاً: قضية العلاقات الإجتماعية مع الوثنيين المتعلقة بالذبائح وعبادة الأمبراطور. لقد وضع بولس لهذه القضايا نظاماً مسيحياً كأساس صار فيما بعد المبدأ الأول للحق القانوني.

إنّ المتقدّمين في الكنيسة بقبولهم علانية الإختلاط الدموي صاروا مشاركين في الجريرة. فوصل يأس الرسول إلى ذروته[٣٦]. كان بولس حسب عادته يضع كلّ الذين يسببون شكاً عاماً تحت طائلة الحرم الكنسي وهذا يعني منعهم من كلّ اشتراك بنعمة الكنيسة وقطع كلّ اتصال اجتماعي بهم. بهذه الطريقة كان يعاقب بولس كلّ الذين يثيرون الأقاويل والإشاعات وقد أمر تيطوس أن يبتعد عن قساة القلوب والهراطقة والذين يثيرون الخلافات والشقاقات ، وكان بولس يستعمل «التسليم إلى الشيطان» كقصاصٍ أشد.

كان بولس يهتمّ اهتماماً خاصاً بالحق الخاص. لم يكن بولس يوافق أن تطرح الخلافات المالية والتجارية والقضايا التي تتعلّق بالكرامة والشرف أمام السلطات الوثنية. كان حتّى لليهود الذين في الشتات ، محاكمهم بموافقة الدولة. يبرّر بولس منعه هذا لا على أساس كرامة الكنيسة بالنسبة لمن هم خارجها بل على أساس أن السلطة الحاكمة للمسيحي على

المؤمنين[٣٠] . (حتّى على الملائكة الساقطين) هي أسمى من كلّ عدالة. وتنبع هذه الفكرة من شركة المسيحي السرية مع المسيح الذي يعطيه حق المساهمة في رتبته الدينونية في يوم الدين بإعطائه له رتبة الكهنوت. فطبّق هذا المبدأ في القضايا الداخلية الخاصة عامة وسريعاً. نادراً ما تقاضى المسيحيون إلى قضاة وثنيين. عندما أصبحت الدولة مسيحية بعد قسطنطين الكبير تغيّرت الحالة.

لم يحل بولس مشكلة الزواج من وجهة طبيعية خلقية فحسب بل ومن وجهة صوفية روحية. كان يقيس كلّ الأشياء بالنسبة لجسد المسيح السري ولحياة الكنيسة الدينية. الزواج والبتولية ليسا متناقضين بالنسبة له. الإحترام العظيم لكليهما ينبع من الذات الأصل، من سرّ المسيح. الزواج ليس بأقل من عدمه بل من البتولية وهذه عندما تطبّق كضحية حبية في سبيل شيء أسمى كعملٍ بطولي لتقدمة دينية تنبع من أسمى نقاوة الإرادة. الهدف الأزلي للشخصية هو ذاته في الزواج وفي البتولية. يصبح الزواج في المرتبة الثانية عندما تتفوّق عليه ماهية أسمى وهذه الماهية هي إعطاء الذات لله. يطلب الله من الإنسان شيئاً واحداً وهذا الشيء هو نقاوة القلب الممجّدة عبر الأجيال والتي هي تحقيق رائع للإرادة الإنسانية. البتولية نوع من الإمتياز لبعض الأشخاص الذين يملكون هذه النعمة الإلهية ويستهدفون واجباً عالياً. وهذا لا يعني إقلالاً من قيمة الزواج. لا يقول بولس إنه أرفع من ناحية التضحية ومن ناحية ما يقدّمه الى المجتمع. يستنتج من كل ما قيل أن الإبتعاد الآني عن العلاقات الزوجية هي شيء صالح يمكّن الإنسان من إعطاء ذاته لله. يستعمل بولس كلمة «حسن»[٣٦] أي أخلاقياً ألطف. جدير بالملاحظة هو واقع هذا الإنسان الروحي العملاق. إنّه واقعي أكثر من أي إنسان واقعي. إنّه لا يتعامى عن الحقيقة بل يعطيها اسمها الصحيح. لا يقع بولس في غلو نسك الديانات السرية المناهضة للزواج كالفيثاغورية والأورفية والمانوية والرواقية الجديدة والهرطقات اليهودية واليونانية بل يعتبر الزواج صالحاً. إنّه يمجّده في رسالته إلى أهل أفسس (٥ : ٢٨). ويعتبره كسرّ «في المسيح» ويسمو به إلى جوّه الروحي [٢٩]. الزواج شيء فوق محاولة الرواقيين لجعله روحياً. إنّه فكرة من أسمى الفكر تخلع على البتولية معناه الأصيل الزواج بالمسيح. إنّ أعمق تبرير للبتولية كما يقول أوغسطين أفراحها الزوجية في المسيح. عروس المسيح هي الكنيسة والحضور الثاني هو عيد القران الأبدي. من هذه الناحية كان على المسيح أن يبقى في حياته على الأرض بتولاً. إنّ بولس كالمسيح لا يمكنه أن يعيش قريباً من امرأة. الكنيسة تملأ

مكان المرأة. كلّ شيء رائع ، كلّ شيء مقدّس يقدّمه الزواج ، يقدمه الرسول بعلاقته بالمسيح والكنيسة عن طريق رتبته الرسولية . إنّه يحتضن كنيسته بغيرة ومحبة ويجاهد من أجل المسيح(٦٥) .

الدعوة إلى المسيحية حسب بولس لا تغير شيئاً من حياة المسيحي الإجتماعية . المسيحي حرّ داخلياً من الأشياء الخارجية . المسيحي لا يريد أن يغيّر حالة شخصيته الخارجية بل قابليته الدّاخلية . الحياة الخارجية تتغيّر بعد تغيّر الداخل وهي خاضعة لما في أعماقنا . يطبّق بولس هذا المبدأ على مختلف نواحي الحياة . أعبدٌ أنت ؟ لا تجعل المعمودية برهاناً على أنّك صرت حراً بل أتمم واجبك بوعي على أساس أن صفتك الأساسية لا تُهدد . إن هذا الموقف يثير الكثير من العجب لأنّ كهنة اليهود كانوا يعلمون تماماً أن الإسرائيلي جدير بالإحتقار إذا هو لم يحاول نفض صفة العبد عنه . أيهودي أنت؟ لا تحاول أن تمحي آثار ختانك ، الأمر الذي يقع غالباً ، تحاشياً من السخرية في الحمامات العامة . أغير مختون أنت؟ لا تقبل أن تختتن . إنّ الأمور الخارجية لا تلعب أي دور في الحياة بالمسيح . الإنسان الجديد هو المقصود . أتعيش مع امرأة وثنية ارتبطت بها ارتباطاً دينياً ؟ في هذه الحالة لا يجوز فك رباط الزوجية إلّا إذا هددت المسيحية أن بولس لا يستند إلى أي تقليد إلّا تقليد خبرته الشخصية النابعة من روح المسيح . على الكنيسة أن تحلّ مشاكل كثيرة بإلهام الروح القدس .

إنّ قضية اللحم والذبائح قضية جديدة تظهر أمام بولس ويدعى إلى حلّها . إنّ موقفه النقي الحكيم موقف مطبوع . إنّها قضية تصادف كلّ عائلة في حياتها اليومية الإجتماعية . اللحم الذي يباع في الأسواق لحم ذبائح . الوثنيّون كانوا يذبحون بطريقة مراسيمية . انتهت الوثنية إلى عادات دينية وأشكال خارجية . الذبائح كانت تذبح في كلّ ظرف عائلي أو حكومي ، واللحم الذي كان يفيض عن المراسيم الدينية كانوا يفرقونه على العائلات أو يبيعونه في الأسواق بأثمان بخسة° في الأعياد العامة كانت تقام الولائم للشعب وكان المسيحيّون ينتمون إلى الطبقة الفقيرة . لذلك كان منعهم من الاشتراك في مثل هذه الولائم قساوة . إن كلايانتيس ، ذبح في خطبة ابنته مئة بقرة . وفي أيّام الأعياد كان يقدّم إلى هيكل

° في عصرنا الحاضر تقدّم المطاعم الفخمة المجاورة للمعابد الوثنية في اليابان لحوماً مأخوذة من الذبائح المقربة . وهذا لا يعثر المسيحيين .

سيراكوس أربعماية بقرة. يذكر ليغوس أن ثلاثماية ثور، وخمسين شاة، وأربعين حيواناً كبيراً من أنواع مختلفة ذبحت في عيد تكفيري. عندما استلم كاليغولا السلطة ذبحت في أعياد الأفراح مئة وستون ألف من الحيوانات. هذه الأمور كانت تثير الشكوك واهتمام الضمائر القلقة. أمن الضروري أن يخسروا زبائنهم؟ أيجب أن يرفضوا دعوة الأقارب والأصدقاء؟ يجد بولس لهذه القضية حلاً ومخرجاً. القضية قضية أكل وشرب. يمكن أن يقبل المسيحي دعوة الوثني وأن يأكل من أكله، أما عندما تصبح القضية قضية وجدانية، عندما يصبح الأكل مثاراً للشك لا تجوز الشركة، ولا يجوز الأكل في الولائم الدينية التي ينطوي وراءها الشيطان[٣٠]. الولائم الدينية تستهدف الوجدان. وجدان المسيحي يجب أن يكون نقياً، من يجلس إلى مائدة وثنية يدخل إلى داخل الوسط السحري، يصبح شريكاً في المائدة المقدمة للآلهة، لا يمكن لأي مسيحي يعيش في داخله المسيح بواسطة سرّ الشكر أن يفعل ذلك. سرّ الشكر هو الوليمة الأزلية التي يشترك فيها المسيحي لنقاوته وطهارة وجدانه، الأمور الخارجية إذا لم تعترف بما يسيء إلى الوجدان لا خوف منها. أما التي تشكك فالابتعاد هو من البديهيات.

— تضم مجموعة مخطوطات أوكسيرينخوس عدداً من الدعوات التي تتضح فيها الصورة تماماً[٣٦]. (لوحة ٨ [٣١]).

دعوة إلى الغداء (من القرن الثاني ب. م).

١— أدعوك يا خيريمون إلى العشاء في حجرة السيد سارابيس. غداً ١٥ الساعة التاسعة.

٢— أدعوك يا ايريس إلى الغداء بمناسبة زواج ولديّ. غداً ٥ الساعة التاسعة (يحتمل أن يكون زواجاً بين إخوة الذي كان سائداً في مصر).

بإمكان المسيحي أن يشارك فقط في الوليمة العائلية حيث تقدّم فيها أيضاً لحوم ذبائح مقربة للآلهة. هنا تظهر عظمة الحرية الروحية عند الفريسي سابقاً. بينما يتمسّك الرسل الأقدمون بنواهي الشريعة، فيما يتعلّق بالأكل أما بولس فقد تخطّى حدود أنطاكية متمشياً

تماماً مع روح المسيح. (متى ١٥ : ١١ ، مر ٧ : ١٥) : «إنّي عالم ومتيقن في الرب يسوع أنّه به لم يبق شيء نجساً إلّا أنّه من يحسب شيئاً نجساً فله يكون نجساً» (رو ١٤ : ١٤).

في الإصحاح التاسع يتوقّف بولس فجأة عن التأمل ليستأنف أفكاره التي قطعها. إنّهم يشكّكون في صفته الرسولية بحجّة أنّه لم يكن من تلاميذ السيد ولم يره لذلك فهو لا يجرؤ على قبول أيّة هبة من الكنيسة. هنا يشعر بولس بالإهانة. ودمشق؟ أصبحت لا شيء؟ هل يجرده عمله اليدوي وإعالة نفسه بنفسه من حقه الرسولي؟ على العكس فبعد دمشق صارت لديه مهمة خاصة كرسول للمسيح. وهو يفهم الرسولية على أنها تبشير لا ينقطع «بغنى المسيح وعظمته مرفقة». وأن تكون رسولاً فهذا لا يعني أن تستريح على كنز المسيح وتمنع الآخرين من اكتشافه وأن تتمتع به وحدك في الخفاء. الرسولية تعني أن نوجّه فيضان حياة المسيح لكي تتغلغل في جميع أعضائه، حيث يشكّل كلّ مسيحي نواة صغيرة تعيش بقدر ما تغذّي الآخرين. هذه الدعوة الرسولية وجّهت إليه بالرغم من إرادته عندما اجتذبه المسيح على طريق دمشق. فوضعت عليه يد والويل له لو حاول التخلّص منها كما فعل يونان. اختبَر عاموص هذا (٣ : ٨) : «الأسد زمجر فمن لا يخاف؟ السيد الرب تكلّم فمن لا يتنبأ». يصف إرميا الاختطاف إلى الله وغلبته (إرميا ٢٠ : ٧ — ٩). «أقنعتني يا رب فاقتنعت وألححت علي فغلبت. صرت للضحك كلّ النهار كلّ واحد استهزأ بي. لأني كلّما تكلّمت صرخت ناديت، ظلم واغتصاب لأن كلمة الرب صارت لي للعار وللسخرة كلّ النهار فقلت لا أذكره ولا أنطق بعد باسمه فكان في قلبي كنار محرقة محصورة في عظامي فمللت من الإمساك ولم أستطع» وبدوره أحسّ بولس في قلبه «بثقل الله» بذلك الضغط من قبضة المسيح «الويل لي إن لم أبشر» ولكنه ضغط عذب يفيض سعادة من خلال الألم. من هنا تنبع رسوليته وثقته القوية وشعوره بالفخر. لذلك كان يتأثّر كثيراً من التشكيك برسوليته وثقته القوية وشعوره بالفخر. لذلك كان يتأثّر كثيراً من التشكيك برسوليته «خير لي أن أموت من أن يعطل أحد فخري» (١ كو ٩ : ١٥)، من هنا ينطلق تعريف الحرية المسيحية : «حيث روح الرب هناك حرية» (٢ كو ٣ : ١٧). فبولس ليس لديه شيء يوازي الاستقلال الروحي «إنّنا لا نسود على إيمانكم بل نحن مؤازرون لسروركم لأنّكم بالإيمان تثبتون» (٢ كو ١ : ٢٤). الإنجيل لا يضغط على أحد، وكل واحد عليه أن يتطور بحسب مقدرته تحت شريعة النعمة الإلهية التي لا تُفرض على الإنسان

من الخارج كالشريعة الموسوية (الشريعة الخارجية) ولا تفعل مثل شريعة الوجود بمعنى القوة الإلهية الدنيوية (الرواقية) ولا بمعنى الواجب المجرّد (الشريعة الذاتية «كانت»)، شريعة المسيح لا تولد معنا ولكنها تزرع فينا عند إعادة ولادتنا. فهي لا تنحدر من سيناء، بل من صهيون والجلجلة. والمسيحي كعضو سري في جسم المسيح يشعر بقوة روح المسيح والروح القدس وليس بحاجة لأن يقرأ إرادته في كتاب، لأن بداخله شريعة المسيح» (١ كو ٩ : ٢١).

اتخذت الإجتماعات الدينية في كورنثوس شكلاً جماهيرياً تجاوز فيه الكورنتيون الأعراف والمبادىء فقد تناست النساء مركزهنّ الإجتماعي وتخلّين عن غطاء الرأس التعبير الخارجي للحشمة، وتجاوزن رسالتهن التي توافق جنسهن ودعوتهن. طبعاً هذا لا يعني حرمانهنّ من دورهنّ بل على العكس فهناك شخصيات نسائية بارزة في العهد القديم وكذلك في العهد الجديد مثل بنات فيليبس الرسول اللواتي تمتعن بموهبة النبوءة. ولكن الكنيسة تمشياً مع روح السيد المسيح لم تمنح النساء المراتب الكهنوتية ولكن في قضايا النفس الروحية لا يميز الله بين «ذكر وأنثى» [٣٢].

تجلّت المحبة الأخوية في أجمل معانيها في الكنيسة الأولى في موائد المحبة. ولكنّها سريعاً ما سقطت في كورنثوس بسبب الفروقات الطبقية وهنا يصل بولس إلى أهم نقطة في المسيحية الأولى، إلى قلب ومصدر قوة الوحدة الإجتماعية في الكنيسة التي أفاضت الروح الرسولية على جميع أعضاء الجسد السري.

بالأفخارستيا تحقّق المؤمنون من وجود ملكهم السماوي بينهم كملك غير منظور. الأفخارستيا مصدر تطهيرهم، وها نحن نسمع الوالي بليفيوس بعد مرور جيل على بولس يصف المسيحية باختصار فيقول: «إنّه اشتراك عام في وليمة محتشمة بريئة». إنّه أجمل وصف لديانة المسيح يصدر من وثني. عصور الازدهار في الكنيسة كانت تلك التي عاشت فيها الكنيسة سرّ الافخارستيا بصورة حية فكانت عصور الإيمان.

وبالعكس فعندما كان يتناقص النبض كانت عصور التعب الروحي وبرودة الشعور والميل إلى التحرر، والشك، والبعد عن الغيرة الرسولية.

عندما كان المؤمنون يرقبون المائدة المقدسة من بعيد وهم خائفون، كما كان العبرانيون في

البرية يراقبون جبل سيناء من بعيد ينفث ناراً، كانت عصور الموت الروحي. «من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون» (١ كو ١١ : ٣٠).

اهتمّ بولس كثيراً بمواهب الروح القدس التي أذكت بلهيب انتظار المسيح الثاني نفوساً صلبت بالوثنية وجفّت باليهودية.

فكانت «برهان الروح والقوة» بالنسبة لانتشار المسيحية. يذكر الرسول بولس في رسائله سبعاً وعشرين من تلك المواهب[٣٦]. كان هو نفسه يتمتع بها جميعاً. ونراه يتوجه إلى الكورنثيين بالسؤال «ماذا ينقصكم تجاه باقي الكنائس؟ ألم تظهر فيكم عجائب وعلامات الروح؟». انتفخ الكورنثيون كثيراً بتفوقهم الديني وظنّوا أنهم فوق مستوى البشر وكانوا يطمحون من خلال مبالغاتهم الكلامية إلى الوصول إلى أعلى مراتب الكمال. ولكن هنا يأتي دور بولس يميز بوضوح تام بين موهبة التكلّم باللغات المختلفة والتي حدثت للمرة الأولى في اليوم الخمسين بواسطة الألسنة النارية تعبيراً عن تغلغل الروح القدس في أعماق النفس، وبين التكلم بلغات يصدر عن العالم الباطني المظلم الذي يستحوذ على الطبيعة الضعيفة بسهولة. وهذا ما كان يحدث في كورنثوس. وها هو بولس يحارب الظواهر العاطفية والتي يصعب الحكم في مصدرها وضبطها. إنّه يقودهم إلى «الطريق الأسمى» التي تفوق الإيمان وهي الرجاء والمعرفة.

لقد كتب بولس عن محبة الله فجاء نشيده من أبرز كتابات العهد الجديد يصدر من قلوب المؤمنين في اجتماعات العبادة في لحظات التأثر العميق فكان مثلاً رائعاً للنبوءة يواري في عظمته كلمات المسيح. بداخل بولس شعلة ليست من هذا العالم أوقدها ابن الله نفسه من بحر حياة الثالوث الأقدس (لو ١٢ : ٤٩).

امتلكت بولس رغبة قوية في تعريف العالم إلى محبة المسيح الشاملة الكلّ. فتحرّر كلياً من الميول والرغبات الخاصة التي أصبحت رماداً بفعل شعلة دمشق، فأصبح يقيس كلّ شيء بالنسبة إلى ذبيحة المحبة فيرى كلّ ما عداها نفايات واهتمامات أنانية. فإن كانت لديه القدرة على التكلّم بألسنة العالم والملائكة ولم تكن لديه هذه المحبة فهو نحاس يطن أو صنج يرن. وإن كانت له مقدرة صنع العجائب واستطاع نقل الجبال وإن وهب جميع ممتلكاته وكلّ ما لديه وإن أسلم جسده حتّى يحرق وليست له المحبة فلا ينتفع شيئاً لأن

كلّ هذه يفعلها بدافع الغيرة الأنانية. هناك شيء واحد فقط يساوي الحياة كلّها والعالم كلّه هو أن يغني نفسه بخدمة المحبة العلوية التي تجلّت في الصليب وفي جنب ابن الله المطعون. هذه المحبة التي لا تطلب ما لذاتها إنها تتجلّى في مظاهر مختلفة فهي تستطيع أن تستوعب وتفني وتعيد بناء كلّ فرد ولكنها لا ترمي الجميع في قالب واحد.

لم يكن بولس تلميذ المحبة التي ارتمت على صدر المسيح، فتجلّت محبته في خدمة الفكرة التي تتأكّل الإنسان حتى آخر قطرة من دمه وينتهي الإثنان معاً إلى واحد. يقول بولس: «إنّني أصلب مع المسيح.. وأحيا بالإيمان بابن الله الذي أحبني وأعطى نفسه من أجلي».

بينما يكتب يوحنا: «نحن نحبّه لأنه هو أحبنا أولاً» (١ يوحنا ٤ : ١٩) [٢٥]. إنّ كلاً منا وإن كان شاعراً عظيماً لا يستطيع أن يعبر عن لوحة المحبة هذه لو لم يكن أمامه المثال الحي للصورة التي تفيض بمحبة المسيح[١٩].

كان هذا واضحاً عند بولس كتعبير عن مدى استيعابه للبعد الأرضي لوجود المسيح بالإضافة إلى البعد الروحي. فكان له الحق أن يردّد كلام سيده الذي دعاه: «رتلوا للرب نشيداً جديداً» سبق له أن رتّله هو فكان له ميراث الأخلاق المسيحية كمبدأ تبعثه وصية المحبة. ومنذ ذلك الحين صارت الحياة المسيحية في جوهرها «الإقتداء بالمسيح» الاقتداء الواعي الذي يضع نصب عينيه دائماً صورة المسيح، ويتصرف بحسب روح محبته. هكذا بث المسيحية روحاً جديداً في البشرية روحاً يتجلّى لأول مرّة في فن الديناميس البسيط.

تمحورت أفكار بولس فيما يخص الذبيحة الإلهية حول محورين: عشاء السيد ومحبة الله الفائقة التي تنبع منه. كلّ شيء بدا كبداءة ونهاية لذلك نستطيع أن نسمّي الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس «كتاب العهد الرسولي الذي يشهد لسرّ الشكر الإلهي. ولكن هذه التسمية لا تعبّر كلياً عن فحوى الرسالة. فشخص مثل بولس عندما يتكلّم على الأشياء المألوفة أو غير المألوفة، إنّما ينهل من السرّ الخفي «الروح القدس». إنّه عندما يتكلّم على سرّ الشكر أو على مواهب الروح القدس، يتألّق كلّ شيء تحت نور «الروح القدس» ويصبح انعكاساً له. «إنّ نشيد المحبة وهو أروع ما قاله بولس في الروح القدس هو القاعدة الأساسية للحياة الدينية والأخلاقية. وكقوة الهية تغلب العالم»[١٩].

يقول بولس إنّ الله روح بينما يقول يوحنا إنّه محبة وكلامهما في جوهره واحد. فالجديد في المسيحية هو الروح القدس الذي يبدع الإيمان: «لا أحد يستطيع أن يقول إن المسيح هو الله إلّا بالروح القدس». إنّها القاعدة التي تنظم كلّ شيء في جسم الكنيسة المتشعّب والرابطة التي تؤلّف بين الطقوس المتعددة والمتباينة فيها. وقد لجأ بولس إلى التمييز بين الروح القدس والأرواح الأخرى المظلمة فجاء تعبيره واضحاً جلياً: الروح القدس هو روح المسيح لا ينفصل عنه ولا يتناقض معه. فوضع بولس قاعدة تمييز الأرواح، فكلّ شيء ينسجم مع المسيح ويفيض بمحبته والتعرف إليه هو من الروح القدس، وكلّ ما يبعد عن المسيح ويجدف عليه وينكره لا يمكن أن يكون منه. وبما أن المسيح والكنيسة وحدة لا تنفصل يسري عليهما ما يلي: كلّ ما يقود إلى بناء الكنيسة وروح الوحدة فهو من عمل الروح القدس. بينما تقود الأرواح الشريرة إلى الإنشقاق والحسد والمحاباة وكلّ فعل سلبي.

[٢٠]. انظر برات ٣٦.

قيامة الأموات كانت من أصعب مراحل التعليم عند اليونانيين. فهم بولس هذا الأمر منذ أن كان في أثينا عندما انفجروا بالضحك لدى سماعهم عنها. كما فهم مرة أخرى عندما مثل أمام الحاكم فيستوس. لذلك فهو يوسّع فكرته عن القيامة في نهاية لاهوته. فتدور عظته عن الخلاص في ثلاث حوادث: الصلب، القيامة، والمجيء الثاني للمسيح. إنّه يكرّر مرة أخرى البراهين التي وردت في عظته الشفهية. لقد وضع الرسل في صلب عظاتهم الصليب والقيامة لأنّهم أدركوا علاقة قيامة المسيح بقيامتنا. ولكن بولس تعمّق في الحوادث الخلاصية وأوضح ما تعنيه بالنسبة لخلاصنا: «فإن لم تكن قيامة أموات فلا يكون المسيح قد قام» (١ كو ١٥ : ١٣). ما هي العلاقة المعقولة هنا بين قيامة المسيح وقيامة الموتى؟ كلّ ما فعله المسيح كان من أجل خلاصنا وأتت القيامة كتتويج لموت المسيح من أجلنا وبدون هذه القيامة يبقى الصليب وتضحية المسيح ناقصين. إنّ بولس يعتبر تقدمة الآب لابنه برهاناً قاطعاً على أن المسيح ملك مملكة الله وأنّ قوة العهد الجديد بدأت فعلها. وها هو يبرهن في رسالته إلى رومية (٦ و٨) عن روحانيته. إنّ القاعدة الأساسية الفعّالة في الحياة هي روح الله الذي يمتلكه المسيحيون فيشتركون في موت وقيامة ومجد المسيح الآتي. باشتراك المسيحي في جسد المسيح السري يصبح متأكداً من القيامة المقبلة. إن قيامة المسيح هي بدء الدهر الجديد متوجاً بالمجيء الثاني. إنّ الصليب والقيامة ليسا حدثين خلاصيين يجب أن نؤمن بهما فقط، بل إنّهما قوتان تسريان في حياة كلّ من يؤمن بالمسيح.

كلّ مسيحي يشارك في موت المسيح وقيامته بطريقة تتجاوز التاريخ. في النهاية يسوق بولس للكورنثيين برهاناً بشرياً، فقد حدث أن اعتمد بعض الكورنثيون الأحبّاء من أجل أقربائهم الذين ماتوا وثنيون. كيف لا تقبل بالقيامة ومن ثم تعتمد لتؤهّل جسدك لعدم الفساد؟ كيف ينسجم هذان الضدان؟ وبالتالي فإن من ينكر القيامة يجهل الروح القدس ومعنى المعمودية. إنّه يجرد المسيحية من فحواها ويبطل الرجاء ويظهر الرسل شهوداً كذبة لله. فإن كان الإيمان بدعة اناس مجانين إذن فكلّ انتصار على الذات باطل لا قيمة له. وحياة الرسل، الموت اليومي، تصبح ضرباً من الجنون ويحق أن نقول مع الآخرين: «لنأكل ونشرب اليوم لأننا غداً نموت» وبالتالي فإن من ينكر القيامة لم يتعرف إلى الله أبداً [٣٤].

يتغلّب بولس على آخر نقطة كانت تعثر الكورنثيين وهي كيف ستكون الأجساد بعد القيامة ويفسر ذلك بأن جسدنا الأرضي سيتغير كلياً، كما يحدث بالبذار الذي لا يكشف عن الحياة التي فيه إلّا بعد أن تموت الحبّة ويظهر الزهر. إنّ بذرة الحياة الفائقة الطبيعة مختلفة من التماثل مع جسد المسيح الممجّد.

يعلن بولس في رسائل ثلاث (١ تسالونيكي، ١ كورنثوس، رومية) براهين متتابعة تحمل نفس طابع الثقة الغالبة[٣٦].

هكذا تتجلّى قيامة المسيح في شكلين: قيامة والراقدين بالمسيح» الذين يسكن الروح القدس في داخلهم فيكون عربوناً لتجليهم وقيامة البشر حيث يغلب المسيح الملك كلّ قوة معادية لله. «ويقهر الموت العدو الأخير»[٦١]. هذا هو كمال الدهر الجديد الذي بدأ «بالبذار» بقيامة المسيح. من هذا الأفق المرتفع يرقب بولس تطور العالم ومن فوق البوابات التي تقود إلى أعماق الأبدية يخط الكلمات المعبرة التي تشع كالإعلان. «الله الذي هو الكلّ في الكلّ». (أنظر أفسس ١ : ٢٣، كولوسي ١ : ١٦ — ٢٠).

يختم بولس أفكاره بترديد نشيد الظفر: «ابتلع الموت إلى غلبة. أين شوكتك يا موت. أين غلبتك يا هاوية» (١ كو ١٥ : ٥٤ — ٥٥). منذ أن قام المسيح ونضحنا بالروح القدس، خسر الموت شوكته كالنحلة التي تخسر شوكتها عندما تستعملها.

في هذه الأثناء وصل تيموثاوس إلى كورنثوس، وبولس يخشى عليه من الإساءات التي

يمكن أن يتعرض لها نظراً لحداثة سنه وصعوبة مهمته. لذلك فهو يطلب منهم أن يستقبلوه بلطف وأن يحيطوه برفقة صالحة. بينما هو أي بولس سيبقى في أفسس حتى العنصرة وسينتظر هناك عودته، فلديه مخططات للرد على الأقاويل التي تتناول المسيحية عندما سيقام في أيّار عيد ارتميس: «فتح لي باب واسع والمواضيع كثيرة».

أصبحت الرسالة جاهزة، طلب بولس أن تقرأ عليه مرة ثانية ثم تناول الريشة من سوستينوس وكتب: «السلام بيدي أنا بولس إن كان أحد لا يحب الرب يسوع المسيح فليكن مبسلاً. (الرب تعال) [ماران أتا]» (١ كو ١٦ : ٢١) هكذا ستصرخ الكنيسة عندما ستقرأ الرسالة بعد قبلة المحبة.

عندما نمعن النظر فيما جاء في الرسالة الأولى إلى كورنثوس نمجد الرب الذي «يخرج من المرارة حلاوة».

ألم تتعوض الأحزان التي ذاقها بولس من الكورنثيين أضعافاً مضاعفة؟ هل كُتب مثل هذه الفصول الرائعة التي تعتبر قاعدة اللاّهوت في كل العصور؟ هل وُجد الإصرار على نشيد المحبة لولا الفوضى في كورنتوس؟

ينتصب بولس أمامنا بكل جلاله كأعظم روحاني مسيحي وبنفس الوقت كأعظم واقعي. كان يرى ثغرات المسيحيين الخلقية بأعين مفتوحة. ولكنه كإنسان روحاني لا يضيع في المعاني التائهة. كانت مهمته الرئيسة دائماً أن يعيد بناء حياة أبنائه الخلقيـة. والذين يعثرهم واقع كنيسة كورنثوس ليسمعوا أولاً بولس الذي يشرح ناموس طبيعتنا الثنائي، الشكل الثنائي لوجودنا وليتذكر ما يعرضه ورنل Wernle : «هنا يهذب بولس الجماعات المختلفة التي يجب عليه أن ينقذها أولاً من البؤس والقذارة إلى سمو الإنجيل. إنّ جزءاً كبيراً من عمله كان أن يصل بأولئك الناس إلى ذلك المستوى الذي أخذ منه المسيح تلاميذه».

٤٤. أرتميس الأفسسية

(أعمال ١٩ : ٢٣ — ٤٠)

حياة القديسين حياة لا تنفقد منها المأساة. «يجب أن تملأ المأساة كلّ حياة عظيمة» أعلينا أن نعاني الشعور بالدهشة إذا كانت المأساة تملأ حياة الرسول العظيمة؟ في وقتٍ واحد يعمل الإلهي والبشري، العرضي والشخصي معاً في مأساة حياة القديسين. كان بولس نوع من القلق الطبيعي وكان طابعه ومزاجه يحرِّض ويسبب التشابكات. كان البقاء في مكان واحد صعباً عليه وكانت فكرته في أن تكون حياته دائماً مليئة تدفعه إلى الأبعاد البعيدة. كان يسبل جناحي رسالته إلى البعيد بصورة لا يطالها خيال بشري. هذه صفة من صفات قلبه الكبير. يخطىء القديسون أحياناً والبارزون في اختيار سبلهم أو يتغاضون عن ميزاتهم الحقيقية. علاوة على مأساة النفوس العظيمة هناك «مأساة الجريرة والضعف». كان بولس محرراً من كليهما[١٧].

نحن في أيّار من سنة ٥٧ب م وكانت أفسس تعجّ بالزوّار والفضوليين. إنّها تعيد عيد أيّار العظيم. وكان بولس قد عاد من توّه من احدى رحلاته القصيرة كما يروي بعض القورنثيين. كانت المدينة في هذا العيد تتحول إلى مدينة تجارية، إلى سوق يعجّ بالتجّار إلى سوق «باخي» لا مثيل له. إلى تمثيلية تمثّل فصولها حول تمثال أرتميس الرّائع وهيكلها. كان شهر أيّار مخصصاً للالاهة ارتميس. المنطقة كلّها، ضواحيها بجنّاتها الوارفة وأبعادها، بعلو جبالها وسفوحها المواجهة بالعبير كانت تحلم، والعبير مسكرها، أحلاماً كل أربعة سنوات، مليئة بالأماني العظيمة. عالم كامل كان يزحف من المدن والقرى المجاورة والجزر ومن داخل آسيا الصغرى ليكرم الآلهة العظيمة. كانت البيوت تؤجر والذبائح تقام والمباريات والمصارعات تأخذ مجراها وتحت لمعان النجوم كان الرقص يدور والموسيقى تعزف. وكانت هناك لجنة مؤلّفة من عشرة أشخاص أغنياء تشرف على ترتيبات العيد وتقوم بكلّ المصارفات. اشتهر تجّار أفسس بالغنى وكان غناهم من النوع الذي لا يصدّق. وكانت أفسس تسمّى بفخر راعية ارتميس. لدينا مستند تاريخي عن هذا العيد. لقد وجدت لوحة في خرابات أفسس كتب عليها ما يأتي:

«بما أنّه ليس في مدينتنا فقط بل في المدن الأخرى اليونانية يقيمون لها هياكل ومزارات بسبب ظهوراته الفعالة لذلك كدليل على الإحترام الذي يُقدّم لها خصصنا لها شهراً نطلق عليه اسم ارتميسيا. وهذا الشهر في نظر الأفسسيين شهر مقدس لذلك ستبقى مدينتنا إلى الأبد ممجّدة سعيدة تحت جناح هذه الآلهة».

كانوا يسمّون هذه الأعياد أفسسية، ارتميسية، مسكونية وكان بولس يعرف أن هذه الإجتماعات في أعياد أيّار ملائمة لنشر أفكاره لذلك اراد أن يستغلّها من أجل المسيحية. إنّ مثاليته جعلته لا يقدّر أحياناً الواقع الحقيقي ومصالح البشر الإقتصادية. إنّها لم تر أن أخصامه كانوا من طبقة التجّار الذين لا يعرفون إلا ملء جيوبهم، إنّهم يبيعون كلّ شيء اسمه المثالية ويضحّون بكلّ دين في سبيل مغنمهم. لم يكن أخصام بولس من خدّام الهيكل ولا من الكهان ولا من الفنّانين والعاطلين والخصيان. لا لم يكونوا حتّى من الأنبياء والمنجمين والسحرة، كان الربح المادي هو الخصم وهو الذي استشرى حقداً وانفجر ضغينة. هبت الزوبعة من حيث لم يكن ينتظر.

كان لحرق الكتب السحرية الذي سببه بولس أو بالأحرى حبذه قبل قليل عواقبه. عندما نتصور أن بولس وأعوانه ردّوا الكثيرين إلى المسيحية بعملهم الدّائب وجمعوا حولهم أعواناً في المدينة والقرى والجزر وإنّ هؤلاء المرتدين والأعوان لم يشتركوا في الإحتفالات وعملوا على منع الكثيرين من الاشتراك يمكننا أن ندرك أن العيد أصيب بنكسة وضربة كانت عواقبها أنّ التجّار خسروا كثيراً وأن بيع المداليات الذهبية قد قلّ وأن الحقد بلغ أشده عند أولئك الذين كانوا يربحون الأموال الطّائلة ببيع المداليات الذهبية والفضية التي كان يشتريها الزوار كهدايا لأقاربهم وأصدقائهم يحملونها على صدورهم كحرز تقيهم ارتميس من كلّ شر وأذى. إنّ الآلهة كانت نبعاً وخبزاً لأصحاب الحرف والمهن. العلاقات بين انخفاض الأعمال التجارية وبين بشارة بولس ما عتمت حتى صارت ملموسة. فديمتريوس الذي كان يُشغل عدداً كبيراً من المصممين والنقاشين والذين يعدون تماثيل من خزف ورصاص وفضة وذهب وهياكل أصيب في هذا العيد بضربة أقامته وأقعدته فوقف خطيباً بين زملائه وبين العمّال ودعاهم إلى الإضراب وحوّل بفن ضراوة العمّال ضدّ بولس والمسيحية الفتية. من الضروري أن نعرف أنّ الأفكار الاشتراكية كانت

قد وجدت لها في أفسس بسبب انخفاض الأرباح وبسبب تسريحهم لقلّة العمل صداها وتربتها وهذا ما يفسّر سرعة تلبية الجماهير حذاقة ديمتريوس الماكرة.

يقولون إنّ قضية الخبز تفتح العيون. هذا ما حصل فعلاً هنا. إنّ التجمعات العمالية الأولى المذكورة رأت أن بوادر المستقبل لاحت مع أن المستقبل كان يبدو في عيونهم بعيداً. يسكن أكيلا وبولس إلى جانب المسرح في المدينة القديمة. شكل المسرح نصف دائرة يتسع إلى خمسة وعشرين ألف متفرج (لوحة ٢١) ومقاعده الحجرية ترتفع حتى تصل سفوح جبل بيوس وينفتح على البحر. كان الكثيرون من الزوار والمتفرجين يجهلون ما يحدث، وبقوة الاندفاع الشعبي انجرف الكل وراء سيله، هيئات الفنادق والمحلات والمصارف ورجال مكتبة كلسوس والشباب الذين كانوا يلعبون ويستحمون ويقومون بالتمارين الرياضية ليروا ما يجري في المسرح. التماثيل المرمريّة العمياء التي كانت ترمز إلى الآلهة والآلهات والأبطال والأباطرة كانت تنظر إلى هذه الجموع المعربدة صامتة خرساء. فوق المسرح كان غايوس واريسترخوس صديقا بولس يرتجفان كمجرمين متهمين. عرفهما الشعب أنّهما من أتباع بولس فجرّاهما إلى هذا المكان. يجوز أن يكون الشعب قد هاجم بيت برسكيلا وأكيلا وأخذ معه هذين الإنسانين الصالحين. يجوز أيضاً أن يكون هذان الإنسانان قد رافقا الشعب بمحض اختيارهما بتهدئة الخواطر. يقدّم بولس لهما شهادته الشكرية «صافحوا بريسكيلا وأكيلا لأنهما بذلا ظهرهما من أجل نفسي» ويذكرهما في رسائله.

نجا بولس من الموت لأن العناية الإلهية رتبت ألّا يكون بولس في البيت. لا شكّ أنّه كان في قاعة تيرانو يلقي دروسه خالي البال بعيداً عن كل ما يجري[٥٦]. إنّ أصوات الشعب الصاخب طرقت أذنه. توقّف قليلاً وحاول أن يلتقط الأصوات وفجأة اندفع تلامذته وقالوا له إن الشعب يطلب محاكمته في المحكمة الشعبية وإن حياة غايوس واريسترخوس في خطر. أراد بولس أن يسرع بوصفه روماني الجنسية ليحرر صديقيه. يعرف جيداً أن جنسيته الرومانية لا تحميه من غضب الشعب. إنّ عقله كان خاضعاً لعواطفه، وقلبه كان توّاقاً إلى الاستشهاد. فأمسك به تلامذته وأعادوه إلى الوراء وحالوا دون ذهابه. في هذه الأثناء جاءت الأنباء من بعض أصدقائه الآسيويين أن لا فائدة من ذهابه لأن ذهابه يعقّد القضية[٥٠].

في هذه الأثناء كانت الأمور في المسرح تزداد هياجاً. لم يعد بإمكان ديمتريوس أن يسيطر على الموقف. الجموع اجتاحت معها عدداً من اليهود الذين كانوا يكرهونهم. خشي رؤساء اليهود أن تتحول نقمة الشعب ضدهم، لذلك دفعوا أحدهم واسمه اسكندر أن يتكلّم باسمهم ويعلن أن بولس هو خارج عن شريعتهم ويعتبرونه عدواً لدينهم، إلّا أن اسكندر هذا ارتعد خوفاً وجبناً ولكن دفع اليهود له وتحريضهم جعله يصعد إلى المنصّة. وما أن لوّح بيده حتّى هاجت الجموع وصرخت بصوت يشقّ عنان السماء: «هوذا إنسان يهودي» ثم رددت بصوت كأنّه هدير اللجة «عظيمة هي ارتميس الأفسسية»، يشير لوقا بسخريته الرفيعة إلى إحدى الصفات المميزة للنفس الشعبية بقوله «وأكثرهم لم يدرِ لأي شيء اجتمعوا». إن الطبقات الشعبية وقعت تحت تأثير الأحابيل البشرية[١٧] الشيطانية وكثيراً ما حدث ذلك في تاريخ البشرية. في أورشليم سيواجه بولس مرة أخرى ما واجهه في أفسس بدافع النميمة البشرية المستغلة.

الكاتب: الموظف الأول في المدينة الذي تخلّد رتبته الأوامر والعناوين والعملة، كان خبيراً بالنفس البشرية وبخباياها. من حسن الحظّ أنّه لم يكن من محبّي الفوضى بل رجلاً مدركاً لمسؤوليته. ترك الجموع تصرخ حتّى كلّت وعندما أصيبت أصواتها بالتعب وخفّت صوتها خرج إليهم من باب جانبي وحدّق إلى بحرهم الهائج بهدوء وثبات كرئيس خبير بالتجمعات البشرية، إنّ هدوءه مؤثر والشعور بالكرامة أقبل تدريجياً. لقد سيطر الصمت مدة دقائق فأثّر الصمت في الجموع وترك لهم الفرصة ليعودوا إلى نفوسهم. إنّ كلمة الكاتب الثابتة كالصخر صدّت هوس الجموع «يا رجال أفسس من من الناس لا يعلم أن مدينة الأفسسيين متعبّدة لأرتميس العظيمة ولتمثالها الذي هبط من زوس. فبما أن هذا لا يقاوم يجب عليكم أن تكونوا على سكينة ولا تصنعوا شيئاً عن تهور، فإنّكم أتيتم بهذين الرجلين وما هما بسارقي هياكلكم ولا مجدفين على إلهتكم فإن كان لديمتريوس وللصناع الذين معه دعوى على أحد فإنّها تقام أيّام للقضاء والولاة حاضرون. فليترافعوا. وإن كنتم تطلبون أمراً آخر فإنّه يفصل بينكم في محشدٍ شرعي...» كانت الموعظة موفقة فاستيقظ الشعب كأنه من سكر وخجل من نفسه فأمرهم الكاتب بإشارة من يده فتفرقوا. فشلت الإنتفاضة وضاعت إلّا أنّ الشعارين بقيا يترددان لمن النصر؟ ألأرتميس أم ليسوع؟

من يكون بولس هذا؟ إنّه إنسان هجوم وانقلابات. في البدء قام بهجوم ضدّ الشريعة

الموسوية ونزع عن هيكل أورشليم قيمته الأزلية. والآن، ها هو يضع الفأس في أساسات هيكل أرتميس وبه ليضعها في أساسات الوثنية كلها. أين هي أرتميس اليوم وأين هيكلها. إنّ عظمتها غرقت وغرقت معها طبقة اجتماعية وحضارة كانت تعيش. غلب المسيح ارتميس وعبادة الأباطرة وكل التدين الوثني الذي أصبح مغامرات تجارية. بيد أن أفسس بدّلت مجدها بمجد آخر مجد تأسيس كنيستها على يد أعظم الرسل ومجد حيازتها مجد رسول آخر لا يقلّ عنه شهرة. في أفسس كتب يوحنا إنجيله في أحد ازقة المسيحيين الضيقة. هذه هي الغلبة التي غلبت العالم. إنّه إيمانكم. إنّ لوحة لا تزال قائمة في خرائب ملوكية يوحنا كان قد بناها الأمبراطور يوستنيانوس تشير حتى اليوم إلى قبر الرسول. يروي التقليد أن الرسول دفن والإنجيل على صدره. الزوار الأتقياء كانوا يؤمنون بأنهم كانوا يسمعون من أعماق القبر دقّات قلب رسول المحبة العظيم. إن ذكرى بولس ويوحنا لا تفارق رجلاً رسولياً آخر. إنّه أغناطيوس الأنطاكي الذي استقبل وفداً من أفسس مؤلفاً من أسقف أفسس أونيسيموس والشماس فوروس والمؤمنين كروكوس وأفبلوس بينما كان يستريح في أزمير في طريقه إلى الاستشهاد في رومية. في كتابه الشكري لأهل أفسس يمجّد أغناطيوس كنيستهم. كانت أفسس عاصمة المقاطعة تتمتّع بسلطة روحية وزمنية وكان كلّ الأساقفة هناك يشتركون في سيامة مطران أفسس. رأت أفسس وسط جدرانها سبعة مجامع وقد وصلت إلى ذروتها الدينية في المجمع المسكوني الثالث ٤٣١ الذي انعقد فيها ضد نسطوريوس فتكرّمت والدة الإله ووضعت أسس عقيدة اتحاد الطبيعتين في شخص المسيح. وبهذا وضع الأساس للحضارة المسيحية المستقلة. كانت بداءة حسنة إلّا أنّه بعد ثماني عشرة سنة ٤٤٩ بتساهل بشري أخذ مصير هذه المدينة شكلاً مفجعاً. صارت أفسس مقراً للمجمع اللصوصي المشهور حيث انتهت صراعات الإيمان بين الرهبان المتزمتين والأساقفة وبين الهراطقة إلى الضرب بالعصي. في القرن الثامن اندفعت الحياة الدينية خطوة إلى الأمام لعبادتها للسبعة الفتية الذين التجأوا إليها في أيام الاضطهادات واختبأوا في أحد كهوف بيوس وناموا ثم استيقظوا بصورة عجيبة في أيّام الأمبراطور تيودوسيوس. ولا يزال هذا الكهف قائماً حتى اليوم يثير في أعماقك عاطفة السحر. الفتوحات قلصت ظل أفسس فأخذت تتراجع إلى الوراء حتى أصبحت كما هي اليوم.

لا بدّ أن تسأل البشرية لماذا خسر المسيح كلّ ما أقامه بولس ويوحنا؟ الجواب يشكّل أعظم درس تاريخي، درس يهز جوانح النفس وأعماقها. إنّها مأساة المسيحية يلمسها

الإنسان عندما يراها بعين بشرية. ألداء هم أعداء المسيحية وكانوا من المسيحيين، والمسيحيون هم الذين طاردوا رسل المسيحية. طارد المسيحيون من أصل يهودي أخاهم في المسيح والأساقفة والرهبان قذفوا بمن أحب بولس إلى مجاهل آسيا ليذوق ملوحة التراب في أرض مالحة. لم يكن الإيمان هدفاً كما كان عند بولس. اللاهوتيون كانوا يفلسفون السياسة والأباطرة يشتغلون باللاهوت، فصار الإيمان موضوع سياسة الأمبراطورية. بهؤلاء خسرت المسيحية القوة التي كانت تملكها قبلاً بصورة رائعة. ماذا تفيد كلّ رفوف الكتب المقدسة وعظام الشهداء والقديسين وحياة القديسين المؤثرة والتراب العجائبي وحياكة القديسة هيلانة للأوشحة المقدسة إذا كان الروح قد ضاع وفقد؟ إنّ طقوسنا الخارجية بدون روح المسيح لا تأثير لها أكثر من تأثير عربدة الجموع وصياحها التي استعملها ديمتريوس. إنّها كالشعار «عظيمة هي ارتميس الأفسسية»، «مواعيد الله لا يملكها إلّا القلب العميق بالإيمان»[٥٠].

السائح الحالم الذي يحدّق إلى خرائب أفسس من أعالي السور البيزنطي يتنشّق نسيم التاريخ ويشمّ لهاث الموت. عصور أفسس التاريخية تنام تحت الرماد. هناك قرية صغيرة حقيرة اسمها «أباسولوك» — «القديس اللاهوتي» تخلّد ذكرى يوحنا الإنجيلي. إنّ أفسس بسلسلة روابيها هي «واحة خنثى» والزهرة الهوميرية التي تنبت في أفسس بكثرة تنشر عبقاً من الموت. إنّ الخشب المجوّف الذي ينمو بكثرة هناك والذي حمل إليه بروميثيوس نار الآلهة كما يقول تقليد موفق يشبه تلك الشعلة المقدسة الرمزية التي أشعلها بولس في هذه المدينة الجوفاء. هيرقليتوس الغامض الذي قال «كلّ شيء يجري» أثبت أنّه على حق، شيء واحد بقي كما هو. بقي كلّ شيء كما كان في عصر بولس وهوميروس. أعشاش الطيور وطيور البحر التي تلتقط الأسماك والطائر الحزين الذي يغوص في المستنقعات وتموج المياه فوق جبل كاسترو ورشاش الشلالات الكولوية. يا لأسراب الطيور ما أكثرها: الوز، والبط، ومالك الحزين، ذو العنق الطويل في المرج الآسيوي، وعلى سفوح كايستروس تصفّق أجنحتها فرحة مرفرفة وتخلد إلى سكينها شادية لتصغي إلى حفيف الأوراق الخضراء. (الألياذة ١١، ٤٥٩ — ٤٦٢).

أضاع مجد عالمٍ بكامله دون أن يترك أثراً ، إلّا أن هيرقليتيوس لم يكن على حق . المكان جدير بالاحترام . في هذا المكان كتب بولس «أمّا الرب فهو روح» (٢ قور : ٣ ، ١٧) ، وبشر يوحنا بتجسد الكلمة . هذا الروح وهذه الكلمة ليسا بكلمة هيرقليتيموس ، تلك التي يذريها الريح في الكون هباء ما أن تخرج من الشفاه . من هنا . من أفسس جدد الروح والكلمة سلطتهما فوق العالم وبنيا بيتهما بين الشعوب . أين يقوم الرب؟ إن بولس ويوحنا لم يخلقا رمزاً خيالياً بل بشراً بشخصٍ حقيقي تأكّد وجوده التاريخي بحوادث أساسية بالموت على الصليب الذي جعله بولس أساساً لبشارته وبالتجسّد الذي كان أساساً لإنجيل يوحنا . صارت الكلمة لحماً فرأيناه ولمسناه بيدينا وخرج من جنبه دم وماء.

هذان الحادثان لا يجعلان المسيحية صوفية . حول هذين القطبين يتحرك التاريخ إلى الأمام.

٤٥ . رحيله من أفسس
(الرسالة الثانية إلى أهل كورنثس)

(أعمال ٢٠ : ١ — ٢)

من الصعب أن نبيِّن الحوادث التي تخللت بين رسالتيه الأولى والثانية إلى أهل قورنثية . التلاميح في رسالته الثانية تسمح لنا أن نفترض ما يأتي : عاد تيموثاوس من قورنثية في الأيّام الواقعة بين عيد الفصح وعيد العنصرة سنة ٥٧ ب . م . كانت الأخبار التي نقلها عن مسلك الذين كانوا يحيكون الدسائس مزعجة . لم تجبر رسالة بولس خصومه على الصمت بالرغم من قوّتها .لذلك قرّر إرسال تيطوس مفوضاً بصلاحيات جديدة لمعالجة الأمور هناك . إنّ أحد القورنثيين أو بالأحرى أحد الفوضويين الغرباء قام بعمل لو بقي بدون عقاب لزعزع سلطة الرسول ولمنع عودته إلى قورنثية (٢ قور : ٧ ، ١٢) لا يصف بولس المظلمة بإسهاب بل يكتب فقط «ما كتبته الكم لم أكتبه من أجل الظّالم أو من أجل المظلوم، بل ليتضح لكم حرصنا عليكم» . أكان تيموثاوس بالذّات الذي عومل في اجتماع الكنيسة معاملة سيئة وأهين إهانة قاسية؟ على كل ، إنّ الآية : تحتملون من يستعبدكم ومن

يستأكلكم ومن يأخذ منكم ومن يتكبّر عليكم ، ومن يضربكم على وجوهكم (٢ قور : ١١ ، ٢٠) تشير إلى ما حدث من أعمال وقعت بالفعل. يظهر أن الفئة الموالية لبولس وجهت له دعوة ليحضر إلى قورنثية [٤٢] لم يكن بإمكان بولس أن يقرر ذلك. تحمَّل سابقاً الكثير ، وبالتهديد ذكّر المتقدمين بواجباتهم . لا يريد أن يصاب الآن ما أصيب به سابقاً . لم يرد أن تزداد الأمور حدّة. تحت عوامل هذه الخشية التجأ إلى تيطوس ورجاه أن يتّجه إلى هناك في طريقه إلى آخيا ، وقد اضطر بولس أن يشرح لتيطوس ميزات القورنثيين ليتمكّن من إقناعه (٢ قور : ٧ ، ١٣) فاقتنع تيطوس محبّة بالرسول وتغلّب على تردّده . انطلق تيطوس إلى قورنثية يحمل معه تفويضاً مطلقاً ورسالة إلى أهل قورنثية يطلب فيها توبتهم . يقال إنّه كتب رسالة بالدموع كانت تحمل طابعاً شخصياً يتعرّض فيها لقضايا محزنة ، إلّا أنّها فقدت . «إنّي من شدّة الحزن وكرب القلب كتبت اليكم بدموع غزيرة» (٢ : ٤) (٣٣] . قصاص الظالم سيتمّ بعد محاكمة تبين كم كان المتقدمون مسؤولين عن المظلمة .

انطلق تيطوس على رجاء أن يلتقي بالرسول بعد عودته عن طريق مقدونيا وطروادة . خلال ذلك حصل ما حصل في أفسس فاضطر بولس أن يرحل عنها قبل الوقت المحدد .

في صباح غمره السحر من سنة ٥٧ ب . م . ترك بولس أفسس ووجهته طروادة . كان تيموثاوس وغايوس وأريسترخوس وسيكوندو وتيخيكوس وتروفيموس معه فأضافهم شخص اسمه كاربوس كان متقدم الكنيسة (٢ تيمو : ٤ ، ١٣). قبل سبع سنوات أراد أن يتكلّم في هذا المكان فمنعه الروح القدس . أمّا الآن فأصبح «باباً مفتوحاً للرب» (٢ قور ٢ ، ١٢) ، لكن قلبه كان بالرغم من ذلك منقبضاً لا يتعزّى مليئاً ألماً . إنّ كلماته لا تدلّ على حرارة ، وصوته يخلو من الرنة فكأنه صوت ناقوس مكسور. تمرّ بالقديسين ساعات كهذه الساعات القاحلة . يكفي أن نقرأ كتب الصوفيين أمثال القديس برنابا حتّى ندرك مثل هذه الحالات . كثيراً ما كان قلب هذا القديس خالياً من الحرارة والحماسة . في مثل هذه الحالات العصبية ، في مثل هذه الحالات من التراخي كانت أوجاع رأسه تستيقظ وصداعات رأسه التي كان يسمّيها «وزة الجسد» كانت تهب . لم يكن بولس من الرجال الذين يستطيعون أن ينتظروا طويلاً فسافر إلى مقدونيا في السفينة التالية لملاقاة تيطوس عند عودته . كانت زيارته الأولى إلى فيلبي حيث التقى بعد غياب طويل صديقه لوقا . إنّ أحزان الرسول لم تبددها عين لوقا المؤاجة بالأحلام ، ولا قضت محبّة أصدقائه على

اضطرابه وقلقه الدّاخلي (٧ : ٥). نعم لقد أثر في نفسه استقبال أهل فيلبي الحار لكنّه بقي منكمش النفس. في أحد الأيام قرع باب بيت ليديا ففتحت الخادمة الباب فارتدت مسرعة والفرحة تملأ قلبها وقالت جاء تيطوس. هالة من نور الفرح ارتسمت على وجه بولس عندما رأى تيطوس. كان يعرف أن أصدقاءه يتعرّضون إلى الأخطار دوماً. «لم تكن عودة أحد مرسليه من السفر حادثاً بسيطاً[٤٢]» حمل تيطوس للرسول أخباراً سارة، فاستقبله القورنثيون بخوف ورعدة لتسلحه بصلاحية بولس المطلقة، ولتخوفهم من قوّة بولس الرهيبة التي يحملها. أسالت رسالة بولس دموع المسيحيين وجعلتهم ينظرون إلى الأمور نظرة جدية فطُرد من الكنيسة بعد قرار الأكثرية كلّ زانٍ وامتنع المسيحيون عن مخاطبته. مثل هذا القرار زعزع نفوس الزواني وجعلهم يشعرون بثقل نفسي وألم عميق ممّا أدّى إلى القربة واصلاح وجداني وكانوا يطلبون أن يعودوا إلى الكنيسة وكانت الكنيسة مستعدّة لقبولهم إلّا إنّها رأت أن تستشير الرسول قبل إقدامها على هذا العمل. عوقب الظّالم بقسوة وتبين أن المسؤولية لم تكن على الكنيسة. قضي على الدس والنفاق لكن مثيري الشقاقات استمروا في غيّهم يطلقون الأراجيف والإشاعات ويقولون إن الرسول لا يستقر على قرار فتارة يقول بأنه سيذهب إلى هنا وتارة يغير ما يقوله ليذهب إلى مكان آخر. إنّه رسول المناسبات يفعل ما يحلو له. إنّه لا يجسر أن يأتي إلى قورنثية. إنّ قدرته تنحصر في كتابة الرسائل وجرأته لا تتجلّى إلّا من بعيد. الفئة الكبرى بقيت مخلصة له وكانت تتوق زيارته وتشتاق اليها ليعزيها ويغفر خطاياها (٧ : ٧ — ١٢). هذا ما نقله تيطوس للرسول.

تعزى الرسول تعزية كبرى ثم نهض ورفع يديه الى السماء وتفوّه بصلاة شكرية حارة وقال: «يا إلهي أيّها المعزي المتواضعين لقد عزيتنا بحضور تيطوس» لم يُر بولس مسروراً منذ زمان طويل كما كانه اليوم. إنّ أشعة عيونه عادت إلى ضيائها القديم وعادت إلى صوته قوته ورنته الساحرة. أرأيت يا أخي تيطوس، لقد جاءت الأمور كما توقعتها، لم يخيب القورنثيون أملي، سأذهب إلى قورنثية عندما لا أسبب انزعاجاً. كنت محقاً في افتخاري بهم (٧، ١٤)، إنّي أريد أن أكتب للقورنثيين مرة أخرى وعليك يا أخي تيموثاوس أن توقّع الرسالة معي حتى يرى القورنثيون أننا جميعاً متفقون في الرأي كمؤسسين للكنيسة وأن تقف نفس الموقف، فكلّ إهانة أصابتك أصابتني، وإن عفوي هو عفوك.

لا يكتب الإنسان بهذا القدر من السهولة والرشاقة إلّا عندما يكون تحت هوسٍ عظيم

وتكون نفسه مفتوحة بالبشر والسرور. إذا كانت رسالة بولس الأولى هي الأهم من ناحية غنى الأفكار وعمقها فالرسالة الثانية إلى أهل قورنثية هي أهم كل رسائله من حيث الغنى العاطفي. يقول البعض إن الرسالة الثانية هي مجموعة من الرسالات جمعتها ظروف خارجية. إنّها كما يقولون، رسالة تعزية ومصالحة (الفصل الأول والسابع) ورسالة تحريض (الفصل الثامن والتاسع) وأخيراً رسالة من أربعة فصول (الفصل العاشر إلى الثالث عشر). صحيح أن الرسالة مؤلفة من أقسام مختلفة لم تكتب دفعة واحدة إلّا أن كلّ قسم كتب بعد الآخر وبمقياس نفسي واحد كرسالة واحدة. إن اختلاف اللهجة يفسره تعدد الفئات التي كتبت من أجلها. في القسم الأول يخاطب الرسول الفئة الموالية له بلهجة المصالحة. إلّا أن المسيحيين المتهودين كانوا لا يزالون في قورنثية وكانت خصومتهم لا تزال على حدّتها، كانوا يهاجمون رتبة الرسول وكانت هذه المهاجمة تفعل فعلها في قورنثية. كان شخص الرسول هو المقصود وكان عليه أن يضع حداً لهذا الهجوم وأن ينهي كلّ حساباته مع هذه الفئة المقلقة. إنّ دعم رتبته هي حجر الزاوية في الرسالة، والسلام الرئيسي الذي كان يستعمله خصومه هو الآلام التي يتحملها والاضطهادات والفاقة التي كان يتمسك بها. هذه الأمور جرّدته من كلّ عظمة رسولية في أعين البشر الترابية. انتزع بولس من أيديهم هذا السلاح وبرهن على أن آلامه هي فخر ومجد لعمله الرسولي(٤٢). لذلك نراه يكثر الكلام على عذاباته وما تحمله من آلام. هذا هو الخط الأساسي الذي يوجه الرسالة وبحق يمكن أن تدعى رسالة الآلام وختماً لاعتراف وجداني بعذاباته.

بعد صلاته الشكرية يذكر بولس قارئيه بحوادث أفسس الرهيبة. لأول مرّة يشعر بأنّه لا يمكنه أن يحتمل وأن قواه تلاشت ونهايته اقتربت، لذلك يرجو أن تقام صلوات شكرية في الكنيسة من أجل خلاصه من الموت (١، ١١)، إنّه يثور ضدّ الملحدين الذين يفسّرون بنواياهم العاطلة تأجيل أسفاره المبررة ومخططاته على أنها نقص في الخلق، على أساس أنّه يقول في بعض الأحيان نعم وفي بعض الأحيان يقول لا. إني أقرر قراراتي حسب قابليتي حتى يكون كلامي نعم نعم ولا لا. يشير بولس هنا إلى كلمات المسيح «فليكن كلامكم نعم نعم ولا لا وكل ما زاد على ذلك فهو من الشرير» «لو كانت التهمة صحيحة بالنسبة له وهو الذي يعيش كلياً في المسيح لكانت التهمة تطال أيضاً المسيح نفسه» «لأن يسوع المسيح لم يكن نعم ثم لا بل كان فيه نعم لأن مواعيد الله كلّها إنّما هي فيه نعم وفيه آمين». عندما أجّل بولس زيارته إلى قورنثية لم يفعل ذلك لا عن خوف ولا تحقيقاً لهواه

الخاص بل حرمة لهم وحباً بهم. يتهمونني بأنني محب للسلطة وأني أحب أن أسيطر على إيمانكم وأن أعذب ضمائركم. آه كم تجهلونني! الغاية من الرتبة الرسولية ليست السيطرة بل الخدمة. الغاية أن تهب الفرح للناس. إنّ ابن الله جاء ليخدم لا ليُخدم ليكون الفرح فيكم كاملاً. الهدف من القصاص الكنسي ليس الفم بل التوبة الخلاصية التي تقود إلى الحياة عوضاً عن الموت. هذا هو المعنى الخلقي للعقاب الذي يؤكّده بولس في حالة المتزوجين دموياً. استعمال سلطة الكنيسة للعقاب يجب أن يكون بعيداً عن التطرف فالتطرف هو من أحابيل الشيطان (٢ : ١١) وعلى الكنيسة أن تتخلص من هذا الفخ بسلوكها طريقاً يقودها فيه الروح القدس. يقدّر بولس مسبقاً أن الله سيسامح من يعيش زواجاً دموياً ويرجو الكنيسة أن تفعل كذلك، لأنّ غفران الله مضمون للتائبين. مغفرة الخطايا فكرة رافقت الكنيسة منذ أيّامها الأولى[٣٠].

إن فرحه نفخ فيه العزيمة وجعله يعود إلى الوراء على جناح خياله محلّقاً فوق منجزاته السابقة. الحمد لله الذي «نصرنا دائماً». يذكر بلوتارخوس أن كليوباطرا عندما زارت قبل موتها ضريح انطونيوس أقسمت بأنّها تفضّل الموت على الأسر وقالت[١١] : «لا لن يجرّني قاهرك وراءه يوم دخوله المظفر إلى رومية. كانت العادة أن يسير الأسرى والملوك المقهورون في مؤخّرة الاستعراض وكان البخور يتصاعد من أمام القائد كأنّه غيوم كثيفة وكانت تكتنفه لذلك كان من الضروري أن يكون إلى جانب القائد إنسان عبد يذكره بأنه رجل ميت «لا تنس يا قيصر أنّك رجل ميت». إنّ بولس يُسرّ بالدور المعتدل الذي يلعبه في استعراض المسيح الظافر. يمكنه أن يكون إمّا راية وإما حاملاً للمبخرة لينشر رائحة معرفة المسيح. كما أنّ البخور يتصاعد شيئاً فشيئاً من المبخرة حتى يملأ كلّ الكنيسة، كذلك يرى الرسول منطقة بحر إيجه. إنه كالمبخرة التي يتضوّع منها عطر الإنجيل العذب. ومن قلبه يرتفع البخور المشتعل في أتون قلبه بالحب. لا بأس أن يتحوّل قلبه إلى جمرات ملتهبة وأن يحترق كالبخور من أجل المسيح ليستنشق كلّ العالم عرف المسيح. أولئك الذين يتنشّقون عطور الموت هم للموت والذين يتنشّقون عطور الحياة هم للحياة.

إن رتبته الرسولية تزوّده أكثر فأكثر بالصور. إنّه لا يحتاج إلى كتب توصية كخصومه. رسالتنا هي أنتم مكتوبة في قلوبنا، معروفة ومقروءة من جميع الناس... فكتبت لا بمدادٍ بل بروح الله الحي لا في ألواح من حجر بل في ألواح القلب من لحم» «الحرف يقتل

والروح يحيي». يكفي أن يكون بولس قد كتب هذا ليكون خالداً. إنّ خصومه كانوا يجابهونه بموسى. حسن وحسن جداً. إنّهم كمن يسخرون من نفوسهم، عندما كان موسى يتكلّمّ أمامَ الشعب العديم الفهم كان يغطّي وجهه بغطاء، حتّى اليوم عندما يقرأون الشريعة يلفّونه بغطاء مطرّز ملوّن. إنّ هذا يرمز إلى الغطاء الجاثم فوق قلوبهم لذلك لا يرون أن العهد العتيق بطل بالمسيح. البشارة المسيحية لا تحتاج إلى مثل هذا الغطاء. إنّنا لا نبشّر بأنفسنا بل بالمسيح. إنّنا نريد أن نكون خداماً بسطاء من أجل نعمة المسيح. إنّ حادثة دمشق تبقى المشعال الذي ينير كلّ وجوده. إنّها تعمق شعوره برسوليته، إنّ نعمة المسيح هي التي غيّرت كيانه وقلبت وجوده، وجعلته رسولاً تنفتح أمامه الطرقات بنعمة النور الإلهي الذي رآه ويراه دائماً يعمل في داخله.

ربما تعترضون وتقولون إن مظهرك الخارجي لا يتفق مع الشخص المرسل. هذا الإعتراض يفتح المجال أمام الرسول ليعترف أعمق اعتراف في حياته. يظهر التضاد بين جسده التافه المنهار من الأمراض والعذابات وبين داخله الروحي. كما أن حياة المسيح كانت عبارة عن تضحية دائمة، حياة طاعة حتى الصلب، هكذا كانت حياة بولس في تشبهها بحياة المسيح. إنّه يصف حياته في الآلام والعذابات والمخاطر والضيقات، كانت حياته عبارة عن استشهاد دائم يدفعه تواضع عميق. يكفي أن يقرأ المرء جداول آلامه في رسالتيه إلى أهل قورنثية (١ قو ٤ : ٩ — ١٣، ٢ قور ١ : ٨ — ١١، ٤ : ٧ — ١٢، ٦ : ٤ — ١٠، ١١ : ٢١ — ٣٣) حتى يشعر بعمق المأساة التي كانت تتمثّل في داخله. الآلام هي السرّ الذي يكمِّل الحياة الداخلية في المسيح. كلّ قدرته يستمدّها من الوحدة في المسيح (الذي تألّم وقام) كلّما ازدادت الآلام ازدادت القوة والكرامة، كلّما ازدادت الآلام ازداد الإنسان قرباً من المسيح.

بما أنّه يعرف أنه مدعو ليتألّم أكثر من الجميع وفي سبيل الجميع، فإنّه يشكر الله لأنّه اختاره ليكون له عمل خاص في الكنيسة وبالنسبة للكنيسة. ما عدا الاضطهادات فإنّ له أمراضه المزمنة. إنّ رجاء يسوع المثلّث في الجسمانيّة يقابله رجاء بولس المثلث رجاء تحرّره من وشوشات الجسد ومن ضربات ملاك الشيطان[٦٥]. بهذا المظهر وبهذا الفيض من الآلام من أجل المسيح يقدّم بولس نفسه للقورنثيين. هذه الأشياء تجعله يتفوّق تفوّقاً عظيماً على الآخرين ويشعرك بتفوّق كاهن المسيح وسلطانه. هكذا يتمكّن أن يخذل أخصامه

الأقوياء وأن ينتزع من أيديهم حجّتهم بأنّه رجل تافه من كثرة المصائب ويجعلها راية ظفر للمسيح.

إن مشاطرته آلام المسيح يبرّر الفكرة أنّه يعاني ما تعانيه الكنيسة ويتألّم معها «إن كنّا نتضايق فلتعزيتكم وخلاصكم» «حتى أنّ الموت يعمل فينا والحياة فيكم». عندما تتراجع أصداء الآلام تكسب الكنيسة والإيمان عزماً عظيماً. التضاد الذي ينطوي في العبارة «صار المسيح فقيراً لتصبحوا جميعكم أغنياء بفقره» يسير جنباً إلى جنب مع حياته الرسولية. «كأننا مائتون وها إنّنا نحيا» و«كأنّنا فقراء ونحن نغني الكثيرين» و«قد صرنا كنفايات العالم وكأقذار يستخبثها الجميع». هذه الآلام تزداد ترجيعاً وبقوة في الفصل الثاني عشر «إنّي أبذل حياتي في سبيلكم». بين قسمي الرسالة يعالج الرسول أمر التبرعات لكنيسة أورشليم. إنّ هذا العمل لمن الأعمال الأساسية. إنّه لا ينسى كنيسة أورشليم. إنّها الكنيسة الأم وعلى الكنائس الشقيقات أن تسهم في حياة أورشليم، وأن تمدّ يد العون لفقرائها. كان يجبّ أن تكون المساعدة واسطة لتبيان وحدة الكنيسة في آلامها وأحزانها، وأن يكون الاشتراك مدفوعاً بعامل المحبة المسيحية. للتدليل على احترام الكنائس الشقيقة يجب أن يحمل الذين تبرعوا تبرعاتهم إلى الكنيسة الأم. ما قيمة المسيحية إذا كانت لا تهتم بالفقراء والمحتاجين وما قيمتها إذا صدّت نفسها عن سماع أصوات البؤس؟ على أولئك الذين يتاجرون ليربحوا الأموال الطائلة أن يحوّلوا جهودهم من أجل اسعاد البشر وأن يخاطبوا قلوبهم. ما قيمة الكاهن الذي يكنز الأموال ويخسر ثقة الشعب؟ المسيحية ثقة وخسارة الثقة هي خسارة المسيحية كلّها. إنّ العطاء عندما ينمّي فينا روح المحبة ينفقد منه عدوه الصلف. العطاء الذي يضاعف المحبة يثمر خيراً ويبعد عن المعطى له روح الخجل وأحياناً روح النقمة.

كان البعض يقول إن بولس متكبّر وأنّه يحبّ التسلّط والمجد. إنّه ينفي التهمة ويلصقها بهم. إنّهم هم الذين يفاخرون باتصالاتهم مع البارزين من كنيسة أورشليم وهم الذين يقيمون الولائم ويزورون البيوت طمعاً في الجاه وحبّ الظهور. لقد حمل تيطوس وكان معه على ما يظهر لوقا وأريسترخوس الرسالة، كان تأثير الرسالة حتمياً. الرسالة كانت عهد بولس لكنيسة قورنثية التي أعطى دمه وقلبه من أجلها. يظهر أن قورنثية نسيت منذ بدء القرن الثاني صدمات بولس. بلى إنّها لم تنس شيئاً واحداً. في كلّ مرّة تلوح فيها التجربة

أمام البشر للتوفيق بين الكنيسة والعالم ، في كلّ مرة يلوح فيها خطر الحلول الوسطية بين الكنيسة والعالم وامتثالهم لإرادة العالم يبرز بولس داعياً يدعوهم إلى العودة إلى عالمهم الداخلي إلى روحانيتهم الداخلية ويسمعون «وكأبناء للروح لا يتملكنكم الشيطان».

٤٦ . الشتاء في كورنثس
رسالة بولس إلى أهل رومية

(أعمال ٢٠ : ٣)

جدَّد الإستقبال الودّي الذي لقيه من القورنثيين المخلصين له قواه تحديداً عجيباً مكّنه من أن يفكّر في أفكار جديدة. في رسالته إلى أهل رومية (١٥ ، ١٩) إشارة إلى زيارته لايليريا. كانت ايليريا تشمل آنذاك شواطىء دلماتيا حتى ايبيروس وكانت ذات قيمة كبرى. يظهر أنّه أسّس في نيكوبوليس من أعمال أبيروس كنيسة زارها بعد عشر سنوات من تأسيسها وقضى فيها شتاءه الأخير. في بدء شتاء ٥٧ ب. م. اقترب بولس أيضاً من بحر إيجه حيث كان ينتظره ممثلو الكنائس ليرافقوه إلى أورشليم ، فرافقه سوتيروس ابن يرّس من بيرية وارستركس وسكندس من سالونيك وغايوس من دربة وتيموثاوس وتيخيكوس وتروفيموس من آسية. إنّه أعظم أركان من المجندين يمكن أن يحيط برسول. عندما رأى القورنثيون هذه الحاشية العظيمة أدركوا عظمة الرسول المسكونية. في هذه المرّة بقي الرسول في بيت غايوس الفسيح الذي استضاف أيضاً كلّ الكنيسة. كان غايوس من الأشخاص الذين عمّدهم الرسول شخصياً (١ قور ١ : ١٤ رومية ١٥ ، ٢٣).

كانت الرحلات الطويلة مستحيلة في الشتاء وكان أمام بولس الوقت الكافي ليضع للكنيسة نظاماً كنسياً يكفل لها حياة هادئة بعيدة عن انزعاجات مستقبلة. كان لوقا بارعاً في الكتابة ، كان لا يحبّ في كتاباته أن يركّز على الصراعات العنيفة ، كان يكتب كطبيب وغالباً ما يترك منصبه جانباً ، إنّه يشير إلى الصراعات ضدّ المتهودين بصورة عابرة.

والآن يجلس بولس في بيت صديقه المضياف في قورنثية ويفكّر بهدوء ، يراجع عمله

الرسولي في العشرين سنة الماضية ويفكّر في الطرق والسبل العجيبة التي استعملها الله من أجل البشرية ويعكف على نفسه ليتزوّد من خبرتها. هنا في هذه النقطة حيث يتصالب الشرق والغرب تتجه أبصاره إلى تلك المدينة اللامعة منذ زمان في أفق حياته إلى تلك النجمة التي ترافق خياله كصورة لحنينه[٢٧]. هنا في هذا المكان يلوح له أن عمله في الشرق انتهى. فهو ركّز أقدام المسيحية في جميع أمكنة المواصلات. إنّ انتشارها في الأرياف هو مسألة وقت فقط. «من أورشليم حتى ايليريا تمّت البشارة في المسيح... والآن لم يعد لي مكان في هذه المنطقة. الدولة الرومانية كانت واسعة الأطراف إلّا أنّ سكّانها قليلون كما يستدلّ من الأمكنة التي بشّر فيها بولس. أخذ بولس يفكّر في نقل دائرة الثقل في عمله إلى الغرب. إنّ رومية المتسلطة تجعله يلتقط في ذهنه الفكرة الكبرى لكنيسة جامعة مسكونية. يحتاج بولس إلى رومية لتكون منطلقاً لعمله في إيطاليا واسبانيا. «آمل أن أتوجّه إلى أسبانيا لأراكم في استقبالي هناك». انّه لعمل بطولي أن يحمل إنسان على أكتافه كلّ المسكونة المسيحية وخصوصاً إذا كانت الشيخوخة قد احتضنته. كان ينتظر الوقت المناسب في البحر ليسافر.

في أعماق الأفق، في الشرق، كانت كنيسة أورشليم الحذرة تحيط بالهيكل. وفي أفق الغرب كانت كنيسة رومية بلونها اليهودي القوي، أو بالأحرى بلونها اليسّاوي، بصوّامها الصارمين أكلة الأعشاب. كان بولس يسمّي هذه الضمائر المريضة «بمرضى الإيمان» بعكس «الأقوياء»، وهكذا قرّر بولس أن يقوم بسفرة جديدة إلى أورشليم ليوطّد السلام مع الكنيسة هناك، حتى يتمكّن أن يقدّم للمتهوّدين في كنيسة رومية «غصن الزيتون» برسالة هدفها أن يبين بأنّه ليس من الجاحدين لأمّته ولا يريد أن يقصيها عن المواعيد الإلهية وأن إلغاء الشريعة لا يعني نقضاً للمعاهدة وأنّه ليلاً ونهاراً يشعر بألم عميق من أجل مصير إخوته. أضف إلى ذلك شعوره بشيخوخته. كان بين الحين والآخر يشعر أن هديته لن تكون مقبولة عند الإخوة القديسين في أورشليم كما يرجو «وأنّه كمن يتّجه إلى فم الأسد» (رومية ١٥، ٣١)، ومع ذلك فليغتنم اللحظة التي يمكنه أن يترك للمسيحية عهده الروحي النقي وأن يؤمن حصاده الروحي الذي نضج في حياته العاصفة، أن يترك بشارته عن طرق الله الخلاصية السرّية. الفكرة العظيمة التي دوّنها في رسالته إلى أهل غلاطية تدور وتحوم في رأسه. الرسالة تلك كانت تفجّراً لقلبه المتألم. يريد الآن أن يفكّر في تلك الأمور في جو هادىء وأن يعرضها عرضاً مدرسياً عميقاً مدروساً. إنّ رسالة بولس إلى أهل رومية هي

عبارة عن شرح لاهوتي لقضية المسيحية الأساسية. مركز الإنسان الجديد المخلوق بالمسيح بالنسبة لله.

كان بولس قد جمع حوله كلّ المخلصين وكان على هؤلاء أن يكونوا حاضرين عند كتابته لهذه الرسالة. الحظوة الكبرى والشرف العظيم هذه المرّة كانا من حظ تروفيموس، لقد اختير ليكون ناموس بولس. يشير بولس إلى ذلك في آخر رسالته مرتاحاً مطمئناً. بعد مقدّمة تحمل طابعاً تقريظياً يعلن بولس موضوعه. «إنّي لا أستحي بإنجيل يسوع». إنّه قوة الله «لخلاص كل من يؤمن» كما أن حياة الرسول تنقسم إلى قسمين: قسم «بدون المسيح» وقسم «مع المسيح» كذلك يرى بولس التاريخ قسمين: البشرية بدون خلاص، البشرية التي سقطت بآدم، والبشرية التي أعاد جبلتها المسيح. هذا هو الإطار الذي يحوي فكرة بولس العظيمة عن تاريخ الخلاص والعالم.

١ — ما هي حالة الإنسان الدينية في العصر الذي عاش «بدون المسيح»؟ أتحققت في مكانٍ ما علاقة الإنسان المثالية مع الله العدالة؟ البشرية كلّها قبل المسيحية، اليهود والوثنيون هم تحت غضب الله. برهان ذلك تطوّر العالم الوثني التاريخي الديني. إن حضارته الفلسفية والفنية الروحية البارزة وازدهارها الإجتماعي والسياسي لم يتمكّنا من وقف الإنهيار الروحي والخلقي. الوثنيّون يملكون معرفة الله والناموس الخلقي الطبيعي. إلّا أنهم يضعون لجماً في حتمية الحقيقة، يأسرونها في قفص نظرياتهم العاقرة ويقصّون جناح نسر عقلنا المعطى لنا من الله فيزحف من جرّاء هذا التحقير في الوحول. العقل والوجدان أُعطيا للإنسان ليدرك بهما الله. وسط مرآة الخليقة يمكنه أن يدرك قدرة الله وبالناموس الذي فينا يمكنه أن يعرف المشرع الذي هو فوقنا ومن المثال الخلقي الموجود فينا بالفطرة يمكنه أن يدرك قداسة الله. من حكمة سليمان (١٣، ٥) يعرف بولس محاولات الفلاسفة. يسبر غور وجود الله وصفاته وقدرته الكلية وأزليته وعالميته الكلية. لكن هذه المعرفة النظرية يبررها واجب. يجب ألا تعرف الله فقط بل أن تعترف به، ولا أن تعلمه بل أن تؤمن به وأن تكرمه وتسجد له وتحبّه. إنّ سبب تيه العالم الوثني المجرم هو مخلوقاته التي وجدت لتكون سلماً يرقى به إلى الله لا منزلقاً تقوده إلى الهاوية. ألّـه العالم الوثني القوى الطبيعية والنجوم والحيوانات والأعمال الفنية والأرواح والدولة والأمبراطور وسجد لها. لذلك سحب الله نعمته الموجهة المرشدة. عندما يعتمد الإنسان على ذاته لا يمكنه أن يحافظ حتى

على كرامته ، الإنسان الذي يؤلّه الإنسان لا يخسر الله فقط بل يخسر كرامته وإنسانيته. الشخصيات التي كانت تجلس على عرش الأمبراطورية الرومانية هي برهان واضح على ذلك. عندما يعود الإنسان إلى تلك الحقبة من التاريخ ويرى تلك الديامیس التي غمرت الأمبراطورية بالظلمات يدرك قوة تفكير الرسول بولس وقدرته على التغلغل في أعماق ظلمات النفس لينير تلك الظلمات[٢٧]. كلّ أسرار الديانات الوثنية كانت معروفة عند بولس. لم يكن بولس وسط برج عاجي مذهّب. كان إنساناً منفتحاً على كلّ الإنسانية ، يعرف ضعفها ويعرف ترهاتها وسخافات إيمانها وشعوذاتها. كان يراها أمامه كل يوم. الوثنية تلد الخطيئة لأنّها من مواليد الخطيئة وتقود العقل خطوة خطوة نحو الظلمة واضمحلال الحاسة الخلقية. يرى بولس ثلاثة خطوط تثلم وجه الوثنية : عدم الصراحة الداخلية والكذب وعدم الاستقرار الداخلي والإنحطاط الإجتماعي وفقدان المحبة والرأفة ؛ بكلمتين وبكلمتين فقط يوجز بولس تاريخ الوثنية وميزاته. تاريخ الوثنية تاريخ «قسوة ولا رحمة» غرق العالم القديم لسببين: فقدان المحبة والسيطرة الآسيوية التي جعلت أقلية قليلة تحكم الأغلبية كالعبيد. كان بولس يشعر بصلاح ورحمة ابن الله. كان يراه كشيء جديد لم يسمع به من قبل في عالمٍ وثني تسيطر عليه الظلمة (تيطس ٣ : ٤).

قضى بولس في أثينا على عجرفة فلاسفة اليونان الأكاديمية. في رسالته إلى أهل رومية يدعو الوثنيين واليهود ليمثلوا أمام حكم الله[٣٦]. سيصفق المتهودون من المسيحيين عندما يقرأون الرسالة حتى هذه النقطة. يعرف بولس ذلك ويعرف كيف يوجه اتهامه ضد اليهودية. كان لليهود علاوة على العقل شيء آخر يوجههم إلى الله. هناك الكشف والشريعة والأنبياء والكتب المقدسة والمواعيد المستقبلة. إنّ بولس مضطر الآن أن يعطي أقسى درس من الدروس. ما أعطي ليكون خلاصاً لليهود صار بالضبط دماراً لهم إذ اعتبروه متشامخين امتيازاً عنصرياً مرتبطاً «باللحم والدم» يميزهم عن بقية الشعوب. لا يعترف بولس بأي امتياز لليهود على الشعوب الأخرى إلا بالوعد [٩]. الكلّ يخلصون. لم تكن الشريعة وسيلة للخلاص بل واسطة تثقيفية في داخلها الوقتية. هنا تقوم مأساة اليهودية. إنّها تطارد رؤيا لا تدرك ، أي أنّها بتفسيرها الخاطئ للشريعة الموسوية كانت تحاول أن تحصل على الخلاص بإمكاناتها الخاصة. لا يميز بولس بين الشريعة الخلقية والمراسيمية. كلتاهما تشكلان شريعة واحدة وهذه الشريعة فقدت حقوقها واجتيزت. قسمه الخلقي ، الوصايا العشر ، يجب أن يفهم بعد ظهور المسيح فهماً جديداً بأسبابه

ودوافعه ، وأن يطبق تطبيقاً جديداً بقوة الحياة الجديدة التي غرست فينا . حتّى اليهودي يجب أن يستمدّ خلاصه من المسيح لا من موسى . من لا يخضع للمسيح يبقى خاطئاً بالرغم من كلّ إنجازاته الخلقية ونسكه وتضحياته.

أثقل الخطايا في الوثنية ترتكز كما في اليهودية على أنّهم لا يريدون بالفعل أن يكفروا عن نفوسهم لا يشعرون بأنّهم خطأة ولا يعترفون بجريرتهم وإذا ما اعترفوا فإنّهم يحاولون أن ينالوا خلاصهم ويحصلوا على التبرير عن طريق شريعتهم الخاصة ، بوصاياهم الخاصة ، بالتنقية الذاتية وبالابتعاد عن المشروب واللحم (الفيتاغوربون واليساويون) أو بطقوس سحرية كما هو الحال في الديانات السرية أو بنوع من الإتفاق الشريعي مع الله . إنّ أعمق عمق للخطيئة هو هذا الكبرياء الإنسانية والاستقلال الديني والخلقي حيث الحية القديمة تعود فترفع رأسها باستمرار . في الوثنية كان المبدأ المسيطر هو أن الألوهة «لا تتصل إلا بالأنقياء» واليهودية الحديثة كما تعبر عن ذاتها في كتاب عزرا الرابع وفي رؤيا باروخ أرادت أن تدان بعدالتها الخاصة[١٩] .

٢ــ الحالة الجديدة التي خلقها يسوع : إنّ الله عن طريق المسيح وتضحيته التكفيرية الدموية جعل حكمه معروفاً بالنسبة لكل المحاولات البشرية من أجل الخلاص الذّاتي . كلّ شيء جميل وعظيم وسط الأشياء الطبيعية . وكلّ شيء طبيعي يكتسب بالمحاولات الفردية والجهود والمرء يمكنه أن يمتلك كلّ شيء يريده وأن يصل بالمحاولات المستمرة إلى ما يريده ، يمكنه أن يصل إلى أعلى مجدٍ حربي ، وإلى ذروة العلم والفن وأن يخلق حضارة تقنية وأن يصل إلى مجتمع عظيم متطور وأن يفاخر بما خلقته يداه . يستطيع الإنسان بقواه الخاصة أن يصارع مراراً وتكراراً للحصول على ما يريده في عالم الأرض . هنا ينطبق بيت الشاعر القائل : «ما ترثه من أهلك امتلكه لتحوزه» . أما في الأمور السامية التي يستطيع المرء أن يمتلكها في ملكوت ما وراء الطبيعة فالأمور تنعكس ، إنّه لا يستطيع أن يمتلكها مستقلاً عن الله . يمكنك أن تحوز بنوة الله ، أن يكون لك علاقة مثالية بالله بمحبتك لله التي تهبك هذه البنوة هبة كهدية . المسيحية تعطي للإنسان الخلاص والنعمة مجاناً وهذا شيء جديد بالنسبة للإنسانية . لم يضحِ المسيح بنفسه صدفة أو تحت تأثير ضغط نفسي أو لضرورة سياسية بل محبة بنا . بعملية محبة خارقة يتدخّل الله القدوس في تاريخ البشرية ليرفع الإنسان إلى القداسة ، المحبة لا تكون محبة إلّا إذا كانت هبة (٥ : ١ ــ ١١) . عندما يفعل

الله فإنّ فعله خلّاق يجدّد ويحوّل نفس المؤمن. وبإعادة الولادة بالروح يعيد خلقة الإنسان ويجعله خليقة جديدة.

بالنسبة لفعل الله الخلاصي لا يجوز التباهي بإنجازاتنا ولا لمكافأتنا ولا مجال للتباهي بأصلنا. لا مجال للنفس أن تقف غير موقفها من الإيمان بدون تحفّظ. على النفس أن توافق المسيح بكلمة آمين فقط، يجب أن تتفانى تفانياً عميقاً مخلصاً، تفانياً توحيه محبة عرفان الجميل، تفاني كلّ الشخصية لإرادة المحبة الإلهية واغتنام فرصة الحياة الجديدة في المسيح ليحتلنا المسيح. في شخص المسيح صارت الكبرياء البشرية حطاماً. كلّ بحث عن الله من قبل الإنسان، كلّ بحث يمر بالكشف مرور الكرام، كل بحث يمرّ بخلاص المسيح دون مبالاة هو خطيئة. الإيمان في جوهره ليس مكنة بشرية، ليس حاصلاً لنتائج عقلية، الإيمان منحة الروح القدس الإلهية. إنّه في الواقع سرّ مفتاحه مخبأ في أعماق المصير الأزلي. إنّ بولس يدعم تعليمه للمتهودين عن التكفير بالتاريخ وبشخصية ابراهيم المليئة بالإيمان تاركاً جانباً معاني اللّاهوت الكهاني التي يألفونها. أما للمسيحيين من أصل وثني فإنّه يترك لسان الحوادث القوي يتكلّم. إنّه يترك الصليب والخبرة المسيحية الداخلية وشهادة الروح القدس الناطقة. «كلمات الله هي حوادث» يقول أوغسطين: «عندما يتكلّم الله فكلامه أفعال تليق بالله» وكلّ أعماله كلمات خلّاقة مبدعة. الكلمة فعل، الكلمة صارت جسداً. حياة المسيح فعل دائم وصلبه فعل مخلص. إنّ الجريرة التاريخية الشاملة والجنس البشري المسؤول مع خالقه آدم سر كان بالإمكان أن يُكفر عنه بعملية تاريخية فقط بموت آدم الثاني التكفيري بموت الخالق الجديد.

التبرير هو بدء وبدء فقط. الحياة هدية من الله، يستحيل على الإنسان أن يحوز الحياة بمفرده، الحياة هدية فكما أنّها تتطوّر مع القوى الطبيعية تطوراً متناسقاً كذلك يجب أن يتطور في الأمور الفائقة الطبيعة. الخليقة الجديدة يجب أن تنمّي اتصالها بالمسيح وأن تتبع اندفاعات الروح بالنعمة التي ترافقها فلا تجرفها شهوات الجسد (٩ : ١٦)، لتحصل على الحياة الجديدة وهكذا يرتفع المولود الجديد من مجد إلى مجد نحو العلاء حتى ينتهي في حياة الله الأزلية الكاملة التي تنبع منها الأعماق الخفية للحياة الجديدة. لو ترك الله عمله التحرري لمشيئة الشيطان، لسيطرة الخطيئة، لكان عمله كتمثال لا جسد له. بختم الروح الذي أخذناه بالمعمودية والمسحة أعطانا الله روحه كختم. أعطانا العهد بأن الكلمة الأخيرة

لن تكون كلمة الموت بل كلمة التجلي، كلمة المجد. هذا الختم يشير إلى جدية محبة الله للبشر. الله لا يضع ختماً وامضاء إذا كانت النفس بعد الموت ستصبح غيمة من دخان تضيع في الكون (٨، ١١).

كما أنّه لا مجال لأي استغلال ذاتي ولا لأي محبة مجد في التسوية التي قام بها الله من أجل خلاصنا كذلك لا يمكن أن يكون هناك أيّة صدفة أو أي فراغ على أساس أن إرادة الإنسان الحرّة لا تتملّص من النظام الإلهي لتخضع إلى ابليس وسيطرته، لا تخضع للموت. كلّ شيء يتطوّر وفقاً لمخطط خلاصي أزلي بدءاً من الإختيار والمصير، ودعوة الإنسان قبل الأزل إلى فكرة الحنو الإلهي الأزلي الذي يحيط بالإنسان منذ البدء في سابق وجوده الخاص «في الله» حتى عيشه الجدي في جسد يسوع السري وكماله في نور المجد تحت أنظار الله التي توزع الغبطة. إنّ تاريخ كلّ منّا وتاريخ البشرية فأفراحها وآلامها بصراعاتها واندحاراتها وغلبتها هو حادث موجز في مأساة الأزلية العظيمة. في المهزلة المفجعة. كلّ مأساة الوجود البشري هو أنين خافت، شوقٌ للعلو والمجد، يتراجع في التناسق الأزلي حيث تنطوي «في المسيح» كلّ الخليقة، فترسل لله المجد للخلاص. هكذا تنتهي الحلقة الذهبية، حيث البداءة والنهاية تسكنان في أعماق حياة الثالوث المقدس. إنّ تعليم بولس عن المصير ليس قاسياً كتعليم كالفِن، إنّه تعليم معزٍ ومقوِّم ينتهي بنشيد الرجاء المسيحي الظافر (٨، ٣١، ٣٩) أشعله مشعل جديد في العالم المعدّ للخرب وبهذا النور الأنيس الذي كان يشعّ في الدياميس تحت أطباق المدينة العالمية، من مملكة ملكوت «ظلال الجحيم» خلقت «أمكنة السلام والراحة» هذا هو معنى العناوين في الدياميس «أنتم أيّها الذين تجلسون فوق في المدينة الوثنية أنتم في الواقع أموات أما نحن العائشين تحت فإنّنا أحياء حقيقيّون».

يوسّع بولس وجهة نظره عن العالم ليشمل الكون، إنّه يرى سقطة الإنسان بنتائجها العالمية، شقاً يوجد في المسكونة. إنّ السقطة في عالم الأرواح له علاقة بطريقة ما بسقطة الإنسان. في رسالته إلى أهل كولوسي (١، ٢٠) يلمح بولس بطريقة رمزية إلى أن المسيح قام بعملية مصالحة في كلّ الخليقة وفي عالم الأرواح. عندما يكتب بولس ويقول إنّ كلّ الخليقة تئن وتتعذّب بانتظار حرية مجد ابناء الله يعطينا صورة مليئة بالكآبة. إن تاريخ البشرية والخليقة هو سرّ لا يمكن أن يفسر ذاته بذاته، لا يوجد معنى للتاريخ في العالم كما

تعلم الحلولية. إذا نظرت إلى التاريخ بحدّ ذاته فهو وحش خال من كلّ إنسانية هو أبو الهول وقف الإنسان منذ أيّوب محاولاً أن يستخلص منه شيئاً. إنّ الخلاص والكشف لم ينزعا هذا الحجاب القدري بالعكس، لقد فتحا أعيننا لنرى إلى جوار أي هاوية تجري حياتنا بيد أنّها أعطيا لنا في الوقت نفسه تأكيد الروح أن كلّ الشواذات العابرة تنتظر حلاً مقبلاً. إن فرجيل كان يسمع دموع الأشياء، أما بولس فكان يرى النحيب يرفع يديه متضرعاً إلى الخالق طالباً برجاء أن يخلصه من عبودية الفناء، من خدمة الشرير. فهم القديسون وأدركوا هذه النظرة العميقة للخليقة المعاملة معاملة سيئة، هذه المشاعر كانت تلامس مشاعر القديس فرنسيس دي أسيز بحيث أنّه كان يتكيء كلّ مخلوق فوق قلبه برفق. ما عدا هذه الصلاة الخرساء للطبيعة الغير الحيّة هناك صلاة أخرى حيث سيجيب الرب في اليوم الذي ينكشف فيه مجد أبناء الله. إنّها صلاة الروح القدس السريّة التي حققتها الأنات الصامتة من أجلنا والتي سمعها بولس في الكنائس مراراً وتكراراً على ألسنة الأنبياء الموهوبين والذين «يتكلّمون اللغات» أخيراً. إنّها الصلاة الإجماعية للمسيحية الشاملة حول الكرة الأرضية. الكنيسة أخذت «مبادىء» إلّا «أن السنبلة الأولى ليست للحصاد إنّها قائمة في الوعد للحصاد»(١١). إنّ أعين الخليقة المليئة بالرجاء اتجهت نحو تلك الحالة البعيدة، حالة أبناء الله المحررين من عبودية الفناء [٣٥].

في الفصل السابع، في البحث عن الشريعة والنعمة، هذه القضية الكبرى، تبرز الآية الشهيرة (٧، ٨ — ١١) التي يعتبر المفسرون البارزون أنهم يكتشفون بها جرحاً سرّياً لظل قائم في حياة شباب بولس. «سقطة خاطئة»(٩)، على كل حال إنّ ما يقوله بولس عن الإنسانين وعن الشريعة المزدوجة التي يشعر بها في داخله وعن انقسام الإنسان الدّاخلي هو نتيجة لخبرة شخصية داخلية وليست فورة من فورات الإنسان الأدبية. يتكلّم بولس بصورة المتكلّم متبعاً طريقة التعبير القديم وجاعلاً نفسه كمثال يمثّل شعبه الذي يعيش في ظلّ الشريعة عندما كانت حياته بدون المسيح. لا يُستبعد أن يكون بولس قد اجتاز أزمة خلقية ودينية في حياته العاصفة العنيفة. ليس هذا بمستغرب على شخص بمثل هذه المواهب وبهذا العالم الشعوري من الحس المرهف. في مدينة عظيمة حيث تتصارع المتناقضات وتصطدم بعنف في البيت الأبوي والمجمع والثقافة اليونانية البرّاقة. لا يستبعد أن تكون قد مرّت عليه حالات ثقيلة مرهقة، مع ذلك أن يتكلّم المرء على سقطة خاطئة، على خطيئة عميقة، أن يكشف أعماقه بصراحة في عصر لم يألف هذه الاعترافات وأن يصوّر

للأجيال اللّاحقة عالمه الداخلي كما فعل أوغسطين بعد مرور أزمان طويلة عملية فيها البطولة وفيها عمق الإدراك للحقيقة. التوافه بعد العيش في عالم المعرفة يجب أن تكشف لتكون أمثولة لما تحوله المعرفة في عالم الإنسان. المعرفة الحقيقية نور كشاف تخلع على الحياة بهاءها وتحرر نارها النفس من الخطايا الضعيفة القوية، ضعيفة أمام الحق، وقوية أمام الظلمة، ظلمتها المسيطرة على الوجدان البشري. إنّ الاعتراف النفسي، القول بأن أفعل ما لا أريده، الإقرار بالضعف الإرادي، والعمل للقضاء على هذا الضعف هو البطولة هو الدواء الشافي للإرادة، للسير في طريق النور. إن الروح القدس هو القوة الوحيدة التي ترافق الإنسان لتحلّ مشكلة الحرية المسيحية المباشرة في ساحة الحياة. إن قول سقراط إنّ السلوك الخلقي الصحيح يتأتى عن المعرفة الكاملة، عن الادراك العميق هو حل وسط للحرية، الحرية هي الحياة في المسيح بالروح القدس [٣٦].

إنّ بولس في رسالته العلمية يريد أن يقرّب بين قسمي الكنيسة، بين المسيحيين المتهوّدين وبين المسيحيين من أصل وثني ويرفض التهمة القائلة إنّه حباً بالوثنيين يريد أن يجرّد أمّته من بركات المواعيد الإلهية. إنّ الفكرة بأنّه متمرد تمزّق قلبه وتجرّح روحه الوطنية وتثيرها. يحزن تقريباً للقسوة التي جابه بها الشريعة. إنّ مصير شعبه السري الذي كان حامياً للمواعيد مدّة ألف سنة، إنّ هذا الشعب الذي تنكّر وخسر حسياً، يؤلم روحه. إنّه مؤثّر جداً أن ترى كيف يصارع ليحلّ هذا السر بنور التعليم عن المصير ولينقل إلى محيط أسمى مباراة الإتجاهين. نهر محبة الله الذي ينساب بحرية لا يمكن أن يحصره الإنسان في أقنية ضيقة من الوطنية. إنّ مخلوقات الله لا تستطيع أن تستغل اسم خالقها لأهداف عنصرية ضيقة ولا أن تضعه تحت واقع الحكم. المواعيد لا تنطبق على اسرائيل بالجسد بل على اسرائيل بالروح. نكران الشعب اليهودي هو «خطيئة سعيدة» سيسبب خلاص العالم وسيفتح أمام العالم الوثني الطريق ليتقدّم ويدخل إلى الملكوت السماوي. إنّ الله يستعمل قيمة إيمان البعض ليخلص أولئك الذين لا يسمعون دعوته. إنّ أغصاناً من الزيتونة قطعت لتطعم بأغصان غريبة يلقحها الله ويطعمها لتصبح من أعضاء الزيتونة الخلاصية. هكذا يحاول بولس أن يجفّف دموع شعبه ويعدل من شموخ ذلك القسم من الكنيسة الآتي من الوثنية[٢٧]. إنّ روحه هدأ إلّا أنّ قلبه لا يزال يتألّم. وأي قلب لا يتألّم بالسر الفائق العقل. يوجه بولس أنظاره نحو لجّة المصير الأزلي الذي لا يحصى عمقه فينفجر صارخاً

بإعجاب وقد غلبه هذا المنظر «يا لغنى عمق حكمة ومعرفة الله». الله ضرورة لأنّه يحرّر الروح ويجعلها قابلة لعظمة الله.

ككاتب عظيم يعرف كيف ينهي أفكاره التقريظية وما يدبّجه، ينهي الرسول القسم العقائدي في هذه الرسالة القوية بدعوة ليتورجية «منه وبه وإليه الكل» وكثيراً ما يستعمل هذا الإصطلاح (١ قور ٨ : ٦) (كولوسي ١ : ١٦) (أفسس ٤، ٥) (عب ٢، ١٠). إنّ الإذن الممرنة تعرف أنّ هذا الاصطلاح هو واحد من الاصطلاحات القديمة المستعملة في عصور بشرية سابقة (الرواقيون أخذوها عن الأرفيين عن طريق هيرقليت) والتي تنمّ عن شعور سحيق، تمتمة خفيفة عن الثالوث الأقدس[٧٥].

في الوصايا الخلقية يشير بولس كيف أنّ السلوك الأخلاقي ينبع من روح الإيمان الجديد. يفسّر بولس عبارة معلمه «بالروح والحق تسجدون» (يوحنا ٤، ٢٣)، عندما يتكلّم على عبادة الإنسان العقلية. إنّ هذا المعنى يتردّد بتأثير من بولس في رسالة بطرس الأولى (١ بطر ٢ : ٥) يتّفق بولس هنا مع ميراث البشرية الروحي الشريف الذي عبّر عنه ايروكليس وفيتاغوروس في المقطوعة الجميلة : «يا من تعرف أن تحترم الآلهة ولا تخلط في قيمة ما تكرم وتقدم لها مسبقاً القدسات وتصنع لها من نفسك تمثالاً مقدساً ومن عقلك هيكلاً لاستقبال النور الإلهي.. «ليس من مكان لله على الأرض كالنفس النقية[٧٥]» لا اتصال للحياة الخلقية بالأرض، إن اتصالها يكون مع الوجدان. الأمور كلّها تتعلّق بالقابليّة النفسية بروح المحبة الجديدة. بهذه القابلية تصبح الأخلاق المسيحية جد بسيطة وتبني مقابل ملكوت هذا العالم مملكة مستقلة للروح، للعصر الجديد وتوضح مركز المسيحي الأساسي بالنسبة للدولة والسياسة. الكشوفات اليهودية تعتبر الدولة العلمانية دولة شيطانية صرفة وتقف منها موقفاً سلبياً[٢٦]. إنّ بولس هو الذي اتخذ موقفاً إيجابياً من الدولة الرومانية أسوة بمعلمه بالرغم من موقفه الروحي الذي يتخذه بالنسبة لأمور هذا العالم. في رسالته الثانية إلى سالونيك يسمّي السلطة الرومانية «العائق» الذي يمنع مجيء عدو المسيح. في رسالته إلى أهل رومية يخطو أكثر فأكثر فيسمي السلطة الحكومية «خادمة لله» عيّن ممثلها لمنع الشر. عندما كتب بولس هذه الأسطر الوديّة عن الدولة كان العالم في السنة الرابعة من حكم نيرون وكانت الأمبراطورية في أوج ازدهارها. وكان ذلك يوم كان سينيكا الصالح والشريف فوروس يلجمان المرض الأمبراطوري من التفشي. كان بولس ينظر إلى البعيد

ويرى مسبقاً الحوادث التي ستقع. إنّ نصائحه موجّهة إلى المسيحيين من اليهود بصورة خاصة. إنّ موقفه لا تمليه منفعة سياسية. كان مخلصاً بموقفه تجاه الدولة وكان يحذّر المسيحيين الذين من أصل يهودي من أن يقعوا في الأخطاء التي وقع فيها إخوتهم في أورشليم. لم يتغيّر موقفه من الدولة حتى بعد انفجار الدولة حقداً ضدّ المسيحيين (١ تيموثاوس ٢ : ١، تيطس ٣ : ١) المسيح بقوله : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وتفسير بولس لهذا القول دشّن عصراً جديداً لعلاقة الكنيسة بالدولة في وقت كان يتبنّى فيه مدنية بعيدة عن السياسة مدنية إلهية مفصولة، مدنية داخلية ليست من هذا العالم تبقى فيها الكنيسة هادئة لا يزعجها مزعج.

يمكننا أن نقول باختصار إنّ لاهوت بولس كلّه مدوّن تقريباً في رسالته إلى أهل رومية. لم تلعب رسالة من رسائل بولس دوراً كالذي لعبته في أوروبا رسالته إلى أهل رومية. لقد أسيء فهم بولس في قضية التبرير. إنّ موقف بولس بالنسبة لليهود قاد بولس إلى هذه النظرية التبريرية، إنّها نظرية أملتها الظروف وأملتها الحرب ضدّ اليهود الذين يتنكّرون للموعد الذي أعطي لهم. لقد أساء أوغسطين فهم النعمة الإلهية البولسية وكذلك لوثير. كان لوثير عاجزاً تحت تأثير حالات نفسية معيّنة، عن رؤية الحقيقة المباشرة بالنسبة للإنسان. الإيمان بالنسبة لمفهوم لوثير ليس إلّا يقين تشنجي ذاتي من ذاتي. إنّ لوثير جعل من نقطة انتقالية نقطة جوهرية، جعل الإنسان الجائع محوراً للديانة المسيحية وهكذا حوّل الإتجاه إلى مكان آخر [٣٧]. إنّ قلب بولس ليمتلىء حزناً إذا عاد بعد ألف وخمسماية سنة ورأى أنّ تعليمه ولّد جروحات في جسم المسيح. التبرير كان بالنسبة له مرحلة انتقالية، محطّة للتطور النفسي يمتد خلفها موطن الحياة في المسيح الواسع المغمور بالنور، تنديه النعمة الإلهية لسر الشكر الإلهي، المثمر بأفعال الناهض الخلاّقة، وسط هذا الجو الأنيس جو الروح القدس.

٤٧ . الرحلة الأخيرة إلى أورشليم

(أعمال ٢٠ : ٣— ٢١ : ١٦ ، رومية ١٥ : ٢٥— ٣٢).

ولّى الشتاء. في الخامس من آذار دشّنت رومية باحتفالات دينية «سفينة ايزيس الإلهة المصرية حامية الملّاحين» (لوحة ١٦). كان بولس قد استعدّ ليسافر إلى أورشليم ومن هناك إلى رومية. فتحقّق ما يصبو إليه بطريقة لم تكن لتخطر بباله حتّى في الحلم. إنّه يعرف المخاطرة والمغامرة التي يقوم بها. إنّها لمغامرة أن يحمل المال الذي جمعه بالكدّ والأتعاب إلى كنيسة أورشليم في طريق تكتنفه المخاطر. كلّ شيء يهون في سبيل الكنيسة. المهمّ في نظره هو وحدة الكنيسة. وحدة الكنيسة ضمان للحقيقة. كان يتمسّك بالتقليد ويحبّ أن يجرّده من حرفيته. لم يكن من الذين يراقبون الأمور مراقبة. كان يعيش كلّ الحقيقة، يعيش وحدة الكنيسة. الطريق الذي يقود إلى رومية يجب أن يمرّ بأورشليم حباً بتآخي هذين القسمين من الكنيسة لذلك كان من الضروري أن يرافقه كلّ ممثلي مناطق التبشير.

إذا كانت حياة الرسول المليئة حتّى الآن بالمخاطر رسماً لحياة يسوع الشديدة فمن الآن وصاعداً تتضح الميزات التي تجعل حياته شبيهة بحياة المعلّم أكثر فأكثر. سفرته إلى أورشليم تشبه سفرة يسوع الأخيرة التي قادت إلى الموت تحقيقاً لإرادة الأب (مرقس ١٠ : ٣٢). الشبه موجود في نواحٍ عديدة. الإحساس بالموت والبطولة التي كانت تدفعه إلى أورشليم قاتلة الأنبياء والمرسلين بالرغم من تحذيرات أصدقائه المخلصين. غريب هو سحر هذه المدينة وغريب هو انجذاب الرسول إليها. لكي ندرك بطولة الرسول يجب أن نتذكّر نضال فرقة «الغيورين» المتزمتين. إنّ تزمّت هؤلاء البشر جعلهم ينتظرون ملكوت مسيّاً كيوم انتقام من الوثنيين كما أنّه دفعهم لتشكيل عصابات مسلحة للقيام بحرب مقدّسة. كانوا يسمّونهم «السيكاريون» «بأبطال السيف» لأنّهم كانوا يحملون نوعاً من الخناجر نصف دائرية وكانوا يضرمون النار في المقاطعات التي ترفض أن تخضع لإرادتهم ويحرقونها وكانوا في الإحتفالات الدينية يبرزون فجأة ويندسّون بين الجموع حاملين خناجرهم تحت جُبيهم يخرجونها بسرعة البرق ويطعنون بها أخصامهم ويفرون في زحمة الجموع متوارين عن الأنظار (المؤرخ يوسيفوس ٢٠ ، ٨— ١٠). عبثاً نصح السيد المسيح المصف الكهنوتي بألّا يستغلّ الدين والرجاء الوعدي لأغراض سياسية. عندما يشعر الشعب أن رعاته

الطبيعيين لا يحقّقون رسالتهم فإنّه يتجه إلى الأنبياء الكذبة. أضاع رؤساء الكهنة صفة القيادة الروحية والسياسية. إن فلافيوس يوسف-الذي خدم في الهيكل ككاهن يصف بدء سنوات حكم الوالي فيليكس كأكثر السنوات ظلمة يروي كيف أنّ أحد المضلّلين المدعو ثافداً غشّ جموعاً كثيرة وقادهم ضدّ أورشليم، وأن مضلّلاً آخر من مصر انطلق تتبعه جموع غفيرة إلى جبل الزيتون ليريهم كيف يمكنه أن يهدم أسوار أورشليم بكلمة واحدة. قاوم فيليلس الثائرين بقوة السلاح فقتل المئات واعتقل مئتين منهم. أمّا المصري فهرب وعبثاً حاولوا أن يعثروا عليه. (المؤرخ يوسيفوس ٢٠، ٨— ٦).

شمّ بولس في ميناء كاخريون رائحة ما ينتظره في أورشليم. في الفصح كانت الطرقات البحرية والبرية مليئة بالحجّاج. رجال لهم عيون ثاقبة مترمتة ونسوة يتحلّقن فوق التراب يحملن أطفالهن على مناكبهن وإلى جانبهن سلال مليئة بالمأكولات كزاد لطريقهن وكنّ ينتظرن ساعة الرحيل. كان ينتظر بولس «العاصي» كثيراً من الشتائم وكان يسمع السباب يتدحرج تمتمات. كانت الملاحة في أيدي الرأسمال اليهودي وكان من السهل أن يستحيل المرء لقاء دريهمات رباناً لا وجدان له وملاحين مفسودي الأخلاق. المركب الغاص بالمسافرين هو أفضل مكانٍ تطعن فيه خصمك بمدية ثم تلقيه في البحر. إنّ مخابرات الإخوة كانت دقيقة وكانت تقوم بمهمتها أحسن قيام. سافر بولس ولوقا برّاً احباطاً لمؤامرة كانت معدّة. أمّا الآخرون فانتظروا في طروادة. كان المخطّط الأساسي أن يعيّد هذان الركنان المقدّسان عيد الفصح في أورشليم. لم يتحقّق هذا الحلم لصعوبة تطبيقه. لذلك أراد بولس أن يقضي في فيلبي عند أصدقائه المخلصين أيّام الفصح. من الآن وصاعداً سنرى لوقا في معية بولس (٢٠ : ٦). كانت رفقته مرغوبة عند بولس بالنظر لخبرته الطبية والملاحية، وبعودة ضمير الجميع للمتكلّم يعود المنهاج والرواية الكلاسيكية إلى روائه ويعود وصف الرحلة إلى الدقة والجاذبية التي لا يدانيها فن.

في سنة ٥٨ وقع الفصح في الثّامن والعشرين من آذار وكان يوم ثلثاء. وفي الثلثاء الذي بعد الفصح في الرّابع من نيسان ودّع بولس أهل فيلبي. في ميناء نيابوليس كفالا وجدوا سفينة شحن متوجّهة إلى طروادة «فأبحرنا نحن» في كلمة نحن هذه ينطوي عالم كبير من المشاعر، تاريخ كامل للقلب البشري. إنّ حياة الرسول بآلامها وأتعابها وأحزانها ما كانت خلواً من المباهج الروحية. كان بولس استاذاً بارعاً في الصداقة وكانت صداقاته ضرورة

ملحة لعمله التبشيري ، وكانت الكنيسة تنمّي دائماً هذه الصداقات المقدسة وتحرثها. إنّ أجمل صفحات القديسين هو نشيدهم للصداقة. لم يكن لبولس لا زوجة ولا أولاد، لم يرتبط بإرتباطات عائلية. أعطاه الله أصدقاء وأي أصدقاء. للقليل أعداء ألداء وأصدقاء متفانون. كان لبولس خصومه الذين يتحرّقون غيظاً، وكان له أصدقاؤه الذين يتفانون في سبيله حتى الاستشهاد. وهذا يشكّل سعادة عظيمة وسط الأحزان المرّة.

الرياح المعاكسة جعلتهم يصلون إلى طروادة بعد خمسة أيّام من الإبحار. لقد وصلوا يوم الأحد. حادث مؤثر ختم أيّامهم السبعة التي قضوها في طروادة. نميل إلى الاعتقاد بالرغم من تضارب الشرّاح أنّ لوقا كان يصف سرّ الشكر الأحدي الذي تمّ على سطح أحد البيوت وبكسر الخبز يقصد سر الشكر. السبت قد انتهى والشمس كانت في مغيبها وراء جزيرة تاندوس الهوميرية كالأرجوان. كان الرجال والنساء يصعدون بسرعة إلى القاعة الكبرى فوق سطح الطابق الثاني. كان الوقت ربيعاً وكانت النوافذ مفتوحة على نسيم البحر العليل لتلطيف الجو الحار. انتهت المائدة فتكلّم بولس على سرّ قيامة غالب الموت «أنا هو القيامة والحياة». كان أفتيخوس يجلس على حافة النافذة وكان يقاوم سلطان النوم وفجأة دوّت صيحة في الأرض. سقط من الطابق الثالث إلى أرض الدّار. نزل بولس إلى تحت وانحنى فوقه كما فعل قديماً النبي الياس واليشع (٣ ملوك ١٧ : ١٧ ؛ ٤ ملوك ٤ : ١٨). وكان قد لفظ أنفاسه فأعاده إلى الحياة. بأية مشاعر كانت الجموع تردّد هذا التعليم! هذه الحقيقة الملموسة! عاد بولس إلى مكانه كأنّه لم يحدث شيء وتابع حديثه بهدوء وكسر خبز الحياة.

لم تطرق فكرة النوم بال أحد. السفينة التي ستحمل أصدقاءه إلى أسو أبحرت عند بزوغ الفجر (عند الوداع كان أفتيخوس حاضراً صحيح الجسم كما يورد سجل فازا) قطع بولس خمسة وعشرين فرسخاً مشياً على الأقدام ليقوم بزيارة الكنائس في طريقه. كان توّاقاً إلى قليل من الهدوء ليرتاح وليتمكّن من جمع ذاته. كان بحاجة إلى وقت يرتّب فيه أفكاره وليخاطب الله. كانت الأمور التي سيبحثها مع المسيح عديدة. في كلّ مكان إعلانات قلبية وتحذيرات نبوية أثناء العبادة. ترى أيتنازل عن فكرة السفر إلى أسبانيا؟ كان يشعر بأن أيّامه تميل نحو الأفول. بأقدام ثابتة انحدر في طريق المصبّات ثم اجتاز الطريق المحاذية لينابيع طروادة المعدنية مروراً بسفوح جبل ايذيس وسط غابة من أشجار الزان.

وسط شمس الظهيرة ظهرت أسوس بصخورها الهاوية ، «أذهب إلى أسوس إذا مرّت ببالك فكرة الإنتحار» ، يقول الشاعر القديم : تدحرج بولس فوق الصخور الهاوية والتقى برفاقه . يلوح أن المركب الذي كان يركبه الرفاق كان محصوراً بهم وهم الذين كانوا يديرونه وذلك اختصاراً للوقت وتجنباً للوقوف لاستقبال المسافرين وتوديعهم .. كان المركب الأول المسيحي الذي يحمل حجاجاً إلى أورشليم . كانوا يجرّونه عند الغروب إلى الشاطىء وكانوا يمضون ليلهم إمّا فيه أو عند بعض الصيّادين تحت سقوف أكواخهم . وهكذا مرّوا بميتيليني وليسبوس جزيرة سابغو حيث كان الصيّادون ينشدون أناشيدهم العاطفية . في اليوم الثاني وصلوا إلى جزيرة صاقص المغمورة الأجواء بعطر الأزاهير ، وبعد غد ذلك اليوم شاهدوا عن بعيد هيكل ارتميس يعلو في مدينة أفسس . انتابت بولس قشعريرة هزّت كيانه . تذكّر ما حصل في الأعياد الارتميسية في السنة الماضية وما أصابه من ضيق . بعد وقوف في ساموس وصلوا إلى ميليتيس في ٢٠ نيسان نهار الخميس . أرسل بولس ساعياً إلى تيخيكوس وتروفيموس في أفسس وطلب منهما أن يدعو شيوخ الكنيسة لمقابلته الأخيرة . يرسم لوقا يوم الوداع في ميليتس بصورة ترى فيها بشير العاطفة العميقة مرسومة فوق لوحة من المحبة . في الموعظة الوداعية تشعر أن الاهتمام الرسولي هو الذي يتكلّم ، نشعر أن فصاحة القلب هي التي تنطق ، في كلّ كلمة شعور بالرسالة ، شعور بالواجب . لو تهاون الرسول وهادن في مبدئه وستر الفروقات بين المسيحية واليهودية لكانت حياته أسهل وأبعد عن العذابات والآلام ولكن ماذا كان مصير الكنيسة ؟ لم يكن بولس بحاجة إلى الأذكياء وإلى المديرين الحكماء . إنّه بحاجة إلى شهداء عقيدتهم . يجب ألّا يركض الإنسان بأشرعة مفتوحة إلى حيث لا قضايا أساسية . يعرف بولس أن الزوابع تنتظره في أورشليم ولكنه وهو «أسير الروح» يندفع وراء هدفه . لدى بولس سلّم فائق الطبيعة ، دم المسيح ، الكنيسة ، الروح ، رسالته وحياته الآن . الدم الذي تفجّر من جنب المسيح دم برزت منه الكنيسة التي تفجّرت من قلبه . هذه الفكرة أساسية في رسالة الرسول . لم يكن يعرف أنّ هذا الطريق الذي انتدب إليه سيمرّ بالحبوس والقيود وأغاني الكراهية واللطمات والأمواج المتلاطمة وأخطار المحيط ونزاع الموت وأخيراً إلى مطرقة منفذ الصلب . لم يكن يعرف ذلك ، الشيء الذي كان يعرفه ويكفيه أن المخلص يعرف ذلك .

«طوبى للذي يعطي أكثر ممّا يأخذ» عبارة عميقة جديرة بالإعجاب . لها مفعولها في ملكوت المحبة . لا يجوز أن يكون هناك تعارض بين الكنيسة التي تعطي والتي تأخذ . يا

ليدي بولس ! يا للبركات التي نبعت منهما. كانتا مفتوحتين دائماً على عالم العطاء. لم تنفتح يده للأخذ، إنّ يده لا تعرف إلّا العطاء. كم مرةٍ كتبت أناملها وهي ترتجف سطوراً من البركات المخلصة. المسامير والندوب كانت آثاره. لهذا لم يفارقه تلامذته، إنّه عالم من المحبّة يترجم حقيقة معلمه.

في الخامس والعشرين من نيسان قادته الأمواج المؤاتية إلى رودوس، الجزيرة الساحرة، جزيرة الورود التي لا تغيب عنها الشمس كما يقول الأقدمون. أسعدهم الحظ فوجدوا في باترا مركباً يتهيأ للإقلاع إلى فينيقية. استقامت السفرة مدّة خمسة ايّام عن طريق شاطىء قبرص الغربي موطن صديقه القديم برنابا. «آه كم كنت أريد أن أكون أكثر صبراً، حبذا لو كان بإمكاني أن أكون غير ما كنته معك في أنطاكية» لا شك أن دمعة تدحرجت من مآقي الرسول الذي كان يعرف أن يبكي أصدقاءه (٢ قور ٢ : ٤، أعمال ٢٠، ٣١) مكثوا في صور سبعة أيّام. هذه الكنيسة مدينة بوجودها إلى الإضطهاد الذي أثاره بولس منذ عشرين سنة. أخذت نفسية بولس تثقل كلّما توغّل في الأرض الفلسطينية وأخذت التحذيرات النبوية تكثر و«كانت رياح الثورة الحارة تصفعه كلّما اقترب»[٢٧]. بعد مشي على الأقدام من بطلمايدوس طال مدة ثلاثة أيّام، وصلت الحاشية إلى قيصرية. أراد بولس أن يبقى هناك أياماً لراحة واستجمام في بيت صديقه فيليبوس، وكان هذا كما يريده قلبه إنساناً عميق التفكير وكان انجيلياً أي رسولاً من الدرجة الثانية وكان «واحداً من السبعة» وقد ورث بصورة رائعة روح استفانوس. قبل عشرين سنة أو أكثر اضطر أن يهرب إلى السّامرة تخلصاً من الاضطهاد الذي شنّه بولس فبشّر هناك وفي يوبي وأخيراً استقر في قيصرية، وكان يتبنّى أكثر أفكار بولس. يا للغروب الجميل فوق السطح المطل على مناظر البحر الجميلة، يا للذكريات التي تستيقظ وترى كيف أنّ الله حوّلها كلّها للخير! أثّر في بولس جو البيت النسكي. ورث بنات فيليبوس عن أبيهن موهبة البنيان والنصح والعزاء، وكان بولس يقدر ذلك تقديراً عظيماً. كنّ أربع عذارى وقد كرّسن نفوسهن للرب فصرن سابقات لكل العذارى اللواتي كرّسن نفوسهن للرب وكنّ جالسات تحت أقدام المعلم العظيم خلال سجنه في قيصرية وكنّ يعاملنه معاملة صادقة. لم تخل هذه الأيّام الجميلة من الآلام. النبي اغافوس الذي كان قد عرفه بولس في أنطاكية جاء ليمنعه من متابعة طريقه. تقدّم وسط الحاشية وأخذ حزام بولس وأوثق به رجليه ويديه وقال هذا ما يقول الروح القدس «إنّ الرجل صاحب هذه المنطقة سيوثقه اليهود هكذا في أورشليم ويسلمونه

إلى أيدي الأمم». كانت هذه لغة الأنبياء الرمزية عند الأنبياء الأقدمين (اشعيا ٢٠، ٣ إرميا ١٣، ١ — ٢٧، ٢ حز ٤، ١ — ٣، ٥: ١ — ٤). اضطرب عقل أصدقائه أمام هذا الحادث فاستحلفوا بولس بألّا يذهب، إلّا إن تصميمه كان ثابتاً. «ما بالكم تبكون وتكسرون قلبي» إنّه مصمم أن يتم رسالة معلمه. إنّه كالصخرة الرّاسخة وسط البحر الهائج. كان يحبّ أن يموت من أجل رسالة الخلاص التي من أجلها صلب المخلص.

يوم الأربعاء قبل الخمسين انطلقت القافلة لإتمام القسم الأخير من السفرة. ذهب معهم بعض التلامذة من قيصرية فوصلوا مساء السبت بالقرب من أورشليم. كان الحجّاج بألوان ثيابهم المتعددة الألوان، وبقطعان الأغنام والأبقار المشكّلة بالأزاهير والمشكولة الجباه بسنابل القمح يملأون الطرقات. قبل أربعين سنة جاء شاول مع أبيه تاجر طرطوس وكان شاباً كما يأتي هؤلاء الآن والبهجة تملأ صدره. كان يغنّي آنذاك في الوقت الذي كان فيه الشاب الناصري يلبس لباس الفقراء ويقطع الطرقات المليئة بالحجارة. وجد بولس مأوى في بيت تلميذ قديم مناسون. لم يكن في كنيسة أورشليم مكان يأوي إليه الرسول العظيم.

٧. أسير المسيح

٤٨. النصيحة الفاشلة

(أعمال ٢١ : ١٧— ٢٦)

للمرة الخامسة والأخيرة يزور بولس أورشليم بعد اعتناقه الدين المسيحي. كان الفوضويّون اليهود يسيطرون على الطرقات. وكان بولس مكروهاً جداً لأنّه يعكّر على اليهود صفو أحلامهم. وكان بعض المسيحيين في أورشليم يكنّون له حقداً لا يوازيه حقد. كان يعقوب بسبب تقدّمه في السن عاجزاً عن كبح جماح تلك الفئة الفريسية التي اعتنقت الدين المسيحي. يقول اقليمس أسقف رومية في رسالته إلى أهل سالونيك إن الحسد هو المسؤول الأول عن مصير بولس القدري(٧٨). إنّ بولس كان ضحية تعاون الملحدين والإخوة الكذبة. هذه حقيقة لا تقبل الشك.

من سطح البيت كان يمكنه أن يرى تجمعات الحجاج في الطرقات: «بارثيون وميديون.. ومن بين النهرين والبونطوس وآسيا». نعم من آسيا. لم يطمئن بولس لرؤية اليهود الذين جاؤوا من أفسس بألوانهم المختلفة ولا لرؤية المجرمين القورنثيين المخيفين. ذاع خبر وصول العاصي المتمرد بسرعة البرق وانتقل من بيت إلى بيت ومن زقاق إلى زقاق، ومن سوق إلى سوق، ومن قافلة إلى قافلة. كان من الصعب أن ينجو من أيدي الغيورين. كان بولس يتحاشى الخروج وحيداً وكان أصدقاؤه يُعدون على الأصابع. الإخوة الذين

استقبلوه فرحين هم من اليونان المسيحيين وقد جاؤوا إلى بيته وسلّموا عليه. لم يكن مجلس الشيوخ مستعجلاً. كانت الكنيسة قد نمت وكان المتقدّمون يتكلّمون على الألوف. ترى أكان كذلك؟ من دواعي السرور أن يكون على رأس الكنيسة إنسان وديع مستنير ذكي كيعقوب. كان رؤساء الكنيسة يقفون من بولس موقفاً لا غبار عليه إلّا أن عملهم كان يصطدم بغيوري الشريعة فيضطرون لإشاعة الفوضى ضدّه ومن وراء ظهره.

يصف لنا لوقا الإجتماع التاريخي الأول ويعرضه كأنّه يعرض لوحة فنية. كانت شخصية يعقوب النسكية تملأ كرسي الرئاسة. كان يلبس ثوباً أبيض وكان الشيوخ يحيطون به. أيّة مشاعر كانت تغزو رفقاء بولس وهم يتطلّعون إلى تلك الشيخوخة الجليلة، إلى ذلك الإنسان الذي لعب مع أخيه المسيح أيّام كان طفلاً، هذا الإنسان الذي يحمل دماً من دم المخلص، هذا الإنسان الذي عرفته جبال الجليل طفلاً يدرج فوق سفوحها ويلعب فوق قممها. كلّ مرسل حمل هدايا كنيسته وقدّمها. قبلت الهدايا كأنّها شيء واجب. يا لبولس! كان يقف أمام يعقوب متسربلاً لباس التواضع وغارقاً في محيط من التأثيرات المقدّسة. تعانق بولس ويعقوب وقبّلا بعضهما قبلة السلام بطريقة احتفالية. انتظر رفقة بولس أن يقبلهم الإخوة هناك. لم يبادر أحد إلى فعل ذلك فاكتفى الرفقة بإحناء الرأس دليلاً على الاحترام. إنّ لوقا لا يشير إلى هذا الموقف بشيء، إنّ عدم ذكره ذلك يشير إلى خيبة أمله(٨٢). كان خوف بولس الذي أشار إليه في رسالته إلى أهل رومية في محله. كلّ شيء كان جافاً ورسمياً. وما أن ابتدأ بولس يشرح بإيجاز كلّ الأعمال العجيبة التي صنعها الله على يده في الأمم وبعد أن ترك قلبه يسيل حراً ذاكراً ما سببه الأخوة الكذبة من الآلام والمتاعب دون أن يذكر الأسماء أو الأشخاص وكيف أنّهم استغلّوا اسماء الرسل من أجل أغراض خاصة وكيف بشّروا بإنجيل غير إنجيل المسيح وكيف نهبوا الكنائس وكيف أنّ الكنيسة صارت كقلّادة مترابطة ابتداءً من سوريا حتى بحر إيجه حتى تحولت قسوة القلوب إلى طراودة وصارت اللّامبالاة اهتماماً والاهتمام دهشة وحماسة. عندما أنهى بولس كلامه أحنى يعقوب رأسه فرحاً كدليل على موافقته وتحبيذه، وخرجت من شفاه الجميع «مبارك هو الله إله ابراهيم واسحق ويعقوب الذي فعل العظيم بابنه الحبيب». ما كان بإمكانهم أن يقولوا غير ذلك لأنّ النصر كان عظيماً. كانوا مجبرين أن يقدّموا الاحترام والكرامة لله. كان من المنتظر في مثل هذه الساعة وبعد هذا العرض الظافر أن توجه ولو كلمة شكر لبولس وأعوانه. لم يحدث هذا قط.

إنّك لتشعر بخيبة أمل لوقا في تركه وإحجامه عن ذكر ما حدث أثناء تلك الجلسة التاريخية ، ومن مخاطبة الرؤساء لبولس تدرك ما كان يكنّه هؤلاء في أعماقهم «أنت ترى أيّها الأخ كم من الربوات آمنوا من اليهود وهؤلاء كلّهم أولو غيرة على الشريعة وقد بلغهم عنك أنّك تعلم جميع اليهود الذين بين الأمم أن يرتدوا عن موسى موصياً بأن لا يختنوا بنيهم ولا يجروا على عوائدهم» .هؤلاء يشبهون الإبن الأكبر في مثل ابن الشاطر الذي لم يرد أن يفرح بعودة أخيه ولا أن يشارك والده أفراحه ولا أن يجلس على المائدة مع أخ تعلوه القذارة بالرغم من تضرعات أبيه ، يمكننا أن نتصور خيبة أمل الرسول بعد سماعه هذه الأقوال من أفواه الرؤساء. الذي زاد في ألمه ألماً هو عدم وجود من يفكّر فيما إذا كانت هذه التهمة صحيحة أم لا . لا من يناقش ولا من يفكّر. ينطبق عليهم مثل من أُرسل ليبشّر في أفريقيا وعاد بعد أن عذّب وامتهن وجرح يحمل اشارات النصر والفوز ليقدم تقريراً لرؤسائه فيجيبه رؤساؤه : سمعنا أن من بشرتهم بالمسيح يرتلون أناشيد الكنيسة بلغتهم الخاصة ، من سوء الحظ أن تكون الكنيسة قد عالجت أموراً عميقة كهذه بسطحية قتّالة. من حسن الحظ أن يكون يعقوب على رأس الكنيسة ، إنّه لم يكن يشارك الآخرين في شكّهم. كان يعقوب واسع الأفق وكان ينظر إلى بولس نظرة تختلف عن الآخرين.

إفعل ما نقوله لك ، يا لها من نصيحة فاشلة ! «عندنا أربعة رجال عليهم أن يفوا نذورهم للرب فخذهم وطهّر نفسك معهم وأنفق عليهم ليحلقوا رؤوسهم فيعرف الجميع أن ما بلغهم عنك ليس بشيء بل إنّك أنت أيضاً تسلك محافظاً على الشريعة». وبإشارة فيها عمق المرارة ذكّروه بأوامر المجمع الرسولي الأربعة. قبل ثمانية أعوام تراجع هؤلاء نزولاً عند إرادة بولس والآن عليه أن يتراجع هو بناء على إرادتهم. يا لجمال ما فكّروا فيه ! كان بالإمكان تسمية هذه النصيحة بالموفّقة الذكية لو عرضت في جو غير هذا الجو العابق بالجهاد المنتصر. كان عليه أن يعترف بغلطته وأن يمرّ بإيمانه باليهودية.

مطلب عظيم يطلبونه من بولس حتّى لو نظرنا إليه من ناحية شكله الخارجي فقط. سيقضي سبعة أيّام في ساحة الهيكل مع أناس غرباء لا يعرفهم وسينفق عليهم وما سينفقه ليس بالشيء القليل. كان يجب أن يكون عنده خمسة عشر خروفاً وهذا العدد من قفاف الخبز بالإضافة إلى الحلويات والزيت وهذا العدد من دنان الخمرة. في رحلته الأخيرة إلى أورشليم كان قد نذر مثل هذا النذر. كان النذر خاصاً به ، إنّها قضية داخلية تتعلّق بإرادته

بالذّات ، أمّا هنا فالقضية قضية مظهر خارجي ، قضية إعلان توبته أمام الشعب . إنّ مأساة داخلية تنتابه وأعمق صراع يجري في داخله . لو تصافح مع اليهود بهذه الطريقة فما هو موقفه من المسيحيين الذين من الأمم؟ ماذا يقول لهم لو سألوه : ولماذا علمت أن الشريعة هي «عناصر ميتة فقيرة» ، ماذا يقول لهم عن العالم الذي صوره لهم؟

كان على بولس أن يقرّر . لا يذكر لوقا الجدل الذي دار بين بولس والرؤساء . إنّه يسرد الأمور بصورة شكلية كأنّ شيئاً لم يحدث «عندئذ أخذ بولس الرجال» ذهب إلى الهيكل . كلّ عناصر المأساة تتراءى من وراء الذهاب . البطل في المأساة القديمة يحقّق دمار نفسه بقرار من ذاته ومن ذاته فقط . في المأساة القديمة تجد نفسك أمام قرار مجحف خاطىء يكوِّن في الواقع جرماً ، أما في المسيحية فالقرار الذي تتخذه قرار يوجهه كائن أسمى يكشف عن سرّعميق يجر البطل إلى الدمار . اتخذ بولس قراره لأسباب نجهلها . إنّ هوساً شريفاً يغذيه ليصير «الكلّ في الكلّ» ليؤاخي كنائس الأمم مع أم الكنائس «لأنّي إذا كنت حراً من الجميع عبّدت نفسي للجميع» (١ قور ٩ ، ١٩) . ما دامت حرية المسيحيين من أصل وثني بالنسبة لأحكام الشريعة قُرِّرت واعترف بها فلا بأس أن يتراجع بولس أمام رغبة صادرة عن قلوب ضيقة . يقول رينان لم يقم بولس بتضحية كالتي قام بها في أورشليم في سبيل وحدة رسالته . لقد دلّل بعمله هذا على عظمة لا يدانيها عمله لا في سالونيك ولا في قورنثية حيث كان حراً لا تقيّده قيود . إنّ تواضع الرسول الذاتي لاح لبعض النقّاد كشيء لا يصدّق . هناك حالات ينقاد فيها المرء الى حتفه مطبق العينين بوعي . لا يستطيع المرء أن يلجم بالعقل حالة كهذه الحالة . ينفتح طريقان دون أن يدري أحد أيهما يقود إلى الدمار . إنّ سراً غامضاً يكتنف غالباً سلوك الإنسان وفجأة لا نستطيع أن نفهم نفوسنا لا نحن ولا غيرنا . يقول أحد المفكّرين : غالباً ما يتغلغل في نفوسنا شيء لا ننتظره . لا يمكن أن يتصور المرء أن بولس امتثل فوراً وأجاب بنعم عن خوف أو حباً بمصلحة أو توخياً لقصد . فعل ذلك نشداناً لهدف عظيم وبدافع إلهي . نحن البشر نسمّي ذلك : بوحي الساعة . أولئك الذين أعطوا نفوسهم للنعمة الإلهية يمكنهم أن يأتمنوا نفوسهم للمشاعر والاندفاعات السماوية . البشر المائتون لا يمكنهم أن يقرروا بهذه الطريقة المرتجلة على أساس شعور مبهم . يطبق هنا ما قاله غريغوريوس العظيم : «فتش الأرض بانتباه لتجد إذا كان هناك أي سبب مهم أم لا ولندرك إذا كان أحد الأنوار نوراً مضلّلاً أو أنه يقود إلى هدفٍ سامٍ يحدده الله» .

٤٩. «أنا روماني»

(أعمال ٢١ : ٢٦، ٢٢ : ٢٩)

كان الفصح وعيد الخمسين تجربة قاسية بالنسبة للحرس الروماني ولأعصابهم. في إحدى السنوات من حكم نيرون حجّ كما يذكر فلافيوس يوسف مليونان وستماية ألف نسمة [٣٤]. في العدد كثير من المبالغة ومع ذلك فلو كان عشر العدد المذكور قد أمّ أورشليم في تلك السنة لبقي العدد ضخماً. في هذا اليوم كانت تأتي وحدات من قيصرية لمعاونة الحرس. في أيّام الوالي كومانوس قتل في عيد الفصح عشرون ألف شخص (فلافيوس يوسف) على الغالب كان هؤلاء من الجليلين الفائزين الدم المكافحين من أجل حريتهم.

كان هؤلاء يدهنون وجوههم بدهان البراءة ويحملون الحملان الفصحية ويخفون الخناجر تحت ثيابهم ويطوفون في هيكل المحرقات. إلّا أنّ بيلاطس تمكّن قبل فوات الأوان (لوقا ١٣ ، ١) أن طهرهم. بازدياد عدد حزب الوطنيين المتعصبين ازدادت هذه الأنواع من الحوادث. هذه الرؤوس الدموية كانت نذيراً للثورة اليهودية الكبرى ضدّ رومية. فوق المدينة وفوق الهيكل كان شيء يتماوج كأنّه غيمة تهديد.

في أحد العنصرة ذهب بولس ومعه تروفيموس الأفسسي والناصريون الأربعة إلى تلّة الهيكل ودخل إلى منطقتها المدعوّة بدار الأمم. كان برج هيرودوس يشرف على الطرف الجنوبي الغربي من الساحة، ويسيطر بجلاله عليها. وكان قائماً فوق صخرٍ هاوٍ، فوق منطقة الهيكل. احتراماً للقائد انطونيوس اطلق هيرودوس على البرج اسم «برج أنطونيوس» كان حصناً فيه مستراحات كبيرة وساحات وأمكنة للتمارين العسكرية وسجون وبرج داخلي للسكن يشبه قصراً ملوكياً. من هناك كانت رومية القوية تقبض بيد من حديد على الشعب الثائر في وجهها. أحد السلالم كان يقود من برج أنطونيوس إلى ساحة الأمم، وأحد الممرّات كان يقود من برج أنطونيوس إلى سقف الأروقة التي تحيط بالهيكل. تلة الهيكل كانت تثير فيك الشعور بأنّها ثلاثة سطوح هائلة الواحد يعلو الثاني وكانت ساحة الأمم، الدنيا، من هناك طرد يسوع مرتين التجار وبائعي الفضة. هناك أيضاً سلّم مرمري مؤلّف من أربع عشرة درجة يقود من باب الهيكل حيث شفي بطرس الأعرج إلى الساحة الثانية الداخلية إلى رواق اليهود وفيه قسم للنساء. كانت هناك ساحة مربّعة واسعة محاطة

بالأعمدة. هناك كان صندوق التقدمات بمفاتيحه الشبيهة بالمزمار. هناك جلس يوماً من الأيام يسوع ورأى الأرملة تلقي فلسها.

أمام الهيكل فوق إحدى المنصّات كان يقوم هيكل المحرقات وحوله حفرت الخنادق لاستقبال دماء الضحايا تحيط به تكايا الكهنة. كان الشعب يدخل إلى رواق الكهنة وقت صلاة الصبح والمساء (لوقا ١ ، ١٠) كان المدخل من الدار الخارجية إلى الداخلية يقفل بباب فولاذي يصعب على عشرة رجال أن يحرّكوه ، وإلى الأمام على بعدٍ ما كان عنوان مكتوب باللغة اللاتينية يقول :

«لا أحد من الغرباء يستطيع أن يدخل وإذا قبض على أحد متجاوزاً القرار يجازى بالموت».

الرومانيون كانوا قد قرروا ذلك احتراماً لمشاعر اليهود الدينية. دخل بولس إلى السّاحة الداخلية فرأى حشداً حاشداً وسمع أصوات الضحايا تتعالى قبل ذبحها وكانت بين هذه الجموع أشخاص مشبوهة عملها خلق البلبال. بين هذه الجموع كان بعض الأفسسيين من اليهود. من الجائز أن يكون بينهم اسكندر النحاس الذي عرف بولس وتروفيموس كان ينظر إليهما والغضب يقدح شراراً من عينيه. لم ينسيا مشهد المسرح في أفسس. ماذا يريد هذا العاصي هنا؟ أيريد أن يدخل إلى الهيكل هذا الإنسان غير المختون؟ كان بولس يتحاشى أن يدخل تروفيموس إلى الهيكل. في المكان الذي كانوا فيه كان الجو أنسب وأهدأ لولا بعض حشرجات الحيوانات وبعض الروائح الكريهة. ايفاءً للنذر كان عليه أن يبقى سبعة أيّام يتابع الصلاة مع الكهنة وفي المساء كان يعود. في هذه الأثناء تمكّن يهود آسيا أن يحيكوا مؤامراتهم. أوعزوا إلى رجالهم أن يكونوا في اليوم السّابع في السّاحة الداخلية وفي الساعة المحددة عليهم أن يثوروا وينقضوا على بولس[٥٠] (لوحة ١٠).

كان أصدقاء بولس الذين يخافون على حياته يرافقونه كما يفهم من سرد لوقا للوقائع. كان الوقت صباحاً وفجأة أعطي الانذار. أخذ يهود آسيا يضجّون وينادون قائلين: «أيّها الرجال الاسرائيليون أغيثوا» هذا هو الرجل الذي يعلم جميع الناس في كلّ مكان خلافاً للشعب والشريعة. دنس الهيكل إذ أدخل إليه وثنيين. لا يمكن أن نجد كلمات نصف بها هوس شعب متهوس في الشرق. إنّه هوس جنوني. ارتسم الخوف على وجوه الجميع.

كان الكهنة يسألون : ماذا حدث ؟[٣٣] وكان الشعب الهائج يدحم بولس ويلطمه ويشدّه بأيديه القاسية ، وكان بولس يتقبّل اللطمات صامتاً . أخذ اللاويون يقرعون طبولهم وينفخون بأبواقهم لأنّهم خافوا أن يدنس الهيكل وأخذ الحراس يدفعون الناس نحو الدرج لينزلوا . وعندما أقفل الباب[٥٦] . عندما سمع بولس أنّهم أقفلوا الباب شعر كأن سراً تمّ وصار غريباً عن شعبه (أفسس ٢ ، ١٢).

كان بولس ملقياً على الأرض في المكان الذي جروا إليه الشهيد استفانوس قبل عشرين سنة. اجتاحت بولس موجة غريبة من الفرح. بعد قليل سيكون إلى جوار استفانوس ومعلمه. الساعة لم تحن بعد. تردّد الشعب في قتله في الرواق فجرّوه إلى الخارج. إنّ تردّد قاتليه كان سبباً في خلاصه. لقد انتبه الحرّاس الرومانيون الذين كانوا فوق الجدار إلى ما يحدث فأبلغوا ضابط الخدمة. كانت وحدات الجيش محجوزة. هتاف يتعالى يعقبه أمر عسكري. أسرع قائد الألف ليسياس فنزل مع الجنود المسلحين. كان قد مرّ زمان على مطاردتهم لرئيس العصابة المصري . فرح القائد لأنّه اعتقد بأنّ هذا الدجّال سيقع بين يديه فأمر أن يربط بالسلاسل وأن يقاد إلى الحصن ، وكانت الجموع تحتشد خلفه وتقول «ارفعه». عندما وصلوا إلى السلم اضطر الجند أن يحملوه بسبب الحشد الحاشد وأن يرفعوه على الأكتاف. في هذه اللحظة بقي بولس على صفاء ذهنه. كانت ثيابه ممزّقة وقد فقد وشاحه وكان الدم يجري من عينيه إلّا أنّه كان سيد الموقف. سأل قائد الألف بهدوء وقال هل لي أن أكلمك؟ خاب أمل القائد اذ رأى أمامه رجلاً يونانياً مثقفاً بدلاً من المصري ، قال للقائد «أنا إنسان يهودي من طرسوس مدينة في كيليكيا معروفة أسألك أن تأذن لي أن أكلّم الشعب». سؤال غريب من إنسان كان قبل ثوان يداس كالدودة تحت الأقدام وبعجيبة نجا من الموت. بالرغم من مظهر بولس الحقير فإنّ قائد الألف أُخذ بشخصيته القوية. الشجاع يعرف الشجاع فوراً. إنّه يتوق ليرى هل يكون لكلامه تأثير فيمنع المجزرة؟ قال ليسياس تكلم. جابه بولس البحر الثائر بشجاعة نادرة. كان بين الجموع عدد من رفقائه القدماء. تحوّل البحر الهائج تحت تأثير سحر الكلام إلى صمت عميق. كلّ معركة يمكن لبولس أن يربحها شرط أن يعطى الحرية بالكلام. حاول أن يبرهن إيمانه بالمسيح وأنّه صار رسولاً للأمم لا كرهاً بشعبه وبالشريعة الموسوية والهيكل بل تحقيقاً لإرادة الله ، ولتدخل قدرته الكلية. كلّ إسرائيلي يعرف أن يهوه هو رب التاريخ. في المزامير يسمع عجائبه وعظائمه وأعماله الرهيبة. أيمكن أن يفسّر تغيّر بولس المفاجىء إلّا

بتدخّل إلهي؟ يجوز أن ينفعه ذكر حنانيا المتمسّك بالشريعة وكذلك ذكر رجم استفانوس ولكنّه عندما لفظ عبارة «أرسلك إلى الأمم» ضجّ الشعب ومزّقوا ثيابهم وقالوا لقائد المئة أرفعه وطلبوا منه أن يجلده فقادوه إلى المعسكر وامتحنوه بالجلد، فقال بولس لقائد المئة أيجوز لكم أن تجلدوا رجلاً رومانياً؟ فلما سمع قائد المئة ذلك دنا من قائد الألف وأخبره قائلاً: ماذا مزمع أن تصنع فإنّ هذا الرجل روماني، فدنا إليه قائد الألف وقال له: إنّي بمالٍ كثير اقتنيت هذه الرعوية. فأجابه بولس أما أنا فبالولادة. فللوقت كفّ عنه الذين أرادوا أن يمتحنوه وخاف قائد الألف لما علم أنّه روماني وكان قد أوثقه. فحلّوا وثاقه وربطوا يده برباط لطيف بيد جندي روماني. هل مرّ هذا الإنسان الذي لاقى من العذاب ما لاقاه من ذلك المكان الذي جلدوا فيه المسيح؟ (٦٨). إنّ كلمة «أصلب معه» اتخذت عنده معنى جديداً عميقاً.

٥٠. أمام المجمع والرؤيا الليلية

(أعمال ٢٢: ٣٠ — ٢٣: ٣٥)

للخطر نوع من السيكولوجية الخاصة ومن المهم أن نعرف كيف تجابهه الأمزجة المختلفة. الخطر بالنسبة للطبائع الرومنسية فيه نوع من الجاذبية وله وقع خاص وتسير اليه بالتهليل. الطبائع التي تسرّ بالخطر هي الطبائع الدموية، حتّى لو نجوا منه وعلى عيونهم كومات. البعض يرتجفون أمام الخطر فتنحل ركبهم ويصبحون مضحكين. مثل هؤلاء ينتمون إلى الطبائع الحزينة، وهناك الذين لا يقيمون للخطر وزناً ولا يحسبون له حساباً وهم من الأمزجة اللمفاوية. البطل الحقيقي هو الذي لا يندفع وراء الخطر بجنون. أما إذا رأى أن الضرورة تحتّم عليه مجابهته فعليه أن يجابهه شرط ألّا يسمح لخياله بتضخيمه أكثر ممّا هو. كان بولس من هذا النوع من الأمزجة عندما كان الدّافع الداخلي يشير عليه بأن المخاطرة لا بدّ منها كان يفعل فوراً. لم تفارقه بداهته لحظة واحدة حتّى ولا عندما كانوا يرفسونه ويقيّدونه ليجلدوه. كان يفكّر برباطة جأش في المخطط الذي يجب أن يتبعه (١٧).

في اليوم التالي أظهر بولس وعياً كالذي أظهره عندما أمر حاكم القلعة تقديمه للمجمع لجلاء أسباب المشاجرة. كان المجمع مؤلّفاً من واحد وسبعين عضواً علاوة على رؤساء الكهنة. رافقه كلاوديوس ليسياس بالذّات بحرسه حتّى الهيكل الذي حوكم فيه المسيح. لم يلتئم المجمع في غاريث المخصّصة للإجتماعات في دار الكهنة بل في رواق الدار الخارجية حيث استنطق استفانوس. كان بين أعضاء المجمع وجوه معروفة مثل قيافا رئيس الكهنة. إنّ الشعور بالجرم جعل هذا الشيخ الوسخ أكثر قساوة وحفر في وجهه أثلاماً عميقة. ترأس المجمع حنانيا (٤٧ — ٥٩ ب.م.). وقد عيّنه خالكيذس[٥٠] وكان من عائلة حنان، وكان الكتّاب اليهود يسمّونه «ابن الأفاعي» ويصفه معاصروه بالبخيل والنهم. يحلل كلّ شيء ولا عرف معنى الحرام حتّى خناجر المتزمتين كانت تروقه لأنّها تحقّق أغراضه وأهواءه. لم يكن بولس يعرف رئيس الكهنة شخصياً لبعده الطويل عن أورشليم ولم تكن له أيّة علاقة مع الأورشليميين لأنّه غريب عنها، لأول مرّة يصادف أرستوقراطية الصدوقيين [٣٨]. كانوا فرقة الكهنة «الشرفاء» «المتنوّرين» العقلانيين والسياسيين الخبثاء. كان همّهم الأول الضغط على كل عاطفة دينية وطنية حماسية تقف دون تحقيق أطماعهم وتضع سلطتهم في خطر. لا يذكر لوقا الكثير عن المحاكمة لأنّه لم يكن حاضراً. لا شكّ أن ليسياس قد طلب من الرئيس أن يحددوا الشكوى ضدّ بولس.

من الطبيعي أن يكون تعليم بولس مدار البحث وسيصوره الصدوقيون كخطر سياسي. حكم على المسيح كإنسان ثائر وصلب لأن تعليمه يشكل خطراً على الأمبراطورية وها هو بولس يعلّم ما علّمه معلمه. إنّه يعلّم عن قيامة المسيح ويتكلّم على ظهور المسيح له في دمشق. في الواقع إنّ هذا التعليم يتعارض كلياً مع إيمان الصدوقيين، لذلك كانوا يسخرون ضاحكين من تعليمه عن القيامة وعن عالم الروح والملائكة وكان الفريسيون يشعرون أن الصدوقيين إنّما يمتهنون كرامتهم ويحقرون إيمانهم بهزئهم بما يؤمنون به. الفريسيون يؤمنون بالقيامة والملائكة وعالم الروح. أدرك بولس بسرعة خاطفة نقطة الضعف التي يمكنه أن يركّز عليها كلامه ليشطر خصومه. وأحصى الخصوم والموالين فرأى أنّه ربح نصف الجولة.

حدث في بدء موعظة بولس حادث يؤسف له جداً. عندما احتكم بولس إلى وجدان حنانيا أمر حنانيا بصورة غير مشرفة أن يلطم بولس على فمه وهذا يعني أكبر تحقير يوجّه إلى إنسان اسرائيلي. إنّه يعني أن هذا الإنسان لم يعد ابن إسرائيل. لطمه عبدٌ فثارت ثائرة

بولس وهو الذي يجري في عروقه دم أصيل من دماء أجداده الشرفاء، وصاح في وجه حنينا وقال له: سيضربك الله أيها الحائط الأبيض، أتكون جالساً لتحكم في أمري بمقتضى الشريعة. وتأمر أن أضرب بخلاف الشريعة؟ عجيبة هي أخلاق الفريسيين لقد ستروا عن طيبة خاطر قباحة الرئيس، أما مسلك بولس فدانوه واعتبروه تحقيراً للرئيس وجريمة. يمكننا أن نفسّر ما قاله بولس تفاسير مختلفة. على كلٍ في جوابه الثّائر نوع من السخرية وتذكير لرئيس الكهنة برتبته العظيمة. لقد وقف معلمه موقفاً كهذا إلّا أن المقارنة تبقى ابن الله معلمه، معلماً يسعى إليه ولا يدانيه إنسان(٥٠). إنّ بولس جرد الرئيس بتشبيهه له بالحائط الأبيض من كلّ فضيلة وعدالة وأشار إلى تشبيه معلّمه للفريسيين بالقبور المكلّسة. كانت كلمات بولس كنبوّة. بعد أعوام اغتيل حنينا بخناجر المتزمتين التي كان يستعملها من أجل غاياته الشخصية.

أدرك بولس أن المجمع لم يكن على مستوى يخوله أن يحكم حكماً مجرداً. لذلك طرح قضية القيامة وجعلها «كتفاحة خصام» [٣٩]. التضاد القائم في اليهودية تقوم في أساسه، قيامة المسيح، وهذا التضاد جعلها ضعيفة تنظيمياً وحكومياً وسياسياً. «أنا أدان على رجاء قيامة الأموات». هذا هو الموضوع الذي طرقه بولس أمام المجمع تبريراً لنفسه. انفجر الصدوقيون ضاحكين من هذه النظريات الفريسية وثار الفريسيون لأن عقيدتهم تجرّح وتهان. وفجأة تحول المجمع إلى جدل لاهوتي انتهى بالتماسك بالأيدي وبلغ الأمر إلى حدّ أن انحاز بعض الكهان إلى بولس وقالوا لا يستبعد أن يكون ملاك أو روح علوي خاطب بولس. لم يفهم ليسياس ماذا يحدث لذلك أمر الجند أن يحملوا بولس إلى مكان أمين. في رسالته إلى فيليكس كما وردت في سجل بيزا يقول «بصعوبة تمكّنت أن أخرجه».

بعض النقاد يعتبرون أن بولس لم يرتفع في هذه الحالة إلى المستوى الذي يمكنه أن يرتفع إليه. يتكلّمون على مخططات ويجدون متناقضات بين موقف يسوع الصامت أمام المجمع وبين موقف بولس، هؤلاء يهملون الفرق الأساسي في الطابع بين آلام المسيح وآلام أي إنسان آخر. لآلام المسيح طابع فريد وهدف يتجاوز الحدود البشرية. يستهدف المسيح من آلامه الطوعية خلاص الجنس البشري، لذلك لم يدافع عن نفسه وتنازل عن كلّ تدخل أرضي أو سماوي. كان بإمكان المسيح أن يستعمل نفس الخطة التي استعملها بولس إلّا أنه

كان ينظر إلى البشرية المعذبة ويراها أمامه. وكان يعرف أنّه «حمل الله» الصامت الذي يذكره النبي. على هذا الخضوع المطلق، على هذه الغلبة الذاتية، على هذه التضحية الصامتة «لحمل الله» ترتكز قبل كلّ شيء «كرامة موت يسوع الخلاصي[٣٤]» بعكس بولس الذي كان يتألّم من أجل نفسه. كان مستعداً أن يموت إلّا أنّ الزمان والمكان مرهونان بإرادة الله. كان له كلّ الحقّ وكان عليه أن يستعمل كلّ الوسائل المشروعة ليتمكّن من خدمة الإنجيل. إنّ هذا النقد يطلب كثيراً من إنسان وإنسانٍ فقط. حتّى في الأعمال المشرقة من الحياة حيث الروح القدس يرفع انساناً كما رفع بولس يجب أن يتذكر هذا الإنسان أنّه يبقى بشراً كبقية الناس، وأن يحكم عليه كإنسان. واحد فقط هو الذي يفوق كلّ مقارنة بشرية، إنّه يسوع.

لنقم بزيارة ليلية إلى بطلنا في غرفته في حصن أنطونيوس. كانت قواه منهارة بسبب الحوادث الأخيرة. كان يعرف أنّ عليه أن يصبر كثيراً وأن يصير شريكاً أكثر فأكثر في آلام المسيح. فكلمة «أصلب معه» التي كتبها إلى أهل غلاطية (٢، ١٩) وإلى أهل رومية (٦، ٦) كانت تزداد ترجيعاً في أذنيه. في تلك الليلة كان بولس متروكاً وحيداً وسط غرفته المظلمة بين يد حارس. كانت نيران الغضب تلتهم الجدران، وكان يتحمّل إهانات اليأس التي لم يتمكّن القديسون حتّى ولا ابن الله أن يتجنبوها. في حالة كهذه الحالة عندما سجن بطرس (أعمال ١٢، ٥) سهرت كنيسة أورشليم وصلّت من أجله. لم يحدث هذا مع بولس. كان الإخوة يعتقدون أن قبولهم له وعدم قطعهم علاقتهم به لأمر كبير. بيت واحد بقي ساهراً وبقي نوره حتّى الصباح. إنّه بيت أولئك الذين أشعلوا نور محبّتهم، كان بيت شقيقته حيث نزل تروفيموس ولوقا وتيموثاوس.

كان موقفه في الواقع صعباً. اليد الرومانية يمكنها أن تخلّصه فقط. لقد وصل بولس إلى نقطة جديدة، إنّها نقطة اتجاهه كلياً إلى القانون الروماني الذي نظر إليه نظرة عادلة وتحول عن كلّ شريعة موسوية وعن أي ارتباط بشرعه وعدالته. لا شكّ في أن سجناً طويلاً ينتظره، ومخططه لحمل إنجيل المسيح إلى رومية قد أخفق. قبل أن يطبق التعب عيونه، كان قد ألقى بكلّ آلامه وانزعاجاته فوق صدر المسيح. وكان يتابع حديثه مع المسيح حتّى في نومه. يقولون إن أمواج البحر عندما تتلاطم مجنونة فوق سطح البحر تبقى الأعماق هادئة. هكذا حدث مع بولس. عندما كانت حياته الخارجية تهدر كالموج الهادر كان

داخله «مختبئاً مع المسيح في الله» هنا يقوم سرّه. من يستطيع أن يسبر غور النفس البشرية المتحررة من قيود النهار؟ إنّها تشترك أثناء النوم حسب طبيعتها إما مع الأرواح الخيرة أو مع الأرواح الشريرة من حلم مادي لطيف، يتألّف منه عالم أفكار، يقفز ملاك الله وينحني فوق النائم ليعزّيه. في أحلام الليل ظهر له المسيح كما ظهر له قبل عشرين سنة في الهيكل «أهو أنت يا رب» إنّ بولس العليم بأعماق النفس البشرية وضلالاتها يعرف أن رئيس الظلمة يتجلّى أحياناً بصورة ملاك نور. رأى آثار الجراح تلمع كما رآها في دمشق. وأيقن عندئذ أن المسيح هو الذي يظهر له. يا رب اسمح لعبدك أن يخاطبك. أحسناً تكلّمت عليك أمام آباء اسرائيل؟ تكلّم يا رب. فإنّ عبدك يسمع. «تشجّع يا بولس فإنّك شهدت بما لي في أورشليم». اسمح لي أيضاً أن أتكلّم يا رب. أنا تراب ورماد، إنّي أشعر داخلياً أنّ عليّ أن أبشّر بإنجيلك في رومية (رو ١ : ١٥). «يا بولس عليك أن تشهد لي حتّى في رومية». انطفأ الحلم واستيقظ الرسول. اختفت آلامه وشعر بأن قوة جديدة تغمره. ما همه من العالم لو حاكمه! ما همه إذا كان المسيح معه!

رومية! إنّ هذه الكلمة تقف أمام نفسه كما ينتصب نور الصباح.

٥١. بولس وفيليكس

(أعمال ٢٣ : ١٢— ٢٤ : ٧)

في هذه الأثناء صار «أبطال السيف» أسياد الموقف، فأطلعوا المجمع على مؤامراتهم وطلبوا منه أن يتعاون معهم. إلى هذه الدرجة من الانحطاط بلغ المجمع [٥٠]، إلّا أن استعلامات المسيحيين برهنت على حذقها وبراعتها. كان حنان الإخوة ومحبتهم تعزية غمرت روح بولس فقوّته وشدّدته. إنّ ابن أخت الرسول اطلع على خبر هام جداً. لا يستبعد أن يكون هذا الخبر قد أتى عن طريق والده الذي كان له مركز مرموق واتصالات عالية. لا يستبعد أن يكون الزوج قد أسرَّ بالخبر لزوجته وهذه لابنها ليطلع خاله على ما يحاك في الخفاء ضدّه. كان بولس غارقاً في الأفكار التي أوحت له الرؤيا بها عندما فتح باب غرفته وانتصب ابن أخته أمامه. كان الوقت صباحاً. ما وراءك يا فتى؟ أتحمل أخباراً

جديدة؟ نعم أيّها الخال إنّي أحمل شيئاً هاماً جداً. إن موفدي المجمع سيرجون القائد ليقدمك مرّة ثانية إلى المحاكمة لزيادة في التدقيق وبصورة أكثر تفصيلاً، إنّهم يريدون قتلك فور خروجك من السجن وقد أقسم أربعون رجلاً بألّا يأكلوا أو يشربوا قبل أن يقتلوك. إنّهم ينبثون في كلّ الزوايا مترقّبين خروجك. رجا بولس قائد المئة أن يقود ابن أخته إلى قائد الألف ليسيا ليطلعه على الأمر في حينه ويبلغه مخطط الجريمة. كان ليسيا في هذا الوقت على ميعاد مع موفدي المجمع. كان مستعداً أن يجيب سؤل المجمع إلّا أنّه شعر بعد أن اطلع على ما يحاك في الخفاء، بأنّ المسؤولية تنقله وتضيق عليه أنفاسه. الأسباب أصبحت كثيرة جداً وتفرض عليه فرضاً أن يرفع القضية الى الوالي. في الساعة التاسعة مساءً كان قائدان من قواد المئة مع مئتين من المشاة ومئتين من الرماحين وسبعين من الفرسان على أهبة الانطلاق إلى قيصرية تحت جنح الظلام ومعهم بولس.

كانت مسيرة غريبة تحت أشعة النجوم في شعاب رطبة وعرة فوق ساحات الجليل الصخرية الحمراء التي كانت تغمرها أنوار القمر الفضية. عند طلوع الفجر بلغوا سهل شارون المخصّب. حتّى الآن لا يزال الطريق الروماني القديم بحجارته الضخمة المربعة قائماً يشهد بمهارة الدولة الرومانية في ربط امبراطوريتها بالمواصلات السهلة تسهيلاً لتنقلاتها العسكرية. فعاد الجند إلى أورشليم بعد أن زال الخطر (٥٠)، وقطع بولس الطريق الموصلة إلى قيصرية على ظهر الجواد.

كانت مدينة قيصرية التي بناها هيرودوس تكريماً للقيصر مركز مواصلات برية وبحرية للأمبراطورية الرومانية. كانت في قيصرية خمس فرق من المشاة وفرقة من الخيّالة وكان على اليهود أن يدفعوا ضرائب الضغط العسكري الذي كان يفرضه الرومان على المنطقة وكان اليهود حاقدين جداً بسبب هذه الضريبة ومن هذا الحقد ولد السؤال «أيجوز أن ندفع الفدية لقيصر؟».

في قيصرية نزل بولس في الحصن كسجين، وفي الحصن كان قصر كالذي في حصن أورشليم، وكان الوالي فيليكس (٥٢ — ٦٠) شقيق بالاس القوي المقرب الملكي ورئيس وزراء الأمبراطور كلاوديوس ونيرون معتقين يونانيين لأنطونيا والدة أم الأمبراطور كلاديوس. وكان منحطّ الأخلاق مزواجاً، وكانت نفسية العبد بالرغم من تحرّره تستيقظ فيه من حين إلى آخر. يقول تاسيت: «إنّه قاسي القلب عاطفي طبق السلطة القيصرية بروح

العبد ، وكان يستعمل هذه السلطة للإنتقام الوضيع ، قتل رئيس الكهنة يوناثان بخنجر هذه العصابة الملقبة بأبطال السيف لأنّه لم يَرد أن يخضع لطيشه ».

عندما قدم بولس إلى الوالي قرأ الوالي على مسمعه الكتاب المرسل من ليسياس وتقرير الشرطة . رجلان يقفان وجهاً لوجه كل يمثّل عالماً مختلفاً . أخذ فيليكس يتفحّص هذا الإنسان الرث الثياب الذي تنبعث منه قوة عجيبة . كان مضمون الرسالة في صالح بولس لأنّها تشير إلى خلافات دينية فقط . سأل فيليكس عن الإيالة التي ينتمي إليها بولس فقال كيليكيا . قال الوالي سأسمع منك عندما يحضر خصومك . اللقاء مع السلطة الرومانية أكّد لبولس أن قضيته انتهت في صالح الكنيسة .

بقي بولس في السجن مدّة سنتين [٥] . لا شيء جديد في حياة هذا السجين المليء بالحيوية ، لذلك نرى لوقا يصوّر الحوادث الخارجية بصورة مفصّلة . إنّه يحاول أن يرسم صورة المحيط الذي وجد فيه لا كما يرسمه تاسيت وسوتيون وفلافيوس يوسف . إنّه لا يتعرض إلى الناحية الخلقية بل يعلو فوقها كمسيحي وينظر إلى الأشخاص بمحبة مسيحية ولكي ندرك قيمة ما كتبه لوقا يجب أن نطلع على المحيط الخلقي الذي كان يسود قيصرية .

كان بولس سجين القصر . ماذا يمكن أن يروي هذا القصر . في منتصف الليل يسمع الإنسان صوت سريام الجميلة التي قتلها هيرودوس . في هذا القصر قتلت أولاد الطاغية ، في هذا القصر يأرق الطاغية ويتنقّل من غرفة إلى غرفة منادياً مريم التي أحبها والتي قتلها في إحدى فورات جنونه . حول هذا القصر احتشدت جموع اليهود نائحة باكية راجية كاليغولا عندما أراد أن يدنّس الهيكل بتمثاله[٢٧] . في هذه القاعات تمّت الاستجوابات التي يصفها لنا لوقا . وصل رئيس الكهنة حنانيا مع الشيوخ وكان معهم محام روماني . من لقبه يظهر أنّه كان عبداً ومن دفاعه ظهر أنّه مبتدئ لا يلم بأصول الدفاع . فاستعمل لغة المجاملة والمديح وخلع على الوالي صفات ليست فيه فجعله إنساناً وطّد السلام في المنطقة ونظّمها تنظيماً . إنّ مثل هذه الأقوال تفرح رؤساء الكهنة لأنّه قد يسهم في تحقيق مطاليبهم . يظهر أن الصدوقيين كانوا وراء اقحام القضية في مدارها السياسي ، لذلك اتهم بولس بأنّه أولاً : خطر على الدولة . وثانياً — مشاغب ورئيس هرطقة لا أساس قانوني لها وأنّه ثالثاً — دنّس الهيكل . كلّ هذه الأمور من وجهة القانون الروماني تشكّل أساساً للحكم بالإعدام . (يوسيفوس ٦ ، ٢ ، ٤)[٦٣] .

إنّ فيليكس كان خبيراً بهؤلاء البشر الذين يحبّون مصّ الدماء ويتعطّشون لرؤيتها. كان يعرف هؤلاء الأسياد ورؤساء كهنتهم. أراد أن يعرف ما الذي سيقوله بولس. وقف بولس بيديه المثقلتين بالسلاسل فأثار فوراً انتباه المحكمة. كان الرجل الجديد بفهم الأشخاص وبطريقة معاملتهم. إنّه يتكلّم بذكاء ويضع كلّ كلمة في محلها ويشرح إيمانه ويقول إن تعليمه مرتكز على الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد، فالعهدان القديم والجديد يشكّلان وحدة واحدة (غلا ٣، ٧) (لوقا ١٦، ١٦). إنّ كلامه على القيامة من وجهة الحق الروماني وتعليمه المتضمن كلّ المسيحية بذاراً يتحرك ضمن حدود اليهودية التي تحميها الدولة. لهذا لا يمكن أن يُعتبر بولس (خارج القانون) بسبب خلافات دينية ضمن الإطار اليهودي لا تهتم بها الدولة الرومانية. إنّ دفاع بولس هو أول دفاع للمسيحية أمام السلطات الرومانية. لم تكن السلطة الرومانية قد تبيّنت عدلياً الفرق بين المسيحية واليهودية. حصل ذلك فيما بعد عندما أبلغ اليهود الرومانيين أن مؤسس المسيحية صلب لأنّه قاوم قيصر، وكانت العدالة من الرأي القائل إنّ الديانتين مختلفتان في الجوهر (قد يكون هذا بتأثير من امرأة بوبياس اليهودية)، وهكذا ابتدأ الاضطهاد. لذلك لم يعد للصمت عن أن المسيح صلب أي مبرّر. ولم يحجم يوحنا في إنجيله (يو ١٩ : ٧ — ١٦)، الذي كتب بعد الاضطهاد عن أن يذكر أن المسيح صلب لأنّه عدو قيصر.

كان فيليكس، بسبب خدمته الطويلة في اليهودية، وبزواجه من امرأة يهودية مؤمنة يعرف الخلافات الدينية عند اليهود أكثر من أي موظّف روماني وكان في أعماقه يعطي لبولس الحق وكان عليه أن يحكم فوراً وكان بإمكانه أن يفعل ذلك. لم يفعل ذلك خوفاً من انتقام اليهود وطمعاً بربح مالي[١٧]. كان فيليكس جباناً كبيلاطس وكان يحب أن يرضي اليهود طمعاً بكرمهم المالي. كان بإمكانه أن يقرّر إذا كان المحكوم مذنباً أم لا. فقرّر أن يبقى في السجن على أساس أنّه ينتظر تعليمات من لسياس لجلاء القضية إلّا أنّه سمح لبولس أن يتجول في المعسكر وأن يقبل الزيارات إلّا أنّ هذا الحكم المجحف أثّر في بولس تأثيراً عظيماً، لأنّ سجناً لا يرتكز على حقّ يزعج ويثير.

يصف لنا لوقا مشهداً من مشاهد سجن بولس في قيصرية. ظهر أن المسيحية حتى ذلك الوقت كانت محاطة بجاذبية المجهول والجديد وكانت هدف وموضوع أحاديث الطبقات الإجتماعية العالية. كثيراً ما تهتم هذه الطبقات بدافع الهوس بفلسفة جديدة أو

بإحدى الديانات الجديدة إرضاءً لمطلب متافيزيقي مجهول. حول الوالي كان عدد من الفلاسفة والفنّانين ورجال الأدب والمغنّين والممثّلين والسحرة والمنجّمين والضاربين بالغيب. وكثيراً ما يجمع مثل هؤلاء هذا النوع من البشر بقصد اللذة والدعابة، كانت دروسيلا زوجة فيليكس من الذين يحبّون أن يحيطوا نفوسهم بعظمة ملوكية وقد جمعت في بلاطها عدداً من رجال الأدب والعلم وكلّ ما يمتّ إلى العقلية الرومانية بصلة وما يتجاوب مع دواخل النفس العجيبة. بعض المخطوطات السريانية تشير إلى أن أحاديث الوالي مع بولس كانت بدافع من امرأته. كانت دروسيلا كيهودية تريد أن تعرف عن كثب مواطنها الشهير الذي طبّقت شهرته كلّ الشرق. كانت ابنة هيرودوس اغريبا الذي أراد أن يضرب الديانة الجديدة بشخص بطرس ويعقوب وابنة أخي هيرودوس انتيبا الذي أمر بقطع رأس يوحنّا المعمدان. أكانت هذه المرأة تشعر بسعادة وسط حياتها الباذخة؟ أكانت نفسها النسائية توّاقة إلى تحليقات هذا الإنسان الذي يعيش سعيداً في محبسه؟ إنّ نفس المرأة قادرة على الإحساس. تحبّ أن تتأكّد وتتحقّق من السرّ. تريد أن تسمع بولس متكلماً على الإيمان بالمسيح. دعا فيليكس بولس بعد أن عاد مع امرأته من سفرة في أنحاء ولايته ليكلّم في قاعة القصر عن المسيحية. لا شكّ أنّهم سمعوا عن قوى بولس الروحية وعمّا حدث في قصر سرجيوس في قبرص. لا شكّ في أنّها ستكون «أمسية للتسلية» سيلهون ببولس كما لها هيرودوس بالمسيح.

لم يكن سهلاً على بولس أن يقف في هذا المجلس المنحطّ كهدف لحبّ استطلاعهم إلّا أنّه كان يشعر بضرورة ربح نفوسهم. كان يعتبر نفسه رسولاً للمسيح عليه أن يربح البشر إلى معلمه وليصالحهم معه (٢ قور ٥ : ٢٠)، إنّه يعرف هذه الطبقة اليهودية والوثنية في اليونان وأفسس وطرسوس، وكان يعرف ما الذي يزعجها. لذلك بعد أن تكلّم على براهين الإيمان التاريخية، على حياة المسيح العجيبة وعلى ظهورات الناهض من بين الأموات، وعلى الحياة التي عاشها شخصياً حجاة حول كلامه، مثيراً انتباه مستمعيه، إلى الناحية العملية من المسيحية، إلى الناحية الخلقية، إلى السيطرة على الحياة التناسلية، إلى الاستقامة الداخلية والى المسؤولية في الدينونة الأخيرة. لقد اعتبر انحراف الشهوة الجنسية عند الوثنيين نتيجة لانحراف ديني «في هذه الناحية كما نعرف من رسالته الى أهل رومية كان واضحاً». تمّ بطريقة أخّاذة كشفية صوَّر مجيء المخلّص بألوان كشّافة، كان فيليكس وكأنّه يجلس فوق الحجر. كانت ألوانه تتغيّر وكان يتسرّق النظرات إلى عشيقته التي كانت تصغي

بأعين منفتحة كأنّها طفل مليء بالاندهاش وتنظر إلى عيون النبي التي كانت ترسل شعلاً نارية. لا ندري ماذا حدث في نفس المرأة الشّابة. كان بولس وديعاً مع النسوة وإذا تشكي فإنّما يتشكّى من الرجال. أما ما حدث في نفس فيليكس فمعروف أنّه وخز الضمير. لقد سيطر عليه الخوف. إنّه مشهد يمكن لإنسان عليم بالنفس البشرية أن يصفه. إنّه بحاجة إلى إنسان كشكسبير. إنّه مشهد كذلك المشهد الذي وقف فيه هملت يقصّ على الملك المجرم مخازيه. من أعماق الماضي تلوح أمام عينيه، المشاهد الدموية وضحايا جرائمه، وعباداته الجسدية واختلاساته، ورئيس الكهنة المقتول، والنسوة اليائسات. شعر بأنّه يهان. إنّه لا يستطيع أن يتوب. التوبة لا تتحقّق بسهولة. ليست التوبة عملية تمثيلية إنّه اعمل قاس صعب. واقع قاسٍ. إنّه لا يستطيع أن يجابه مثل هذه الحقيقة. ترك الإجتماع بحجّة التعب، وقال لبولس: سيأتي وقت ندعوك فيه. فمرّ الوقت ولم يأت الوقت. إنّ رفض النعمة يقسّي القلب. هناك مَثَل انكليزي يقول: إنّ أقسى أنواع الجليد هو الجليد الذي ينوب قليلاً في الشمس ثم يعود إلى حالته بعد زوال شعاع الشمس(٥١).

عندما ترك فيليكس القاعة وإلى جانبه مغناجه الفتية كانت شياطين الجسد والثرثرة تنتظره وتعدّ له الاستقبال. يا فيليكس إيّاك ومثل هذه الإجتماعات. إيّاك ومثل هذه الأجواء الصعبة. يا للشيطان! إنّه يشوش في حواس فيليكس ويثيرها. لم يحاول بعد دعوة بولس إلى اجتماعات إلّا إنّه لم يتمكّن أن يبقى بعيداً عن التلذذ بأحاديث خاصة مع سجينه وقد أسرته معرفته العميقة للحياة اليونانية وحضارتها وحياة مدنها الكبيرة وخبرته المتأتية من تنقلاته الطويلة. لم يحاول فيليكس أن يتقدّم أكثر سن ذلك. لم يكن يدين بأيّة مثالية وكان رجلاً سطحياً. يا لفيليكس المسكين! إن ساعتك قريبة وبعد أشهر ستخسر مركزك وستغرق في الظلمة والمهانة. وستموت امرأتك الجميلة مع ابنكما الصغير اغريبا تحت حمم بركان فيزوف وسيكتب صديق بولس الواقف معه في طرف الساحة، وبيده دفتر مذكّرات وسيروي تاريخك المؤسي وسيقرؤه العالم حتّى النهاية. كان فيليكس من حين إلى آخر (يسمعه بأنّه ينتظر مالاً ليطلق سراحه) وهكذا نرى أن وراء الاهتمام الديني كانت المطامع المادية المميزة للوثنيين تبرز دائماً.

لم تكن السنوات التي مرّت في قيصرية عجافاً، كانت بالعكس مثمرة بالنسبة للكنيسة. إنّ إنساناً كبولس يعطي للزمان وزناً كبيراً (أفسس ٥، ١٦) يعرف أن يفعل في

الزمان المناسب ما يليق. كان أصدقاؤه الذين رافقوه يتحلّقون حوله. الرّاحة الإجبارية ساهمت في تحسّن صحّته، وحياته كانت في مأمن واليهود المتحمّسون صاروا أكثر ليونة بسبب سجنه الطويل ومركز قيصرية الملائم جعله يتصل بكل الكنائس القائمة على شاطىء البحر المتوسط. لا شك أن هذه المراسلات لم تكن تتضمن رسائل مهمة، إلّا أن أعظم ربح نتج عن هذا السجن هو كتابة أجمل كتاب في العالم، كتاب انجيل لوقا. كان بولس يشعر بأن المواعظ التي انقطعت يجب أن تعوَّض بمواعظ مكتوبة. الحق أنّ بولس في مواعظه كان يستند الى الحوادث من حياة يسوع إلّا أنّه وفقاً لمواهبه الروحية كان يفضّل «أن ينقّب في طبقات أفكار الله العميقة التي تكشّفت بالمسيح». كان بولس من الطبائع النبوية الصوفية وكان لوقا بعكسه. «كان في أعماقه مجرى تاريخي قوي»[٥٠]. هكذا كان الإثنان يتمّمان بعضاً وبطريقة فضلى من أجل صالح المسيحية. كان متى قد كتب انجيله في اللغة الآرامية لليهود المتمسحين. وكان مرقص قد أعدّ سيرة حياة المسيح كما يذكر بطرس. وهكذا كان لوقا في مركز يمكنه من أن يستند إلى أخبارهما وأن ينقّب في مستندات أخرى وأن يسأل الكثيرين «الذين كانوا شهوداً وخدّاماً للكلمة» (لوقا ١، ١ — ٤).

في هذا المكان يستطيع لوقا أن يوسّع دائرة استقصاءاته حتّى بدء حياة المسيح الطفولية، والأخبار الأخرى التي يتضمنها الفصل الأول من انجيله. من الجائز أن يكون قد تعرّف إلى الضابط أو الموظّف الذي آمن بالمسيح وتسمّى باسم تيوفيلوس الذي قدم له كتابيه والذي ساعده وسهّل أمامه سبل السفر إلى الأماكن الضرورية التي تفيده في البحث للعثور على مصادر تاريخية. كم مرّة سافر إلى أورشليم لرؤية يعقوب وإلى بيت لحم والنّاصرة واتصل بأقارب يسوع وعلى الأخصّ بوالدته العذراء التي كانت لا تزال على قيد الحياة في الثمانين من العمر. مَن يمكنه أن يقصّ عليه قصة الميلاد العجيب بهذه الطريقة غير ذكريات أم مؤمنة تحب؟ بهذه العبارة «وكانت مريم تحفظ هذا الكلام كلّه وتفكّر فيه في قلبها» (لوقا ٢، ١٩) يبين لوقا أن والدة يسوع هي التي حفظت التقليد الأول وكانت النبع للإنجيل فيما يتعلّق بحياة الرب الطفولية (٢ : ٣٥). «وأنت سيجوز سيف في نفسك حتّى تكشف أفكار من قلوب كثيرة»، «تعظّم نفسي الرب» (١، ٤٦)، وفيما هو يتكلّم رفعت امرأة من الجمع صوتها... (١١، ٢٧) هذه الآيات تقودنا إلى بدء تكريم والدة الإله.

هناك سؤال نستطيع أن نطرحه هنا. لماذا لا نجد في رسائل بولس كلمة حارة عن العذراء؟ العبارة الموجزة في رسالته الى أهل غلاطية «أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة» (٤ : ٤) لا يمكن أن تشبع عواطفنا. أهناك جسد بين مريم وبولس؟ الجسد الأول هو لوقا الذي يرافق بولس ويقف إلى جانبه في قيصرية. إن لوقا في انجيله انجيلي بولسي وانجيلي لحياة المسيح الطفولية. المعلّم والتلميذ يكملان بعضهما بعضاً. لوقا هو التاريخي وبولس هو العقائدي. تأثير بولس في انجيل لوقا واضح. فيه نجد تعابير بولس ووجهات نظره وخصوصاً روايته عن العشاء السري «إنّها تشبه كثيراً رواية بولس حول هذا الموضوع»[٥٠]. هناك من يعتبر الإنجيل الثالث انجيلاً لبولس. الجسد الثاني هو التجسّد الإلهي الذي عمّقه ولادة مريم البتول. [٤٠].

إنّنا مدينون أيضاً لهذه الفترة بالكتاب الثاني للوقا أي أعمال الرسل. إنّ أهل قيصرية ودربي زوّدوا الرسول بمادّة تاريخيّة غزيرة عن ميلاد الكنيسة الفتية ومدينون أيضاً إلى فلافيوس يوسف الذي كان في قيصرية والذي كان يتردّد إلى السجن لرؤية بعض كهنة اليهود[٢٧] ، والذي كان شاهد عيان لمولد المسيحية وللحوادث التي مرّت. ترى أتعارف الرجلان!

لولا الظروف لبقي بولس في السجن مدّة أطول من السنتين. ولولا بعض الحوادث الدّامية التي جرت بين اليهود والرومانيين لبقي مصير بولس معلّقاً. كانت قيصرية مدينة يتساوى فيها اليهود والوثنيون بالحقوق السياسية ولهذا كانت الأجواء تتوتّر وكثيراً ما تجري الدماء بينهما.

في إحدى المصادمات تغلّب اليونانيّون على اليهود فتدخّل فيليكس وأمر اليهود أن يخلوا الطريق فرفض اليهود ممّا أدّى إلى تدخّل الشرطة فنتجت مذبحة تحوّلت فيها بيوت اليهود إلى رماد. لقد وصل صوت الإحتجاج إلى رومية وكانت لهم هناك سيطرة عظيمة فأعفي فيليكس من منصبه لأن أصدقاءه هناك كانوا قد ماتوا وكان أخوه قد وقع في هاوية المغضوب عليهم. إلّا أنّ عمله الأخير كان تسليمه بولس للوالي الجديد ترضية لليهود. كان ذلك سنة ٦٠ ب. م. إنّ هذا التاريخ هو أدقّ تاريخ في حياة الرسول.

٥٢. «إني أرفع دعواي إلى قيصر»

(أعمال الغصلان ٢٥ و٢٦)

إن بوركيوس فيستوس الوالي الجديد الذي وصل في مطلع خريف ٦٠ ب. م. كان من عائلة قديمة من سوكولوم القريبة من روما. كان من أشراف الرومانيين القدماء ومن موظّفي المدرسة الصالحة القديمة. كان مشهوراً بثباته وعدالته وتفانيه أمام الواجب. بعد ثلاثة أيّام من الرّاحة صعد إلى أورشليم ليتصل بالسلطات اليهودية ويجمع المحكمة، وينهي كلّ الأمور المعلّقة، وقد أحاط به كلّ الكهنة البارزين من اليهود بزعامة رئيس الكهنة اسماعيل بن فامي الذي عينه هيرودوس انتيبا الثاني. إنّ أعلى رتبة دينية أصبحت تشرى بحيث أصبح التطاحن بين العائلات الكهنوتية المتعددة أمراً لا بدّ منه.

يروي التلمود ويقول: ويل لنا بسبب بيت اسماعيل بن فامي، ويل لنا من لكماتهم. إنّ رؤساء كهنته هم حرّاس لكنوزه، وعرسانه مشرفون على الهيكل، وخدّامه يضربون الشعب بالعصي. إنّ العامين اللذين مرّا ما تمكّنا من أن يخفّفا من حقدهم على بولس كانوا يعيشون على الرجاء وكانوا يأملون في أن يحقّق الوالي الجديد امنيتهم وهو الجاهل لخلافاتهم. ألحوا وطلبوا منه أن يقدّم بولس إلى المحكمة المدنية كهدية يقدّمها لهم في يوم تسلمه للسلطة. فكّر اليهود في جريمة يرتكبونها في الطريق ليتخلّصوا منه. لم يكن فيستوس عديم الخبرة كما كانوا يتصوّرون. كان قد درس ملفّ محاكمة بولس. فرفض طلبهم بعزم وقال: إنّ بولس سيبقى حيث هو. العدالة الرومانية لا تسمح أن يقدّم الدم هدية. قال لهم أحملوا دعواكم إلى محكمتي في قيصرية. وهكذا كان على بولس أن يحاكم في محكمة لا يلوح فيها رجاء الربح.

بعد عشرة أيّام كانت المحاكمة الجديدة، المشهد الثالث من مذكّرات لوقا. إنّ مشهد هؤلاء البشر وهم يصرخون ويزمجرون ويلوحون بقبضات أيديهم في الهواء ويشتمون وقد أحاطوا بالسجين طالبين مصّ دمه، كان مشهداً غير مألوف وغير عادي يقزّز النفس. ما اعتاد فيستوس أن يراه. أدرك فيستوس شيئين: أدرك أن المقصود هو الديانة اليهودية غير المفهومة بالنسبة للرومانيين، والهيكل والشريعة. أحسّ فيستوس أن الخلاف هذا يجب أن يفصل فيه أمام محكمة روحية. لم يكن بالإمكان إحالة بولس من محكمة الأمبراطورية إلى

المحكمة اليهودية بدون موافقته. للمواطن الروماني الحق في أن يطلب متى يشاء أن يحاكم أمام محكمة أمبراطورية. فاقترح الوالي على بولس أن يغير المحكمة. إنّ هذا الاقتراح وضع بولس في مأزق حرج. كان فيستوس على حق. إنّ قضية بولس كانت في جوهرها قضية دينية بالرغم من وجود جانب سياسي فيها على اعتبار أن السياسة الدينية الرومانية كانت تمنع أيّ نشاط ديني غير معترف به رسمياً. إنّ الرسول يرى الآن كالسّابق، أن الأمور الروحية يجب أن تحلّ بوسائل روحية. أيتعارض مع نفسه إذا رفض أن يذهب إلى أورشليم؟ أم كان عليه أن يمزج الدين بالسياسة؟ من الواضح أن اتخاذ قرار لم يكن سهلاً، لم يكن للأسباب البسيطة الموجبة أي ثقل بالنسبة لإنسانٍ يتقرّر موقفه بالأسباب الجوهرية ويقرّر كلّ شيء وفقاً لمقاصده العليا ولا يعطي لحياته أي وزن إذا قيست بالهدف الذي يسعى إليه. إنّ بولس فصل نفسه في القضايا الدينية عن المحاكم اليهودية. إنّه لا يستطيع أن يعتبر أن المجمع جدير بأن ينظر في قضيته التي كان يعتبرها مسألة وجدان كما أن المسيح لم يكن بإمكانه أن يعترف بأن المجمع كان جديراً بأن يقرر فيما إذا كان تعليمه تعليماً صحيحاً. إنّ الناحية الدينية في القضية ترجع في نظر بولس إلى مبدأ إلهي عالٍ وهو الذي حلّ القضية.

إنّ المسألة بالنسبة لبولس كانت تجاوز الشريعة أم لا. إذا كانت المحكمة الرومانية من هذا الرأي فإنّه سيقبل أن يموت، سيموت من أجل إيمانه، ولن يكون ضحية لحكم مجرم. بما أنّ الوالي كان يعتبر هذه القضية الدينية قضية صعبة الحل ولم يكن بإمكانه أن يتخذ أي قرار، وجب على بولس نفسه أن يعترض على صلاحيته وأن يخرج خارج هذه الصلاحية، وهذا ما فعله فعلاً بقوله: إنّي أرفع دعواي إلى قيصر. يا للكلمتين الحريتين! إنّهما تعنيان الإمتياز الذي للمواطن الروماني أينما كان يحقّ له أن يحاكم في المحكمة الأمبراطورية في روما. كان لهذه المحكمة العليا احترام عظيم. يكفي أن يلفظ المواطن الروماني هاتين الكلمتين حتى تصبح «كلّ محاكم الدنيا غير صالحة»(٥٠). إنّ القانون الروماني بعد عهد الأمبراطور أوغسطوس يعطي الحقّ للمواطن الروماني في أن يستعمل الصلاحية التي يفرضها القانون حتّى أثناء المحاكمة. إنّه لا يمنع فقط الحكم على المتهم وتبرئته. وبهذه الطريقة ردّ بولس خصومه فتنفّس فيستوس الصعداء. كانت هاتان الكلمتان مخرجاً من مأزق حرج. اختلت المحكمة ثم خرجت بالقرار التالي: استنجدت بقيصر فاذهب إلى قيصر. كانت محاكمة بولس مقدّمة لمحاكمات أخرى. لا شيء كصعوبة مصلحتين عندما تتشابكان أو عندما

تتضارب محكمة مدنية ومحكمة روحية. إنّ هذا يقود إلى دمج الديانة والسياسة ويعطينا أمثلة مؤسية كالتي قدّمتها دواوين التفتيش في العصور المتوسطة.

بقي أن يقودوا بولس إلى روما تحت حراسة الجند. كان فيستوس محتاراً. يجب أن يرفق السجين بكتاب يتعلّق بوضعية المحاكمة. إن أغريباس الثّاني ملك شمالي فلسطين الذي وصل في هذا التاريخ قد أنقذه من هذا المأزق. فجاء يزوره بعد أيّام من وصوله وكانت أخته فارنيكي ترافقه [٥]. كان لاغريبا مكانة عظيمة في روما، كان له التأثير الكبير في تعيين فيستوس وكان الوحيد الذي يستطيع أن يقدّم المساعدة لفيستوس في قضية شائكة كهذه القضية وأن ينقذه من هذا المأزق الحرج. كان أغريبا يهودي المولد وروماني الثقافة. لأسباب سياسية درس الديانة اليهودية وكان من الخبراء المعدودين وممثلاً للعقلانية الأرستوقراطية وممثلاً لليهودية المرهفة الحضارة في ذلك العصر، كان له حقّ تعيين رئيس الكهنة وتفتيش كنوز الهيكل وكان يصطحب شقيقته فارنيكي أينما ذهب وكانت هذه قد طلّقت زوجها. وكان الشقيقان متلازمين دوماً فراجت إشاعات كثيرة حولها. إنّها الآن في قيصرية حيث كانت أختها قبل أشهر سيدة القصر وحيث قتل قبل ست عشرة سنة أبوهما فمات ميتة شنيعة وقد عاقبه الله. إنّها العائلة الوحيدة في التاريخ العالمي التي ارتبطت فورياً بيسوع. إنّ جدَّ أبيه قتل الأطفال في بيت لحم وعمه قتل السابق واحتقر يسوع وأباه قتل يعقوب واضطهد بطرس. منذ اضطهد مؤسس هذه السلالة صبي بيت لحم التصقت سلالته بجريمة مفجعة فصحت فيها كلمات يسوع (لوقا ٢٠، ١٨) (ومتى ٢١، ٤٤). كان لأغريبا دوافع تدفعه للدراسات دينية. أخبر فيستوس ضيوفه عن السجين الشهير فأظهر أغريبا اهتماماً كبراً لدى سماع اسم بولس والمسيح، إنّي أريد أن أسمع هذا الإنسان. فرح فيستوس جداً كفرح بيلاطس أمام هيرودوس. إنّك ستسمعه غداً. قال ذلك فرحاً. وهكذا تحقّق أعظم مشهد من مشاهد تاريخ الديانات العظيمة. إنّه المشهد الرّابع من مشاهد يوميات لوقا.

أخبروا بولس أنّه سيمثل في اليوم الثاني أمام هذا المجمع. إنّه يعرف اغريبا ويعرف تاريخه وقد وطّد العزم على اغتنام هذه الفرصة لظفر الإنجيل. إنّ كلامه في أعمال الرسل يعتبر ذروة دفاعه. لم يكن المجمع مجمع محاكمة بل ندوة اجتماعية تكريماً للملك وكان ذلك في القاعة المرمرية الكبرى الملوكية في قصر الوالي.

أخذت السلطات العسكرية والسياسية أماكنها وكذلك المشورة القضائية للوالي. ظهر فيستوس بلباسه الأبيض الناصع والملك الشاب بإرجوانه المذهّب والمفضض وكانت فارنيكي تسطع وسط النسوة بشكلها الإلهي. تخلّى الوالي عن مركزه للملك مجاملة. وكانت الحاشية والمدعوون يأخذون أماكنهم على جانبي القاعة. يا لصغرة الرسول أو يا لثيابه الممزّقة الفقيرة وسط هذه الأضواء البرّاقة وبين الحرائر المواجة واللآلىء اللمّاعة. إنّه يساق إلى القاعة مقيّداً بقيودٍ خفيفة ويدخلها وسط حراسة الجنود. عالمان يقفان متواجهين، عالمان مختلفان. الإنجيل في مجابهة العالم يمسكه المتهم، وعالم الإنسان الغارق في ظلمته. إنّ بولس يعرف ذلك وسيبقى هذا العالم على حاله حتّى يأتي السيد السماوي ويقضي على الملوك وسلطان هذا العالم، افتتح فيستوس الجلسة بحديث قدم فيه الأسباب التي دعت لعقد مثل هذا الاجتماع. إنّ السبب هو نص مذكّرة مدروسة «للسيد» ومفصّلة ترسل إلى روما. إنّه يستعمل الصفة الإلهية «السيد» التي استدانها أوغسطوس وثيباريوس والتي تسجّلت نهائياً في عهد كاليغولا وعلى الأخص في عهد نيرون التفت أغريباس وقال لبولس: يسمح لك أن تدافع عن نفسك.

نهض السجين وكانت ألوف الأعين تحدّق إليه متفحصة كأنّها تتطلّع إلى شيء غريب. يخيّل للمرء أنّ بولس كان يمرّ في ساعة عظيمة. الخطيب المجرّب وقف وقفة الخطباء القدماء. عندما رفع بولس يده تراجعت أصداء السلاسل التي كانت تقيّده واختلطت برنين الذهب الذي كان يزيّن معاصم النساء. الرجل الذي تكلّم في أريوس باغوس، الرجل الذي يملك قوّة الروح القدس في أعماقه لا يخشى الصعوبات. يقول سجل فازا «تكلّم بجرأة من في أعماقه الروح القدس» خاطب الملك بأدب يليق بالرجل الحر ووجه له كلام الند للند. إنّه يعرف العلاقات المؤلمة التي بين عائلته وعائلة معلّمه. لم يترك هذه العاطفة تسيطر عليه. إنّه واقعي كعادته. يجب أن نكمل الصورة التي في أعمال الرسل عن طريق معرفتنا لروح المتكلّم. إنّ بولس يستند إلى الأنبياء وينشر أمام اغريبا الميراث الروحي وثروة الأسباط الاثني عشر ومضمون الرجاء الاسرائيلي النقي الألفي للمواعيد ويبرهن أنّها تحقّقت بشخص يسوع. ما إن ذكر كلمة قيامة حتّى حرّك الملك رأسه حركة شك لأنّه كان من الصديقيين العقلانيين فصرخ بولس: أيّ كفر ترون إذا أقام الله الموتى. ليست قيامة المسيح عائقاً للإيمان بالنسبة للاسرائيلي. إنّها أساس لظفره بل أعمق وأجمل ظفر. إنّي لست بحالم بسيط. كنت من الذين أبغضوا المسيح وتطوّعوا ضدّ المصلوب والقيامة. كان على بولس

أن يتكلّم على حياته هذه المرّة. الجرح الخفيّ ينفتح مجدّداً. إنّ رؤيا دمشق كانت مصيرية بالنسبة له، إلّا أنّ التوافق بين العهد القديم والجديد كان الأساس في إيمانه[١٧]. الصليب ليس خارج العالم والمسيحية مع الكشف في العهد القديم يؤلفان وحدة. فالدخول إلى المسيحية لا يشكّل تمرّداً على روح الشريعة الحقيقي والأنبياء في الإنجيل يظهر المسيح المتجلّي مع موسى وإيليا اللذين شهدا له.

كان من السهل أن يتكلّم بولس مع إنسانٍ كأغريبا يعرف اليهودية ويسوق براهين عميقة من الكتاب المقدس. كان فيستوس يجلس كأنّه قد تحجّر منذ السّاعة التي ابتدأ فيها الجدل. كلّ شيء كان غريباً بالنسبة له. كان يخال نفسه تحيا في مستشفى للمجانين. هكذا يظهر الإنسان انتحل بروح الله لرجل العالم. وهذا ما أجبر بولس على تقديم أكثر اعترافاته تأثيراً «إنّي بقيت الى هذا اليوم شاهداً للصغير والكبير» هذه الكلمات لم تسمع في العالم القديم. لم يكن في الوثنية القديمة أي معنى لمضمون الديانة. إنّه ليس بالمهم أن يكون مضمونها حقيقياً. يستطيع المرء أن ينتسب إلى ديانات متعددة كما يحدث في الهند والصين واليابان. يكفي أن يستفيد من هذا الإنتساب بما يعود عليه بالسعادة والعزاء في الموت، المسيحية هي الديانة الوحيدة التي تطرح قضية الحقيقة، ما هي الحقيقة؟ هذا سؤال طرحه بيلاطس على المسيح، اعتقد فيستوس أن بولس هو من أنصار الحقيقة المتزمّتين. هذا ما عنّته صرخته في وجه بولس: «أجننت يا بولس! إنّ كثرة الدروس تقودك إلى الجنون». لم ينزعج بولس بل أجاب بكلّ احترام أنّي لم أجن أيّها العظيم فيستوس. إنّي أتكلّم كلمات الحقيقة والحكمة والملك الذي أنا بين يديه يعرف هذه الأمور جيداً ولا أظنّ أنّه يخفى عليه شيء منها فما حدث لم يحدث في زاوية ثم التفت إلى الملك اغريبا وقال له مخاطباً وجدانه: أتؤمن أيّها الملك أغريبا بالأنبياء؟

لا يسمح لليهودي أن يناقض الأنبياء. كان أغريبا يعاني مخاض الجواب وقد قرأ بولس ذلك في قلبه. إني أعرفك أنّك تؤمن. من آمن بالأنبياء عليه أن يؤمن بالمسيح يصعب على البشر أن يستخرجوا من قناعاتهم النتائج العملية عندما تفرض هذه بعض التضحيات. كم هو طول الطريق الفاصل بين العقل والقلب. أصبح اغريبا خارج ذاته. إنّ شيئاً سرّياً مسّه. مسّ وتراً ما مسه أحد من قبل. إن ناقوساً دفيناً يعود إلى شدوه. إنّه يشعر بانزعاج إلّا إنّه كرجل عرف أن يتخلّص من هذا المأزق الحرج بمهارة. إنّه كرجل العالم تخلص

بنكتة فيها معنى السخرية وفيها أيضاً معنى الإعجاب بالخطيب. إنّ آل هيرودوس يملكون بدمهم روح السخرية. إنّك قد قاربت أن تجعلني مسيحياً. هذا الكلام لا يدل على يقين بل على كبرياء عقل يحاول أن يتخلّص من المأزق الذي زجّ فيه. لا شكّ في أن الضّحك قد استولى على الجميع عندما سمعوا نكتة الملك. إن بولس لا يعرف المزاح وخصوصاً في موقف كهذا الموقف. إنّه يلتقط هذه الكلمات ويقول: إنّي أتمنى أمام الله لو يصبح الذين يسمعونني بقليل أو بكثير على ما أنا عليه ما خلا هذه القيود. كانت لحظة مؤثرة فكأن ملاكاً من الله كان يرف فوق ذلك المكان. يبتسم الرومانيون لهذا الدعاء. إنّهم ما عانوا رجاء الإيمان الذي يشعر به بولس. أما النسوة فاتسمن في سرهن وبدون ضجة. أما الملك فقد عطّل المجلس بابتسامة مزعجة وترك المجلس هو وفارنيكي.

كانت الموعظة ناجحة وقد قررت مستقبله. قال أغريباس لفيستوس: كان يمكن أن يطلق سراح هذا الإنسان لو لم يرفع دعواه إلى قيصر. إنّه لم يفعل شيئاً يستحقّ الموت أو القيود. نزولاً عند هذا الرأي رفع فيستوس الطلب وكان هذا الطلب من الأسباب التي برأت بولس في عهد نيرون.

إن لوقا بارع في عرض الحالات النفسية التي تولد تحت تأثير النعمة الإلهية. بين كلماته يسمع المرء اقتراب النعمة كخفقات القلب. عالمان يتجابهان. العالم الفائق الطبيعة والعالم الطبيعي، الرجلان، الشريعتان كما يصفهما بولس في الفصل السابع من رسالته إلى أهل روما.

كيف يقاوم ممثّلو المملكة الحاكمة، كيف يجيبون عن دعوة الله؟ سلف فيسيوس كان يميل إلى التدين المريض. الديانة كانت بالنسبة له معضلة مهمة. إنّه يريد نداها فقط أما فيستوس فكان رجلاً قاسياً من رجال هذا العالم. الديانة بالنسبة له جنون مطبق، العالم الورائي مغلق كما هو عالم الألوان بالنسبة إلى الأعمى، كلّ ما لا يمس يخسر وضوحه ونقاوته. التفكير في هذه وقت ضائع. إنّ دراسات القانون الروماني والسياسة تستحق الاهتمام. الصليب والآلام هما للعبيد والقيامة شيء مشكوك فيه جداً. إنّ دعوة الأرض هي الشيء الذي يقف في وجه المعرفيين. هذه القلوب تشبه الصناديق الكبيرة المليئة بالمال ولكنّك لا تملك مفاتيحها. الحوادث تستطيع أن تحرّكها. كان موقف أغريبا مختلفاً. إنّه يمثّل الإنسان المتحضّر ذا الأعصاب المرهفة، يدرس الأمور الدينية ولكنّه لا يستطيع أن

يشعر أن حياة الآخرين الدينية هي حياته. يمكنه أن يدرس الدين بدون أن يكون متديناً ولا يعني التأثر الديني. إنّك متدين وكذلك الاهتمام بالدين. يمكن أن يقود ذلك إلى الدين المسيحي، الدين المسيحي ليس بفلسفة فقط. إنّه حياة جديدة الينعان. لكي يصل أغريبا إلى هذه الحالة يحتاج إلى حدث مثير. إنّه فكر نيّر لكنه يحتاج إلى ذلك القلق النفسي الداخلي الذي يستقر فقط في الهدف الأكبر في الحق. هكذا انتهى آخر هيرودوس في ظلمات التاريخ، إنّ جيل قتلة الأنبياء اختفى بدويّ ولكن بدون مجد. إنّهم فقدوا ذكرهم مع الأصداء. (مز ٩ : ٧).

٥٣. خطر الغرق في البحر

(أعمال ٢٧ : ١ — ٢٨ : ١٠)

الفصل السابع والعشرون من أعمال الرسل يحوي القسم الرّائع من يوميّات لوقا وقد سمي «بفصل الملّاح» درسه الدكتور بروسنغ من مدرسة البحرية في فرامي في كتابه «الملاحة عند القدماء» درساً مفصّلاً فسمّاه المستند الملاحي الثمين الذي وصل إلينا من العالم القديم والذي لا يمكن أن يخطه إلّا شاهد عيان. إنّ القائد الإنكليزي نلسون قرأه فوق سطح بارجته صباح معركة الطرف الأغر، كان نلسون ابناً لكاهن انكليزي وكان يعرف الكتاب المقدس منذ طفولته، وكان كغيره من الأبطال يجد في قراءته تعزية ويستمد منه القوة في وقت الشدة. لم ير المنتصر غروب الشمس. كان ملقى في غرفة قيادته ميتاً بعد أن سجّل لبلاده النصر على الأسطول الفرنسي والأسباني[٣٢]. لقد أحرقت عموده الفقري شظية قاتلة. الكتاب المقدس مفيد للجميع إنّه كتاب علمي ينطبق على كلّ الحالات في الحياة. إنّه كتاب بطولي، كتاب أبطال الأبطال، كتاب يخلق الأبطال.

نحن في مطلع خريف ٦٠ ب.م. يجب ألّا ينتظر المرء كثيراً حتّى ينتقل السجناء إلى روما لأنّ الإنتظار يعني قضاء فصل الشتاء في البحر. كان يوليوس قائد الألف ومن شرطة الأمبراطورية المكلّف بنقل السجناء. كانت وزارة التأمين مثلاً للفن الاداري الروماني وكانت واجبات هامة ملقاة على عاتقها بالإضافة إلى واجبها في حماية العائلة المالكة. كانت

عبارة عن شرطة سرّية وبريد امبراطوري وشرطة أمبراطورية لنقل المساجين. كان هؤلاء الشرطة يلقّبون باسم «باركيتي». إختار يوليوس مركباً تجارياً وسافر باتجاه أوراميتو من أعمال ميسينا في آسيا الصغرى. كان يأمل أن يجد هناك مركباً ينقله إلى إيطاليا.

وكان صباح من أيلول عندما لاحت على الرصيف خوذات وحراب جند الرومانيين الذين كانوا يسوقون جماعة من المساجين، منهم من حكم سياسياً ومنهم من حكم بجريمة ومنهم من كان من حملة المدى في فلسطين الذين كان يعدهم مكسيموس للطعان. وكان هؤلاء الناس ينتمون إلى طبقات وكان بولس يتميّز بين تلك الجموع وكانت هالة من نور تحيط برأسه. وكان «كأنّه مصارع يستهدف الفوز بالجائزة العلوية (فيلبي ٣ : ١٤) يريد أن ينهي خدمة تضحيته من أجل الإيمان.

كان مسلك يوليوس مسلكاً ودياً وكان يخاطب بولس باحترام. إنّه كقائد مئة كفرناحوم وكورنيليوس قيصرية وكان قد تعرّف إليه عندما كان سجيناً ومن الجائز أن يكون من بين الحرس الذين سمعوه عندما تكلّم أمام المجتمع الرّاقي في قاعة القصر. كان أصدقاء بولس وتلاميذه حاضرين ساعة الوداع وقد سمح لثلاثة بمرافقته. إنّها منّة عظيمة يذكرونها للقائد. كان يحقّ للسجناء الذين يتمتعون بمركز مرموق وشهرة عظيمة أن يصطحبوا معهم خدّاماً يخدمونهم. كان يسمح للمواطن الروماني أن يصطحب عبدين على الأقل.

لا شكّ في أنّ بولس قد مرّت بخاطره تلك السنوات التي قضاها في التبشير وهو واقف فوق سطح المركب يراقب أرض أجداده وهي تبتعد وتغوص في الأعماق كما مرّت أيضاً بخاطره تلك الأوديسيا التبشيرية التي قام بها مع برنابا. لا شكّ في أن المسيحية كانت ستنتشر بدونه في حوض البحر المتوسط لأنّ الله لا يحتاج إلى إنسان معيّن. إلّا أنّه عندما يستخدم إنساناً فإنّ هذا الإنسان يطبع عمل الله بطابعه الخاص. من الصعب أن نتصور القوة والجرأة والصفاء والجلد التي كان يملكها هذا الإنسان وكيف لنا أن نتصور ذلك وهو الذي لم يضل حيث ضلّ الكثيرون ولم يتأرجح حيث تأرجح الآخرون وتقلقلوا تحت وطأة الماضي، أية قوّة وأيّة جرأة وأيّة صفاء وأي جلد كان يملك هذا الإنسان؟ أتستطيع أن تتصوّر؟ إنّ حيوية هذا الرجل ترتبط بجلدها بالمستقبل ولا تعرف المهانة. عندما ترك بولس عالم الشرق كان يستطيع أن يتطلّع إلى الوراء بفرح مقدّس. كلّ ما حوله من البلاد شيّد بالكنائس المسيحية المملوءة بالغيرة وكانت مرتبطة فما بينها بربط المحبة التي لا تنفصم. بقيت

أورشليم مرتبطة بالماضي فانطوت على ذاتها وفقدت إمكانية التأثير خارجياً، ماذا تعني مقاومة تنين المسيحيين المتهودين لعمله؟

كان بولس يعرف ما ينتظره وكان خبيراً بالأسفار البحرية الطويلة وما يتفرّع عنها وعلى الأخص هذه المرّة كسجين وإن كان يعامل معاملة تختلف عن معاملة بقية السجناء(١٧). يكفي أن يرى معاملة الحرس للسجناء، يكفي أن يرى منظر ما يقاسونه من عذابات، يكفي أن يرى سوء تغذيتهم والمكان الضيق الذي فيه كانوا يحشرون وينامون ويحركون حتّى تثور نفسه بالألم ويستولي عليها الغم والضيق. ومع ذلك فكان يعمل جاهداً ليقدم التعزية الروحية لهؤلاء البشر المعذّبين. لا نعرف كم من هؤلاء وجد طريقه إلى المسيح. أعمال الرسل لا تذكر ذلك إلّا أنّ السطور تريك أن العديد منهم تنصّر. صار بولس بمحبته نصف إله. أخذ المساجين ينظرون إليه بعيون التقديس. إنّ المحبة المسيحية ظهرت لهم كنور وسط الظلمة «يا للوحة الجميلة» كان بولس الطبيب الروحي للمركب وكان لوقا طبيبه الجسدي. يا لهذه الغبطة وسط هذا العذاب!

لنفهم الأمور علينا أن نعرف شيئاً عن فن الملاحة عند الأقدمين وموقفهم من البحر. كانت الملاحة ناقصة ووسائلها قليلة ولم تكن الإبرة المغناطيسية قد اكتشفت وكانت الشمس والنجوم دليلاً للملّاحين يجب ألّا نغفل قيمة الربابنة في العالم القديم. ما كانوا ربابنة بحر هادىء فقط. هذا الزعم يقلّل من جرأتهم وإقدامهم وما كانوا بقليلي الجرأة. إنّ الرحلات الطويلة كانت تتوقف في أيّام الشتاء وذلك لاستحالة رؤية النجوم بسبب الغيوم. منطقة البحر المتوسط الشرقي تسفحها الأمواج القوية في الخريف التي تسببها رياح الجنوب. كان من الصعب على المرء أن يسافر في المراكب الكبيرة المعدّة للحمولة غرباً. كان الأقدمون يخافون ويكرهون البحر. البحر كان يرمز الى السديم الذي يخرج منه العالم النيّر والنظام وجمال اليابسة. إن بوسيدون إله البحر كان الهاً مليئاً بالحقد وهوس العداوة وكان على البشر أن يلجموا أهواءه بضحايا يقدّمونها على مذبحه. يجب أن يضاف إلى ذلك الفكرة الدينية القائلة إن الميت لا يمكن أن يجد راحة إذا لم يدفن في قبر «سنموت جيداً» الشعب الوحيد الذي اعتبر أن البحر هو صورة للسديم هو الشعب اليهودي. كلّ هذا مدين إلى قصة الخليقة. في المزامير وعند أيوب والأنبياء تمثل أمواج البحر الاضطراب وعدم

النظام. اجتياز البحر بدون أن تبتل الأقدام هو رمز للخلاص ولصورة الاستقبال المثالية كما ترسمها لنا الرؤية «البحر لن يكون بعد» (رؤيا ٢١، ٣٢)[٣٢].

كان بولس يتطلع إلى جبال اليهودية مفكّراً في أورشليم التي كانت تربض وراء الجبال وتغوص في الأعماق رويداً رويداً. كانت أورشليم بالنسبة له عالماً من الذكريات المقدّسة المحزنة. كان يحدّق إلى قصر هيرودوس المرمري حيث قضى أيّاماً وليالي جميلة يتحدث فيها مع أصدقائه أحاديث رائعة. ستحلّ قيصرية محلّ أورشليم في مخيلة الرسول. صارت قيصرية قاعدة لكنيسة المسيح في فلسطين ومقراً لمدرسة لاهوتية لمع فيها نجم أورجين وكان هذا من المعجبين ببولس واشتهر فيها الأسقف أوسابيوس خليفة لوقا في كتابة أول تاريخ كنسي. لم يبق في ذلك المكان الذي سيطر عليه ظلّ هذين الرجلين إلّا صخرة كان يعلوها قصر هيرودوس وبقايا من السور وصخرة كبيرة من المرمر قائمة تحوم فوقها الطيور البحرية وتضربها الأمواج وتسهر فوقها الطيور الليلية تحت أقدامها تنوّر زهرة نشيد الأنشاد الدائمة الجدّة «وردة شارون» وتذكر بالشيء الثّابت في مجرى استمرار التاريخ «كلام الرب يبقى إلى الأبد».

لم يتمكّن المركب أن يحافظ على اتجاهه وهو يصارع الريح الغربية. إلّا أن التيارات البحرية جعلته يمرّ بالقرب من قبرص وبعد خمسة عشر يوماً[٦٨] وصل إلى الضفة الغربية من آسيا الصغرى إلى سيرا وكانت مرفأ كبيراً يستقبل المراكب التي كانت تأتي من مصر محمّلة بالقمح، كان على المركب أن يمرّ بالرأس الجنوبي من البولوبونين وماليا ليدخلا إلى بحر يونيا إلّا أن الأمواج جرّتهم وقذفتهم إلى جنوب كريت إلى الموانىء الصالحة وهي عبارة عن خليج عريض تسدّه جزيرتان إحداهما لا تزال تحتفظ بكنيسة صغيرة باسم القديس بولس. قرّروا أن ينتظروا في هذا المكان إلى أن يتحسّن الطقس.

كان قد مرّ وقت الصيام الكبير وعيد التنقية الذي كان يقع في الثامن والعشرين من تشرين الأول[٦٣]. دعا يوليوس وربّانه بولس إلى مجلس يعقدونه للبحث في أمر مغادرتهم للجزيرة. عارض بولس الآخرين الذين كانوا يحبّذون متابعة السفر وأصرّ على بقائهم هناك طوال الشتاء. عارض صاحب المركب البقاء بشدة خوفاً من أن تتلف حمولة المركب. لم يكن مستودع المركب صالحاً. كانت الفكرة المعاكسة هي محاولة الإبحار باتجاه الغرب ليصلوا إلى ميناء فينيكس والانتظار هناك طوال مدة الشتاء. هذا القرار حسب رأي الخبراء

يعني القفزة في الظلمة. إنّه لجنون مطبق. أصاب بولس برأيه فالمركب لم يصل إلى فينيكس أبداً. إنّ ريحاً جنوبية خدعتهم فأخرجوا المركب من الخليج وما أن داروا حول رأس ماتالا باتجاه الشمال حتّى رأوا بارتياع غيمة كانت تدفعها زوبعة انفجرت كلّها فوق المركب فتمزّق الشراع وتعطّل المقود وأخذ الناس يصيحون ويصرخون. على بعد عدّة أميال كانت تقوم جزيرة كلاندس وكانوا يستطيعون أن يستعملوا قارب النجاة. كان المركب يعلو ويهبط فوق الأمواج المرتفعة كالجبال[٥٦]، وكان الخطر يهدّد بانشطار المركب إلى شطرين لذلك حزّموا المركب بحبال خوفاً من تكسّره[٥٠]. هذه العملية تسمّى عملية التزنير، إنّها ليلة مرعبة.

خطر جديد كان يتهددهم. كانوا يخشون أن تقذف الرياح مركبهم وتدفعه نحو شواطىء افريقيا الرملية. رموا بمراسي المركب الأربعة الثقيلة ليخففوا من سرعته. كما رمى البحارة قسماً من حمولته وكل ما فيه من أمور زائدة لا يحتاجونها. حتّى الآن لم يعانوا شيئاً. الأيّام السود كانت تنتظرهم بعذابها وآلامها. إنّ أهم خبير في الملاحة يفقد رجاءه. أشد أعداء الإنسان هي الظلمة. أيّام كاملة ما رأوا فيها شمساً ولا نجماً. كل استشراق كان مستحيلاً. يذكر لوقا في يوميّاته: قضي على كلّ أمل في خلاصنا كلّ لحظة كانت خطراً على المركب فإمّا الغرق وإمّا التحطّم فوق الشواطىء. اجتمع الركاب في المستودع صفر الوجوه كالأموات وقد سدّوا كلّ المداخل. الموج كان يغطّي سطح المركب وسيطر على المستودع جو خانق ومرّت أيّام لم يذق فيها أحد طعاماً.

كان لوقا طبيب المركب مشغولاً جداً وكان بولس يصلّي. كان يصارع كما صارع ابراهيم من أجل ٢٧٦ رجلاً، التعب أوقع بولس في سبات. إنّ خمسة صديقين لا بل صديقاً واحداً كبولس يؤلّفون قوة عظيمة أمام الله. إن مسيحهم هو قريب منهم. إنّه معهم في حالة شدّتهم. لا تخف يا بولس. يجب أن تمثل أمام قيصر. ها إنّ الله وهبك كلّ السائرين معك. رأى في منامه جزيرة ما رآها من قبل تخرج من البحر وكان فوق صخورها مركب ضربته الأمواج. في هذه الجزيرة قال الصوت انتبهوا. اختفت الصورة واستيقظ بولس. كانت الزوبعة لا تزال في عنفوانها. لو رأى هذا الحلم إنسان غير بولس لعدّ هذياناً ولدته الحمى. كان بولس واثقاً من نجاته وكانت وما منتصبة دائماً أمام عينيه.

كان يشعر أنّ قوّة جديدة كانت تملؤه في وسط هذه المحنة السوداء. كان يتنقّل من شخص إلى شخص ويقول: تشجّعوا وكان يخبرهم عن حلمه الذي رآه. في مثل هذه الحالة الخطرة نادى قيصر الملّاح وصرخ قائلاً: انتبه إنّ قيصر في المركب وبين يديك مصير قيصر (بلوتارخوس قيصر ٣٨)[٦٣]. الرجال العظام يتشابهون في المواقف الحرجة. كان الوثنيّون يعرفون أيضاً أن الرجال الالهيين يتّصلون بالهتهم والرجال الذين عملوا كثيراً من أجل خلاص البشر يتّصلون مع الله بالصلاة ويصعب أن يتركوا صلاتهم. هكذا كان يفعل بولس وهكذا كان يفعل السيد. قبل البدء بأي عمل كانا يغرقان في صلاة عميقة.

في الليلة الرّابعة عشر كان المركب يسري بين اليونان وصقلية. عند منتصف الليل سمع صوت يقول: إنّ اليابسة قريبة. إنّ أحد البحّارة من مرهفي السمع سمع صوت الأمواج تتكسّر فوق الشاطئ فأدرك أن الشاطئ قريب. في الواقع إن الجميع نجوا بفضل سهر بولس. رأى بولس بعض البحّارة يحاولون الهرب ولولاه لهرب هؤلاء وهلك الباقون. لو تمكّن هؤلاء أن يهربوا بقارب النجاة لمات من بقي في المركب. الكنيسة في نظر بولس فلك يضمّ الجميع والهاربون هم الخونة لكيان هذه الفلك.

كان الركّاب يشعرون بضعف شديد من جرّاء الصوم والسهر. في اليوم الثاني كانوا بحاجة إلى أعصاب قوية ورجال أشدّاء ولقد أنقذهم بولس أيضاً من هذه المحنة. إنّه الوحيد الذي بقي محافظاً على صفاء ذهنه. كان يطوف بين جموعهم ويكلّمهم بكلمات تعزيهم وتشدّدهم. قويت سلطته كثيراً بعد تدخّله بالأمس. في الحالات الحرجة لا قيمة للسلطان والرتبة والمركز. القيمة للشخصية. وكان بولس الرجل الوحيد في المركب. وعد الجميع بأنّهم سينجون إذا أدّى كلّ واحدٍ منهم واجبه وإذا أكل كلّ فردٍ ليتقوّى. أمر أن يؤتى بالخبز ثم صلّى أمام الجميع واقتطع قطعة وبدأ يأكل. اقتدى به الجميع ولأول مرّة ظهرت ملامح السرور والرجاء فوق الوجوه. عند الصبح رأوا أنفسهم في خليج تحيط به صخور شاهقة ذي شط رملي. أرادوا أن يرسوا المركب هناك لكنّهم ما عرفوا أن طرف الجبل الشمالي للخليج انفصل عن الجزيرة بسبب الأمواج الربيعية وشكل جزيرة أخرى وأن المضيق القائم بين الجزيرتين انسد بالرمال التي كان يحملها مجرى المياه فصار هذا المضيق كأنّه أرض يصل ارض الجزيرة بالجبل الذي انفصل عنها. ألقوا أكثر حمولة المركب في اليمّ ثم دفعوا بالمركب نحو الرمال. وفجأة اهتزّ المركب بقوّة وسقط الجميع الواحد فوق

الآخر. لقد غاص المركب في الرمال. وأخذت المياه تدخله من الكوّة التي فتحها الاصطدام. استولى على الجميع رعب عظيم[٥٠] وبرز خطر جديد يهدّد حياة بولس وحياة الآخرين بعد أن لاح صبح الخلاص.

إنّ أحد الشرطة وهم في مثل هذه الحالة تذكر واجبه فاقترب من الحاكم وقدّم له التحية المفروضة وسأله إذا كان عليه أن يقتل المساجين، كان بين المساجين بعض المجرمين وقد أراد الوالي أن يضحّي بهم. هنا تظهر صرامة القانون الروماني كما يقول بولس «لا رحمة» في القانون الروماني. إنّ وجود بولس هناك بدل الموقف. تهيب الوالي بولس فكأنّ نوراً داخلياً أضاء أعماقه فأمر الوالي الحرّاس أن يحلّوا سلاسل المساجين وأن تترك لكلّ واحد حريته. الخيال لا يستطيع أن يصف هؤلاء المساجين الجياع المنهوكي القوى. الخيال لا يمكن أن يتصور كيف اندفع هؤلاء فوق الموج يصارعونه محاولين الخلاص كلّ حسب هواه. الجميع مدينون لهذا الإنسان الذي اضطهده مواطنوه. لهذا الإنسان الذي أخلص لرسالته تحقيقاً لإرادة معلّمه. خسر بولس كلّ شيء إلّا كتابه المقدّس. أيستطيع أن ينجو به؟ يمكننا أن نتصور الخطر والحالة التي وجد فيها بولس.

كان سكّان الجزيرة من المضيافين ولقد حملوا لزائريهم المتعبين المنهوكين الجياع الخبز والثمار والشراب. لم يفهم الركاب اللغة التي كان يتكلّمها سكّان الجزيرة. إنّ بولس وبعض البحّارة عرفوا أنّهم في جزيرة مالطة. لا يزال شطر بولس الرسول قائماً حتّى الآن وأوصافه لا تزال كما كانت في أيّامه (٢٧ : ٤١). ومن البر يمكننا أن نرى الجزيرة الصغيرة التي انفصلت عن الجزيرة الكبرى[٥٠]. إنّ لوقا إذ يسمّي أهل الجزيرة بالبربر فإنّه يعني بأنهم لم يكونوا يونانيين.

أشعلوا النار وأخذ الجميع يجمعون الحطب ويضعونه فوق النار. إلّا أن أفعى خرجت من النار وانتشبت في يد بولس فقال البرابرة: إنّ هذا الرجل إنسان قاتل لقد نجا من البحر فلم يدعه العدل الإلهي أن يحيا وكانوا يتوقّعون أن يسقط ميتاً. لما طال انتظارهم ورأوا أنّه لم يصبه بضرر. (مر ١٦ : ١٨) تغيّروا وقالوا إنّه إله. وكان هذا الحادث بدءاً للبشارة بين الشعب المالطي البسيط الروح.

كانت مالطة تابعة لصقلية وقد استقبلهم حاكم مالطة بمحبّة وحنان واستضافهم ثلاثة

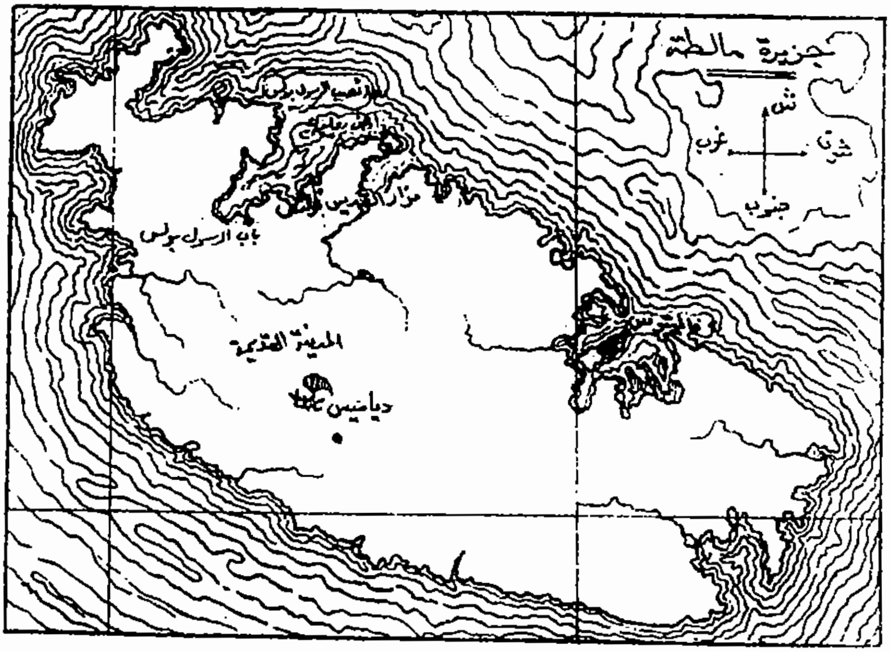

جزيرة مالطة

أيّام في مزرعته. حتّى يقود ببليوس الرسول بولس إلى سرير والده المريض كان من المفروض أن تكون العلاقة بين الإثنين قد توطّدت. نال المريض الشفاء على يد بولس وهذا كان مدعاة لإقبال مرضى الجزيرة كلّهم طالبين الشفاء على يد بولس. فجعل بولس من هذا البيت منبراً للبشارة. لا يعقل أن تكون الجزيرة قد بقيت بدون كنيسة. إنّ سكوت أعمال الرسل لا يعني أن الكنيسة لم توجد هناك. الشيء الذي حدث هو أن بولس هزّ أعماق أهل الجزيرة وأهلهم لاقتبال المسيحية. كانت مالطة عقدة بحرية وملتقى للمواصلات. كان هناك عدد من اليهود والمالطيين وكانوا يعيدون في ١٠ شباط تذكاراً لهذه الحادثة (عيد الفرق)[٥٠]. وهكذا يتبيّن ما تعنيه بركة إنسان واحد متحد بالله. كان بولس في صلاته يقف بين الله والبشر. إنّه سيد يتحكّم بالمواقف المضطربة ويسيطر على الحياة ويسود كلّ مجتمع متقلقل موّاج بأهواء الشر. البطولة المسيحية تختلف عن البطولة العالمية. في هذه قساوة الإلحاد وفي تلك سلام واطمئنان. إنّها نتيجة غلبة النفس الدّاخلية. إنّها الغلبة على الشر الذي فينا، الغلبة على الأنانية السوداء. إنّها نتيجة لغلبات صغيرة تركض لتؤلّف بربوات النقط الصغير نهراً عظيماً.

٥٤. ﴿هذه هي روما﴾

(أعمال ٢٨ : ١١— ١٦)

يمكن أن يطلق على القسم الثاني من أعمال الرسل الأوديسيا الرسولية وأن يطلق على اسم أوديسفس المسيحي. قبل عشر سنوات كانت أبصاره ترنو إلى روما وكان يحاول أن يصل إليها. لقد منعته الظروف القاهرة وبدّدت أحلامه وعندما ظنّ أنّه اقترب منها ظهر له يوسيدون وأمسك به ورماه بقدرته فوق الصخور. إنّ قوى مضادّة، سلطات ورؤساء الظلام تحاول أن تقطع عليه الطريق (أفسس ٦ : ١٢). مع ذلك فهناك يد كلية القدرة تفوق وتعلو على كلّ القوى وتسيطر وتمسك بيده وتقوده إلى هدفه. كان اليوم الذي دخل فيه بولس إلى روما من أعظم أيّام التاريخ. من ذلك اليوم ابتدأ التقليد الذي يذكره ايرنياوس ويقول: إن كنيسة روما تأسّست على يد بطرس وبولس.

كان شتاء مالطة اللطيف قد انتهى. في أواخر شباط ٦١ ركب يوليوس وسجناؤه مركباً اسكندرانياً للنقل كان قد اضطر أن يلتجىء إلى ميناء فاليتا ويمضي فصل الشتاء في مالطة. إنّ تمثال ديوسكوروس لكاستروس وبوليذافكوس الإلهين اللذين كانا يُعتبران في العالم القديم كحماة للملاحة كما كان الملّاحون أيضاً يستعملان النجمتين اللتين كانتا تحملان اسميهما كإبرة مغناطيسية، كان يلمع فوق المنارة. كانت ساراقوسا أول ميناء وصلوه. إنّ أهل ساراقوسا يتذكروون حتى الآن الأيّام الثلاثة التي بقيها الرسول هناك ويتذكّرون بشارته في الديامیس التي هناك بالقرب من المقلع الشهير حيث انتهت مغامرة الكيفيادس الاستعمارية بطريقة مؤسية بموت الأسرى اليونانيين جوعاً، إن قمّة إتنا المغطّاة بالثلج كانت تلوح لهم محيية بهيبتها وجلالها. فيما بعد مرّوا بالقرب من صخور الكيكلوبوس الهوميرية الأسطورية ودخلوا مضيق ماسينا.

كان بولس مطرق الرأس يراقب عجائب الطبيعة. لم يكن بولس من «عبّاد الطبيعة» كان يرى ما وراء السطوح، كان يرى العالم كما يصفه ملاك الرؤيا يسير بسرعة نحو الدمار. بعد يومين كانوا يبحرون في خليج بوتيول شمالي نيابوليس أمام قصر تيباريوس المرمري البديع في كابري، وحيث كانت المستراحات الرومانية والمنتجعات الصيفية تكلّل نواحيه. هنا تقوم بومباي وهيرقليون ببيوت تجارها الأغنياء ذات الطراز الاسكندراني وهناك تقوم فاجيا

حيث الشيخ بلينيوس عم الكاتب الشهير وقائد الأسطول البحري قد مات عند انفجار بركان فيزون[٥١] . وبعيداً قليلاً يقوم المستراح الأمبراطوري بالقرب من بحيرة لوكرينا حيث قامت أغريبنا أم الأمبراطور بفضائحها وحيث خنقت فوق سريرها بناء على أوامر نيرون. وبعيداً أيضاً تقوم الجزر المفرحة بروكيذا واسخيا ونيسس وكانت تنتشر حتّى سفوح ميسانوم حيث قتلوا تيباريوس بالرغم من الإعتقاد بأنّه سيتخلّص من الموت. وهناك في العمق يقوم فيزون دون أن يغطي فوهته الدخان كما هو الحال اليوم. هنا في خليج بازيولي كانت المراكب المصرية تفرغ حمولتها من القمح. يروي سينكا ويقول : إنّ أهل بازيولي كانوا ينصبون في الميناء عندما كانوا يسمعون أن مركباً مصرياً جاء ليفرغ حمولته من القمح[٥٢] . كانت هذه المراكب تدخل إلى الميناء فقط وكانت ترفع أعلامها فوق الصواري. لم يكن يسمح لأي مركب غير هذا المركب بالرسو في هذا الميناء. كان المركب الذي حمل بولس هو المركب الأول الذي وصل محملاً بالقمح بعد نهاية الشتاء لذلك حيته الجماهير بالتهليل لأنّه يحمل الخبز إلى إيطاليا ، وفي الواقع يحمل خبز الحياة بالمعنى العميق لأنّه يحمل بولس أعظم تلامذة المسيح. يقول فرجيل إنّ بطله اينياس وضع الرجال فوق تلك الشواطىء ونزل إلى العالم السفلي وفي يده غصن من الذهب وكانت الأبواب هنا تعتقد أن مفاتيحها هي هناك. واليوم يأتي الرسول الصبي العجيبة الذي قال عنه الشّاعر في مختاراته الرّابعة وأعلنه نبوياً أنّه سيكون المتشح لعصر جديد.

الآن أيضاً تبتدىء دائرة هائلة لأزمان جديدة.

الآن تعود العذراء ، نبتة فتية من أعالي السموات. هناك تقليد متوسطي يصوّر بولس باكياً بحرارة فوق قبر الشّاعر لأنّه لم يلتق به وهو على قيد الحياة.

أي تعظيم وأي إعجاب وتكريم كنت سأقدّمه لك لو عرفتك يا زينة الشعراء!

كانت قد مضت خمسون سنة على المركب المزيّن الذي حمل أوغسطوس ومرّ بهذا الميناء. لقد زحفت الجموع لتقدّم عبادتها للأمبراطور كما لإله وكانوا يحملون الورود ويحرقون البخّور. كان الأمبراطور المحتضر الذي حكم البلاد كمواطن أول بداريه يتقبّل هذه العواطف بابتسامة مثقلة. لقد نزلت روما القديمة مع أمبراطورها إلى القبر. واليوم تحلّ على شواطىء ايطاليا رحال المبشّر بأعظم ملك في العالم فلم يثر أي انتباه لأنّه كان مقيداً بالسلاسل. إنّ العالم الذي يسير نحو الدمار يضجّ كثيراً وينهار بضجيج. القليلون فقط هم

الذين يهتمّون بعالم استقبالي يقوم على أفكار جوهرية جديدة. لا أحد ينتبه إلى هذا القصير القامة، هذا الطرسوسي الخفيف الحركة الذي كتب الرسالة العظيمة لأهل روما.

إنّ روما، عاصمة العالم «وحش» الرؤيا دللت على وجودها كعاصمة للعالم بصورة اختلفت جداً عن الصورة التي كانت في مخيلة الرسول فعبّرت عن وجودها بالبنائين وبالذين يفرغون ويحملون المراكب وبمن يزن القمح وبالتجّار والعبيد وزئير الأسود والفهود والنمرة التي كانت تنقلها المراكب من افريقيا. عالم يضج وقوارب ومراكب تفرغ الأحمال من أقاصي المسكونة، المرمر والأرجوان والرخام والتماثيل والعواميد، كلّ هذا لبناء قصر الأمبراطور، لا شكّ أن شعوراً غريباً ملأ قلب بولس في تلك الساعة وكان كأنّه يسمع من يقول له: **هذه هي روما المكرّسة للآلهة!**

كانت بيوتولي مليئة باليهود وبالذين جاؤوا من الشرق. كان السوريون قد حملوا تماثيل الآلهة(٥٦)، وخصوصاً تمثال إله سوريا عشتروت التي كان نيرون يقدّسها. يقول يوفيناليوس إن نهر أورنتس السوري حمل إلى الشط هنا باتجاه نهر التيبر كلّ قذارات الدنيا. بيد أن حبّة القمح وجدت لها جذوراً في هذه الأرض. في ذلك العصر كان مسيحيو بومبيا هدفاً للثرثرة. يا لسهولة انتشار المسيحية في تلك الشواطىء. العناوين تدلّ على أن المسيحيين وجدوا حتى قبل دمار بومباي ٢٤ آب ٧٩ ب. م. [٤١].

سمح يوليوس لبولس أن يقبل دعوة بعض الإخوة المسيحيين لقضاء مدّة أسبوع عندهم وكان هؤلاء قد أخبروا بوصول بولس عن طريق سعاة البريد الخصوصيين. وهكذا اتخذ القسم الأخير من رحلاته طابع النصر.

كانت المسافة بين بيوتولي وروما مئتين وثمانية فراسخ وكانت الطريق تمرّ بشمبانيا الشهيرة بخمرها وزيتها وقد اجتازها بولس كأنّه يجتاز واحة. بعد منعطف صغير سلك طريق أبيا وكان أجمل طريق في العالم. هنا تمكّن أن يكوّن بولس فكرة عن الحالة الإجتماعية المحزنة التي كانت تسيطر على الأمبراطورية. على جانبي الطريق كانت ترى المزارع التي كان يحرثها العبيد الذين كانوا ملكاً لطبقة معيّنة وكان هؤلاء من الملّاك الكبار وكان لكل مالك ألف عبد وكان العبيد يخضعون طوال النهار لحراسة شديدة وكانوا في الليل يقيدون بالسلاسل خوفاً من أن يهربوا. إن السيطرة على العالم كانت من نتاج ابناء الفلّاحين

وجهودهم ولكن الذين كانوا يقطفون هذه الثمار، الذين كانوا يتمتعون بنتاج هذه الجهود هم قلّة. لقد اندثرت طبقة الفلّاحين وابتلعها رأس المال.

كان الكرامون يقلمون كرومهم وكانت الجبال مكسوة بالغابات. كانت شجرة التين قد انتقلت من الشرق وغرست هناك منذ زمن طويل وكذلك زيتونة أثينا هدية اليونان. توقّفوا قليلاً في مزرعة شيشرون. كانت الطرقات جميلة أما الحانات فكانت سيئة جداً. لم يكن باستطاعة المسافر أن ينام مرتاحاً فالبعوض ونقيق الضفادع والحياة القذرة التي كان السكارى والمعربدون يمضونها كانت عائقاً ضد كلّ راحة يرغب في تحقيقها كلّ مسافر. لم تكن إقامة بولس مريحة ولكنّه اعتادها وألفها كما يكتب في رسالته إلى أهل فيلبي (٤، ١٢).

لأوّل مرّة يشعر بفرح عظيم. إنّ كنيسة روما أرسلت من يستقبله. إنّ روما تشعر بعرفان الجميل نحو من كتب إليها. أرسلت روما وفدين استقباله على بعد ٦٠ فرسخاً من روما. يا لها من ساعة مؤثرة. إنّ دموع بولس انسكبت فرحاً. إنّه يجتمع بأناس خيّل إليه أنّه يعرفهم منذ زمان طويل. فأنساه هذا الإستقبال كلّ أتعابه. إذا أردنا أن نعرف مستقبليه فلنفتح آخر رسالته إلى أهل روما. في المحطّة الثانية كان وفد آخر ينتظره ليرحّب به باسم كنيسة روما. لا شكّ أن وليوس ورفاقه ازدادوا احتراماً لبولس عندما رأوا هذا الاستقبال الحار الذي لقيه. إنّ هذه المحبة تهيء عجيبة جديدة. بالقرب من هذا المكان تقوم مزرعة سينيكا السياسي الشريف الذي انتحر بأمر من نيرون.

بعد أن اجتاز بولس وصحبه أعالي فالتيرا موطن أوغسطوس دخل إلى سلسلة المباني الجبلية الكلاسيكية. هنا سيبيتون ليلتهم الأخيرة. هنا دخل بولس إلى لاتيوم المقدّس. إنّه اسم لا تستطيع أن تتلفّظ به بدون أن تشعر بشيء عميق يجري في داخلك من هذا التراب الفقير خرج روح روما الذي اتحد بروح أثينا وبروح المسيحية فخلق الحضارة الغربية. الجليل والأتيك ولاتيوم ثلاثة أمكنة متشابهة في الطول أعطت للبشرية كلّ ما فيها من سمو. نور الشرق وروح اليونان ونظام روما وقانونها. الرجل الذي يحمل بذار الفكر المسيحي الثمين ويهيء الطريق لاتحاد هذه التضادات الثلاثة بالنعمة الإلهية يقف الآن على حدود لاتيوم.

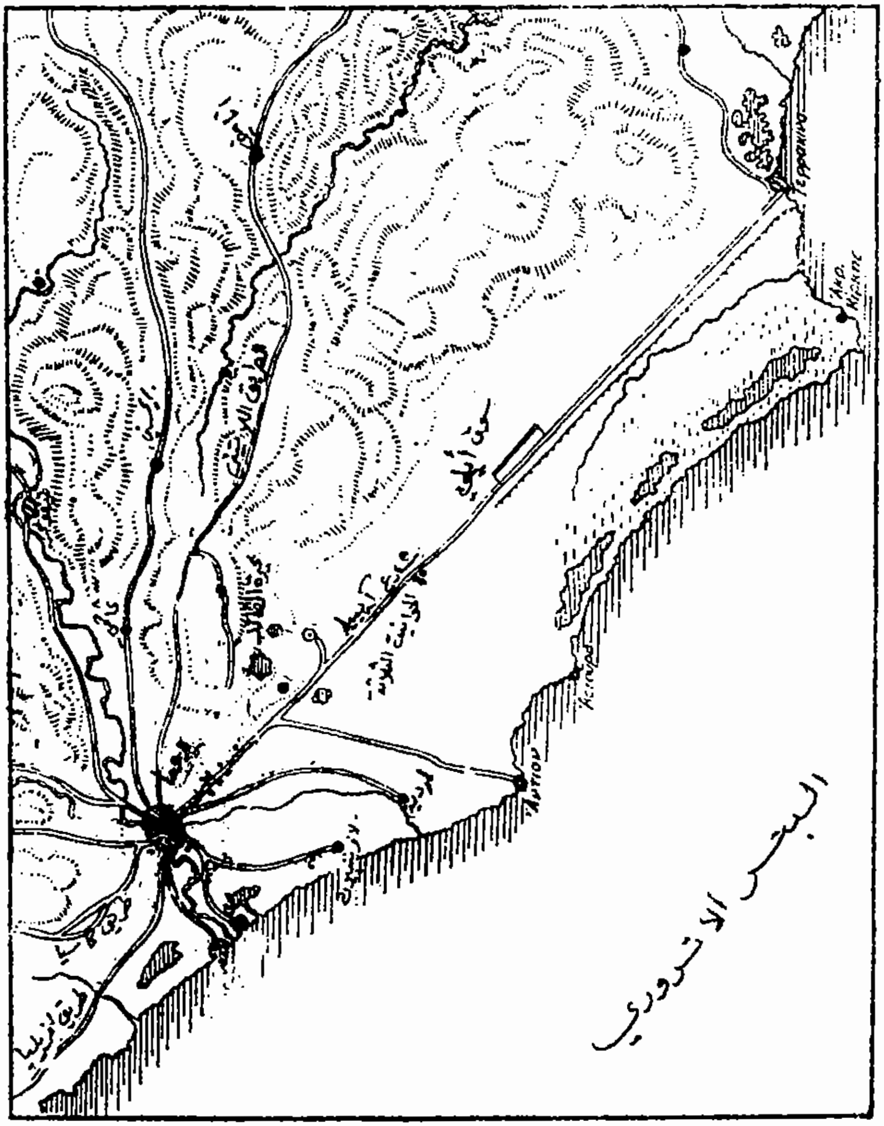

الجزء الأخير من رحلة بولس الرسول إلى روما

في الأسفل تقوم البالونغا أم مدن روما حسب الأساطير. فوق جبل كانو يقف هيكل جوبيتير. حتّى الآن لا تزال الحجار الخِمِيس التي وطئها الرسول قائمة. في هذا المكان التقى أيضاً بتمثال أرتميس الذي كان قد رآه أيضاً في أفسس. الاندفاعات البشرية والأهواء تبقى واحدة. إنّ هذه التماثيل لا يمكن أن تجلب الهدوء إلى الأنفس البشرية التعبة. هناك شرور في الأنفس البشرية. وهذه الشرور تحتاج إلى معالجة ودراسة وكان بولس من العاكفين على دراسة هذا الضياع النفسي.

في الصباح الثاني بدأ رحلته الأخيرة، وبعد مسيرة قليلة لاحت في الأفق ظلال تلمع تحتها الأنوار. إنّها روما كما أسرّ له أحد الرفاق. إنّها المقبرة التي دفنت فيها مصائر الشعوب ومقدراتها.

ها هي روما.

يا للاختلاف العظيم بين روما للقياصرة الأقدمين وبين روما اليوم. هناك حيث تقوم اليوم قباب كنيسة بطرس الملوكية وتلوح للزائرين بالتحية، كان يمتدّ ملعب نيرون لسباق الخيل. إذا جردت روما آنذاك من الفوروم والبلاتينون بقيت لك المدينة الوسخة ببيوتها المتعددة الطوابق. بيد أن لونها الفاتح الأخضر وإطار خطوطها الدقيقة والظلال التي يخلعها عليها الفانوس وسافينوس يعطونها وشاحاً فنياً خلاباً. إن هيكل الكابيتول وقصر نيرون برخامه الأبيض يتميّزان وسط هذه المجموعة الرتيبة من البيوت كما يتميّز اليوم النصب الوطني الأبيض في بيتزا فيناتسيا. إنّ خزّانات المياه الشهيرة التي تعتبر فخر روما، أكوا ابيا وكلاوديا ومرسيا هي رينه شمبانيا المقفرة. إنّ جادة أبيا تأخذ طابع العظمة والظفر كلّما توغّلت فيها فكأنّها تؤهّلك للوقوف أمام عظمة روما. كان للأموات عند الأقدمين حرمة دينية لذلك ترى المدافن كأنّها متحف من متاحف الفن. الأموات لا يحبّون أن يبقوا وحدهم. إنّهم يحبّون مجتمع الحياة[٥٤]. (ولا بدّ أن بولس قرأ على أحد القبور «هنا إلى جانب الطريق يرقد لوليوس ماسكولوس لكي يحيّه المارة»)[٢١]، (لوحة ٢٤). لم يكن للأقدمين فكرة عن «السلام بالرب» ولا عن «شركة القديسين». كان الاهتمام فقط بالأمور التافهة له وزن وقيمة. عندما وصل الرسول إلى روما سمح له أن يقيم مع الجندي الذي كان يحرسه[٥٥]. إنّ بولس يعرف ما تعنيه هذه الكلمة المؤلّفة من أربعة حروف «روما» يعرف ما تعنيه له وللمسيحية. الرجل الذي ملأت قلبه المسيحية بمحبتها وُجد وعاش في عهد إنسان كنيرون كان يفتقر إلى نقطة واحدة من المحبة الإنسانية.

٥٥ . ﴿ هنا نمت كنيسة رومة ﴾

(أعمال ٢٨ : ١٧— ٢٩)

يقول غريغوروفيوس : إنّ حكم روما المطلق سيظلّ يعتبر السرّ الذي لا يسبر غوره ، سرّ حياة العالم مع ظهور المسيحية وسيطرتها. ومع أن هذه الديانة خرجت من أورشليم الوطنية المتعصبة فإنّها في أساسها عالمية دخلت إلى عاصمة العالم كأنّها تدخل إلى المكان الذي أعدّت التاريخ لها خصيصاً لتخرج من أنقاض السلطة العالمية المطلقة هيئة الكنيسة العملاقة « السلطة الروحية المطلقة ». إنّ بطرس هو المتشح لهذه الفكرة والمحتضن للمسكونة كان يقطن في محلة تسمى ترانستيفار ،أما الذي حمل هذه القوّة الإلهية بتأثيرها العريض فهو بولس وكان قد استأجر بيتاً فقيراً كان يحرسه جندي.

كانت المحاولة الأولى التي قام بها بولس حسب عادته هي اتصاله بمواطنيه اليهود. لم يرد أن يظهر ككافر بأمّته حتى لا يقال إنّه خائن لنبوات شعبه الوعدية.

كان لليهود في القرن الثاني للمسيح جالية في روما [١٣]. لا بأس بها وكان عددهم يتراوح بين عشرين إلى ثلاثين ألف وقد فرضت عليهم تقاليدهم الدينية والوطنية أن يقطنوا ويعيشوا على هامش الأمبراطورية وكانت علاقاتهم التجارية محدودة وكانت اليونانية لغتهم الأم وكانوا يعيشون جماعات حول المدينة وكانت لهم مدافنهم وكان لكلّ جماعة كنيس وكانوا يسمّونه باسم حاميهم أوغسطوس أو اغريبنيوس أو هيرودوس أو باسم الجادة التي يقطنونها أو المنطقة التي جاؤوا منها سوريا فينيقيا. وكان لكل مجلس رئيس يسمّى أبا المجلس أو أم المجلس وكاتب وأمين صندوق وكاهن وخادم ومنفّذ. لم ترتب كنيسة روما على غرار المجمع اليهودي كما يريد أن يقول الرأي العلمي المعاصر. هذا الرأي خاطىء بأساسه. الكنيسة رتّبت حسب المؤسسات الرومانية الدينية.

كان بولس يعرف أن العالم اليهودي قوي جداً في روما وأن تأثير قوّته وصل إلى القصر. كان الممثّل الأول في القصر يهودياً وهو الذي علّم نيرون التمثيل وكان اسمه التيور وكان محبوباً جداً في البلاط. بمسعاه مثل فلافيوس يوسفوس أمام عشيقة نيرون المقتدرة بوبيا سافينا التي يقال إنّها كانت يهودية. يكفي أن يثير اليهود مكامن حقد هذه المرأة حتى

تتقرّر نهاية بولس. هذا ما دعا بولس إلى كثير من التصافي لإخوته اليهود وهذا ما يفسّر دعوة مواطنيه السريعة لزيارته بعد ثلاثة أيّام من وصوله.

لا شكّ أن زائريه تأثّروا بالسلاسل التي كانت تقيّده ولا شكّ أن بولس شدّد على أن حمله لهذه السلاسل كان من أجل اسرائيل. أظهر الشيوخ الذين أتوا إلى زيارته أنّهم لا يعرفون شيئاً عن القضية. إذا صحّ ذلك فهذا يعني مجمع أورشليم اليهودي لم يعلن ذلك إلى المجامع اليهودية التي في الخارج. سألوا بولس ببراءة ما هو رأيه فيما يقال عن المسيح. إنّنا نعرف عن هذه الهرطقة أنها تقاوم وتعارض ديننا وأنّنا سنكون سعداء إذا أخبرتنا بتفصيل عن الحقيقة. إنّ لغة السياسة تلعب دورها هنا. لا يعقل أن يكون اليهود هنا قد جهلوا المسيحية ما دامت المسيحية قد أثارت الاضطرابات العنيفة في الأحياء في عهد كلافديوس فخُصّص من أجل ذلك يوم خاص للجدل الديني في البيت الذي يقطنه بولس.

لا بدّ أن يكون بولس قد أظهر كلّ غزارة علمه وسعة اطلاعه أمام رجال يعرفون الكتاب القدّس معرفة جيدة. طال الجدل والنقاش، إذ استمرّ منذ الصباح حتّى مغيب الشمس. لقد بسط كلّ خبرته أمامهم يا لها من خبرة عظيمة! إنّها بنت القيود والأسر والعذاب. عبثاً حاول بولس أن يقنع الكهنة أن تاريخ شعبهم سينتهي فوق خشبة العار. صعب على هؤلاء الربانيين أن يتخطّوا صخرة الشك هذه. إنّها المرّة الأخيرة التي يقدّم بولس للمجلس «الخلاص في المسيح» إنّها لحظة النقمة الأخيرة التي تفرض على اسرائيل أن يقرر قراره الأخير هل سيبقى شعباً مختاراً لله أم سيصبح شعباً عاصياً. إنّ التاريخ المقدّس يودع في هذا المشهد اليهودية وبهذا تنتهي محاولة ألف سنة ليربح الله محبة شعبه صاحب المواهب الكبرى. كان لوقا يعي أن شعب الله سيخلع عن عرشه بهذه الطريقة. إنّ هذا الشعب المختار بخصوماته وبتمرمره أمام الله وبتفسخه نزل السلّم وأخذ ينختم بختم العصيان ويسير مطوفاً في العالم سيراً عبثاً كبرهان تائه[٣٢] عن وجود المسيح. إنّ بولس قذف في وجههم كلمات أشعيا كحرم صارخاً: إنّكم تسمعون سماعاً ولا تعون (إشعيا ٦، ٩). هذه هي لغة النبوة. إنّها لغة قاسية لا تتفق مع عقليتنا الحاضرة. أيمكن أن يقسّي الله قلب شعبه حتّى يدمره فيما بعد. كان التفكير اليهودي عكس تفكيرنا. التعليم الفريسي يحوي التعليم عن القدر المطلق وكان بولس يعلم قدراً مفروضاً من الله يعدله بالكلام على الحرية

الإرادية في الإنسان [٣٨]. الله خلق الإرادة الحرة وإمكانية استحالتها إلى شيء سيء. استعمال الإرادة استعمالاً سيئاً يقود إلى التمرّد على الله. هذا التمرد لا يعني قدراً لا بدّ منه. إنّ هدنية النور والحقيقة تتحول إلى حكم إلهي إذا رفضت. الكتاب المقدس يقسم البشر من هذه الناحية إلى قسمين، إلى مؤمنين وكفرة، إلى أولاد النور وأولاد الظلمة أو كما يقول غوته: إنّ أحلك موضوع في التاريخ العالمي هو الصراع بين الإيمان والإلحاد.

لم يتوقّف الجدل حول المسيح في الحي اليهودي فنهم من آمن وصار مسيحياً ومنهم من أصبح علواً حاقداً ضد المسيح الأمر الذي سيقود الكنيسة فيما بعد إلى شفير الهاوية. إن موقف اليهودية هذا أثّر كما يظهر على المتهودين المسيحيين في روما. إنّ يهود روما لم يكونوا كما كان يهود قورنثية بل كانوا من ممثلي اليساويين المتزمتين والفريسيين الغيورين. قام بعض هؤلاء المتهودين المسيحيين ببشارة معاكسة وقد كتب بولس عنهم في رسالته إلى أهل فيلبي «قوم منهم يكرزون بالمسيح حسداً وخصومة وقوم بنية صالحة والبعض يبشرون بالمسيح عن محبة عالمين إنّي قد نصبت للاحتجاج على الإنجيل والبعض عن منازعة وبإخلاص ظانين أنّهم يثيرون قيودي مضايق (١ : ١٥ — ١٧). «ولكن ماذا علي. حسبي أن المسيح يبشّر به على الأقل وجه بغرض كان أو بالحقد وبهذا فرحت وسأفرح» (١ : ١٨). هذا كان موقف يسوع أيضاً عندما أعلن له يوحنا واليأس يملأ قلبه أن أحدهم ولم يكن من حاشيتهم كان يخرج الشياطين باسمه. قال له لا تمنعوه (لوقا ٩، ٥٠) كان القسمان في الكنيسة الرومانية متحدين بسبب وحدة المحبة بين الرسولين. بعد دم الشهادة الذي سفك في حريق روما امحى آخر ظل من الظلال التي كانت تقوم بين الفئتين واختفى.

إنّ لوقا لم يرد أن يختم كتابه بنشاز حاد بل برؤية مغرية بمستقبل الكنيسة المسيحية. إنّ بيت الرسول الفقير كان محوراً للتبشير المسيحي في روما الوثنية. ولقد استقلّت هذه البشارة التي كانت تسير وئيداً بسبب ضغط اليهود بوحي من الرسول وصار الإنجيل الذي كان يعلن عنه بجبن بصورة مقطعة شعلة عظيمة. كانت المسيحية موجودة قبل سنة ٦٤م كما يقول تاسيت: «كان عدد اليهود يناهز الثلاثين ألفاً ونصفهم كان مسيحياً وكان عددهم يزداد وينسب الرسول تزايد هذا العدد إلى سجنه» (فيلبي ١، ١٢ — ١٤). إنّ بولس في رسالته إلى أهل رومية يذكر عدداً كبيراً من الأسماء المسيحية: أبينتس ومريم واندرونيكوس

ويونياس وامبلياس واريانس واسطاكس وايتس وارسطو بولس وزكس واسنكرتيس وفلاغون وهرماس وبترو ياس وهرميس.

إنّ الحلقة الودية التي كانت تحيط بالرسول جعلته على علاقة مع الأرستوقراطية الرومانية، إنّ معول وازميل علماء الآثار المسيحيين كشفا في أرض روما أسراراً كان الكتبة يحاولون أن يحرصوا عليها وقلوبهم تخفق. اعتقد دي روسي وماروخي أنّهما برهنا بصورة أكيدة أن مسكن أكيلا وبرسكيلا كان في أفنتينو حيث لا تزال حتى اليوم كنيسة القديسة برسكيلا الملوكية القديمة. هذا البيت كان مبنياً في حقل عائلة كورنيليوس كما دلّت لوحة وجدت هناك تحمل اسم «بودانس كورنيليوس». وهناك أدلّة في الدياميس تدلّ على أن الكثيرين من عائلة كورنيليوس اعتنقوا المسيحية. من الجائز أن يكون اعتناقهم للدين المسيحي قد تمّ قبل مجيء بولس إلى روما. لا تزال هناك أيضاً كنيستان تحملان اسم بنتي المستشار الروماني الذي يقال إن بطرس قد نزل في بيته. عندما نقرأ أن بولس قبل اثناء سجنه الثاني زيارة شخص اسمه بوذو وإن هذا الشخص أرسل تحيّاته إلى تيموثاوس (٢ تينو: ٤، ٢١)، يستدل على إن هذا الشخص كان معروفاً جيداً عند المسيحيين ولم يكن مجهولاً (لوحة ٣٠). من ظلمة التاريخ أيضاً ينبعث مع اسم برسكيلا اسم الارستوقراطية في العصور الأولى من المسيحية. إنّه أكيليو كالابريو. إنّ سواتونيو يضعه بين الأشخاص الذين أمر دوميتيان بقطع رؤوسهم لأنّه أظهر ميولاً جديدة تهدّد أمن الدولة. إنّ الغطاء رفع عن أول شهيد في الكنيسة الأولى عندما عثر سنة ١٨٨٠ في دياميس برسكيلا عن اسمه. في مغارة اليكون العائلية اكتشف فوق أحد القبور عنوان غلابريوني فيليو وعنوان آخر مانيوس أكيلا وزوجته برسكيلا يلقبهما بصاحبي السمو. مما يدل على أن الاثنين كانا من الطبقة الأرستوقراطية وأن المسيحية دخلت إلى هذه الطبقات. هناك سلسلة من العناوين تحمل اسم بطرس. يظهر أن الكثيرين من المسيحيين كانوا يعمدون أولادهم ويطلقون عليهم هذا الإسم. (أنظر)[٨١].

إن الذين دخلوا إلى المسيحية من الطبقة الأرستوقراطية كثيرون. هناك بومبونيا غرايسينا التي قال عنها تاسيت إنّها اتضعت بصلابة خلقها وثبات مبدئها. فأعجب رينان بها لأنّها كانت مسيحية ثابتة الإيمان. كانت هذه المرأة زوجة لاولوس بلوتيوس أول من فتح بريطانيا. لقد أثارت هذه شكوك الطبقة الأرستوقراطية الرومانية منذ سنين. كانت رصينة المظهر وقد نسب البعض ذلك إلى ذكريات مؤلمة حولها الأقاويل فمنهم من قال

إنّها كانت فريسة لشعوذات غريبة ومنهم من قال إن أحد أبنائها كان فريسة لنيرون ومنهم من قال إنّها رأت مصرع صديقتها الوفية يوليا-ابنة دروسو على يد الأمبراطورة ميشلينا فصدمت نفسياً. الحقيقة هي عكس ذلك. «كانت المرأة منطوية على نفسها لاحتقارها لمجتمع غريب»[٧٨]. لا يستبعد أن تكون أول قديسة من أصل روماني. هناك تقليد جميل يقول إنّ أكتي التي كانت أول عشيقة لنيرون وزوجته كانت على اتصال ببولس وإنّها تنصّرت خفية وقد خدمت أول ما خدمت عند عائلة أنايا فتشكل حولها رهط من المسيحيين. إن مسلكها دلّ على أنها تأثرت بالمسيحية. عندما جمعت بقايا نيرون[٦٥]، لتدفنها وحملت الجثة المدماة إلى مدفن دومتيان: شكّ الوثنيون فيها وقالوا إن امرأة مسيحية فقط يمكنها أن تقف هذا الموقف الشريف أمام انحطاط كهذا الانحطاط. إن هذه الكلمات هي انحناءة تقدير للعظمة المسيحية. إنّ المسيحية وجدت لنفسها رهطاً من المفكّرين. هناك من يقول أن سينيكا كان من الذين عطفوا على المسيحية. في الواقع كان سينيكا يحتاج إلى خطوة واحدة نحو المسيحية ليصل إلى مبتغاه الأخير. كان من الرواقيين وكانت سيرتهم مثالية في الأخلاق اكتسبها فكرياً وعائلياً.

في رسالة بولس إلى أهل فيلبي يقول يعانقكم جميع الإخوة الذين هم في بيت قيصر (٤، ٢٢). من هم هؤلاء المسيحيون الذين هم في بيت قيصر؟ في الجدول الذي يذكر اسماء الذين يرسل سلامهم اسما ناركيسوس وأريستوفولس[٢٦]. يقول هارنك لم يوجد من هو أقوى من ناركيسوس في عهد الأمبراطور ملافديوس[٢٦] وكذلك ارستوفولس حفيد هيرودوس الكبير وصديق الأمبراطور [٤٣]. من هنا يستدل أن بولس كان على علاقة مع موظفي القصر (لوحة ١٥). [٤٤].

يتهمون بولس أنّه جمع حوله بمعرفة كلّ نفايات المجتمع والفكر من الأماكن التي مرّ بها بقصد إعلان ثورة اجتماعية. إنّ الذين يقولون ذلك هم من الذين جهلوا حقيقة المسيحية. يكفي أن يطلعوا على ما كان يفرضه بولس على المسيحيين حتى يدركوا أن تطور البشرية نما بالدّافع الخلقي الذي كان بولس يفرضه على المؤمنين. يجب أن يكون المسيحيون أنقياء لا يرتبطون لا بملك حتى ولا بذواتهم. «المسيحية وبولس لم يقودا العالم إلى الانحلال. إنّهما وضعا حدّاً لهذا الانحلال الذي كان العالم يسير فيه»[٢٦]. يتكلّم البعض باحتقار ويقولون إن المزج الذي تمّ على شواطىء البحر المتوسط حيث نمت الكنيسة هو مزج لا يشرف.

الكنيسة تستهدف تنقية ومسحنة الشعوب والحضارات فزوّدت البشر بأمثلة روحية وخلقية يتكونون بموجبها. هذا ما فعله بولس. خلَّص من السديم ما كان بإمكانه أن يخلّص. الكنيسة ليست مسؤولة عن دمار الدولة الرومانية كما يقول أوغسطين بل الدولة ذاتها هي المسؤولة لأنّها بقيت بدون دين وبالتالي بدون مثالية خلقية ولأنها أهملت التماشي مع الوحدة بالقوة الجديدة التي كانت تملك العالم بيديها. «إنّ انقلاب بشر كأوغسطين» حادث عظيم يدلّ على عظمة البشارة وعظمة الحقيقة التي فيها[٢٦].

٥٦. ﴿ من عالم السجين لأجل المسيح ﴾

كانت تعيش في روما ثلاث طبقات حياة الغنى والبذخ. اصحاب الملايين والزبائن الذين كانوا يتملّقون حولهم والذين كانوا يأتون من الشرق ويعيشون في أسرارهم[٣]. أما من كان مثل بولس، الذين يحبّون الهدوء ويخلدون إلى السكينة فالحياة كانت عبئاً لا يطاق. في عصر الرسول لم تكن روما كما يتخيلها فوليابتوس «لا بدّ أن تكون أورشليم جميلة جداً ما دامت روما الأرضية تشعّ وسط هذا القدر من الجمال». لم تكن روما جميلة كما تغنّى بها الشعراء فيما بعد.

كان السكن في الحي التجاري مزعجاً وغير صحي. الطرقات ضيقة والتهوية مفقودة والروائح الكريهة منتشرة بسبب القمامات التي كانت تلقى في الطرقات والنار كانت في كلّ لحظة قابلة للإندلاع. ومياه التيبر المقدّس كانت تسبب الأوبئة لأنّ تنظيف مصبّه كان ممنوعاً. يذكر مارتياليس أن المرء إذا أراد أن يصل إلى عليته وجب عليه أن يتسلّق مئتي درجة وكان الطريق يغرق بالضجيج حتّى أن سينكا كان يتذمّر منه. وقد أعلن تذمره في إحدى رسائله. في الليالي كانوا يدحرجون الأحمال فوق الطريق ولا ينتهون من هذا العمل إلّا عند شروق الشمس وفي النهار كانت الطرقات تمتلىء بالموسيقيين السوريين وبكهنة السيدس وكيفالي المتسولين الذين كانوا يحملون آلاتهم الموسيقية النحاسية التي تزعق وينشرون ضجيج جلاجلهم. المستأجرون الفقراء كانوا يستأجرون الغرف المطلّة على الطريق أما الأغنياء فكانت غرفهم تطلّ على الفناء الداخلي[٥٤]. إنّها لتضحية كبرى يقدّمها الرسول في سكنه في غرفة كهذه الغرفة المحشورة في هذه العمارة الكبيرة.

كانت السلسلة معلّقة فوق الحائط كدليل على عدم حريته. كان يستطيع أن يخرج في النهار أما إذا حاول أن يخرج ليلاً فسجان كان ينتظره ليضع القيود في يديه. ليس بالشيء السهل أن تحرم لذة الوحدة للحظة. لا يعرف أحد ما تعنيه الوحدة الدائمة أو بالعكس إن دوستويفسكي يصف فظاعة العيش وحيداً أو بالعكس لأنّه عانى ما تعنيه الوحدة المطلقة. في الزيارات التي كان يقضيها كان السجّان معه. إنّه من فرقة البريتوريين وكان الأغنياء يدفعون الأموال ليخصص لهم غير هؤلاء لمراقبتهم. كان بولس يعرف أكثرهم وكانوا كثيراً ما يسمعون كلامه ويقولون في سرهم من يكون هذا الإله الذي يبشّر به هذا الإنسان؟ من الجائز أن يكون الكثيرون قد ركعوا أمامه وقالوا له: إنّا آمنا. إنّ ما يكتبه إلى أهل فيلبي (١، ١٢ — ١٣) يدلّ على ذلك.

إنّ إنساناً يزرع محبة لا يمكنه أن يبقى وحيداً. كان تلامذته يحيطون به. كان ما كان ينتظره الرواقيون «فنان الصداقة» وكسقراط وقد أحاط به تلاميذه في السجن. لعب لوقا ومرقص كلّ منهما دوره المنفصل. الأول كان انجيلي بولس والثاني انجيلي بطرس. يظهر أن بطرس لم يكن هناك آنذاك ترك مرقص يمثّله فكتب انجيله لمسيحيي روما أما لوقا فكتبه للكنائس التي أسسها بولس في المحيط الوثني ولا يستبعد أن يكون لوقا قد كتب انجيله قبل سجن بولس في روما. أفاد لوقا الذي بدأ كتابة إنجيله في قيصرية إفادة كبرى من مرقص لأنّه زوّده بمعلومات كثيرة. كثيراً ما جلسا معاً وتحدّثا معاً في موضوع الإنجيل الثالث. كم مرّة عالجا الموضوع. إن انجيل لوقا في جوهره وفكرته يقوم على أن المسيح أو بالأحرى حياة المسيح هي مثال للشفقة والمحبة. إن لوقا يحمل طابع بولس مع الاحتفاظ بشخصيته المستقلة.

إنّ لوقا بوصفه للمسيح كطبيب إلهي عبر عن مفهوم الروح اليوناني الدقيق للطب وغمز في الوقت نفسه وبلطف من الروح الروماني الذي كان يحتقر الطب. لم يكن للأطباء في روما أي وزن. الاطباء كانوا يعتبرون دجالين. إن كاتون كان يستقبلهم بغضب لأنهم كانوا يأتون من الشرق وكان يخشى أن يشوهوا العرق اللاتيني وقد منع ابنه أن يذهب إلى الطبيب وكان يقول «إذا كان اليونانيون بأدبهم والفلسفة بثرثرتهم قد دمّروا الكلّ فالأطباء أشد خطراً». عندما خلص أحد الأطباء واسمه انطونيوس موسى حياة أوغسطوس خفّ الحقد على الأطباء. كان تيباريوس يفضل العلاجات العمليةعلى استشارة الطبيب. يكتب

سلينيوس في الكتب الطبية التي ألفها أن روما بقيت مدة ستمائة سنة بدون طبيب. لم يكن يسمح للرجل الروماني الرّاقي أن يكون طبيباً. في هذا الجو كان لوقا في موقف حرج. إنّه الطبيب الأول المسيحي في هذه المدينة المعادية للطب.

كانت الكنيسة في ذلك العصر تنظر الى الطبيب نظرتها إلى الكهنوت [٤٥]. في الكنيسة سر المسحة ، في الكنيسة موهبة الشفاء المجاني « مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا » . إن اسمي الطبيبين قوزما ودميانوس يذكران في الخدمة الإلهية. في كنيسة قوزما ودميانوس في روما صورة تمثّل بطرس وبولس يقدّمان قوزما ودميانوس للمسيح.

كان بولس يستقبل في سجنه زائريه ويعظهم وكان يقسم أوقاته وفقاً للعادات اليهودية القديمة ، وكلّ ثلاث ساعات كانت تؤلّف قسماً مستقلاً ينتهي بالصلاة. الصباح كان مخصصاً للعمل وبعد الظهر للراحة وعند المغيب للاهتمام بالمآكل وأكله كان بقولاً وحبوباً. كان سجنه الأول مثمراً جداً وقد انطلق منه التبشير بواسطة حرّاسه البروثوريانوس الى فرنسا وانكلترا. في هذا المكان نضج لاهوت بولس كلياً وكذلك رواقية السرية للمسيح الأزلي.

٨. «كلمة الله لا تقيّد»

٥٧. ﴿ الرسالة إلى أهل أفسس ﴾

استمرّ بولس وهو في روما يرأس مؤسسة متفرعة الأغصان تحتضن كلّ المسكونة. يا لقدرة إنسان مثل بولس، وما يستطيع أن يفعله بالرغم من كلّ الصعوبات التي كانت تكتنفه! دوّت الصرخة في كلّ كنائس الشرق. لقد سجن بولس في روما. الكلّ كانوا يصلون من أجله. الكلّ تضرّعوا من أعماق قلوبهم كتبوا له رسائل تطفح بالدفء وأرسلوا مندوبين عنهم ليطلعوه على حالات كنائسهم وليتزودوا بالإرشادات وليقاسموه متاعب سجنه[٥٦]. مثل أريستارخوس مقدونيا وتيموثاوس غلاطية وتيخيكوس أفسس وابضاراس كولوسي وأبافروديت فيلبي. كانت غرفة الرسول محجّة لجميع المسيحيين قاطبة.

إن رسائل الأسر تمثّل اتجاهاً فكرياً جديداً. إنّ توما الأكويني بروحه التحليلي المرهف استطاع أن يميّز الفرق بين كلّ قسم من أقسام الرسائل. في رسائله الأولى تابع بولس عمل يسوع الخلاصي واهتمّ بكلّ نفس. هذه المجموعة من الأفكار الخلاصية تنتهي مع رسالته إلى أهل رومية. وفي رسائل الأسر يرى بولس في نظام الكنيسة الاجتماعي خلاص الجميع. أما في رسائله الرعائية فيرى ادارة الكنيسة الكهنوتية. رسالة بولس إلى العبرانيين هي خاتمة أفكاره ويعود فيها إلى محور الحياة الفائقة الطبيعة، إلى رئيس الكهنة يسوع المسيح. (حتى لو قبلنا أن بولس لم يكتب هذه الرسالة بيده) كان على بولس كرسول متجوّل ومؤسّس للكنائس أن يهتم أكثر فأكثر بالبشر وبحاجاتهم الشخصية. إنّ قابليته للصراع قد تراجعت.

إنّه شيخ أكثر هدوءاً ونضوجاً واشراقاً. إنّ ألمه ينفجر هنا وهناك كصوت عاصفة تبتعد (كولوسي ٢ : ١٦ــ ٢٠ فيلبي ٣ ؛ ١ــ ٦). إن روما العالمية أيقظت في داخله أفكاراً أخرى ترتبط بالمستقبل. فهو يعود بأبصاره إلى عمله وينظر إليه نظرة من علياء الحياة. كان بولس دائماً إنسان المجتمع وكان إنساناً مسكونياً إنّ روما تعطيه فكرة الوحدة المسكونية فيلتفت إلى المجموع، إلى المجتمع، إلى الإنسانية، إلى المسكونة قاطبة. لقد اكتملت نظرته إلى المسيح. في رسالتيه إلى أهل سالونيك يصف المسيح «بالكلمة الديان» في نهاية الأجيال. وفي الفئة الثانية بكلمة مخلّصة ورؤية عبر الأجيال. أما الآن فيصفه «بالكلمة الخالقة» قبل كل الأجيال[٣٦].

إنّ العنوان التقليدي «إلى جميع القديسين الذين في أفسس» ليس بالعنوان الأولي. كثيرون هم اليوم الذين يشاطرون رأي ماركيون في العصر الثاني، إن الرسالة هذه هي لأهل اللّاذقية، التي يذكرها في رسالته إلى أهل كولوسي «عندما تتلى الرسالة عندكم فاعتنوا بأن تتلى في كنيسة اللّاذقيين أيضاً وأن تقرأوا أنتم تلك التي من اللّاذقية» (كولوسي ٤، ١٦)، ويعتقدون ان محو كلمة اللّاذقية تمّ استناداً إلى تقليل قيمة هذه الكنيسة في الرؤيا (٣، ١٥)، بيد أن هذه الرسالة هي من النوع الذي يطلق عليه اسم المنشور العام الذي أعدّت منه نسخ كثيرة لترسل إلى كل الكنائس المجاورة لأفسس. لذلك لا نرى في بدئها ولا في نهايتها أسماء الأشخاص الذين أرسلت لهم التحيات. عرف الآباء الأقدمون أن في النسخ القديمة (النسخة الفاتيكانية) بقي مكان خال بعد العبارة «للقديسين الذين» ليضاف فيما بعد اسم المدينة التي تقصد أفسس، لاذقية، ايرابوليس. بما أن رسالة أفسس تستعمل بعض العبارات التي في رسالة كولوسي فيفترض أن الرسالتين كتبتا في وقت واحد. كيف يتبرر بولس بتوجيهه رسائل إلى كنائس لم يؤسسها هو؟ (كولوسي ٢، ١). إن شعوره بالمسؤولية تجاه وحدة الكنيسة المسكونية هو المبرّر. لقد وقع عليه الاختيار. هذا يعطيه سلطة الظهور كمسؤول أمام كلّ الكنائس.

لم يكتب بولس رسالة كهذه الرسالة من حيث النغم المدائحي. إنّها غنية بالتعابير فكأنها ترجيع لموعظة من المواعظ الملهمة كالتي كان يلقيها في روما. للدعاء في البدء طابع النشيد، ثم يغرق الكاتب في صوفية تنتهي ذهولاً عميقاً.

إنّ الله يختم عمله الثلاثي بختم الأزلية المثلث، الخليقة والانعتاق وتقديس العالم

والبشرية. لا يمكن أن يخشى المرء انحراف العالم لينتهي في العدم المطلق، أو أن يحيد الإنسان في النهاية عن طريق الخلاص في المسيح. وفقاً لهذا يمكننا أن نميّز في رسالة بولس الى أهل أفسس ثلاثة خطوط من الأفكار تتشابك باستمرار دون أن تنفصل عقلياً: ١) تقديس الخليقة بسابق وجودها في كلمة الله الأزلية. ٢) التقديس بالتجسّد والخلاص بالإبن. ٣) التقديس بالشركة في الكنيسة بالروح القدس.

لم يظهر المسيح في العالم للحظة كظاهرة حيوية وهّاجة، وما جاء ليؤسس مدرسة فلسفية جديدة بل أرسله الآب من أعماق حياة التثليث وفقاً للمخطط الذي قبل الأزل، الذي تمّ فيه كلّ شيء (١، ١٠)، لتخلق بدمه بشرية جديدة، حيث تستمر وتستكمل وتنمو حياته(١١). أكبر خطر بالنسبة للفكر البشري كان اعتباره العالم إمّا كلاً أو عدماً، أي ضخّمه فصيره ألوهة، أو انتهى بالعدم لأنّه فصله عن العالم الإلهي. فتأليه العالم أو قل الخروج بالعالم والانحراف به عن الخط الإلهي هو من عمل الخطيئة. آنذاك جاء الإبن وأتمّ عمله الاتحادي العظيم. بكر الخليقة وحّد العالم مع الله، صار هو الرباط وحلقة الربط. حياة البشرية كما يقول بولس تخرج من أحضان الآب جديدة (١ : ٣ — ٦) من قلب الابن (١ : ٧ — ١٢) ومن الروح القدس (١، ١٣ — ١٤). ليست الفكرة الأفلاطونية إذاً ولا «العمل الخالص» لأرسطو الذي لا يعرف ولا يحب إلّا ذاته حتى ولا آب الهراطقة المعرفيين المستوي على العرش في الأعالي المقفرة فوق العالم. لا ليس هؤلاء بل الله هو الذي يبارك العالم والعالم يقدّم له التمجيد. عندما يقول الابن أيّها الآب فأنّا كلنا نقول ذلك. إنّ الرواقيين أيقظوا الشعور الأخوي بين البشر وركّزوه على أساس إلهي. جعلوا أساسه إله الآلهة زيفس. هذا يشكّل فلسفة سلبية فقط لا عظم لها ولا لحم ولم تتخذ أيّة شخصية تاريخية جسداً. المسيح أسّس مصفاً سماوياً فائق الطبيعة. سرير البشرية الأزلي القائم في فكرة الله المليئة بالمحبة وفي إرادة اختياره يعطينا بركة الخلاص في الزمان لأنّه عرفنا وأعدنا قبل الأجيال. لسنا قط شيئاً ما نقياً في فكرة الله، لسنا فكرة أفلاطونية بل شيئاً في فكرة الله، شيئاً شخصياً، شيئاً فريداً. كلّ بركة تظهر في الزمان، في البشرية هي تحقيق للمصير الأول ذاك الآتي من المحبة. هذا الوجود المسبق في فكرة الله «قبل أن يكون العالم» هو أول خاتم للخليقة.

بيد أن النظام الأولي للخليقة انقطع، لذلك وجب إعادة اصلاحه في المسيح،

وجب أن يتكمل ويتحد بمحوره. وعالم الأرواح بتجسد المسيح حاز رأسه الجديد. «بالانعتاق بدم المسيح» تبتدىء ملحمة جديدة فائقة العالم. والعالم المادي يحتاج أيضاً إلى هذا التقديس لوجوده. هنا لا يجد الله مقاومة (العالم سهل الجبل كالطين). إنّ الإنسان هو الثائر الوحيد الذي يقاوم الخلاص[11]. الإنعتاق أمر صعب بالنسبة لنفس كلّ فرد إلّا أن عظمة قدرته التي أجراها في المسيح بإقامته إياه من بين الأموات ستسحق المقاومة العالمية. أعطانا الله ختم الروح الذي يشكّل برهاناً على أنه لن يغير مقرراته. إنّ بولس يقابل بين عصري البشرية بتضاد خارق يعبر عنه بكلمات «أبداً» «والآن» «بدون المسيح» «وبالمسيح». هناك اليهود والوثنيون «البعيدون والقريبون» «اليونانيون والبرابرة». البشرية المنفصلة الفاقدة العقل بفعل الشياطين والمحكومة بالتفكير العالمي كالوثنيين والمنفردة بتصميم كبريائي وتبرير ذاتي كاليهود. وهنا الشعب الجديد، شعب الله، البشرية المتحدة بالله، مدينة الله الجديدة دولة أوغسطين الإلهية التي تصورها أفلاطون الدولة التي حجر زاويتها المسيح. «الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح» (٢، ١٣). يصف بولس عمل يسوع الوحدوي كعمل عالمي أو بالأحرى كحدث فائق العالم يثير انتباه القوى الملائكية. المسيح خلّص العالم من اليأس. العالم الحاضر بدون المسيح مصيره اليأس، به تكتمل حلقة الكون المكسورة. هذا هو تقديس وجود البشرية.

إنّ هذا التقديس للوجود يكتمل بتقديس الشركة في الكنيسة. كشف الله السرّ لبولس، سرّه. كشف كيف يسحق المقاومة البشرية. المسيح خلق مؤسسة خلاصية. إنّها الكنيسة التي يمكنها أن تستوعب وتشمل كلّ الإنسانية، البشرية التي هي جسدها السري الاجتماعي. الخلاص لا يستهدف أول ما يستهدف مصير الفرد بل مصير الفرد في الكلّ. لا شكّ أن بولس يعرف أن المسيح ضحّى من أجله شخصياً (غلا ٢، ٢٠)، لا لأنّه بقي معزولاً بل كعضو في البشرية التي اتخذت لها جسداً في الجسد السري. كما أن الخطيئة الجدية هي ميراث جدنا آدم ورئيس جنسنا كذلك الخلاص العام هو ميراث رئيسنا المسيح وكما أننا ورثنا بالقربى التي بيننا وبين آدم، حالة الخطيئة، كذلك الخلاص أخذناه من المسيح شخصياً. نحن هنا في قلب لاهوت بولس. هذه الفكرة غريبة عن اليهودية وجديدة. ولقد حاولوا عبثاً أن يقولوا إنّها صادرة عن اتحاد اتجاهين فكريين أي من الفكرة اليونانية الفلسفية الشعبية ومن النظرية الهندية الإيرانية «عن الرجل البدائي» الذي يوحّد في ذاته، كنفس جماعية، نفوس الافراد الآخرين[62] كما أن المسيح هو كمال الله كذلك

الكنيسة هي كمال المسيح ، «التجدد الإجتماعي في المكان والزمان» للمالىء الكلّ في الكلّ. هنا تقفز كلمة من تلك الكلمات الأساسية[٧٦] ذات المصدر المظلم بصداها الحلولي ، إلّا أن بولس يحمل لفظة هيرقليط «كلمة» كما يحملها يوحنا لتشهد عن غنى الله الذي لا حدّ له المنسكب من الآب إلى الإبن في هذه الصورة الرائعة للكنيسة كجسد المسيح السري المنظور بامتداداته الفائقة الطبيعة يقوم عمل المسيح وكنيسته.

إن الرواقية مهّدت هنا لفكرة بولس عن الكنيسة بتعليمها عن العالم كجسد الله الحاوي الكلّ. كما أن الطول ونموه الكامل هو في كلّ عضو منذ البدء كذلك الكنيسة يجب أن تنمو على مقدار كمال المسيح. إنّها مجمع مواطني ملكوت الله ومدينة الله وشعب الله، الذي ادارته في السماء وموطنه الروحي في حكم المسيح الخلاصي وسيطرته. إنّ الكنائس المكانية هي رعايا الله على الأرض. كلّ شيء لينفصل فوق الأرض بسبب اختلاف في الجنس والدم واللغة والتاريخ يجب أن ينحفظ في ميزاته التاريخية وقيمه الإيجابية لو برزت هذه المشكلة لبولس لترك الميزات القومية والعرقية تفعل فعلها في الكنيسة. ما يهم بولس هو الترابط الدّاخلي الجوهري بالروح القدس. كما في كلمة «كن» الأولى في الخليقة «وكن» الثانية في التجسد كذلك الروح القدس في خلقة الكنيسة يظهر الرب المحيي أي قوة خلّاقة «تخلق من السديم البشري عالماً جديداً»[٧٧]. إن المخططات والإرادة لا تخلق الجوهر ذاته بل دخول المسيح إليه جسد واحد، وروح واحد، ورب واحد، وإيمان واحد، ومعمودية واحدة، وإله واحد أب الجميع (٤، ٤). سقط الجدار المتوسط الذي وجد بين فناء الوثنيين وبين هيكل أورشليم هذا الرمز الفصح لفصل البشرية إلى نظام ديني قائم في شعب مختار، أرستوقراطية دينية وإلى كتلة كبيرة من «الوسخين». إنّ إعادة جبلة البشرية بشكل آخر بالمسيح والكنيسة هو الختم الثالث للبشرية.

هذا هو نشيد الرسول للكنيسة حيث تجتمع «كلّ عجائب الخلاص»[٧٧]. أي حالم استقبالي هو بولس وأي متفائل فائق الطبيعة يجب أن يكون حتّى يتمكّن آنذاك أن يرسم في أعماق سجنه صورة للكنيسة هي على منتهى الروعة والدقة! أي روح هو هذا السجن في غرفة ضيّقة تحيط به شرذمة بسيطة من المسيحيين الذين لا وزن لهم ولا تأثير في محيط الدولة العظيمة! ان كلمات السيد «لا تخش حفر القطع» هي التي اشرقت تفاؤلاً في أعماقه وهي التي حولته إلى حالم ورسّام. إنّ بولس وبولس وحده لا غير من اللّاهوتيين يستطيع أن

يحوّل المنطق الجامد ويربط القوالب الوثنية ربطاً ويحولها إلى نظرية حياة جديدة. بولس هو الذي يستطيع أن يفعل ذلك لأنّه عاش مأساة الخلاص. إن تغيير البشرية القديمة إلى إنسان جديد (٢، ٥)، وخلق هذا المجمع الديني الهائل، هذه الكنيسة العظيمة، واهتمام الله والمسيح اهتماماً لا ينقطع بالعروس يفرض علينا أن نتصور ما يمكننا أن نسميه «عذاب الله من أجل خليقته»[١١] خوفاً من أن تخفق نهائياً محاولات الله من أجل خلاصنا. فقد تصطدم بقساوة عنادنا وبثبات البشرية على نواياها وقابليتها الثائرة. «في قلب الإنسان تنعقد وتنحل عقدة مصيرنا» وعلينا يتوقف الاسهام ليأتي دم المسيح بنتيجة. وهكذا يستنتج بولس من تأملاته الرّائعة من أجل وحدة الكنيسة، إنّ هناك ضرورة للوحدة في الحياة الخلقية وسلوكها. فالإنسان الجديد المولود ثانية يجب أن يكون ذا حياة جديدة ومن طبيعته الدّاخلية يجب أن يصدر خلق مسيحي جديد، اتجاه أساسي مماثل وتشديد روحي.

كلّ أوامر بولس الخلقية ترتكز في القسم الثاني من الرسالة على الوحدة الحقيقية بالمسيح والكنيسة. الرواقية مهدت التربة للأخلاق المسيحية، لنظرة المسيحية حول المجموع بدعوتها لمشايعيها ليضعوا نصب أعينهم المجموع الكبير مستعملين المثال «كن دائماً في المجموع».

إنّ فكرة الوحدة، جسد المسيح الحي تظهر لنا نحن البشر المعاصرين، كصورة رمزية جميلة، كتعبير رمزي، أما بالنسبة لبولس فالوحدة السرية هي واقع حقيقي كما هي وحدة الجنس البشري. يوجد في البشرية تعاون على الشر، في الجرم، كما يوجد تعاون على الخير في النعمة الإلهية. هذه النظرة للوحدة كانت في المسيحية القديمة والمتوسطة أكثر إلفة ممّا هي عليه في وقتنا الحاضر. إنّ ايغومينزم في نهاية العصر المتوسط الذي يرجع كلّ شيء عام، عالمي إلى صور بسيطة من الكلمات خالية من أي مضمون وكذلك البوزتيغيزم الذي يقبل بالحوادث فقط أفسدا الربط الإنسانية. إن المحبة هي روح الوحدة والتعاون عند بولس. إن خلقة العالم كلّه وتاريخ الإنسان هما عبارة عن حركة فريدة عظيمة من حركات المحبة تنطلق من قلب الله وتنتهي به. كلّ انزعاج وكلّ تعاسة في الحياة البشرية يمكن أن يزولا بالمحبة فقط. عندما يكتب أوغسطين «عندما تنحشر الأشياء ضيقاً في المكان فالمحبة تخلق الأماكن الرحبة» إنّما يعبر عن فكرة بولس.

بهذه المحبة للجموع يربط بولس أول ما يربط أهم معضلة من معضلات عصره،

الزواج والعشق. «لا يمكن أن تفهم الحياة اليونانية بدون المومسات واللواط[٥٤]». إنّ أهم مفكري اليونان مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو وباركليس يحبّذون اللواط ويعطونه وزناً تربوياً عظيماً. إلّا أن محبّة الجنس للجنس وسط دائرة الحضارة اليونانية قاد أكثر فأكثر إلى احتقار الزواج وإلى حرمان النساء من حقوقهن الطبيعية. هنا كان يجب أن يتحد نبع البشرية الخلاق الزواج، بالنبع الإلهي المبدئي. يولد بولس من معنى الكنيسة السري سرّ الزواج بطريقته الرائعة. في كلمات التكوين (٢، ٢٤) وفي سرد تكريس الزواج كعمل طبيعي يرى نبوة ومثالاً لشيء استقبالي. «إن هذا السر لعظيم جداً وأنا أقول هذا بالنسبة للمسيح والكنيسة»[٦٢]. كما أن كلّ شيء في الأرض ليس إلّا رمزاً كذلك العلاقة الجسدية بين البشر، الوحدة بين الرجل والمرأة هي رمز للزواج السري بين المسيح والبشرية المخلصة. في الكنيسة الشرقية يكلّل العريس بإكليل «ممثل المسيح» والعروس بأغصان من شجرة الحياة «ممثلة الكنيسة» لا توجد صورة غنية بالنعمة الإلهية وتمثّل العلاقة بين المسيح والكنيسة مثل صورة الزواج ولا يمكن أن يتنقى الزواج إلّا بالعبودية السرية للتجسد وخطوبة الكنيسة. الزواج والبتولية هما على علاقة سريّة، حيث ينفصل ما ربطه الله، الطبيعة وفوق الطبيعة تنضب كلّ الينابيع الطبيعية.

أعطى المسيح للزوجين بالشركة الروحية الداخلة وبالإعلاء السري للرباط الزوجي قداسة جديدة، معنى جديداً لحياة المرأة بالنسبة للمجتمع وهذا يفسّر قابلية النساء لاعتناق التعليم ولتأثيرها على نشره. ما فكر قط يوناني بالتغزّل بزوجته بل بعشيقته وخليلته[٥٤]. إنّ شعوراً جديداً أخذ ينمو ويزهر في المسيحية الفتية، الدياميس بعناوينها تعبر لأول مرّة عن الروح العائلي الجديد وعن شعور الزوج بالجميل للاهتمام الرقيق الذي كانت زوجته تبديه نحوه [٤٦]. لم تكن هناك ضرورات للجنس ولا زوجات فاسدات لأن الإيمان كان موجوداً وكان الزوجان ينسيان ذاتهما في المسيح. لم يرد بولس أن ينزل بالزواج إلى مستوى التحليل النفسي بل أراد أن يجعله روحياً. لم يكن باستطاعته أن يفعل ذلك إلّا على أساس التعليم الأساسي عن الخلاص وهو أن المسيح قد أخذ على عاتقه الطبيعة البشرية كلّها وأعتقها كما أعتق الجنس أيضاً «من لم أخذه على عاتقه لم يخلصه» ولقد نتجت حضارة جديدة من تعليمه عن الزواج المسيحي الجديد ما سبق للرواقيين أن تخيلوه.

أيّة قداسة وأيّة دعوة كان يشعر بها العالم المسحي المتوسطي للواجب الطبيعي. «في حلم

فرجيل عن الطفل الإلهي الذي يظهر في بدء المرحلة الجديدة وسط انبلاج العصر الجديد.. إنّ صورة الأم الإلهية مع الطفل تعبر عن ذلك، الأم التي ترفع آنذاك طفلها في أفق العالم كالشمس الصباحية».

إنّها رائعة، في الواقع، الفكرة عن الحياة البشرية التي يعبر عنها بولس في زمان كان فيه وحش الرؤيا يستعد لينقض على البشرية. إنّنا ندرك ذلك بصورة أفضل في هذه الأيّام التي يهددها التمزّق العالمي. إنّ خوفاً سيستولي على الإنسان إذا وضعت مقابل محاولة الله المثلث الأقانيم الجبّارة من أجل خليقته كما يصفها بولس. وجهة نظر فلكي معاصر وعالم طبيعي. من خلل بسيط في الآلة، خلل تافه كلياً لتطور الكون تشكّلت بصورة عفوية كلياً بعض قطع صغيرة من المادة ذات أطوال غير نظامية. هذه القطع تنقصها الحرارة لتنظيفها أو صقيع الفراغ الهائل الذي يأتي بنفس النتيجة. إنّ الإنسان هو من أشد النتائج رعباً لعدم وجود الأسباب الوقائية «ادنيغتون العلوم الطبيعية في طرقها الجديدة». من حسن الحظ أن الحكيم الكبير لا يثبت عند إخبارية العلوم الطبيعية الموقتة بل يتقدم إلى ما هو أكثر ليجد أن الإنسان، إذا بحث خارجياً وطبيعياً، هو مادة نجمية ضلّت طريقها. إن العلم التجريبي الذي يستهدف حلّ رموز التجربة لحواس البشر كأول قسم من عالم التجربة، اكتشف شيئاً يطلب الحقيقة، شيئاً لا يتوقّف عن أن يسأل لأنّ أكبر حاجاته هي صحة براهينه، أهي حقيقة ما نرسم وما وصلنا إليه من نتائج وما نؤكده من حوادث؟ إنّ هذا الشيء الذي يسأل ويلحف في السؤال هو نحن أنفسنا. إنّنا نسأل ما هي أعمق حقيقة بالنسبة لنا نحن بالذّات. إذا كنّا قد اعترفنا نهائياً بضرورة الحقيقة بالنسبة لنا، وإنّنا مسؤولون تجاه الحقيقة كشيء يشكّل جوهر الحياة، فإنّنا نكون قد اقتربنا من أوغسطين الذي كان همّه الدائم العثور على الحقيقة. بين بولس وأوغسطين خطوة واحدة. لا يجد بولس تفسيراً للكائن الغامض الذي يهتم كثيراً بصحة ما يفكّر فيه وما يؤمن إلّا كون هذا الإنسان الأحجية «صورة الله اللامنظور»، وخلقة الكلمة الأزلية، وإنّ عمق معنى وجوده نابع من سر الثالثوث. وهكذا نجد عالم الطبيعة الحديث وبولس يبحثان ويدققان ليلتقيا أمام باب الحقيقة الأزلية.

إن البروتوريانوس الروماني الذي كان يجلس في زاوية الغرفة صامتاً طوال مدّة تلقين بولس أعطى لبولس عند نهاية الرسالة المادة ليصف صراع الحياة الروحي بطريقة أخّاذة. بهذه الصورة للجندي الروماني ينهي بولس رسالته.

٥٨. ﴿ عمل يسوع التكفيري ﴾

(الرسالة إلى أهل كولوسي)

في أحد الأيّام جاء أبيفراس، مؤسس كنيسة كولوسي يطلب من بولس الإرشادات والعون. لا شكّ أن أهل وادي ليكوس كانوا على العموم غيورين في الإيمان ومملوئين من المحبة الأخوية إلّا أنهم كانوا حذرين، كثيري الإهتمام، يسهل أن تجرهم أحلام بعيدة التحقيق وكلمات رقيقة. لقد أدرك بولس ذلك. كانت فريجيا زاوية عاصفة خطيرة وأنى التفت كان يرى الغيوم المليئة بالخداع والحيل تأتيها من كلّ مكان. كان الفريجيون يرون العالم كأنّه مليء بالأبالسة والسماء مليئة بالعروش والسلاطين والرئاسات (كو ٢، ١٥) والمكان الذي تحت النجوم مليء بأرواح الهواء (أفسس ٦، ١٢)، كانوا يطلقون على الأرواح العليا اسم «الكمال». إنّها الكلمة الشائعة في كولوسي[٥٦]. الكلّ يتكلّمون عليها، العامل والعبد مع جهلهم ما تعنيه. إن يونيا بلد الفلسفة القديمة وفريجيا عاصمة الترهات المعرفية الهرطوقية كانتا في غليان ديني. يظهر أن طبيعة هذا القسم البركاني من الأرض يشجّع مثل هذه التطرفات. هذا البلد المليء بالهاويات المتأرجحة بالهزّات الدائمة، المزروعة بفوهات البراكين المتنفسة أبخرة وحمماً كانت تبدو لمواطنيها وكأنّها حلبة صراع بين قوّات ما فوق الأرض وما تحتها* بالقرب من المدينة المكرمة كانوا يدلون على أبواب جحيم بلونيوس حيث كانت الأرواح تقضي أوقاتها كما كانوا يقولون. إن طاليس وُلد هنا وهو الذي قال آنذاك «إنّ العالم مليء بالأبالسة».

إن غمزات بولس المقتضبة لا تمكننا أن نحدد بدقّة حدود الهرطقات آنذاك. إلّا أنّه من المؤكّد على الأقل أن المقصود هو نوع من «الثاوسوفيا» وهو مزيج من الترهات اليونانية واليهودية، معرفية يهودية بدائية. إنّ عدداً كبيراً من اليهود كان قد استوطن في فريجيا في أيّام أنطيوخوس الكبير حاولوا أن يخلقوا يهودية أكثر جاذبية فألبسوها عباءة فلسفية. كانوا يعرفون الكثير عن الملائكة والأرواح التي أعطت الشريعة لموسى. كانوا يعبدون الأرواح عبادة تفوق كلّ قياس وكانوا يعتقدون بشفاء الملائكة بطريق الشعوذة. كانوا يقولون إنّ

* سنة ٦٠ ب. م. دمّر الزلزال مدينتي اللاذقية وكولوسي ولكن أعيد بناؤهما سريعاً.

المسيح، نوعاً ما، هو أحد الأرواح العليا لذلك نراه يخضع للشريعة الموسوية كما يجب أن يخضع المسيحيون. إنّ الهرطقة ليست حتى الآن بخطرة إلا أنّها ستصبح فيما بعد نظرية سحرية خطرة تشكّلت من عناصر يهودية أفلاطونية فيثاغورية جديدة أورفية بارثيه وزرادشتية وستشغل لمدة عصور طوال تاريخ الديانات وستشكل خطراً كبيراً على المسيحية. لم تكن معرفية ماني وماركيون وفاسيليدس ووالس، كانت قليلاً من كلّ[11].

كانت هذه هي الحالة الأولى لهذه العجنة الروحية. كانوا يفترضون أنّها جاءت من السّامرة من مدرسة سمعان المجوسي في غيتا وأنّها وقعت تحت تأثير حركة اليساويين وعلى الأخص ديانة زرادشت. كانت هذه الديانة السرية جذّابة في مجتمع حصل فيه ما حصل للمجتمع الهندي الذي عزف عن الأمور الدنيوية واستولى عليه عطش الخلاص ويظهر أن هذه الديانة كانت تدور حول النقاط الآتية: ماذا حصل مع العالم المادي؟ أخلق أم جاء نتيجة لقوّة معادية لله؟ جواب الفلاسفة المستنيرين هو أن العالم المادي بعيد عن الله وان الله أسمى منه بكثير حتّى يهتم بالخليقة وإدارة العالم. الخليقة ستوسخ الله فقط. إذاً فالعالم يجب أن يخلق من قوى دنيا، من أرواح وسيطة من عناصر (كولو ٢، ٨) تسمّى أجيال تنسكب من الله بانعكاسات. «كائنات مختلفة تصبح تدريجياً أكثر مادية حتّى تنتهي بالخالق أي مهندس الكون الذي العالم هو خلقته، العالم المخيف الذي تحاربه كلّ قوى الظلام». إنّ النفس البشرية هي شرارة نيّرة من العالم الأسمى، ضاعت وسط المادة. فاتحد المسيح الأعلى بالمعمودية في الأردن بيسوع الأرضي لكي يخلّصها في جيل من الأجيال الخيرة وقد تركه عند الصليب. المسيح الذي صلب ليس بمخلّص بل المسيح الذي عاد إلى الكمال. العريقون في هذه الديانة تسموا باسم العرفانيين فتمّ الإنتساب إلى هذه الديانة بطريقة صارمة. إماتة صارمة، ابتعاد عن الشراب واللحم والزواج (٢، ٢٣).

ربما كانت لهذه الفلسفة العرفانية جذور في الفكرة الأفلاطونية عن العالم الأبعد أو في وجهة نظر أخرى لأرسطو الذي كان يرفض خلقة العالم من العدم لأنّه كان يعتبرها غير منسجمة مع الكمال الإلهي . كان أرسطو مضطراً لأن يقبل ذلك لأنّ فكرته الجافّة عن معنى الله «العمل النقي» الموجودة في حركة ولا مبالاة فوق العالم والتي تتحول دائماً، كانت فقيرة جداً لتفسر سرّ الخليقة.

لو لم يدرك بولس أن هذا النور المشع المضلل كان يشكّل خطراً على الإيمان النقي

الخالص لما كان المفكّر الحاد، الخلّاق، الفريد. إن خدمته العظيمة هي أنّه أدرك بنظرته العميقة عن المسيح وبفرقه في المسيح الخفي وبالمخطط الخلاصي العالمي حياة الألوهة الدّاخلية ادراكاً عميقاً بحيث لا يظهر عمل الخليقة شيئاً غير جدير بالله بل هو نبع من الضحية المخلصية من نبع العالم وهذا النبع الإلهي هو العمل الأزلي الخلّاق حيث روح الله يخصب ذاته بالمعرفة والمحبة اللتين تتسربلان الآب والإبن والروح القدس كنهر أزلي لا نهاية له. الخليقة هي فيض، هي بروز محبة الله إلى الخارج لتتكرر صورة الإبن المحبوب دوماً وبأشكال جديدة وترتيبات ودرجات وجود ابتداءً من علو الشاروبيم حتى آخر ظل ضعيف حتى الفيء الأخير، حتى الجزيرة الأخيرة في هامش الوجود الأخير الذي يقترب حتى حدود العدم. السبب الأخير للخليقة هو أن الإبن هو المثال والسبب الأخير لها «الذي به وفيه ومنه» (٤، ١٦). كلّ الكائنات تجد فيه مثالها وهو قياسها الدّاخلي، ليس للمخلوقات أي شيء من ذاتها حتى يطرحه الله ليخلقها. الله لا يحدّه شيء ليس هو ذاته، إذا لم تكن أمام أعيننا هذه النظرة الثالوثية المبدئية فإننا نقع في سرّ غير معقول، في مصدر من العدم غير مدرك. السرّ موجود بهذه الصورة أو بغيرها. إن إدراكنا، وهو خلقه أيضاً، ليس أهلاً للأمور الفائقة العقل. الله والخليقة هما سرّ إلّا أنه سرّ نور ومحبة.

إن بولس يستوعب عظمة المسيح بعظمة واندفاع ويعبر عن هذا الاستيعاب للمسيح الذي يحتضن العالم الطبيعي والعالم الفائق الطبيعة بعبارة صعبة الفهم أخذها من محيط الحضارة اليونانية «هو قبل كلّ شيء، وكل شيء تمّ فيه» (١ : ١٦). نحن هنا أمام أسمى تعبيرات بولس عن المسيح وإنّنا لا نجد لها مثيلاً إلّا في نشيد المسيح في رسالته إلى أهل فيلبي (٢ : ٥، ١١). إن نفس الرسول الشاعرة المليئة بالحماسة والرؤى تهبنا وتعطينا بهذه الآية (١ : ١٣، ٢٠) أول نشيد مسيحي ليتورجي يجب أن يثير اهتمامنا كما يقول أحد مشاهير دارسي العالم القديم[٧٥].

إن حياة يسوع التاريخية على الأرض تحاط بمجد نيّر يمكن أن يدركها المرء عندما يتعقّب خطّ الأيام النيّرة التي قضاها على الأرض الخلف والأمام وسط الأزلية التي لا تُحدّ. إن اهتمام أهل كولوسي الروحي كان ينحصر في ابعاد الفكرة القائلة إن المسيح هو وسيط بين الله والإنسان أو في إقصائه عن مركز رئاسته الكهنوتية الأساسي وإنزاله إلى مركز روح أدنى، إلى مخلوق شبيه بالمخلوقات الأخرى. في هذه النقطة نرى ضلالة العرفانيين وهرطقة

أريوس ونسطوريوس. لقد شوهوا السلطة الملوكية وأولية المسيح وهكذا دمّروا سلطان الطبيعة البشرية التي أصلحها المسيح. في جمل مربعة يظهر بولس (١، ١٩) أولية المسيح. لم يوزّع المسيح قواه في أرواح دنيا بل «سرّ الله أن يقطن في كلّ الكمال» في ابنه أن الجوهر الإلهي لم يقسم إلى ملايين الشرارات. كلّ حرارة الشمس تنطوي في المسيح. نحن خضعنا لا لروح أدنى بل لسلطة إبن الآب المحبوب رأساً (٢ : ١٨) [٤٧].

إن العرفانية أخفقت في مشكلة أصل الشر كما أخفقت في مشكلة الخليقة. إنّ سيطرة الشرّ في هذا العالم هي بهذا القدر، غير محدودة وأن الألم بهذا القدر لا قياس له بحيث أن كلّ محاولة لتفسير عدالة الله* طبيعياً تقود إلى اليأس وكلّ حلّ تخميني يقود إلى التشاؤم اليائس. هناك حلّ وحيد فقط. الحل هو صليب المسيح. بدون تعليم بولس عن الألم لا يمكن أن تحل هذه المعضلة. ان آلام بولس يمكن تفسيرها فقط عندما يدركها الإنسان لا كآلام شخصية إنه يتألم كعضو في جسد يسوع السري «ويتم ما ينقص من شدائد المسيح» (١، ٢٤) التي خصصت له. لكلّ عضو في جسد يسوع السري أعد مقياس معين للإشتراك في آلام الرأس وفقاً لدرجة القربى من المسيح وقد أعد للرسل أكبر قياس. إنّهم المبارون الأول في حلبة الله (١ قور ٤، ٩). هذه الفكرة هي نبع لأسمى فرح عند بولس.

يقول هارنك في كتاب شيخوخته «ماركيون» الدين هو الانعتاق. إن دليل الديانات التاريخي في العصر الأول والثاني وقف في هذا المكان بالذّات. لا يستطيع قط أن يظهر إله لم يكن مخلصاً. إنّ الديانة المسيحية الجديدة جابهت بطريقة رائعة هذا التأكيد. والرسول بولس أعطاها شكلاً في عصره على منوال جعل المسيح كمخلص محور البشارة المسيحية كلّها. إلّا أنّه وجد في الفكر اليوناني خطر المبالغة والجانبية واحتقار العالم. مشاكل عديدة كانت تسود حياة الأقدمين. بين تأليه العالم وبين الهرب منه، بين الحنين إلى الخلاص وبين تشنجات الضريبة للشياطين. كان بإمكان الوثنية أن تجد لها مكاناً ما تلقي فيه مرساة نفسها فتجد هدوء روحها. كانوا دائماً يشوّهون تفسير الخلاص ويعتبرونه انعتاقاً من الانغماس في

* أنشأ Leibniz هذا الإصطلاح الفلسفي، ويعني به محاولة التعايش بين وجود الشر في العالم وحكمة وعدالة وصلاح الله.

العالم المادي. في العصر الثاني صارت هذه الحركة قوية جداً فجذبت إليها ثلاثة من أهم ممثلي مسيحية الشرق: ماركيون وتاثيانوس وفاردیسان.

بعد ثمانين سنة على وصول بولس إلى روما شاب غني يملك المراكب فأفزعت جرأته والده أسقف سينوبي البونطس فحرمه. كان هذا الشاب يستعمل اسم بولس وكان يبشّر بديانة الانعتاق والعالم الدّاخلي. إنّه ماركيون الذي ادّعى بأنّه تلميذ بولس. لا شيء يوجد غير الانعتاق. إنّه شيء كبير. هكذا كان يعلم ماركيون. إنّه شيء عظيم. من حازه صار هو المخلص. إنّ هذا التشديد الجانبي على محبة الله الحقيقية قادته بعيداً بحيث لم تعد تجدي أيّة إمكانية لوصل الفجوة بين إله الخليقة وبين إله المحبة. ما حصل قبل المسيح كان شيئاً مخيفاً، مأساة ممجوجة دلتنا على وجه إله اليهود القاسي المخيف وخالق العالم. إنّ بولس طرح جانباً هذا الإله وهذه الشريعة، وهذا هو المؤثر والزّائع في انعتاق المسيح في رأي ماركيون، أي إنّه خلّصنا من سلطة الله الخالق نحن البشر الذين لسنا بخليقته. إن ماركيون كان يصرخ بهوس ويقول: «يا لعجيبة العجائب؟ إنها لقوة غيبوبة وعجب ألّا يستطيع أحد أن يقول شيئاً عن الإنجيل ولا أن يفكّر شيئاً ولا أن يقارنه بشيء آخر. إنّه لعجب أن يفسّر هذا التلميذ المتحمس معلّمه تفسيراً مشوهاً. كانت النتائج مدمرة. إن فوضى العرفانيين الروحية هي التي غذّت كلّ الهرطقات وهي التي سببتها. إنّ آخر نتيجة لهذه النظرية التشاؤمية اللونية كانت نسكاً صدر عن رغبة في الهرب من العالم وارادت أن يقضي على تخليد الجنس البشري. إن هارنك الذي يعطف كثيراً على ماركيون يذكرنا بقرابته الروحية بمسيحية تولوستوس وغوركي الروسيين. إن أكثر كتب غوركي عاطفة هو كتابه «الملجأ الليلي» وهذا الكتاب يمكن أن يعتبر مسرحية من مسرحيات ماركيون «الملجأ الليلي» هو العالم.

عندما يصف بولس المسيح رمزاً خلّاقاً للآب يوحّد في داخله كلّ كمال الألوهة «إله من إله ونور من نور». إلّا أنّه صار إنساناً بين الناس وبدمه طمر الهوة التي فتحتها الخطيئة بين الله والعالم، فكأنّه قد شمّ رائحة ضلال تلميذه المتحمس. العالم لم يصدر عن الشيطان ولا يتبع له. يجب ألّا نهجر العالم بتاريخه، ببؤسه وبخطيئته. العالم يحتاج إلى الشفاء ويمكن شفاؤه. يجب ألا نترك العالم وحيداً مع قواه الخاصة ونتقاعس عن العمل والجهاد. هكذا أنقذ بولس بتعليمه العقائدي الواضح الصافي عن المسيحية من الفرق في مزيج

الديانات الشرقية وجعلها حافزاً خلّاقاً للحضارة الغربية . لولا هذا العمل الخلاصي لكان الغرب مقاطعة من مقاطعات الروح الآسيوي . إن زرادشت كان سيقرر مصير أوروبا عبر السيطرة المغولية . إن السلتيك والشعوب الشمالية كانوا قد ابتدأوا يشكون بقوى آلهتهم . ما كانوا ينتظرون منها خلاصهم . آنذاك ظهرت ملائكة الأمم أمام الله «أشفق على رجاء الجنس البشري» وقد استلم بولس التفويض والأمر . سمعتم بالإنجيل الذي يبشر فيه في كلّ المسكونة التي تحت السماء والذي صرت أنا بولس خادمه (كو ١ ، ٢٣) .

الدخول في الديانة الجديدة الداخلية ، في الحياة التي تختبىء في المسيح (٣ ، ٣) حسب بولس لا تتحقق ، كما هو عند الفلاسفة المعرفيين ، بنسك مقدس عفن . أولئك الذين «نقلهم إلى ملكوت محبة ابنه» يجب أن لا يتمسكوا بعناصر قديمة تتجاوب مع سن الإنسان الديني الطفولي . إن الله محا هذه الالتزامات وسمّر مخطوط الشريعة القديمة فوق الصليب كعلم استولى عليه في ساحة المعركة (لوحة ١٢) . للوجدان المسيحي علاقة بالأوامر المقدسة[٢٧] . فبدلاً من أن تكون هناك أوامر تناديكم وتقول : «لا تمس لا تذق لا تلمس» فليحثكم على أن تلبسوا طول الأناة متحملين بعضكم بعضاً (٣ ، ١٢ — ١٥) وبدلاً من أن تبتعدوا عن لمس دراهم فوقها عناوين وثنية إخلعوا عنكم الإنسان القديم برغباته الوثنية وضعوا في قلوبكم صورة خالقكم . احترموا الوحدة في المسيح أكثر من الفروقات التي خلقتها الثروة والمركز الإجتماعي والنسب . هذا هو جواب الرسول عن المحاولات لشطر المسيحية وجعلها من ناحية ، ديانة سرية «للسريين» وديانة لطبقات الشعب من ناحية أخرى . حفظ بولس المسيحية من خطر تحويلها إلى نسك يتهرب من العالم . إنّ سمعان العامودي الذي عاش مدّة أربعين سنة مستنداً إلى عصاه بدون أكل ولا نوم في حالة من الذهول بينما كان جسده ينهار تدريجياً ، إنّ هذا «العجيبة» النسكية التي تفوق كلّ حدود أرضية وعقلية ، ترك العالم يسير نحو الدمار شأنه بذلك شأن بقية النساك الذين كانوا يلمعون كأقمار في الكنيسة الشرقية . لم تكن مثالية بولس من هذا النوع . لم يكن الجسد بالنسبة له كما كان بالنسبة إلى هيراقليط وأفلاطون . الجسد بالنسبة لهذين كان قبراً للروح . ولم تكن الولادة موتاً للوجود الروحي «لا تحب أن نخلعه بل أن نلبس فوقه حتى يبتلع المائت بالحياة» (٢ قور ٥ ، ٤) . هذه الكلمات توجه إلى أولئك الذين يخطئون نحو جسدهم ، أولئك الذين يتهمون الجسد .

كان بولس يهتم أن يبقي ديانة يسوع على طابعها المسكوني كمدرسة تتثقف فيها البشرية كما أراد في الوقت نفسه أن يفتح في المعرفة العليا وفي الفلسفة المسيحية، وفي عالم النسك باباً يزداد انفتاحاً من جيل إلى جيل فيترك النور الكامل للعقل والقلب. بعد بولس تماماً شعر الاسكندريون «بفرح تلك الفكرة المسيحية»[٢٦] التي فتح بابها بولس لأول مرة. وباليقين البالغ من تفوق المسيحية الروحي استعملوا نتائج فلسفة اليونانيين، كنوع من الترجمة — ليجعلوا الله الجديد أكثر قرباً إلى الإفهام. يجب أن تكون المدرسة الاسكندرية قد وصلت إلى مستوى علمي عالٍ حتى تمكّن أقليمس الاسكندري من القول: «بعد أن جاء المسيح لا داع إلى المدارس البشرية «الوثنية». المعلم يعلم كلّ شيء بالمسيح تجلّت كلّ البشريّة «في أثينا واليونان». إنّ بولس هو الذي فتح الطريق لتدخل كلمة انجيل يوحنا إلى عالم الفكر المسيحي. كما أن بذار الكلمة كما يقول الآباء سقط على الطريق فالتقطه بيندار عندما كتب في نشيده الثامن «من هو الإنسان؟ وأي شيء لا يكونه؟ ظل وأحلام. إلّا أنه عندما يحل شعاع نيّر من زيفس كلّ شيء آنذاك في العالم يصبح نوراً لمّاعاً وحياة هادئة.

بينما كان بولس يملي كان كلّ أصدقائه الشرقيين يجتمعون حوله كما يستدل من جدول أولئك الذين بعثوا بسلامهم. تحولت غرفة بولس إلى مكان سري لطيف، إلى مصلى عائلي حيث يتذكّر الأصدقاء في صلواتهم وأناشيدهم وفي سرّ الشكر كلّ إخوتهم الغائبين (١ : ٣، ٩). بين مصف المصلين كان يتميز صوت أبيغراس الذي أسس كنيسة كولوسي والذي كان يجاهد من أجل نفوس أولاده. تأثّر بولس كثيراً بحرارة إيمان هذا الرجل الرسولي حقيقة (٤، ١٢). من كلّ هذا يمكننا أن نكون فكرة واضحة عن عالم السجين من أجل المسيح. ذهاب وإياب. إخوة يذهبون ويقبلون وأخبار من هنا وهناك ورسائل تصل باستمرار. كان صوت المدينة المتملكة بضجيجها يصل من الشارع إلى الغرفة حيث كانت المحبة والسلام يسيطران بالرغم من قساوة السجن. كان البروتوريانوس يجلس في أعماق الزاوية صامتاً. أخذ هذا الإنسان يشعر رويداً رويداً بأن الإنسان الذي يحرسه ليس بزعيم عصابة ثائرة متآمرة خطرة بل زعيم روحي لمؤسسة متفرعة الأغصان تصلّي من أجل الأمبراطورية وأن مصير الأمبراطورية الرومانية مضمون في يديها أكثر بكثير مما هو في أيدي الأمبراطور.

٥٩ . ﴿ أونيسيموس العبد ﴾

(الرسالة إلى فيليمون)

بين الزائرين الذين كان يستقبلهم بولس يوماً بعد يوم عبد شاب ذو قصة مثيرة. إنّه عبد هارب تبدو لنا قصته مثيرة جداً لأنّها تسمح لنا بإلقاء نظرة على المسيحية الفتية وطريقة كفاحها من أجل المشاكل الإجتماعية، ومؤثرة لأنّها ترشدنا إلى ناحية من نواحي بولس القريبة من القلب بإنسانيته النبيلة وبالطريقة التي كان يرفع بها أي شيء عادي إلى جو يفوق العالم. إن بولس برسالته إلى فيليمون ركّز وأقام بمفرده أثراً خالداً من آثار طيبة.

كان فيليمون تاجراً غنياً من كولوسي، وكان قد اشترى من سوق النخاسة شاباً ذكياً دفع ثمنه غالياً وكان يتيم الأب والأم لا اسم له وقد أطلق عليه أونيسيموس «نافع». في أحد الأيّام تشاجر أونيسيموس مع عبد آخر فسرق سيده وفرّ وجاء إلى رومية خوفاً من العقاب. كان الواقع عكس ما حلم به. لقد نفدت فلوسه سريعاً وكانت شرطة رومية تتعقّب الفارين دائماً. وكان كهارب خارج القانون، وكعبد بدون سيده، يشبه عصفوراً بدون قفص انفتحت أمامه كل طرقات الجريمة. في مثل هذه الأوقات تجوّل في خاطر الإنسان البائس أفكار وأفكار. إلّا أن النعمة الإلهية فعلت فعلها في نفس هذا العبد. إن فيليمون وامرأته ابفيا كانا من المؤمنين الجدد وكانا من أكثر الناس اخلاصاً للرسول. كانا من النوع الذي يفتح بيته للناس دون دعوة فيشعر فيه الإنسان براحة واطمئنان كأنّه في بيته. وكان بيتهما في الوقت نفسه مقاماً تتم فيه الصلوات والخدم الإلهية، وكان المسيحيون يدخلون ويخرجون بدون حاجب أو بوّاب. هناك من يعتقد أن أرخيبوس الذي كان يهتم بالعبادة كان ابن البيت. من الجائز أن يكون أونيسيموس قد التقى عفوياً بأبيفراس أو أنّه قد تذكر وهو في هذه الحالة البائسة الرسول الطيب الذي كان يحمل له من حين إلى آخر رسالة من سيده. أي ملجأ يجده أفضل من ذلك. وجد سعادة حياته. وهكذا يصبح العبد الهارب ظفراً لنعمة الله، والرسالة التي تحمل صدى ذلك العصر أثراً من آثار النعمة الأزلية.

في أحد الأيّام قرع أونيسيموس باب بولس فسأله بولس إذا كان يحمل رسالة من

سيده. اضطرب أونيسيموس وفقد اتزانه. أيمكنه أن يخفي شيئاً عن هذه الأعين الفاحصة المليئة بالطيبة؟ ها هو. إنّه يعترف كالإبن الشاطر. كانت قضية أونيسيموس جدية. غالباً ما كان جبين الهاربين العبيد يختم بالحرف الأول من كلمة هارب. كان للسيد حق الأمر بجلد السارق حتى الموت أو إرساله إلى بيسترينوم حيث لا عودة بعدها. لا تزال هناك لوحة تعود إلى منتصف القرن الرابع كان يحملها في عنقه عبد من عبيد أحد الأكليروس من الدرجات الدنيا، وقد كتب عليها أقبض علي لأنّي هربت وسلمني إلى التابع فيكتور في كنيسة القديس أقليمس. ما كان أونيسيموس يخشى أن يأتي الكثير على يد فيليمون. أما إذا أعلن فيليمون هربه وألقي القبض عليه فالقضية ستتعقّد وسيجد بولس نفسه في مأزق حرج.

كان بولس يرى أن عودة أونيسيموس كانت ضرورية. استولت القشعريرة على العبد عندما عرف أن بولس يريد إعادته إلى فيليمون. حبذا لو وجد من يشتريه فيحرره. لكي يشتري العبيد حريتهم أسسوا في الهياكل صناديق كانت تحت حماية أحد الآلهة. كان السيد يذهب مع العبد إلى الهيكل فيأخذ المال من يد الاله ويطلق الحرية للعبد. فكر بولس ثم قال: يا أونيسيموس إنّي أعرف سيداً يمكنه أن يشتريك. إنّي أنا شخصياً فقير أما ذاك فغني جداً، ويمكنه أن يشتري كلّ العالم. لمعت عينا أونيسيموس وشعّتا. أيمكن أن يحصل ذلك؟ ألم تسمع شيئاً عن المسيح مخلص العالم؟ نعم. إن فيليمون كان يتحدّث عنه دائماً، فأخذ يعاملنا معاملة حسنة بعد صيرورته مسيحياً، لقد اعتنق بعض عبيده المسيحية. أنظر يا أونيسيموس إني سأريك المسيح. إنّه الإبن الأزلي للآب. إنّه أكثر حريّة من كلّ أحرار الدنيا. إلّا أنّه ترك حريته وعظمته وصار عبداً وقبل بإرادته إنّه يموت كعبد لكي يحررنا من عبودية الشر. ثم قصّ بولس على أونيسيموس وقال إنه كان فيما مضى عبداً لعبودية الشريعة فوجد حريته في المسيح. يا عزيزي أونيسيموس: إنّ لنا سيّداً صالحاً. في المسيح لا حرّ ولا عبد، في المسيح هو أكثر حرية من أي رجل حر في العالم. إن نيره حلو وحمله ضعيف. لا تكلمني يا أونيسيموس عن الحرية التي يتكلّم عليها الناس. تصور أنّني فكرت يوماً من الأيّام بأني حرّ. مع ذلك فقد كنت أكثر من أي عبد، مستحقاً دموع الشفقة. كنت عبداً للشريعة وعبد جنون مؤلم. كنت ميتاً وكنت أتصوّر أني حي. إلّا عندما صلبت مع المسيح وصلبت من أجل العالم عرفت آنذاك ما يعنيه أن تحيا. في الوقت الذي كان البشر يعتبرونني سعيداً كنت شقياً جداً وكنت في سهراتي وفي ليالي عذاباتي أصرخ «من سيخلّص نفسي من هذا الجسد الذي يحمل الموت»، لكني بعد أن جلدت

خمس مرّات من أجل المسيح ، وضربت ثلاث مرّات ، ورجمت مرة واحدة ، وبعد أن طاردوني من مدينة إلى مدينة ، أخطار في البحر وأخطار في البرّ وسط قساوة الطقس والحرمان وانفاقه ، وبعد مضي ثلاثين سنة من الجهاد المتواصل المضني صرت أعرف ما يعنيه الفرح الحقيقي ويمكنني أن أقول لخاصتي أفرحوا بالرب دائماً. كنت شاباً وها هو قد ابيض شعر رأسي ، إلّا أن الرب يجدّد شبابي كالنسر. لا تخف يا أونيسيموس من العلامة التي سيضعونها فوق جبينك. المكويون الحقيقون هم الذين كووا نفوسهم. (١ تيموثاوس ٤ : ٢). كلّ شيء يتعلّق بما اختفى في داخلنا واستتر. يا لعظمة الحرية التي أعطانها المسيح !.

كان أونيسيموس يسمع وعيناه تشعّان. لم يخاطبه مخلوق قط هكذا. يا للنبع العجيب الذي تنبع منه هذه الحياة وهذا الفرح وهذا السمو الروحي المتفائل ! كان بولس يعطف عطفاً خاصاً على الشاب الهارب ، كان يملك بالرغم من شقواته روحاً جذّابة ، وكان أونيسيموس يشعر بالقلب الذي كان يخاطبه. كان يتردد دائماً على بيت بولس فارتبطا بصداقة. وفي أحد الأيّام كانا جالسين معاً وقد ترك بولس كلّ غنى قلبه يفيض بالمحبة المسيحية التي كانت تملؤه فركع أونيسيموس على ركبتيه وقال إني أؤمن. ليست هذه الزيارة بالأولى ولا بالأخيرة التي انتهت بهذه الصورة. إن البروتوريانوس الذي كان يجلس في الأعماق كان قد رأى حالات كثيرة كهذه الحالة.

إنّ تتمّة قصة أونيسيموس تدلّ على الطابع الخاص بالمسيحية ، وهو العلاقة الوثيقة بين الدين والأخلاق. المسيحية تربط بين أسمى التحليقات الروحية والواقعية البريئة. إنّها في بعض الأحيان ديانة عفوية تسبب اتعاباً كثيرة للإنسان. الديانة والأخلاق في الوثنية شيئان منفصلان كلياً. لقد وجدت آلهة فاسقة. الأخلاق ، والدين سارا دون أن يكون بينهما أيّة علاقة ، أو متعاكسان. يمكن أن يكون المرء عابداً للآلهة إلّا أنّه فاسق. المسيحية هي أول من فرض أن يسلك الدين جنباً إلى جنب مع الأخلاق فالدين والأخلاق ينبعان من معين واحد. كانت ديانة بولس عملية ولم تنحصر في اتخاذ الإنسان موقفاً عقلياً صرفاً. عليك يا أونيسيموس أن تعود إلى فيليمون وأن تعترف له بجريمتك وأن تقبل بالقصاص اذا فرضه عليك. إن عودتك لأمر قاس بالنسبة لك ولي. صرنا أصدقاء وإنّي محتاج إلى خدماتك. إلّا أنّي لا أستطيع أن أتدخّل في حقوق الآخرين ، مع ذلك سأكتب رسالة صغيرة لصديقي القديم فيليمون وسترافق أنت تيخيكوس الذي سيحمل الرسالة. وجلس

الرسول وأملى الرسالة على تيموثاوس. إنّها الرسالة الوحيدة التي كتبها بولس والتي تتعلّق بقضية خاصة. تسمح لنا هذه الرسالة أن نلقي مرة أخرى نظرة عميقة إلى قلب كاتبها الكبير أكثر ما تسمح لنا به رسائله الأخرى المليئة بالأفكار. أين هو الإنسان الذي لا يخشى أن ترى رسائله نور البشر والنقد الصارم! ها هو. إنّه بولس يكتب كلّ ملاحظة وكلّ مذكّرة تخرج من بين يديه تحمل ختم روحه وتأتي من أعماق قلبه الرسولي ويصمد أمام أقوى المجاهر.

يهمل بولس كلّ لقب خدمة. كلّ ذكر لرتبته الرسولة إلّا أنّه يهز سلاسله «أسير يسوع المسيح» ليقرع الوتر الديني. كان لفيليمون بيت كبير وعدد كثير من الخدم العبيد. يعرف بولس أن فيليمون سيقرأ رسالته في وقت الصلاة البيتية. لذلك يرسل سلامه، إلى الكنيسة التي في بيتك. كان لبولس بعض الحقوق على فيليمون. كان اباه الروحي، وكان يطلب منه المال عند حاجته القصوى. ولما كان بولس يعرف أي نوع من الرجال كان فيليمون «إنّه إنسان لا يحتاج أن يؤمر» (٥ — ٧) فإنه يستعمل لغة المحبة. الأب الروحي ينال عن طريق المحبة والرجاء أكثر ممّا يناله عن طريق الأمر. كان بولس ماهراً في تقديم البراهين التي يستعملها للتأثير. كان يرتبها ترتيباً صاعداً كدرجات سلم. بولس الشيخ، وجه بولس المجعّد وقد علاه بياض المشيب ينتصب أمام فيليمون. يا لتواضع شيخ، يا للتواضع المؤثر! إن صورة الرسول التي رسمها **Rembrandt** تخاطب نفوسنا، لقد ابيض في خدمة المسيح. «والآن أسير يسوع المسيح». في شخصيته تتقيّد كلّ المسيحية. عندما يرجو باسم المسيح، عندما يرجو ابنه من أجل ابنه الروحي فإنّه واثق من أن فيليمون لن يقطب جبينه حتّى لو كان من يرجوه من أجله، شخص اسمه أونيسيموس. بعد تهيئة نفسية يلفظ فقط اسمه أنه يعرف أن اسم هذا العبد العاق سيزعج فيليمون. إنّه يتخيله وقد قطب جبينه غضباً فيحاول فوراً تخفيف غضبه، بنكتة، بتورية لاسم أونيسيموس «الذي لم يكن مفيداً لك فيما مضى والذي هو الآن كثير الفائدة بالنسبة لي». إن فيليمون يشعر بأن أنامل بولس تداعب جبينه «وأنا أرده اليك فأقبله قبولك أحشائي بعينها» يبدو بولس وكأنّه يطلب كثيراً. من الضروري أن يحدث شيء ما مع أونيسيموس عندما يسمع بولس يتكلّم هكذا. والآن! إن بولس ينطق كلماته كأنّه يتغنّى بالعبد وينسج له نشيداً «كنت أود أن أمسكه عندي ليخدمني بدلاً منك في قيود الإنجيل»، أي ما دام هو ملكك فكلّ خدمة يقدمها لي من أجل نعمة المسيح فكأنّك أنت الذي قدّمتها. كرهت فعل شيء بدون رأيك حتّى يكون إحسانك عن اختيار. إن بولس يعترف بالشريعة القديمة. وبالحق الذي تعطيه لفيليمون.

لو حظي بإرادة سيده الغائب لأبقى بولس أونيسيموس عنده. لا يعترف بولس بالعنف ولا يقبل بالضغط الخلقي وخصوصاً في النواحي المادية لئلا تتغير نقاوة الإنجيل.

والآن تلي ذلك لفتة دقيقة مدهشة نحو العالم الفائق الطبيعة. فالخطيئة، عدم الطاعة، معصية الإنسان تؤخذ في مخططات العناية الإلهية تحسب وتدخل في المجهول المعروف جداً بالنسبة لله في تساويه. ولعله فارقك حيناً لتملكه مدى الدهر لا كعبد فيما بعد بل كمن هو أفضل من عبد، «كأخ محبوب وعلى الخصوص إلي» إن تحديد المسيحية كشركة لنفوس أولئك الذين كانوا قبلاً منفصلين بسبب مصائرهم المختلفة فاتحدوا بالمسيح ووجد الواحد منهم الآخر، لتحديد دقيق. لا شك أن أونيسيموس أخطأ لكن عندما يغفر الله يجب على الإنسان أن يغفر أيضاً. إن خطيئته كانت بالنسبة لله سبباً لإيمانه. «لقد سبب لك حزناً لكن ذلك يستأهل التعب. تصورت أنّك وقعت في خسارة مع أنّه في الواقع قمت بعملية تجارية رابحة فبدلاً من عبد تسترجع أخاً».

بين بولس وفيليمون يوجد نوع من الملكية المشتركة لأن فيليمون كان ابنه الروحي. «إن كنت قد اتخذتني من شركائك فاقبله قبولك لشخصي وإن كان قد ظلمك في شيء أو كان لك عليه دين فاحسب ذلك علي أنا بولس كتبت ذلك بخط يدي. أنا أفي ولست بقائل لك أنّك مديون لي حتى بنفسك أيضاً. نعم يا أخي لتكن لي منك منفعة بالرب. أرح أحشائي في المسيح».

لن يجد إنسان مهما نقّب في أدب الرسالة القديمة مخطوطاً يمكن أن يقابل مع هذه الرسالة. إنّنا نقرأ رسالة بلينيوس الذي يرجو بها صديقه سافينيانوس أن لا يعذب عبداً أعيدت له حريته. «يكفي الآن ما لاقاه من عذابات نقدك وكانت كثيرة» ما أمتن القربى بين الرواقيين والمسيحية! يظهر ذلك من معاملة بلينيوس ذاته. إن المعتق سوزيموس أصيب بمرض صدري فأرسله بلينيوس إلى مصر فعاد صحيحاً ثم عاوده المرض وأخذ ينزف الدم فحاول أن يرسله إلى أحد أصدقائه في ريفيرا. كان بلينيوس يسمح لعبيده أيضاً أن يكتبوا وصيتهم كما يفعل الأحرار فقط. إن شيشرون يقف نفس الموقف العظيم كما يستدل من رسالته إلى ابنه مرقس (٥٣ ق. م). بتحريرك لثيروس أيها الحبيب مرقس افرحتني جداً لأنّك اعتبرته جديراً بحظ أفضل ولأنّك أردت أن يكون لك صديقاً لا عبداً إني أشكرك وأهنيك».

فلنقارن أيضاً رسالة كاور المسيحي كاهن رعية أرموبوليس إلى فلافيوس أفنياوس ٣٤٦ب. م، حيث يوصيه بجندي هارب:

«أردت أن أعرفك أيها السيد بفرار الجندي بولس لتسامحه فور تسلّمك هذه الرسالة وقد كتبت اليك لأنّي لم أتمكن من المجيء اليك وإذا لم تتح لي الظروف فإنّي سأكتب لك مرة ثانية». يا للفرق العظيم في اللهجة والتفكير مع أن الدوافع واحدة ومتشابهة.

ليست رسالة بولس إلى فيليمون بعمل فنّي من ناحية النبل والرقة فحسب، إنّها بدء لإعلان المسيحية لحقوق الإنسان. لم يكن بإمكان بولس أن يفكّر فقط في أن العمل يجب أن يعتبر ممنوعاً. إن الرأي العام وتأمينات الدولة وربما صالح العبيد ذاتهم ما كانت لتسمح له بذلك. كانت الدولة الرومانية تضم عدداً من العبيد يفوق عدد الأحرار بكثير. العبيد يشكّلون قسماً كبيراً من الثروة. البيوتات التي كانت تضم ألوف العبيد لم تكن بنادرة. يكتب سينيكا ويقول إنّهم كانوا يلبسون الثياب التي كان يلبسها الأحرار المواطنون حتى لا يميّزوا كثرة عددهم.

ملايين من الأيدي التي لا تكلّ كانت تعمل في البيوت وفي المزارع والمعامل. إنّهم خدمة الحضارة الرومانية الذين لا يقدرون بثمن[٨]. كلّ ما تمّ في الفنون تمّ على أيديهم لذلك يسمّي تريتشكي العبودية «العمل الخلاصي للحضارة». ويعتقد بأن الملايين يجب أن يشتغلوا ويحرثوا الأرض ويطرقوا الحديد ويجلوا الخشب ليتمكّن بعض الألوف من البحث والتصوير والادارة. لا شكّ أن مآسي سوفوكل وزيفس فيداس لم يكلّف العبودية كثيراً. كانت فكرة بولس مختلفة. يجب أن تتحسّن حالة العبيد. إنّ الدعوة لتحرير العبيد في الحالة الرّاهنة لا تعني إلّا حرباً أهلية، وستسبب ثورة عامة وستهدد الكنيسة بالفناء. إنّ خبرة الأجيال والثورة الفرنسية كمثال تعلم أن الإنتقال غير المدروس المفاجيء من العبودية الى الحرية المطلقة لا تفيد حتى أولئك الذين تحرروا. إذا كنّا نجد اليوم أن العبودية هي شيء معاكس لشعورنا الخلقي فعلينا أن نضع نصب أعيننا أن هذا الشعور ما هو إلّا صوت المسيحية في داخلنا. في العالم القديم حتى أرسطو ما كانوا يعتبرون العبودية كشيء منافٍ للطبيعة.

كان مركز العبيد محزناً في جوهره «استخدام العبيد لم يكن مخالفاً للشريعة»، هذا هو

المبدأ الأول. في الواقع كان العبيد يعاملون بطريقة أفضل ممّا كان القانون يفترضه. اليهود كانوا أفضل الشعوب في معاملة العبيد بسبب شريعتهم الدينية. كانت شريعتهم تحرّم بقاء العبد عبداً أكثر من عشر سنين وكان اليونانيون أكثر رأفة بالعبيد من الرومانيين. لم يكن حادثاً نادراً رؤية أحد أصحاب الملايين التافهين يطعم أسماكه لحوم العبيد. إلّا أنّ هذه الحالة لم تكن عامة. يكتب سينيكا إلى نيرون فيقول «كن وديعاً مع مواطنيك لأن روما كلّها مليئة بالكراهية تشير إلى السيد العاتي مع عبيده بإصبعها» Forum Romanum (أنظر حكمة سيراخ ٧ : ٢١).

حيث تتوقف الفلسفة يجب أن يتدخّل الدين جذرياً. إنّ إيمان الجميع في وحدة الجميع الصوفية. إيمان جميع المخلصين في المسيح، ومساواة الجميع في الله في حالة إتيانها من منطقة الفكر وصيرورتها حسية كواقع يمكن أن تقود الأمر تدريجياً إلى الحل. قبل كلّ شيء يجب أن يعامل العبيد بطريقة أكثر إنسانية، ثم يجب أن يتحولوا إلى رعية عبيد حتى يمكن أخيراً إزالة العبودية نهائياً. وضع بولس هذا الأساس في رسالته إلى أهل غلاطية، وضع مخططاً للحرية المسيحية، «كلّكم أولاد الله بالإيمان بيسوع المسيح، أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم المسيح لبستم فلا يهودي ولا يوناني لا عبد ولا حر ولا ذكر ولا أنثى. كلّكم في المسيح واحد» (٣ : ٢٠ — ٢٨)، إذاً الوحدة الفلسفية هي وحدة شخصية وليست فعلية. إنّ الوثنيين كانوا يعتبرون العبيد حتى في قضاياهم الدينية بشراً من الصف الثاني تحت الرجال بدون دين. وكانوا يتركونهم يعبدون الديانات الدنيا، آلهة الحقول والأحراج والمروج ولكنهم كانوا يمنعونهم من الاشتراك في الديانة الرسمية. أمّا بولس فبالعكس كان يبشّر بمساواة دينية كاملة «بروح واحد جميعكم وبجسد واحد أعتمدتم» (١ كورنثوس ١٢ : ٣). كيف يستطيع المرء أن يحتقرهم ما دام الروح القدس لم يميّز في توزيعه للمواهب.

في الرسالة إلى أهل قورنثية يعلن بولس رأيه ويقول إن المعمودية لا تتأثر بالحالة الخارجية (٧، ٢١). المعمودية والمسيحية لا تحلّان لا الروابط العائلية ولا الروابط الإجتماعية بل تحولان النفس وترفعانها الى ما فوق التوافه البشرية والفروقات الطبقية. لو اتخذت الكنيسة موقفاً غير هذا الموقف لخلقت حالة خطرة بالنسبة لها. كم من الحالات الكاذبة ستظهر لو بشر بولس بحرية اجتماعية عامة؟

ما كان بإمكان بولس أن يكون في مرتبة أدنى من ديوجين ولقد قال ديوجين متخيلاً مسيحية الحرية الداخلية للنفس أمام الموقف الإجتماعي الخارجي منذ أن حرّرني انتيستانس (معلمه) لم أرجع إلى عبوديتي». في الرسالة إلى فيليمون أتيحت الفرصة لبولس ليقوم باختبار صار كمثال. لم يكن بولس صديق الحلول العامة. كان يفضّل أن يبحث كلّ حالة على حدة. السؤال الذي طرح في حالة أونيسيموس. «أكان من الواجب على العبد أن يترك سيده الأرضي بعد أن تحرر بدم المسيح»[٢٧]؟ أيتحمل السيد المسيحي واجباً جديداً عندما يصبح عبده مسيحياً أيضاً؟ إن قرار بولس وجداني للغاية. إنّه لا يفكّر بتعكير صفو التشريع الروماني. إنّه يرغب في أن يحرّر. إلّا أن التقرير يتركه للوجدان المسيحي.

الكنيسة القديمة حافظت أيضاً على الإحترام العظيم الذي كان بولس يكنّه للإنسان حتى لو كان عبداً. كان العبد يستطيع أن ينال كل المراتب الكنسية. كانت كنيسة روما تدار أحياناً بسليل بيت أريستوقراطي ككرنيليوس أو كان يديرها إنسان أصله عبد ككاليستوس. مع ذلك لم تتقدّم الأمور بدون تناقضات اجتماعية. اللهجة المتكبّرة التي كان يستعملها البابا ابوليتوس كممثل للأرستوقراطية الرومانية إذ يتهم خصمه كاليستوس (بأنّه عبد هرب وقبض عله وحكم ثانية ليعود الى الطاحون وأن يعمل في المناجم) تشير إلى أن هناك كبرياء أرستوقراطية ظهرت فيما بعد عند البابا لاون الأول (الرسالة ٤) واشتدت في العصر المتوسط وسيطرت على مصف الإكلروس [٤٨].

كلّ ما في العالم المسيحي من حرية نقية تتغذّى بطريقة ما من ميراث بولس الروحي، المفسّر الصادق ليسوع، أنا بولس مقيّد يسوع المسيح أرجوكم من أجل ابني الذي ولدته في قيودي. فليبق دائماً ذكر هذا الرجل مسمّراً في مخيلتنا لأنّه كان يتكلّم بنعومة في وقت كان يجلس فيه فوق العرش امبراطور كنيرون، إنّه وهو المقيّد بالسلاسل هزّ وقطع سلاسل البشرية.

سنجد فيما بعد في المخطوطات البيزنطية حول تحرير العبيد كاعتراف بالجميل لبولس: «ها هو بولس يقولها بصوت جهير: «ليس عبد ولا حر» (غلا ٣ : ٢٨) وها أناذا أحررك منذ اليوم»[٨].

٦٠ . قفزة الله

(الرسالة إلى أهل فيلبي)

إنّ كنيسة فيلبي هي أول احتلال للرسول في الأرض الأوربية وكان يخصّها بعطف خاص. كان أهل فيلبي لا يعطون وزناً للأبحاث النظرية. كانوا يهتمّون بالأمور العملية للمسيحية. في أحد الأيّام وصل فجأة إلى غرفة بولس في روما رجل يتمتع باحترام كبير اسمه ايبافروديت يحمل تقدمة لا يستهان بها من كنيسة فيلبي. إنّ بولس فرح بالبرهان الجديد الذي تقدّمه كنيسة فيلبي عن محبتها وولائها. لقد عرف الرسول مصدر هذه الهبات ومن يقوم وراءها. إنّها امرأة مؤمنة ذات قلب رسولي. إنّ ليديا كانت من الذين جمعوا كلّ الطيوب في قلبها. كان من الضروري أن يكون هناك من يهتم بمثل هذه الأمور. البعض يرون أن اسمها ينطوي وراء النكتة المفرحة «الزوج النقي» يجوز أن يكون الرسول قد عنى بذلك لوقا الذي كان قد وصل في هذه الأثناء إلى فيلبي.

كيف حال الإخوة؟ كان ايبافروديت يحمل أخباراً كثيرة. إن الكنيسة ثابتة في الإيمان والمحبة وتكافح ببطولة من أجل الإنجيل إلّا أنّها قلقة من جهته. هناك بعض الحزازات النسائية ولدها الحسد، تعكّر نوعاً ما صفاء سماء الكنيسة مثل أفوديا وسنتيخي. بعض المشاغبين حاولوا تعكير سلام الكنيسة وإنقاص سلطة بولس فاخفقوا. تمكّنوا أن يضعوا بعض المؤمنين في السجن إلّا أنّ هذا العمل زاد من ترابط المؤمنين.

بقي ايبافروديت مدّة طويلة عند بولس يشاركه في سجنه. لقد انصرف هذا الإنسان المتجرّد بكليته إلى خدمة الرسول والكنيسة وكثيراً ما تعرّضت حياته للموت. إنّ صحته الضعيفة هدتها الحمى في روما. كان بولس يسهر الليالي الطوال بالقرب من سريره. فتضرّع وصلّى إلى الله ليهب صديقه الشفاء. يعتقد بولس أن شقاء ايبافروديت كان عملاً إلهياً حباً بالكنيسة وحباً بإيبافروديت بالذّات. إن كنيسة فيلبي كانت قلقة على صحته، وقد استجاب الله طلبات القديسين. لا شك أن بولس أرفق صديقه برسالة صادرة عن أعماق قلب محب وودعه بعد أن شفي من مرضه وقارب هو على الخروج من سجنه. كان مرقس وتيخيكوس واونيسيموس قد سافرا إلى آسيا الصغرى. بقي تيموثاوس

معه . يظهر أن بولس كان يستعدّ ليمثّل أمام البريتوريوم في محاكمة أخيرة نجد تعابير رقيقة في رسائله كالتي نراها في هذه الرسالة . وقد سميت بحق لؤلؤة رسائله . إنّها فيض قلب . إنّها حديث روح مع روح . الشيء الذي يهم بولس هو أن يجعل من كنيسة فيلبي كنيسة مثالية وذلك بالقضاء على آخر بقية من بقايا الإنقسامات . ما يلمسه ميداس الملك يتحول إلى ذهب وما كان يلمسه روح عظيم كبولس كان يصير عظيماً وغير عادي [٤٩] .

إنّ تقلّبات الرسول العاطفية في الرسالة ، من ثقة مفرحة إلى شعور مليء بألم الهجران أو بالأحرى شعور بالموت مسبق ، تسببه تخمينات في نتائج المحاكمة ، تدل على أن الرسالة كتبت في أوقات متقطعة وهي صورة عن حالة السجين النفسية إلّا أن اللهجة المسيطرة هي الفرح الروحي . إنّ رغبته الوحيدة هي ظفر المسيح « إما بالحياة أو بالموت » وفرحه العظيم هو أن سجنه لم يمنع انتشار الإنجيل بل زاده ووسّعه . لا قيمة عند بولس لا للموت الفوري ولا لطول الحياة ما دام المقصود هو العمل من أجل المسيح . لا شكّ أن بعض الأوساط المسيحية المتهودة أظهرت سوء نية فحاولت أن تلفت الرأي الروماني العالم نحو السجين ممّا زاد اسم المسيح انتشاراً . لم يدر في خلد بولس أن هذه الشعبية ستصبح خطراً على المسيحية . إنّ العبارة ، « فالحياة عندي هي المسيح ، والموت ربح » [٥٠] ، التي حفرت فوق ضريحه في روما بأحرف من ذهب تعبّر عن سرّ هذا الفرح العظيم الفائق الطبيعة . لم يستهدف بولس في عمله مصلحة شخصية . كلّ مصالحه تتوافق مع مصالح المسيح . القدر يفقد معناه عن إنسان كهذا الإنسان . « حتى الجلّاد يتعرّى من أسلحته عندما تعتبر فريسته أن موتها ربح[١١] » للحياة قيمتها . إنّها من متطلبات العمل الرسولي . لذلك يستصعب الرسول أن يختار . رغبتان مغايرتان تضغطان عليه . لا يعرف أيهما هي الفضلى : أن يحيا من أجل المسيح أم أن يموت . إنّه سينادي كالقديس مارتينوس « إنّي لا أتنكّر للعمل » .

أمام أعين بولس تبقى فكرته الأساسية ولا تبارحها . إنّه يريد أن يوطّد الوحدة النفسية الكاملة بين أهل فيلبي . سبب الإنقسام هو في فقدان الفكرة الفائقة الطبيعة . إنّهم لا ينظرون إلى المسيحية نظرة جدية بل جد واقعية . سرّ المسيح ، بالنسبة لبولس ليس أفكاراً متسلسلة وليست الوحدة السرية مع المسيح تعبيراً ما . وليس الإيمان طريقة لملامسة الحقيقة ، والمحبة والأخوة ليستا عناصر يجب أن ينعم بها المرء . ينادي بولس ويقول لا . إنّ وحدتنا مع المسيح هي الحقيقة الملموسة جداً ، إذا كان المسيح حقيقة بالنسبة لكم فعليكم

أن تتركوا جانباً خلافاتكم. إنّ سيرة المسيح الخلقية ليست إضافة الى إيماننا بل هي آتية من وحدتنا بالمسيح كما يأتي الثمر من الجذور.

والآن يقود بولس أهله الفيلبيين فوراً إلى السرّ المحوري للمسيح. المسيح هو شعاع الآب وجوهره، هو جوهره وهو الله ذاته. له ملء الحق أن يطلب ما يقدّم لله من عبادة ومجد. آدم الأول آمن بأنّه سيصير كإله عندما يأكل من الثمر الممنوع. إنّه يغتصب هذا المركز من أجل نفسه. أما آدم الثاني فلم يفكّر أن يساوي الله عن طريق الاغتصاب. إن المساواة هي حق من حقوقه لأنّه ولد من الآب قبل الأزل. مع ذلك فقد تنازل عن المجد الخارجي وأخفى أصله الإلهي متخذاً صورة عبد كما أراد الآب. لو فكّر كما فكّر هؤلاء لفاخر خلال حياته الأرضية بحقوقه الإلهية، ولانتقم من كلّ إهانة واحتقار، ولجلب مصف الملائكة ليكافحوا معه، ولأمر أن تنزل النار الإلهية من السماء، ولقدّم كلّ ما هو غال في سبيل ذلك. إلّا أنّه لم يفعل ذلك. ترى ألم يعد إلهاً لأجل ذلك؟ إن ألوهته استنارت وراء الانطباعات التي تقدّمها الحواس. أتصبح أنت ما لست هو عندما تتراجع؟ لا أحد يستطيع أن ينزع منك نبلك الداخلي. التجسّد كان «قفزة الله الأولى» كما يقول غريغوريوس العظيم. القفزة من العالم اللّامتناهي إلى الخليقة المتناهية كانت خطوة لإعلان الله. لا، إنّه يتقدّم أيضاً إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى ما هو أعمق إلى سديم التواضع الذّاتي. ما دام وجد مرّة واحدة وهو يحمل طبيعتنا المتألّمة فقد أراد أن يحرم كلّ ما هو مفرح وجذّاب وعذب وجميل في الحياة. صار متواضعاً فقيراً مطيعاً لا يريد شيئاً ما عدا التواضع حتى الصليب. حمل على عاتقه كلّ ما هو بشري بكلّ معناه المخيف. ملأ الكأس بالألم وشربها طافحة، شربها حتّى الثمالة. والآن نفاخر نحن البشر الحقيرين بالتفاهات ونطالب بالحقوق الكاذبة ونتكبّر ونستمرّ متكبّرين لا نريد أن نهادن. الخلاص بالصليب كان «قفزة الله الثانية». قفزة من عالم الأزل إلى عالم العبور، عالم الإنسان. إذا كنتم لا تكتفون برؤية نزول الله إلى السديم الإنساني فانظروا إذاً ارتفاعه الذي اتبعه فيما بعد. إن مقياس التواضع هو مقياس للسمو والإرتفاع. إن الآب رفع طبيعة المسيح البشرية وأجلسها على عرش الله وأعطاه لقب السيد، هذا الإسم الذي يفوق كل اسم، كأنّه يعطيه الى ملك الملوك وسيد الأسياد، الذي أمامه تنحني كلّ ركبة السماويين والأرضيين وما تحت الثرى [٥١].

ها هو بولس أيضاً! لا يستطيع أن يجعل اساس الأخلاق أكثر عمقاً. إنّه يضع الحياة

اليومية ضمن إطار الأزلية. يعتبر الآباء واللّاهوتيّون الاعتراف الذي يقدّمه للمسيح إنّه خارج من أعماق بولس. إنّه أعظم نشيد يقدِّم وأعظم شخوص تمكّن إنسان أن يصل إليه، أعظم وقفة أمام سر المسيح. كلّ الأبحاث المتعلّقة بالمسيح وكلّ التعليم العقائدي عن الثالوث الأقدس نراها هناك. إنّ بولس بنزوله من أعالي العقيدة يصبح ناعماً طلياً. إنّ أهل فيلبي يعيشون في قلبه يسهل تهذيبهم وانقيادهم. لم ترفضوا لي طلباً طلبته منكم عندما كنت بينكم فافعلوا ذلك وأنا بعيد عنكم حباً بي. الحياة وازنة والتضحية مهمة ونعمة الله التي تعطينا الإرادة والعمل في خطر. يجب أن لا نهمل شيئاً ما دامت محبّة الله اشتركت معنا في الآلام وفعلت كل شيء من أجلنا. برعب وخوف اعملوا لخلاصكم «حتى تصبحوا بلا لوم بسطاء وابناء لله بغير عيب في هذا الجيل المعوج الملتوي تضيئون بينهم كالنيّرات في العالم» بعد أيّام ستنير أجسادهم المشعة كالشهب حلبة سباق نيرون. إنّ ذكرى حالة العصر المخيفة تحمل إليه حلم الشهادة الاستقبالية. لو أرقت سكيباً على ذبيحة إيمانكم وخدمته لكنت أفرح وأبتهج مع جميعكم وبذلك عينه افرحوا أنتم أيضاً وابتهجوا معي.

يعتقد البعض أن القسم الباقي من الرسالة هو قسم من رسالة أخرى لأهل فيلبي كتبها في وقت آخر وبدافع آخر ثم ضمّ فيما بعد إلى الرسالة الأولى. وإن الدمج تمّ بين الرسالتين عند الآية الثانية من الفصل الثالث. نعتقد أن انقطاعاً بسيطاً تخلّل ذلك. لا أخبار جديدة عن أهل فيلبي بل كلمات فارغة عن الامتيازات اليهودية[٢٧]، تباهٍ وافتخار بالأصل اليهودي والنبوات والختان والكلام المحبوك بالشر تنبح به كلاب ضدّ بولس (رؤ ٢٢ : ٢٥) وتخلط كرم المسيح كخنازير برية يطلقها اليهود المتطرفون. إنّه يستعرض أصله الشريف اليهودي ثم يمزّق أمامهم ستر بيته ويرمي قطعه في القبر. إنّه لا يحتقر الماضي اليهودي ولا أصله اليهودي بل يقول إنّه بإيمانه بالمسيح اكتشف قيمة جديدة لا مثيل لها وتفوق أيّة قيمة أخرى، وإنّ ما كان يعتبره محوراً للحياة أصبح لا يعني شيئاً بالنسبة له. إنّها معرفة المسيح الفائقة. كلّ شيء ما عداها نفاية. بعد ثلاثين سنة من العمل تقريباً تملأ الرسول الشيخ رغبة الكمال كمصارع في الحلبة الأولمبية يستهدف الجوائز السماوية. ها هو بولس! إنّه عدو الاعتدال المميت وممثّل تلك الطبقة من البشر الذين لا يعرفون الحلول الوسطية ولا ترضيهم، وهم المرتبطون بأهدافهم، الأعمال التي قاموا بها وحقّقوها.

وفقاً لذلك يرى بولس في المسيحية اتجاهين: اتجاه «المفكرين فيما للأرض» الذين

انغمسوا في العالم وعملوا في السياسة أسوة بأهل السياسة سالكين طرقهم واتجاه المسيحيين الروحيين الذين استمدّوا قوتهم من الصليب وحلّوا قضايا العالم بالوسائل الفائقة الطبيعة ولا يعمدون الى قهر البشر في العالم عن طريق الحيلة والخدعة «إنّ إدارتكم في السماء [٥٣]» . إنّ مسيحيي ذلك العصر كانوا يشتركون فيما للعالم ، في قضايا الدولة الرومانية وفي الحياة الإجتماعية رغم إرادتهم . هذه الأمور كانت تحمل في ثناياها نوايا عدائية ضد الله [٥٢]. كان عليهم أن ينقلوا صفة المواطنية ، الفكرة الأساسية للحضارة القديمة إلى النطاق الروحي . كان عليهم أن يصبحوا أعضاء في جسد المسيح ومواطني الملكوت السماوي لا دولة ضمن دولة . بعد دمار العالم القديم ، صار الطريق مفتوحاً في وجه الكنيسة لتخلق شعوباً جديدة وأوضاعاً اجتماعية جديدة مستوحاة من روح المسيحية . يظهر أن هذا العصر دمّر نهائياً . لا وجود قط للمجتمع المسيحي ولا للدولة المسيحية كما يفهمها العصر المتوسط . لذلك علينا أن نفكّر الآن أكثر من قبل في قوانا الروحية الأساسية . الكنيسة التي تريد أن تعمل اليوم مستعينة بوسائل الماضي ، الكنيسة التي تدّعي امتيازات ماضية بحدود زمنية ستصبح كجسد غريب ملموس . وهنا يقف بولس فوق شفا المنحنى وينادي : «فكّروا فيما هو فوق» [٥٣].

ينهي بولس رسالته بدعوة إلى الفرح . إن سينيكا كتب في العصر ذاته في مستراحة فكرة عميقة : «إنّ الفرح الحقيقي هو شيء جد عظيم» وإنّه لفرح أن يعمل الإنسان من أجل شيء جدّي . مَنْ غير المسيحي يعمل من أجل قضية جدية ؟ الفرح يكون حيث ينظر المرء إلى الايمان ، إلى الله ، إلى الأزلي ، الى المطلق بجدية ، الفرح يكون حيث تموت الأنانية بتفاهاتها ويندمج في سعادة المجموع . لم تعرف الوثنية الفاسقة الفرح في ذلك العصر . إن سينيكا الذي أناره شعاع من أشعة المسيحية عرف هذا الفرح . افرحوا بالرب . إن الرب هو نبع كلّ فرح بالنسبة لبولس وفي قلب الله يقوم هذا النبع الأساسي . لم يخلق الله العالم بدافع شرير بل بدافع الفرح النقي من أجل ذاته . الفرح بحدّ ذاته لا يشكّل فضيلة إلّا أنّه مستقر حيوي لها (١١) . إنّه محرّك من أنجع المحركات ليؤمن الذين هم في الخارج . لأنّ هؤلاء يشعرون إذا كان أمامهم مسيحي مخلص نقي أنّهم أمام نبع من ينابيع الحياة . «الرب قريب» هذه هي النعمة المسيطرة على وجود الرسول وعلى وجود كلّ حياة مسيحية نقية . «الرب قريب» إن الايمان بحضور المسيح لا يعبر عن مرور الزمن بالنسبة لبولس . كلّما تقدّم

في الشيخوخة اقترب يوم الرب. إنّ هذه الصوفية الورائية الفعّالة هي هي حافز صوفية الصليب النظرية. إنّه يمزج في حياته عنصراً لا يعرف القبر، ويعطيه دفعة نحو العمل. الزمان حسب بولس «مفتدين الوقت» (أف ٥ : ١٦). إنّه مفهوم آخر عن مفهوم الترجيع الحاضر. إنّه مفهوم مسيحي للعمل. إعملوا ما دام النهار «وإن الزمان قصير» (١ قور ٧ : ٢٩) [٧٩].

وهكذا إن الفرح المسيحي يحوي كلّ شيء جميل عظيم صالح في عالم الله. منه يخرج نظام حياة مسيحي. المسيحي هو الإنسان الكلّي الموجود في تناسق مع الله ومع كلّ شيء حسن ويرتبط بكلّ ما هو جميل ناعم وقوي. المسيحية التي لا تترك مكاناً لأي شيء عظيم جدير بالذكر أدركه العقل البشري أو قاله أو حدث، هي مسيحية حزينة.

إن الطريقة النبيلة التي يوفي بها الرسول التقدمة المالية تعبّر أحسن تعبير عن نفسية بولس. لقد ارتاحت نفسه لهذه التقدمة لأنّه كان مديناً كما يظهر بأجرة الغرفة وأجرة الغرفة في روما غالية جداً. إنّه يشعر بالجميل ولكن هذا الجميل يعطيه طالباً، يظهر من قام به أنّه محسن إليه بعطائه لأنّهم يعطون ما لله في سبيل الله. هذا هو سمو المسيحية.

لو عدنا إلى الوراء لوجدنا أن بنيان هذه الرسالة يشع كلّه بنشيد المسيح ويلمع كأنّه ماسة ثمينة، إنّ الذين يكتبون تاريخ الديانات في الوقت الحاضر يصابون بالدهشة أمام مدى تقدّم الرسول في تعليمه عن المسيح الذي قبل الأزل في عصر بدائي كهذا العصر. كلّ المحاولات لتفسير التطور التدريجي لصورة المسيح هذه كما رآها الرسول فشلت. الصورة التي رآها في دمشق بقيت أمامه لا شيء مثلها ولا شيء يسمو عليها. إنّ هذا ليس بحلم. إنّه هو الذي اجتاز بصورة عبد مروج فلسطين وطرق أورشليم. إنّه مواطنه الجليلي ومعاصره. وبعد موته بثلاث سنين صار بغيضاً قبلاً أرفع من السماء وأوسع من المسكونة وأقوى من الموت، ينير ويملأ الكلّ بغنى بركته. كلّ هذا لم يكن تأليهاً مسرحياً كمشهد تأليه الأمبراطور، إذ كانوا يتركون نسراً يطير من بين ركامات الأخشاب كرمز لروح الأمبراطور. عندما ألبس بولس كلّ النعوت الملوكية الإلهية التي كانت للأمبراطور، عندما البسها للمسيح قضى على التأليه وخلّص الإلهي من دنس الوثنيين والكرامة البشرية من الحقارة التي أصيبت به بسبب الرياء الوضيع.

٩ . الرحلات والرسائل الأخيرة

٦١ . ﴿ عند مغيب شمس العالم ﴾

إن العبارة عند مغيب شمس العالم هي مطلع لنشيد مسائي قديم كان يقال في عيد الميلاد . «في عصر المسيح اقترب من نهايته دور من أعظم الأدوار التي تحرك فيها تاريخ حياة البشرية» . في هذه الساعة ، عند مغيب الشمس جاء المسيح ليعيد لأولاد الله فتوة جديدة .

عندما كان بولس في روما كانت الخطوط الأولى الدقيقة للنزاع المميت قد تفتقت في وجه الحضارة القديمة . كانت احتجاجات كاتون ضد تأثير الروح اليونانية التي سببت الإرتخاء تذهب عبثاً وعبثاً . حاز أوغسطوس رتبة بونتفيكوس مكسيموس و جدّد العبادات القديمة وحاول أن يرفع بقوانينه حول الزواج سداً لمقاومه الطوفان القادم . إنّ صف الفرسان أيضاً أصبح أيضاً عاجزاً عن العمل وكذلك الطبقة الأرستوقراطية . عبثاً حاول مسينا سليل بيت أثروسكي الملوكي أن يخفي السوس الداخل بانتعاش فني قصير الأمد . إنّ السم العذب الذي أدخله أوفيد في شرايين الشباب الروماني ازداد فعله وتأثيره فنشر دليلاً حقيقياً للزناة في الحاضر والمستقبل ، وكان من سوء حظ أوغسطوس أن رأى تأثير ذلك على ابنته بالذّات . كان فرجيل يتذمّر ويقول : إنّ الديانات الشرقية حلّت محل الديانة الرومانية وقد وصف روما «كأم افريجية للآلهة مكللة بالأبراج تبتهج بنسبها الإلهي» (أنظر لوحة ٥) . وسيصفها المسيحيون بعد قليل بأنّها المرأة التي تمتطي الوحش «وأم الزواني وآثام الأرض

تسكر بدماء القديسين» (رؤيا ١٧ ، ٥). تزعزع الإيمان الروماني الصحيح بزيفس والطبقات الشعبية التجأت إلى السحر الشرقي البابلي وإلى أسرار الأرقام [٥٤]. إنّ الدولة المؤلهة حلّت محل الدين وقد عمدوا إلى هذا التأليه عن طريق مظاهر جنونية لإثبات عظمتها وإقامة ابنية شاهقة فخمة مترامية الأطراف (لوحة ١٤). كانت روما تعيش عيشة العربدة ، أعياد لا تنقطع وسباقات خيل. كلّ شيء يباع بالثمن البخس ، مصالح الدولة ، الحرية السياسية ، القسم ، شرف العلم وشرف المرأة. أما موت الشعوب والحضارات فكان يسير ببطء. يجب أن لا نقلّل من قيمة تماسك الدولة الرومانية. لم تتفكك إلّا بعد أجيال ولم تسقط حطامات إلّا بعد عصور.

إن الرجل الذي رأى اقتراب حضور المسيح من روما وأورشليم باللهب والدخان يعيش منذ سنتين في غرفته في روما. إنّ تأخيراً كهذا التأخير ليس بالعجيب ما دامت القضية تتعلق بقضية دينية وما دام الإنسان المقصود إنساناً يهودياً لا يثير اهتمام المحكمة الأمبراطورية. إن طباع الأمبراطور تغيّرت كلياً وبصورة خطرة. كان عمره ستاً وعشرين سنة. فخلع عنه سلطة سينيكا وافرانيوس بوروس معلمَيه. لم يعد لإرشاداتها ونصائحها أي وزن. الغرائز الوحشية التي ورثها عن أمه استيقظت. كان الخنزير يتنفّس رائحة الدم. كان يقضي على كلّ من رآه في طريقه : فريتانيكوس أوكتافيوس أمه اغريبينا. فأجبر سينيكا على إخفاء جريمة قتل الأم بما له من سلطان وهو الذي انسحب إلى مزرعته بانتظار الأمر بانتحاره واختفى جوروس سنة ٦٢ بنتيجة السم ، ووزع السلطة على فرقة البروتوريانوس بين رجلين لشل حركة قائدها أحدهما تيفالينو الشريك في جرائم الأمبراطور والآخر فانينوس. كان هذا الرجل شريفاً لكنه كان ضعيفاً. بما أن تيفالينو كان منهمكاً في حفلات القصر فإن مصير بولس بقي مرهوناً بين يدي فانينوس. لذلك انتهى سجنه سنة ٦٣ ببراءته. وهكذا اعترفت روما بأن المسيحية لم تكن جريمة ضدّ الدولة. أول من خالف هذا القرار كان دومينيان. في أحد الأصباح جاء قائد المئة وأمسك السلسلة وثبّتها على وسطه وقال لبولس إن والي روما أوقف أمر مطاردته[٥٦] كمجرم وهذا يعني أن بولس صار حراً ويستطيع أن ذهب إلى حيث يشاء. لو تمددت المحاكمة مدة سنة أخرى لكان مصيره على يد تيجيلينوس كمصير أولئك الذين قادهم من السجون إلى ساحة سباق الخيل ليسقطوا بدمائهم شهداء فتمتلىء الساحة بجثثهم[٥٣].

هناك سؤال يطرح الآن : لماذا لم يذكر لوقا إطلاق سراح بولس؟ لا شك أنه عرف نتيجة المحاكمة. لم يكن لوقا في روما عندما أطلق سراحه لذلك لا يذكر بين الذين أرسلوا تحيّاتهم إلى أهل فيلبي. ما دام لوقا لم يذكر موت الرسول فإن هذا يعني أن بولس أطلق سراحه وأن أعمال الرسل كتبت بين سجنه الأول والثاني. إلى أين اتجه بولس؟ إن رسائل الأسر تخبرنا أنّه تخلّى عن مخططه الاساسي ليذهب إلى اسبانيا. إنّ أبصاره كانت تتجه دائماً نحو الشرق. في هذه الأثناء أرسل الرسول تيموثاوس إلى فيلبي لينتظره هناك. شعر الرسول بعد أربعة أعوام من السجن، وبعد أن تحررت يداه من القيود بأن ربيعاً جديداً أخذ ينور، وشعر بأن تلك العزيمة التي كانت قد ضغطت عاودته. في الواقع إنّها شمس الخريف الناعمة التي تعطي للخمرة الحيوية ولذة المذاق.

عندما اضطر المركب الذي كان ينقل بولس إلى روما، أن يرسو في كريت، بدت هذه الجزيرة لبولس كأنّها ساحة جديدة للعمل الرسولي، ساحة كان قد نسيها. لعلّه سمع في أفسس من إخوة مسافرين أن هناك إخوة لم يتعهدهم أحد. لقد أبحر الرسول مع تيطوس ويمّم شطر الجزيرة. فبدت له الجزيرة فشعر نحوها بمحبة ما شعر بها قبل التجائه اليها تخلّصاً من العاصفة. إن كريت هي جزيرة الملك الأسطوري المشهور ميناوس، إنّها الجزيرة الهوميرية بمدنها المئة وبكهانها القدماء، وقد حافظت على كيانها، وكانت جسراً يصل اليونان بمصر، وشكّلت حضارة خاصة في صراعها مع قوى الطبيعة القديمة جداً. إن الآثار المتبقية من القصور الملوكية كنيسو وفيستو والثالوث الأقدس تعتبر من عجائب الدنيا. إن الثروة جعلت من أهل كريت شعباً مائعاً. عندما جاء بولس إلى كريت كانت كريت مشهورة بالخلاعة فجعل ابيانيدس مواطنيه مشهورين بتكهنه الساخر «الكريتيون هم كذّابون دائماً، إنّهم وحوش شريرة وبطون خاوية». إلّا أن بذار الإنجيل علق في هذه التربة. الكريتيّون الذين كانوا قد رأوا عجيبة اليوم الخمسيني (أعمال ٢، ١١)، كانوا أول المبشرين إلّا أن المسيحية كانت مشتتة لا نظام يجمعها. كانوا يعرفون الكثير عن المسيح، إلّا أنهم كانوا يعرفون أكثر عن أبطال العهد القديم وعن شجرة ميلادهم التي حدّثهم عنها كهنة اليهود. كانت الأساطير اليهودية مستقاهم كما في أفسس. إن تربة جديدة تدعوه للعمل. سيتابع تيطوس تبشيره في كريت بانتظار عودة الرسول من أقاصي الغرب.

كان بولس يخشى أن تطأ أقدامه أرض فلسطين. الاضطراب السياسي والديني في أورشليم وصل إلى ذروته. إن فلافيوس يسوف يروي عن رئيس الكهنة أنانو ما يأتي: «دعا مجمع القضاة وقاد إليه أخا المسمى ليسوع واسمه يعقوب وآخرين بتهمة تجاوز الشريعة فحكموا عليهم بالرجم».

ماذا يجري الآن وبولس يتنقل سريعاً من مكان إلى مكان، من كنيسة إلى كنيسة في بلاد الشرق؟ إن غيمة من النار والدخان تغطّي الساحة التاريخية في الانعكاس الباهت تتحرك أشكال مبهمة وغير مكونة. إن اثنين منهما نميزهما كما نعتقد. أحدهما بطرس. قد يكون هذا ابتلع من غيمة الدخان والنار كانت تتدحرج باتجاه افينيثنو وسفوح جانيكولوس مارة فوق أكواخ المسيحيين. الكثيرون يعتقدون ذلك. لا أحد يعرف. إن موقع الاستشهاد هو في جانب هذا الادعاء. إن بساتين الفاتيكان هي المكان الذي سفكت فيه الضحايا دماءها في اضطهاد نيرون. أين كان بولس؟ لا نعرف. ١٩ تموز ٦٤ في مستراح نيرون في انتيوم جنوبي أوستيا سمع أن حريقاً قد اندلع في روما. استمرّ الحريق مدة ستة أيّام ابتلع كلّ ما صادفه أمامه. لم يبق من الأحياء الاربعة عشر سوى أربعة سالمة. في تلك الليلة رأى الشعب خدم القصر يركضون وفي أيديهم مشاعل الحريق. لم يحدث أن أثر في المعاصرين واللّاحقين ما أثّره حريق نيرون لروما. خمسة شهود موثوقين أكّدوا ذلك: تاسيت وسواثينوس صديق بلينيوس ومؤرخ بلاط أدريان. والشاعر لوفنياليوس وديون وكاسيوس وسينكا.

إن هذه التهمة الشريرة المؤكدة تاريخياً قفزت إلى هذا الوسط قفزاً. إن اليهود الذين اضطروا أن يهجروا روما في عهد كلافديوس بسبب خلافهم مع المسيحيين حول المسيح عرفوا كيف ينتقمون بإطلاقهم هذه التهمة. كان انتقامهم مزدوجاً. كان نيرون يحتاج إلى مجرم يحمله تهمة الحريق وقد حملها إلى هذه «الهرطقة الشرقية ذات السمعة الشريرة». تمكّن اليهود أن يحافظوا على رؤوسهم ويوجهوا كلّ الحقد الذي كان يحمله الشعب ضد السامية نحو المسيحيين. حتى الآن كانت المسيحية تنتشر تحت كنف المجمع، إلّا أنّ الثمن كان باهظاً جداً. كلّ أحقاد الوثنية ضد اليهود انصبت فوق رأس المسيحيين. كان في البلاط أشخاص ذوو نفوذ عظيم مثل تيجيلينوس واليتور والمرتدة بوبايا. هؤلاء تمكّنوا أن يوجّهوا أنظار نيرون نحو المسيحيين، وهكذا وقعت الكنيسة بين حجرتي الطاحون اليهودية وكره

السامية. العجيبة أن الكنيسة لم تطحن. يسمّي يوحنا المجمع اليهودي «مجمع الشيطان» (رؤيا ٢ — ٩، ٣ — ٩). لأول مرة يظهر اسم يسوع في الأدب الوثني وكما صلب المسيح بين لصين ومات على الصليب محكوماً كذلك الكنيسة. إنّها ستبدو من الآن فصاعداً كمجرم سياسي في نظر الدولة الرومانية. أما تاسيت وغيره من الكتاب فينظرون إليها كشعوذة وقحة وبغيضة. إنّ عدم اشتراك الكنيسة في القضايا العامة دليل كاف على ادعائه. لقد فعلت الوشاية فعلها. إن ايبون في كتابه ضد اليهود يروي أن اليهود أكلوا يونانياً بعد أن علقوه وذبحوه وهم يقيمون أسرارهم في حرج مقدس. إن هذه التهمة الصقت بالمسيحيين بسبب سرّ الشكر الإلهي. كان الرعب يستولي على الوثنيين عندما كانوا يسمعون الكلمات «خذوا كلوا هذا هو جسدي». كلّ الاتهامات التي ذكرها ايبون في كتابه الصقت بالمسيحيين. وإن مصلوب بالاتينوس [٤٤] أكبر دليل على ذلك (لوحة ١٥).

بيد أن الروائي المتكبّر تاسيت كان يشعر بنوع من الشفقة نحو المسيحيين بعكس سواتونيوس إنّه لم يكن يعرف الشفقة قط ولم تكن فيه أيّة عاطفة إنسانية حتى أمام المشاهد التي لا يمكن تصورها. كان يجبر المسيحيين على تمثيل أدوار من الأساطير اليونانية لتسلية الرومانيين كهيرقل وسط النار واكسيوت تمزّق لحمها العجلات المسننة وانيفس الدببة واتيس تبتر أطرافها. إن اقليمس روما يذكر في رسالته هذه العذابات المخيفة. إن سينيكا الذي ملأ غريزة الصبي ودفعه إلى مثل هذه الأعمال المرعبة يشير اليها بعد أن نفي إلى مزرعته حيث دفع ثمن أعماله غالياً. يقول سينيكا: «لهب ونيران كان في متناول الظلم، سلاسل ووحوش لمطاردة قطعان البشر، وتظهر أيضاً أمامك صلبان الشهداء والخوازيق والأعضاء التي بترتها العربات في سيرها المعاكس والرداء المغموس بالمواد المحترقة وكل ما اخترعه الجنون العاتي»، هذه الكلمات هي كلمات إنسان رأى ذلك بأم عينه، قذارة تلميذه الذي قاده قدر غاشم ليجلس فوق عرش الأمبراطورية. إنّه لمحير جداً أن يرى هذا الرواقي البارد ابتسامة إنسان مسيحي لا يذكر وسط عدد كبير من الذين يموتون. بين هؤلاء البشر كان إنسان يبتسم وسط العذابات كأن العذابات التي يلاقيها لم تكفه(٢٠). كان يتعذّب ولا يلفظ كلمة واحدة من التذمر ولا يدافع عن نفسه.

لا شكّ أن أكثر الذين يسلّم عليهم في رسالته إلى أهل روما والذين استقبلوه في الفوروم عند قدومه الى روما. كانوا من بين ضحايا اضطهاد نيرون وكذلك الذين بشروا بالمسيح

بقصد ارضائه فقط وهؤلاء خلصوا (١ قور ٣ : ١٥). إن الخطر المشترك والموت المشترك محيا كلّ ما هو بشري في قلوبهم. نعرف فقط أن أكيلا وبرسكيلا نجيا من الموت، لأن بولس أرسل لها فيما بعد سلامه إلى آفسس (٢ تيمو ٤ : ١٩). كان هذا أول نصر لإيمان كنيسة روما حقّق لها الأولية بين كنائس الأرض. كلّ ذلك حدث في آب ٦٤ في دولة «الوحوش» عندما كان العالم يسير نحو غروبه. إن النهاية ليست ببعيدة ما دام رجل الإثم قد اكتشف. يشكّ أن يكون الاضطهاد قد توقّف سنة ٦٤. أو إذا كان نيرون قد أصدر مرسوماً ضد المسيحيين. الشيء البشع هو تلطيخ الاسم المسيحي الخلقي حتى صار مرادفاً لكلمة «الشر والحقارة[٢٨]»، بسبب تهمة المسيحيين بحريق روما.

باضطهاد المسيحيين في عهد نيرون فتحت الدولة الرومانية والحضارة القديمة باب الصراع مع قوة روحية دون أن تكونا مزودتين بالعتاد الكافي لشنه. إن عدم اعتراف روما بالقوة المؤهّلة للسيطرة على المستقبل والجديرة الوحيدة بالحفاظ على الدولة الرومانية كان قدرها. إن دولة عالمية كالدولة الرومانية تحتاج كتتمة لها إلى الرباط العالمي لديانة مشتركة. الديانة القديمة الرسمية لم تكن لتستطيع أن تلعب هذاالدور، لأنّها انعدمت وجودياً في قلوب البشر بسبب هزء الفلاسفة. والديانات الشرقية المزيجة بقلقها الداخلي وتمازجها لم تكن أيضاً جديرة بأن تلعب هذا الدور. لم يكن بإمكان أية ديانة قومية أن تلعب أيضاً دوراً كهذا. الديانة الوحيدة التي تخولها مكانتها لأن تعطي لكلّ عبقرية قيمتها وأن تصل كلّ الربط الروحية في أجزاء الأمبراطورية وأن تقضي على كل الخلافات القائمة وتوحدها ضمن إطار الحقيقة، كانت الديانة المسيحية بتقسيمها وتوزيع اسقفياتها تشبه الدولة الرومانية بتقسيماتها. إلّا أن الدولة ابعدت كلّ القوى الحيوية وهذا التباين الداخلي قادها أخيراً إلى غروب المدنية القديمة. إن الشعور بأن شيئاً جديداً يتم وأن الفِكر الناموسية القديمة عن حقوق الدولة الإجتماعية لا تكفي لتشمل هذا الجديد، ميلاد منظمة دينية مستقلة وسط قوالب ناموسية جعلت العالم الروماني والحقوقيين الرومانيين يرتجفون. إن الصراع بين هاتين القوتين قوة السياسة وقوة الدين سيشكل الموضوع الأساسي في مستقبل الغرب.

٦٢. «عمود الحق وقاعدته»

﴿ الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ﴾

إن رسالة بولس إلى الشرق اكتملت. إنّه يعود الآن الى مخططه القديم ويوجه أبصاره نحو اسبانيا. هناك بعض الأدلة تقول إنه ترك أفسس وذهب إلى أسبانيا عن طريق مساليا. من الجائز أن يكون قد زار الكنائس المسيحية الموجودة في فرنسا وهو في طريقه إلى اسبانيا. إن المراكب الكبيرة كانت ترسو في الموانىء وقتاً أطول من غيرها وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد بأن بولس كان يغتنم مثل هذه الفرص لزيارة الكنائس. إذا كانت الكتابة «إلى غلاطية» من الآية (٢ تيمو ٤ : ١٠) صحيحة فإن كريسكوس كان يرافقه كما يظهر. أول من ذكر ذهاب بولس إلى روما هو اقليمس روما. من الجائز أيضاً أن يكون اقليمس هذا قد عرفه شخصياً ولا يستبعد أن يكون المذكور في الرسالة إلى أهل فيلبي هو بالذات. في رسالة اقليمس إلى أهل قورنثية يقول إن بولس ذهب حتى آخر حدود الغرب. بالنسبة للمواطن الإيطالي حدود الغرب تعني اسبانيا. وإننا لنستنتج أيضاً من مقطوعة الموريتاري الشهيرة التي تعتبر أقدم دليل على مجموعة كتب العهد الجديد أن لوقا لم يذكر موت بطرس ولا رحلة بولس إلى اسبانيا لأنّه لم يتابعها هو بالذات. في أسبانيا تقاليد محلية تقول بسفرة بولس التبشيرية إلى أسبانيا. مثله في آسيا وفي ليثوثا وعلى الأخص في ثورتوزا حيث يرون أن بولس أقام روفو أسقفاً هناك.

في ربيع ٦٦ نجد بولس في سفرة من سفراته يزور كنائس الشرق. إنّه يزور كريت ويجتاز كلّ شواطئ آسيا الصغرى ويمر بطروادة ويبقى هناك في كاربو ثم يغادرها إلى مقدونيا. يظهر أنه كتب هنا رسالته الأولى إلى تيموثاوس وذلك خوفاً من موانع قد تقع فتمنعه من زيارة أفسس.

إن لهجة الرسائل الرعائية* تدل على أن الرسول تقدّم كثيراً في العمر. لم يعد بولس ذلك الإنسان المجنح القوي الكثيف كما كان قبلاً. لم يعد ذلك الغني بالتعابير التي تميز رسائله التي كتبت في الأسر. ولا بتلك الإنفجارات التي تخرج التركيب الإنشائي بالعديد

* رسائل بولس الرعائية هي: الرسالتان الى تيموثاوس، والرسالة الى تيطس.

من المعاني المتسارعة لتعبر عن ذاتها. من المعروف أن الإنسان غالباً ما يغير مع العمر اللهجة والحيوية واختيار الكلمات. إن بعض الجمل التي يستعملها المرء ويكرّرها، يتركها لتحل محلها عبارات أخرى[٣٦]. إن قاموس بولس اللغوي تأثّر أيضاً بالمصطلحات التي كان يستعملها أهل البلاد التي زارها وبالحياة الإجتماعية والتنظيمات الإدارية. يجب أن نعرف ايضاً أن الكاتب في القديم كان يستطيع أن يعمل ريشته فيما يكتب وكان بولس قد غيّر كاتبه[٤٠]. ويتضح ذلك في رسالته إلى تيموثاوس. إلّا أن صوته يعرف فيها بوضوح وطابعه الروحي يرى بجلاء. إن بولس في رسائله الرعائية غيره في رسائل الأسر. في رسائل الأسر، رسائل الوحدة والانطواء الذاتي في سجنه، لاهوتي صوفي ينظر إلى مخططات الله عن الخلاص نظرة فلسفية، أما في رسائله الرعائية فرجل روحي عملي.

صارت أفسس محوراً لفلسفة معرفية جديدة يظهر أنّها تطورت فيها. المقصود هو هذا الطابع التلفيقي، هذا الوحش الذي جاء من تصالب عناصر فارسية بابلية حول التقمص من نجم إلى نجم ومن تخيلات يهودية لاحقة وأساطير كهانية عن تاريخ الأنساب، كما كانت تقدم في الكتب اليهودية المتحولة في ذلك العصر. كما في كتاب اليوبيليات وعند فيلون الاسكندري كان هؤلاء الفلاسفة يبسطون صفوفاً لا تنتهي من الأساطير العجائزية. إن الإيمان بالقيامة حسب قول إيماناوس كان ملكاً لبسطاء الإيمان. والطريق نحو الكمال حسب رأي هؤلاء الهراطقة يفرض الابتعاد عن اللحم والخمرة والزواج. إن اسكندر النحاس كان يملك قدرة عظيمة على الخداع. كان بولس قد طرده رسمياً من الكنيسة. كان الخطر من الفرقة الهرطوقية، التي كان يسميها أرواحاً خداعة وتعاليم شيطانية أشد، كانت تنتشر كالسرطان (٢ تيمو ٢ : ١٧). كان من الصعب مجابهتها عن طريق البراهين العقلية لأنها كانت قد عششت في ساحة الخيال والمشاعر. ووجدت لها ملجأ خاصاً في بعض الأوساط التقية وفي صالونات السيدات. إن سيدات أفسس كن يتدغدغن ليكن ضمن هذه الحركة الجديدة ولم يتوقفن عن إرسال الهدايا والدعوات. لذلك نرى بولس يشير من طرف خفي إلى البخل. في العصور اللّاحقة كان الهوس بالسحر الذي طلعت به الديانات المعرفية والمانوية والأفلاطونية الحديثة قد ابتدأ وكانت النقطة المشتركة بين هذه الديانات هي إرادتها بحل معضلة الخطيئة بثنائية كانت تقف من الخليقة موقف العداء وتنقل مركز الشر إلى المادة.

إن بولس الرسول أدرك أن في هذا التجهم غير المحدود يختبىء خطر لتنقية الإيمان. لم يكن بإمكان المرء أن يدرك ذلك جيداً. فقد كان يتحول باستمرار كبروتايا الأسطوري[١١]. إن هذا التركيب الذي يشبه المادة المخاطية كان يمجه. أين هو مخطط الله وتجسّده وكيف يبقى روحه في قلبنا بتخيلات كهذه التخيلات العرفانية وبأقاصيصهم التي تظهر أن الله يتغير وفقاً للمجاري التي لا تحصى. هناك دواء واحد لهذا الشر. هذا الدواء هو حرث معنى الكنيسة كمجموع. هذا هو الموضوع الأساسي لهذه الرسالة. وحدة مسيحية في الإيمان (الإصحاح الأول)، وحدة مسيحية في العبادة (الإصحاح الثاني) ووحدة مسيحية في الكهنوت.

الهدف من البشارة المسيحية ليس استكناه الأحلام الهوائية واستغلال الفرص في الشريعة الموسوية بل محبة القلب الطاهر بإيمان بسيط لا يتزعزع، إيمان خالٍ من كلّ غرض. ما دامت الشريعة تعبّر عن شريعة الله الخلقية المعصومة من الخطأ فإنها شريعة صالحة. إن الإنجيل هو الشريعة بالنسبة للمسيحي، إنجيل الرأفة والنعمة وموعظة يسوع على الجبل، أي ليست الأوامر الجليدية بل المحبة هي شريعة المسيحي. الشريعة القديمة وشريعة النعمة متفقتان في الأعمال الخارجية. إذا صنع الشيء ذاته إنسانان فهذا لا يعني أنهما الشيء ذاته. إن ماضي الرسول يتراءى أمام عينيه عند مغيب الشمس. إنّه يفكّر فيه بوداعة أكثر ويرى جيداً رحمة الله ويذكر تيموثاوس بيوم سيامته. عليه ألّا يخيب الآمال والأصوات النبوية لكي يتمكّن من الحفاظ على وحدة الإيمان ونقاوته.

بدون وحدة الإيمان لا يمكن أن تكون هناك وحدة في العبادة والصلوات. الكنيسة في فكر بولس هي وحدة صلاة تحوي كلّ العالم والتي تكمل باسم كلّ الخليقة ليتمجّد اسم الله. هذه هي رسالة المسيح كرئيس كهنة التي عبّر عنها أحد تلامذته نصاً وروحاً «الذي به وفيه وله» (الرسالة إلى العبرانيين). إن بولس ينتقي فئة خاصة من البشر يحتاجون إلى الكثير من صلاة الكنيسة مثل الحكام السياسيين وعموماً كلّ صاحب سلطة. إن الحث على الصلاة من أجل الحكّام كان آنذاك جديداً. كان بإمكان الكنيسة أن تقف موقفاً عدائياً من الدولة بالعنصر اليهودي المعادي للدولة الرومانية والذي وقف بهوس ضد «السلام الروماني». السلام الذي تفرضه السلطة الرومانية. فهو أوقد النار في فلسطين فاضطر الوالي فلوريوس أن يترك قلعة أنطونيا. إن مصف الكهنة رفض أن يقدم الذبائح باسم الأمبراطور. كانت

أورشليم قد أصبحت جثة وسينقض واسبينيان رئيس النسور عليها. إن المسيحي لا يعلق تفانيه في سبيل وطنه بدوافع دينية ولا بدوافع رضى الدولة على الدين ولا تحت تأثير العواطف الشخصية ارضاء للحكّام. كان على المسيحيين في ذلك العصر كما في عصر ترتيليان فيما بعد وكما في كثير من الحالات الأخرى أن يدفعوا عنهم تهمة عدائهم للدولة. آنذاك وقف بولس ينادي ويقول الطاعة للدولة ودفع الضرائب لا تكفيان. علينا أن نصلي للقائمين على السلطة. إن منطق هذا الموقف نابع من المسؤولية الكبرى أمام الله. ومن هدف السلطة السياسية «أن نسلك حياة هادئة بكلّ برّ وتقوى» وأن تحمينا من الأعداء في الخارج والداخل[11]. بدون حياة سياسية هادئة لا يمكن للكنيسة أن تحقق هدفها في إتمام العبادة. الكنيسة والدولة يخدمان هدفاً واحداً ويساعدان على تحقيق الإرادة الإلهية في خلاصنا. يا للصورة! إن بولس يرى في كلّ الأمبراطورية الرومانية رجالاً يرفعون أيادي مقدسة ونساءً يصلين لخير الدولة. فبدلاً من أن تقطع الدولة الرومانية هذه الأيدي تفعل حسناً لو تركتها على إدارتها. إن هذا الوصف للمسيحيين وهم يصلّون واقفين لأجمل وصف يستطيع بولس أن يصفه. إنّها وقفة الضارعين التي نرى رسومها محفورة فوق جدران الدياميس، إنّها وقفة المسيح وهو يصلي مصلوباً [٥٥]، إنّها وقفة النفس الخاشعة في صلاة داخلية عميقة «بدون غضب أو تنكر» إن صورة الأم والطفل في حضنها (٢ : ١٥) تمثل شوق بولس، إنّها النبع الذي لا ينضب للبشرية.

تتجه أنظار الرسول بعد الدولة إلى الكنيسة والتركيب الإجتماعي. كان بولس قد وصف الكنيسة سابقاً بأنها وحدة المختارين السدية، الكنيسة المثالية لا وسخ فيها ولا دنس، الكنيسة غير المنظورة المختبئة في سرّ المسيح، أما الآن وكرجل روحي فيعتبرها بيتاً لله، الكنيسة ذات الخبرة والنظام، الكنيسة بسلطة تعليمها، الكنيسة المنظورة، الكنيسة التي تضمّ الخطأة، هي الوحدة الأرضية، إلّا أن الكنيستين هما وحدة بل هما رؤيا واحدة. الكنيسة هي سرّ المسيح الذي صار حقيقة وهي كشف الله الدائم، هي عمود وبنيان الحقيقة. ما دامت الكنيسة موجودة لا يمكن أن تضيع الحقيقة، إلّا أنه في أبعاد المنارة ظلمة كما تقول أحد أمثال الشرق. إنّ العالم هو استعراض حقير ومرعب لمساخر البشر تولول فيه رياح الكذب والكفر. الشيء الوحيد الذي يعطي للحياة قيمتها هو ثبات الله على كلمته التي تصل إلى ذروتها في شخص المسيح وفي الكنيسة. بدون الكنيسة لا يساوي العالم قميصاً.

بما أن تيموثاوس كان شاباً خجولاً في طبعه كان يحتاج إلى حث ارادة وعزم صديقه وأبيه الذي كان لا يزال يحتفظ بذخيرة من النشاط . كان الاثنان يختلفان طبعاً ، مع ذلك لم يعش في قلبه أحد كما عاش تيموثاوس ولا يستثني حتى تيطوس. إنّه يرشده على الطريق الصحيح ليتمكن من التأثير على غيره. يجب أن يكون قدوة في كلامه وإيمانه ومحبته وكرامته وبساطته وأن يضع مكانة الآخرين وسنهم وجنسهم نصب أعينه في سلوكه وأن يظهر بساطة في القلب تفوق الطبيعة أمام النساء. كوّن الرسول عن الأرامل الشابات اللواتي ما كنّ يردن غير الزواج ، فكرة سيئة مبنية على خبرة مدروسة . على تيموثاوس أن يحترم الكهنة وخصوصاً الذين يتعبون في التبشير. في تلك الأيّام كانت تقدم الشكاوى على الكهنة أمام الأسقف. الأفضل أن يكون الكهنة قلة وصالحين من أن يكونوا كثيرين وعاديين. عليه أن يتجنب كلّ شيء يفهم منه أنه يحب المال وأن يبتعد عن الفخفخة. عليه أن يكون قنوعاً لا لدرجة التنسك ، يجوز أن يشرب كأساً من الخمرة . لا توجد طبقات في الإنجيل ، واحدة للعلمانيين ، واحدة للكهنة ، واحدة للشعب البسيط وواحدة للطبقة العالية .

إن رسالة بولس هذه هي تعبير قوي جديد من تعابيره . الشيء الذي لم يستطع الإنسان منذ بدء التاريخ أن يهضمه هو ما سمي في أيّام ليبتز «عدالة الله» مشكلة بدء العالم والشر. كيف يمكن أن يحافظ على الإيمان بصلاح ومحبة الله في عالم تمزق لحمه الخطيئة ، الجريمة ، القتل والحروب . إن المعرفيين اعتقدوا أنهم حلوا المشكلة بقولهم إن الله يقف بدون ألم متفرجاً على المأساة البهية . إن الفصل بين خالق شرير وكلمة مخلصة وبين قوة المحبة شغلت عقولاً كبيرة كاوريجين وأوغسطين. النقاش استمر في العصر المتوسط ووصل إلى اللّاهوتيين الحديثين الذين ضحّوا بقدرة الله الكلية في سبيل محبته أو أنهم يحاولون أن يخلقوا لإله المحبة في عالم من الفزع «مكاناً ما» إلّا أن بولس يقول إن الله لا يحتاج إلى من يدافع عنه ولا إلى من يبرهن هذا البعد. الإنسان هو الذي يجلس على كرسي الإتهام والمسيح هو الذي برأه وخلّصه ، لأن الغرض من مجيئه إلى العالم هو خلاص الخطأة الذين أنا أولهم (١ : ١٥) .

٦٣. ﴿ كنيسة كريت ﴾

(الرسالة الى تيطس)

كان بولس قد انتهى من زياراته لكنائس الشرق. من كريت حيث ترك تيطوس ذهب إلى مقدونيا ماراً بقورنثية حيث كان أرستوس، وبمالطة حيث مرض ثروفيموس، ومن هناك ذهب إلى أفسس حيث نصب تيموثاوس ممثلاً له ومن أفسس ذهب إلى طروادة. في خريف ٦٦ نراه في طريقه الى نيكوبوليس مع نفر من الشباب ومن الجائز أن يكون لوقا بينهم. كانت نيكوبوليس من أهم المدن وكانت مستعمرة رومانية في ابيروس وقد بناها أوغسطوس وسمّاها بهذا الإسم تخليداً لنصره في أكتيو على أنطونيو سنة ٣١ ق. م. وأن هيرودوس الكبير زيّنها بمبانٍ عامة (فلافيوس يوسفوس تاريخ الشعب اليهودي ١٦، ٥، ٣). هدف بولس أن يقضي هناك فصل الشتاء حتى يتاح له تفقد منطقة ايليريا وليتمكن من زيارة روما سنة ٦٧ ليعزي الكنيسة هناك وكانت بحاجة ماسة إلى مثل هذه التعزية. وقد كتب، وهو في الطريق، إلى تيطوس وطلب منه أن يوافيه إلى نيكوبوليس فور ارسال من سيحل محله. من الجائز أن يكون ارتماوس قد خلف تيطوس لأن تيخيكوس أرسله فيما بعد إلى أفسس. (٢ تيموتاوس ٤ : ٤).

من المقدمة المدائحية في الرسالة إلى تيطوس يطفح شعور قوي بالمسؤولية الرسولية بالنظر لجدية الحالة. كانت كريت أحدث كنيسة وكان الإطار القوي ينقصها، كان ينقصها التكوين الإجتماعي. لم يكن هناك كهنة وكان من الصعب أن يقاوم الهراطقة بدون وعاظ أكفاء وبدون تقليد. كان هراطقة كريت كهراطقة أفسس وكان على رأس الهراطقة بعض اليهود من أنصاف المسيحيين الذين امتهنوا الدين امتهاناً ومع ذلك لم تكن المادة محوراً للشر. كلّ المخلوقات هي صالحة ونظيفة ما دام عقل الإنسان نظيفاً. إذا كانت عينك بسيطة فجسدك كلّه نيّر. وكلّ المسكونة ستصبح عالماً فريداً نيراً، ستصبح عالم الله. كلّ شيء نيّر، كلّ شيء صالح، كلّ شيء جميل يأتي من الداخل. إن تعليم المسيحية (١ : ١٥ — ١٦) هذا خلق عالماً جميلاً جديداً. بعض الأرواح الثائرة تخلق حركات تحررية بين العبيد وثورة ضد السلطة البشرية (٣، ١)، بيد أن ذلك سبب اضطرابات كبيرة بين العائلات

(١، ١١). تعليم الرواقية عن مساواة كلّ البشر وعن قيمة الفرد في ذلك العصر بدأ يظهر تأثيره. بدأ الغليان بين العبيد فلو ألقى المسيحيون زيتاً فوق النار لاندلعت نيران ثورات اجتماعية ولعثرت المسيحية على قبرها. إن بولس يرفع القضية الى دائرة أعلى حيث الفروقات الإجتماعية كلّها تحتلّ مكاناً ثانوياً. ظهرت نعمة الله المخلصة على كلّ البشر وفتحت أعيننا لنرى ما هي قيمة البشرية الحقيقية وكمالها في الجديد. يروق لبولس أن يعبّر بمتناقضات عن الأخلاق الجديدة «أبداً، الآن» هكذا يرى بولس حياته. لقد حصل تحوّل عظيم. لا يمكن أن يعمل الإنسان على أساس أن المسيح ما أتى. الأرستوقراطية الجديدة يجب أن تؤثّر على الداخل كالخميرة وأن تحول المجتمع.

إن الرسائل الرعائية بالنسبة للحالة البدائية الأولى حيث اصحاب المواهب بإرشاد الرسل كانوا كافين للكنيسة، إن الرسائل تدلّ وتشير إلى مرحلة ثانية متقدّمة فيما يتعلق بإدارة الكنيسة (برانت)[٣٦]، يمكن أن تصورها كما يأتي: لا توجد درجة أسقفية مطلقة. كانت الرتبة الأسقفية موجودة قدرة. لم يكن هناك أساقفة ثابتين. كان تيموثاوس وتيطوس ممثلين للرسول يفعلان حسب إرادته. يعينان ويحاكمان الكهنة والشمامسة وفقاً للصلاحيات المعطاة لها. تحت ممثل الرسول كان الكهنة وكانوا يسمون أساقفة ومن هنا جاءت رتبة الأسقفية. جوهر الرتبة الأسقفية هو في ثبوتها واستقلالها وهي إلى مدى الحياة وتنحصر في منطقة مخصصة. إنّ بولس لم يعطِ لكنائسه استقلالاً ذاتياً كاملاً. كان ممثلوه على اتصال دائم به يستشيرونه ويحصلون منه على صلاحيات تتعلّق بالخدمة. إنّه أعلى راع روحي في الأسقفية التي لا تحد. حتى الآن لم تكن هناك مناطق معينة للأسقف. كلّ شيء بقي تبشيراً. كلمة الأسقف أقدم من الرتبة نجدها عند هوميروس (الألياذة ٢٢ : ٢٢٥، أوديسا ٨ : ١٦٣) وعند اليونان الكلاسيكيين وتعني المراقب لثروة الهياكل والقضايا البيتية. بعد عشرات السنين تظهر رتبة الأسقف في رسائل أغناطيوس الشهيد أسقف أنطاكية بمظهرها السيدي.

١٠ . النهاية

٦٤ . سجن بولس الثاني في روما . العهد

﴿ رسالته الثانية الى تيموثاوس ﴾

ذهب بولس من نيكوبوليس إلى روما . إن مكان استشهاده يشدّه إليه شدّاً . إنّه هو ذاته لا يعرف لماذا . في هذه الأثناء جاء تيطوس وأمضى فصل الشتاء بالقرب من بولس فارسله فيما بعد إلى ايليريا (٢ تيمو ٤ : ١٠) لا نعرف متى وأين ألقي القبض على بولس . البعض يقدرون في نيكوبوليس والبعض في بيت كاربوس في طروادة حيث كان قد ترك أمتعته والبعض في أفسس لأن بولس يخاطب إخوته في آسيا الصغرى عن فقدان الثقة ، والبعض في أسبانيا ، (من المرجّح في نظري أن يكون بولس قد جاء إلى روما في ربيع ٦٧ وعمل مدة لا يستهان بها بمبادرته الخاصة من أجل بنيان الكنيسة الروحي . يؤيّد هذه النظرة تقليد روماني قديم نجده «في أعمال بطرس وبولس» المنسوبة إلى لينوس في العصر الثاني . يروي هذا التقليد أن بولس كان له بيت قريب في جزيرة التيبر في الحي الحادي عشر وأنّه كان يعظ في مستودع للقمح وأن الجنود كانوا يذهبون ليسمعوه) . في المكان الذي كان يجلس فيه بولس توجد اليوم كنيسة صغيرة باسم القديس بولس . إن مصلّى الكنيسة يحتفظ حتى اليوم بجاذبية التقليد القديم والحفريات الأخيرة الجارية عام ١٩٣٦ دلّت على آثار مستودع قديم . في هذا الحي كان يقطن صغار التجار وصانعو الفخّار والبحّارة وأصحاب البساتين . من الجائز أن تكون الشرطة قد ألقت عليه القبض كرئيس لهرطقة مشبوهة (لوحة ٢٦) .

في نقطة الفوروم رومانوم حيث تقوم اللوحة الذهبية للمسافات بالأميال بين نقطة ونقطة، وكانت هذه النقطة نهاية لكلّ الطرقات الرومانية، يقوم سجن مامارتينا بالقرب من سفوح الكابيتول. كان في الأول نبع، اما الآن فالقسم الأكبر منه مهدّم. هنا انتهى وفقاً لتقليد قديم طريق بولس. كان بولس في سجنه الثاني في حالة أكثر سوءاً من الأولى. كان مقيداً بالسلاسل كما يقيّد المجرمون. إن الكلاسيكية القديمة بل المسيحية القديمة مليئة بالتذمرات من جرّاء معاملة المساجين معاملة سيئة ومن جرّاء السجون الرومانية بسبب فقدان النور والنظافة. حتى أن الأباطرة كانوا يعتبرون السجن عملية استشهاد. أما التذمر من موت المساجين بإعداد كبيرة فكان مستمراً (أنظر Roller [٤٠]). كلّ شيء كان محرماً على الشيخ بولس المنهوك القوى. يتذمر لأنّه كان وحيداً. إن أصدقاءه في روما كانوا يحصلون بصعوبة على أذن ليزورره. كان أفدلوس ويوديس ولينوس وكلافديا يحيّونه بتحفظ. وفقاً لتقليد قديم كان تحفّظهم ناتجاً عن معرفتهم لمكان بطرس وكانوا يخشون أن يثيروا انتباه السلطة الرومانية. من صفات هذا التقليد الجميل غير المعقول أنه يظهر الرسولين في سجن واحد. المعنى المقصود من هذا التقليد هو أن بطرس لم يرد أن يهرب ما دام بولس يتعذب. يذكر بولس بمرارة أن ديموس تركه خوفاً من أن يلقي عليه القبض. وكذلك الإخوة الذين من آسيا الصغرى. فتركوه وحيداً ولم يأتوا لرؤيته كما رجاهم. إنّه يذكر أيضاً فيفلو وأرموجانيس. لم يبق إلّا لوقا مخلصاً له. بقي إلى جانبه يعزيه. يا للفرحة الكبرى! في أحد الأيام زاره أونيسيفوروس. إنّه مواطن من أفسس. طاف كلّ السجون مفتشاً عنه حتى وجده. وكان هذا قد خدمه كثيراً في أفسس. أي حديث ودّي دار بين الثلاثة في السجن؟ إن لوقا احتفظ به في مذكراته وذاكرته.

إن قضية بولس كانت تابعة لسلطة محكمة الامبراطور. كان يمثّل نيرون الذي كان يطوف في بلاد اليونان كمهرج نيرون الثاني، ايليو، الذي كان ممثلاً له. المحاكمة الأولى صارت في الفوروم في القاعة الملوكية الكبرى، أي في قاعة المحكمة التي اتخذت الهياكل المسيحية شكلها واسمها. كان القضاة يجلسون فوق القوس وأمام المنصّة كان يقف المتهمون والشهود والمحامون. خلف وإلى جوانب المنصة كانت تقف جماهير الشعب التي اعتادت أن تحضر مثل هذه المحاكمات المشهورة. هنا أيضاً كان يقف المختزلون المسيحيون الذين كانوا يدونون وقائع محاكمة الشهداء المسيحيين. لا شكّ أنّهم اتهموا بولس بأنّه كان على علم بحريق روما. الوصف الذي يعطيه للمحاكمة وصف موجز لكنّه واقعي. لم يكن من يدافع

عنه . لم يكن هناك شاهد دفاع . لم يكن هناك من يجسر أن يفعل ذلك . يظهر أنّه دافع عن نفسه دفاعاً رائعاً . تأجّلت المحاكمة . حتى هذه المرة خلص من أنياب الأسود . بين المحاكمة الأولى والمحاكمة الثانية كان لديه من الوقت ما يكفي ليصلّي ويفكّر . كان تفكيره يدور حول شيئين : حول تيموثاوس وحول نقاوة الكنيسة . انّه يجمع قواه ليكتب رسالته الأخيرة . إنّها بعض الكلمات الودية لتلميذه المحبوب جداً . إنّه يجعله منفذاً لوصيته . إنّه يحب أن يراه مرة ثانية قبل أن يموت . يخشى أن تكون أمنيته هذه قد جاءت متأخرة . يرجو أن يصطحب معه مرقس . إنّه يعانق في وجهه الفتي صديقه برنابا .

في هذا القبو الرطب يبرد الشيخ بولس كثيراً لذلك يرجو تيموثاوس أن يجلب معه معطفه القديم الممزّق إذا أتيح له أن يزوره والأفلونية التي كان قد تركها في طروادة . بالرغم من كلّ هذه الانزعاجات بقي فكر بولس لا يجاري . إن عدم وجود الكتاب المقدّس معه يضايقه جداً وكذلك رقوقه وحواشيه . يريد أن يرتبها قبل أن يموت ومن الجائز أن يسلمها إلى لوقا ليشرف على تنقيحها . إن نظرته كانت مسمّرة عند هدفه السماوي إن شعوره بعمق مسؤوليته كرسول لم يفارقه لحظة حتى في أعماق سجنه .

إن الذكريات في الرسائل تعيد فرحه إلى أيّام الطفولة الأولى . ها هي صلاة شكرية تنفلت عفوياً من بين شفتيه . يذكر أهله بتأثر وأجداده الذين قادوه إلى معرفة الله . بعد عمل مرهق كعمل الرسول كل إنسان آخر غير بولس لا يرى إلّا عناية الله في حياته ولا يرى غيرها . في هذه الذكريات المؤلمة يقفز فجأة إلى مخيلة الرسول تلميذه تيموثاوس ، يراه فتياً نقياً ، يراه كأنّه يراه وهو في ليسترا مجرّحاً ومدفوناً بين الحجارة وغارقاً في دمه (٣ ، ١١) . يذكر بتأثر أم تيموثاوس وجدّته ودفء ذلك البيت المسيحي . ماذا تشكّل عائلة تقية وأي كنز هو هذا الصف من الأجداد الشرفاء ! هناك عائلات كانت عبر الأجيال إحساناً مثمراً لشعوبهم . إن مؤسس مثل هذه العائلات لا يقلّ كرامة وخدمة وبركة عن مؤسس جوقة رهبانية . كان تيموثاوس من ذوي الطباع الرقيقة الناعمة الميّالة إلى الكآبة . وهذا ما قرّبه جداً إلى الرسول وجعله هدفاً لاهتمامه الأبوي . إن نعمة الله التي أعطيت له ، عند السيامة عندما كانت أيدي الرسول المجرحة الموضوعة فوق رأسه ، يمكنها أن تقوّي وتثبّت ما هو رقيق بالطبع ، إنّها روح قدرة وقوّة . إن دعوة الله المقدّسة غيّرته هو بالذات . والآن يرتجف ميزان مرصد هزّات حياته العاصفة في سجنه ولكنّه يعود ويعلو حالاً إلى الأعالي الفائقة

الطبيعة ويشير إلى الرؤية الكبرى حيث تجد النفس البشرية أمانها وهدوءها وسط أيّة أحزان. إن السعادة الأبوية لا ترتكز على أيدينا الواهية ولا تقاس بخدماتنا الضعيفة. يبتدىء تاريخها من اليوم الذي اختارتنا فيه محبة الله. أنا اخترتكم قبل الأزل ولستم أنتم الذين اخترتموني. اختارنا قبل الأزل واختياره كان في قلبه إلى أن حملنا وقتاً ما إلى الحياة ونور الإيمان. إن هذا الاختيار جعلني رسولاً وجعلك تلميذاً. لقد سلّمني الله، في أحد الأيّام، الرّاية. أصبحت الآن شيخاً والرّاية أخذت تفلت من بين يدي. خذ أنت راية المسيح بين يديك وأمسك بها جيداً إلى الوقت الذي تسلمها فيه إلى غيرك من الذين يستحقون أن يأتمنهم المرء. كن جندياً شجاعاً للمسيح يطبق شرائعه وعاملاً صادقاً في الكرم الذي يغذّيك. إن الأساس المتين للإيمان في وجه تعاليم العرفانيين الهراطقة هو عقيدة طبيعتي المسيح، إنسان تام من سلالة داود وإله تام، ولذلك قام من بين الأموات. إن بولس مستعد لحمل كلّ عذاب في سبيل هذه العقيدة يستعد لأن يموت وأن يشترك في كل آلام المسيح. اللامنظور بالنسبة لبولس هو أكثر واقعاً من المنظور. يكفي ألّا ينكر المسيح، ألّا يجحده، أن يبقى متفانياً من أجله. إن التفاني هو من أهم ميزات الرسول. الكنيسة أيضاً تظهر أمام عينيه كبناء استقبالي شاهق لله. في واجهة هذا البناء يلمع العنوان: عرف الرب كائناته. الرب يعرف خاصته. الكنيسة هي بيت لا يمكن إلّا وأن يكون فيه أولاده المحبذون. الكنيسة التي لا تضطهد، الكنيسة التي لا تتمرمر، الكنيسة التي لا يتآمر عليها العالم، الكنيسة التي تطلب تعزية من البشر، لا يمكن أن تكون عروساً للمسيح. يجب أن يكون فيها كنز الكتاب المقدس والشعور برسالتها. وهذا يكفي لتعزيتها.

نحن في خريف ٦٧. المحاكمة الثانية تقترب. إنّه يعرف أنّها ستنتهي بدخوله إلى الملكوت السماوي لا يرجو أي شيء آخر. إنّي أسرع لقد اقترب وقت الخلاص. إنّه يكتب بيده العنوان الذي سيكتب فوق لوحة ضريحه. إن المكافح الرياضي يعرض الصورة في ملعب الله. يعود ويتذكّر لحظة دمشق. آنذاك كان قد أقسم يمين العلم، أقسم بأنّه سيكون مخلصاً حتى الموت. لقد حافظ عليه منذ اللحظة التي حنى فيها رأسه تحت يدي حنانيا الذي باركه وحتّى اللحظة التي حناه فيها ثانية عند سحب الجلاد السيف وقطعه.

بادر أن تأتي إلي سريعاً. أتمكن تيموثاوس أن يأتي ويجد معلمه حياً؟ إذا كانت الرسالة الى العبرانيين قد كتبت في روما فمن الجائز أن يكون تيموثاوس قد جاء «تعرفون الأخ

تيموثاوس» (١٣ ، ٢٣) ، هذا يعني أن تيموثاوس احتقر الأهوال وازدرى الأخطار وأنّه بقي إلى جانب معلمه يقاسمه قيوده. يا للوحة الرّائعة التي تقف أمام أعيننا ! والد وابن في السجن يناول الواحد الآخر الشركة المقدسة أمام أعين المساجين الآخرين. أأشار لوقا إلى ذلك في مذكراته؟

٦٥. «الرحيل إلى الرب»

(٢ كورنثس ٥ : ٩)

إنّنا نستنتج من رسالة اقليمس أسقف روما التي كتبت بعد ثلاثين سنة من موت بولس أنّه لم يعدم بدون إجراء الشكليات المطلوبة كعدو للشعب كبطرس بل كمواطن روماني حكم عليه أن يموت بعد محاكمة قانونية بالسيف ولا مهانة في ذلك. إن المقطوعة تدلّ على أن الكاتب الذي كتب قد تابع الأحداث عن كثب وأنّها اختصار جدير بالذكر لحياة بولس وموجز لها.

تحمّل السلاسل سبع مرّات وهرب ورجم وصار مبشّراً في الشرق والغرب، ونال جمال البطولة في الإيمان، وعلّم العدل لكلّ العالم ووصل حتّى آخر حدود الغرب. واستشهد في أيّام الرؤساء، وهكذا انعتق من العالم وسلك إلى المكان المقدّس وصار قدوة للصبر.

المحاكمة الثانية انتهت بالحكم بالموت، إن أفضل رجل وأحط إنسان في ذلك العصر يقفان الواحد مقابل الآخر. العادل كان مقيداً والمجرم كان يجلس فوق العرش.

لم يكن الموت مجهولاً لدى بولس ولا الموت كان يجهله. التقى به مراراً تحت أشكال متعددة وكتب مرّة إلى أهل قورنثية. منذئذ وهو يحدّق به. لقد التقت عينه بعينه، واخترقت أبصاره أعماقه. وصل إلى عظامه المجرّدة وتوغّل حتّى قلبه المتحجّر لم يكن بولس يخشى الموت. منذ زمان تعلّم أن يموت. الآن عليه أن يصارعه الصراع الأخير. إنّه يلتقي به في مصارعة أخيرة مصيرية فلا يستطيع أن يفلت منه. يجب أن لا نؤمن أن بولس

كان ينظر الى الموت نظرة غير جدية. الناس القدماء كانوا يخشون الموت. لقد ساعدت سقراط جدليته على استقبال الموت. وطلب ايبكتيتوس أن يتخاطب معه وكان يسخر منه كأفزوعة للأولاد. ليس هذا بالشيء المقنع إنّه يشبه صفير الولد الخائف في الغابة المظلمة. كان بولس ينظر إلى الموت نظرة جدية. الموت لهذا الإنسان الواقعي هو العدو الأخير. إنّه لا يتراجع أمامه. إنّه يجرّده من شوكته واضعاً محور الحياة في المسيح والآن قد ذبلت، ذبلت آخر ثمرة وسط ليلة سجنه المظلمة وألقت صورة المصلوب ظلها النيّر على مرآة نفسه فإن تضحية حياته وصلت إلى ذروتها. كانت أكثر اللحظات اشراقاً في حياته.

في أحد الأصباح اجتاز الرسول الشيخ بصحبة فرقة من حملة العصي باب تراجامينا بالقرب من هرم كاستيوس، دلفوا من طريق أوستيانس إلى طريق اوستيا. مكان كنيسة القديس بولس اليوم إلى الشمال مرج قديم. أحد التقاليد الرومانية تصوّر بترونيلا ترفع غطاءها وتعطيه لبولس ليعصب عينيه [٥٦]. نظرة أخيرة يلقيها بولس فيحتضن بنظرته كلّ المشهد. يرى وادي التيبر وشمالاً طريق آبيا حيث سلكها قبل ست سنوات عندما وصل إلى روما لأول مرة. بعد أن اجتازوا طريق لاورنتيا وصلوا بعد نصف ساعة إلى الوادي، إلى العمق الرطب إلى سلفيا آلي حيث الآن تقوم رهبنة الترابيست، الذين لا يتكلّمون. لو لم تكن الذكرى حيّة لما قيل إن بولس مات في مكان مقفر كهذا المكان[٣١]. إن القطع خارج المدينة يتفق مع العادات الرومانية. التقليد يعطينا بطريقة ناعمة صورة الرسول مغلول اليدين ووجهته الشرق، يصلي بصوت عال صلاته للرب الأخيرة بتلك اللغة المقدسة التي استعملها من السماء الناهض من القبر عندما دعا التائه إلى خدمته. في ذلك المكان سقط رأسه على الأرض. لقد صمت فمه الذي لم يقل كلمة إلّا وكان عطر المسيح فيه، ودّع الرسولان الواحد الآخر وهما منطلقان إلى الاستشهاد معاً. في هذا تعبير رمزي عن القضاء على الشاقاق الذي كان بين المسيحيين المهودين وبين المسيحيين الذين كانوا يقبلون من الوثنيين وتوطيد الوحدة بإرشادات لينوس.

دفنت بعض الأيادي جسد بولس على بعد ميلين من مكان القطع في مزرعة لوكينس الرومانية حيث تقوم اليوم كنيسة القديس بولس الملوكية في محيط وثني خالص. في كلّ المنطقة ما عثر على مدافن مسيحية بل وثنية. إن هذا شيء مميز لرسول الأمم. التنقيبات الجديدة تثبت التقليد القديم. ترى من دفع المهندس ليذهب ويبني الهيكل في

مكان مقفر بعيداً عن الأحياء المسيحية تغمره دائماً مياه التيبر الفائضة[٣١]»؟ دفنوا بولس في مغارة صغيرة وبقي هناك إلى أيام اضطهادات أورسيان في القرن الثالث فحاولوا آنذاك أن ينهبوا كلّ الكنوز المسيحية إلّا أن المسيحيين تداركوا ذلك الخطر فنقلوا جسدي الرسولين إلى دياميس القديس سيبستيان في جادة آبيا (لوحة ٢٨). فرحت الكنيسة بتخليص هذين الكنزين الثمينين لذلك حافظت على تعييد هذه الذكرى في ٢٩ حزيران كأنّها عيد للرسولين. البابا سيلبسترس نقل رفاة الرسولين إلى مكانها الأول إلى الهيكلين اللذين بناهما قسطنطين الكبير. بعد خمسين سنة بنى الأباطرة: والنتيان الثاني واركاديوس وأونوريوس كنيسة القديس بولس الفخمة بدلاً من الهيكل الصغير الذي بناه قسطنطين الكبير وأكملت سنة ٣٩٥ وكانت من حيث الكبر والسعة أكبر بناء في العالم القديم والمسيحية. إنّ الحريق المدمر سنة ١٨٢٣ أتى على هذه الكنيسة الملوكية الوحيدة التي تعود إلى القرن الرّابع ولم يترك إلّا قبر الرسول وموزاييك ابنة الأمبراطور غالا بلاسيدا فوق القوس الظفري. البناء المعاصر الذي تمّ من تبرعات المسيحيين قاطبة لا يعطي للبناء جدية البساطة والتواضع التي كانت للهيكل الأول بالرغم من أهميته. العنوان الذي فوق المائدة المقدسة يعطي بكلماته سرّ وحدة رسول الأمم.

﴿فالحياة عندي هي المسيح، والموت ربح﴾

(فيلبي ١ : ٢١)

النفس الرقيق للمحبة الأولى كان موجوداً في قلب الرسول الذي مات كما يوجد العصير الطلي في الثمرة الناضجة. إن الحظ القاسي والخبرة المحزنة لم يتركا مرارة في هذه الروح العظيمة. لقد تنكّرت له أمته وحتى الآن تعتبره لغزاً لا يحل. إنّ قولاً يعود إلى المنتصف الأول من القرن الثاني يشبه حكماً رسمياً للرسول. من يدنّس الهيكل ويحتقر أيّام الأعياد ويحلّ شريعة أبينا ابراهيم ويعرّي وجهه أمام الشريعة لا يمكنه أن يرث الحياة المستقبلة حتى لو كان يعرف الناموس. (أقوال الآباء ٣، ١٢)[٦٦].

«من يزرع أرزاً أو سندياناً عليه أن يتعزّى أن ظلالها سترتمي فوق قبره. إنّه ذاته لن يرى إلّا شجيرات نحيلة». هذا ما تقوله عبارة كتبت عن بولس[٢٧]. إن أخصامه لم يتركوا وراءهم إلّا مؤلفات محشوة بالافتراءات ضد الرسول وقد اختفت من التاريخ كما اختفوا هم. بيد أنه من أغنى تفكيره وعمق رسائله شبت الغابة بارز وسنديان اللّاهوت المسيحي وألقت بجذورها على حوادث الخلاص وهازًّا ذراه في أعالي السموات. فوق قبر الرسول يرتفع هيكل يستحمّ بالنور.

الخاتمة

وكمشهد بطولي هكذا تقف أمامنا هذه الحياة الفريدة الملتهبة بالهوس ، الفياضة ببروق المعرفة النيرة والوضاءة بالرؤى. المحور يكتب بوضوح. بداءته ونهايته تضيعان وسط عالم يخطو نحو الدمار. بيد أن اليوم الجديد ، يوم المسيح سيخلق نظاماً عالمياً جديداً كما يقول الشاعر الروماني «سينبلج صبحه عند المنتهى». والإنسان الذي جلس وراء آلته في أفسس وقورنثية وفي سجنه الخناق في روما وكتب رسائله الملهمة يمكنه أن يقول :

«في مكوك الزمن أحيك لباس الله الحي»

إذا كان هناك من يستطيع أن يفاخر بأنّه حاك سجّادة الحضارة الغربية الغنية ، مستعملاً النول الإلهي فإن هذا الرجل هو الطرسوسي حائك الخيام. لا شكّ في أن بولس هو من أعظم الشخصيات اطلاقاً ومن أكبر مشكلي المسيحية الغربية.

ما هي مقوّمات عظمة بولس الشخصية؟ كلّ شيء كبير كان بسيطاً ويبسط كلّ نواحي الحياة المتعددة. العالم اليهودي اليوناني حيث عاش بولس كان قد ضاع ونسي منذ أمد. المواضيع والدوافع التي كانت تحرّك طاقات الحياة قد تُخطيت ، إلّا أن الروح الذي كان يستعمله ليحلّ هذه المواضيع بقي وصار روح الحضارة المسيحية الأوربية. كلّ شيء أرضي وعرضي هو كمطرقة القدر التي تطرق الحجارة فتخلق الشرار الإلهي. كلّ الأمور الزائلة تتداعى كالثوب المهلهل ، بيد أن الذي لا زمان له يتجدّد في كلّ يوم ويقاوم التغيرات المستمرة. لا عظمة للإنسان بحدّ ذاته. الشيء الذي يجعله عظيماً هو عظمة

الدعوة وتفانيه الذي لا يكلّ من أجل رسالة تفوق البشر. الذوبان المطلق للأنا الفردية في المسيح هو المحور الروحي لوجوده وفيه سرّ عظمة بولس.

كلّ شيء عظيم يؤثّر في الحقيقة على المستقبل البعيد. في هذه النقطة يقوم معنى بولس بالنسبة للتاريخ. عندما وضع الاسكندر الكبير مخطوط الألياذة في صندوق داريوس المهزوم، كما يروي يوركهارت بطريقة أخّاذة، قام بدون أن يدري بفعل جدّ رمزي كما يفعل البشر في اللحظة التي يتمون فيها رسالة عليا. ألبس الروح اليوناني غنى الشرق. وكانت الساعة التي ولدت فيها الهلينية. إن الهلينية هي الجسر الذهبي الذي اجتازه بولس وفرسانه وهم يحملون لآلىء الشرق إلى الغرب. وفي هذه الأيام يجب أن نشعر بعمق بأن الإنسان الذي شكّل لأول مرة العقلية الإجتماعية الجديدة من روح معلمه الإلهي ومن أفضل ما تركه البشر في العالم القديم هو الطرسوسي ولا أحد سواه. إنّ هذا الخلق المسيحي هو العنصر الرّابط بين ما كان وما هو الآن. ألفا سنة على وجه التقريب من التاريخ وأجنحته ترف في هذه الأجواء.

إن بولس الذي استخرج النتائج الأخيرة من أفكار معلمه الإلهي ليس إلّا اللّاغي للديانة اليهودية(٧٤). عندما سقطت القشور عن عيني الرسول في دمشق آنذاك ظهر له المسيح كشيء جديد كلياً. إن الدفعة الحاسمة لم يأخذها من اللحم ولا من الدم بل من الله. كلّ من يتجاهل هذا الغير الزماني، هذا الفائق الوطن، الفائق الطبيعة الذي يملكه بولس فهو معضلة لا تحلّ. هذه المعضلة لا تحلّ إذا قلنا إنّ بولس اليهودي أو بولس اليوناني بل إذا قلنا كليهما تحت بولس المسيحي. لم يكن بولس شي. إذا كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة قد مضى القديم وها إن كل شيء قد تجدّد (١ قور ٥ : ١٧). إنّه كمسيحي يمكنه أن يكون الكلّ للجميع. هذه الروح هي روح بولس إنّه إعلان للبشر المعاصرين. إنّه شعار الموعظة المسيحية المعاصرة

ملحق متعلّق بعلم الأديان

ملاحظة تمهيدية :

عندما نبحث في المسيحية القديمة يجب علينا كمؤمنين بالاعلان الالهي أن نميّز بين تيّارين في التقليد الديني حتى نظهر الوضع الديني — التاريخي :

١ — بعض التقاليد المتناهية في القدم عن الجنس البشري التي نجدها ايضاً ، وقد تبدّلت قليلاً أو كثيراً ، عند كلّ الشعوب وديانات البشر — عند المصريين والفرس واليونان والرومان والزردشتيين[١] والارفيكيين[٢] والبيثاغوريين[٣] وأفلاطون[٤] والديانات الصوفية .

---

١ — **الزرادشتيون** : هم أتباع مذهب ديني اسمه زرادشت حوالي القرن ٧ و٦ ق. م. كتابهم المقدس هو الافيستيا (أي تفسير القانون) الذي يهدف الى اصلاح دين فارس الطبيعي . في هذا المذهب تنقسم الالهة الى نوعين : آلهة خيرة وآلهة شريرة ، لكن آلهة الخير تنتصر في النهاية على آلهة الشر. ولذلك هي ديانة شبه ثنائية .

٢ — **الأرفيكية** أ والاورفيوسية هي ديانة اغريقية قديمة ، أكدت أن الروح جوهر إلهي وأنها لا تبلغ مراقيَ حياتها الحقيقية إلا بعد وفاة الجسد ، وذهبت الى القول بأن الارواح تتناسخ متخذةً أشكالاً أعلى أو أدنى تبعاً لأعمال صاحبها في الدنيا. والأورفيوسية تزدري الجسد ، وتمجِّد الحياة الآخرة ، وتحثّ على النّقاء الأخلاقي مركّزة على المسؤولية الفردية عن الإثم . وإذْ كانت كثرة الإغريق الكاثرة تؤثر الحياة الدنيا ومتارفها فإن الأورفيوسية لم تَنْعَمْ عندهم بأية شعبية ألبتة . وقد زعموا أن أورفيوس هو مؤسس هذه الديانة . وهو في الميثولوجيا اليونانية ، شاعر وموسيقيّ مُلْهَم . زعموا أنه كان قادراً على أن يسحر الأشجار والوحوش الضارية بأنغام قيثارته ، وأنه لحقَ بزوجته افريديس الى «مثوى الموتى» ، بعد أن لدغتها أفعى فماتت ، وأخذ يغنّي ويعزف على القيثارة سائلاً الآلهة أن تعيدها اليه . فما كان من الآلهة ، وقد استخفّها الطرب ، إلا أن أجازت له إخراجها من «مثوى الموتى» شريطةَ أن لا ينظر الى الوراء الا بعد بلوغه العالم العلوي . ولكنه لم يكد يتنسّم هو وزوجته الهواء الطّلق حتى التفت لينظر الى وجهها فانتُزعت منه وخسرها الى الأبد .

٣ — **الفيثاغورية** ؛ المدرسة الفيثاغورية : مدرسة فلسفية وأخوية دينية يُعتقد أن فيثاغورس ، الفيلسوف اليوناني ، أنشأها في جنوب إيطاليا ، وفرض على المنتسبين اليها حياةً تقشفية صارمة . استمرت الفيثاغورية بعد فيثاغورس ، نحواً من ثمانمئة عام ، وكان لها تأثير كثير في تطور الفكر الإنساني . قالت بأن الحقيقة في أعمق أعماقها رياضية mathematical . وبأن العدد أساس كل شيء ، وبأن لكل عدد مضمونه الخاصّ ، فالعدد ١ مثلاً هو الذكاء ، والعدد ٢ هو الرأي ، والعدد ٤ هو العدالة ، والعدد ٥ هو الزواج . وقد اعتقد الفيثاغوريون أيضاً بأن النفس يمكن أن تسمو فتتّحد بالذات الإلهية .

٤ — **أفلاطون** (٤٢٨؟ — ٣٤٧ ق. م.) : فيلسوف يوناني . يُعَدّ هوَ وسقراط (وكان أفلاطون من أتباعه)

٢ — الاعلان الفائق الطبيعة عند الشعب الاسرائيلي — اليهودي الذي عبر اتصاله الطويل الأمد بالبابليين والفرس والحضارة اليونانية أخذ المحتوى القيّم من التقليد، لكن بشكل نقي وباتجاه توحيدي. فالكلمة الازلي، بحسب القديس بولس، هو أيضاً الكلمة الخالق الذي لا يحتقر شيئاً مما خلقه ووضعه في صدر الانسان كالشعور السبقي والأبابة (الوطّان) والادراك وسمو التصوّف. تنتمي الى هذه التقاليد الأساطير وتذكارات التاريخ الأول والإثم الأولي تجاه المخلص، كما تنتمي أيضاً الثنائية بين مملكة النور ومملكة الظلمة، وملائكة الفرس وشياطينهم، والتعاليم الأورفيكية — الأفلاطونية[1] عن قربى الانسان من الله وعن الخلود والقيامة. وتنتمي الى هذه الدائرة أيضاً الحاجة الى الخلاص، والمصالحة مع الله والى الاتحاد بالله والمشاركة في حياته والى اله يتألّم ويموت ويشارك في قَدَر الناس... يصادف المرء بعض عبارات رسائل القديس بولس في الديانات الصوفية الموجودة في ذلك العصر، لكن المتخصّص يقدر أن يميّز العمق التاريخي — الديني. غير أنه بمرور الوقت وبجهل هذا الوضع للأمور تشكّل بعض الضباب الذي لا يسمح لك أن ترى. فاهتمّ الكاتب بهذا العمق ليلقي عليه الضوء من جديد بنور البحث الحديث. في هذا الميدان من البحث نجح بعض العلماء الكاثوليك بتحقيق أمور مهمّة جداً، كالفرنسيين Lagrange, Festugière, Lebreton, Grandmaison ومن بين العلماء الألمان أذكر بشكل خاص Karl Prümm وقبل أن يطبع هذا الكتاب بقليل استطعت أن أرى العمل الأخير لـ Prümm وهو تحت عنوان «المسيحية كاختبار

وأرسطو واضعي الأسس الفلسفية للثقافة الغربية. معظم مؤلفاته محاورات dialogues عالج فيها موضوعات مختلفة كالرياضيات، والسياسة، والتربية، والحب، والصداقة، والفضيلة. وأشهر محاورات أفلاطون كتاب: «الجمهورية» The Republic وقد رسم فيه صورة للمدينة الفاضلة كما تخيّلها، مُعْلناً أن لا صلاحَ للجنس البشري إلا إذا أصبح الفلاسفة حكاماً أو أصبح الحكام فلاسفة.

١ — **الأفلاطونية**: فلسفة أفلاطون وبخاصة جانبُ المُثُل فيها. وقوامُها أن للمعاني أو القيَم الكليّة وجوداً في عالم لا صلة له بالعالم المدرَك بالحواسّ، وأن وجودها ذاك مستقلّ عن وجود الجزئيات التي تتمثّل فيها هذه المعاني. ومن هنا كان لكل ضرب من الجزئيات فكرةٌ أو مثالٌ جاءت المفردات الجزئية على غراره. وكلّما اقترب الفرد من المثال حقّق ماهية الضَرب الذي يَنْتسب اليه.

للجدّة» Christentum als Neuheitserlebnis فلاحظت بكلّ ارتياح أننا نوافقه على ارائه في نقاط عديدة.

والآن سترد بعض الملاحظات والملاحق المتعلقة بتاريخ الأديان وعلمها وهي موجّهة الى القراء المثقّفين، وقد أشرنا اليها في النص بحرف II وبعدد مناظر لرقم الحاشية موضوع ضمن معترضتين.

١

الفداء والفادي :

ان Deissmann في كتابه (نور من الشرق Licht vom Osten الصفحة ٢٧١ وما يليها) جمع عدداً كبيراً من المنقوشات القديمة، وعلى الأخص منقوشات دلفي التي تنفع كخلفية حضارية وتاريخية لتفسير اللفظة المسيحية «الفداء». واللفظتان «العتق» و«الثمن» اللتان نشأتا عن الرموز التي كانوا يجرونها عند تحرير أحد العبيد، نصادفهما عند بولس سبع مرات. وبما أن العالم الوثني تخلّى عن الايمان الأفلاطوني بعناية الله فإن شوقه الى الخلاص، وعلى الأخص في العصر الهليني، يتعلّق بالدرجة الأولى بالانعتاق من عبودية المصير الغاشم ومما هو مقدّر ومن الحظ الأعمى وحاجة الطبيعة التي لا مفرّ منها ومن الأبالسة والنجوم. من عرف ماذا يعني التضيق الذي كان يحصل بسبب الايمان بالخرافات والخوف من الجن في

العصور القديمة وفي الأديان المعاصرة في الشرق الأقصى (البوذية)[1] وشعر بالاستعباد المعاصر في الآلة الصمّاء قدر أن يفهم الشعور المملوء فرحاً الذي أحسّ به المسيحيون الأوائل في انعتاقهم. هذا العمق الديني — التاريخي يظهر بوضوح في كلّ مكان حيث يمدح بولس الخلاص كانعتاق من اعتساف الشريعة» ، وأركان العالم» «ومن ولاة هذا العالم عالم الظلمة» (أفسس ٦ : ١٢ ، ٢ : ٢ ، كولوسي ٢ : ١٤ ، ١ كور ١٥ : ٢٤) أنظر Festugière في كتابه «المثل الديني الأعلى L'idéal religieux ص ١٠٤ وما يليها ، وانظر K. Prümm في كتابه Christentum ص ١٢٥ وما يليها).

٢

بولس والفلسفة اليونانية الشعبية:

ان Bonhöffer في كتابه (أبيكتت والعهد الجديد Epiktet und das Neue Testament صفحة ١٧٩) وصل بعد بحث واسع الى الاستنتاج بأن Bultmann لم يبرهن اعتماد بولس داخلياً على الفلسفة اليونانية الشعبية. هذا

---

١ — **البوذية** : ديانة واسعة الانتشار في آسيا الشرقية وآسيا الوسطى. انبثقت من حياة وتعاليم غوتاما بوذا الذي نبذ في القرن السادس قبل الميلاد بعض مظاهر ديانته الهندوسية ، وبخاصة نظام الطبقات الاجتماعية والتنسُّك الصارم، وأسس رهبنة تبشيرية نشرت تعاليمَه. تُعتبر أُولى خُطبه في مريديه، وهي الخطبة التي ألقاها في بينارس Benares الأساس الذي قامت عليه البوذية. وإنما بشّر بوذا ، في هذه الخطبة ، بما يُعرف بـ «الحقائق النبيلة الأربع» Four Noble Truths وهي «أ» أن الألم مُلازم للإنسان على نحو لا انفصام له. «ب» وأن مصدر الألم الرغبة. «ج» وأن القضاء على الألم لا يتمّ إلا بكبح الرغبة. «د» وأن في الإمكان التخلّص من الرغبة باتّباع ما دعاه «الطريق الثُّمانيّ النبيل» حتى إذا قهر المرء الرغبة انتقل الى حالة الفناء في الذات الإلهية أو الاتحاد بها وبذلك يتحرر من الألم وينعم بالطمأنينة والسعادة القصوى. وتعرف هذه الحالة بـ «النرفانا».

الأستنتاج وصل اليه Grandmaison ايضاً في كتابه (يسوع المسيح Jesus-Christ ٢٤) «في نجاح محاولته لإظهار وجود مصطلحات رواقية[٢] سمح الى حدّ ما للمرء أن يشك ويرتاب».

٣

الشريعة (التوراة)، اليهودية، وموقف يسوع وبولس منها:

ان الشريعة التي دُوّنت مع مرور الزمن، والتي ترجع في أصلها الى موسى والتي تطوّرت أكثر في عهد الأنبياء اكتسبت أهمية في تاريخ الكون عندما أعلن عزراً[٣] رسمياً سنة ٥٤٤ وفق وصية ملك الفرس أنها الزامية وضرورية لليهودية. ان ضعفهم في ممارسة السياسة الخارجية حوّل قوة الشعب الاندفاعية الى الداخل. انطلاقاً من هنا أصبح للحياة القومية قطبان: أولاً الشريعة التي نظّمت كلّ الحالات التي يُحْتَمل حدوثها في الحياة الانسانية والتي ارتبطت بالتقليد، ثانياً الرجاء المشيحاني بأن «ملكوت الله» سيتكوّن كوضع نهائي للمستقبل، حين يسيطر اليهود على عبدة

٢ــ **الرواقية**: مذهب فلسفي أنشأه الفيلسوف اليوناني زينون السّيشيومي حوالي العام ٣٠٠ قبل الميلاد. وهو يقول بأن العالم كلّ عضويّ تتخلّله قوة الله الفاعلة، وبأنّ رأس الحكمة معرفة هذا الكلّ، مع التأكيد على أن الإنسان لا يستطيع أن يلتمس هذه المعرفة الا إذا كبح جماح عواطفه وتحرّر من الانفعال. والرواقيّون يَدْعون الى التناغم مع الطبيعة، والصّبر على المشاقّ، والأخذ بأهداب الفضيلة لأن الفضيلة هي إرادة الله. ومن أشهر الرّواقيين في عهد الرومان سنيكا Seneca وماركوس أوريليوس Marcus Aurelius.

٣ــ **عزرا** هو كاهن ابن سرايا لقب بالكاتب، إذ أنّه كان موظفاً في بلاط أمبراطور الفرس (أرتحششتا) ومستشاراً له في شؤون الطائفة اليهودية التي كانت تقيم في ما بين النهرين منذ أيام السّبي. وقد تمكّن عزراً، لثقة الأمبراطورية، في أن ينال عفو الأمبراطور عن اليهود وسماحه لهم بالعودة إلى القدس وإقامة حكم ذاتي لهم في فلسطين. وهذا ما جعل اليهود المتأخّرين عنه يعتبرونه زعيماً لهم بعد موسى الذي أخرجهم من مصر. لقبّوه بالكاهن وبالكاتب لأنّه كان دارساً مجتهداً ومفسراً عميقاً لوصايا الله وعهده.

الأصنام. هذا الشيء كان منطلقاً للعبراوية بالمعنى الضيق أو لليهودية نفسها. ان سيطرة الشريعة اعطت للشعب لحمة داخلية غريبة بقيادة الهيئة الدينية، أما انعزاله عن الذين لا ينتمون اليه فجعله حتى اليوم احجية مبهمة وسط التاريخ. الى جانب الشريعة الالهية جاء درسها وتفسيرها بكونهما انجازاً عظيماً. فالعمل بالشريعة استلزم ممارسة استثنائيّة. وهذه كانت وظيفة «علماء الشريعة» الذين ألّفوا مرتبة اخرى مجاورة للهيئة الكهنوتية، حتى اكتسبت أهمية اكثر منها. فقلم «عالم الشريعة» حلّ محلّ النبوّة. وفي اتمام هذه المهمّة ظهر اتجاهان: الفريسيون والصدّقيّون (انظر ٣٨). والتقليد التشريعي (الهلاخا[١]) في القرن الثاني لُخِّص في «الميشنا[٢]»، وفي القرن الخامس صار هو الجمارا[٣]، أما الكتاب الجديد في شريعة اليهودية فهو التلمود[٤]. ان يسوع رفض هذا التفسير للشريعة، لأن هذا التفسير عدّ الوصايا «والأوامر» الإنسانية كأنها أسمى من وصايا الله (مرقص ٧ : ٨) وكذلك عدّ الأعمال التافهة، التي كانت تعمل أمام الناس «ليشاهدوهم»، وكأنها أكثر قيمة من نية الانسان الداخلية. لكن المسيح صار «تحت الشريعة» ليبطل الذي يملك شريعة الموت. ما من أحد سوى بولس فهم وأدرك بوضوح العواقب والنتائج، فجعل العهدين، الواحد قبالة الآخر، وكأنهما ترتيبان وحكمان مختلفان للحياة وكنهها. فهناك ما هو «تحت الشريعة» وهناك ما هو «في المسيح».

١ــ **الهلاخا**: هي مجموعة الأحكام التي تبيّن الحلال والحرام والطهارة والنجاسة الخ مما ورد ذكره في التوراة وفسّره الفقهاء اليهود.

٢ــ **الميشنا**: مجموعة القوانين غير المكتوبة التي جمعت حوالي ٢٠٠ ب. م. والتي تشكّل أساس التلمود.

٣ــ **الجمارا**: شرح المشينا في كتاب التلمود.

٤ــ **التلمود**: مجموعة تفاسير وشروح وأخبار وأحكام وضعها حكماء اليهود وفقاؤهم ويتألف من المشنا والجمارا.

٤

مجمع أورشليم :

في عام ١٩٢١ اكتشفت في التنقيب الأثري منقوشة كتابية لتأسيس مجمع أورشليم الذي يُرجّح أن يكون أحد المجامع الذي ورد ذكره في أعمال الرسل (٦ : ٩) Wikenhauser أعمال الرسل ٥٢ ، Apostelgeschichte)

٥

الهيروديسيون :

الهيروديسيون في تاريخ زمن العهد الجديد هم الاسرة المالكة المهمّة. مؤسس هذه الأسرة هو انتيباتر الشجاع الأدومي الأصل. والأدوميون[١] يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالعبرانيين. فبثلاثة آلاف رجل من رجاله أعطى في مصر الانتصار الحاسم للقيصر. واعترافاً بالجميل عطف عليه القيصر وعلى كل العبرانيين فمنحهم امتيازات كثيرة. وابنه هيرودوس الكبير (٤٧ — ٤ ق. م) سيطر بذكائه وشجاعته على كل فلسطين وأباد مقصورة أمير الحسمونيين[٢] ، وتزوج الوارثة الأخيرة بينهم وهي

١ — **الأدوميون** : سكان أدوم القديمة أي المنطقة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة ويرجّح أنهم احتلوها حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وفي «العهد القديم» من الكتاب المقدّس أنهم من نسل عيسو Esau أخي يعقوب بن إسحق ، ومع ذلك فقد نشب صراع طويل بينهم وبين العبرانيين. اشتهروا بصناعة النّحاس وتميّزت بلادهم بموقعها الاستراتيجي بين شبه الجزيرة العربية والبحر الأبيض المتوسط.

٢ — **الحسمونيون** : من حسمون أبو جد متاثياس من أبناء يهوياريب (١ خبار ٢٤ : ٧) ولقب يهوذا بن متاثياس «مكابيوس». ثم صار هذا اسماً لجميع اسرة المكابين وأخيراً لكل الحزب الذي تكوّن نتيجة لظلم السلوقيين.

مريم. اعترف به أوغسطوس[1] وظلت أسرته الحاكمة صديقة لروما. أهم مآثره هو ولعه بالبناء، اذ اعاد بناء الهيكل وحصن انطونينا والبلاط الملكي (برج داود)، حيث قابل مجوس المشرق، ومدينة قيصرية السّاحلية. عندما سمع أوغسطس أن ابنه كان بين الأطفال الذين ذبحهم في بيت لحم قال كلاماً يحمل تورية: «انني أفضّل أن أكون خنزيراً من أن أكون ابناً له»، (مكروفيوس ٢، ٤، ١١) مما يدلّ على أنه يخلط بين حدثين: ذبح الاطفال وتنفيذ الاعدام في أولاده الثلاثة قبيل موته (الأصول Ed. Meyer, Ursprung)

بعد موته قسّمت البلاد الى أربع مقاطعات (ولايات ربعية) تحت حكم الوالي الروماني. وأسوأ أولاده كان هيرودوس انتيباس (٤ ق م — ٣٩ ب م) الذي قتل يوحنا المعمدان واضطهد يسوع. وبنى عند بحيرة جنّيسارات مدينة طبريا الوثنية،[2] حيث لم يدخل يسوع. غضب عليه الامبراطور كاليجولا ونفاه الى اسبانيا حيث مات. وأخوه فيليبوس بنى قيصرية فيليبس حيث أعطى يسوع لبطرس سلطان «الربط والحل». أما هيرودوس اغريباس الأول (٣٧ — ٤٤ ب م)، حفيد هيرودوس الكبير ومريم فقد أمضى سني شبابه في روما في بلاط الامبراطور كصديق وفّي لكاليجولا الذي صار امبراطوراً فيما بعد. وبما أنه لم يكن حذراً في محادثاته شكوه الى تيفيريوس فأمر الأخير أن يسجنوه. ويسرد فلافيوس أيوسيبوس[3] الحادثة التالية: عندما أوثقوا أغريبا وأسلموه الى حرس دار الولاية في الثّكنة العسكرية إتّكأ وهو يائس على شجرة فسمع نعيق غراب. فانتبه له أسير الماني فدنا منه وقال له عن طريق مترجم: «أيها الشاب أنت حزين الآن لأنّ مصيرك تغيّر ولعلّك لن تصدّقني اذا ما أخبرتك عما قرّره الله في شأن خلاصك... إن أغلالك ستُحلّ بسرعة وستصبح زعيماً عظيماً وسيكون لك مجد كبير. فالجميع سيغبّطونك

١— راجع الجدول التاريخي عن حياة بولس.

٢— راجع الجدول التاريخي عن حياة بولس.

٣— **فلافيوس ايوسيبوس** مؤرّخ يهودي كبير عاش في القرن الأول بعد المسيح.

قدر ما يتأسّفون على سوء طالعك. لكن ان رأيت ثانية هذا الطائر فتأكّد أنك ستموت بعد خمسة أيام». هذه النبوءة بدت له مضحكة قدر ما ملأته أندهاشاً غندما تحقّقت فيما بغد بموت طيباريوس[1] الذي توفي بعد وقت قصير وباعطاء كاليجولا له مقطعات فيلبس وليسانيس وانتيبا وبمنحه اللقب الملوكي. بعد اغتيال كاليجولا (٤١ ب م) ساعده الامبراطور كلوديوس[2] على اعتلاء العرش من خلال غواية مجلس الادارة. فأعطاه اليهودية والسامرة مكافأة له، وصار سيداً على منطقة جدّه، واعطاه علاوة على ذلك حقّ تعيين رئيس كهنة. وبما أنه رجل شرير ابتدأ توّاً يساند اليهود ويضطهد الكنيسة الشابة. أما السلسلة الذهبية التي قلّده إياها كاليجولا والتي كان وزنها يساوي وزن السلسلة التي كان موثوقاً بها، فأوقفها الى هيكل أورشليم. في عام ٤٤ ب م تمّ تأليهه على مسرح قيصرية كما ورد في كتاب أعمال الرسل وعند فلافيوس ايوسيبوس في كتابه «علم الاثريات اليهودية» (انظر ٦ـ٢٣. فالمتملّقون صاحوا «هذا صوت اله لا صوت انسان» وفجأة رفع اغريبا عينيه الى فوق فرأى على حبل مشدود الغراب القديم الذي يعرفه. فأدرك ما سيجري له وأحسّ بندم شديد. وبعد قليل ابتدأت آلام رهيبة تنتاب امعاءه حتى صار لونه احمر كالكبريت، فالتفت الى أصدقائه وقال: «ها إن الهكم يجب أن يغادر الحياة، والعناية الالهية ستبيد كلّ الأمور الباطلة وكلامكم الخدّاع». بعد خمسة أيام مات كجده وسط آلام لا تُحتمل (فلافيانوس ايوسيبوس علم الاثريات اليهودية ١٩، ٨، ٢). ترك أربعة أولاد وهم اغريبا الثاني (٥٠ — ١٠٠) وبرنيكي ومريم وذروسيلا. وقُسّمت فلسطين وخضعت «لقائد» روماني. وفي ذلك العصر سيطرت عصابات اللصوص في الجبهة التحريرية لسيكاريون[3] (القتلة) وأخذ

---

١ — راجع الجدول التاريخي عن حياة بولس.

٢ — راجع الجدول التاريخي عن حياة بولس.

٣ — **سيكاريون** اسم أكثر الجماعات تعصّباً بين القوميين اليهود. وهذه الجماعة هي معادية لروما حتى أنّها لم تتردّد في اغتيال أعدائها السياسيين.

اغريبا مناطق فيليبس وليسانيوس وبعض المدن. اخته ذروسيلا التي تزوّجت عزيز الحمصي وصارت بخلاف شريعة البلاد زانية مع «الوالي» فيليكا، أما برنيكي فكانت كأختها تتزوج المرة تلو الاخرى وكانت لها علاقات شاذة مع أخيها وأخيراً مع تيطس. وكان اغريبا يقيم في بلاط هيرودوس في أورشليم ويثير غضب اليهود فبنى برجاً ليرى ماذا يجري داخل الهيكل. وعيّن أنانوس الفظ رئيس كهنة، هذا الذي حكم على يعقوب ليُرمى بالحجارة «وهو يعقوب أخو يسوع المسمّى بالمسيح» (كما كتب فلافيوس ايوسيبيوس). أنهى اغريباس حياته المخزية في أواخر القرن الأول. وإن راكيناس جعل من مصير برنيكيس وحبها السيّء الحظ لتيطس مأساة كبيرة. أنظر

Lietzmann, Ed. Meyer, E. Kalt, Bibl. Reallexikon

٦

رحلة جمع التبرعات:

لتأريخ زمن هذه الرحلة وسجن بطرس وانقاذه اللذين حدثا قبل ذلك نجد اشارة زمنية جديرة بالتصديق في سرد أعمال الرسل (١٢، ١ — ٢٤) وعند فلافيوس ايوسيبيوس (علم الاثريات اليهودية ١٩، ٨، ٢). وعند تأليه اغريبا الذي وقع في الفترة نفسها على مسرح قيصرية. يحدّثنا ذيون كاسيوس[١] (٦٠، ٢٣) أنه في ربيع عام ٤٤ ب م. وللاحتفال بعودة كلوديوس منتصراً من حملته العسكرية الى بريطانيا، أقيمت احتفالات مهمّة. واغريبا أقام احتفالات كهذه لتكريم صديقه الأمبراطور. بناء عليه نقدر أن نؤرّخ زمن رحلة جمع التبرعات في خريف ٤٤ ب. م (أعمال الرسل).

(Wikenhauser, Apostelgeschichte 88

١ — **ذيون كاسيوس**: (١٥٥ — ٢٣٥ ب م) مؤرخ يوناني ولد في بيثينا أهم مؤلفاته «التاريخ الروماني» الذي يضم معلومات هامة عن الأباطرة.

٧

الجيش الكلتي (أو السلتي)(١)

نشر Ramsay الذي قام بحفريات سنة ١٩١٢ في انطاكية بسيديا ، في مؤلّفه «مدن القديس بولس The Cities of St. Paul صوراً عن نقود رومانية عليها أعلام وحدات عسكرية . ومن بين هذه الاعلام علم الجيش الكلتي وعليه قنبرة .

٨

أعمال بولس وتقلا :

ان خيال المسيحيين (أو بالاحرى خيال العرفانيين(٢) الهراطقة) في القرن الثاني زيّف حياة يسوع باحداث رومنسية (في أناجيل منحولة) وزيّف كذلك حياة الرسولين العظيمين فقدّم للقراء المسيحيين نوعاً من أعمال بطرس المنحولة ونوعاً من أعمال بولس المنحولة وغيرهما على أنها قراءات مرغوبة جداً. وأكثر هذه القراءات شهرة هي قراءة دوّنها كاهن في آسيا الصغرى ، حيث مزج قصصاً أسطورية قديمة

١ — **الكلتيون أو السلتيون** هم مجموعة من الشعوب الناطقة باللغة الكلتية التي هي لغة هندية — أوروبية . ويُعتبر جنوب المانيا مهد السلتين (١٥٠٠ق م) ومن هناك انتشرت في أوروبا واسيا الصغرى .

٢ — **مذهب العرفان** : مذهب عقلاني rationalistic نشأ في نطاق الكنيسة المسيحية خلال القرن الأول للميلاد وازدهر بخاصّة خلال القرن الثاني للميلاد . أكّد أصحابُهُ على المعرفة الروحية بأكثر مما أكدوا على الايمان وحاولوا التوفيق بين تعاليم المسيح والفلسفات الإغريقية والشرقية وأنكروا التفسير الحرفي للكتاب المقدس . ومن أجل ذلك اعتبرتهم الكنيسة هراطقة . والتعبير مشتقّ من اللفظة اليونانية gnosis ومعناها المعرفة .

وجديدة فاخرج خليطاً غريباً من تآلف عناصر يونانية وقبطية ولاتينية ، وهذا العمل باق الى اليوم . «فأعمال بولس وتقلاّ» يجب أن تكون قد كتبت حوالي سنة ١٩٠ ب م كحد أقصى ، لأنها معروفة عند أوريجنس[١] وترتليان[٢] وهيبوليتس[٣] . وكنموذج لهذه القراءات المفرحة للقلب اخذوا «الأساطير الميلسية[٤]» المعروفة عالمياً ، وفقاً لطريقة ابيوليوس[٥] في رباعيته «المسخ» والذي يُعرف أيضاً (بالحمار الذهبي) . كما أن الحمار يظهر أنه يتكلّم هنا ، كباعث ومحرّك مألوف ، هكذا يظهر في أعمال بطرس أن الحمار يتكلّم ، وفي أعمال بولس يتكلّم أسد ويأخذ المعمودية . في الأوساط الكنسية في الشرق حازت أعمال بولس الاعتبار نفسه الذي حازته اسفار العهد الجديد . يجب على المرء أن يقبل أنه قد تختفي وراء هذه الخيالات ذكرى لأمر واقعي (كما نجد في Fioretti للقديس فرنسيس الأسّيزي[٦]) . فاعمال الرسل لا تستنفد الاحداث كلّها ، اذ يكفي أن نفكّر في الالام التي يعددها الرسول بولس في

---

١ — **أوريجنس** (١٨٥ ؟ — ٢٥٤ ؟ م) : لاهوتي كبير . وُلد في الإسكندرية بمصر وتوفي بمدينة صُور في لبنان . يُعدّ أحد كتّاب الكنيسة . عمل في حقلَيْ التدريس والتبشير ، ووضع عدداً من الشروح التوراتية والرسائل اللاهوتية . سجن عام ٢٥٠ ، وسرعان ما لقي نَحْبَهُ متأثراً بالعذاب الشديد الذي أُنزل به .

٢ — Tertullian Quintus Spetimius Florens Tertullianus

تَرْتُلْيان : كُوِنتوس سبتيميوس فلورنس ترتُليانوس (١٦٠ ؟ — ٢٣٠ ؟ م) : لاهوتي وأب قرطاجيّ ، يُعتبر أحد أعمدة الكنيسة الإفريقية . دافع عن النصرانية وحمل على الهراطقة بقوّة ومارس حياة خلقية قاسية .

٣ — **هيبوليتس** ينتمي هيبوليتس إلى عائلة شرقية استقرّت في روما حيث أصبح كاهناً . وبسبب ثقافته ومواهبه اشتهر كثيراً في الغرب وبرز ككاتب مهم في زمن مكسيميانوس نفي إلى جزيرة سردينيا ومات هناك كشهيد. كتاباته هي تفسيرية عقيدية وتاريخية .

٤ — **الأساطير الميليسية** إن أريستيديس الميليسي كتب قصصاً شهيرة ، كلها ضائعة . وهذه القصص كانت محبوبة عند الرومان ، حتى أن القصص غير الرصينة كانت تسمّى "Fabulac Milesiac"

٥ — **ابيوليوس لويسيوس** كاتب وفيلسوف روماني اشتهر بكتابه «المسخ Metamorphosés وهو حكاية نثرية يمسخ بطلها حماراً ، ثم يرتد بشراً بمساعدة الالاهة ايزيس .

٦ — **فرانسيس الأسيزي** راهب ومبشر ايطالي . يعتبر احد زعماء الاصلاح الكنسي البارزين في القرن الثالث عشر. أسّس الرهبنة الفرنسسكانية . عاش عيشة فقر وتعاطف مع البائسين.

(٢ كورنثس ١١ : ٢٣) ، و« مصارعته للوحوش في أفسس » (١ كور ١٥ : ٣٢) .
لذلك يؤكّد بعض المفسيرين امثال Schubart, Ralffs', Harnach Ramsay أنه وسط « هرج ومرج الأسطورة يجب أن نرى النواة التاريخية منفصلة بشكل باهت »
(Praxeis Panlou, nach dem Papyrus der Hamburger staats' = Und Uninersitäts = Biblipthek, hrsg. von C. Schmidt, 1936)

٩

الزيادة في قول الرسول يعقوب :

اذا أراد المرء أن يحذف لفظة « الزنى » الواردة في أعمال الرسل (١٥ : ٢٩) ، لأنها غير موجودة في المخطوطات القديمة في الشرق ، فإن عبارة يعقوب تصبح قراراً متعلقاً بالاطعمة (انظر Wibenhauser أعمال الرسل ٥ : ١٠ Apostelgeschichte) . إن بعض المفسرين البروتستانت يريدون أن يحلوا مشكلة قبول بولس لهذه العبارة في أعمال الرسل وإغفالها في رسائله ، حتى انه كان يتصرف بعكس ذلك في الأماكن التي تسيطر فيها المدنيّة اليونانية ، فيفترضون أنه اتخذ هذا القرار فيما بعد من بولس وبطريقة سريّة ، وان بولس في رحلته الاخيرة الى أورشليم فوجئ لدى سماعها (اعمال ٢١ : ٢٥) . لكن هذا يعرّض كتاب أعمال الرسل للشبهة أو يظهر أن هذا الكتاب قد دوّن في وقت متأخر . لذلك نفضل أن نبقى على الرأي الذي يمثّله المفسرون الكاثوليكيون وهو أن التحرر من حفظ الشريعة الموسوية والتبرير بواسطة ذبيحة المسيح كانا وحدهما محتوى قرار المجمع الرسولي ، أما القرار المتعلق بالايمان فهو معصوم من الخطأ . والأحكام المتعلقة بالاطعمة هي تدبير انضباطي مؤقّت . فكلّ رسول وفقاً للسلطان الجامعي الذي عنده استطاع أن يؤجّل أو يعلق تطبيقها في المنطقة المسؤول عنها .

١٠

سيلاس — تيطس :

يحاول Branikol في كتابه «المشكلة الشخصية في اعمال الرسل Personenprobleme der Apostlegeschichte (١٩٣١) أن يحلّ مشكلة عدم إشارة لوقا ولو بكلمة واحدة الى شخصية تيطس العظيمة والى نشاطه بطريقة ذكية لكن ليست مبنية على فرضية مقنعة. والحلّ الذي قدّمه هو أن سيلاس معاون بولس في رحلته التبشيرية الثانية وفي تأسيس كنيسة كورنتس غير سيلاس الذي كان في أورشليم والذي عُهد اليه بنقل قرار المجمع الرسولي الى انطاكية والذي هداه بولس الى الإيمان. واسمه الكامل كان Titus Silvanus

١١

غلاطية :

ان السرد القصير والغامض في اعمال الرسل (١٦ : ٦ و١٨ : ٢٣) «عن مرور بولس وسيلا في «فريجية وبلاد غلاطية» ومرور بولس في «بلاد غلاطية وفريجية» لا يؤلّف أساساً ثابتاً لأمر مهم جداً، مثل تأسيس الكنائس في شمال غلاطية وعنوان الرسالة الى أهل غلاطية. فكيف يجب أن نفهم هذه العبارة؟ انها تُفهم من استنتاجات نصوص أخرى وعلى الأخص من رسائل الرسول ومن كلام فعلي. يتوجّه بولس في رسالته الى أهل غلاطية «الى الكنائس التي في غلاطية» ويتحدّث في نهاية رسالته الأولى الى أهل كورنتس (١٦ : ١) عن جمع التبرعات للمسيحيين في أورشليم ويقول إنهم يجب أن يعملوا أيضاً «بما أوصيت الكنائس في غلاطية».

لذلك من الأمور التي لا يمكن ادراكها هو أن بولس الذي أرسل رسائل الى كلّ الدوائر الكنسية المهمة التي أسّسها هو نفسه-قد أغفل دائرة مهمة جداً زارها في رحلته التبشيرية الأولى، ومع أنه دافع بحرارة عن منفعتها في المجمع الرسولي في أورشليم. ومن المستحيل إلّا أن يكون اليهود اخصام بولس قد أثاروا المتاعب له في الكنائس الواقعة جنوب غلاطية، الى حيث يقدر أن يذهب المرء بسهولة، ومن ثمّ رجعوا الى كنائس غلاطية الشمالية التي كانت بعيدة عن الطريق. ومن الأمور التي لا يمكن ادراكها أيضاً أن بولس نظّم عملية جمع التبرعات في كنائس غلاطية الشمالية التي كانت مجهولة تقريباً والتي لا يذكر عنها اسم شخص أو مكان في أيّ مقطع آخر.

١٢

خارطة بوتينغر Peutinger

ان خارطة بوتينغر Tabula Peutingeriana المؤلّفة من اثنتي عشرة ورقة من الرقّ والموجودة في المكتبة الوطنية في فينا هي نسخة عن عمل قام به كستوريوس في القرن الرابع. ويبدو أن الخرائطي الروماني قد استخدم كثيراً من الأدلّة السياحية التي أصدرها الرومان والمشابهة للأدلة السياحية الحديثة. ان خارطة كستوريوس اكتشفت ثانية سنة ١٥٠٧ وأصبحت ملكاً لـ Konard Peutinger وبعد كثير من الخداع صارت ملكاً للأمير أفينيوس. وهي ليست خارطة طوبوغرافية (إراثية) لكنها نوع من رسم مصوّر سياحي يتّجه من الغرب الى الشرق أي من انكلترا حتى ايران. وتصوير الشواطئ يظهر وسط مرآة مقعّرة بشكل غريب ومتغير. بهذه الطريقة أُعدّ نموذجها الأصلي، وطول هذه الخارطة سبعة أمتار تقريباً تلتف حول خشبة طويلة. وعلى الرغم من أن هذه الخارطة تحوي جزءاً من الطرق الرومانية (ما يقارب المئة ألف كيلومتر) فإنها تعطي صورة مهمّة عما حقّقه الرومان في مجال السير وحركة الاتصال. كل الامبراطورية كانت في عهد بولس تتحرك: الأباطرة والولاة

مع رجالهم والموظفون وسعاة البريد والجنود وخدّام البريد الخاص والامبراطوري والفلاسفة والمبشّرون بعبادة الأصنام والمشعوذون والسحرة اليهود والاطباء اليونان والممثلون والحجّاج وأخيراً المبشرون المسيحيون. وفي كل طريق كانت توجد محطّات بريديّة (Positae Stationes) وفنادق (mansiones) ومقاه وأماكن لتبديل الخيل (mutationes) وما زالت الأحجار المربّعة الكبيرة لركوب الحصان والنزول عنه قائمة حتى يومنا هذا. أما الأمتعة الضرورية للمسافرين فكانت عند بولس: سيف (بطرس على جبل الزيتون، انظر لوقا ٢٢: ٣٦—٣٨) وثوب وإناء للزيت ليدهن به المسافر جسده. ووفقاً لوصايا الرب الى تلاميذه فإن الأمتعة هي: كيس خبز وحقيبة— جراب (الفقراء كانوا يحملون كيساً للاستعطاء) — قميص وثوبان داخليان وبعض الدراهم وثوب ممنطق ونعلان.

(عالم بولس
A. Steinmann, Die Welt des Paulus

لوحة (أو خارطة) بوتنيغر
K. Miller, Die Peutingersche Tafel, 1929

١٣

الشتات اليهودي:

ابتدأ اليهود بالهجرة الجماعية الى مصر منذ القرن السابع ق. م. وازدادت اثناء السبي الجماعي الى بابل وامبراطورية الفرس. وبعد أن استولى بطليمس على أورشليم سنة ٣٢٠ ق. م. أرسل مهاجرين آخرين الى مصر (الاسكندرية) وكيريناييكي وليبيا. وأنطيوخوس الثالث[1] أيضاً أرسل ألفي عائلة يهودية الى فريجيا وليديا. وبعد

---

١ — **انطيوخوس الثالث** (٢٤٢ — ١٨٧ ق. م.): ملك سوريا السلوقي (٢٢٣ — ١٨٧ ق. م.). زحف في اتجاه الشرق (٢١٢ — ٢٠٥ ق. م.) بغية فتح الهند، مُنشئاً في طريقه اليها مجموعة من الدول الخاضعة لنفوذه. غزا بلاد اليونان (عام ١٩٢ ق. م.) ولكن الرومان تصدّوا له وهزموه (عام ١٩٠ ق. م.). يُعرف بـ «الكبير» the Great.

ذلك وُجد مهاجرون آخرون في آسيا الصغرى وقبرص وكريت والجزر الأخرى من بحر ايجه وعلى الأخص في بلاد اليونان وايطاليا واسبانيا . واليهم يجب أن يضيف المرء الأسري اليهود الكثر في بوميا الذين سبوا بعد أن أصبحوا مواطنين رومانيين . ولعلّ بين هؤلاء كان أهل بولس واجداده . واليهود المشتتون كانوا على نوعين : اليهود المتهلّنون (المتأغرقون) ويهود التلمود . وفي أحضان اليهود المتهلينين (المتأغرقين) الذين تنوّروا بالعلم والمعرفة من المدنيّة اليونانية تحقّقت الترجمة اليونانية للعهد القديم أي الترجمة السبعينية وكذلك الفيلولوجيا (الفقه) الحِكمية (سيراخ والامثال) وأهم شيء هو التعليم عن الكلمة والروح الذي أضفى عليه بولس ويوحنا روحاً مسيحية . أما يهود التلمود فقد أوصلوا الحضارة المذكورة الى درجة الاختفاء . ان بولس ينحدر من اليهودية الهلينية (المتأغرقة) . واليهود المشتتون كانوا على صلة بأورشليم لأنهم كانوا يذهبون اليها كحجاج ويؤدّون العشر للهيكل ويسمعون المبشرين الفريسيين الجوّالين (يوحنا ٧ : ٣٥) ، الذين كانوا ينقلون الرسائل من أورشليم وكانوا على صلة خاصة باجتماعات العبادة في أورشليم التي افتُتحت عام ٦٢١ ق . م . فالوثنيون كانوا يراقبون هذه العبادة بدهشة ، لأنهم كانوا يقيمونها بلا هياكل وذبائح . فكلّ ما هنالك عظة في المجامع «وأماكن العبادة» التي كانت تحيط بالامبراطورية الرومانية كشبكة العنكبوت . كان لليهودية تأثيرها القوي أولاً في الدعاية المكتوبة التي قدمتها بتزوير النصوص وبالادعاء أن الكتّاب الكلاسيكيين يقرّون بسمو حضارة اسرائيل ومن ثمّ باقتناص المؤمنين من الديانات الاخرى كما اتهمهم يسوع (متى ٢٣ : ١٥) . فامتزجت المثالية والسّوقية امتزاجاً كلياً . والمرء لا يعرف بأية طريقة اكتسبت اليهودية أتباعاً كثيرين . هل بعظمة الكتاب الذي جذب ذوي الطبيعة الشريفة أم بالاعتقاد بالخرافات والسحر والتنجيم والأضاليل المغوية التي قام بها العرفانيون والتي اضطرت بولس الى محاربتها وكانت سبباً في اجتذاب ذوي الشخصيات السطحية (انظر أفسس ، كولوسي والرسائل الرعوية) . فالانفصال المتعجرف عن الوثنيين واستغلالهم بدون حدود احياناً سببا سخرية

(اوراتيس)[1] وافتراء (قتل الأولاد للعبادة وعبادة الحمير) والكره أحياناً أخرى سبّب المجازر. ان سينيكاس[2] سمّى اليهود الجنس الآثم جداً (Scelestissima gens) الذي يملي الشرائع على المنتصرين عندما يُغْلب هو. ان البحث المعاصر يقدّر عدد اليهود المشتتين فيجعله ٧٪ من عدد سكان الأمبراطورية الرومانية. (انظر (Ed. Meyer, Ursprung. Lietzmann I, 68, Kalt, Bibl. Reallexikos

١٤

الاله المجهول:

ان أبولونوس الطياني[3] الذي كان موجوداً في أثينا في زمن بولس تقريباً يمدح في خطبة له الاثينائيين لاتقائهم الله ويذكر الهياكل المخصّصة للآلهة المجهولين (E. Nordem) وهذا يدلّ أكثر على صدق أعمال الرسل خلافاً لما استنتجه E. Nordem من أن هذا السفر يعتمد على سيرة مُحْتملة لأبولونوس. اكتشفت في حفريات برغامو سنة ١٩٠٩ منقوشة حجرية مكرّسة لمعبد من هذه المعابد. لكنّ نص هذه المنقوشة الحجرية ليس كاملاً في النقطة القابلة للجدل. ووفقاً لمحاولة غير أكيدة لاكمال هذا النص فإنه يصبح هكذا:

١ــ **أوراتيس**: شاعر روماني كتب أناشيد ورسائل عديدة عاش بين ٦٥ ــ ٨ ق. م.

٢ــ **سينيكاس** (٥ أو ٤ ق. م. الى ٦٥ ب. م.) فيلسوف روماني رواقي، وشاعر وكاتب مسرحي ومعلّم نيرون.

٣ــ **أبولونوس الطياني**: (القرن الأول الميلادي) فيلسوف فيثاغوري ينسب اليه كتاب «سر الخلق» مخطوط في باريس ورسالة في التنجيم ترجمها حنين بن اسحق، ومؤلف عن الاجرام السبعة.

للآلهة الـ (جهولة) Θεοῖς ἀγ(νώστοις)

كبيثـ (ن) Καπίτ(ων)

حامل المشعل Δαδοῦχος

إن المنقوشة الحجرية التي ذكرها بولس والتي وردت في أعمال الرسل في حالة القابل المفرد «للاله المجهول» لم تُكْتشف حتى اليوم.

١٥

القربى من الله:

ان الفكرة الأساسية في نشيد كليانثيس[١] وهي قربى الانسان من الله التي نجدها في مقطع من مقاطع مواطنه اراتس[٢] والتي ذكرها بولس هي إرْث أورفي وافلاطوني قديم جداً. فأفلاطون (في فيدون وتيماوس) يستخلص من المبادئ الانسانية العرفانية التي تتجه الى الأبد أَصْلَنا الالهي وقربنا من الله ومثال كلّ المثل. ويعتبر اشتراكنا في الحياة الأبدية أمام الله تذكّراً لحياة سابقة «في الله» ومصيراً نهائياً للانسان. فالأنا الداخلية أي العقل هو قوة سماوية «اله» «ووميض النفس» عند ماركوس اوريليوس[٣] والصوفيين المسيحيين. ففيلون[٤] وبولس يسمّيانه

١ــ **كليانثيس**: فيلسوف رواقي (٣٣١ــ ٢٣٢ ق. م.) وتلميذ لزينون.

٢ــ **اراتس** (حوالي ٣١٥ــ ٢٤٠ ق. م.) شاعر من كيليكيا كتب ملحمة «المرايا والظواهر».

٣ــ **مركوس اوريليوس**: امبراطور وفيلسوف روماني (١٦١ ــ ١٨٠) له كتاب «أفكار» باليونانية يعرض فيه نظرته الخلقية الرواقية.

٤ــ **فيلون**: (٢٠ ق. م. ــ ٥٤) ولد في الاسكندرية. فيلسوف يهودي حاول أن يُفصح عن معتقده الديني مستعيناً بتعابير الفلسفة اليونانية. كان يكثر استعمال الطريقة الرمزية. له تأثير على آباء الكنيسة وعلى فلاسفة العرب.

«الروح» الانسانية. وبيندروس[١] سمّى النفس (المقطع ١٣١) «طيف» الله. «واللوحات الذهبية الاورفية» التي اكتُشفت في ايطاليا السفلى تعبّر عن الفكرة نفسها. الرواقيون يوسّعون هذه القربى من الله الى كلّ الخليقة، والكون. فالومضة الالهية وروح العالم لها أساس في «التعاطف مع الكون». وفي الأفلاطونية المحدثة[٢] (أفلوطين) عادوا ثانية الى فكرة افلاطون الأساسية. فهناك خطّ مستقيم يبدأ من أفلاطون وينتهي بغوته[٣] الذي صاغ فكرة افلوطين بشكل عجيب.

ان لم تكن العين مستنيرة
فإنها لن تقدر أن ترى النور
فكيف يقدر قلبنا، بدون قوة الله
أن يجذبه ما هو الهي؟

إن الضلال الشريف عند أفلاطون المتعلق بسابق وجود النفس قد صحّحه

١ــ **بيندروس**: أهم شاعر غنائي يوناني قديم (٥١٨ــ ٤٣٨ ق. م.).

٢ــ **الأفلاطونية المُحْدَثَة**: مذهب فلسفي نشأ في الاسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث للميلاد، معدّلاً تعاليم أفلاطون بحيث تنسجم مع المفاهيم الأرسطوية Aristotelian، وما بعد الأرسطويّة، والشرقية. تصوَّر أصحابه العالمَ فيضاً Emanation منبثقاً من الذات العليا التي تستطيع الروحُ الاتحادَ بها في حال الانجذاب الروحي. مؤسّسه أمونيوس سكّاس، أو أمونيوس الحمّال Ammonius، وأبرز ممثليه أفلوطين Plotinus ومن بعده تلميذُهُ فَرْفوريوس Porphyry

٣ــ **غوته**، جوهان فلفغانغ فون (١٧٤٩ــ ١٨٣٢): كبير شعراء الألمان وأحد عمالقة الأدب العالمي. تميّز بتعدّد المواهب، فكان شاعراً، وناقداً، وروائياً، وكاتباً مسرحياً، ورسّاماً، وعالماً، وفيلسوفاً، وصحافيّاً. أعطى اللغة الألمانية رشاقة كانت تعوزها وحرّرها من سلطان الآداب الأجنبية الطاغي عليها، وذلك بقصائده الغنائية المتّسمة باليُسْر والطَبَعيّة والذاتية. له رواية شهيرة هي «أحزان فرتر الشابّ» The Sorrows of Young Werther عام ١٧٧٤)، وعدد من المسرحيات أهمّها «فاوست» Faust في جزأين (عام ١٨٠٨ وعام ١٨٣٢).

أرسطو[1] ، لكنّ الفكرة القائلة بأن الله هو الغاية الاخيرة للحياة لهي قوة لا تنقض ، قوة تعطي للروح اليونانية حياة ، أما في المسيحية فقد وجدت تعبيرها الكامل في تعليم بولس عن رؤية الله «وجهاً لوجه» . فقمتا الروح الانسانية أي افلاطون وبولس يتقاربان كثيراً ، لكن تفرّقهما هوة لا تُردم الا بالاعلان الالهي ، الطبيعة والنعمة . عند افلاطون نجد الانسان الحر في ارادته الذي يرتفع الى الله بقواه الداخلية ، وفي المسيحية يتنازل الله ويرفع الانسان . فالتنازل والرفع يسمّيان نعمة .

(انظر (Festugière, p. 48)

١٦

خطبة بولس في الاريوباغوس :

قد يكون سرد لوقا خلاصة قصيرة عن خطبة بولس الواقعية أو تفسير حرّ لها . وأولئك النقاد الذين ينزعون الى الشك في صدقها التاريخي يأخذون جوابهم من النقد المعتدل الذي قدّمه هرناك Harnack أعمال الرسل (Apostel-geschichte, 1928, p. 110 القائل : عندما يكتسب النقّاد مقياس الجمال وحسّه فلن يقدر أحد أن يتجاهل هنا أن العبقرية في اختيار الأفكار عظيمة قدر صدقها التاريخي» (في تلخيص الأفكار الأساسية عند بولس) . ان الأهمية الدينية — التاريخية لخطبة بولس تكمن أولاً في الدلالة على أن الفكرة المسيحية

---

١ — أرسطو ، أرسطوطاليس (٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م .) : فيلسوف يوناني . تلميذ أفلاطون ، وأستاذ الإسكندر المقدوني . جرت فلسفته في اتجاه مغاير لمثالية افلاطون ، وتعاظمَ اهتمامها شيئاً فشيئاً بالعلم وظواهر الطبيعة . وأرسطو يُعتبر واحداً من أعظم فلاسفة الدنيا ، وقد انسحبَ أثره على جميع المفكرين الذين جاءوا بعده حتى مُنبَلَج العصر الحديث .من أشهر آثاره «الأورغانون» Organon (في المنطق) وكتاب السياسة Politics وكتاب ما وراء الطبيعة Metaphysics وكتاب الطبيعة Physics وكتاب الشعر . Poetics

الأساسية «فمنذ خلق الله العالم ، وصفات الله الخفية ، أي قدرته الأزلية والوهيته واضحة جلية تدركها العقول في مخلوقاته» (رومة ١ : ٢٠) هي حقيقة منطقية وإرْثٌ روحي قديم جداً وتكمن ثانياً في سمو المسيحية وابداعها . وبولس لم يكن بحاجة الى دراسة الفلاسفة اليونانيين لأن البرهان الوجودي على وجود الله كان معروفاً في كتاب الأمثال المتهلّن (المتأغرق) (الفصل الثالث عشر) . فالمعنى الحلولي الموجود في قوله «بالله نحيا ...» كان معروفاً سابقاً . الفلسفة الرواقية لم تكن تملك الحقيقة لكنها كانت تملك جزءاً كبيراً منها ، أن «حلول الله» Immanenz التي ربطته المسيحية بتعليمها عن سموّه Transzendenz) يجمع فكرتين متناقضتين تناقضاً كلياً . اذن استطاع بولس من دون تردد ان يستخدم القول الذي كان حلولياً في معناه بعد ان نصرنه بمهارة .

١٧

الأسرار :

هناك مشكلتان أساسيتان شغلتا الانسان المتديّن في العصور القديمة . أولاً اذا كان التشبّه بالله والاتحاد به ممكنين أي اذا كان التعارف المتبادل ورباط المحبة بين الله والانسان موجودين . ثانياً ، كيف استطاع الانسان أن يصبح شريكاً في حياة الآلهة السعيدة ، حتى يهرب من مصيره العاتي الذي كان يضغط بقوة على الانسانية بالعصيان السياسي والطغيان وتأميم الممتلكات والنفي الخ (انظر ١) . خمسمائة سنة من الفلسفة اليونانية لم تقدر أن تحلّ هذه المسائل الأساسية . بالنسبة الى أفلاطون كانت هذه السعادة ، أي أن يرى المرء الله ، امتيازاً للانسان الحرّ والشريف «الحسن والصالح» الذي عنده الوقت والمال والتفرغ . فالانسان الشعبي لا يقدر أن يقتني هذه الأمور . وهكذا التجأ الأشخاص المحبوبون الذين كانوا بلا وطن الى الديانات السريّة أو حتى الى السحر . يجب على المرء أن يُدْرك شقاء العصر واضطراب الحياة

في بدء الزمن الامبراطوري كما تظهر من خلال الأبحاث الحديثة المستندة الى أوراق البردى لكي يقدر أن يفهم السعادة في الديانات السرية القديمة والحديثة ، التي وعدت الناس بواسطة بعل[١] (سوريا) أو ايسيديا[٢] وكيفالي[٣] أو بالأسرار الأورفكية أو الفيثاغورية أو الألفسينية[٤] أو الديونيسية[٦] أن تؤمّن الحماية والخلاص والخلود للمسّارين. فالمرء يقدر أن يسمّي الاسرار «ديانات الخلود». هناك برقع كثيف يغطّي هذه العبادات ، لأن وصية حفظ السر كانت قاسية ولذلك حفظوه بأمانة. هدفهم هو خلق رباط متين بين الله والمسّار (الزواج السري). فترتيب أدخال الانسان اليها هو المسارة الاحتفالية بعد تجربة طويلة المدى وشاقة كثيراً ، وفيه تسليم النصوص المقدّسة وتعليم الايمان وتقديم درامي لكلّ ما قيل وتبيان

١ــ **بَعْل** : كبير الآلهة ، وإله الخصب ، عند كثير من شعوب الشرق الأدنى القديمة ، وبخاصة عند الكنعانيين. ويطلق اسم «بعل» أيضاً على عدد من الآلهة الساميّة المحليّة ، وكانت هذه الآلهة ترمز الى قوى الطبيعة المثمرة أو المنتجة.

٢ــ راجع حواشي اللوحة السابعة في آخر الكتاب.

٣ــ **كيفالي** : الاهة فريجية عبدها الناس في آسيا الصغرى وفي اليونان وأخيراً في روما تحت اسم الزم ابداين Idean Mother

٥ــ هي طقوس كانت تقام في اليفسيس في اليونان تكريماً لديمين الاهة الزراعة والخصب والزواج لابنتها برسيفون.

٦ــ **المهرجان الديونيسوسيّ** : أحد المهرجانات الإغريقية القديمة المقامة لديونيسوس Dionysus اله الخمرة ، وبخاصة في إقليم أتيكا Attica . وعن هذه المهرجانات الدينية الراقصة التي كانت تقام في الهواء الطلق نشأ المسرح اليوناني.

ديونيسوس : اله الخمر ، وبالتالي إله الإلهام والنّشوة ، عند اليونان. يقابله باخوس Bacchus عند الرومان. حظيَتْ عبادتُهُ بشعبية واسعة. وكان من دأب الاغريق إقامة المهرجانات الصاخبة تكريماً له. يُمثَّل عادةً حاملاً رمحاً متوّجاً بحلية مخروطية الشكل تكتنفها مجموعة من أوراق الكرمة وحبّات العنب.

الأمور والرموز المقدّسة مثل السنابل (في اليفسيس Eleusis)[1]. وكانوا ينهون المسارة بطعام مقدس ويشربون من الكأس المقدّسة (مع هرج ومرج). أما حالات الوجد والنوم في عملية المسارة فجعلت المسار يذوق شيئاً يشبه التحليق الأفلاطوني إلى السماء أو شيئاً يشبه النزول إلى الجحيم. ومع الأسرار كانت توجد كتابات أبوكريفية غنية (مؤلفات هرماس التريسمايتستس). ان بولس الذي توغّل في النفس الوثنية يعارض الأسرار هذه خطوة خطوة.

(انظر Festugière, Prümm)

١٨

النموذج الرسائلي:

ان نموذج رسائل القدماء التي تسلّمها بولس وصاغها بطريقته المبدعة كانت مؤلّفة من الأقسام التالية: أولاً العنوان (البروتوكل[2]) أ) المُرْسِل (مثلاً، بولس بمشيئة الله الخ) ب) المُرْسَل اليه (مثلاً، الى تيموثاوس الابن الحقيقي) ج) التحية (مثلاً، نعمة لكم وسلام) ثانياً، النص حيث يكتب بولس احياناً بالجمع «نحن» وأحياناً اخرى بالمفرد «أنا». ثالثاً، الخاتمة (الاسخاتوكولول أي الورقة الأخيرة من البردي) التي تحوي عادة لائحة طويلة من التحيات وتحية بيد الرسول نفسه. وهذا كان كتوقيع وتصديق لها (السلام بخط يدي أنا بولس) (١ كور ١٦، ٢١، كولوسي ٤ : ١٨، ٢ تسا ٣ : ١٧)، وحتى يتجنب تزوير اعدائه لها (٢ تسا ٢ : ٣). لقد كتب بولس بعض الرسائل بمفرده، وفي البعض الآخر

١ـ اليفسيس هي مدينة قديمة في آتيكا مكرسة لسيريس وبروسيربين.

٢ـ أي الورقة الأولى من البردى.

استخدم كاتباً. مع مرور الوقت وفي العنوان صار ازدياد الشعور بالسلطان واضحاً، فهو يظهر بشكل خاص في الرسالة الى أهلّ غلاطية. ولذلك يصل O Roller في مؤلّفه العميق علمياً الى الإستنتاج بأن «الرسائل الثلاث عشرة يجب اعتبارها من عمل انسان واحد».

١٩

الانتحار:

يرفض الاورفيكيون والفيثاغوريون الانتحار، كما يرفضه سقراط وأفلاطون وارسطو. فالله عند أفلاطون (فيذون ٢٦) هو راعينا ونحن رعيته وخاصته (انظر المزمور الثاني والعشرين ومثل الراعي الصالح) ولا حقّ لنا أن نهرب من «حمايته». الانتحار عمل آثم ضد الله. أما أبيقور والرواقيون المتأخرون فقد فقدوا الشعور بالمسؤولية تجاه الحياة. فالانسان يشعر في نفسه أنّ الالهة تركته فيبحث بحثاً عشوائياً عن ذاته. ان بولس ومركوس أوريليوس يتفقان في أن «الخليقة تئن وتتمخّض» لكنّ الواحد يختلف عن الآخر اختلافاً كبيراً. فالتنافر عند بولس ينتهي بالتآلف الالهي (رومة ٨)، أما التنافر عند مركوس أوريليوس فهو عدم تناغم يوصل الى اليأس. فالانسان يجب أن يتحرّر من تلقاء نفسه. «فطمأنينة النفس» عند أبيقور و«اللاهوي» عند الرواقيين هما توأمان «وابنان لليأس». (Lightfoot)

(انظر
(Festugière, p. 66, 166, 185)

٢٠

الروح :

هي لفظة قديمة جداً عند الانسان ، ومعنى أساسي ، واذا ما تغيّر مدلولها يقدر المرء أن يقتني أثر التطور التاريخي للدين . وهنا يتلاقى تياران يتعلّقان بالتقليد : ١) الفلسفي . ٢) الكتابي . ومن الاتجاه الذي ينطلق من أفلاطون ، ومن اللفظتين «العقل والروح» يصف المرء بهما ما هو سام ، أي الجزء المتعلق بالنفس الذي هو أقرب الى الله والى الشرارة الالهية والى نفس النفس التي تختلف عن نفس الأحاسيس . أما أرسطو فيصف فقط المبدأ الطبيعي للنفس من خلال لفظة «الروح» . وعند الرواقين هي سائل ناري يضبط الجزء الداخلي من العالم . وفي الديانات السريّة تعني الاجزاء غير الناطقة من الحس والشعور الباطن . وفي الرقوق البردية السحرية تظهر العبارة التالية : «تعال الي أيها البسيد الروح القدس» ، لكنها تدل على قوة سحرية فقط ، يريدها الساحرُ أن تصبح ملكه كلياً . أما المدلول البولسي للروح فلا يأتي من الفلسفة اليونانية ولا من أفلاطون ولكنّ جذراً من جذوره موجود في كتاب «التكوين» في العهد القديم «ونفخ (الله) في وجهه (الانسان) نسمة حياة» ، حيثُ تُعتبر الروح تناقلاً للحياة الالهية ، والجذر الاخر موجود في الانجيل في حدث العنصرة . لذلك يستخدم بولس لفظة الروح بمعنيين : الروح الانسانية كمقر للنعمة والروح القدس كأقنوم ثالث للألوهة .

٢١

السحر والايمان بالخرافات :

اننا لا نقدر ان نتصور أهم حدث ديني في التاريخ وهو تغيير الحياة الوثنية الى

حياة مسيحية ، اذا كنا نجهل الخلفية المظلمة للتنجيم أو الاخفائية° كما كشفها لنا البحث الحديث في المخطوطات واوراق البردي . في أعمال الرسل عندنا احداث مهمة تتعلق بتصادم المسيحية والسحر : بطرس وسيمون بولس وعليم وبولس في أفسس وفيليبي . كلّ هذه الأحداث تعكس العالم الذي دخل اليه بولس . فالسحر يفترض حالة نفسية كهذه تكون نقيضاً لحالة النفس في الدين . ان الطويّة الدينية هي شعور باعتماد المخلوق على الخالق ، أما في الرُقية (التعويذة) السحرية واستدعاء اسم الألوهة فهناك سعي الى اجبار الألوهة على الدخول في خدمة الانسان . مادة السحر كانت الخيرات الأرضية وكذلك روح الخلود . ودرب الفلسفة والديانات السرية كان طويلاً ومتعباً ، أما السّحرة فكانوا دائماً سريعي الحركة . فبكمية قليلة من المال استطاع الانسان أن يشتري جزءاً صغيراً من الخلود . في زمن بولس أدخلت العبراوية أموراً كثيرة من أجل اغناء الفقه اليوناني السحري . فاعتبروا موسى وسليمان مؤسسي السحر وبطريركيه . واستخدموا كذلك الترجمة اليونانية لاسم الله أي « العلي » (استخدمت الجارية التي فيها روح عرافة هذه اللفظة عندما قالت « هؤلاء الرجال عبيد الله العلي » (أعمال ١٦ : ١٦) .

٢٢

تسليح المبشرين :

انظر نهاية الحاشية ١٢

° الاخفائية : ايمان بالقوى الخفية وبإمكان اخضاعها للسيطرة البشرية .

٢٣

القدر :

كان معنى القدر والخوف من المقدّر متأصلين بعمق في الروح اليونانية . من القرن الرابع وصاعداً يصادف المرء بكثرة قوى القدر والحظ والطالع والجبرية . في الناموس الثابت للسببية التي كشفتها الروح اليونانية الفلسفية يخضع لها الآلهة أنفسهم . في نطاقها لا يسود شعور ولا منطق . ولذلك حتى عند الشعراء الكبار يسيطر التأمل اليائس في الحياة وكأنه دافع محبوب عندهم . في الاحاطة الأزلية بالأمور في مسرى التاريخ يؤمنون ، وعلى الأخص بوليفيوس[1] ، ان ناموس الحتمية هو السائد . لذلك شخصنوا الزمن وكأنه أحد آلهة القدر — الأيون ، أي الأبد — وأظهروه كائناً غريباً يصرّ بأسنانه . ويظهر أن بولس بقوله «أركان هذا العالم» (كولوسي ٢ : ٨) المع الى الآلهة الفلكية وآلهة القدر والنصيب . ولعلها كانت في فكره عند وصفه المعركة الحاسمة ضد «رئيس القوات الشريرة في الفضاء» (أفسس ٢ : ٢ ، ٦ : ١٢) . قبل العصر المسيحي ظهر «مخلّصون» عديدون أرادوا أن يخلصوا العالم من تحكّم القدر . فعدّوا أيسيذا أنها «مروّضة الضرورة» . وعدّوا سيرابيس[2] انه «مخلّص الفقراء» . تحت هذا الضوء تأخذ دعوة يسوع :

«تعالوا الي يا جميع المتعبين والرازحين تحت أثقالكم» (متى ١١ : ٢٨) معنى جديداً .

١— **بوليفيوس** : (نحو ٢١٠ — ١٢٥ ق . م .) مؤرّخ يوناني أخذ رهينة الى روما بعد معركة بيدنا ١٦٨ فأقام فيها ١٦ سنة وكتب تاريخاً قيماً لم يبق منه الا قسم وهو أثمن ما نملك عن تاريخ روما ونظمها .

٢— **سيرابيس** : اله مصري يوناني . أوجده بطليمس الأول ٣٢٨— ٢٨٣ ق . م . وأدخل في عبادته عناصر من الديانتين المصرية واليونانية للتوفيق بينهما . دعيت معابدة «سيرابيوم» . وأقدمها في منف وأكبرها في الاسكندرية . كانت مراكز ثقافية هامّة .

٢٤

أبيقور :

بعد أرسطو ترك الناس مثاليّة أفلاطون. فوصلت الحكمة اليونانية الى مفهوم عملي واع ورواقي للحياة ووصلت من خلال أبيقور الى التشاؤم والزهد بالدنيا، لأن تشاؤمه يوصل الانسان الى العدم الخلقي. عند تلاميذ بوذا القدماء ما يثير النفور أكثر من خطبة بولس في الاريوباغوس هو المفهوم القائل ان الله يتدخّل في تاريخ البشر بأبنه بعد أن يهجر السعادة الأبدية.

٢٥

ايروس — الحب :

في هاتين اللفظتين يعبّر بوضوح عن الفرق بين الهلينية والمسيحية. الأيروس هو حب متعاني (متعلّق بالمتعة)، وهو كحب الروح للحق والاندفاع في البحث عند أفلاطون (المائدة) وهو رغبة في المعرفة التي ترجع بها النفس الى التصديق بالفكرة النقيّة وبالجمال الأبدي. لكن الفكرة النقية (أي الله) لا تجيب الانسان ولا تحبه ولا تعرفه. فلا صديق لله، انه مكتف بذاته. هذا الايروس — لفظاً ومعنى على السواء — هو غريب عن العهد الجديد وعن بولس. هنا الله يحب أولا الانسان. فللحب منطلقان: واحد من الله الى الانسان (غلا ٢ : ٢٠) وآخر هو جواب الانسان لله (١ كور ١٣). وهذا نفسه يحدث عند معرفتنا لله. أما عند أفلاطون فالحب ليس متبادلاً. فالانسان وحده، وفي وحدته يسمع الاعلان الجديد: «أما الآن، بعدما عرفتم الله، بل عرفكم الله» (غلاطية ٤ : ٩).

٢٦

رجاء الخلود : . يظهر الايمان الشعبي القديم بالخلود و بما وراء القبر تحت تأثير الأسرار الأورفيكية في المنقوشات الحجرية على القبور ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد وحتى القرن الخامس بعد الميلاد . فالفردوس (ايلسيا[١]) ، اعتُبر مقراً للنفوس ومسكناً للآلهة (Virgil. Aen 6) وأحياناً الأثير وأحياناً أُخرى نجم من النجوم .

والفيثاغوريون اعتبروا «جزيرة الالهة السعيدة مقراً لها» . ولا يتضح لنا أبداً ما اذا كان الضمير يبقى بعد الموت أو اذا كانت الشخصية تحتفظ بكيانها . فالرواقيون آمنوا بأنها ستتحد بالنفس المسكونية . ورجاء البقاء الشخصي كان محدوداً جداً (١ تسا ٤ : ١٣) . لكنّ الفلسفة لم تقدر أن تنتصر على الايمان الشعبي . هكذا كانت النفس الوثنية معدة الى حدّ ما للرسالة السارة . فرجاؤها غير المحدود اتخذ في المسيحية وعند بولس قوة شخصية حارة في «أن تكون مع المسيح» .
(Festugière p. 142))

٢٧

مسألة الألم :

ان حجر الزاوية لكلّ فلسفة وديانة قد زعزع النفس اليونانية . فهي لم تكن فرحة في أعماقها ، بل كانت متألّمة . عظماء الشعر المحبوبون مثل اخيلفس[٢] واياس[٣]

١— **ايليسيا** : هي اهوار بلدة في بيوتيا عند هوميروس .

٢— **اخيلفس** : ابن بيليوس وثتيس زعيم المرميدون (أي شعب تساليا) وبطل الياذة هوميروس .

٣— **اياس** : هو ابن تلامون ملك سلامين احد ابطال الياذة هوميروس .

وانتيغوني[1] والكيستيس[2] وايفيانيا[3] يؤكّدون هذا الألم. وفي الوقت الذي كان فيه هرقل[4] مثالاً للنفس اليونانية فإنهم اعترفوا بقوة الألم الامتحانية: «تعلّم وسط الألم» في فلسفة ماركوس أوريليوس يقود تأمل الحياة الى الكآبة. معه وصلت الفلسفة اليونانية الى نهايتها. وتقويمه الشهير، «الى نفسه»، هو دعوة الى المخلّص الذي لا يعرفه. وما على المرء الا أن يقارن هذه الدعوة بلهجة بولس الفرحة.

٢٨

الحياة مسرح، جهاد:

مثلما يشبّه بولس في رسالته الأولى الى أهل كورنثوس وفي رسالته الى أهل أفسس الجهاد الخلقي بجهاد يفرح به الالهة والناس هكذا يفعل سينيكاس (العناية ٢) وأبيكتيتوس[1] (٣، ٢٢، ٥٠). لكن في حين ان الرواقي يفتخر بقدرته على أن

---

١ ـ **انتيغوني**: ابنة اوديب عَمي ابوها فكانت دليله. خالفت أمر ثية فدفنت أخاها بولينيس حكم عليها بالاعدام.

٢ ـ **الكيستيس**: ابنة بليوس وزوجة آذميتوس. كانت مستعدة للموت من أجله.

٣ ـ **ايفيانيا** ابنة أغاممنون، وسماها هوميروس ايفياناسا.

٤ ـ **هرقل**: بطل من أبطال الميثولوجيا اليونانية. وهو ابن زفس والكمينا. احرق نفسه على جبل ايتا. يضرب المثل بقوته.

٥ ـ **ابيكتيتوس**: (حوالي ٥٥م ـ حوالي ١٣٥م): فيلسوف يوناني. ارتبط اسمه بالمذهب الرّواقي Stoicism وتميّزت تعاليمه بنبرة دينية. كان عبداً رقيقاً أعتقه سيده فراح يدرّس الفلسفة في رومة حتى إذا أخرجه منها الأمبراطور دوميتيان Domitian قضى بقية حياته في نيقوبوليس Nicopolis قال بأن كل امرئ مواطنٌ في مدينته، ولكنه بالاضافة الى ذلك عضوٌ في المدينة الكبرى التي تنتظم الآلهةَ والناس والتي تشكّل المدينةُ السياسيةُ مجرّدَ نسخة رديئة عنها.

يظهر للعالم، بشعوره الداخلي الغني، انه يحتقر الألم، فإن بولس يفتخر بأنه «يحمل في جسده سمات الرب يسوع». ان ابيكتيتوس يعرف شجاعة المسيحيين («الجليليين») أمام الطغاة والموت (٤، ٧، ٦) لكنه يقلّل من شأنها عندما ينظر الى «العادة» السخيفة والغبية. ومركوس أوريليوس يفسّر شجاعة المسيحيين امام الموت وكأنها تصلّب وفرح بالموت لا قياس له. ولذلك يوجّه اليهم الاتهامات «لموقفهم غير المأساوي». ما لهم الا أن يقرأوا بولس ليفهموا أن الاستشهاد المسيحي هو تضحية بالحياة بسبب القناعات الداخلية (انظر (Bonhöffer, Epiktet

٢٩

الزواج والبتولية:

إذا ما نظر المرء الى المديح الذي وضعه ابيكتيتس لبتولية أحد الفلاسفة الكلبيين[1] (٣، ٢٢، ٦٩) الذي بقي عازباً «ليقدر أن يعيش مكرساً نفسه لمسائل الخدمة الإلهية... وكأنه مرسل من الله وشاف للنفوس» يظن بأن المؤلف قرأ الفصل السابع من رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس. فطبيب النفوس الكلبي أخذ من ذيوس[2] «المقام الملوكي»، كل الناس هم أولاده والرجال ابناؤه والنساء

١ــ **مذهب الكَلْبيين**: مذهب أسسه في أثينا الفيلسوف اليوناني أنتيسثينيس Antisthenes المتوفي عام ٣٦٥ قبل الميلاد، وكان أبرز ممثليه الأوائل ديوجينُس Diogenes الذي عاصر الاسكندر المقدوني. وقد دعا أصحابُ هذا المذهب الى العودة الى «الحياة الطبيعية»، وقالوا بأن الفضيلة هي الخير الأوحد وبأن ضبط النفس هو وحده السبيل إلى تحقيقها ليس هذا فحسب، بل لقد عمدوا الى نقد المجتمع ومؤسساته القائمة، بما فيها الأسْرة، نقداً هدّاماً، وجاهروا بعاداتهم للاسترقاق Slavery وللولاءات الضيّقة، صادرين في ذلك كله عن إيمان عميق بالحرية الشخصية والمساواة بين الناس، ومن نظرة «عالمية» إلى مختلف المشكلات الإنسانية.

٢ــ **ذيوس**: هو اسم قديم لزفس الذي كان سيّد الالهة لدى اليونانيين. وهو ابن كرونس اله العواصف والامطار. كان له معبد في الاولب. يقابله جوبيتر لدى الرومان.

بناته. فهو أب للجميع، أخ وخادم لأب الكل أي لذيوس. فبولس لن يقدر أن يصف بشكل أجمل عمله الكهنوتي. وتبريره الذي يعطيه للبتولية هو مشابه. في هذا العالم نحن نعيش في أوضاع استثنائية وكأننا في حرب (بولس كان يعيش وكأنه في انقضاء الزمن «ان الزمن يقصر»). فلو عاش في العالم فلاسفة كلبيون فقط، وأناس كاملون فقط، لما كنا بحاجة الى كهنة يحافظون على البتولية في سبيل الآخرين.

٣٠

العبودية :

وهنا أيضاً يتماس بولس والرواقيون. فالاثنان لا يباليان كثيراً بظروف الحياة الخارجية. فلا أهمية عند أبيكتيتوس اذا كنت عبداً أم حراً بالنسبة الى اهليتك الداخلية. فالانسان يقدر أن يكون حرّاً وهو عبد (يقول بولس : «هو معتق للرب» (١ كور ٧ : ٢٢)، ويقدر أن يكون بائساً رغم كلّ الحرية الخارجية. (انظر (Bonhöffer

٣١

سر الشكر الالهي وولائم العبادة الوثنية :

يعدّ بولس الانابة الى الاتحاد بالله الذي تقدّمه الذبيحة مسلّمة اساسية للطعام العبادي القديم. فهذه الانابة الازلية والاندفاع المقدس للنفس، في عبادة الوثن، يلتهمها الايمان بالشياطين. الآلهة القديمة عند بولس هي تغليق يحقّق فيه الشيطان إثمه. خاطئة هي محاولة بعض علماء الدين في ترجمة سرّ الشكر الالهي كتطوير للسحر الأولي الذي سيعطي قوته لكلّ من يأكل جسد الله. فسرّ الشكر الالهي يفترض تجسد المسيح وتجليه. (انظر Lagrange ص ٢٠٩).

٣٢

السلطان :

إن لفظة «السلطان» التي أثارت مناقشات عديدة نجدها في أوراق البردى السحرية وتعني القوة التي يكتسبها الساحر. لا شك أن بولس لم يراع المعنى السحري. أما الفكرة القائلة بأن النساء يجب أن يلبسن برقعاً لكي يصبحن محميات من الشياطين فهي فكرة كافاليه[١] متأخرة. إذن انها تعني فقط «الملائكة الحراس» 1920 G. Kittel, Rabbinica

٣٣

رسالة الدموع :

ضاعت بعض رسائل الاقدمين مثلما ضاعت بعض رسائل بولس لأنه كان من الصعب قراءتها. إن O. Ruller (DasFormular) كتب أن الحِبر الذي كان يتألّف من الصّمغ والسّخام (السّناج) يُمحى بنقطة ماء أو دمعة. ولذلك إمّحت بعض الرسائل في طقس ممطر حتى تعذّر على المرء قراءتها. فشيشرون[٢] تشكّى من أن بعض مستلمي رسائله تعذّر عليهم قراءتها.

١ــ **الكافاليه** : مذهب ثيوصوفي يهودي يعود مبدأه الى أيام السبي البابلي وكتابته الى عصور متأخرة.

٢ــ **شيشرون** ماركوس توليوس ١٠٦ــ ٤٣ ق. م. سياسي وخطيب روماني تعتبر خطبه آية في البلاغة الرومانية.

٣٤

المعمودية من أجل الأموات :

يربط بعض مفسري العادات الخرافية عند الكورنثيين التي تدعو الى أن يعتمدوا من أجل اقربائهم الاموات المتوفين على الوثنية بالاسرار الأورفيكية التي أقامت شعائر التطهير من أجل الاموات . لكنّ اليهود أقاموا شعائر مشابهة (٢ مكابيين ١٢ : ٤٣) وكذلك المصريون والاراميون . وهذه العادات انبثقت من حاجة عامة عند النفس الانسانية ، وبها يرتبط التعليم عن المطهر.

٣٥

المفهوم المأساوي عن الحياة :

يتفق بولس والرواقيون في مفهومها عن النظام العالمي الخرب . لكنّ الرواقية لا تجد مخرجاً للتساؤل عن التآلف الذي ينتهي اليه التنافر في الحياة ، لأنها تعلّم عن العودة الأزلية الى الأمور نفسها . حتى ان الشعور بتفاهة كلّ ما هو أرضي احزن مركوس اوريليوس . فهناك نفس من التشاؤم العظيم يصعد من كتبه كما يقول Festugière الذي وصل في بحثه «بولس ومركوس اوريليوس» الى اقتباس قول Péguy : ان مركوس اوريليوس لم يملك الديانة التي استحقها.

٣٦

الجسد والروح :

ارجع أوغسطين[1] الآية التي تتحدّث عن الشريعة المزدوجة التي تسود أعضائنا الى

١ــ **أوغسطين** (٣٥٤ــ ٤٣٠) اسقف هيبون (افريقيا) . تبع هواه في شبابه واعتنق مذهب ماني . ثم ارتد

انسان العهد القديم ، لكنه قال بعد ذلك في محاربته الهرطقة البيلاجية[1] انها ترجع الى الانسان الذي اعيدت ولادته (Miscl, Bardenhewer ١٩٣١) .

٣٧

التعليم عن التبرير :

لقد ازاح W. Wrede (Paulus' ١٩٠٧ ، عند Dialcktik, R. Steiger) التعليم عن التبرير من مركز لاهوت بولس ووصفه بأنه تعليم جدلي.

٣٨

الفريسيون والصدقيون :

كان للفريسيين هذا الاسم لأنهم انفصلوا عن جماهير الشعب وحفظوا الشريعة حفظاً شديداً . فألّفوا جماعة منظمة تنظيماً قويّاً بلغ عدد أعضائها ستة آلاف عضو (في عهد هيرودوس) بينهم كان عدد من علماء الشريعة . وهم مثّلوا التقليد «وتعاليم الناس» وحسبوها أسمى من وصايا الله كما قال لهم يسوع (مرقص ٧ : ٨) . أما الصدّقيون فانكروا كلّ تقليد وتمسّكوا بحرف الكتاب المقدّس ، ولذلك رفضوا

بفضل امه مونيكا والقديس امبروسيوس . قاوم البدع وحاول التوفيق بين العقل والايمان . مؤلفاته عديدة أهمها «الاعترافات» «مدينة الله» «في النعمة» .

١ — نسبة الى بلاجيوس البريطاني ، الذي عاش في القرن الخامس . آمن ان الخطيئة الأولى لا تنتقل الى نسل آدم لأن الخطيئة عنده هي فعل الارادة وليست نتيجة عطب في الطبيعة الانسانية . ولذلك أنكر الأهمية الجوهرية للنعمة الالهية .

القيامة الفردية والتحديد السبقي للمصير ووجود الملائكة والأرواح (أعمال ٢٣ : ٨). فقاومهم يسوع بكل صواب في مشكلة القيامة (مرقص ١٢) ورفض تفسيرهم للكتاب المقدّس لانه خلا من الروحانية.

٣٩

القيامة :

يظهر الايمان بالقيامة عند العبرانيين أنه تال لايمان المصريين والفرس (الزرادشتيين) وعلى الأخص بمعنى قيامة الأمة كما كانت في البدء. وتظهر القيامة الفردية لأول مرة في الكتاب الثاني من سفر المكابيين. أما القيامة العامة فلم تكن معروفة أبداً قبل المسيح.

٤٠

العذراء مريم :

على خط الخلاص : آدم والمسيح (الرسالة الى أهل رومة ، الفصل الخامس) كان يوستينوس[1] أول من أقام موازاة بين حواء ومريم. ونواة هذه الموازاة موجود في تعليم الرسول بولس عن التجسد Christentum, Prümm ١٥١).

١ — **يوستينوس** (نحو ١١٠ — ١٦٣؟) كاتب مسيحي ولد في نابلس واستشهد في روما. درس المذاهب الفلسفية طلباً للحقيقة فلم يقتنع. اهتدى الى المسيحية وأسّس مدرسة لاهوتية فلسفية في روما. له دفاعان عن الدين المسيحي.

٤١

المسيحيون في بومبيا وهيراكليون : herculanum)

يظهر أن الشعور السبقي الملهم عند De Rossi (١٨٦٢) بوجود آثار قبل مسيحية في بومبيا قد تأكّد في السنوات الأخيرة تأكّداً يستحق الانتباه. فهناك الحفر الذي اكتشف منذ وقت قريب على يد الاستاذ De Corte الذي هو عيّنة ثانية عن الكتابة الخفية المصلّبة الشكل والغامضة غموضا يبقي حل مغالقها مشكوكاً فيه.

S	A	T	O	R
A	R	E	P	O
T	E	N	E	T
O	P	E	R	A
R	O	T	A	S

كلّ خط عامودي أو أفقي من اليمين الى اليسار أو من فوق الى أسفل يعطي كلمة من الكلمات الخمس. ووفقاً لرأي جدير بالاعتماد كرأي F.Cumont يظهر ان للمربع أصلاً مسيحياً يهودياً وقد يفسّر وكأنه تهديد بالعقاب ضد بومبيا (Osserv. أو ١٩٣٧٠٢٠١٤ Christentum, Prümm ٤١٤). في سنة ١٩٣٨ وفي بيت فقير سكنه أحد العبيد في هيراكليون وُجد على طبقة جص صليب معلّق بمقياس ٦٠× ٤٥ . وهو في رأي مدير الحفريات أقدم صليب مسيحي عرفناه حتى اليوم (١٩٣٩ Ztg 25.6 Farnkf).

٤٢

الحانات الثلاث :

مثلما يعرف اوراتيس Forum' Apii هكذا يذكر شيشرون الحانات الثلاث التي كتبت منها ثلاث رسائل حيث يذكر «انني فيما كنت آتياً من Antium صادفت

طريق ابيا في الحانات الثلاث » . ولقد حدّد الاثاري Nibby المكان عند تقاطع طريقين .

٤٣

ناركيسوس :

ألّفت مسالينا زوجة الأمبراطور كلوديوس بالاشتراك مع ناركيسوس رئيس الشرطة السرية ومع وزير الاقتصاد بالا ومع كتبي البلاط بوليفيوس حكومة غير شرعية . وبعد موت مسالينا تزوج كلوديوس من منافستها اغريبينا ، أم نيرون (من زواجها الأول) ومن بين اعدائها الأوائل الذين امرت اغريبينا بقتلهم هو ناركيسوس. فتولّى احد الضباط المتقدمين في السن أمر قتله في حمامات سينويسا . والساعات الأخيرة قبل موته استخدمها لاخفاء سجله الغامض الذي يحوي مواد كثيرة عن معلومات لنبلاء رومانيين وتكشف قبل كل شيء عن الام — الامبراطورة . والى هذا العمل النبيل الذي يخالف العادات الوثنية تستند مسألة صيرورته مسيحياً على يد عبيده المسيحيين . (رومة ١٦ : ١٢ ، Imperium, A Mayer ، ١٩٣٧) .

٤٤

رسم كريكاتوري للمصلوب :

يعتبر بعض المفسرين امثال Ed. Meyer وWünsch ان هذا الحفر يرتبط بهرطقة عرفانية موجودة عند الشيتيين[1] ، أو أنه مزيج لاله اليهود مع اله المصريين سّيث —

١ — يقول الشيتيون بوجود ثلاثة مبادئ : النور والظلمة والروح . عندما يكون كل مبدأ على حدة يسيطر الهدوء ولكن عندما تختلط تخرج السماء والأرض والكائنات العاقلة . لكن الظلام يشعر بضعفه فيأخذ اجزاء من النور والروح اللذين يتمثّلها الى ذاته . ومن ثم عندما يختلط بالنور والأفعى ينتج ابن العقل الذي هو في جوهره ابن النور والروح . وبالطبع من المستحيل أن يغيب شيث وقاين وهابيل .

تيفون الذين كان الحمار عندهم حيواناً مقدّساً. والأرجح أنه افتراء هزل عن عبادة الحمير في هيكل اورشليم كان وراءه اليهود الذين تنصروا.

(Ed. Meyer, Ursprung II, Prümm, Christentum 135, Staedler, in Theol, Quartalschrift 1939, 253).

٤٥

الأطباء المسيحيون:

«من العدد الكبير لشواهد قبور الاطباء يجب أن نستنتج أن الكنيسة في ذلك العصر (عصر الديامیس) اعطت اهمية لوجود علم الطب في أيادي المسيحيين. فهناك منقوشة حجرية من القرن الثاني تسمّى ديونيسيوس طبيباً وقسيساً»

(De Waal - Kirsch, Roma Christiana)

٤٦

الزواج المسيحي والوثني:

يمدح الشاعر امفيس[١] العاهرة على حساب الزوجة. فبما أنهم لا يريدون أن ينجبوا أطفالاً يتركون البنات بلا مساعدة. ومثالهم هو أن يكون لهم ولد واحد. وبوليفيوس[٢] (سيرته ٦، ١٧) يتحدّث عن المدن التي تصبح فارغة ويصفها كخلايا هجرها قفير النحل، وهكذا تخسر هذه المدن قوتها بعد وقت قصير»

(Festugière 67)

---

١ — امفيس: كاتب هزلي اثيناتي معاصر لأفلاطون. وصلنا ٢٨ مؤلفاً في مؤلفاته. تسع منها تقوم على الميثولوجيا.

٢ — بوليفيوس: مؤرّخ يوناني (نحو ٢١٠ — ١٢٥ ق. م.) مؤرخ يوناني أُخذ رهينة الى روما بعد معركة بيدنا ١٦٨ فاقام فيها ١٦ سنة وكتب تاريخاً قيّماً لم يبق منه الا قسم، هو أثمن ما نملك عن تاريخ روما ونظمها.

٤٧

الشيطان وملائكته :

ما يشغل فكر بولس هو «معاند» الله وملائكة الشيطان (٢ كور ١٢ : ٧) أكثر من «ملائكة النور» (٢ كور ١١ : ١٤) . فهي تحاول أن تفصل المسيحي عن محبة الله (رو ٨ : ٣٨) . لكنّ المسيحيين هم الذين سيدينونها . وبولس يرجع مرضه الجسدي الى «ملاك من الشيطان» . ان Deissmann (Licht vom Osten 393) قد جمع مادة كبيرة عن العبادة الخرافية للملائكة التي يحاربها بولس .

٤٨

تحرير العبيد :

انه لنموذج رائع عن الاعتراف بالجميل اذا ما ذكرنا أنه في حدث تحرير العبيد كان يذكر بولس في الوثائق المسيحية المتأخّرة بهذه العبارة : «بما أن بولس صاحب الصوت العظيم جداً يهتف بشكل شفّاف «لا فرق بين عبد وحرّ» فها أنني احررك من هذا اليوم أنت عبدي المرتزق» (Deissmann 380)

٤٩

السجن في أفسس :

يقبل المفسرون الجدد وعلى الأخص الاستاذ Dunsca في انكلترا والاستاذ P. Feine في ألمانيا أن ما يسمى برسائل الأسر وخاصة الرسالة الى أهل فيلبي قد كتبت عندما كان بولس مسجوناً في أفسس . لكنّ الأسباب خاطئة على الأرجح وغير مقنعة (Morton 337, Prümm 132)

٥٠

الحياة والموت :

يجد المرء عند أفلاطون نبرة قريبة لمفاهيم بولس . فالحياة الارضية عند بولس هي مجرد عبور واستعداد وتطهير للحياة الحقيقية بعد الموت . وشيشرون نفسه (في حلم سكيبيون) يقول : «من يهرب من ارتباطات الحياة مثلما يهرب من سجن يعش عيشة حقيقية وحده . فحياتكم هي موت» .

٥١

لاهوت الصليب :

يتألف الخلاص عند بولس من أربع مراحل :

— افراغ الذات والتخلي عن القوة الالهية عند التجسد .

— عبور الاله — الانسان لجة الحياة بشكل عبد .

— التضحية التكفيرية على الصليب .

— اتمام التضحية بالقيامة التي يجعلها حاسمة .

ان الأهمية الخلاصية للموت على الصليب تقع في حجم محبة يسوع (أفسس ٥ : ٢ ، رومية ٥ : ٦ — ٩ ، ٨ : ٣٢ ، ٢ كور ٥ : ١٤) . فيسوع تجاوز كلّ أبطال التاريخ ، لأنه ضحّى بنفسه من أجل خير الشعب ، بل من أجل الانسانية جمعاء . فسلطانه الملوكي كرب ، والعبادة المسيحية (سرّ الشكر الالهي) وكلّ التقى المسيحي ، كاقتداء بالمسيح تستند الى هذا الحدث التاريخي : «فمنيتي أن اعرف قدرة قيامته والشركة في آلامه ، فأصير على صورته في الموت» (فيليبي ٣ : ١٠) .

٥٢

مشاركة المسيحيين في الحياة الاجتماعية :

رغم الود والتعاطف الذي اظهره بولس للدولة الرومانية فإن المسيحيين تجنّبوا بعض الوظائف الاجتماعية والمهن وعلى الأخص المهن التعليمية . «عندما كان يعلن احد الاساتذة انه يريد أن يعتمد يشترط عليه الأخوة أن يترك وظيفته ، لأن مصدر أكثر المواد التعليمية في المدارس الرسمية كان من الميثولوجيا الوثنية ، ولهذا السبب أتى عدد قليل من الشهداء من القسم التعليمي» (De Waal- Kirsch, Roma Christiana) فكاسيانوس[١] الذي قتله تلاميذه بريش حديدية هو من الاستثناءات القليلة .

٥٣

الفكر الدنيوي :

في العصور القديمة تصدّع موقف الانسان من العالم ، لأنه من الفرح الساذج بالعالم وصل حتى التشاؤم . وهذا الموقف مرّ عبر مراحل مختلفة :

— في المرحلة الأولى يكون الانسان مرتبطاً «بالأرض التي تلده» .

— في العصر المدرسي يكون في خدمة المدينة بشكل كامل .

١— **كاسيانوس** : ولد في اقليم تراقيا ، ولما صار شاباً ترهّب في بيت لحم . ثم تنقّل كثيراً في الاديار وزار الصحاري المصرية ليقف على ما كان هناك من الكمال في الحياة الروحية . وسنة ٤٠٤ نراه بقرب يوحنا الذهبي الفم شماساً . وقيل انه زار ابطاليا ورسم شماساً هناك . ثم ذهب الى مرسيليا نحو سنة ٤١٥ وأنشأ هناك ديرين واحداً للرجال وآخر للنساء . ويذكر جناديوس انه مات موت القديسين نحو سنة ٤٣٥ للمسيح .

— في العصر الهليني وفي الرواقية يعدّ الانسان مواطناً عالمياً .

— عند مركوس اوريليوس نجد ولأول مرة مبدأ Civitas Dei الذي هو مواطنية سامية ، أما المواطنيات الأخرى هنا فهي مستعمرات له

(4, 23, 3 Festugière 269. Prümm, christentum 51)

٥٤

السحر الروماني المتعلق بالاعداد :

عندما تزعزع الايمان القديم بذيا عند الرومان التجأت الجماهير الشعبية اليائسة الى سحر الشرق والى الخرافات البابلية . ولذلك لم تكن نصيحة اوراتيس نافلة : «لا تبحث ماذا اعطتك أو اعطتنا الالهة من نصيب وقدر ، ولا تتورط في الاعداد البابلية» .

٥٥

الوضع في الصلاة :

كان الناس في العصر المسيحي القديم يصلّون وأيديهم مرتفعة الى السماء أو مفتوحة على الجنبين ، أو مصالبة . اما الشكل الذي يكون فيه الكفان مطويين فقد نشأ عن القانون الروماني للخدام . فالخادم كان يضع كفيه بشكل صليب على كفي سيده علامة على أنه أوقف نفسه على خدمته وحمايته بكل تواضع (M. Müller, Frohe Gotteshiebe 66) وبما أن الوضع الداخلي والوضع الخارجي لهما تأثير متبادل يظهر هنا بوضوح استعداد مختلف تجاه الله .

٥٦

بترونيلا :

يرى الانسان على الباب النحاسي للقديس بطرس في روما بولس وهو يرجع الى بترونيلا البرقع الذي أعطته اياه ، عندما كانوا يأخذونه الى مكان المحاكمة . وحالما أمالت الحرقة فوق عينيها المنطفئتين عادت فاكتشفت الضوء بسرعة .

(De Waa'-Kirsch 346)

جدول تاريخي عن حياة الرسول بولس

ملاحظة تمهيدية :

إن الإشارة التاريخية الفريدة التي تدلّ على التسلسل التاريخي لاحداث الرسول بولس والتي تؤكّدها الأثار القديمة هي رسالة الامبراطور كلوديوس الى مدينة دلفي. في هذه الرسالة التي حفرها أهل دلفي على بلاط الرخام وأقاموها في مكان عام يذكر كلوديوس غاليون كصديق له وكوالٍ على اخائية. ووفقاً لهذه الرسالة فقد حصل غاليون على رتبة «والي اخائية» أي والي المنطقة الرومانية في بلاد اليونان وذلك في شهر حزيران من سنة ٥١ أو ٥٢ ب. م. انني أفضل سنة ٥٢ لأن الاحداث حتى السجن الأول لبولس تترتّب بشكل غير مضطرب. وبما أن غاليون حاكم بولس بعد استرداد سلطته وبما أن بولس بقي في كورنثس ١٨ شهراً نقدر أن نحسب زمن الاحداث اما الى الامام أو الى الخلف.

أما التسلسل التاريخي الثاني الأكيد فهو أن فيستسوس اعاد «الوالي فيليكس» في صيف سنة ٥٩ أو ٦٠.

متى صار بولس مسيحياً؟ للإجابة عن هذا السؤال عندنا اشارتان لا نقدر أن نتجاوزهما. الأولى سنة موت الرب، أي سنة ٣٠م (٣٣ م؟) والثانية وهي لاحقة للأولى سنة ٣٧م. يخالف النظرةَ الأولى Harnack, Blass, O. Holzmann) والمفسرون القدماء مما يثبت عدم وجود مجال لتطور الكنيسة حتى موت استفانوس. أما النظرة الثانية (Pratt, Vitti) فتجعل المجمع الرسولي والسنوات الاربع عشر التي تقع بين رحلة بولس الأولى الى أورشليم ورحلته الثانية صعباً جداً. لذلك يبقى عندنا بالضرورة تسلسل زمني وسط وهو ٣٣— ٣٤ ب. م. بهذه الفرضية تُرتب بسهولة «السنوات الثلاث» التي قضاها بولس في صحراء العربية (أو بلاد العرب) وتُرتّب أيضاً السنوات الأربع عشرة والتأريخ المبكّر للمجمع الرسولي

أي في سنة ٤٨ أو ٤٩م الذي من الضرورة أن يوضع هناك ، لأننا بسرعة نجد بولس في كورنثس .

بما أن بولس كان «شاباً» عند موت استفانوس (٣٣/ ٣٤ب. م.) وكان شخصية تفرض ذاتها فإننا نقدّر انه كان في الثلاثين من عمره أو أقل . اذن لا بد أن يكون قد ولد بين السنة الأولى بعد المسيح والسنة الخامسة . بهذا يصح أنه بعد ٣٠ سنة من اهتدائه ، عندما كتب رسالته الى فيليموس (حوالي سنة ٦٢ب. م.) يسمّي نفسه «شيخاً» ، مما يعني أنه كان على الأقل في الستين من عمره .

وهكذا يبرز الترتيب الزمني التالي عن حياة القديس بولس (مع تعيين تواريخ الاباطرة الرومان بشكل مواز) :

١ــ ٥ ب. م. ولادة بولس ٣٠ صلب المسيح	}	أوغسطس[1] ١٤ ب. م.
٣٣/ ٣٤ رجم استفانوس اهتداء بولس	}	طيباريوس[2] ١٤ــ ٣٧

١ــ **أوغسطس** (كايوس يوليوس أوكتافيلفس) (٦٣ ق. م. ــ ١٤ ب. م) ابن قيصر بالتبني : اشترك في حكم المثلث الثاني مع انطونيوس وليبيدس . انفرد بالحكم وأسس النظام الامبراطوري بعد اكسيوم ٣١. أقرّ السلم وشجّع الادباء. في أيامه ولد السيد المسيح في بيت لحم .

٢ــ **طيباريوس قيصر** : ولد سنة ٤٢ ق. م. وكان ابناً لأوغسطس بالتبني وصهراً . في ملكه حكم اليهودية كوالين فاليريوس كراتوس وبيلاطس البنطي . وقد ابعد اليهود وقتياً عن رومية ولكنه الغى امره فيما بعد وعوّض عليهم بسبب قساوة حكام الأقاليم . وقد بنى هيرودوس انتيباس طبرية على بحر الجليل اجلالاً له وقد عجّل بموته كاليغولا الذي خلفه . وفي أيامه صلب المسيح .

٣٤ — ٣٦	اقامته في العربية (بلاد العرب)	كاليجولا[١] ٣٧ — ٤١
٣٦/ ٣٧	رحلته الأولى الى أورشليم	
٣٧ — ٤٢	اقامته في طرسوس	
٤٢	وصوله الى أنطاكية	
٤٤	المجاعة ورحلته الفورية الى أورشليم	
٤٥ — ٤٨	**رحلته التبشيرية الأولى**	كلوديوس[٢] ٤١ — ٥٤
٤٨/ ٤٩	المجمع الرسولي في أورشليم ومقاومته لبطرس في أنطاكية.	
٤٩ — ٥٢	**رحلته التبشيرية الثانية**	
٤٩/ ٥٠	في فيليبي	
٥٠/ ٥١	في سالونيك وفيريا	
٥١/ ٥٢	في اثينا وكورنثس ورسالتاه الى أهل كورنثس.	
٥٣ — ٥٨	**رحلته التبشيرية الثالثة**	

١ — **كاليجولا**: ابن اغريبا وحفيد طيباريوس بالتبني. صار أمبراطوراً على رومة واشتهر بجنونه وفظائعه فأراد أن يجعل من حصانه قنصلاً. اغتاله الحرس.

٢ — **كلوديوس**: نادى به الجيش امبراطوراً على رومة. كان حسن الادارة رغم ضعفه وسيطرة محيطه وزوجته اغيريبنا التي قتلته.

٥٤ — ٥٧	في أفسس	
٥٤/ ٥٥	رسالته الى أهل غلاطية	
٥٦	رسالته الأولى الى أهل كورنثس	
٥٧	هربه من أفسس. رسالته الثانية الى أهل كورنثس ورحلته القصيرة الى ايليريا.	
٥٧/ ٥٨	قضاء الشتاء في كورنثس ورسالته الى أهل رومة	
٥٨	رحلته الأخيرة الى أورشليم	
٥٨ — ٦٠	سجنه في قيصرية	
٦٠/ ٦١	رحلته الى رومة	نيرون [3]
٦١ — ٦٣	سجنه الأول في رومة. رسائل الأسر	٥٤ — ٦٨.
٦٣ — ٦٦	رحلته الى الشرق. تبشيره في كريت، رحلته الى اسبانيا.	
٦٦/ ٦٧	عودته من اسبانيا. وقضاؤه الشتاء في نيكوبولس، رسالته الأولى الى تيموتاوس ورسالته الى تيطس.	
٦٧	سجنه الثاني في رومة ورسالته الثانية الى تيموتاوس. استشهاده.	

٣— **نيرون** (٣٧— ٦٨م) امبراطور روماني (٥٤— ٦٨م). تميّز عهده بالطغيان والوحشية. كان مضطرب الشخصية فخيّل اليه أنه فنان وممثّل مسرحيّ كبير. قتل أمّه (عام ٥٩م)، وزوجته أوكتافيا Octavia (عام ٦٢م). أحرق روما (عام ٦٤م). واتّهم المسيحيين بذلك فاضطهدهم. انتحر بعد أن ثار عليه القادة العسكريون في إفريقيا وإسبانيا وبلاد الغال Gaul.

٢ — بعل طرسوس ، الألوهة العليا غير الفاعلة .

٣ — سدان — هيراقل في طرسوس ، هو الاله الفاعل ، لقد كان اله النبات أيضاً الذي كان يموت ويقوم . وتمثاله الذي هو فوق عربة هرمية الشكل نقل الى المكان الذي سيحرق فيه .

برلين ، متحف المسكوكات (النقود)

٤ — قبر آتيس ، مع مشاعل وحبوب الصنوبر.

ذرسذي ، البرتينم Albertinum

آتيس هو رفيق ومحبوب عند الأم الأسيوية (آسيا الصغرى) التي هي أم آلهة كيفاليس مثل أذون واسيريس وهي نموذج الاسطورة المتعلقة باله النبات الذي يموت ويحيا. في روما أقام اتباعه عيده الربيعي بالمراثي وبأغاني الفرح وبمعمودية الدم (دم العجل) وبعشاء ديني. يصف Firmicus' Maternus' حفل المسارة فيقول «انهم يضعون في الليل تمثال الله على ظهره فوق محمل ويبدأون بالنوح والمراثي وبعد ذلك يحملون انواراً، ويَدْهَن النائحون انفسهم بالطيب ويرددون هذه الكلمات: تشجعوا أيها الكهنة ان الهكم صحيح ومعافى. (انظر النص). تختلف هذه الأسطورة في دافعها وفكرتها الرئيسة اختلافاً أساسياً عن نزول المسيح الى الجحيم وقيامته وتعبر عن خوف الانسانية ورعدتها أمام شريعة الموت كما تعبّر عن ابابة قديمة عند الانسانية.

٥ـــ قاعدة نذرية لكيفاليس ، وهي على العرش مع أشبال ويحيط بها هرميس (بعصى سحرية) وآتيس.

باريس ، لوفر

هي النموذج الكلاسيكي عن ابتهالات قديمة مرفوعة الى الالاهات الأم . فهم عبدوها كالهة الطبيعة المتوحشة بتماثيل من الحجارة النيزكية (الرجم) وبصنوبر ولوز . ترمز الأشبال الى الوحشية الكؤودة ويرمز الجذع الذي يشبه البرج الى أنها حامية المدينة . في روما وبعد نقل الرجم الأسود (بعد أمر سيفيلاس) اعتبروا أنها خلصتهم من الخطر القرطاجي . وعبادتها ارتبطت اثناء احتفالات المسارة بالوجد والاختطاف وبلغت مبلغ الجنون وخصي الذات . سمح بهذه الاحتفالات لأول مرة في روما في عهد كلوديوس . ومعبدها كان في بلاتينس . وعيدها كان يقام في شهر نيسان بابتهالات وتغطيس التمثال وعرض مسرحي .

٦— نقش مع أوصاف من ميثولوجيا ميثراس

معبد Heddenheim Wiesbaden, Landes museum

إن ميثراس مساعد اله النوراورموز خضع في مسيرته الى الغرب لتأثير هليني كبير وصار فيما بعد اله الجنود الرومان. ديانته تحمل خصائص الشجاعة والبطولة. واللوحة تمثّل ميثراس وهو يقتل ذلك الثور القديم الذي من دمه صدرت كل حياة على الأرض. وذيل الحيوان ابتدأ يتحوّل الى سنابل القمح. لكنّ الحية والعقرب وضعا سماً في دمه. وحاملوا المشاعل بمشاعلهم المرفوعة والمنكسة هم رمز النور الذي يشرق أو يغرب. وفي أعلى اللوحة يظهر ميثراس لكن في قرص الشمس وهو يصعد الى السماء. والعدد الأكبر من كهوف عبادة ميثراس التي تصل حتى انكلترا تظهر مسيرة انتصار هذه الديانة الى الوقت الذي اصطدمت فيه بالمسيحية.

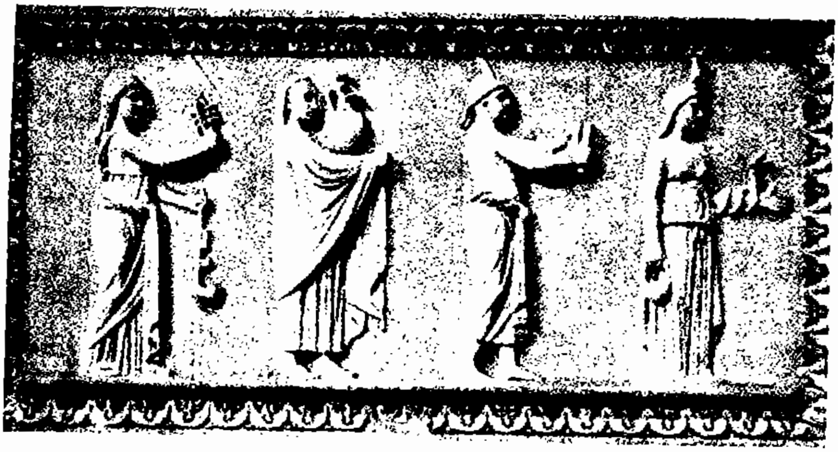

٧— نقش قديم عليه موكب ايزيس

روما متحف الفاتيكان

ان ايسيس إلاهة مصرية قديمة للخصب وزوجة الإله أوسيريس الذي يموت ثم يحيا، إلاهة البحر والسماء (الاهة كل شيء) عبدها الناس بحماس «كأم عذبة». واللوحة تمثل الكاهنة التي هي على رأس موكب مع زهرة اللوتس (النّفل) على الجبهة والأفعى الفضية على الساعد. «والكاتب الشريف» (للالاهات) له ريشة

خاصة على رأسه ، و«النبي » يحمل جرة فيها مياه مقدّسة من النيل والخادمة تحمل الصلاصل (آلة موسيقية مخشخشة) والدلو.

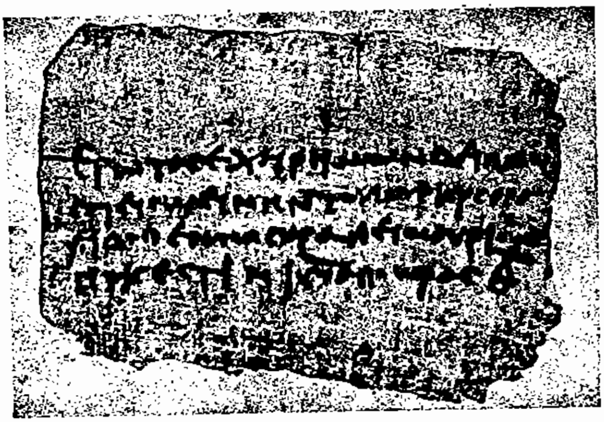

٨ــ دعوة الى وليمة غذاء عند سيرابيذوس (الحجم الطبيعي) من القرن الثاني ب. م.

٩ــ منقوشة حجرية ليبرنس مختصة بالتقويم.

برلين، المتاحف الوطنية

اكتشفها إثاريون المان في الرواق الشمالي لسوق بريني .
اعترف بقيمتها كلّ من
Harnach, Wilamowitz - Mocllendorf, TH. Mommsen

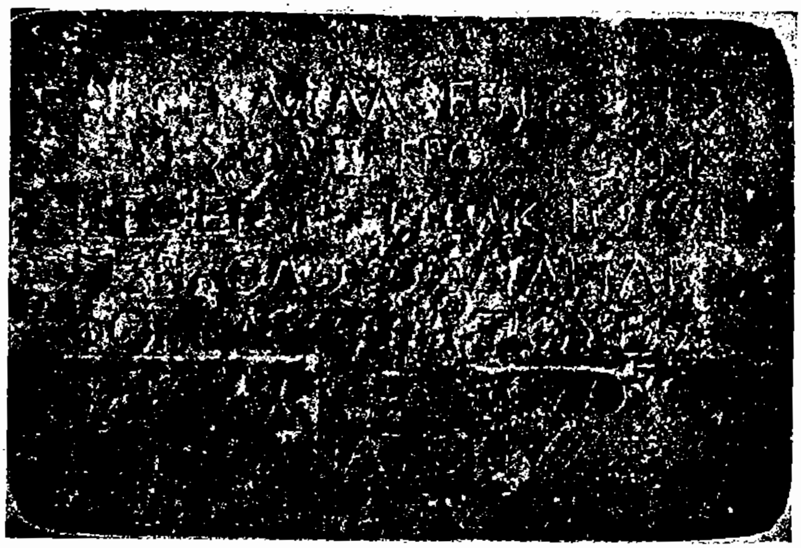

١٠ — منقوشة اشعارية لهيكل اورشليم الذي بناه هيرودوس .

السنوات الأولى من الدور الامبراطوري . توجد في متحف القسطنطينية .
ظن Mommsen أنه اكتشف آثار ضربات فأس «جنود طيتس»
(Römische Geschichte V, 513)

١١ — مجمع كفرناحوم.

يدلّ النموذج المعماري الهليني للآثار على أن كفرناحوم كانت ملتقى مهماً للطرق. انه من غير الأكيد أن يكون هذا المجمع هو الذي بناه لليهود قائد المئة (لوقا ٧ : ٥)، أو أنه بناء آخر شيّد في المكان نفسه في وقت لاحق. ان البناء القديم للمجمع كان بازيليكا ثلاثية مع علية ولها بهو معمّد مع تمديدات للمياه. وفي الداخل كانت هناك قبة للشريعة مع رقوق من الكتاب المقدس، وكانت هناك قراية ومنصّة وعرش (متى ٢٣ : ٦) ومصابيح ومنارة ذات سبعة أنوار. وكانت هناك زينة ورسوم هلينية.

١٢ـــ أسير غلاطي ونصب تذكاري.

روما ، متحف الكابيتول

في المكان الذي «ارتدّ» فيه العدو على أعقابه (حيث أقيم النصب) اقاموا شكل الحرف (صليب) مصنوعاً من حراب ومغطى بالغنائم. هذه اللوحة المأخوذة من اللغة العسكرية الرومانية لها أساسها في (كولوسي ٢ : ١٤).

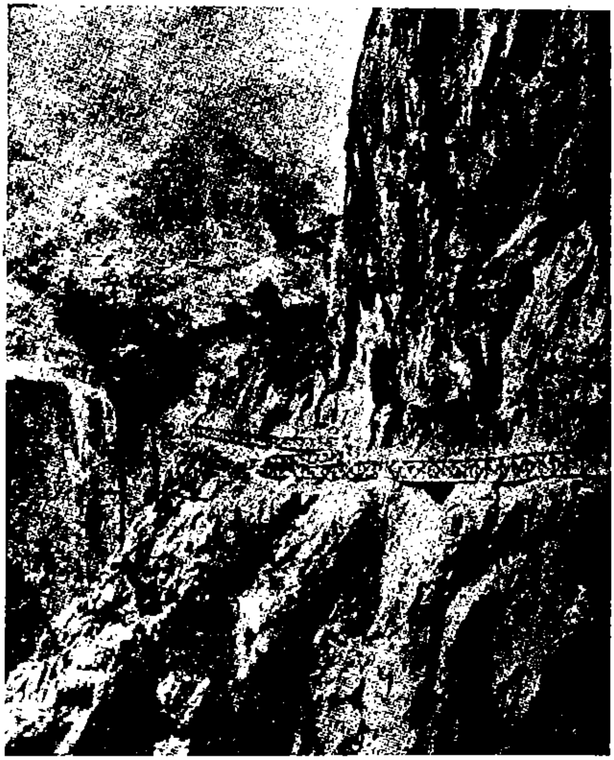

١٣ — طريق في سلسلة جبال طوروس

Philipp Holzmann A.G. Frankfurt a.M.

عندما مهّدوا طريق السكة الحديدية في بغداد أقامت شركة Holzmann هذا الطريق في وادي ساكت بجانب وادي «مداخل كيليكيا». في اللوحة تظهر بوضوح وعورة سلسلة هذه الجبال.

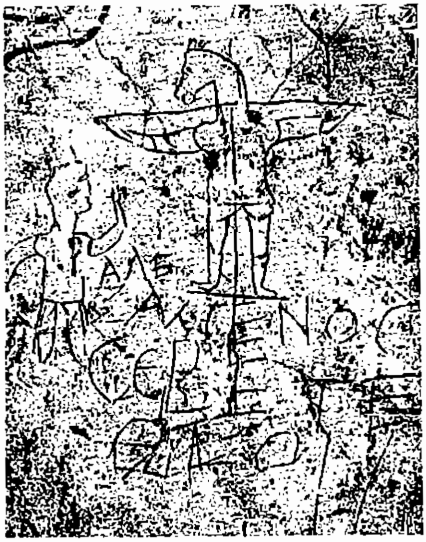

١٤ــ كاريكاتور المصلوب
في ساحة بلاتينو ،

روما ، متحف ثرمون

١٥ــ نيرون . تمثال نصفي
في متحف ثرمون في روما .

١٦ ــ استعراض للأطفال.

تصوير جدراني روماني في اوستيا ، روما متحف الفاتيكان.

في شهر آذار ومع بدء الابحار نُقلت بموكب كبير سفينة محمّلة الى الاهة البحر ايسيس وكانت موضوعة على عربة Carrus navalis) التي منها اشتقت لفظة الكرنفال . وعند الشاطئ أسلمت الى الأمواج.

(انظر Apuleius, Metamorphe في نهاية المسارة وأسرار ايسيس.

عند الآخرين هذه اللوحة تمثّل محاكاة لموكب زفافي.

١٧ ــ الالاهة° اثينا وهي تتأمل وتفكر. نصب تذكاري في الأكربول.

اثينا، متحف الأكربول

° أثينا : إلاهة الحكمة والفنون والحِرَف النِّسوية عند الإغريق. تقابلها مينيرفا Minerva عند الرومان. وقد جعلها هوميروس في الإلياذة Iliad إلاهة حرب تقاتل الى جانب أبطال الاغريق وتثبّت أقدامهم في ميدان المعركة.

١٨ــ سوق كورنثس وفق الحفريات الأخيرة

الى اليسار في طرف كورنثس هناك سوق مدني والى اليمين هناك انقاض بعض المتاجر والممرات وأساس منصة القضاء حيث مثل بولس امام المحكمة . وفي الوسط باتجاه اليمين هناك الأعمدة السبعة لمعبد ابولون . لقد كان دمارها تاماً بسبب الحروب والهزات الأرضيّة وموجات التعصب ، حتى لم يبق سوى هذه الانقاض المحزنة .

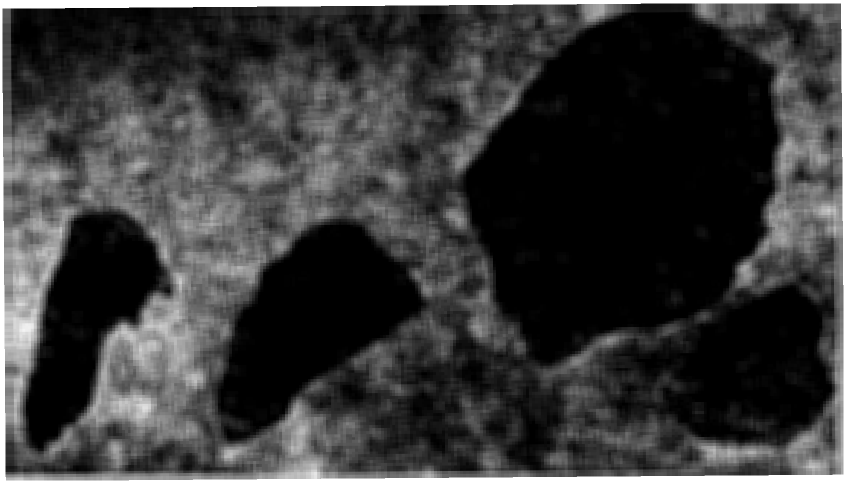

١٩ — اجزاء من منقوشات غاليون في دلفي ابتداء من نهاية سنة ٥١ حتى الأول من آب سنة ٥٢ب. م.

ابتداء من نهاية سنة ٥١ حتى الأول من آب سنة ٥٢ ب. م.

«لوكيوس يونيوس غاليون صديقي
ووالي اخائية».

٢٠ — ارتميس الأفسسية.

روما، متحف الكابيتول.

عدّ المستعمرون اليونان هذه الالاهة التي هي الاهة الطبيعة في آسيا الصغرى قبل العصر اليوناني انها الاهة الصيد بسبب وحشيتها وعلاقتها بمملكة الحيوان (انظر ثوب التمثال) . فالأثداء التي عدّها بعضهم بأنها ثوب محرشف تذكّر بالاهة الأمومة في منطقة ذات حضارة ترئسها أم أو أنها قائمة على نظام الأمومة . وحتى لو لم تكن هناك علاقة تاريخية — دينية بها فإن أفسس كانت مركز العبادة الحسية الغامضة للالاهات الأمهات . ولقد شاءت العناية الالهية أن تُصاغ عقيدة والدة الإله في هذا المكان بكونها سوراً محامياً عن الايمان والأخلاق المسيحيين .

٢١ — أفسس . المسرح ، منظر من البحر باتجاه سجن بولس .

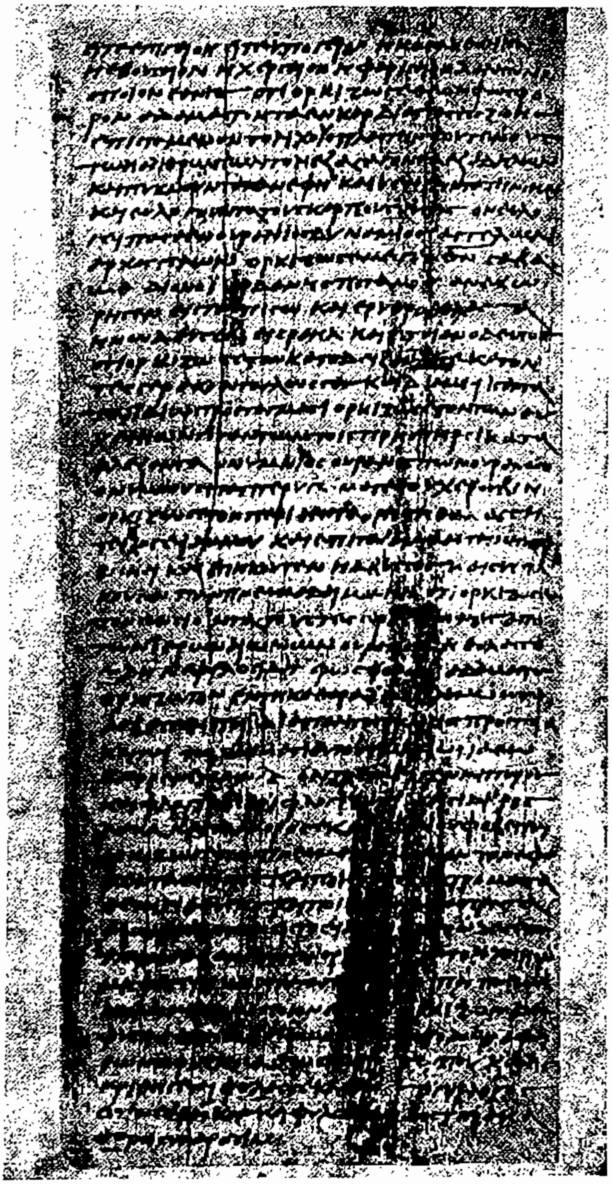

٢٢ــ المخطوطة البردية السحرية الكبيرة (من الجهة الخلفية) كتبت في مصر حوالي سنة: ٣٠٠ ب. م.

باريس ، المكتبة الوطنية

٢٣ــ منقوشة حجرية من معبد «الاله المجهول».

روما ، ساحة البلاتينون.

منقوشة حجرية رومانية لمعبد مكرّس للاله المجهول

(اما لاله أو لالاهة).

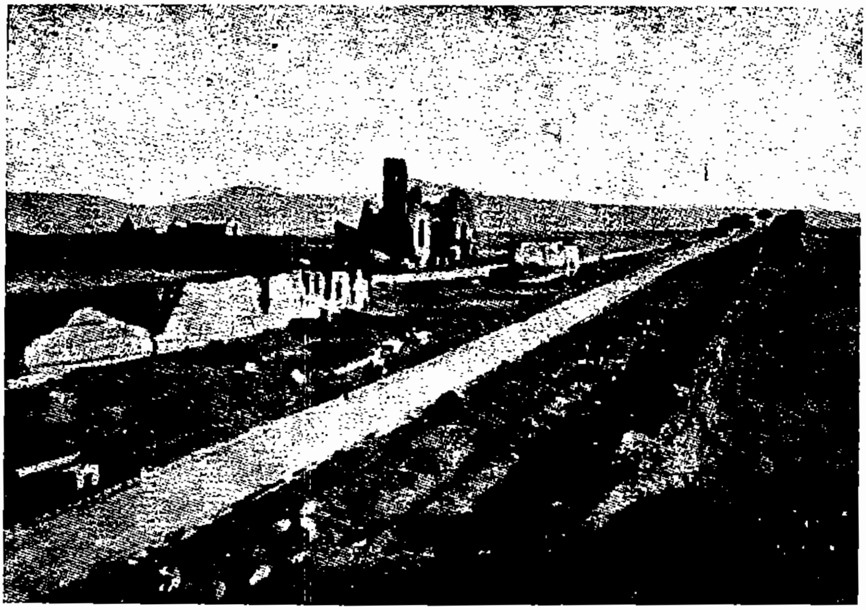

٢٤ـــ جزء من طريق ابياس

ترى عين المشاهد اتجاه المدينة وجبال الالبانوس حيث مرّ السجناء ومن بينهم بولس. وهذا الجزء من الطريق الذي تشير اليه اللوحة يقع بين آثار كيكيلياس متاليس و Torre de Selce وهو برج من العصور الوسطى بني على أنقاض طريق أبياس.

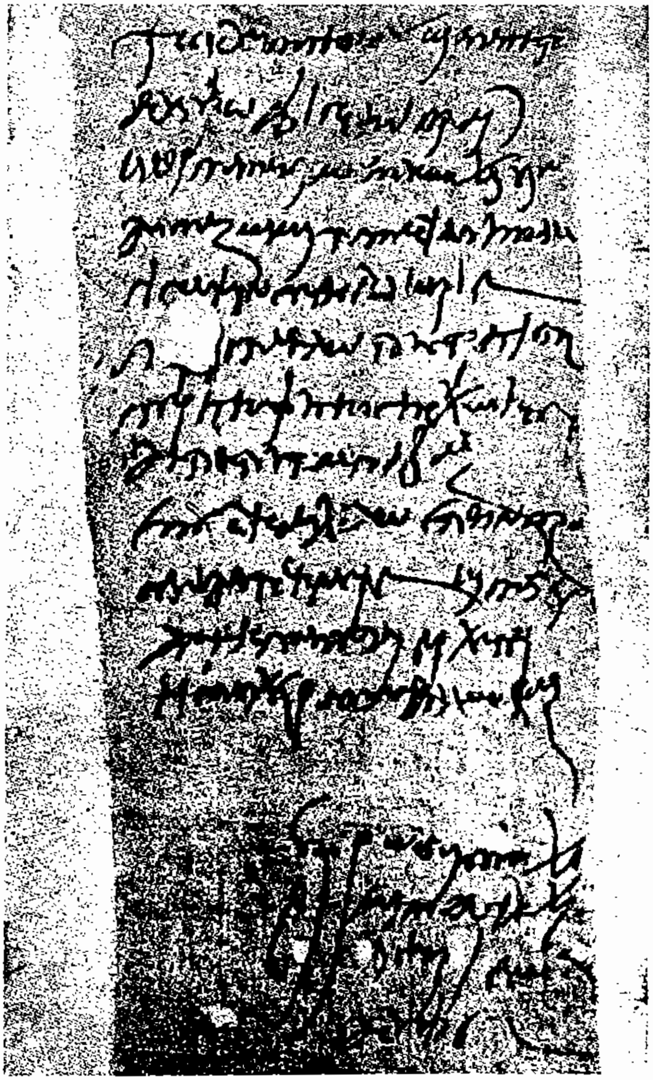

٢٥ــ رسالة كاور من ارموبولي الى الضابط فلافيوس افيناوس في ذيونيسياذا في الفيوم .

ورق بردى يعود الى ٣٤٦ ب. م .

لندن المتحف البريطاني

ورق بردى يعود الى ٣٤٦ب م ، لندن المتحف البريطاني .

٢٦ — القاء القبض على الرسول بولس.

نصب من ناووس القائد بوليوس فاسوس

(+٣٥٩)

روما ، فاتيكان.

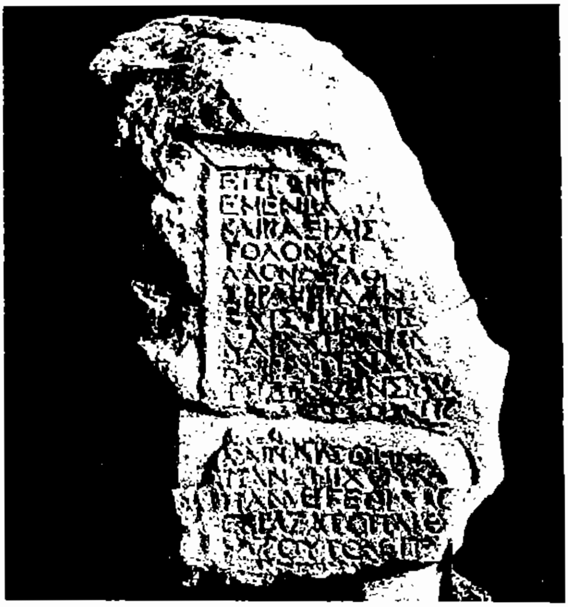

٢٧ — منقوشة حجرية لافركيوس

«ملكة المنقوشات المسيحية القديمة» وهي من القرن الثاني ب. م. وجدت في ايرابوليس في فريجيا. وهي الآن في متحف لاتران في روما.

٢٨ــ مدخل الى ديماس القديس سفاستيانوس (بحسب

P. Stygdr Das Apostel Monument

و Lietzmann (Petrus' und Paulus in Rom)

هنا كان يوجد في وقت من الأوقات نقش حجري للبابا ذاماسوس وهو شهادة مكتوبة للايداع المؤقت لهامتي الرسل تحت مركز الباسيليكا الحالية للقديس سفاستيانوس .

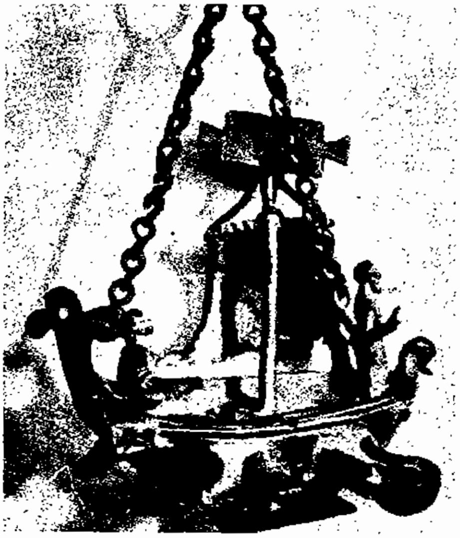

٢٩ — ثريا مسيحية قديمة بشكل سفينة برونزية من القرن الرابع .
فلورينا ، المتحف الاثري .

هذه الثريا الصغيرة التي صنعها فنان مسيحي قديم فيها كثير من الابداع ولها شكل سفينة حيث يجلس بطرس على المقود وبولس على المجذاف .

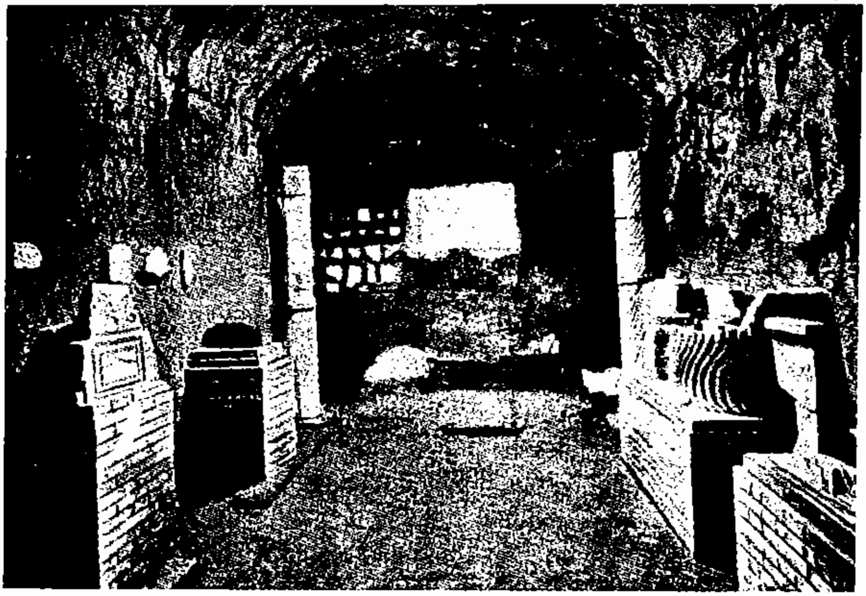

٣٠ــ مخبأ الاكيليون في ديماس بريسكيلا.

إن عائلة الاكيليون التي ارتبطت برباط القربى من الكورنيليين كانت من أهم عائلات روما الارستوقراطية. وكانت لها صلة كبيرة بتطور الطب في جزيرة طيباريوس حيث كان هيكل اسكليبيوس. ووفقاً لرأي De Rossi عندنا في شخص Acikius Glabrio الذي وجد غطاء ناووسه سنة ١٨٨٠ في المخبأ شاهد سن الشواهد المسيحية الأولى.

المصادر والمراجع

(من بين المراجع الأجنبية وغير الأجنبية التي لا تُحصى تقريباً والتي تتعلق بتفسير الكتاب المقدس وبعلم الأديان والتي استخدمها الكاتب بكلّ تقدير وعرفان بالجميل ونظّم كلّ ما استقاه منها نورد هنا الكتابات التي استخدمها كثيراً أما بذكرها حرفياً أو بذكر محتواها. والاعداد الصغيرة التي ذكرت ضمن النص في أعلى الكلمات تقابل الاعداد المذكورة أدناه في المراجع).

١. المصادر

Die Heilige Schrift des Alten Testamentes, von E. Kautzch, Tübingen 1909.
Die Heilige Schrift des Neuen Testamentes. Bonn 1912.
A. Merk: Novum Testamentun Graece et Latine Rom 1928.
Konstantin Rösch: Das Neue Testament. Paderborn.
P. Riessler, Altjüdisches Schrifttum. Augsburg 1928.
Neutestamentlische Apokryphen, von E. Hennecke, Tübingen 1924.
Praxeis Paulou (Acta Pauli) ed., C. Schmidt. Hamburg 1936.
Jos. Flavius Jüdische Altertümer, übers, von Kaulen.
Seneca, Philosophische Schriften, ed., Th., V. Schefer, Berlin.
Epiktet, von Schluthess - Mücke. Heidelberg 1924.
Tacitus, Sämtliche Werke, Berlin 1935.
Suetonius, Cäsarenleben. Leipzig 1936.
Pausanias, Beschreibung von Griecheland, übers, von Schubart, Stuttgart 1859.

٢. المراجع

1. E. Baumann (Godin), Der heilige Paulus. München 1927.
2. Th. Birt, Aus dem Leben der Antike. Leipzig 1918.
3. Th. Birt, Zur Kulturgeschichte Roms. Leipzig 1911.
3a. Th. Birt, Alexander der Grosse und das Weltgriechentum. Leipzig 1925.
4. H. Böhlig, Die Geisteskultur von Tarsus. Göttingen 1913.
5. W. Bousset, Kyrios Christos, Göttingen 1921.
5a. W. Bousset, Die Religion des Judentums im neutestamentlichen Zeitalter, 1906.
6. Ad., Bonhöffer, Epiktet und das Neue Testament. Giessen 1911.
7. C. Clemen, Paulus. Giessen 1904.
8. Ad. Deissmann, Licht vom Osten, Tübingen 1923.
9. Ad. Deissmann, Paulus. Tübingen 1925.
10. K. Deissner, Paulus und Seneca. Gütersloh 1917.
11. P. Delatte. O.S.B., les Epîtres de St. Paul, 2 V., Tours 1928.
12. Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne (Cabrol). Paris.
13. J. Dillersberger, Der neue Gott, Salzburg 1935.
14. V. Dobschütz, Der Apostel Paulus, Halle 1926.
15. Frz. J. Dölger, Ichtys. V., 2, Münster i. W. 1922.
16. J.V. Döllinger, Christentum und Kirche. Regensburg 1868.
17. St. V. Dunin Borkowski S.J., Die junge Kirche, Hildeshein 1932.
18. Alb. Ehrhard, Urkirche und Frühkatholizismus. Bonn 1935.
19. P. Feine, Der Apostel Paulus, Gütersloh 1927.
20. C. Fourd, St. Paul. 2 V., Paris 1925.
21. L. Friedländer, Darstellungen aus der Sittengeschichte Roms, v V., 10 ed., Leipzig 1921 - 23.
22. Fustel de Coulanges, Der antike Staat. Berlin 1907.
23. J. Geffcken, Aus der Werdezeit des Christentums. Leipzig 1909.
24. H. Grisar S.J., Geschichte Roms und der Päpste, Freiburg i. Br. 1901.
25. Ad. V. Harnack, Marcion. Leipzig 1924.
26. Ad. v. Harnack, Die Missiom und Ausbreitung des Christentums. 4 éd., Leipzig 1924.
27. Ad. Hausrath, Jesus und die meutestamentlichen Schrifsteller. Berlin 1908.
28. A. Juncker, Die Ethik des Apostels Paulus. 2 V., Halle 1904 *xai* 1919.
29. Joh. Leipoldt, Jesus und Paulus. Leipzig 1936.
30. H. Lietzmann, Geschichte der alten Kirche. V. 10. Leipzig 1932.
31. H. Lietzmann, Petrus und Paulus in Rom. Berlin 1927.
32. H.F.B. Mackay, The Adventures of Paul of Tarsus. London 1931.
33. Ed. Meyer, Ursprung u. Anfänge des Christentums. 3 tom., Stuttgart 1921.
34. J. Pickl, Messiaskönig Jesus. München 1934.
35. K. Pieper, Paulus. Münster 1929.
35a. K. Pieper, Urkirche und Staat, Paderborn 1935.
36. Prat S.J., La Théologie de St. Paul. 2 V., Paris 1929.
37. K. Prümm S.J., Der christliche Glaube und die alte heidnische Welt. 2 tom., Leipzig 1935.

38. W. M. Ramsay, St. Paul the Traveller. London 1898.
39. W. M. Ramsay, Cities of St. Paul. London 1922.
40. O. Roller. Das Formular der paulinischen Briefe, Stuttgart 1933.
41. Th. Schermann, Allgemeine Kirchenordnung des 2, Jahrh. Paderborn 1914.
42. Ad. Schlatter, Paulus, der Bote Jesu. Stuttgart 1934.
43. O. Schmitz, Der Freiheitsgedanke bei , Gütersloh 1923.
44. O. Schmitz, Das Lebensgefühl des Paulus. München 1922.
45. O. Schmitz, Aus der Welt eines Gefangenen. Berlin 1934.
46. C. Schneider, Einfuhrung in die neutestamentliche Zeitgeschichte. Leipzig. 1934.
47. J. Schneider, Die Einheit der Kirche. Berlin 1936.
48. J. Schneider, Die Verkündigung des Paulus. Berlin.
49. J. Schneider, Der Kommende Tag. Berlin 1932.
50. L. Schneller, Paulus. Leipzig 1935.
51. P. Smyth, The Story of St. Paul's Life and Letters. London.
52. Alf. Steinmann, Die Welt des Paulus im Zeichen des Verkehrs, Braunsberg 1915.
53. R. Steinmetz, Die zweite römische Gefangenschaft des Apostels Paulus. Leipzig 1897.
54. E. Stemplinger, Die unbekannte Antike. Leipzig 1936.
55. Thomas von Aquin, Kommentar zum Römerbrief. Freiburg i. Br. 1927.
56. Th. van Tichelen, Paulus, der grösste Christusjünger. Steyl 1926.
57. L. Tondelli, Il Pensiero di S. Paolo. Milano 1928.
58. A. Vitti S. J., Vita S. Pauli (lithograp. V., 1 - 3. Roma 1932 - 35).
59. F. J. de Waele, Korinthos (reprints by Pauly - Wissowa). Stuttgart 1934.
60. F.J. de Waele, Uit de Geschiedenis van Korinthos. (Studia Catholica 4th year). 1928.
61. M. Werner, Der Einfluss d. Paul. Theologie im Markusevangelium Giessen 1923.
62. A. Wikenhauser, Die Kirche als der mystische Leib Christi nach dem Apostel Paulus. Münster i. W. 1937.
63. A. Wikenhauser, Die Apostelgeschichte. Regensburg 1938.
64. A. Wikenhausser. Die Christusmystik des heiligen Paulus i. W 1928.
65. H. Windisch, Paulus und Christus. Leipzig 1934.
66. H. Windisch, Paulus und Judentum. Stuttgart, 1935.
67. Auerbacher Bibelumschreibung. Neudietendorf Falkenstein.
68. B. Meistermann, Durch das Heilige Land. München.
69. Baedeker, Konstantinopel und Kleinasien. 1914.
70. Baedeker, Griechenland. 1908.
71. A. Allgeier, Biblische Zeigeschichte, Freiburg 1937.
72. O. Kietzig, Die Bekehrung des Paulus. Leipzig 1932.
73. G. Kittel, Theolog. Wörterbuch z. Neuen Testament. Stuttgart 1933.
74. H. D. Morton, in the Steps of St. Paul. London 1936.
75. E. Norden, Agnistos Theos, Leipzig 1913.
76. Pauly Wissowa, Realenzyklopädie, 1920.
77. K. Prümm. Cgristentum als Neuheitserkebnis, Freiburg 1939.
78. E. Renan, Paulus. Berlin 1936.
79. R. Steiger, Die Dialektik der paulinischen Existenz. Leipzig 1931.
80. Strack-Billerbek, Kommentar zum Meuen Testament.

81. De Waal-Kirsch, Roma Christiana. Regensburg 1925.
82. P. Wendland, Die Hellenistisch-römische Kultur. Tübingen 1912.
83. A. J. Festugière, l'Idéal Religieux des Grecs et l'Evangile, Paris 1932.
84. M.J. Lagrange, L'Orphisme, Paris 1937.

تكرّم حضرة الأستاذ سوتيريوس ج. وأضاف الى المراجع مرجعين جديدين يتعلقان بمراجع القديس بولس الرسول.

a. Paul Lemerle, Philippes et la Macédoine orientale à l'époque chrétienne et byzantine, Paris 1945.
b. Doro Levi, Antioch Mosaic Pavements, Princeton — London 1947, V; 1 - 2.

المحتويات

الصفحة

المقدمة ٨

القسم الأول — حداثة بولس وسنوات الاستعداد

١ — ثقافة بولس الرسول اليونانية ١٩
٢ — ثقافته العبرية في طرسوس ٢٧
٣ — «تحت أقدام غمالائيل» ٣٢
٤ — استفانوس وشاول ٣٦
٥ — المضطهِد ٤٢

القسم الثاني — سنوات النضج والجهود الأولية في البشارة

٦ — الارتداد الكبير ٤٧
٧ — في دمشق ٥٦
٨ — تحت الغمام ٦٠
٩ — في أورشليم، أم الكنائس ٦٩
١٠ — سنوات طرسوس الهادئة ٧٥
١١ — أنطاكية ٨٤

١٢— بولس وبرنابا ٩١
أ) في أنطاكية
ب) رحلته الى أورشليم «لجمع التبرعات».

القسم الثالث— الرحلة التبشيرية الأولى

١٣— في قبرص ٩٩
١٤— في بلاد الغلاطيين ١٠٧
١٥— في انطاكية بسيديا ١١٥
١٦— ايقونيا ١٢٤
١٧— ليسترا ودربيا ١٢٨

القسم الرابع— النضال في سبيل الحرية

١٨— موسى أو المسيح ١٣٨
١٩— «المجمع الرسولي» ١٤٣
٢٠— اليوم المحتوم في أنطاكية ١٤٨
٢١— انفصام عرى الصداقة ١٥٥

القسم الخامس— الرحلة التبشيرية الثانية

٢٢— يا ثيموثاوس ١٥٩
٢٣— لوقا الطبيب الحبيب ١٦٦
٢٤— ليديا، بائعة الارجوان في مدينة فيلبي ١٧٤
٢٥— جارية بها روح عرافة ١٧٩
٢٦— في سجن فيلبي ١٨٣
٢٧— في سالونيك ١٨٩
٢٨— من تسالونيكية الى بيريا ١٩٤
٢٩— «وحدنا في أثينا» ٢٠٠

٣٠— الاله المجهول ٢٠٨
٣١— في آريوس باغوس ٢١٣
٣٢— تأسيس كنيسة كورنتس ٢٢٣
٣٣— «تعال يا رب» (مارن اثا) ٢٣١
٣٤— بدء العهد الجديد ٢٣٩
٣٥— عدو المسيح ٢٥٠
٣٦— بولس وغاليون ٢٥٩

القسم السادس — الرحلة التبشيرية الثالثة

٣٧— رحلة أفسس ٢٦٥
٣٨— ابولوس ٢٧٣
٣٩— «الاهتمام بكلّ الكنائس» ٢٧٩
٤٠— علو الله و«ضعة» الشيطان ٢٨٦
٤١— «انكم دعيتم الى الحرية» ٢٩٣
٤٢— «حكمة العالم وجهالة الصليب» ٣٠٢
٤٣— «تقسيم المواهب» ٣١١
٤٤— «ارتميس الأفسسيّة» ٣٢٤
٤٥— رحيله الى أفسس ٣٣٠
٤٦— الشتاء في كورنتس ٣٣٧
٤٧— الرحلة الأخيرة الى أورشليم ٣٤٨

القسم السابع — أسير المسيح

٤٨— النصيحة الفاشلة ٣٥٤
٤٩— «أنا روماني» ٣٥٨
٥٠— أمام المجمع والرؤيا الليلية ٣٦١

٥١— بولس وفيليكس ٣٦٥
٥٢— «اني أرفع دعواي الى قيصر» ٣٧٣
٥٣— خطر الغرق في البحر ٣٧٩
٥٤— هذه هي رومية ٣٨٧
٥٥— هنا نمت كنيسة رومية ٣٩٣
٥٦— من عالم السجين لأجل المسيح ٣٩٨

القسم الثامن— «كلمة الله لا تُقيَّد»

٥٧— عمل يسوع الوحدوي ٤٠١
٥٨— عمل يسوع التكفيري ٤٠٩
٥٩— اونيسيموس العبد ٤١٦
٦٠— «قفزة الله» ٤٢٤

القسم التاسع— الرحلات والرسائل الأخيرة

٦١— عند مغيب شمس العالم ٤٣٠
٦٢— «عمود الحق وقاعدته» ٤٣٦
٦٣— كنيسة كريت ٤٤١

القسم العاشر— النهاية

٦٤— سجن بولس الثاني في رومية ، العهد. ٤٤٣
٦٥— «الرحيل الى الرب» ٤٤٧
الخاتمة ٤٥١

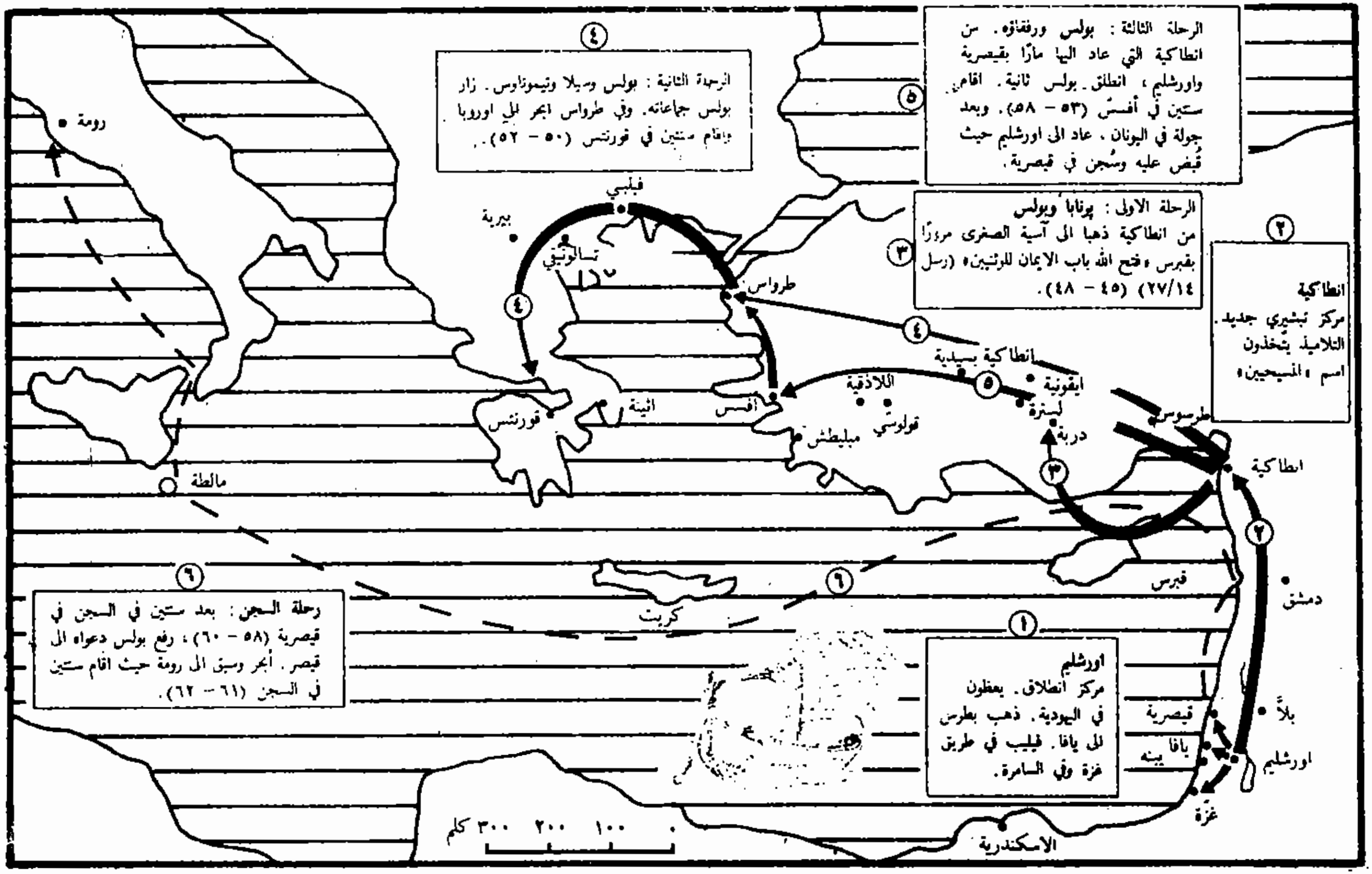
الرحلة الثالثة : بولس ورفقاؤه. من انطاكية التي عاد اليها مارًا بقيصرية واورشليم ، انطلق بولس ثانية. اقام سنتين في أفسس (٥٣ – ٥٨). وبعد جولة في اليونان ، عاد الى اورشليم حيث قبض عليه وسجن في قيصرية.
الرحلة الثانية : بولس وسيلا وتيموثاوس. زار بولس جماعاته. وفي طرواس ابحر الى اوروبا واقام سنتين في قورنتس (٥٠ – ٥٢).
الرحلة الاولى : برنابا وبولس من انطاكية ذهبا الى آسية الصغرى مرورًا بقبرس «فتح الله باب الايمان للوثنيين» (رسل ١٤/٢٧) (٤٥ – ٤٨).
انطاكية
مركز تبشيري جديد. التلاميذ يتخذون اسم «المسيحيين»
رحلة السجن : بعد سنتين في السجن في قيصرية (٥٨ – ٦٠) ، رفع بولس دعواه الى قيصر. أبحر وسيق الى رومة حيث اقام سنتين في السجن (٦١ – ٦٢).
اورشليم
مركز انطلاق. يعظون في اليهودية. ذهب بطرس الى يافا. فيلبس في طريق غزة وفي السامرة.
رومة
بيرية
فيلبي
تسالونيقي
طرواس
قورنتس
اثينة
أفسس
ميليطس
قولوسي
اللاذقية
انطاكية بسيدية
ايقونية
لسترة
دربة
طرسوس
انطاكية
مالطة
قبرس
كريت
دمشق
قيصرية
يافا
يبنه
بلا
اورشليم
غزة
الاسكندرية
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ كلم

مؤسسة خليفة للطباعة
بولفار الدورة - البوشرية
تلفون ٨٣٧٠٨٣٧٢ ٨٩٤